تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد الثالث

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق — عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد إبراهيم — محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية

الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طبعة جديدة
بصف وإخراج جديد

التنفيذ الطباعي
في مطابع دار الخير



للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠



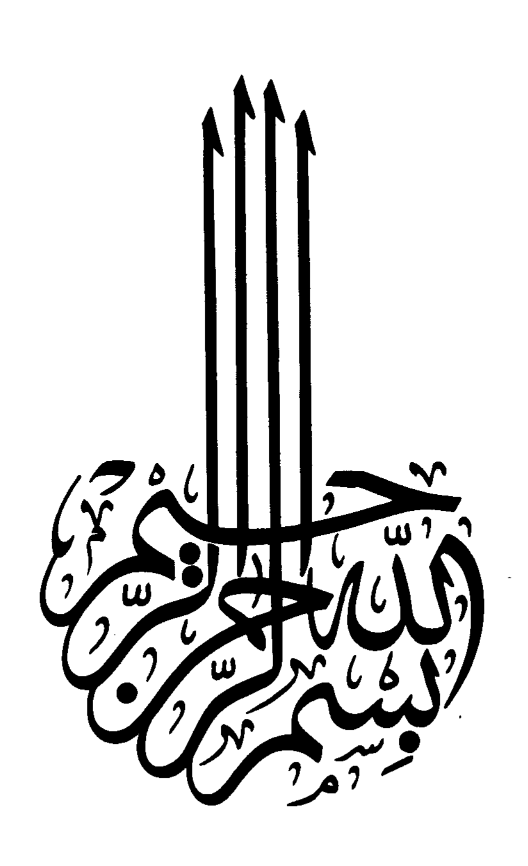
تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾.

﴿ ضَرَبْتُمْ ﴾ معناه: سافرتم، فأَهل الظاهر يرون القصر في كل سفر يخرج عن الحاضرة، وهي من حيث تؤتي الجمعة، وهذا قول ضعيف[١]، واختلف العلماءُ في حد المسافة التي تقصر فيها الصلاة ـ فقال مالك، والشافعي، وأَحمد بن حنبل، وابن راهويه: تقصر الصلاة في أَربعة بُرُد، وذلك ثمانية وأَربعون ميلاً، وحجتهم أَحاديث رويت في ذلك عن ابن عمر، وابن عباس. وقال الحسن، والزهري: تقصر الصلاة في مسيرة يومين، ولم يذكرا أَميالاً، وروي هذا القول عن مالك، وروي عنه أَيضاً: تقصر الصلاة في يوم وليلة، وهذه الأَقوال الثلاثة تتقارب في المعنى. وروي عن ابن عباس، وابن عمر أَن الصلاة تقصر في مسيرة اليوم التام، وقصر ابن عمر في ثلاثين ميلاً، وعن مالك في «العتبية» فيمن خرج إلى ضيعته على مسيرة خمسة وأَربعين ميلاً، قال: يقصر. وعن ابن القاسم في «العتبية»: إن قَصَر في ستة وثلاثين فلا إعادة عليه، وقال يحيى بن عمر: يعيد أَبداً. وقال ابن عبد الحكم: في الوقت، وقال ابن مسعود، وسفيان، والثوري، وأَبو حنيفة، ومحمد بن الحسن: من سافر مسيرة ثلاث قصر، قال أبو حنيفة: ثلاثة أَيام ولياليها سيْر الإبل ومشي الأَقدام، وروي عن أَنس بن مالك أَنه قصر في خمسة عشر ميلاً، قال الأَوزاعي: عامة العلماءِ في القصر في مسيرة اليوم التام، وبه نأْخذ.

واختلف الناس في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فأَجمع الناس على الجهاد، والحج، والعمرة، وما ضارعها من صلة الرحم، وإحياء نفس. واختلف الناس فيما سوى ذلك ـ فالجمهور على جواز القصر في السفر المباح، كالتجارة ونحوها، وروي

---

(١) هذا هو رأي (داود)، وقد استند فيه إلى ما رواه مسلم عن يحيى بن يزيد الهُنائي قال: «سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ (شعْبَةُ الشَّاكُّ) صلى ركعتين، قال القرطبي: وهذا لا حجة فيه، لأنه مشكوك فيه ـ وعلى تقدير أحدهما فلعله حدُّ المسافة التي بدأ منها القصر، وكان سفراً طويلاً زائداً على ذلك» ا هـ.

عن ابن مسعود أَنه قال: لا تقصر الصلاة إِلا في حج أَو جهاد، وقال عطاء: لا تقصر الصلاة إِلا في سفر طاعة وسبيل من سبل الخير، وقد روي عن عطاء أَنها تقصر في كل المباح، والجمهور من العلماء على أَنه لا قصر في سفر المعصية، كالباغي، وقاطع الطريق، وما في معناهما. وروي عن الأَوزاعي وأَبي حنيفة إِباحة القصر في جميع ذلك، وجمهور العلماءِ على أَن المسَافر لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، وحينئذ هو ضارب في الأَرض، وهو قول مالك في «المدونة»: وابن حبيب وجماعة المذهب، قال ابن القاسم في «المدونة»: ولم يجد لنا مالك في القرب حداً. وروي عن مالك: إِذا كانت قرية يجمع أَهلها فلا يقصر حتى يجاوزها بثلاثة أَميال، وإِلى ذلك في الرجوع، وإِن كانت لا يجمع أَهلها قصر إِذا جاوز بساتينها، وروي عن الحارث بن أَبي ربيعة أَنه أَراد سفراً فصلى بهم ركعتين في منزله، وفيهم الأَسود بن يزيد، وغير واحد من أَصحاب ابن مسعود، وبه قال عطاءُ بن أَبي رباح، وسليمان بن موسى. وروي عن مجاهد أَنه قال: لا يقصر المسافر يومه الأَول حتى الليل، وهو شاذ، وقد ثبت «أَن النبي ﷺ صلى الظهر بالمدينة أَربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين»[1]، وليس بينهما ثلث يوم.

ويظهر من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا﴾ أَن القصر مباح، أَو مخير فيه، وقد روى ابن وهب عن مالك أَن المسافر مخير، وقاله الأَبهري، وعليه حذاق المذهب. وقال مالك في «المبسوط»: القصر سُنة. وهذا هو جمهور المذهب، وعليه جواب «المدونة» بالإِعادة في الوقت لمن أَتم في سفره. وقال محمد بن سحنون، وإِسماعيل القاضي: القصر فرض، وبه قال حماد بن أَبي سليمان، وروي نحوه عن عمر بن عبد العزيز. وروي عن ابن عباس أَنه قال: من صلى في السفر أَربعاً فهو كمن صلى في الحضر ركعتين، وحكى ابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه الصلاة والسلام، وقد خاب من افترى، ويؤيد هذا قولُ عائشة رضي الله عنها: «فرضت الصلاة ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر»[2].

---

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك في كتاب: «صلاة المسافرين وقصرها».

(٢) رواه مسلم عن عائشة من طريق: يحيى بن يحيى، ومن طريق أبي الطاهر في: «كتاب صلاة المسافرين وقصرها»، وأخرجه مالك، والبخاري، وعبد بن حميد.



واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿أَن نَقْصُرُوا﴾ ـ فذهب جماعةٌ من العلماءِ إلى أَنه القصر إلى اثنتين من أَربع ، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: سأَل قوم من التجار رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنا نضرب في الأَرض ، فكيف نصلي؟ فأَنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ، ثم انقطع الكلام ، فلما كان بعد ذلك بحولٍ غزا النبي عليه الصلاة والسلام ، فصلى الظهر ، فقال المشركون: لقد أَمكنكم محمد وأَصحابه من ظهورهم ، فهلا شددتم عليهم ، فقال قائل منهم: إن لهم أُخرى في أَثرها ، فأَنزل الله تعالىٰ بين الصلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر صلاة الخوف[1].

وذكر الطبري في سرد هذه المقالة حديث يعلى بن أُمية ، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أَمن الناس ، فقال: عجبت مما عجبتَ منه ، فسأَلت رسول الله ﷺ فقال: صدقةٌ تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته»[2]. قال الطبري: وهذا كله قول حسن ، إلا أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ تؤذن بانقطاع ما بعدها مما قبلها ، فليس يترتب من لفظ الآية إلا أَن القصر مشروط بالخوف. وفي قراءَة أُبي بن كعب: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسقوط ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ، وثبتت في مصحف عثمان رضي الله عنه. وذهبت جماعة أُخرى إلى أَن هذه الآية إنما هي مُبيحةٌ القصر في السفر للخائف من العدو ، فمن كان آمناً فلا قصر له ، وروي عن عائشة رضي الله عنها أَنها كانت تقول في السفر: «أَتِمُّوا صلاتكم» ، فقالوا: إن رسول الله ﷺ كان يقصر ، فقالت: إنه كان في حرب ، وكان يخاف ، وهل أَنتم تخافون؟[3] وقال عطاء: كان يتم الصلاة من أَصحاب رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها ، وسعد بن أَبي وقاص ، وأَتم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولكن علَّل ذلك بِعِلَل غير هذه ، وكذلك علَّل إتمام عائشة رضي الله عنها أَيضاً بغير هذا.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن علي ، (تفسير الطبري ، والدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وغيرهم. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير من طريق عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. (الدر المنثور).

وقال آخرون: القصر المباح في هذه الآية إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة، والركعتان في السفر إنما هي تمام، وقصرها أن تصير ركعة، قال السدي: إذا صليت في السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يحل إلا أن يخاف، فهذه الآية مبيحة أن تصلي كل طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئاً، ويكون للإمام ركعتان، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: ركعتان في السفر تمام غير قصر، إنما القصر في صلاة المخافة، يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيءُ هؤلاءِ إلى مكان هؤلاءِ، وهؤلاءِ إلى مكان هؤلاءِ، فيصلي بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتان، ولهم ركعة ركعة[١]. وقال نحو هذا سعيد بن جبير، وجابر بن عبد الله، وكعب من أصحاب النبي ﷺ، وفعله حذيفة بطبرستان، وقد سأله الأمير سعيد بن العاصي ذلك، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلى كذلك في غزوة ذي قَرَد ركعة بكل طائفة، ولم يقضوا[٢]، وقال مجاهد عن ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة[٣]، وروى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى كذلك بأصحابه يوم حارب خصفة وبني ثعلبة، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ صلى كذلك بين ضجنان وعسفان[٤].

وقال آخرون: هذه الآية مبيحة القصر من حدود الصلاة وهيئتها عند المسايفة واشتعال الحرب، فأُبيح لمن هذه حاله أن يُصلِّي إيماءً برأسه، ويصلي ركعة واحدة حيث توجه، إلى تكبيرتين، إلى تكبيرة، على ما تقدم من أقوال العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، ورجَّحَ الطبري هذا القول، وقال: إنه

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عن سماك الحنفي. (الدر المنثور).

(٢) أخرج الحديث عن ابن عباس ـ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، و«ذي قَرَدَ»: بفتح القاف والراء، وقيل: بضمهما، وقيل: بضم القاف وفتح الراء، قال البلاذري: الصواب الأول.

(٣) رواه مسلم في كتاب: «صلاة المسافرين وقصرها».

(٤) الحديث رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، ورواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة، (راجع تفسير الطبري، ٥ ـ ٢٤٤ ومشكاة المصابيح باب «صلاة الخوف»، والدر المنثور ٢ ـ ٢١٠).

وضجنان كسكران: جبل قرب مكة، وآخر بالبادية كما قال في «القاموس». وعُسفان كعثمان: موضع على مرحلتين من مكة.



يعادله قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وهيئتها الكاملة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقْصُرُوا۟﴾ بفتح التاء وضم الصاد، وروى الضبي عن أصحابه: [تُقْصِروا] بضم التاءِ وكسر الصاد وسكون القاف، وقرأ الزهري: [تُقَصِّروا] بضم التاءِ وفتح القاف وكسر الصاد وشدها.

و﴿يَفْتِنَكُمُ﴾ معناه: يمتحنكم بالحمل عليكم وإشغال نفوسكم في صلاتكم، ونحو هذا قول صاحب الحائط[1]، لقد أصابتني في مالي هذا فتنة، وأصل الفتنة الاختبار بالشدائد، وإلى هذا المعنى ترجع كيف تصَرَّفتْ[2].

وعَدُوّ: وصف يجري على الواحد والجماعة، ومبين: مفعل من أبان. المعنى: قد جلحوا[3] في عداوتكم، وراموكم كل مرام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية، قال جمهور الأُمة: الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يتناول الأُمراء بعده إلى يوم القيامة، وقال أبو يوسف وإسماعيل بن علية: الآية خصوص للنبي ﷺ، لأن الصلاة بإمامة النبي عليه الصلاة والسلام لا عوض عنها، وغيره من الأُمراء منه العوض، فيصلي الناس بإمامين، طائفة بعد طائفة، ولا يحتاج إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكذلك جمهور العلماء على أن صلاة الخوف تُصلى في الحضر إذا نزل الخوف، وقال قوم: لا صلاة خوف في حَضر، وقاله في المذهب: عبد الملك بن الماجشون، وقال الطبري: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، معناه: حدودها وهيئتها، ولم تقصر على ما أُبيح قبلُ في حال المسايفة.

وقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أمرٌ بالانقسام، أَي: وسائرهم وجاه العدوِّ حذراً وتوقع حملته.

---

(١) الحائط: البستان.

(٢) قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنت الرجل، وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون: أفتنت الرجل. وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا: فتنته: جعلت فيه فتنة مثل أكحلته، وأفتنته: جعلته مفتتناً وزعم الأصمعي أنه لا يعرف أفتنته.

(٣) جلح في عداوته: كاشفه بها.



وأَعظم الروايات والأَحاديث أَن صلاة الخوف إِنما نزلت الرخصة فيها في غزوة ذات الرِّقَاع ، وهي غزوة محارب خصفة ، وفي بعض الروايات أَنها نزلت في ناحية عُسْفَان وضَجْنَان ، والعدو: خيل قريش عليها خالد بن الوليد ، واختلف ـ من المأْمور بأَخذ الأَسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المصلية ، وقيل: بل الحارسة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يتناول الكل ، ولكن سلاح المصلِّين ما خف ، واختلفت الآثار في هيئة صلاة النبي ﷺ بأَصحابه صلاة الخوف ، وبحسب ذلك اختلف الفقهاء.

فروى يزيد بن رومان ، عن صالح بن خوَّات ، عن سَهْل بن أَبي حَثْمَة(١) أَنه صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف يوم «ذات الرقاع» ، فَصَفَّت طائفة معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلَّى بالذين معه ركعة ، ثم ثبت قائماً ، وأَتموا ثم انصرفوا فصفُّوا وجاه العدو ، وجاءَتْ الطائفة الأُخرى فصلَّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً ، وأَتموا لأَنفسهم ، ثم سلَّم بهم ، وروى القاسم بن محمد ، عن صالح بن خوات ، عن سهل هذا الحديث بعينه ، إِلا أَنه روى أَن النبي ﷺ حين صلى بالطائفة الأَخيرة ركعة سلَّم ، ثم قضت هي بعد سلامه ، وبهذا الحديث أَخذ مالك رحمه الله في صلاة الخوف ، كان أَولا يميل إِلى رواية يزيد بن رومان ، ثم رجع إِلى رواية القاسم بن محمد بن أَبي بكر(٢).

وروى مجاهد ، وغيره عن أَبي عياش الزُّرَقي واسمه زيدُ بن الصَّامت ـ على خلاف فيه(٣) ـ أَن النبي ﷺ صلَّى صلاة الخوف بعُسْفَان والعدو في قبلته ، قال: فصلى بنا

(١) سهل بن أبي حثمة بسكون الثاء: الأنصاري الأوسي ، كان له سبع سنين أو ثمان سنين عند موت النبي ﷺ ، وقد حدَّث عنه بأحاديث ، وكذلك حدث عن زيد بن ثابت ، وروى عنه ابنه محمد ، وابن أخيه محمد سليمان ، وصالح بن خوت (أو ابن خوَّات) كان أبوه دليل النبي ﷺ إلى أُحد ، وشهد المشاهد كلها إلا بدراً. (الإصابة ٤ ـ ٢٧١ ، ٢٧٢).

(٢) حجة مالك في ذلك أن الإمام ليس له أن ينتظر أحداً سبقه بشيء منها ، وأن السنة المجمع عليها أن يقضي المأمومون ما سُبقوا به بعد سلام الإمام ـ وقال الشافعي: حديث يزيد بن رومان ، عن صالح بن خوَّات هذا أشبه الأحاديث في صلاة الخوف بظاهر كتاب الله ، وبه أقول ، وقال أحمد كقول الشافعي في المختار عنده. (القرطبي ٥ ـ ٣٦٦).

(٣) قيل: زيد بن الصامت ، وقيل: زيد بن النعمان الزُّرَقيُّ ، مشهور بكنيته. (الإصابة ٤ ـ ٥٨).

النبي ﷺ الظُّهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أَصبنا غِرَّتهم، فقالوا: تأْتي الآن عليهم صلاة هي أَحبُّ إِليهم من أَبنائهم وأَنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه الآيات، وأَخبرهم خبرهم، ثم قام رسول الله ﷺ فصف العسكر خلفه صفين، ثم كبر فكبروا جميعاً، ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا سجد الآخرون في مكانهم، ثم تقدموا إِلى مصاف المتقدمين، وتأَخر المتقدمون إِلى مصاف المتأَخرين، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ فسجد الصف الذي يليه، فلما رفع سجد الآخرون، ثم سلم فسلموا جميعاً، ثم انصرفوا، قال عبد الرزاق بن همام[(١)] في مصنفه: وروى الثوري عن هشام مثل هذا، إِلا أَنه قال: ينكُصُ الصف المتقدم القهقرى حين يرفعون رؤُوسهم من السجود، ويتقدم الآخرون فيسجدون في مصاف الأَولين، قال عبد الرزاق، عن معمر، عن خلاد بن عبد الرحمن، عن مجاهد، قال: لم يصل النبي ﷺ صلاة الخوف إِلا مرتين، مرَّة بذات الرقاع من أَرض بني سليم، ومرة بعُسْفان والمشركون بِضَجْنَان بينهم وبين القبلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر اختلاف الروايات عن النبي ﷺ يقتضي أَنه صلى صلاة الخوف في غير هذين الموطنين. وذكر ابن عباس أَنه كان في غزوة ذي قَرَد صلاة خوف[(٢)].

وروى عبد الله بن عمر أَن النبي ﷺ صلى بإِحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأُخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أَصحابهم مقبلين على العدو.

---

(١) عبد الرزاق بن همَّام بن نافع الحميري، أبو بكر الصنعاني: من حفاظ الحديث الثقات، من أهل الصنعاء، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث، له «الجامع الكبير» في الحديث، قال الذهبي: وهو خزانة علم - توفى سنة ٢١١ هـ - ٨٢٧ م -. (تهذيب التهذيب وابن خلكان، وطبقات الحنابلة).

(٢) اختلف العلماء في هيئة صلاة الخوف لاختلافها. ذكر ابن القَصَّار أنه ﷺ صلاها في عشرة مواضع، وقال ابن العربي: روي عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة، وقال الإمام أحمد بن حنبل، وهو إمام أهل الحديث، والمقدم في معرفة علل النقل فيه: لا أعلم أنه رُوي في صلاة الخوف إلا حديثٌ ثابت، وهي كلها صحاح ثابتة، فعلى أي حديث صلى منها المصلي صلاة الخوف أجزأه إن شاء الله، وكذلك قال أبو جعفر الطبري، (عن القرطبي ٣ - ٣٦٥).

وجاءَ أُولٰئك فصلىٰ بهم النبي ﷺ ركعة ، ثم سلَّم ، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاءِ ركعة في حين واحد ، وبهذه الصفة في صلاة الخوف أَخذ أَشهب رحمه الله ، ومشى على الأَصل في أَلا يقضي أَحد قبل زوال حكم الإمام ، فكذلك لا يبني ، ذكر هذا عن أَشهب جماعة عنه منهم: ابن عبد البر ، وابن يونس ، وغيرهما. وحكى اللخمي عنه أَن مذهبه أَن يُصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم ينصرفون تجاه العدو. وتأْتي الأُخرى فيصلي بهم ركعة ، ثم يسلِّم ، وتقوم التي معه تقضي فإِذا فرغوا منه صاروا تجاه العدو ، وقضت الأُخرى ، وهذه سنة رُوِيت عن ابن مسعود ، ورجَّح ابن عبد البر القول بما روي عن ابن عمر ، وروى أَن سهل بن أَبي حَثْمة قد روى عنه مثل ما روى عن ابن عمر سواء ، وروى حذيفة حين حكى صلاة النبي عليه الصلاة والسلام في الخوف أَنه صلى بكل طائفة ركعة ، ولم يقض أَحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة ، وذكر ابن عبد البر ، وغيره ، عن جابر بن عبد الله أَن النبي ﷺ صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ بكل طائفة ركعتين ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ أَربع ، ولكل رجل ركعتان ، وبهذه كان يُفتي الحسن بن أَبي الحسن ، وهو قول يجيزه كلُّ من أَجاز اختلاف نية الإمام والمأْموم في الصلاة.

وقال أَصحاب الرأْي: إِذا كانت صلاة المغرب افتتح الإمام الصلاة ومعه طائفة ، وطائفة بإِزاء العدو ، فيصلي بالتي معه ركعتين ، ثم يصيرون إِلى إِزاء العدو ، وتأْتي الأُخرى فيدخلون مع الإمام ، فيصلي بهم ركعة ، ثم يسلم وحده ، ثم يقومون إِلى إِزاء العدو ، وتأْتي الطائفة التي صلَّت مع الإِمام الركعتين إِلى مقامهم الأَول في الصلاة ، فيقضون ركعة وسجدتين وحدانا ويسلمون ، ثم يجيئون إِلى إِزاءِ العدو ، وتنصرف الطائفة الأُخرى إِلى مقام الصلاة ، فيقضون ركعتين بقراءَة وحداناً ويسلمون ، وكملت صلاتهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا طرد قول أَصحاب الرأْي في سائر الصلوات.

وسأَل مروان بن الحكم أَبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أَبو هريرة: نعم ، قال مروان: متى؟ قال أَبو هريرة: عام غزوة نجد ، قام رسول الله ﷺ إِلى صلاة العصر ، فقامت معه طائفة ، وطائفة أُخرى مقابل العدو



وظهورهم إلى القبلة، فكبر رسول الله ﷺ، وكبروا جميعاً، الذين معه والذين بإزاءِ العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ، وركع معه الذين معه، وسجدوا كذلك، ثم قام رسول الله ﷺ، فصارت الطائفة التي كانت معه إلى إزاءِ العدو، وأَقبلت الطائفة التي كانت بإزاءِ العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أُخرى، وركعوا معه، وسجد فسجدوا معه، ثم أَقبلت الطائفة التي كانت بإزاءِ العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قاعد، ثم كان السلام فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً.

وأَسند أَبو داود في مصنفه عن عائشة رضي الله عنها صفة في صلاة النبي ﷺ صلاة الخوف تقرب مما روي عن أَبي هريرة، وتخالفها في أَشياء، إِلا أَنها صفة في أَلفاظها تداعٍ وتناقضٌ، فلذلك اختصرتها.

ومجموع ما ذكرنا في صلاة الخوف من لدن قول أَبي يوسف، وابن علية أَحد عشر قولاً مع صلاة الخوف لكونها خاصة للنبي ﷺ، وعشر صفات على القول الشهير بأَنها باقية للأُمراءِ.

قوله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

الضمير في: ﴿سَجَدُواْ﴾ للطائفة المصلية، والمعنى: فإِذا سجدوا معك الركعة الأُولى فلينصرفوا، هذا على بعض الهيئات المروية، وقيل: المعنى: فإِذا سجدوا ركعة القضاءِ، وهذا على هيئة سهل بن أَبي حَثْمَة.

والضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ يحتمل أَن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أَن يكون للطائفة القائمة أَولا بإزاء العدو، ويجيءُ الكلام وصاةً في حال الحذر والحرب.

وقرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: [فَلِتَقُم] بكسر اللام، وقرأَ الجمهور: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾ بالتاءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [ولْيَأْتِ] بالياءِ.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية إخبار عن معتقد القوم، وتحذير من الغفلة، لئلا ينال العدو أمله، وأَسْلِحة: جمع سلاح. وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ بناءُ مبالغة، أَي: مستأصلة لا يحتاج معها إِلى ثانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ترخيص، قال ابن عباس: نزلت بسبب عبد الرحمن بن عوف، كان مريضاً فوضع سلاحه فعنفه الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأَنهم تلقوا الأَمر بأَخذ السلاح على الوجوب، فرخص الله تعالىٰ في هاتين الحالتين، وينقاس عليهما كل عذر يحدث في ذلك الوقت.

ثم قوى الله نفوس المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

قوله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ذهب جمهور العلماء إلى أَن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف، على حد ما أُمروا عند قضاءِ المناسك بذكر الله(١)، فهو ذكر باللسان.

وذهب قوم إِلى أَن ﴿قَضَيْتُمُ﴾ بمعنى: فعلتم، أَي: إذا تَلَبَّسْتُم بالصلاة فلتكن على هذه الهيئات بحسب الضرورات: المرض وغيره، وبحسب هذه الآية رتَّب ابن المواز صلاة المريض فقال: يُصلِّي قاعداً، فإِن لم يُطق فعلى جنبه الأَيمن، فإِن لم يُطق فعلى الأَيسر، فإِن لم يُطق فعلى الظهر. ومذهب مالك في «المدونة» التخيير، لأَنه قال: فعلى جنبه أَو ظهره، وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم أَنه قال: يبتدئ بالظهر ثم بالجنب، قال ابن حبيب: وهو وهمٌ، قال اللخمي: وليس بوهمٍ، بل هو أَحكم في استخدام القبلة. وقال سحنون: يصلي على جنبه الأَيمن كما يجعل في قبره، فإِن لم يقدر فعلى ظهره.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].



والطمأنينة في الآية: سكون النفس من الخوف، وقال بعض المتأولين: المعنى: فإذا رجعتم من سفركم إلى الحضر فأَقيموها تامة أَربعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ معناه: منجَّماً في أَوقات، هذا ظاهر اللفظ، وروي عن ابن عباس: أَن المعنى: فرضاً مفروضاً، فهما لفظان بمعنى واحد، كُرِّر مبالغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يُبَيِّن أَن القضاء المشار إِليه قبل إِنما هو قضاء صلاة الخوف، و﴿تَهِنُوا۟﴾ معناه: تلينوا وتضعفوا، حبل واهن: أَي ضعيف، ومنه: وهن العظم، و﴿ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾: طلبهم.

وقرأَ عبد الرحمن الأَعرج: [أَنْ تكونوا] بفتح الأَلف، وقرأَ يحيى بن وثاب، ومنصور بن المعتمر: [تِئْلَمُون][1] في الثلاثة، وهي لغة، وهذا تشجيع لنفوس المؤمنين، وتحقير لأَمر الكفرة، ومن نحو هذا المعنى قول الشاعر:

القومُ أَمثالُكُم لهُم شعرٌ ... في الرأْس لا يُنْشَرون إِنْ قُتلوا[2]

ثم تأَكد التشجيع بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. وهذا برهان بيِّن، ينبغي بحسبه أَن تقوى نفوس المؤمنين. وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ، وتفويض إِليه، وتقويم أَيضاً على الجادة في الحكم، وتأْنيبٌ مَّا على قبول ما رفع إِليه في أَمر بني أَبيرق بسرعة.

---

(١) أي: بكسر التاءِ.

(٢) البيت للشداخ بن يعمر الكناني. وقبله ـ كما رواه في (البحر المحيط):

قــاتلــوا القــوم بــأخــداع ولا ... يــأْخُــذْكُــمُ مِــنْ قتــالهــمْ فَتَــل

وروي:

وقــاتلــي القــومَ يــا خُــزاعُ ولا ... يــدْخُلكُــم مِــنْ قتــالهــمْ فَشَــل

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ معناه: على قوانين الشرع، إما بوحي ونصٍّ، أو بنظر جار على سنن الوحي، وقد تضمن الله تعالىٰ لأنبيائه العصمة، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سببها باتفاق من المتأولين أَمر بني أُبيرق، وكانوا إِخوة: بِشْر، وبُشَيْر، ومُبَشر، وكان بُشير رجلاً منافقاً يهجو أَصحاب النبي ﷺ، وينحل الشعر غيره، فكان المسلمون يقولون: والله ما هو إلا شعر الخبيث، فقال شعراً يتنصَّل فيه، فمنه قوله:

أَفكُلَّمَــا قَــالَ الــرِّجَــالُ قَصِيــدَةً ... نُحِلَتْ وقالُوا ابْن الأُبيْرق قالها؟

قال قتادة بن النعمان: وكان بنو أُبيرق أَهل فاقة، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من دَرْمَك الشام[١]، فجعله في مشْرُبة[٢] له، وفي المشْرُبة درعان له وسيفان، فعدي على المشربة من الليل، فنقبت وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أَصبح أَتاني عمي رفاعة فقال: يا بن أَخي، تعلم أَنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشرُبتنا، وذهب بطعامنا وسلاحنا، فقال: فَتَحَسَّسْنَا في الدار وسأَلنا، فقيل لنا. قد رأَينا بني أُبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نراه إلا على بعض طعامكم، قال: وقد كان بنو أُبيرق قالوا ـ ونحن نسأَل ـ: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإِسلام، فسمع ذلك لبيد، فاخترط سيفه[٣]، ثم أَتى بني أُبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أَو لَتُبَيِّنُن هذه السرقة، قالوا: إِليك عنا أَيها الرجل، فوالله ما أَنت بصاحبها[٤]، فسأَلنا في الدار حتى لم نشك أَنهم أَصحابها، فقال لي عمي: يا بن أَخي، لو أَتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بهذه القصة، فأَتيته عليه الصلاة والسلام فقصصتُها عليه، فقال: أَنظر في ذلك، فلما سمع بذلك بنو أُبيرق أَتوا رجلاً منهم يقال له: أَسير بن عروة[٥] فكلموه في ذلك، واجتمع إِليه ناس من أَهل الدار، فأَتوا

---

(١) الدَّرْمَك: الدقيق الناعم. وهو هنا يقصد نوعاً معيناً يأتي من الشام.

(٢) المشْرَبة: المكان يشرب منه، وهو بفتح الراءِ وضمها، والجمع: مشارب.

(٣) اخترط سيفه: استَلَّه من غمده.

(٤) أَي: بصاحب الحادثة، أو السرقة.

(٥) قال القرطبي في تفسيره: ابن عم لهم. يعني لبني أُبيرق. وكان أَسيرُ هذا مسلماً، ومنذ ذلك الوقت اتهم بالنفاق، قال ابن إِسحق: وفيه نزلت: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾. (عن الاستيعاب: ١ ـ ١٠٠).

رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أَهل بيت منا أَهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة عن غير بينة، قال قتادة: فأَتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أَهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح فرميتهم بالسرقة عن غير بينة، قال: فرجعت وقد وددت أَن أَخرج عن بعض مالي، ولم أُكلمه، فأَتيت عمي فقال: ما صنعت؟ فأَخبرته بما قال رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان، فلم نلبث أَن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات، فالخائنون: بنو أُبيرق، والبريءُ المرمي: لبيد بن سهل، والطائفة التي همتْ: أسير وأَصحابه.

وقال قتادة، وغير واحد من المتأولين هذه القصة إنما كان صاحبها طعمة بن أُبيرق، ويقال فيه طُعَيْمَة، وقال السدي: القصة في طعمة بن أُبيرق ولكن بأَن استودعه يهودي درعاً. فجحده إياها، وخانه فيها، وطرحها في دار أَبي مُلَيْك الأَنصاري[1]، وأَراد أَن يرميه بسرقتها لما افتضح، وأَبو مُليك هو البريءُ المشار إليه، وقال عكرمة: سرق طعمة بن أُبيرق درعاً من مشرَبة، ورمى بسرقتها رجلاً من اليهود يقال له: زيد بن السمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا يستدير على أن قوم طعمة أَتوا النبي ﷺ وكلموه في أَن يذب عن طعمة، ويرفع الدعوة عنه، ودفعوا هم عنه، ومنهم من يعلم أَنه سرق، فكانت هذه معصية من مُؤْمنهم، وخلق[2] مقصود من منافقيهم، فعصم الله رسوله من ذلك، ونبَّه على مقالة قتادة بن النعمان بقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

(١) قال في الإصابة (١٢ ـ ٢٨): أبو مليك هو: سُلَيك بن الأغر، مذكور في الصحابة، كذا ذكره ابن عبد البر مختصراً، وأنا أخشى أن يكون هو الذي بعده وقع فيه تصحيف وتحريف» والذي بعده هو: أبو مُلَيْل ـ بلامَيْن ـ الأنصاري، ذكره ابن إسحاق وغيره فيمن شهد بدراً، وقال ابن فتحون: إنهما واحد. ١ هـ، والثابت في الأصول: أبو مُلَيك. وفي بعضها: أبو مُلَيْكَة. وكذلك هو في (البحر المحيط).

(٢) هكذا في الأصول، والصواب أن تكون: (وخلقاً)، لأنها معطوفة على: (معصية) خبر (كان)، اللهم إلا إذا قدرناها خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وهي خلق، ومعناها: اختلاق وافتراء، أو لعلها من سهو النساخ، والله أعلم.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وطُعمة بن أُبيرق صرح بعد ذلك بالارتداد، وهرب إلى مكة ونزل على سلافة(١)، فرماها حسَّان بن ثابت بشعر، فأخذت رحل طعمة ورمت به في الأبطح، وقالت: اخرج عنا، أهديت إليَّ شعر حسان، فروي أنه نزل على الحجاج بن علاط وسرقه فطرده، وروي أنه نقب حائط بيْت ليسرقه فانهدم الحائط عليه فقتله، وروي أنه اتبع قوماً من العرب فسرقهم فقتلوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ذهب الطبري إلى أن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بذنب، لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أُمتك، والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدُّك، ومحلك من الناس أن تسمع من المتداعيين، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لفظ عام يندرج طيه أصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ رفقٌ وإبقاءٌ، فإن الخوان هوالذي تتكرر منه الخيانة، والأثيم هوالذي يقصدها، فيخرج من هذا التشديد الساقط مرةً واحدة، ونحو ذلك مما يجيءُ من الخيانة من غير قصد أو على غفلة، واختيان الأنفس هو بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة.

(١) اسمها: سلافة (بضم السين) بنت سعد بن شهيد، ومن شعر حسان فيها قوله:

وقَد أَنْزَلَتْه بنتُ سعْد وأَصْبَحَتْ ... ينازعُها جلْد اسْتِها وتنازعُه
ظَنَنْتُم بأَن يخفى الَّذي قد صَنَعْتُمُ ... وفينا نبيٌّ عنْدَهُ الوحْيُ واضِعُه

(٢) وقيل: هو أمر بالاستغفار على طريق التسبيح، كالرجل يقول: أستغفر الله على طريق التسبيح دون أن يقصد توبة من ذنب.

قوله تعالىٰ:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

الضمير في: ﴿ يَسْتَخْفُونَ ﴾ للصنف المرتكب للمعاصي مستترين بذلك عن الناس، مباهتين لهم، واندرج في طيِّ هذا العموم ودخل تحت هذه الأنحاءِ أهل الخيانة في النازلة المذكورة، وأَهل التعصب لهم والتدبير في خدع النبي ﷺ والتَّلْبيس عليه. ويحتمل أَن يكون الضمير لأَهل النازلة، ويدخل في معنى هذا التوبيخ كلُّ من فعل نحو فعلهم.

ومعنى ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ بالإِحاطة والعلم والقدرة، و﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ليلاً، انطلقت العبارة على كل استسرار بهذا، إِذ الليل مظِنَّةُ الاستتار والاختفاءِ. قال الطبري: وزعم بعض الطائيين أَن التَّبْييتَ في لغتهم: التبدُّل، وأَنشد للأَسود بن عامر بن حوين الطائي:

وبَيَّتَ قَوْلِيَ عنْدَ المليـ ـكِ قَاتَلَكَ اللهُ عَبْداً كنودا

وقال أَبو زيد: ﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ معناه: يؤلفون، ويحتمل أَن تكون اللفظة مأْخوذة من البيت، أَي: يستسرون في تدبيرهم بالجدران.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ قد تقدمت وجوه القراءَات فيه في سورة آل عمران، والخطاب بهذه الآية للقوم الذين يتعصبون لأَهل الريب والمعاصي، ويندرج طي هذا العموم أَهل النازلة، ويحتمل أَن يكون الخطاب لأَهل التعصب في هذه النازلة، وهو الأَظهر عندي بحكم التأْكد بـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ وهي إِشارة إِلى حاضرين ـ وقد تقدم إِعراب مثل هذه الآية في سورة آل عمران.

والمجادلة: المدافعة بالقول، وهي من فَتْل الكلام وليِّه، إِذ الجدل: الفَتل[1]،

(١) ومنه: رجل مجدول الخَلْق بمعنى: لطيف محكم الفتل ـ وقيل: المجادلة من الجدالة، وهي وجه الأرض، فكل واحد من الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها، قال العجاج: =



وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ وعيد محض ، أي أن الله يعلم حقيقة الأمر ، فلا يمكن أن يلبس عليه بجدالٍ ولا بغيره ، كما فعلتم بالنبي ﷺ ، إذ هو بشر يقضي على نحو ما يسمع.

ولما تمكن هذا الوعيد ، وقضت العقول بألا مجادل لله ، ولا وكيل يقوم بأُمور العصاة عنده ـ عقب ذلك هذا الرجاء العظيم ، والمهل المنفسخ بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا ﴾ الآية ، قوله: ﴿ أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ منحى من عمل السوءِ وهما بمعنى واحد يكرر باختلاف لفظٍ مبالغةً ، واستغفارُ الله تعالىٰ مع التحقيق في ذلك توبةٌ.

وقوله: ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ ﴾ استعارة ، لما كانت الرحمة والغفران مُعَدة للمستغفرين التائبين كانوا كالواجدين لمطلوب ، وكأن التوبة ورود على رحمة الله ، وقربٌ من الله ، وقال عبد الله بن مسعود يوماً في مجلسه: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم ذنباً أَصبح وقد كتبت كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أَصاب البول شيئاً من ثيابه قرضه بالمقراض ، فقال رجل من القوم: لقد أَتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم ، جعل لكم الماءَ طهوراً ، وقال: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ الآية ، وهذه آية وعد بشرط المشيئة على ما تقتضيه عقيدة أَهل السنة ، وفضل الله مرجو ، وهو المستعان[1].

= قـد أركـبُ الحـالَـةَ بعْـد الحـالَـة وأتْــركُ العــاجــزَ بــالجــدَالــة
مُنْعَفِــراً لَيْــسَ لَــهُ محــالَــة

فالجدالة: الأرض ، ومن ذلك قولهم: تركته مجدَّلاً ، أي: مطروحاً على الجدالة.

(١) قال الضحاك: نزلت الآية في وحشي قاتل حمزة ، أشرك بالله وقتل حمزة ، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: إني لنادم ، فهل لي من توبة؟ فنزل: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ الآية ، وقيل: المراد بهذه الآية العموم والشمول لجميع الخلق ، وروى سفيان عن أبي إسحاق عن الأسود وعلقمة قالا: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ ، ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله به ما شاء ، وإذا سمعته من غيره خالفته ، وحدثني أبو بكر ، وصدق أبو بكر رضي الله عنه: ما من عَبْدٍ يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾». (راجع القرطبي).

قوله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

تقدم القول في معنى الكسب، والإثم: الحكم اللاحق على المعصية، ونسبة المرءِ إلى العقوبة فيها، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي: إياها يُردي، وبها يُحل المكروه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ ذهب بعض الناس إلى أنهما لفظان بمعنى، كرر لاختلاف اللفظ، وقال الطبري: إنما فرق بين الخطيئة والإثم أَن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد. وهذه الآية لفظها عام، ويندرج تحت ذلك العموم ويتجه أَهل النازلة المذكورة، وبريءُ النازلة ـ قيل: هو لبيد بن سهل، وقيل: هو زيد بن السمين اليهودي، وقيل أَبو مليك الأَنصاري. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ ﴾ تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر، فهي كالمحمولات. و﴿ بُهْتَٰنًا ﴾ معناه: كذباً على البريء، ومنه قول النبي ﷺ: «إذا قلت في أَخيك ما فيه مما يكره سماعه فقد اغتبته، فإن قلت ما ليس فيه فقد بَهَتَّه»(١). فَرَمْيُ البريءِ بهْتٌ له، ونفس الخطيئة والإثم إثمٌ مبين، ومعصية هذا الرمي معصيتان.

ثم وقف الله تعالىٰ نبيه على هذا، وعصمتِه له، وأَنها بفضل من الله ورحمة، وقوله: ﴿ لَهَمَّت ﴾ معناه: لجعلته همَّها وشغلها حتى تنفذه(٢)، وهذا يدل على أَن الأَلفاظ عامة في غير أَهل النازلة، وإلا فأَهل التعصب لبني أُبيرق قد وقع همهم وثبت، وإنما المعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك، ويَجْعَلُه هَمَّ نفسه، أَي: كما فعل هؤلاءِ، لكن العصمة تبطل كيْد الجميع فيبقى الضلال في حيِّزهم.

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة، قال في «الترغيب والترهيب»: روي من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة.

(٢) في بعض الأصول: «حتى تبعده»، فتأمل، وقد نقله في (البحر) عن ابن عطية بلفظ: «حتى تنفذه».

ثم ضَمَّن وعْد الله له أَنهم لا يضرونه شيئاً ، وقرر عليه نعمه ، من إنزال الكتاب المتْلُوّ ، والحكمة التي بعضها خوطب به ، وبعضها جعلت له سجيةً مَلَكها ، وقريحة يعمل عنها ، وينظر بين الناس بها ، لا ينطق عن الهوى ، وبهذين علَّمه ما لم يكن يعلم ، وباقي الآية بيِّن.

قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

الضمير في ﴿ نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ عائد على الناس أَجمع وجاءَت هذه الآيات عامة التناول ، وفي عمومها يندرج أَصحاب النازلة ، وهذا من الفصاحة والإيجاز المضمن الماضي والمغاير في عبارة واحدة.

والنجوى: المسارة ، مصدر ، وقد تسمى به الجماعة ، كما يقال: قوم عدلٌ ورضاً[1] ، وتحتمل اللفظة في هذه الآية أَن تكون الجماعة ، وأَن تكون المصدر نفسه ، فإن قدرناها الجماعة فالاستثناءُ متصل ، كأَنه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارة إلا مَنْ. وإن قدرنا اللفظة المصدر نفسه فكأَنه قال: لا خير في كثير من تناجيهم ، فالاستثناءُ منقطع بحكم اللفظ ، ويقدر اتصاله على حذف مضاف. كأَنه قال: إلا نجوى مَنْ. قال بعض المفسرين: النجوى: كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سراً أَو جهراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

انفراد الجماعة من الاستسرار ، والغرض المقصود أَن النجوى ليست بمقصورة على الهمس في الأُذن ونحوه.

---

(١) تقول: ناجيت فلاناً مناجاة ونجاء ، ونجوت فلاناً أَنجوه نجوا: ناجيته ، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه ، أي: خلَّصته وأفردته ، والنجوة من الأرض: المرتفع ، لانفراده بارتفاعه عما حوله ، قال الشاعر أوس بن حجر:

فَمَـنْ بِنَجْـوَتِـهِ كَمَـنْ بِعَقْـوَتِـهِ وَالمُسْتَكِـنُّ كَمَـنْ يَمْشِـي بِقِـرْواحِ

والعقوة: الساحة وما حول الدار ، والقرواح: البارز الذي لا يستره من السماء شيء.

والمعروف: لفظ يعم الصدقة والإصلاح، ولكن خُصَّا بالذكر اهتماماً بهما، إذ هما عظيما الغَناءِ في مصالح العباد، ثم وعد الله تعالىٰ بالأَجر العظيم على فعل هذه الخيرات بنيَّةٍ وقصدٍ لرضا الله تعالىٰ. و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ نصب على المصدر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة [يُؤْتيه] بالياءِ، والقراءَتان حسنتان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية. لفظ عام نزل بسبب طعمة بن أُبيرق، لأَنه ارْتَدَّ وسارَ إِلى مكة، فاندرج الإِنحاءُ عليه في طيِّ هذا العموم المتناول لمن اتصف بهذه الصفات إِلى يوم القيامة. وقوله: ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ وعيد بأَن يُترك مع فاسد اختياره في تولي الطاغوت، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [يُوَلِّه] [ويُصْلِهِ] بالياءِ فيهما.

ثم أَوجب تعالىٰ أَنه لا يغفر أَن يُشرك به، وقد مضى تفسير مثل هذه الآية وما يتصل بها من المعتقد. والبعد في صفة الضَّلال مُقتضٍ بُعد الرجوعِ إِلى المحجةِ البيضاءِ وتعذُّره[1] وإِن بقي غير مستحيل.

قوله تعالىٰ:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ عائد على من تقدم ذكره من الكفرة في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، و﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)، و﴿يَدْعُونَ﴾ عبارة مغنية موجزة في معنى: يعبدون، ويتخذون آلهة. وقرأَ أَبو رجاءٍ العطاردي: [إِن تَدْعون] بالتاءِ، فقال أَبو مالك، والسدي، وغيرهما: ذلك لأَن العرب كانت تسمي أَصنامها بأَسماءِ مؤَنَّثة، كاللات، والعزى، ومناة، ونائلة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويردُّ على هذا أَنها كانت تسمى بأَسماءِ مذكرة كثيرة، وقال الضحاك وغيره: المراد: ما كانت العرب تعتقده من تأْنيث الملائكة وعبادتهم إِياها، فقيل لهم هذا على

(١) في بعض النسخ: وتقديره.



جهة إقامة الحجة من فاسد قولهم. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: المراد: الخشب والحجارة وهي مؤنثات لا تعقل، فيخبر عنها كما يخبر عن المؤنث من الأَشياءِ، فيجيءُ قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ عبارة عن الجمادات، وقيل: إنما هذا لأَن العرب كانت تسمي الصنم أُنثى فتقول: أُنثى بني فلان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على اختلافه يقضي بتعييرهم بالتأْنيث، وأَن التأْنيث نقص وخساسة بالإِضافة إلى التذكير. وقيل: معنى ﴿إِنَٰثًا﴾: أَوثاناً. وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: [إِنْ يدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَوْثَاناً]، وقرأَ ابن عباس فيما روى عنه أَبو صالح: [إِلا أَنَثا] يريد: وثناً، فأَبدل الهمزة واواً. وهو جمع جمع على ما حكى بعض الناس، كأَنه جمع وثَناً على وِثان، كَجَمَلٍ وجِمال، ثم جمع وِثَاناً على وُثُن، كرِهَانٍ ورُهُن، وَكمِثَال ومُثُل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ، لأَن فِعالاً في جمع فَعَل إنما هو للتكثير، والجمع الذي هو للتكثير لا يُجمع، إنما تُجمع جموع التقليل، والصواب أَن تقول: وُثُنٌ جمع وَثَن دون واسطة كأُسُد وأَسَد، قال أَبو عمرو: وبهذا قرأَ ابن عمر، وسعيد بن المسيب، ومسلم بن جندب، وعطاء. وروي عن ابن عباس أَنه قرأَ: [إِلاَّ وَثَناً] بفتح الواو والثاء على إفراد اسم الجنس، وقرأَ ابن عباس أَيضاً: [وُثُناً] بضم الواو والثاء، وقرأت فرقة: [إلا وَثْناً]، وقرأت فرقة: [إلا أُثْنا] بسكون الثاءِ، وقرأَ النبي ﷺ: [إِلاَّ أُنُثاً] بتقديم النُّون، وهو جمع أَنيث، كغدير وغُدُر ونحو ذلك، وحكى الطبري أَنه جمع إِناث، وكثِمَارٍ وثُمر. وحكى هذه القراءَة عن النبي ﷺ أَبو عمر الداني، قال: وقرأَ بها ابن عباس، وأَبو حيوة، والحسن.

واختلف في المعني بالشيطان ـ فقالت فرقة: هو الشيطان المقترن بكل صنم، فكأَنه موحَّد باللفظ جمْع بالمعنى، لأَن الواحد يدل على الجنس. وقال الجمهور: المراد: إِبليس، وهذا هو الصواب، لأَن سائر المقالة به تليق، و﴿مَّرِيدًا﴾ معناه: عاتياً صليباً في غوايته، وهو فعيل من: مَرَدَ إذا عَتَا وغَلا في انحرافه وتجرد للشر والغواية.

وأَصل اللَّعْن: الإبعاد، وهو في العرف: إبعادٌ مقترنٌ بسخط وغضب، ويحتمل أَن يكون ﴿ لَّعَنَهُ﴾ صفة الشيطان، ويحتمل أَن يكون خبراً عنه، والمعنى يتقارب على الوجهين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ الآية، التقدير: وقال الشيطان، والمعنى: لأَستخْلِصنَّهم لغوايتي، ولأَخُصَّنَّهم بإِضلالي، وهم الكفرة والعُصاة.

والمفروض: معناه ـ في هذا الموضع ـ: المنحاز، وهو مأْخوذ من الفرض، وهو الحزُّ في العود وغيره، ويحتمل أَن يريد: واجباً أَن أَتَّخذه، وبعث النار: هو نصيب إبليس[(١)].

قوله تعالىٰ:

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ معناه: أَصرفهم عن طريق الهدى، و﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: لأُسَوِّلَنَّ لَهُم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا ينحصر إِلى نوع واحد من الأُمنية، لأَن كل واحد في نفسه إنما تمنيه بقدر نسبته وقرائن حاله، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يقول لمن يركب ولا يذكر الله: تغن، فإِن لم يحسن قال له: تمن»[(٢)]. واللامات كلها للقسم.

---

(١) قال القرطبي: «وهذا صحيح معنىً، يَعْضُده قوله تعالىٰ لآدم يوم القيامة: (ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) أخرجه مسلم، وبعث النار: هونصيب الشيطان، والله أعلم» اهـ. وعبارة ابن عطية هنا تشير إلى هذا الحديث الذي نقله القرطبي عن مسلم.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

والبَتْكُ: القطع[١]، وكثر الفعل إذ القطع كثير على أنحاء مختلفة، وإنما كنى سبحانه وتعالىٰ عن البحيرة والسائبة ونحوه مما كانوا يثبتون فيه حكماً بسبب آلهتهم، وبغير ذلك[٢]. وقرأ أبو عمرو بن العلاء: [وَلامُرَنَّهم] بغير ألف وقرأ أُبي: [وَأُضِلُّهم وأُمَنِّيهم وآمرهُم].

واختُلف في معنى تغيير خلق الله ـ فقال ابن عباس، وإبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أراد: يغيرون دين الله، وذهبوا في ذلك إلى الاحتجاج بقوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٣]، أَي: لدين الله والتبديل يقعَ موضعه التغيير، وإن كان التغيير أَعم منه. وقالت فرقة: تغيير خلق الله هو أَن الله تعالىٰ خلق الشمس والنهار والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها وينتفع بها فغيرها الكفار بأَن جعلوها آلهة معبودة، وقال ابن عباس أَيضاً، وأَنس، وعكرمة، وأَبو صالح: من تغيير خلق الله الإخصاءُ، والآية إشارة إلى إخصاء البهائم وما شاكله، فهي عندهم أَشياء ممنوعة، ورَخَّص في إخصاء البهائمَ جماعةٌ إذا قُصدت به المنفعة، إما السِّمن أَو غيره، وخصها عمر بن عبد العزيز في الخيل، وقال ابن مسعود، والحسن: هي إشارة إلى الوشم وما جرى مجراه من التَّصَنُّع لِلْحُسْن، فمن ذلك الحديثُ: لعَن رسول الله ﷺ الواشمات والموشومات، والمتَنَمِّصات، والمتَفَلِّجَات المُغَيِّرات خَلْقَ الله»[٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لَعَنَ الله الواصلة والمستوصلة»[٥]. وملاك تفسير هذه الآية

---

(١) ومنه: سيف باتك، أي: قاطع، يقال: بتكه وبتّكه مخففاً ومشدَّداً، وفي يده بِتْكة، أي: قطعة، والجمع: بِتَكٌ ـ قال زهير:

حَتَّـى إذا مـا هَـوَتْ كـفُّ الْـوَلِيـد لَهـا ... طـارَتْ وفـي كَفِّـه مِـنْ ريشهـا بِتَـكُ

(٢) كانوا يشقون أُذني الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً، ويحرمون على أنفسهم الانتفاع بها، ولا يمنعونها من مرعى ولا ماء، وقد حرَّم الإسلام ذلك، وسيأتي تفسير أوضح له عند قوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾.

(٣) الروم: ٣٠.

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود، وأخرجه مسلم عن عبد الله. والوشم: غرز الجلد بإبرة، ثم ذر النِّيلَج عليه حتى يزرق أثره، ومعنى: تَنَمَّصت المرأة: نتفت شعر جبينها بخيط، والمرأة المتَفَلِّجَة: هي التي تُفَرق بين أسنانها للزينة.

(٥) أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم عن عائشة أن جارية من الأنصار تزوجت، وأنها مرضت، فتمعط شعرها، فأرادوا أن يصلوها، فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة» ـ (الدر المنثور)=

أَن كل تغيير ضار فهو في الآية ، وكل تغيير نافع فهو مباح.

ولما ذكر الله تعالىٰ عُتوَّ الشيطان وما توعد به من بث مَكْرِهِ ، حذَّره تبارك وتعالىٰ عبادَه ، بأَن شرط لمن يتخذه ولياً جزاءَ الخسران ، وتصوُّر الخسران إنما هو بأَن أَخذ هذا المتخذ حظ الشيطان ، فكأَنه أُعطي حظ الله تبارك وتعالىٰ فيه وتركه من أَجله.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ، يعدهم بأَباطيله من المال والجاه ، وأَن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ، لكل أَحد ما يليق بحاله ، ويمنيهم كذلك ، ثم ابتدأَ تعالىٰ الخبر عن حقيقة ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثم أَخبر تعالىٰ بمصير المتخذين الشيطان ولياً ، وتوعدهم بأَن مأْواهم جهنم ، لا يدافعونها بحيلة ، ولا يعدلون عنها ولا ينحرفون ولا يتروغون ، والمَحيص: مفعول من: حاصَ إِذا راغ ونفر ، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ أَدْر إِنْ حِصْنَا مِنَ المَوْت حَيْصَةً ... كَم العُمْرُ باقٍ والْمَدَى مُتَطَاولُ[1]

ومنه الحديث: «فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب» ، وجاض (بالجيم والضَّاد المنقوطة) إِذا راغ بنفور ، ولغة القرآن الحاءُ والصاد غير منقوطة[2].

ولما أَخبر تعالىٰ عن الكفار الذين يتخذون الشيطان وليّاً ، وأَعلم بغرور وعد الشيطان لهم ، وأَعلم بصَيُّور[3] أَمرهم ، وأَنه إِلى جهنم ، فاقتضى ذلك كله التحذير ـ أَعقب ذلك ـ عزَّ وجلَّ[4] ـ بالترغيب في ذكر حالة المؤمنين ، وأَعلم بِصَيُّور أَمرهم ،

= والواصلة: هي التي تضيف إلى شعرها شعراً آخر فيكثر به ، والمستوصلة: هي التي تستدعي من يفعل ذلك بها.

(١) البيت لجعفر بن علبة الحارثي ، وفي رواية الحماسة:

ولَـمْ نَـدْر إن جِضْنـا مـن المـوت جيضَـةً ... .

بنون الجمع ـ وبالجيم والضاد ، والمعنى ـ على هذا ـ هو ما شرحه ابن عطية ، وقال بعده: إن لغة القرآن بالصاد والحاء.

(٢) الحيْصُ: الحَيْد عن الشيء ، ويقال: ما عنه محيص ، أي: مَحيد ومَهْرب ، قال في اللسان: «وفي حديث يرويه ابن عمر رضي الله عنه أنه ذكر قتالاً وأمراً: فحاص المسلمون حَيْصَة ، ويُرْوى: فجاض جَيْضة ، معناهما واحد ـ وفي حديث أنس: لما كان يوم أُحد حاص المسلمون حيصة ، قالوا: قُتل محمد» اهـ. (حَيَصَ).

(٣) الصَّيُّور: منتهى الأمر وعاقبته. (المعجم الوسيط).

(٤) في بعض النسخ: «أَعقب ذلك (الوجل) بالترغيب».

وأنه إلى النعيم المقيم ، وأعلم بصحة وعده تعالىٰ لهم ، ثم قرر ذلك بالتوقيف عليه في قوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ . والقيل والقَول واحد . ونصبه على التمييز .

وقرأت فرقة: ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾ بالنون . وقرأت فرقة: [سَيُدْخِلُهم] بالياءِ ، و﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ، و﴿ حَقًّا ﴾ مصدر أيضاً مُؤَكِّدٌ لما قبله .

قوله تعالىٰ:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

اسم ﴿ لَّيْسَ ﴾ مضمر[1] ، والأَماني جمع أُمنوية وزنها أُفعولة ، وهي: ما يتشهّاه المرءُ ويُطمع نفسه فيه ، وتجمع على فعاليل فتجتمع ياءَان ، فلذلك تدغم إحداهما في الأُخرى فتجيءُ مُشَدَّدة وهي قراءَة الجمهور ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو جعفر بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ، والحكم ، والأَعرج: [لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ] ساكنة الياء ، وكذلك في الثانية[2] ، قال الفراءُ: هذا جمع على فعاليل كما يقال: قراقير وقراقر إلى غير ذلك .

اختلف الناس فيمن المخاطب بهذه الآية؟ فقال ابن عباس ، والضحاك ، وأَبو صالح ، ومسروق ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم: الخطاب لأُمة محمد ﷺ ، قال بعضهم: سبب الآية أن المؤمنين اختلفوا مع قوم من أَهل الكتاب ، فقال أَهل الكتاب: ديننا أَقدم من دينكم وأَفضل ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن أَفضل منكم ، وقال المؤمنون: كتابنا يقضي على الكتب ، ونبينا خاتم النبيين ، أَو نحو هذا من المحاورة ، فنزلت الآية . وقال مجاهد وابن زيد: بل الخطاب لكفار قريش ، وذلك أَنهم قالوا: لن نبعث ، ولا نعذب ، وإنما هي حياتنا الدنيا ، ولنا فيها النعيم ثم

(١) على معنى: ليس الثواب على الحسنات ، ولا العقاب على السيئات بأمانيكم ، لأن الاستحقاق إنما يكون بالعمل لا بالأماني . قاله في (البحر المحيط) .

(٢) يعني بها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .



لا عذاب، وقالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، إلى نحو هذا من الأقوال، كقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[(١)]، فرد الله تعالىٰ على الفريقين: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ثم ابتدأ الخبر الصادق بقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وجاءَ هذا اللفظ عاماً في كل سوءٍ فاندرج تحت عمومه الفريقان المذكوران.

واختلف المتأولون في تعميم لفظ هذا الخبر ـ فقال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[(٢)]، وقال: والآية يعني بها الكفار، ولا يعني بها أهل الصلاة، وقال: والله ما جازىٰ الله أحداً بالخير الشر إلا عذبه، ولكنه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾: وعد الله المؤمنين أن يُكفِّر عنهم سَيِّئاتهم ولم يَعد أولئك، يعني المشركين، وقال الضحاك: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ يعني بذلك: اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا تخصيص للفظ الآية، ورأي هؤلاءِ أن الكافر يجزى على كل سوءٍ يعمله، وأن المؤمن قد وعده الله تكفير سَيِّئاتِهِ. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ معناه: مَنْ يَكُ مُشْرِكاً، والسوءُ هنا: الشرك، فهوتخصيص لعموم اللفظ من جهة أخرى، ولأن أولئك خصَّصُوا لفظ ﴿مَن﴾، وهذان خَصَّصا لفظ (السوءِ). وقال جمهور الناس: لفظ الآية عامٌّ، والكافر والمؤمن مجازى بالسوء يعمله، فأما مجازاة الكافر فالنار، لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قلت: يا رسول الله ـ ما أشد هذه الآية، فقال: «يا أبا أبكر، أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللأواء؟ فهذا بذلك»[(٣)]، وقال عطاءُ بن أبي رباح: لما نزلت هذه الآية قال

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

(٣) أخرج أحمد، وهناد، وعبد بن حميد، والحكيم، والترمذي، وابن جرير، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن حبان، وابن السني في عمل اليوم والليلة، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، كيف =

أَبو بكر: جاءَت قاصمة الظهر، فقال النبي ﷺ: «إنما هي المصيبات في الدنيا»[١]. وقالت بمثل هذا التأْويل عائشة رضي الله عنها[٢]، وقال أُبي بن كعب ـ وسأَله الربيع بن زياد عن معنى الآية وكأَنه خافها ـ فقال له أُبي: ما كنت أَظنك إلا أَفقه مما أَرى، ما يصيب الرجل خدش ولا غيره إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أَكثر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالعقيدة في هذا أَن الكافر مجازى، والمؤمن يجازى في الدنيا غالباً، فمن بقي له سوءٌ إلى الآخرة فهو في المشيئة، يغفر الله لمن يشاءُ، ويجازي من يشاءُ.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالجزم عطفاً على: ﴿يُجْزَ﴾، وروى ابن بكار عن ابن عامر: [ولا يَجِدُ] بالرفع على القطع، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لفظة تقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة، ويفسرها بعض المفسرين بـ (غير)، وهو تفسير لا يطرد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دخلت ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، إذ الصالحات على الكمال مما لا يطيقه البشر، ففي هذا رفق بالعباد، لكن في هذا البعض الفرائض، وما أَمكن من المندوب إليه، ثم قيد الأَمر بالإيمان إذ لا ينفع عمل دونه، وحكى الطبري عن قوم أَن ﴿مِنَ﴾ زائدة، وضعَّفه كما هو ضعيف. وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء، وكذلك حيث جاءَ من القرآن، وروي مثل هذا عن عاصم، وقرأَ أَبو عمرو في هذه الآية، وفي (مريم) و(الملائكة)، وفي (المؤمن)[٣]: [يُدْخَلُون] بضم الياءِ وفتح الخاءِ، وقرأَ

= الصلاح بعد هذه الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؟ فكل سوء جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «غفَرَ الله لك يا أبا بكر. أَلَسْتَ تَنْصَب؟ أَلَسْتَ تمرض؟ أَلَسْتَ تحزن؟ أَلَسْتَ تُصيبك اللأْواءُ؟» قال: بلى، قال: «فهو ما تجزون به» ـ (الدر المنثور ٢ ـ ٢٢٦).

واللأْواء: الشدة والمحنة.

(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء بن رباح.

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن جرير، والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فقال: إنا لنجزى بكل ما عملناه؟ هلكنا إذاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم. يُجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه، في جسده، فيما يؤذيه». (الدر المنثور).

(٣) أما في مريم ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠]، =

بفتح الياءِ من ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(١).

والنقير: النكتة التي في ظهر نواة التمرة، ومنه تنبت، وروى عاصم: النقير ما تنقره بإصبعك، وهذا كله مثال للحقير اليسير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهنا كمل الر د على أَهل الأَماني والإخبار بحقيقة الأَمر.

ثم أَخبر تعالىٰ إخباراً موافقاً على أنه لا أَحسن ديناً ممن أَسلم وجهه لله، أَي: أَخلص مقصده وتوَجُّهَه، وأَحسن في أَعماله، واتبع الحنيفية التي هي مِلَّة إبراهيم، إمام العالم، وقدوة أَهل الأَديان، ثم لما ذكر الله تعالىٰ إبراهيم بأَنه الذي يجب اتباعه شرَّفه بذكر الخُلَّة، وإبراهيم ﷺ سماه الله خليلاً إذ كان خلوصه وعبادته واجتهاده على الغاية التي يجري إليها المحب المبالغ، وكان لطف الله به، ورحمته ونصرتُه له، بحسب ذلك.

وذهب قوم إلى أَن إبراهيم سُمِّي خليلاً من الخَلَّة، بفتح الخاءِ، أَي: لأَنه أَنزل خَلَّته وفاقته بالله تعالىٰ، وقال قوم: سُمي خليلاً لأَنه ـ فيما روي في الحديث ـ جاءَ مِن عند خليل كان له بمصر، وقد حرمه الميرة التي قصد لها، فلما قرب من منزله ملأَ غرارتيه رملاً ليتأَنَّس بذلك صِبيته، فلما دخل منزله نام كلالاً وهماً، فقامت امرأته وفتحت الغرارة فوجدت أَحسن ما يكون من الحوارى، فعجنت منه، فلما انتبه قال: ما هذا؟ قالت: من الدقيق الذي سقت من عند خليلك المصري: فقال: بل هو من عند خليلي الله تعالىٰ، فسمي بذلك خليلاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف، ولا تقتضي هذه القصة أَن يُسمَّى بذلك اسماً غالباً، وإنما هو شيءُ شرَّفه الله به(٢)، كما شَرَّف محمداً ﷺ، فقد صح في كتاب مسلم وغيره: أَن الله اتخذه خليلاً.

= وأما قوله: (والملائكة) فلعله يريد بها ﴿ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٣]. وأما في (المؤمن) ففي قوله تعالىٰ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

(١) من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] ـ وأراد ابن عطية بقوله: وقرأ بفتح الياء من (سَيَدخلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرين) ـ أبا عمرو.

(٢) الآراء كثيرة في سبب تسميته عليه الصلاة والسلام خليلاً ـ فقيل زيادة على ما رواه ابن عطية: إنما سمي=



قوله تعالىٰ:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ذكر الله عزَّ وجلَّ سَعَة مُلْكه، وإحاطته بكل شيءٍ عقب ذكر الدِّين وتبيين الجادة منه ـ ترغيباً في طاعة الله، والانقطاع إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾، نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أَمر النساءِ وأَحكامهن في المواريث وغير ذلك، فأَمر الله نبيه أَن يقول لهم: ﴿ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾، أَي: يُبين لكم حكم ما سألتم عنه. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل ﴿ وَمَا ﴾ أَن تكون في موضع خفض عطفاً على الضمير في قوله: ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أَي: ويُفْتيكم فيما يُتْلى عليكم، قاله محمد بن أَبي موسى، وقال: أَفتاهم الله فيما سأَلوا عنه، وفيما لم يسأَلوا عنه، ويضعف هذا التأويل ما فيه من العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الخفض[1]. ويحتمل أَن تكون ﴿ وَمَا ﴾ في موضع رفع عطفاً على اسم الله عز وجلَّ، أَي: ويُفْتيكم ما يُتْلى عليكم في الكتاب، يعني القرآن، والإشارة بهذا إِلى ما تقدم من الآيات في أَمر النساءِ، وهو قوله تعالىٰ في صدر السورة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية أَولاً، ثم سأَل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أَمر النساء فنزلت:

= الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته، بَدَليل قول بشار بن برد:

قَـدْ تَخَلَّلْـتَ مَسْلَـكَ الـرُّوحِ منِّـي ... وبِـه سُمِّـيَ الخَليـلُ خَليـلا

وقيل: الخليل من الاختصاص، فالله عز وجل اختص إبراهيم في وقته للرسالة، واختار هذا النحاسُ، ودليله قوله ﷺ: «وَقَدْ اتَّخَذَ الله صَاحِبَكُم خَليلا»، يعني نفسه، وفي الاتخاذ معنى الاختصاص، ولقد حسم ابن عطية القول بعبارته: «إنما هو شيء شرفه الله به».

(١) راجع (البحر المحيط) في هذا الموضع، فأبو حيان له تعليق طويل على القول بضعف العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الجر، وهو يرد على كلام ابن عطية هنا، وعلى كلام آخر للزمخشري في تفسيره للآية. والتعليق ج ٣ صفحة ٣٦٠، ٣٦١.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ معناه النهي عما كانت العرب تفعله من ضمِّ اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر ، ومن عضْل[٢] الدميمة الفقيرة أبداً ، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل ، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه ، لا نفع اليتيمة ، والذي كتب الله لهُنَّ: هو توفيةُ ما تستحقه من مهر ، وإلحاقُها بأقرانها.

وقرأ أَبو عبد الله المدني: [في يَيَامَى النِّسَاءِ] بياءَيْن ، قال أَبو الفتح: والقول في هذه القراءَة أنه أَراد (أَيَامَى) فقلبت الهمزة ياءً ، كما قُلبت في قولهم: «باهلة بن يعصر» ، وإنما هو «ابن أَعصر» لأنه إنما يُسَمَّى بقوله:

أَبُنَــيَّ إِنَّ أَبَــاكَ غَيَّــرَ لَــوْنَــهُ ... كَـرُّ اللَّيَـالـي واخْتِـلافُ الأَعْصُـر[٣]

وكما قلبت الياءُ همزة في قولهم: «قطع الله أَدَهُ» ، يريدون: «يَدَهُ» ، وأَيامى: جمع أَيِّم ، أَصله: أَيَايِم ، فقلبت اللام موضع العين فجاءَ: أَيَامِي ، ثم أُبدلت من الكسرة فتحة ، ومن الياءِ أَلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَن الداعي إِلى هذا استثقال الضمة على الياءِ ، قال أَبو الفتح: ولو قال قائل: كُسِّر أَيِّم على أَيْمَى على وزن سكْرى وقتلى من حيثُ الأُيُومَةُ بَلِيَّةٌ تدخل كرها ، ثم كُسِّر أَيْمى على أَيَامَى ـ لكان و جهاً حسناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ ، إِن كانت الجارية غنية جميلة فالرغبة في نكاحها ، وإن كانت بالعكس فالرغبة عن نكاحها ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) الحديث في البخاري ، ومسلم ، وأخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ـ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) عَضَل المرأة: منعها التزوج ظُلْماً ، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾.

(٣) جاء في كتاب «سمط اللآلي» صفحة (٣٥٠) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة: وذكر أبو علي في نسب الأصمعي أعصُرَ بن سعد ، وأعصرُ: هو مُنَبِّه بن سعيد. . . وإنما سُمِّي أعصر بقوله:

قــالــتْ عُمَيْــرَةُ مــا لِــرَأْسِــكَ بَعْـدَ مَــا ... فَقَــدَ الشَّبــابَ أَتــى بِلَــوْنٍ مُنْكَــر

أَعُمَيْــرُ إنَّ أَبــاكِ غَيَّــر لَــوْنَــهُ ... مَــرُّ اللَّيَــالــي واخْتِــلافُ الأعْصُــر

وقال معلقة: وفي الأنباري ، والشعراء ، والجمحي: نَفَد الشَّبابُ.

عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى ، فكان إذا سأَل الولي عن وليته فقيل: هي غنية جميلة ، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأَعْود عليها بالنفع . وإذا قيل له: هي دميمة فقيرة قال: أَنت أَولى بها وبالستر عليها من غيرك .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على: ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ ، والذي تُلِي[1] في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾[2]، وذلك أَن العرب كانت لا تورث الصَّبيَّةَ ولا الصَّبِيَّ الصغير ، وكان الكبير ينفرد بالمال ، وكانوا يقولون: إنما يرث المال مَنْ يَحمي الحوزة ، ويردُّ الغنيمة ، ويُقاتل عن الحريم ، ففرض الله لكل واحدٍ حقَّه .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ عطف أَيضاً على ما تقدم ، والذي تُلي في هذا المعنى هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[3] إلى غير ذلك مما ذكر في مال اليتيم. والقسط: العدل ، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاءِ الجميل بيِّنٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ .

. هذه الآية حكم من الله تعالى في أَمر المرأَة التي تكون ذات سن ودمامة ، أَو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها ، فيذهب الزوج إلى طلاقها ، أَو إلى إيثار شابة عليها ، ونحو هذا مما يقصد به صلاح نفسه ، ولا يضرها هي ضرراً يلزمه إياها ، بل يعرض

---

(١) هو بيان لما سبق في السورة من القرآن المَتْلُوّ على أن معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هو: «وَيُفتِيكُمْ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ». فالذي سبقت تلاوته في (يتامى النساء) هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ كما وضح ذلك حديث عائشة رضي الله عنها ، والذي تُلِي في ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هو قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾. والذي تُلِي في القيام لليتامى بالقسط هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ .

(٢) النساء: ١١ .

(٣) النساء: ٢ .



عليها الفُرقة ، أَو الصبر على الأَثرة ، فتريد هي بقاءَ العصمة ، فهذه التي أَباح الله تعالىٰ بينهما الصلح ، ورفع الجناح فيه ، إِذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعله حتى تعالجه ، وأَباح الله تعالىٰ الصلح مع الخوف ، وظهور علامات النشوز أَو الإِعراض ، وهو ـ مع وقوعها ـ مباح أَيضاً.

والنشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حُسْن العشرة. والإِعراض: أَخف من النشوز(١).

وأَنواع الصلح كلها مباحةٌ في هذه النازلة ـ أَن يعطى الزوج على أَن تصبر هي ، أَو تعطى هي على أَلا يؤثر الزوج ، أَو على أَن يؤثر ويتمسك بالعصمة ، أَو يقع الصلح على الصبر على الأُثرة. فهذا كله مباح.

واختلف المفسرون في سبب الآية ـ فقال ابن عباس ، وجماعة معه: نزلت في النبي ﷺ وسودة بنت زمعة ، حدث الطبري بسند عن ابن عباس قال: خشيت سودة أَن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني ، واحبسني مع نسائك ، ولا تقسم لي ، ففعل ، فنزلت: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ الآية(٢). وفي المصنفات أَن سودة لما كبرت وهبت يومها لعائشة ، وهذا نحو الأَول ، وقال سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيدة السلماني ، وغيرهم: نزلت الآية بسبب رافع بن خَديج(٣). وخولة بنت محمد بن مسلمة ، وذلك أَنه خلا من سنها فتزوج عليها شابة ، فآثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها طلقة ، ثم تراجعا فعاد فآثر الشابة فلم تصبر هي ، فطلقها أُخرى ، فلما بقي من العدة يسير قال لها: إِن شئت راجعتك وصبرت على الأَثرة ، وإِن شئت تركتك حتى يخلو أَجلك ، قالت: بل راجعني وأَصبر ، فراجعها فآثر الشابة فلم تصبر ، فقال: إِنما هي واحدة ، فإِما أَن تَقَري على ما ترين من الأَثرة

(١) قال النحاس: «الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز: التباعد ، والإعراض: ألا يكلمها ولا يأنس بها».

(٢) وأخرجه أَيضاً الطيالسي ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، والطبري ، والبيهقي في سننه ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٢).

(٣) رافع بن خديج بن رافع ـ الأَنصاري الأَوسي الحارثي ، كان عريف قومه بالمدينة ، وشهد أُحداً والخندق ، وعرض على النبي ﷺ يوم بدر فاستصغره ، لكنه أَجازه يوم أُحد ، توفي بالمدينة من جراحة ، له ٧٨ حديثاً. (الإصابة ـ وتهذيب التهذيب).

وإلا طلقتك، فقرّت، فهذا هو الصلح الذي أنزل الله فيه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾(١).

وقال مجاهد: نزلت الآية بسبب أبي السنابل بن بعكك وامرأته(٢).

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [يَصَّالحا] بفتح الياءِ وشد الصاد وألف بعدها، وأصلها: يتصالحا، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: [يُصْلِحا] بضم الياءِ وسكون الصاد دون ألف، وقرأ عبيدة السلماني: [يُصَالحا] بضم الياءِ من المفاعلة. وقرأ الجحدري، وعثمان البتي: [يَصَّلحا] بفتح الياءِ وشد الصاد، أصلها: يَصْطلحا. قال أبو الفتح أبدل الطاء صاداً، ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاءٌ فصارت: يَصَّلِحا، وقرأ الأعمش: [إن اصَّالحا]. وكذلك هي في قراءَة ابن مسعود.

وقوله: ﴿صُلْحًا﴾ ليس الصلح مصدراً على واحد من هذه الأفعال التي قرئَ بها، فالذي يحتمل أن يكون اسماً كالعطاء مع أعطيت، والكرامة مع أكرمت، فمن قرأ ﴿يُصْلِحَا﴾ كان تعديه إلى الصلح كتَعَدِّيه إلى الأسماءِ، كما تقول: أصلحت ثوباً، ومن قرأ: [يصَّالحا] من تفاعل، وعُرف تفاعل أنه لا يتعدى، فوجهه أن تفاعل قد جاءَ متعدياً في نحو قول ذي الرمة:

ومِنْ جَرْدَةٍ غُفْلٍ بَسَاطٍ تَحَاسَنَتْ ... بها الوشْيَ قَرَّاتُ الرِّياح وخُورُهَا(٣)

ويجوز أن يكون الصلح مصدراً حذفت زوائده كما قال:

. . . . وإن تهْلِكْ فَذَلِكَ كانَ قَدْري(٤)

---

(١) أخرجه مالك، وعبد الرزاق، عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه ـ عن رافع بن خديج، وفيه: «أنه كانت تحته امرأة» ولم يذكر اسمها ـ وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة والبيهقي ـ عن سعيد بن المسيب أن «ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج. . . إلخ».

(٢) أخرجه ابن جرير عن مجاهد. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٣).

(٣) هذا البيت من قصيدة مطلعها:

تَصَابيتُ في أَطْلالِ ميَّةَ بَعْدَمَا ... نَبا نَبْوَةً بالْعيْن عنها دُثُورُهَا

وجَرِدَ جَرْداً: خلا جسْمُه من الشعر، وجَرِدَ المكان: خلا من النبات، والغُفْل: ما لا علامة فيه ولا أثر من عمارة أو طرق أو نحوهما. والبَسَاطُ من الأرض: الواسعةُ، وتحاسنت: أَحْسَنت ـ وقرَّات الرياح: الرياح الباردة. وأرض خوَّارة: لينة سهلة، والجمع: خُورٌ ـ أما الوشي فهو: النقش، يقول: إن هذه الرياح الباردة جرت على الأرض الواسعة الجرداء فحسنت طرقها بما يشبه الوشي. وتفاعل التي يشير إليها ابن عطية في البيت هي: (تَحاسَنَ) فقد تعدت حين نصبت (الوشي).

(٤) القائل رجل من عبد القيس كان حليفاً لبني شيبان، والبيت بتمامه كما رواه في «المفضليات»: =



أي: تقديري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا كلام أَبي علي، على أَن القدْر مصدرٌ جارٍ على أَن قَدَرْت الأَمر بمعنى قدَّرت بالتشديد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أَن الصلح الحقيقي الذي تسكن إِليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإِطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أَن صلح الزوجين ـ على ما ذكرنا ـ خير من الفُرقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ معذرة عن عبيده تعالىٰ، أَي: لا بد للإِنسان بحكم خلقته وجِبِلَّتِهِ من أَن يشح على إِرادته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره، وخصص المفسرون هذه اللفظة ـ هنا ـ فقال ابن جبير: هو شُح المرأَة بالنفقة من زوجها وبقَسْمه لها أَيامها، وقال ابن زيد: الشُّح هنا منه ومنها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَحسن، «فإنَّ الغالب على المرأَة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشُّح بنصيبه من الشابة».

والشُّح: الضبط على المعتقدات والإِرادات والهمم والأَموال ونحو ذلك، فما أُفرط منها ففيه بعض المذمَّة، وهو الذي قال تعالىٰ فيه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾[1]، وما صار إِلى حيز منع الحقوق الشرعية أَو التي تقتضيها المروءَة فهو البخل، وهي رذيلة»[2]، ولكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: «قيل يا رسول الله، أَيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم»[3]، وأَما الشح ففي كل أَحد لكن لا يُفْرِط إِلا على

= فـإِن يبْـرأ فَلَـمْ أَنْفـس عَلَيْـه وإِنْ يَهْلِـك فـذلِـكَ كـان قَـدْري

(١) الحشر: ٩.

(٢) نقل القرطبي ما بين علامتي التنصيص هنا عن ابن عطية، ولكن جاء فيه: «فما أُفرط منه على الدين فهو محمود، وما أفرط منه في غيره ففيه بعض المذمة» وهو أوضح مما في الأصول هنا.

(٣) روى مالك عن صفوان بن سليم قال: «قيل: يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل له: أَيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل له: أَيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا».



الدِّين[١] ، ويدلك على أَن الشُّح في كل أَحد قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ ، وقوله: ﴿ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾ ، فقد أَثبت أَن لكل نفس شحاً ، وقول النبي ﷺ: «أَنْ تَصَدَّق وأَنت صحيحٌ شَحيحٌ»[٢] ، وهذا ما لم يُرد به واحداً بعينه ، وليس يجمل أَن يقال هنا: «أَن تصَدَّق وأَنت صحيح بخيل».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ ﴾ ندب إِلى الإِحسان في تحسين العِشْرة ، وحمل أَخلاق الزوجة ، والصبر على ما يكره من حالها ، وتمكن الندب إِلى الإِحسان من حيث للزوج أَن يشح فلا يحسن. ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ معناه: تتقوا الله في وصيته بالنساءِ ، إِذ هن عوان عند الأَزواج حسبما فسَّره النبي ﷺ بقوله: «استوصوا بالنساءِ خيراً فإِنهن عوان عندكم»[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية. معناه العدل التام على الإِطلاق ، المستوي في الأَفعال والأَقوال والمحبة والجماع وغير ذلك ، وكان

---

(١) يقول: إِن المبالغة في الشح مذمومة إِلا على الدين فإِنها محمودة ، واستدل على ذلك بثلاثة أَدلة:
(أ) قوله تعالىٰ: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ ، وقد شرح المفسرون الكلام فقالوا: إِنه من باب المبالغة ، جعل الشُّح كأَنه شيء معد في مكان وأُحضرت الأَنْفُس وسيقت إِليه ، فلم يُسق هو إِليها ، بل سيقت هي إِليه ، لكون الإِنسان مجبولاً على الشُّح ، وكلام ابن عطية فيه هذا المعنى.
(ب) قوله تعالىٰ في سورة الحشر: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لأَن إِضَافَة الشُح إِلى النفس يدل على أَن لكل نفس شُحاً ، وأَنه من طبيعة النفوس.
(ج) قوله ﷺ: «أَن تَصدَّق وأَنت صحيح شحيح تأْمل الغنى وتخشى الفقر. . . إِلخ» فإِنك حين تتصدق مع أَنك مطبوع على الشُّح مُهيَّأة لك أَسباب الطمع في الحياة كالصحة والأَمل في الغنى ـ أَفضل من أَن تتصدق وقد دنت ساعة موتك ، ولهذا فلا يناسب في الحديث أَن يقال: «وأَنت صحيح بخيل» وبهذا وضح المؤلف الفرق بين الشح والبخل.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد في مسنده ، وأَبو داوود ، والنسائي ـ عن أَبي هريرة ، ولفظه: «أَفضل الصدقة أَنْ تصدق وأَنت صحيح شحيح ، تأْمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إِذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ، ولفلان كذا ، أَلا وقد كان لفلان».

(٣) رواه ابن ماجه ، والترمذي وصححه عن عمرو بن الأَحوص أَنه شهد حجة الوداع مع النبي ﷺ ، فحمدالله ، وأَثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال «استوصوا بالنساء خيراً. . . . إِلخ». ـ وروى البخاري ومسلم عن أَبي هريرة أَن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً فإِنهن خلقن من ضلع ، وإِن أَعوج شيء في الضلع أَعلاه ، فإِن ذهبت تقيمه كسرته ، وإِن تركته لم يزل أَعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً». ومعنى عوان: أَسرى أَو كالأَسرى.



رسول الله ﷺ يَقْسِم بين نسائه ، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هذا فعلي فيما أَملك ، فلا تُؤَاخذني فيما تملك ولا أَملك»[١] ، يعني ميله بقلبه ، وكان عمر بن الخطاب يقول: «اللَّهم قلبي فلا أَملكه ، وأَما ما سوى ذلك فأَرجو أَن أَعدل». وروي أَن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ وميله بقلبه إلى عائشة رضي الله عنها[٢] ، فوصف الله تعالىٰ حالة البشر ، وأَنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض الأَزواج دون بعض ، ونشاطهم إليهن ، وبشرهم معهن ، ثم نهى عن الميل كل الميل ، وهو أَن يفعل فعلاً يقصده من التفضيل وهو يقدر أَلا يفعله ، فهذا هو كل الميل وإن كان في أَمر حقير ، فكأَن الكلام: ولا تميلوا النوع الذي هو كل الميل. وهو المقصود من قول أَو فعل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أَي: لا هي أَيِّم ولا ذات زوجٍ ، وهذا تشبيه بالشيء المعلَّق من شيءٍ ، لأَنه لا على الأَرض استقر ، ولا على ما عُلِّق منه انحمل ، وهذا مطردٌ في قولهم في المَثَل: «ارْضَ من المرْكَبِ بالتَّعْليق»[٣] ، وفي عرف النحويين في تعليق الفعل ، ومنه في حديث أُم زرع قول المرأَة: «زوجي العَشَنَّق ، إِنْ أَنْطِقْ أُطلَّق ، وإِن أَسْكُتْ أُعَلَّقْ»[٤].

وقرأَ أُبي بن كعب: [فَتَذَرُوها] «كالمسجونة» ، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَتَذَرُوهَا كَأَنَّهَا مُعَلَّقَة].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أَي: وإِن تلتزموا بما يلزمكم من العدل فيما تملكون ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما لا تملكونه ، متجاوزاً عنه. وقال الطبري: معنى الآية: غفوراً لما سلف منكم من الميل كل الميل قبل نزول الآية.

---

(١) أخرجه ابن أَبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وأَبو داوود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن المنذر عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: (هذا قسمي).

(٢) أخرج ابن أَبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ـ عن ابن أَبي مُلَيْكَة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في عائشة رضي الله عنها ، يعني أَن النبي ﷺ كان يُحبها أُكثر من غيرها. (الدر المنثور ٢ ـ ٢٣٣).

(٣) هذا مثل يضرب في القناعة بالقليل من الكثير ـ راجع «مجمع الأمثال» للميداني.

(٤) حديث أُم زرع حديث طويل ، رواه البخاري كاملاً ـ والعَشَنَّق: الطويل طولاً زائداً مع نحافة ، وهذا يدل على شيء من سَفَه غالباً ، وقيل: هو السَّيِّء الخلق ، وقيل: هذه كلمة جمعت جميع العيوب. تخشى إِن هي تكلمت عن عيوبه ، أو شكت سوء عشرته ومعاملته طلقها وهي حريصة على بيتها وأَولادها ، وإِن هي سكتت عن عيوبه صارت مُعَلَّقة.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا فهي مغفرةٌ مُخَصَّصَة لقوم بأَعيانهم ، واقعوا المحظور في مدةَ النبي ﷺ.

وجَاءَ في التي قبْلُ: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ﴾ وفي هذه: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ لأَن الأَول في مندوب إِليه ، وهذه في لازم ، لأَن الرجل له هناك أَلا يُحسن ، وأَن يشح ويصالح بما يرضيه ، وفي هذه ليس له أَلاَّ يصلح ، بل يلزمه العدل فيما يملك.

قوله تعالىٰ:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ للزوجين اللَّذَيْن تقدم ذكرهما ، أَي: إِن شحَّ كل واحد منهما فلم يتصالحا لكنهما تفرقا بِطَلاق ، فإِن الله تعالىٰ يُغْني كل واحد منهما عن صاحبه بفضله ولطائف صنعه ، في المال والعِشْرة والسعة وجود المرادات والتمكن منها. وذهب بعض الفقهاء المالكيين إِلى أَن التفرق في هذه الآية هو بالقول ، إِذ الطلاق قول ، واحتج بهذه على قول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[1] ، إِذ مذهب مالك في الحديث أَنه التفرق بالقول لا بالبدن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذه الآية ، لأَن إِخبارها إِنما هو عن افتراقهما بالأَبدان ، وتراخي المدة بزوال العصمة ، والإِغناءِ إِنما يقع في ثاني حال ، ولو كانت الفرقة في الآية الطلاق لما كان للمرأَة فيها نَصيبٌ يوجب ظهور ضميرها في الفعل ، وهذه نُبْذَةٌ من المعارضة في المسأَلة ، والواسع معناه: الذي عنده خزائن كل شيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ تنبيه على موضع الرجاءِ لهذين المفترقين ، ثم جاءَ بعد ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وأخرجه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن إلا ابن ماجه ـ عن حكيم بن حزام.



تنبيهاً على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾. ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة للوعيد، فهذه وجوه تكرار هذا الخبر الواحد ثلاث مرات متقاربة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لفظ عام لكل من أُوتي كتاباً، فإن وصية الله عباده بالتقوى لم تزل منذ أوجدهم. والوكيل: القائم بالأمور، والمنفذ فيها ما رآه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مخاطبة للحاضرين من العرب، وتوقيف للسامعين لتحضر أذهانهم، وقوله: ﴿بِآخَرِينَ﴾ يريد: من نوعكم. وروي عن أَبي هريرة أَنه لما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله ﷺ بيده على كتف سلمان الفارسي وقال: هم قوم هذا. وتحتمل ألفاظ الآية أَن تكون وعيداً لجميع بني آدم، ويكون الآخرون من غير نوعهم كما قد روي أَنه كان في الأَرض ملائكة يعبدون الله قبل بني آدم، وقدرة الله تعالىٰ على ما ذكر تقضي بها العقول ببداهتها. وقال الطبري: هذا الوعيد والتوبيخ هو للقوم الذين شفعوا في طعمة بن أُبيرق، وخاصموا عنه في أَمر خيانته في الدرع والدقيق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل بعيد، واللفظ إِنما يظهر حُسْن رصفه بعمومه وانسحابه على العالم جملة، أَو العالم الحاضر.

قوله تعالىٰ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

أَي: من كان لا مرد له إِلا في ثواب الدنيا، ولا يعتقد أَنَّ ثَمَّ سواه، فليس هو كما ظن، بل عند الله ثواب الدارَيْن، فمن قصد الآخرة أَعطاه الله من ثواب الدنيا، وأَعطاه قصده، ومن قصد الدنيا فقط أَعطاه من الدنيا ما قدر له، وكان له في الآخرة العذاب،

والله تعالىٰ سميع للأقوال ، بصير بالأعمال والنيات .

ثم خاطب تعالىٰ المؤمنين: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ الآية ، وهذا بناءُ مبالغة ، أَي: ليتكرر منكم القيام ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ، وهو العدل ، وقوله: ﴿شُهَدَاءَ﴾ نصب على خبر بعد خبر ، والحال فيه ضعيفة في المعنى ، لأنها تخصيص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط ، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ المعنى: لذات الله ، ولوجهه ولمرضاته ، وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شُهَدَاءَ﴾[1] . هذا هو الظاهر الذي فسر عليه الناس ، وإن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق.

ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ معناه: بالوحدانية ، ويتعلق قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ بـ ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ ، والتأويل الأَول أَبيَن.

وشهادة المرء على نفسه: إقرارُه بالحقائق وقوله الحق في كل أَمر ، وقيامه بالقسط عليها كذلك ، ثم ذكر الوالدين لوجوب بِرِّهِمَا وعِظَم قدرهما ، ثم ثنَّى بالأَقربين إذ هم مظنة المودة والتعصب ، فجاءَ الأَجنبي من الناس أَحرى أَن يُقام بالقسط ويُشهد عليه ، وهذه الآية إنما تضمنت الشهادة على القرابة ، فلا معنى للتفقه منها في الشهادة لهم كما فعل بعض المفسرين ، ولا خلاف بين أَهل العلم في صحة أَحكام هذه الآية .

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ معناه: إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، ولا يخاف منه ، وإن يكن فقيراً فلا يراعى إشفاقاً عليه ، فإن الله تعالىٰ أَوْلى بالنوعين وأَهل الحالين ، والغني والفقير اسما جنس ، فلذلك ثني الضمير في قوله: ﴿بِهِمَا﴾ ، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [فاللهُ أَوْلَى بِهِمْ] على الجمع ، وقال الطبري: ثني الضمير لأَن المعنى: فالله أَولى بهذين المعنيين ، غنى الغني ، وفقر الفقير ، أَي: وهو أَنظر فيهما ، وقد حدَّ حدوداً ، وجعل لكل ذي حق حقه. وقال قوم: ﴿أَوْ﴾ بمعنى (الواو) ، وفي هذا ضعف[2] .

---

(١) قال في (البحر المحيط): «لو ـ في قوله تعالىٰ ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ـ شرطية بمعنى (إنْ) ، وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف ، لأن التقدير: وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله. وحذف (كان) بعد (لو) كثير ، تقول ، ائتني بتمر ولو حشفاً ، أي: وإن كان التمر حشفاً فأتني به» ، ثم علَّق على قول ابن عطية: «إنَّ قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شُهَدَاءَ﴾» ، فقال: «إن عني ﴿شُهَدَاءَ﴾ هذا الملفوظ فلا يصح ذلك ، وإن عني الذى قدرناه نحن فيصح» اهـ (البحر المحيط ٣ ـ ٣٦٩).

(٢) هذا هو رأي أَبي الحسن بن عصفور حين تكلم عن العطف بالحروف (الواو والفاء . . هكذا) فقد قال: =



وذكر السدي أَن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ: اختصم إِليه غني وفقير ، فكان في ضَلْع الفقير[١] ، علماً منه أَن الغني أَحرى أَن يظلم الفقير ، فأَبى الله إِلا أَن يقوم بالقسط بين الغني والفقير[٢] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وارتبط هذا الأَمر على ما قاله النبي ﷺ: «فأَقضي له على نحو ما أَسمع»[٣] ، أَما إِنه قد أُبيح للحاكم أَن يكون في ضَلَع الضعيف[٤] بأَن يَعْتَدَّ له المقالات ، ويشد على عضده ، ويقول له: قل حجتك مُدِلا ، ويُنبهه تنبيهاً لا يفت في عضد الآخر ، ولا يكون تعليم خِصام ، هكذا هي الرواية عن أَشهب وغيره. وذكر الطبري أَن هذه الآية هي بسبب نازلة طعمة بن أُبيرق ، وقيام من قام في أَمره بغير القسط.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ نهْيٌ بيّن ، واتباع الهوى مُرْدٍ مُهْلك. وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ يحتمل أَن يكون معناه: مخافة أَن تَعْدلوا ، ويكون العدل هنا بمعنى: العدول عن الحق ، ويحتمل أَن يكون معناه: محبة أَن تعدلوا ، ويكون العدل بمعنى: القسط ، كأَنه قال: انتهوا خوف أَن تجوروا ، أَو: محبة أَن تقسطوا ، فإِن

= «تقول: زيد أَو عمرو قام ، وكذلك سائر ما بقي من حروف العطف ، قال: لا تقول: قاما ، لأَن القائم إِنما هو أَحدهما لاغير ، ولا يجوز: قاما إِلا في (أو) خاصة ، وذلك شذوذ لا يقاس عليه. قال الله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فأَعاد الضمير على الغني والفقير لتفرقهما في الذكر» اهـ ـ حكى هذا عنه أَبو حيان في (البحر المحيط) ، ثم قال تعقيباً على كلامه: «وهذا ليس بسديد ، ولا شذوذ في الآية ولا دليل فيها على جواز: زيد أَو عمر قاما ـ على جهة الشذوذ لا غيره ، لأَن قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ليس بجواب ، والضمير ليس عائداً على الغني والفقير الملفوظ بهما في الآية ، وإِنما يعود على ما دلَّ عليه المعنى من جنسي الغني والفقير» ا هـ.

(١) كان في ضلْع الفقير: أَي: كان معه بميله وهواه ، يُقال: ضَلْعُك مع فلان: أَي: ميلُك وهواك. وضَلْع بفتح فسكون ، على وزن بَيْت.

(٢) أَخرجه ابن جرير عن السدي.

(٣) هذا جزء من حديث رواه مالك بن أَنس عن أُم سلمة ، وكذلك رواه سفيان أَيضاً عن أم سلمة ، وهو أَيضاً في البخاري ، وفي رواية مالك أَن النبي ﷺ قال: «إِنما أَنا بشر مثلكم ، وإِنكم تختصمون إِليَّ فلعلَّ بعضكم أَن يكون أَلحن بحجته من بعض فأَقضي له على نحو ما أَسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أَخيه فلا يأْخذ منه شيئاً ، فإِنما أَقطع له قطعة من النار».

(٤) ضَلَع الضعيف ـ بفتح الضاد واللام ـ ، يقال: ضَلِع ـ بفتح فكسر ـ مع فلان ضَلَعاً ـ بفتحتين ـ بمعنى: مال إِليه وعاونه.



جعلت العامل: ﴿تَتَّبِعُواْ﴾ فيحتمل أَن يكون المعنى: محبة أَن تجوروا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ قال ابن عباس: هو في الخَصمين يجلسان بين يدي القاضي، فيكون ليُّ القاضي وإِعراضه لأَحدهما على الآخر، فاللَّيُّ ـ على هذا ـ: مطْلُ الكلام وجرُّه حتى يفوت فصل القضاء وإِنفاذه للَّذي يميل القاضي عليه، وقد شاهدت بعض القضاة يفعلون ذلك، والله حسيب الكل. وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: هي في الشاهد، يلوي الشهادة بلسانه ويحرفها، فلا يقول الحق فيها، أو يعرض عن أَداءِ الحق فيها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة والتوسط بين الناس، وكل إِنسان مأْخوذ بأَن يعدل، والخصوم مطلوبون بعدل ما في القضاءِ فتأَمله.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ بواوين، من: لوى يلوي على حسب ما فسرناه، وقرأَ حمزة، وابن عامر، وجماعة في الشاذ: [وإِن تَلُوا] بضم اللام وواو واحدة، وذلك يحتمل أَن يكون أَصله: (تلْئُوا) على القراءَة الأُولى، هُمِزَت الواو المضمومة كما همزت في (أَدؤُر)، وأُلقيت حركتها على اللام التي هي فاءُ (لوى)، ثم حذفت لاجتماع ساكنين. ويحتمل أَن يكون [تَلُوا] من قولك: ولي الرجل الأمر، فيكون في الطرف الآخر من ﴿تُعْرِضُواْ﴾، كأَنه قال تعالىٰ للشهود وغيرهم: وإِن وليتم الأَمر أَو أَعرضتم عنه فالله خبير بفعلكم ومقصدكم فيه، فالولاية والإِعراض طرفان، واللَّيُّ والإِعراض في طريق واحد، وباقي الآية وعيد.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

اختلف الناس فيمن خوطب بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ـ فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أَهل الكتابين، أَي: يا مَنْ قد آمن بنبي من



الأنبياءِ آمِن بمحمد عليه الصلاة والسلام، ورجَّح الطبري هذا القول. وقيل: الخطاب للمؤمنين على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على الكمال والتوفية بالله تعالىٰ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ومضمن هذا الأمر الثبوت والدوام. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيها الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم، لكن إيمانكم حقيقة على هذه الصورة.

وقرأَ أَبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر: [نُزِّل] بضم النون وكسر الزاي المشددة على ما لم يُسَمَّ فاعله، وكذلك قرؤُوا: [وَالْكِتَابِ الَّذي أُنْزِل من قَبْلُ] بضم الهمزة وكسر الزاي على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الباقون: [نَزَّلَ وَأَنْزَل] بفتح النون والزاي وبفتح الهمزة في [أَنزل] على إسناد الفعل إلى الله تعالىٰ، وروي عن عاصم مثل قراءَة أَبي عمرو. والكتاب المذكور أَولاً هو القرآن، والمذكور ثانياً هو اسم جنس لكل ما نزل من الكتاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد وخبر مُضمنة تحذير المؤمنين من حالة الكفر.

واختلف المتأَولون في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ ـ فقالت طائفة منهم قتادة وأَبو العالية: الآية في اليهود والنصارى، آمنت اليهود بموسى والتوراة ثم كفروا، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، ورجح الطبري هذا القول. وقال الحسن بن أَبي الحسن: الآية في الطائفة من أَهل الكتاب التي قالت: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾[1]، وقال مجاهد، وابن زيد: الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر، يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً بأَن تَمَّ على نفاقه حتى مات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول المترجح، وقول الحسن بن أَبي الحسن جيد محتمل، وقول قتادة

(١) وهي قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الآية (٧٢).



وأَبي العالية وهو الذي رجح الطبري قول ضعيف ، تدفعه أَلفاظ الآية. وذلك أَن الآية إِنما هي في طائفة يتصف كل واحد منها بهذه الصفة من التردد بين الكفر والإِيمان ، ثم يزداد كفراً بالموافاة ، واليهود والنصارى لم يترتب في واحد منهم إِلا إِيمان واحد وكفر واحد ، وإِنما يُتَخَيَّلُ فيهم الإِيمان والكفر مع تلفيق الطوائف التي لم تتلاحق في زمان واحد ، وليس هذا مقصد الآية[١]. وإِنما توجد هذه الصفة في شخص في المنافقين ، لأَن الرجل الواحد منهم يؤمن ثم يكفر ، ثم يوافي على الكفر ، وتأَمل قوله تعالىٰ: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ فإِنها عبارة تقتضي أَن هؤلاء محتوم عليهم من أول أَمرهم ، ولذلك ترددوا ، وليست هذه العبارة مثل أَن يقول: «لا يغفر الله لهم» ، بل هي أَشد. وهي مشيرة إِلى استدراج مَنْ هذه حاله وإِهلاكه[٢] ، وهي عبارة تقتضي لسامعها أَن يتنبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه ، وأَن يكون من هؤلاءِ ، وكلٌّ من كفر كفراً واحداً ووافى عليه فقد قال الله تعالىٰ: «إِنه لا يغفر له» ، ولم يقل: «لم يكن الله ليغفر له» ، فتأَمل الفرق بين العبارتين فإِنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله ، كأَن قوله: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ ﴾ حُكْمٌ قد تقرر عليهم في الدنيا وهم أَحياءٌ.

قوله تعالىٰ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآية دليلٌ ما على أَن التي قبلها إِنما هي في المنافقين كما ترجَّح آنفاً ، وجاءَت البشارة هنا مصرحاً بقيدها ، فلذلك حسُن استعمالها في المكروه ، ومتى جاءَت مُطْلقة فإِنما عرفها في المحبوب[٣].

---

(١) في بعض نسخ الأصول: «وليس هذا مقصد الكلام».

(٢) في بعض النسخ: «إِلى استدراج من هذه حالُه أَو هَلاكِه».

(٣) قال في (البحر): جاء بلفظ (بشِّرْ) على سبيل التهكم بهم ، نحو قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وكما قيل:

تَحِيَّةُ بَيْنهم ضربٌ وجيع

ثم نصَّ تعالىٰ من صفة المنافقين على أَشدها ضرراً على المؤمنين ، وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين ، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أَن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أَو جهالة أَو مسامحة.

ثم وقف تعالىٰ على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك أَهو طلب العزة والاستكثار بهم؟ أَي: ليس الأَمر كذلك ، بل العزة كلها لله ، يؤتيها من يشاءُ ، وقد وعد بها المؤمنين ، وجعل العاقبة للمتقين. والعزة أَصلها: الشدة والقوة ، ومنه: الأَرض العَزَازُ ، أَي: الصلبة ، ومنه: عَزَّني ، أَي: غلبني بشدته ، واسْتَعَزَّ المرض إِذا قوي ، إِلى غير هذا من تصاريف اللفظة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ مخاطبةٌ لجميع من أَظهر الإِيمان من محقق ومُنافق ، لأَنه إِذا أَظهر الإِيمان فقد لزمه أَن يمتثل أَوامر كتاب الله تعالىٰ ، والإِشارة بهذه الآية إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[(١)] إِلى نحو هذا من الآيات.

وقرأَ جمهور الناس: [نُزِّلَ عَلَيْكُمْ] بضم النون وكسر الزاي المشددة ، قال الطبري: وقرأَ بعض الكوفيين ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي المشددة ، على معنى: نزَّل الله ، وقرأَ أَبو حَيْوة ، وحُمَيْد: [نَزَلَ] بفتح النون والزاي خفيفة ، وقرأَ إِبراهيم النخعي: [أُنْزِلَ] بأَلف على بناءِ الفعل للمفعول ، والكتاب ـ في هذا الموضع ـ: القرآن[(٢)].

وفي هذه الآية دليلٌ قوي على وجوب تجنب أَهل البدع وأَهل المعاصي ، وأَلا يُجَالسوا ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أَنه أخذ قوماً يشربون الخمر ، فقيل له عن أَحد الحاضرين: «إِنه صائم» فحمل عليه الأَدب ، وقرأَ هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[(٣)] ،

---

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ في موضع نصب بوقوع الفعل عليه في قراءة من قرأ بفتح النون من ﴿نَزَّلَ﴾ مع الزاي المفتوحة المشددة ، وهي قراءة عاصم ويعقوب ، وذلك لتقدم اسم الله تعالىٰ في قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ـ أما في قراءة الباقين فهي في موضع رفع لكونه اسم ما لم يُسَمَّ فَاعله ، وقوله تعالىٰ: ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ في موضع نصب على الحال ، والضمير في قوله: ﴿مَعَهُمْ﴾ عائد على المحذوف الذي دلَّ عليه قوله: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ﴾ ، أي: فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين ، و﴿حَتَّىٰ﴾ غايةٌ لترك القعود معهم.

(٣) معنى ذلك أَن الرضا بالمعصية معصية ، ولهذا يؤخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي ، ولكن المماثلة=



وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، وهذا المعنى كقول الشاعر:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عنْ قَرِينِه فكُـلُّ قـريـنٍ بـالمقـارن يقتـدي

ثم توعد تعالىٰ المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النَّهْيُ والحذر من مجالستهم وخلطتهم.

قوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للمنافقين، و﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ معناه: ينتظرون دور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهرونه من الإيمان، وإن كان للكافرين نيلٌ من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطنونه من موالاة الكفار، وهذا حال المنافقين.

و﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ معناه: نغلب على أَمركم، ونحوطكم ونحمي أَمركم، ومنه قول العجاج في صفة ثور وبقر:

يَحُوذُهُنَّ ولَهُ حُوذيُّ(١)

= ـ كما قال ابن عطية ـ ليست في جميع الصفات. قال في (البحر المحيط): «و(إذاً) هنا توسطت بين الاسم والخبر وأُفرد (مثل) لأَن المعنى: إن عصيانكم مثل عصيانهم، فالمعنى على المصدر، كقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ وقد جمع في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ وفي قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، والإفراد والمطابقة في التثنية أو الجمع جائزان» (٣ ـ ٣٧٥).

(١) جاء في «لسان العرب»: وحاذَ إبله يحوذُها حوْذاً: ساقها سوقاً شديداً كحازها حوزاً، ورُوي هذا البيت: يَحوذُهُنَّ ولَهُ حُوذيُّ

فسَّرهُ ثعلب بأَن معنى قوله: «حوذيٌّ» امتناع في نفسه، قال ابن سيده: ولا أعرف هذا إلا هاهنا، والمعروف:

يَحوزُهُنَّ وله حوزيُّ

=



أَي: يغلبهن على أَمرهن، ويغلب الثيران عليهن، ويروى: «يحوزهن» بالزاي. ومن اللفظة قول لبيد في صفة عيْر وأُتُن.

إِذَا اجْتَمَعَتْ وَأَحْوَذَ جَانِبَيْهَا وأَوْرَدَهَا على عُوجٍ طِوال[1]

أحوذ جانبيها: قهرها وغلب عليها. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2] معناه: غلب عليهم، وشذَّ هذا الفعل في أَن لم تُعَلَّ واوه، بل استعملت على الأَصل.

وقرأَ أُبي بن كعب: [وَمَنَعْنَاكُمْ مِنَ الْمُؤمِنِين]، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [ونَمْنَعَكُمْ] بفتح العين على الصرف[3].

ثم سلَّى وآنس المؤمنين بما وعدهم به في قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَي: وبينهم، وينصفكم من جميعهم، ولقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وقال يُسَيْع الحَضْرَمي: كنت عند أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أَمير المؤمنين، أَرأَيت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أَحياناً؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم[4]، وبهذا قال جميع أَهل التأْويل.

والسبيل: الحجة والغلبة، ومخادعة المنافقين هي لأَولياء الله تعالىٰ، إِذ يظنونهم غير أَولياء، ففي الكلام حذف المضاف، وإِلزام ذنب اقتضته أَفعالهم وإِن كانت نيَّاتهم لم تقتضه، لأَنه لا يقصد أَحد من البشر مخادعة الله تعالىٰ.

= والبيت من رجز يقول في مطلعه:

بكَيْتُ والمحتَزِنُ البكيُّ وإنما يأتي الضبا الصبيُّ

(١) يصف العير وقد طارد الأُتُن، ويريد بالعُوج: القوائم ـ يقول: إذا قهرها وغلب عليها ضمَّها ولم يَفُتْهُ منها شيء.

(٢) من قوله تعالىٰ من سورة المجادلة: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية (١٩).

(٣) قال في (البحر المحيط): «يعني الصرف عن التشريك لما بعدها في إعراب الفعل الذي قبلها، وليس النصب على الصرف من اصطلاح البصريين». والمعنى على هذه القراءة: أَلم نجمع بين الاستحواذ عليكم ومنعكم من المؤمنين»؟ ونظيره قول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ ويَكُونَ بَيْني وبَيْنَكُم المَوَدَّةُ والإِخَاءُ؟

(٤) في بعض النسخ: «يوم القيامة يوم الحكم». ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس: «ذاك يوم القيامة»، كما ذكر ذلك القرطبي، وقد قال ابن العربي: «وهذا ضعيف»، وارجع إلى تعليل هذا الضعف عنده كما ذكره القرطبي رحمه الله.



وقوله: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ أي: منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سمّاها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذُلُّهم وخوفهم وغمُّ قلوبهم، وفي الآخرة عذاب جهنم، وقال السدي، وابن جريج، والحسن، وغيرهم من المفسرين: إن هذا الخدع هو أن الله تعالىٰ يعطي لهذه الأمة يوم القيامة نوراً لكل إنسان مؤمن أو منافق، فيفرح المنافقون، ويظنون أنهم قد نجوا، فإذا جاءُوا إلى الصراط طفئَ نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذلك، فذلك قول المنافقين: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾(١)، وذلك هوالخدع الذي يجري على المنافقين. وقرأ مسلمة بن عبد الله النحوي: [وَهُوَ خَادِعْهُمْ] بإسكان العين، وذلك على التخفيف.

ثم ذكر تعالىٰ كسَلَهم في القيام إلى الصلاة، وتلك حال كل من يعمل العمل كارهاً غير معتقد فيه الصواب تقية أو مصانعة، وقرأ ابن هرمز الأعرج: [كَسَالى] بفتح الكاف، وقرأ جمهور الناس: [يُرَؤُّونَ] بهمز مضمومة مشدَّدة بين الراءِ والواو دون ألف، وهي تعدية (رأى) بالتضعيف، وهي أقوى في المعنى من ﴿ يُرَآءُونَ ﴾ لأن معناها: يحملون الناس على أن يَرَوْهم، ويتظاهرون لهم بالصلاة وهم يبطنون النفاق. وتقليله ذكرهم يحتمل وجهين، قال الحسن: قَلَّ لأنه كان لغير الله، فهذا وجه، والثاني أنه قليل بالنسبة إلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر.

﴿ مُّذَبۡذَبِينَ ﴾ معناه: مضطربين لا يثبتون على حال، والتذبذب: الاضطراب بخجل أو خوف أو إسراع في المشي أو نحوه، ومنه قول النابغة:

. . . . تَرى كُلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذبْذب(٢)

ومنه قول الآخر:

خيالٌ لأُمِّ السَّلْسَبيلِ وَدُونها مَسيرَةُ شَهْرٍ لِلْبريدِ الْمُذَبْذبِ(٣)

---

(١) الحديد: ١٣.

(٢) البيت بتمامه ـ وقد قاله يخاطب النعمان بن المنذر ويمدحه: ـ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرى كُلَّ مَلْكٍ دونهَا يَتَذَبْذَبُ؟

يريد: إن الله أعطاك منزلة ومكانة يضطرب أمامها ويخجل كل ملك آخر.

(٣) البيت للبعيث بن حريث، وبعده ـ كما في الحماسة ـ:

فقلتُ لها أَهْلا وسَهْلا ومَرْحَبا فَردَّت بتأهيلٍ وسهْلٍ ومَرْحب

والمُذَبْذِب بكسر الذال الثانية معناه: «الممتر القلق الذي لا يثبت ولا يتمهل» قاله ابن جني.

بكسر الذال الثانية، قال أبو الفتح: أي: المهتز، القلق، الذي لا يثبت ولا يتمهل، فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفرة والمؤمنين ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»(١)، فالإشارة بذلك إلى حالي الكفر والإيمان، وأشار إليه وإن لم يتقدم ذكر لظهور تضمن الكلام له، كما جاءَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٢).

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ بفتح الذال الأولى والثانية، وقرأ ابن عباس، وعمرو بن فائد: [مُذَبْذِبِينَ] بكسر الذال الثانية، وقرأ أُبي بن كعب: [مُتَذَبْذِبِينَ] بالتاءِ وكسر الذال الثانية، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [مَذَبْذَبِينَ] بفتح الميم والذالين. وهي قراءَة مردودة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ معناه: سبيل هدى ولا رشاد.

قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

خطابه تعالىٰ يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان، ففي اللفظ رِفقٌ بهم، وهم المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ لأن

---

(١) رواه مسلم، وأحمد في مسنده، والنسائي ـ عن ابن عمر، ونصه كاملا: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تتبع». والعائرة: مؤنث العائر ـ ومعناها فسّره الحديث نفسه.

(٢) الآية الأولى رقم (٣٢) وهي قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، يعني الشمس، أضمرها ولم يجر لها ذكر.
والآية الثانية رقم (٢٦) وهي قوله تعالىٰ في سورة الرحمن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، يريد على الأَرض. أيضاً أَضمرها ولم يجر لها ذكر ـ والعرب تفعل ذلك إذا كان في الكلام ما يدل عليه باللفظ أو القرائن المعنوية.

التوقيف إنما هو لمن أَلَمَّ بشيءٍ من الفعل المؤدي إلى هذه الحال، والمؤمنون المخلصون ما أَلَمُّوا قط بشيءٍ من ذلك ويُقوي هذا المنزع قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أَي: والمؤمنون العارفون المخلصون غيب عن هذه الموالاة، وهذا لا يقال للمؤمنين المخلصين، بل المعنى: يأَيُّها الذين أَظهروا الإيمان، والتزموا لوازمه.

والسلطان: الحجة، وهي لفظة تؤنث وتذكر، والتذكير أَشهر، وهي لغة القرآن حيث وقع[1]، والسطان إِذا سمِّي به صاحب الأَمر فهو على حذف مضاف والتقدير: ذو السلطان، أَي: ذو الحجة على الناس، إِذ هو مدبرهم والناظر في منافعهم.

ثم أَخبر تعالىٰ عن المنافقين أَنهم في الدرك الأَسفل من نار جهنم، وهي أَدراك بعضها فوق بعض[2] سبعة، طبقة على طبقة، أَعلاها هي جهنم، وقد يسمىٰ جميعها باسم الطبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإِيمان ويُبطنون الكفر هم في أَسفل طبقة من النار، لأَنهم أَسوأُ غوائل من الكفار، وأَشد تمكناً من أَذى المسلمين.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [في الدَّرَكِ] مفتوحة الراءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، والأَعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿فِي ٱلدَّرْكِ﴾ بسكون الراءِ، واختلف عن عاصم، فروى عنه الفتح والسكون، وهما لغتان، قال أَبو علي: كالشَّمَع والشَّمْع، ونحوه.

---

(١) هذا مخالف لما قاله الفراء، ونقله عنه أبو حيان في (البحر المحيط)، ونص كلامه: «أُنِّث وذُكِّر، وبعض العرب يقول: قضت به عليك السلطان، وقد أَخَذَتْ فلاناً السلطان، والتأنيث عند الفصحاء أكثر». ا هـ، ثم قال أبو حيان: «فمن ذكَّر ذهب به إلى البرهان والاحتجاج، ومن أَنث ذهب به إلى الحجة، وإنما اختير التذكير هنا في الصفة وإن كان التأنيث أكثر، لأنه وقع الوصف فاصلة، فهذا هو المرجح للتذكير على التأنيث». ولنا أن نؤيد كلام ابن عطية، فإن السلطان جاء مذكراً حيثما وقع كما قال، فإذا كانت الفاصلة هنا هي سبب التذكير فما سبب التذكير في الآيات الأخرى كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؟ ليس لذلك من سبب إلا أن التذكير أفصح.

(٢) قال ابن عباس: «الدرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة، إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض» يعني أن استعمال العرب لكل ما تسافل أَدراك، ولما تعالى درج ـ وأعلى الدركات جهنم، ثم لظى، ثم الحُطَمَة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وهي مقر المنافقين.



وروي عن أَبي هريرة، وعن عبد الله بن مسعود، وغيرهما أَنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأَسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم(١)، والنصير: بناءُ مبالغة من النصر.

ثم استثنى عز وجل التائبين من المنافقين، ومن شروط التائب أَن يصلح في قوله وفعله، ويعتصم بالله، أَي: يجعله منعته وملجأَه، ويخلص دينه لله تعالىٰ، وإِلا فليس بتائب، وقال حذيفة بن اليمان بحضرة عبد الله بن مسعود: «والله ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين»، فقال عبد الله بن مسعود: «وما علمك بذلك»؟ فغضب حذيفة وتنحى، فلما تفرقوا مرَّ به علقمة فدعاه وقال: أَما إِن صاحبكم يعلم الذي قلت، ثم تلا ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ ﴾ الآية، وأَخبر الله تعالىٰ أَنهم مع المؤمنين في رحمة الله، وفي منازل الجنة، ثم وعد المؤمنين الأجر العظيم.

وحذفت الياءُ من: ﴿ يُؤْتِ ﴾ في المصحف تخفيفاً، قال الزجاج: لسكونها وسكون اللام في ﴿ ٱللَّهُ ﴾، كما حذفت من قوله: ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾(٢)، وكذلك: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾(٣)، وأَمثال هذا كثير، والأَجر العظيم: التخليد في الجنة.

ثم قال تعالىٰ للمنافقين: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ الآية، أَي: أَيُّ منفعة له في ذلك أَو حاجة؟ والشكر على الحقيقة لا يكون إِلا مقترناً بالإِيمان، لكنه ذكر الإِيمان تأْكيداً وتنبيهاً على جلالة موقعه، ثم وعد الله تعالىٰ بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أَي: يتقبل أَقل شيءٍ من العمل ويُنَمِّيه، فذلك شكر منه لعباده، والشكور من البهائم الذي يأْكل قليلاً ويظهر به بدنه، والعرب تقول في مثل: «أَشكر من بَرْوَقَة»(٤)،

---

(١) أَخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي حاتم عن أبي هريرة، وأخرجه الفريابي وابن أبي شيبة، وهناد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في صفة النار عن ابن مسعود (الدر المنثور ٢ ـ ٣٣٦).

(٢) من قوله تعالىٰ من سورة ق الآية (٤١): ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

(٣) العلق: ١٨.

(٤) البَرْوَقُ: ما يكسو الأرض من أول خضرة النبات، وقيل: هي بقلة سوء تنبت في أول البقل لها قصبة مثل السياط وثمرة سوداء، واحدها: بَرْوَقة، وتقول العرب: هو أَشكر من بَرْوَق، وذلك أَنه يعيش بأدنى ندىً يقع من السماء، وقيل: لأنه يخضر إذا رأى السحاب، ويقال أيضاً: «أَضعف من بَرْوَقة» قال جرير:

كـأن سُيـوفَ التَّيْـم عِيـدانُ بَـرْوَقٍ ... إذا نُضِيَـتْ عنهـا لحَـرْبٍ جُفُـونهـا =

لأنها ـ يقال ـ تَخْضَرُّ وتنْضُر بظل السحاب دون مطر ، وفي قوله: ﴿ عَلِيمًا ﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص.

قوله تعالىٰ:

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾.

المحبة في الشاهد إرادة يقترن بها استحسان وميل اعتقاد ، فتكون الأَفعال الظاهرة من المحب بحسب ذلك ، والجهر بالسوءِ من القول لا يكون من الله تعالىٰ فيه شيءٌ من ذلك ، أَما إِنه يريد وقوع الواقع منه ولا يحبه هو في نفسه.

والجهر: كشف الشيءِ ، ومنه الجَهْرة في قول الله تعالىٰ: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١) ، ومنه قولهم: «جهرت البئر» إذا حفرت حتى أَخرجَت ماءَها. واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ ، وقراءَة جمهور الناس بضم الظاءِ وكسر اللام ، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق ، وزيد بن أَسلم ، والضحاك بن مزاحم ، وابن عباس ، وابن جبير ، وعطاءُ بن السائب ، وعبد الأَعلى بن عبد الله بن مسلم بن يسار ، ومسلم بن يسار ، وغيرهم: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ بفتح الظاءِ واللام ، واختلف المتأَولون على القراءَة بضم الظاءِ ـ فقالت فرقة: المعنى: لا يُحب الله أَن يجهر أَحد بالسوءِ من القول إِلا من ظُلم فلا يكره له الجهر به ، ثم اختلفت هذه الفرقة في كيفية الجهر بالسوءِ ، وما هو المباح من ذلك؟ ـ فقال الحسن: هوالرجل يظلم الرجل ، فلا يدع عليه ، ولكن ليقل: اللهم أَعني عليه ، اللهم استخرج لي حقي ، اللهم حُلْ بيني وبين ما يريد من ظُلمي. وقال ابن عباس وغيره: المباحُ لمن ظُلم أَن يدعو على من ظلمه ، وإِن صبر فهو أَحسن له ،

= والمثل: «أَشكر من بَرْوَقَة» يضرب لمن يقابل المعروف بالشكر والثناء العاجلين. أو لمن يمدح ويشكر لأقل نعمة يحصل عليها.

(١) النساء: ١٥٣ ، ومثلها قوله تعالىٰ في الآية (٥٥) في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، وقوله تعالىٰ في الآية (٤٧) في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقال مجاهد وغيره: هو في الضيف المحول رحله، فإنه يجهر للذي لم يكرمه بالسوءِ من القول، فقد رخص له أن يقول فيه، وفي هذا نزلت الآية، ومقتضاها ذكر الظلم وتَبيين الظُّلامة في ضيافة وغيرها، وقال ابن عباس، والسدي: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوءِ من القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه الأقوال على أربع مراتب:

قول الحسن ـ دعاء في المدافعة، وتلك أقل منازل السوءِ من القول.

وقول ابن عباس ـ الدعاءُ على الظالم بإطلاق في نوع الدعاءِ.

وقول مجاهد ـ ذكر الظُّلامة والظلم.

وقول السدي ـ الانتصار بما يوازي الظلامة.

وقال ابن المستنير: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ معناه: إلا من أُكره على أن يجهر بسوءِ من القول كفراً أو نحوه، فذلك مباح، والآية في الإكراه.

واختلف المتأولون على القراءَة بفتح الظاءِ واللام ـ فقال ابن زيد: المعنى: إلا من ظَلَم في قول أو فعل فاجْهروا له بالسوءِ من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ والرد عليه، قال: وذلك أنه لما أخبر الله تعالىٰ عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار، كان ذلك جهراً بالسوءِ من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية، على معنى التأنيس والاستدعاءِ إلى الشكر والإيمان، ثم قال للمؤمنين: لا يحب الله أن يجهر بالسوءِ من القول إلا لمن ظَلَمَ في إقامته على النفاق، فإنه يقال له: ألست المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل؟ ونحو هذا من الأقوال. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوءِ من القول، ثم استثنى استثناءً منقطعاً، تقديره: لكن من ظَلَم فهو يجهر بالسوءِ وهو ظالم في ذلك.

وإعراب [مَنْ] يحتمل في بعض هذه التأويلات النصب، ويحتمل الرفع على البدل من (أحد) المقدر[1]، وسميع عليم: صفتان لائقتان بالجهر بالسوءِ وبالظلم أيضاً، فإنه يعلمه ويجازى عليه.

---

(١) ناقشه أبو حيان في ذلك، وأثبت أنه لا يجوز. (البحر المحيط ٣ ـ ٣٨٤).

ولما ذكر تعالىٰ عذر المظلوم في أَن يجهر بالسوءِ لظالمه أَتبع ذلك عرض إِبداءِ الخير وإِخفائه، والعفو عن السُّوءِ، وَعَدَ عليه بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ وَعْدَ إِخْفَاءٍ تقتضيه البلاغة، ورغَّب في العفو إِذ ذكر أَنها صفته مع القدرة على الانتقام، ففي هذه الأَلفاظ اليسيرة معان كثيرة لمن تأَملها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ إِلى آخر الآية نزل في اليهود والنصارى، لأَنهم في كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام كأَنهم قد كفروا بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفر بالله، وفرقوا بين الله ورسله في أَنهم قالوا: نحن نؤمن بالله ولا نؤمن بفلان وفلان من الأَنبياءِ، وقولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ قيل: معناه: من الأَنبياءِ، وقيل: هو تصديق بعضهم لمحمد في أَنه نبي، لكن ليس إِلى بني إِسرائيل، ونحو هذا من تفريقاتهم التي كانت تعنتاً وروغاناً، وقوله: ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أَي: بين الإِيمان والإِسلام والكفر الصريح المجلَّح(١)، ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم الكافرون حقاً، لئلا يظن أَحد أَن ذلك القدر الذي عندهم من الإِيمان ينفعهم. وباقي الآية وعيد.

قوله تعالىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾.

لما ذكر الله تعالىٰ أَن المفرقين بين الرسل هم الكافرون حقاً، عقب ذلك بذكر المؤمنين بالله ورسله جميعاً، وهم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، ليصرح بوعد هؤلاءِ كما صرح بوعيد أُولٰئك، فبيَّن الفرق بين المنزلتين، وقرأَ بعض السبعة: ﴿ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ﴾ بالياءِ، أَي: يؤتيهم الله، وقرأَ الأَكثر: [سَوْفَ نُؤْتِيهِم] بالنون، منهم ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو.

واختلف المتأَولون في كيفية سؤال أَهل الكتاب لمحمد عليه الصلاة والسلام أَن

(١) المجَلّح: القائم على الجرأَة وركوب الرأس. (المعجم الوسيط).

ينزل عليهم كتاباً من السماء ـ فقال السدي: قالت اليهود: يا محمد، إن كنت صادقاً فجئ بكتاب من السماء كما جاءَ موسى بكتاب. وقال محمد بن كعب القرظي: قد جاءَ موسى بأَلواح فيها التوراة فجئ أَنت بأَلواح فيها كتابك. وقال قتادة: بل سأَلوه أَن يأْتي بكتاب خاص لليهود، يأْمرهم فيه بالإيمان بمحمد، وقال ابن جريج: قالت اليهود: يا محمد: لن نتابعك على ما تدعونا إِليه حتى تأْتينا بكتاب من عند الله إِلى فلان وإِلى فلان أَنك رسول الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقول ابن جريج يقتضي أَن سؤَالهم كان على نحو سؤال عبد الله بن أَبي أُمية المخزومي القرشي[١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ على جهة التسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، وعرض الأُسوة، وفي الكلام متروك يدل عليه المذكور، تقديره: فلا تبال يا محمد عن سؤالهم وتشَطُّطهم فإِنها عادتهم، فقد سأَلوا موسى أَكبر من ذلك. وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَكْبَرَ﴾ بالباءِ المنقوطة بواحدة، وقرأَ الحسن: [أَكْثر] بالثاءِ المثلثة. وجمهور المتأَولين على أَن ﴿جَهْرَةً﴾ معمول لـ ﴿أَرِنَا﴾ أَي: حتى نراه جهاراً، أَي: عياناً رؤْيا منكشفة بيِّنة، وروي عن ابن عباس أَنه كان يرى أَن ﴿جَهْرَةً﴾ معمول لـ [قالوا]، أَي: قالوا جهْرةً منهم وتصريحاً: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَهل السُّنَّة معتقدون أَن هؤلاءِ لم يسأَلوا محالا عقلا، لكنه محال من جهة الشرع، إِذ قد أَخبر الله تعالىٰ على أَلسنة أَنبيائه أَنه لا يُرى في هذه الحياة الدنيا، والرؤْية في الآخرة ثابتة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه بالخبر المتواتر[٢] وهي

(١) اسمه: حذيفة، وقيل: سهل بن المغيرة، صهر النبي ﷺ، وابن عمته عاتكة، وأخو أُم سلمة، قال البخاري: له صحبة، وله ذكر في الصحيحين من طريق زينب بنت أبي سلمة، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف، ورمي يوم الطائف بسهم فقتله.

(٢) أحاديث الرؤية يوم القيامة متواترة، فقد وردت بطرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة ـ ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنَا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضَارُونَ في رؤية القمر ليلة البدر»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هَل تُضَارُون في الشمس ليس=

جائزة عقلا دون تحديد ولا تكييف ولا تحيُّز ، كما هو تعالى معلوم لا كالمعلومات ، كذلك هو مرئي لا كالمرئيات. هذه حجة أَهل السُّنَّة وقولهم ، ولقد حدثني أَبي رضي الله عنه ، عن أَبي عبد الله النحوي أَنه كان يقول عند تدريس هذه المسأَلة: مثال العلم بالله حَلَق لِحَى المعتزلة في إِنكارهم الرؤْية(١) ، والجملة التي قالت: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ هي التي مضت مع موسى لحضور المناجاة ، وقد تقدم قصصها في سورة البقرة.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، وإِبراهيم النخعي: [الصَّعْقَة] ، والمعنى يتقارب ، إِذ ذلك كله عبارة عن الوَقْع الشديد من الصوت يصيب الإِنسان بشدته وهو له خمود وركود حواس ، وظلمهم هو تَعَنُّتهم وسؤالهم ما ليس لهم أَن يسأَلوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ ترتيب في الإِخبار لا في نفس الأَمر ، التقدير: ثم قد كان من أَمرهم أَن اتخذوا العجل ، وذلك أَن اتخاذ العجل كان عند أَمر المضي للمناجاة ، فلم يكن الذين صُعقوا ممن اتخذوا العجل ، لكن الذين اتخذوه كانوا قد جاءَتهم البينات في أَمر إِجازة البحر ، وأَمر العصا ، وغرق فرعون ، وغير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ يعني بما امتحنهم به من القتل لأَنفسهم ، ثم وقع العفو عن الباقين منهم ، والسلطان: الحجة(٢).

قوله تعالىٰ:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿ٱلطُّورَ﴾: الجبل اسم جنس ، وهذا قول. وقيل: الطور: كل جبل غير منبت ،

= دونها سحاب»؟ قالوا: لا ، قال: «فإنكم ترونه كذلك». ـ والحديث طويل ـ رواه البخاري ومسلم.

(١) يريد أن هذه الحجة أعجزتهم ، وكشفت موقفهم ، وأظهرت عجزهم عن الرد ، فرؤية الله تعالىٰ بدون كيف ولا تحديد تماثل علمنا به سبحانه وتعالىٰ بدون تحديد ولا تكييف ، واللحى: جمع لحية.

(٢) والحجة هنا هي الآيات التي جاء بها وسبقت الإشارة إليها ، وسميت سلطاناً لأن من جاء بها قاهر بالحجة ، وهي قاهرة للقلوب التي تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلها.

وبالشام جبل قد عرف بالطور ، ولزمه الاسم ، وهو طور سيناء ، وليس بالمرفوع على بني إسرائيل ، لأَن رفع الجبل كان فيما يلي فحص التيه من جهة ديار مصر ، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام ، وقدتقدم في سورة البقرة قصص رفع الطور. وقوله ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: بسبب ميثاقهم أَن يعطوه في أَخذ الكتاب بقوة ، والعمل بما فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ هوباب بيت المقدس المعروف بباب حطة ، أمروا أَن يتواضعوا شكراً لله تعالىٰ على الفتح الذي منحهم في تلك البلاد ، وأَن يدخلوا باب المدينة سجداً ، وهو نوع من سجدة الشكر التي قد فعلها كثير من العلماء ، ورويت عن النبي ﷺ ، وإن كان مالك بن أَنس رحمه الله لا يراها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أَي: على الحيتان وفي سائر الأَعمال ، وهؤلاءِ كانوا بأَيْلَة من ساحل البحر ، فأُمروا بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا ، بل اصطادوا وتصرفوا ، وقد تقدم قصص ذلك ، وأَخذ الله تعالىٰ منهم الميثاق الغليظ هو على لسان موسى وهارون وغيرهما من الأَنبياءِ ، أَي: بأَنهم يأْخذون التوراة بقوة ويعملون بجميع ما فيها ، ويوصلونه إِلى أَبنائهم ، ويؤدون الأَمانة فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ الآية ، إِخبار عن أَشياءَ واقعوها هي في الضد مما أُمروا به ، وذلك أَن الميثاق الذي رفع الطور من أَجله نقضوه ، والإيمان الذي تضمنه ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ، إِذْ ذلك التواضع إِنما هو ثمرة الإِيمان والإِخبات جعلوا بدله كفرهم بآيات الله ، وقولهم: «حبة في شعرة وحنطة في شعيرة» ، ونحو ذلك مما هو استخفاف بأَمر الله وكفر به ، وكذلك أُمروا بأَلا يعتدوا في السبت ، وفي ضمن ذلك الطاعة وسماع الأَمر ، فجعلوا بدل ذلك الانتهاءَ إِلى انتهاك أَعظم حرمة ، وهي قتل الأَنبياءِ ، وكذلك أَخذ الميثاق الغليظ منهم تضمن فهمهم بقدر ما التزموه ، فجعلوا بدل ذلك تجاهلهم. وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أَي: هي في حجب وغلف[1] ، فهي لا تفهم ، وأَخبر الله تعالىٰ أَن ذلك كله عن طبع منه على قلوبهم ، وأَنهم كَذَبَة فيما يدعونه من قلة الفهم.

---

(١) يُقال: غلفَ قلبه: لم يعِ الرشد كأن عليه غلافاً فهو أغلف ـ وجمع أَغْلَف: غُلْفٌ ، أي: قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول ، وهذا هو المعنى الذي وضحه ابن عطيّة ، وقال القرطبي: «غُلف جمع غِلاف ، أي: قلوبنا في أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا».



وقرأ نافع: [تَعْدُّوا] بسكون العين وشد الدال المضمومة[١]، وروى عنه ورش: [تَعَدُّوا] بفتح العين وشد الدال المضمومة[٢]، وقرأ الباقون: ﴿لَا تَعْدُوا﴾ ساكنة العين خفيفة الدال مضمومة، وقرأ الأعمش، والحسن: [لا تعْتَدُوا].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا﴾، (ما) زائدة مؤكدة، التقدير: فبنقضهم، وحذف جواب هذا الكلام بليغ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحتَّمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم[٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: في أمر عيسى عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ يعني رميهم إيَّاها بالزنى مع رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المهد، وإلا فلَوْلا الآية لكانوا في قولهم جارين على حكم البشر في إنكار حمل من غير ذكر. والبُهتان: مصدر، من قولك: بَهَته إذا قابله بأمرٍ مُبهت يحار معه الذهن، وهو رميٌ بباطِلٍ.

قوله تعالىٰ:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

هذه الآية والتي قبلها عدد الله تعالىٰ فيها أقوال بني إسرائيل وأفعالهم على اختلاف الأزمان، وتعاقبُ القرون، فاجتمع من ذلك توبيخ خلفهم المعاصرين لمحمد ﷺ، وبيان الحجة في أن وجبت لهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فهذه الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ غير الذين نقضوا الميثاق في الطور، وغير الذين اتخذوا العجل، وقول بني إسرائيل إنما هو إلى قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وقوله عز وجل:

---

(١) قال النحاس: «ولا يجوز إسكان العيْن، ولا يوصل إلى الجمع بين ساكنين في هذا، والذي يقرأُ بها إنما يروم الخطأ. (عن القرطبي).

(٢) فهي ـ على هذا ـ من: عَدَا يعْدُو عَدْواً وعُدْواناً وعُدُوّاً وعداءً، وكان عدوانهم باقتناص الحيتان يوم السبت. قال ذلك القرطبي.

(٣) ناقشه صاحب البحر في ذلك فقال: «وتسميته ما يتعلق به المجرور جواباً اصطلاح لم يُعهد في علم النحو، ولا تساعده اللغة، لأنه ليس بجواب».

﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إنما هو إخبار من الله تعالىٰ بصفة لعيسى وهي الرسالة ، على جهة إظهار ذنب هؤلاءِ المقرين بالقتل ، ولزمهم الذنب وهم لم يقتلوا عيسى لأَنهم صلبوا ذلك الشخص على أنه عيسى ، وعلى أَن عيسى كذاب ليس برسول ، ولكن لزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أَن قتلهم وقع في عيسى فكأَنهم قتلوه ، وإذا كانوا قتلوه فليس يرفع الذنب عنهم اعتقادهم أَنه غير رسول ، كما أَن قريشاً في تكذيبهم رسول الله ﷺ لا ينفعهم فيه اعتقادهم أَنه كذاب ، بل جازاهم الله على حقيقة الأَمر في نفسه ، ثم أَخبر تعالىٰ أَن بني إسرائيل ما قتلوا عيسى ولا صلبوه ، و﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ، واختلفت الرواة في هذه القصة وكيفيتها اختلافاً شديداً أَنا أَختصر عيونه ، إذ ليس في جميعه شيءٌ يقطع بصحته ، لأَنه لم يثبت عن النبي ﷺ فيه شيءٌ ، وليس لنا متعلق في ترجيح شيءٍ منه إلا أَلفاظ كتاب الله. فالذي لا نشك فيه أَن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأَرض ، ويدعو إلى الله ، وكانت بنو إسرائيل تطلبه ، وملكهم في ذلك الزمان يجعل عليه الجعائل ، وكان عيسى عليه السلام قد انضوى إليه الحواريون يسيرون معه حيث سار ، فلما كان في بعض الأَوقات شعر بأَمر عيسى عليه السلام ، فروي أَن أَحد الحواريين أُرشي[1] عليه فقبل الرِّشوة ودلَّ على مكانه فأُحيط به ، ثم ندم ذلك الحواري وخنق نفسه ، ورُوي أَن رجلاً من اليهود جُعل له جُعْل فما زال ينقر عليه حتى دلَّ على مكانه ، فلما أَحسَّ عيسى عليه السلام وأَصحابه بتلاحق الطالبين بهم دخلوا بيتاً بمرأَى من بني إسرائيل ، فروي أَنهم عدُّوهم ثلاثة عشر ، وروي ثمانية عشر ، وحُصروا ليلاً ، فروي أَن عيسى عليه السلام فرق الحواريين عن نفسه تلك الليلة ، ووجَّههم إلى الآفاق ، وبقي هو ورجل معه ، فرفع عيسى وأُلقي شبهه على الرجل ، فصلب ذلك الرجل ، وروي أَن الشبه أُلقي على اليهودي الذي دلَّ عليه فصلب ، وروي أَن عيسى عليه السلام لما أُحيط بهم قال لأَصحابه: أَيكم يلقى شبهي عليه فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقي في الجنة؟ فقال سرجس: أَنا ، وأُلقي عليه شبه عيسى ، وروي أَن شبه عيسى عليه السلام أُلقي على الجماعة كلها ، فلما أَخرجهم بنو إسرائيل نقص واحد من العدة ، فأَخذوا واحداً ممن أُلقي عليه الشبه حسب هذه الروايات التي ذكرتها ، فصلب ذلك الشخص ، وروي أَن الملك والمتناولين لم يخف عليهم أَمر رفع عيسى عليه السلام لما

(١) لعلَّ الصواب: رُشي ، لأن المادة ثلاثية.

رأَوا أَمر نقصان العدد واختلاط الأَمر ، فصلب ذلك الشخص ، وأُبعد الناس عن خشبته أَياماً حتى تغيَّر ولم تثبت له صفة ، وحينئذ دنا الناس منه ، ومضى الحواريون يحدثون بالآفاق أَن عيسى صلب ، فهذا أَيضاً يدل على أَنه فرقهم وهو في البيت ، أَو على أَن الشبه أُلقي على الكل ، وروي أَن هذه القصة كلها لم يكن فيها إِلقاءُ شبه شخص عيسى على أَحد ، وإِنما المعنى: ولكن شبه لهم ، أَي: شبه عليهم الملك الممخرق(١) ليستديم ملكه ، وذلك أَنه لما نقص واحد من الجماعة وفقد عيسى عمد إِلى أَحدهم ، وبطش بصلبه ، وفرق الناس عنه وقال: هذا عيسى قد صلب وانحل أَمره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يعني: اختلاف المحاولين لأَخذه ، لأَنهم حين فقدوا واحداً من العدد ، وتُحُدِّثَ برفع عيسى اضطربوا واختلفوا. وعلى رواية من روى أَنه أُلقي شَبَهٌ يوشك أَنه بقي في ذلك الشبه مواضع للاختلاف ، لكن أَجمعوا على صلب واحدٍ على غير ثقة ولا يقين أَيهم هو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فاليقين الذي صحَّ فيه نقل الكافة عن حواسها هو أَن شخصاً صُلب ، وأَما ، هل هو عيسى أَم لا؟ فليس هو من علم الحواس ، فلذلك لم ينفع في ذلك نقل كافة اليهود والنصارى ، ونفى الله عنهم أَن يكون لهم في أَمره علْم على ما هو به.

ثم استثنى اتباع الظن ، وهو استثناءٌ متصل ، إِذ الظن والعلم يضمهما جنس أَنهما من معتقدات النفس ، وقد يقول الظانُّ على طريق التَّجَوُّز: علمي في هذا الأَمر أَنه كذا ، وهو يعني ظَنَّه(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ ، اختلف المتأَولون في عود الضمير من ﴿قَتَلُوهُ﴾ ـ

---

(١) قال في لسان العرب: «وقال الليث ، خَرِقَ الرَّجُلُ إذا بقي متحيراً من همٍّ أو شِدَّةٍ ، وأَخْرَقَه الخوف». وقال أيضاً: «والخَرق بالتحريك: الدَّهَشُ من الفزع أو الحياء ، وقد أخرقته أي: أدهشته» ، فالمعنى المراد هو وصف الملك بالدهشة والحيرة مما رأى ، ولكن يظهر أن الكلمة الصحيحة هنا هي: «الملك المخرق» بميم واحدة.

(٢) عقب على ذلك أبو حيان في (البحر المحيط) فقال: «وليس كما ذكر ، لأن الظن ليس من معتقدات اليقين ، لأنه ترجيح أحد الجائزين ، وما كان ترجيحاً فهو ينافي اليقين ، كما أن اليقين ينافي ترجيح أحد الجائزين ، وعلى تقدير أن الظن والعلم يضمهما ما ذكر فلا يكون أيضاً استثناءً متصلاً ، لأنه لم يستثن الظن من العلم ، بل استثنى اتباع الظن» ١ هـ.



فقالت فرقة: هو عائد على الظن، كما تقول: قتلت هذا الأمر علماً، فالمعنى: وما صحَّ ظنُّهم عندهم ولا تَحَقَّقُوهُ يقيناً، هذا قول ابن عباس، والسدي، وجماعة، وقال قوم: الضمير عائد على عيسى عليه السلام، أخبر أنهم لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الإصفاق[١]، ويثبت نقل كافتهم. ومضمن الكلام أنهم ما قتلوه في الحقيقة جملة واحدة، لا يقيناً ولا شكاً، ولكن لما حصلت في ذلك الدعوى صار قتله عندهم مشكوكاً فيه، وقال قوم من أهل اللسان: الكلام تامٌّ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾. و﴿يَقِينًۢا﴾ مصدرٌ مؤكد للنفي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، المعنى: يخبركم يقيناً، أو يقص عليكم يقيناً، أو أيقنوا بذلك يقيناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ يعني: إلى سمائه وكرامته، وعيسى عليه السلام حيٌّ في السماء الثانية على ما تَضَمَّنَهُ حديث الإسراءِ في ذكر ابني الخالة عيسى ويحيى، ذكره البخاري في حديث المعراج[٢] وذكره غيره، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله لقتل الدجال، وليملأ الأرض عدلاً، ويحيا فيها أربعين سنة، ثم يموت كما يموت البشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾، اختلف المتأولون في معنى الآية ـ فقال ابن عباس، وأبو مالك، والحسن بن أبي الحسن، وغيرهم: الضمير في ﴿مَوۡتِهِۦۖ﴾ راجع إلى عيسى، والمعنى: إنه لا يبقى من أهل الكتاب أحد إذا نزل عيسى إلى الأرض إلا يؤمن بعيسى كما يؤمن سائر البشر، وترجع الأديان كلها واحداً، وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً، وغيرهما: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لعيسى، وفي ﴿مَوۡتِهِۦۖ﴾ للكتابي الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، التقدير: وإن من

---

(١) أَصْفَقُوا على الأمر: اجتمعوا عليه، وأَصفقوا على الرجل كذلك، قال زهير:
رأيتُ بَني آلِ امرئ القَيْسِ أَصفَقُو ... علينا، وقالوا: إننا نحن أَكثَرُ
وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «فَأَصْفقت له نِسْوان مكة»، أي: اجتمعت إليه ـ فيكون معنى كلام ابن عطية: «لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الاجتماع على هذا الرأي، ويثبت نقل كافتهم».

(٢) جاء في حديث المعراج كما رواه البخاري عن مالك بن صعصعة: «ثم صعد حتى أتى السماء الثانية: فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فَنِعْم المجيءُ جاء، ففتح، فلما خلصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسَلَّمت فردًا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». إلخ الحديث وهو طويل.

أَهل الكتاب أَحد[١] ، قالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى روح الله ، ويعلم أَنه نبي ، ولكن عند المعاينة للموت ، فهو إِيمان لا ينفعه ، كما لم ينفع فرعون إِيمانه عند المعاينة ، وقال هذا القول عكرمة ، والضحاك ، والحسن بن أَبي الحسن أَيضاً ، وقال عكرمة أَيضاً: الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ للكتابي ، قال: وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا حتى يؤمن بمحمد ، ولو غرق أَو سقط عليه جدارٌ فإِنه يؤمن في ذلك الوقت ، وفي مصحف أُبي بن كعب: [قَبْلَ مَوْتِهِم] ففي هذه القراءَة تقوية لعود الضمير على الكتابي ، وقرأَ الفياض بن غزوان: [وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتابِ] بتشديد [إِن] ، والضمير المستتر في ﴿ يَكُونُ ﴾ هو لعيسى عليه السلام في جُلِّ الأَقوال ، ولمحمد عليه الصلاة والسلام في قول عكرمة.

قوله تعالىٰ:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾ عطف على قوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾ ، كأَنه قال: فَبِنَقْضهم لَعَنَّاهم وأَوجَبْنا عذابهم ، فَبظُلم منهم حرَّمنا عليهم المطاعم. وجعل الله هذه العقوبة الدنيوية إِزاءَ ظلم بني إِسرائيل في تعنُّتهم وسائر أَخلاقهم الذميمة. والطيبات هنا هي الشحوم وبعض الذبائح والطير والحوت وغير ذلك ، وقرأَ ابن عباس: [طَيِّبَاتٍ «كَانَتْ» أُحِلَّت لَهُمْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ يحتمل أَن يريد صدهم في ذاتهم ، ويحتمل أَن يريد صدهم غيرهم ، وإِلى هذا ذهب الطبري ، وقال: هو جحدهم أَمر محمد ﷺ ، فإِنهم صدُّوا بذلك جمعاً عظيماً من الناس عن سبيل الله ، و﴿ وَأَخْذِهِمُ

(١) هذا هو تقدير سيبويه للآية ، أما الكوفيون فيقدرونها: وإن مِنْ أهل الكتاب إلا مَنْ ليؤمنن به ، قالوا: وفيه قبح ، لأن فيه حذف الموصول ، والصلة بعض الموصول ، فكأن فيه حذف بعض الاسم ، هذا ومثل هذه الآية آيات أُخرى كثيرة ، منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، والتقدير فيهما: وما أحد منكم إلا واردها ، وما أحدٌ منا إلا له مقام معلوم.

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هو الدرهم بدرهمين إلى أجل ونَحو ذلك مما هو مفسدة ، وقد نهوا عنه فشرعوه لأنفسهم واستمروا عليه ، من ذلك ، ومن كراءِ العين ونحوه ، وأكلُ أَموال الناس بالباطل: هو الرِّشا ، ثم استثنى الله تعالىٰ من بني إسرائيل الراسخين في علم التوارة الذين قد تحققوا أَمر محمد عليه الصلاة والسلام وعلاماته ، وهم: عبد الله بن سلام ، ومخيريق(١) ، ومن جرى مجراهما ، و﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الراسخين» وما أُنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام: هو القرآن ، والذي أُنزل من قبله: هو التوراة والإِنجيل.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ ، وكيف خالف إعرابها إعراب ما تقدم وتأَخر ـ فقال أَبان بن عثمان بن عفان(٢) ، وعائشة رضي الله عنها: ذلك من خطإِ كاتب المصحف ، وروي أَنها في مصحف أُبي بن كعب: [والمُقيمونَ] ، وقد روي أَنها فيه ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ كما هي في مصحف عثمان رضي الله عنه. قال الفراءُ: وفي مصحف ابن مسعود: [والمُقيمون] ، وكذلك روى غصمة عن الأَعمش ، وكذلك قرأَ سعيد بن جبير ، وكذا قرأَ عمرو بن عبيد الجحدري ، وعيسى بن عمر ، ومالك بن دينار ، وكذلك روى يونس ، وهارون عن أَبي عمرو. وقال آخرون: ليس ذلك من خطإِ الكاتب ، ولا خَطَأَ في المصحف ، وإِنما هذا من قطع النعوت إِذا كثرت على النصب بـ (أَعني) ، والرفعُ بعد ذلك بـ (هم) ، وذهب إِلى هذا المعنى بعض نحويي الكوفة والبصرة ، وحكي عن سيبويه: أَنه قطع على المدح ، وخبر ﴿لَّٰكِنِ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ، لأَن المدح لا يكون إِلا بعد تمام الجملة الأُولى ، وهذا كقول خرنق بنت هفان:

لا يَبْعدنْ قَومي الذينَ هُمُ   سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الجُزْرِ

(١) عبد الله بن سلام: يكنى أبا يوسف الإِسرائيلي من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج ، وهو أحد الأحبار ، وأحد من شهد له النبي ﷺ بالجنة ، روى عنه ابناه يوسف وغيرهما ، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة ـ وسلام بتخفيف اللام. ومُخَيْريق: كان من علماء اليهود وأحبارهم ، وكان غنياً كثير الأموال ، أسلم وأوصى بأمواله للنبي ﷺ ، مات في غزوة أُحد.

(٢) هو أَبان بن عثمان بن عفان القرشي ، من أهل المدينة ، تابعي ، سمع أباه وغيره من الصحابة ، وله روايات كثيرة ، وروى عنه الزهري ، مات بالمدينة زمن يزيد بن عبد الملك. (وأبان) بفتح الهمزة وتخفيف الباء الموحدة.



النَّـــازِلِيـــنَ بِكُـــلِّ مُعْتَـــرَكٍ والطَّيِّبُـــونَ مَعَـــاقِـــدَ الأُزُرِ(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد فُرِّق بين البيت والآية بحرف العطف الذي في الآية، فإنه يمنع عند بعضهم تقدير الفعل، وفي هذا نظرٌ(٢).

وقال قوم: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ ليس بعطف على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولكن على ـ ما ـ في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، والمعنى: ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، وقال بعضهم: بل من تقدم من الأنبياءِ، قالوا: ثم رجع بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ فعطف على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقال قوم: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ عطف على ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾، والمراد بهم المؤمنون بمحمد، أي: يؤمن الراسخون بهم وبما هم عليه، ويكون قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أي: وهم المؤتون، وقال قومٌ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ عطفٌ على الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾، وقال آخرون: بل على الكاف في قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ ويعني الأنبياء، وقرأت فرقة: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون، وقرأت فرقة [سَيُؤْتِيهِمْ] بالياءِ(٣).

---

(١) البيتان لخرنق بنت هفان وقيل: (عفان) ـ من بني قيس، تصف قومها بالظهور على العدو، ونحر الجزر للأضياف، والملازمة للحرب، والعفة عن الفواحش، وقراءة نصب ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ فيها أقوال كثيرة، أقربها إلى الصواب قول سيبويه بأنه نصب على المدح، أي: وأعنى المقيمين، قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم، ومن ذلك ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وأنشد (وهما لابن الخيّاط):

وكـلُّ قَـومٍ أَطَـاعُـوا أَمْـرَ سَيِّـدِهِـمْ إلا نميـراً أطـاعَـتْ أمـر عـاويهَـا
الظَّـاعِنيـنَ ولمَّـا يُظْعِنُـوا أحـداً والقـائلـون: لِمَـنْ دَارٌ نُخَلِّيهَـا؟

وأنشد أيضاً:

لا يَبْعَـدَنْ قَـومـي الَّـذيـن هُـمُ . . . . إلـــــخ

قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾. أما بقية الأقوال فقد ذكرها ابن عطية كما ترى.

(٢) علّق على ذلك أبو حيان في (البحر المحيط) بعد أن نقله عن ابن عطية ـ فقال: إن مَنَع ذلك أَحدٌ فهو محجوج بثبوت ذلك في كلام العرب مع حرف العطف، ولا نظر في ذلك كما قال ابن عطية، قال الشاعر:

ويَـأْوي إلـى نِسْـوَةٍ عُطَّـلٍ وشُعْـث مـراضيـع مثـل السَّعـالـي

(٣) القراءة بالياء عودٌ على قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. وهي قراءة حمزة، أما القراءة بالنون فهي لباقي السبعة وهي على الالتفات، ومناسبة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾. عن (البحر المحيط).

قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

روي عن عبد الله بن عباس أن سبب هذه الآية أن سُكَيْنا الحبر، وعَدِيَّ بن زيد قالا: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئاً بعد موسى، ولا أوحى إليه، فنزلت هذه الآية تكذيباً لقولهما.

وقال محمد بن كعب القرظي: لما أنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ إلى آخر الآيات، فتليت عليهم وسمعوا الخبر بأعمالهم الخبيثة قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيءٍ، ولا على موسى، ولا على عيسى، وجحدوا جميع ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾[1].

والوحي: إلقاءُ المعنى في خفاءٍ، وعرفه في الأنبياءِ بواسطة جبريل عليه السلام، وذلك هو المراد بقوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بِمَلَك ينزل من عند الله، ونوح: أول الرسل في الأرض إلى أُمة كافرة، وصرف نوح مع العجمة والتعريف لخفته، وإبراهيم عليه السلام: هو الخليل، وإسماعيل عليه السلام: ابنه الأكبر، وهو الذبيح في قول المحققين، وهو أبو العرب، وإسحاق: ابنه الأصغر، ويعقوب: هو ولد إسحاق، وهو إسرائيل. والأسباط: بنو يعقوب يوسف وإخوته، وعيسى: هو المسيح، وأيوب: هو المبتلى الصابر، ويونُس هو ابن متَّى، وروى ابن جمَّاز عن نافع: [يونِس] ـ بكسر النون ـ وقرأ ابن وثّاب، والنَّخَعي بفتحها، هي كلها لغات. وهارون: هو ابن عمران. وسليمان: هو النبي الملك، وداود أبوه. وقرأ جمهور الناس: ﴿زَبُورًا﴾ بفتح الزاي، وهو اسم كتاب داود تخصيصاً، وكل كتاب في اللغة فهو زبورٌ من حيثُ تقول: زبَرْتُ الكتاب إذا كَتَبْتَه. وقرأ حمزة وحده [زُبُوراً] بضم الزاي، قال أبو علي: يحتمل أن يكون جمع: زَبْر[2]، أُوقع على المزبور اسم الزبر

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الزَّبْر: الكتابة، والزَّبُور: بمعنى المزبور، أي: المكتوب كالرَّسول والرَّكوب والحَلوب، وقراءة=



كما قالوا: ضَرْب الأمير، ونَسْج اليَمَن، وكما سُمِّي المكتوب كتاباً، ويحتمل أن يكون جمع زبور على حذف الزيادة، كما قالوا: ظريف وظروف[1]، وكَرَوَان وكِرْوَان، وَوَرَشان وَوِرْشان[2]، ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة، ويُقوِّي هذا الوجه أَن التكسير مثل التصغير، وقد اطرد هذا المعنى في تصغير الترخيم نحو: أزهر وزهير، وحارث وحُريث، وثابت وثُبيت، فالجمع مثله في القياس وإن كان أَقل منه في الإستعمال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ ﴾ الآية. نصب ﴿ وَرُسُلًا ﴾ على المعنى، لأَن المعنى: إِنَّا أَرسلناك كما أَرسلنا نوحاً، ويحتمل أَن ينصب ﴿ وَرُسُلًا ﴾ بفعل مضمر، تقديره: أَرسلنا رسلا، لأَن الرد على اليهود إنما هو في إنكارهم إرسال الرسل والمراد الوحي، وفي حرف[3] أُبي بن كعب: [وَرُسُلٌ] في الموضعين بالرفع على تقدير: هم رسلٌ، و﴿ قَصَصْنَٰهُمْ ﴾ معناه: ذكرنا أَسماءَهم وأَخبارهم، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ يقتضي كثرة الأَنبياءِ دون تحديد بِعَدَدٍ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[4]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[5]، وما يذكر من عدد الأَنبياءِ فغير صحيح، والله أَعلم بعدتهم صلى الله عليهم[6].

= حمزة [زُبُوراً] بالضم ـ يحتمل كما قال أبو علي أن تكون جمع زَبْر كَفَلْس وفلُوس، ويحتمل أن يكون جمع زبور على حذف الزيادة، وكل كتاب زبور، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ـ قال أَبو هريرة: الزَّبور: ما أُنزل على داود ـ من بعد الذكر: من بعد التوراة، ذلك لأن الزبور غلب على صحف داود عليه السلام.

(١) في بعض النسخ، وكذلك في (البحر المحيط): طريق وطروق.

(٢) الكَرَوَان: طائر طويل الرجلين، حسن الصوت، والوَرَشان: طائر من الفصيلة الحمامية، لكنه أكبر قليلاً من الحمامة.

(٣) أي: في قراءة أُبي بن كعب.

(٤) من قوله تعالىٰ في سورة فاطر: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ الآية (٢٤).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ الآية (٣٨).

(٦) رويت أحاديث كثيرة في عدد الأنبياء، ومنها ما أخرجه عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وابن عساكر ـ عن أَبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول، كم الأنبياء؟ قال: «مائة أَلف نبي وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير»، ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون، آدم وشيث ونوح وخنوخ=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ إخبارٌ بخاصة موسى ، وأن الله تعالىٰ شرفه بكلامه ، ثم أَكَّدَ تعالىٰ الفعل بالمصدر ، وذلك مبنيٌّ في الأغلب عن تحقيق الفعل ووقوعه ، وأنه خارج عن وجوه المجاز والاستعارة ، لا يجوز أن تقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني قولا[1] ، فإنما تؤكد بالمصادر الحقائق ، ومما شذ قول هند بنت النعمان بن بشير:

. . . . وعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُذَامَ المطَارِفُ[2]

وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات ، والذي عليه الراسخون في العلم أن الكلام هو المعنى القائم في النفس ، ويخلق الله لموسى أو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام ،

= وهو إدريس ، وهو أول من خط بقلم ، وأربعة من العرب ، هود وصالح وشعيب ونبيك ، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك» ١ هـ ، قال في (الدر المنثور): «أخرجه ابن حبان في صحيحه ، وابن الجوزي في الموضوعات ، وهما في طرفي نقيض ، والصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع كما بينته في مختصر الموضوعات» ١ هـ.

(١) «امتلأ الحوض وقال قطني» شطر بيت هو بتمامه قول الراجز:

امتَلأَ الْحَوضُ وقَالَ: قَطْني ... مهلا رُوَيداً ، قَدْ مَلأت بَطْني

يستشهدون به على النون تزاد في (قط) لأنهم لم يريدوا أن يكسروا الطاءَ لئلا يجعلوها بمنزلة الأسماء المتمكنة نحو: يدي ، وإن قال بعضهم: إن (قطني) كلمة موضوعة لا زيادة فيها مثل: (حسبي) ، قال ابن بري: «عنيّ ومنيّ وقطني ولدنيّ على القياس ، لأن نون الوقاية تدخل الأفعال لتقيها الجر وتبقي على فتحتها». ـ وأما قول ابن عطية: «لا يجوز أن تقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني قولا» فيقصد ما أجمع عليه النحويون من أنك إذا أكَّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً ، وأنك لا يصح في مثل قول الشاعر هذا: «امتلأ الحوض. . . إلخ» أن تقول: قال قولا ، فكذلك لما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يُعْقَلُ ـ قاله النحاس ، وحكاه القرطبي في تفسيره.

(٢) هذا هو الشطر الثاني من البيت ، أما البيت بتمامه فهو:

بكَى الخَزُّ مِنْ رَوح وأنكَرَ جِلْدَهُ ... وعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُذام المطَارِفُ

والخزُّ: ما ينسج من صوف وإبْرَيْسَم أو من إبْرَيْسَم خالص ، وأنْكَرَه: نَفَر منه ، وعجَّ: رفع صوته بالشكوى ، وجذام: قبيلة روح ، والمطارف: جمع مُطْرَف ـ بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء ـ وهو رداء من خز مربع فيه علامات ، والمعنى أن هذه القبيلة ليست أهلا للبس الخز والمطارف ، ولذلك أنكر الخزُّ جلد روح وبكى حين لمسه ، وكذلك ارتفع صوت المطارف صارخة من لبس جذام لها وهي غير أهل لمتعتها وترفها.



وكما أن الله تعالىٰ موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام، وما روي عن كعب الأحبار، وعن محمد بن كعب القرظي ونحوهما من أن الذي سمع موسى كان كأشد ما يسمع من الصواعق، وفي رواية أخرى كالرعد الساكن، فذلك كله غير مرضي عند الأصوليين.

وقرأ جمهور الأمة: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بالرفع في اسم الله، وقرأ يحيىٰ بن وثّاب، وإبراهيم النّخعي: [وَكَلَّمَ اللهَ] بالنصب على أن موسى هو المُكلِّمُ، وهي قراءة ضعيفة من جهة الاشتهار، لكنها مخرجة من عدة تأويلات.

قوله تعالىٰ:

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿رُّسُلٗا﴾ بدلاً من الأول قبلُ. و﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان، أي: يبشرون بالجنة من آمن وأطاع، وينذرون بالنار من كفر وعصى، وأراد الله تعالىٰ أن يقطع بالرسل احتجاج من يقول: لو بُعث إلي لآمنت، والله تعالىٰ عزيز، لا يغالبه شيءٌ، ولا حجة لأحد عليه، وهو ـ مع ذلك ـ حكيم، تصدر أفعاله عن حكمه، فلذلك قطع الحجة، فالرسل حكمة منه تعالىٰ(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ الآية: سببها قول اليهود: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، وقال بعضهم لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نعلم يا محمد أن الله أرسل إليك ولا أنزل عليك شيئاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والجراح الحكمي: [لكنَّ اللهَ يشهدُ] بِشَدِّ النون ونصب المكتوبة على اسم ﴿لَّٰكِنِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾، هذه الآية من أقوى متعلقات أهل السُّنَّة في

---

(١) يؤيد هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

إثبات علم الله تعالىٰ خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون: عالم بلا علم، والمعنى ـ عند أَهل السُّنَّة ـ: أَنزله وهو يعلم إِنزاله ونزوله، ومذهب المعتزلة في هذه الآية أنه أنزله مقترناً بعلمه، أَي: فيه علمه من غيوب وأَوامر ونحو ذلك، فالعلم عبارة عن المعلومات التي في القرآن، كما هو في قول الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إِلا ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، معناه: من علم الله الذي بث في عباده. وقرأَ الجمهور: [أَنْزَلَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأَ الحسن: [أُنْزِلَ] بضم الهمزة على بنائه للمفعول.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ﴾ تقوية لأَمر محمد عليه الصلاة والسلام، وردٌّ على اليهود، قال قتادة: شهود والله غير متهمة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، تقديره: وكفى الله شهيداً، لكن دخلت الباءُ لتدل على أَن المراد: اكْتَفُوا بالله.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله أَنهم قد بعدوا عن الحق، وضلوا ضلالاً بعيداً، لا يقرب رجوعهم عنه، ولا تخلصهم منه، وقرأَ عكرمة، وابن هرمز: [وَصُدُّوا] بضم الصاد.

ثم أَخبر تعالىٰ عن الكافرين الظالمين في أَن وضعوا الشيءَ في غير موضعه، وهو الكفر بالله، والله تعالىٰ يستوجب منهم غير ذلك لنعمه الظاهرة والباطنة، إِنهم بحيث لم يكن تعالىٰ ليغفر لهم، وهذه العبارة أَقوى من الإِخبار المجرد أنه لا يغفر، ومثال ذلك أَنك إِذا قلت: «أَنا لا أَبيع هذا الشيءَ» فهم منك الاغتباط به، فإِذا قلت: أَنا ما كنت لأَبيع هذا الشيءَ»، فالاغتباط منك أكثر، هذا هو المفهوم من هذه العبارة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، هذه هداية الطرق، وليست بالإِرشاد على الإِطلاق، وباقي الآية بَيِّنٌ، يتضمن تحقير أَمر الكفار، وأَنهم لا يباليهم الله بالة، كما ورد في الحديث: «يذهب الصالحون، الأَول فالأَول حتى تبقى حثالة كحثالة التمر، لا يباليهم الله بالة»[1]، المعنى: إِذ هم كفارٌ في آخر الزمان، وعليهم تقوم الساعة.

---

(١) نص الحديث كما رواه البخاري: «يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حُفَالة كَحُفَالة الشعير أو التمر لا يُبَاليهم الله بالة».

وبعده: قال أبو عبد الله: يقال: حفالة وحثالة ـ والحثالة: النفاية والرديء من كل شيءٍ، والبالة: المبالاة.

قوله تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

المخاطبة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ مخاطبة لجميع الناس، والسورة مدنية، فهذا مما خوطب به جميع الناس بعد الهجرة، لأن الآية دعاءٌ إلى الشرع، ولو كانت في أمر من أوامر الأحكام ونحوها لكانت ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ـ والرسول في هذه الآية: محمد ﷺ، والحق: هو شَرْعُهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: ائْتُوا خيراً لكم، أَو حوزوا خيراً لكم، وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ ﴾ وقوله: ﴿ ٱنتَهُوا۟ ﴾ ـ بعد ذلك ـ أَمر بترك الشيءِ والدخول في غيره، فلذلك حسنت صفة التفضيل التي هي (خير)، هذا مذهب سيبويه في نصب (خير)، ونظيره من الشعر قول عمر بن أَبي ربيعة:

فَوَاعِدِيهِ سَرْحَتَيْ مَالِكٍ ... أَوِ الرُّبَى بَيْنَهُمَا أَسْهَلا[1]

أي: يأت أَسهل، وقال أَبو عبيدة: التقدير: يكن الإيمان خيراً والانتهاءُ خيراً، فنصبه على خبر كان، وقال الفراءُ: التقدير: فآمنوا إيماناً خيراً لكم، فنصبه على النعت لمصدر محذوف.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا خبر بالاستغناء، وأَن ضرر الكفر إنما هو نازل بهم، ولله تعالىٰ العلم والحكمة.

ثم خاطب تعالىٰ أَهل الكتاب من النصارى بأَن يَدَعُوا الغُلو، وهو تجاوز الحدِّ،

(١) سَرحَتا مالك: موضع بعينه، وأصل السَّرحة: الشجرة، وقد اشتهر هذا المكان بشجرتين نسبتا لصاحبهما، والربى: جمع ربوة، وهي المرتفع من الأرض، تقول محبوبته لجاريتها: واعديه الليلة أن نلتقي عند السرحتين أو الربى، والأفضل أن يأتي مكاناً سهلاً حتى لا يعرف شأنهما، وإن كان بعض الشراح يرى أنه هو الذي أرسل إليها امرأة، و(أسْهَلا) منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه ما قبله، أي: ائت أسهل الأمرين عليك.

ومنه غلاء السعر، ومنه غلوة السهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ فإنما معناه: في الدين الذي أَنتم مطلوبون به، فكأَنه اسم جنس، وأَضافه إِليهم بياناً أَنهم مأخوذون به، وليست الإِشارة إِلى دينهم المضلل، ولا أُمروا بالثبوت عليه دون غلو، وإِنما أُمروا بترك الغلو في دين الله على الإِطلاق، وأَن يُوَحِّدُوا، ولا يقولوا على الله إِلا الحق، وإِذا سلكوا ما أُمروا به فذلك سائقهم إِلى الإِسلام.

ثم بيَّن تعالىٰ أَمر المسيح، وأَنه رسول الله ﷺ وكلمته، أَي: مُكَوَّن عن كلمته التي هي: كن. وقوله: ﴿أَلْقَنٰهَآ﴾ عبارة عن إِيجاد هذا الحادث في مريم، وقال الطبري: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَنٰهَآ﴾ يريد البشارة التي بعث المَلَكَ بها إِليها. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أَي: من جملة مخلوقاته، فـ﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغاية إِذا حقق النظر فيها، وقال الطبري: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أَي: نفخة منه، إِذ هي من جبريل بأَمره، وأَنشد بيت ذي الرُّمة:

فَقُلْتُ لَهُ اضْمُمْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا ... بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لها قِيتَةً قَدْرا[1]

يصف سقط النار، وقال أُبي بن كعب: روح عيسى عليه السلام من أَرواح الله التي خلقها واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[2]، فبعثه الله إِلى مريم فدخل فيها، ثم أَمرهم بالإِيمان بالله ورسله، أَي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ﴾ المعنى: الله ثالث ثلاثة، فحذف الابتداء والمضاف، كذا قدَّر أَبو علي، ويحتمل أَن يكون المُقَدَّر: المعبود ثلاثة، أَوالإِله ثلاثة، أَو الآلهة ثلاثة، أَو الأَقانيم ثلاثة[3]، وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى فإِنه يختلف بحسب ذلك التقدير، وقد تقدم القول في معنى ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

---

(١) بروحك: بِنَفْخك، واقْتَتْه لهاقِيتَةً: يأمره بالرفق والنفخ الخفيف في النار، وأن يطعم النار حطباً قليلاً ـ والرواية في الديوان: «فقلت لها ارفعها...» بدلاً من «اضممها».

(٢) الأعراف: ١٨٢.

(٣) قال القرطبي: «والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث، ويقولون: إن الله جوهر واحد، وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أُقْنُوم إلهاً، ويعنون بالأقانيم: الوجود، والحياة، والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب، والابن، وروح القدس، فيعنون بالأب: الوجود، وبالروح: الحياة، وبالابن المسيح».



وقوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ﴾ في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة (إِنَّمَا) تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر وللمبالغة في الصفة وإن لم يكن حصر، نحو: إنما الشجاع عنترة، وغير ذلك، و﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ معناه: تنزيهاً له وتعظيماً عن أَن يكون له ولد كما تزعمون أَنتم أَيها النصارى في أَمر عيسى، إِذ نقلتم أُبوة الحنان والرأفة إِلى أُبوة النسل، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن: [إِنْ يكُون لَهُ وَلَدٌ] بكسر الألف من [إِنْ] وهي نافية بمعنى: ما يكون له ولد، وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية: إِخبار يستغرق عبودية عيسى وغير ذلك من الأُمور.

ثم برَّأ تعالىٰ جهة المسيح من أَقوالهم، وخلَّصه للذي يليق به فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ ﴾ الآية، والاستنكاف إِبايةٌ بِأَنفَةٍ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ زيادةٌ في الحجة، وتقريب من الأَذهان، أَي: ولا هؤلاءِ الذين هم في أَعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك، فكيف سواهم؟ وفي هذه الآية الدليل الواضح على تفضيل الملائكة على الأَنبياء[1].

---

(١) الكلام في تفضيل الملائكة على الأنبياء استدلالاً بهذه الآية يحتاج إلى وقفة وتأمل، وبعض المفسرين ينفي ذلك، فابن كثير يقول: «ليس لمن استدل بهذه الآية على تفضيل الملائكة دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، والملائكة أقدر على الاستنكاف من المسيح، لكن لا يلزم أن يكونوا أفضل» اهـ. ولكن الزمخشري يرى أن الآية تدل على ذلك قال: من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، لأن الكلام سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن مرتبة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يرتفع عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجة، ويؤيد ذلك تخصيص المقربين، ومثله قول القائل:

وَمَـا مِثْلُـهُ مِمَّـنْ يُجَـاوِدُ حَـاتِـم ... ولا البحر ذو الأمـواج يَلْتَـجُّ زاخِـرُهْ

وردَّ على الزمخشري أبو حيان في (البحر المحيط) فقال: «التفضيل بين الأنبياء والملائكة إنما يكون بالسمع إذ نحن لا ندرك جهة التفضيل بالعقل، وأما الآية فقد يُقال: متى نُفي شيء عن اثنين فلا يدل=



ثم أَخبر تعالىٰ عمَّن يستنكف ، أَي: يأْنف عن عبادة الله ويستكبر بأَنه سيناله الحشر يوم القيامة ، والر دُّ إلى الله ، وقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عبارة وعيد. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [فَسَنَحْشُرُهُمْ] بنون الجماعة. [فَنُوَفِّيهِمْ] [ونَزِيدُهُمْ] [فَنُعَذِّبُهُمْ] كلها بالنون. قال أَبو الفتح: وقرأَ مَسْلَمة: [فَسَيَحْشُرْهُمْ] [فَيُعَذِّبْهُم] بسكون الراءِ والباءِ على التخفيف.

وبيَّن الله تعالىٰ أَمر المحشورين فأَخبر عن المؤمنين العاملين بالصالحات أَنه يوفيهم أُجورهم حتى لا يبخس أَحداً قليلاً أَو كثيراً ، وأَنه يزيدهم من فضله ، وتحتمل هذه الزيادة أَن تكون المخبر عنها في أَن الحسنة بعشر إِلى سبعمائة ضعف ، ويحتمل أَن يكون التضعيف الذي هو غير مُصرَّدٍ مَحْسوب[1] ، وهو المشار إِليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ .

قوله تعالىٰ:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ .

هذا وعيد للمستنكفين الذين يَدعُونَ عبادة اللهِ أَنَفَةً وتكبراً ، وهذا الاستنكاف إِنما يكون من الكفار عن اتباع الأَنبياءِ ، وما جرى مجراه ، كفعل حُيَي بن أَخطب وأَخيه أَبي ياسر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وكفعل أَبي جهل وغيره ، وإِلا ، فإِذا فرضت أَحداً من البشر عرف الله تعالىٰ فمحال أَن تجده يكفر به تكبراً عليه ، والعناد المجوز إِنما يسوق إِليه الاستكبار عن البشر ، ومع تقارب المنازل في ظن المتكبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية ، إِشارة إِلى محمد

= على أن الثاني أرفع من الأول ، ولا أن ذلك من باب الترقي» ١ هـ ، وارجع إليه في البحر ج ٣ ـ ص ٤٠٣.

(١) التضعيف المُصَرَّدُ: القليل ـ يقال: صرَّد الشيء: قَلَّله. وصرَّد عطاءه: قَلَّله. وصرَّد الإناء: وضع فيه ماءً لا يكفي الرِّيَّ ، وصرَّد فلاناً: سقاه أقل مما يحتاج إليه. قال النابغة:

وتُسْقَى إذا ما شِئْتَ غيرَ مُصَرَّدِ ... بصهْباءَ في حافاتِها المِسْكُ كارِعُ

رسول الله ﷺ ، والبرهان: الحُجَّةُ النَّيِّرَةُ الواضحة التي تعطي اليقين التام ، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالىٰ على صحة ما يدعوكم إليه ، وفساد ما أَنتم عليه من النِّحَل ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ يعني القرآن ، فيه بيان كل شيءٍ ، وهو الواعظ الزاجر ، الناهي الآمر.

ثم وعد تبارك وتعالىٰ المؤمنين بالله المعتصمين به. والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ ، ويحتمل أَن يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ ، والاعتصام به: التَّمسُّك بسببه ، وطلب النجاة والمنعة به ، فهو يعصم كما تعصم المعاقل ، وهذا قد فسَّره قول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين ، من تمسك به عصم». والفضل: الجنة ونعيمها ، و﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ معناه: إِلى الفضل ، وهذه هداية طريق الجنان ، كما قال تعالىٰ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[1] لأَن هداية الإِرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله تعالىٰ ، واعتصموا بكتابه. و﴿صِرَٰطًا﴾ نصب بإِضمار فعل يدل عليه ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ تقديره: فيعرفهم ، ويحتمل أَن ينتصب كالمفعول الثاني إِذ ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ في معنى: يعرفهم ، ويحتمل أَن ينتصب على ظرفية مَّا ، ويحتمل أَن يكون حالاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ ، وقيل: من ﴿وَفَضْلٍ﴾. والصراط: الطريق ، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالىٰ:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

تقدم القول في تفسير ﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ في صدر السورة ، وأَن المترجح أَنها الوِرَاثَة التي خلت من: أَبٍ وابن وابنة ، ولم يكن فيها عمود نسب ، لا عال ولا سافل ، وبقي فيها من يتكَلَّل ، أَي: يُحيط من الجوانب كما يُحيط الإِكليل. وكان أَمر الكلالة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشكلا فقال: «ما راجعْتُ رسول الله ﷺ في شيءٍ مراجعتي إِياه في الكلالة ، ولوددت أَن رسول الله ﷺ لم يمت حتى يبينها». وقال على المنبر:

(١) محمد: ٥.



«ثلاث لو بينها رسول الله ﷺ لكان أحب إلي من الدنيا: الجدُّ والكلالة، والخلافة، وأبواب من الربا»(١). وروي عنه رضي الله عنه أنه كتب فيها كتاباً فمكث يستخير الله فيه ويقول: «اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه». فلما طعن دعا بالكتاب فَمُحي، فلم يدر أحد ما كان فيه»(٢). وروى الأعمش عن إبراهيم وسائر شيوخه قال: ذكروا أن عمر رضي الله عنه قال: «لأن أكون أعلم الكلالة أحب إليَّ من جزية قصور الشام»(٣). وقال طارق بن شهاب: أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتفا، وجمع أصحاب النبي ﷺ ثم قال: «لأقضينَّ في الكلالة قضاءً تحدث به النساءُ في خدورها»، فخرجت عليهم حيَّة من البيت فتفرقوا، فقال عمر: «لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتَمَّه»(٤). وقال معدان بن أبي طلحة: خطب عمر رضي الله عنه الناسَ يوم جمعة فقال: «إني والله ما أدع بعدي شيئاً هو أهم إليَّ من أمر الكلالة، وقد سألت عنها رسول الله ﷺ فما أغلظ لي في شيءٍ ما أغلظ لي فيها، حتى طعن في نحري وقال: «تكفيك آية الصيف التي أُنزلت في آخر سورة النساءِ، فإن أَعِشْ فسأقضي فيها بقضية لا يختلف معها اثنان مِمَّنْ يقرأُ القرآن»(٥). وسئل عقبة بن عامر عن الكلالة فقال: ألا تعجبون لهذا يسألني عن الكلالة، وما أعضل بأصحاب رسول الله ﷺ شيءٌ ما أعضلت بهم الكلالة(٦).

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه:

فظاهر كلام عمر رضي الله عنه أنَّ آية الصيف هي هذه. وروى أبو سلمة عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الكلالة فقال: «ألم تسمع الآية التي أُنزلت في الصيف: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾(٧)».

---

(١) أخرجه الطيالسي، وعبد الرزاق، والسعدني، وابن ماجه، والساجي، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي ـ عن عمر رضي الله عنه (الدر المنثور).

(٢) أخرجه عبد الرزاق، عن سعيد بن المسيب، وفي آخره: «فقال: إني كنت كتبت في الجد والكلالة كتاباً، وكنت أستخير الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه».

(٣) أخرجه ابن جرير ـ عن عمر رضي الله عنه (الدر المنثور).

(٤) أخرجه ابن جرير ـ عن طارق بن شهاب (الدر المنثور).

(٥) أخرجه ابن جرير ـ عن معدان بن أبي طلحة، مع اختلاف يسير في اللفظ. (الدر المنثور).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة، والدارمي، وابن جرير ـ عن أبي الخير (الدر المنثور).

(٧) أخرج عبد بن حميد، وأبو داود في المراسيل، والبيهقي ـ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الكلالة فقال: «أما سمعت الآية التي أُنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا هو الظاهر، لأن البراءَ بن عازب قال: آخر آية أُنزلت على النبي ﷺ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وقال كثير من الصحابة: هي آخر مانزل[١]، وقال جابر بن عبد الله: نزلت بسببي. عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي والد ولا ولد: فنزلت الآية[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله رسول الله ﷺ: «تكفيك منها آية الصيف» بيان فيه كفاية وجلاء، ولا أدري ما الذي أشكل منها على الفاروق رضوان الله عليه إلا أن تكون دلالة اللفظ لم تطرد له، أن كان استعمال قريش لها قليلاً، ولا محالة أن دلالة اللفظ اضطربت على كثير من الناس، ولذلك قال بعضهم: الكلالة: الميت نفسه[٣]، وقال آخرون: الكلالة: المال، إلى غير ذلك من الخلاف. وإذا لم يكن في الفريضة والد ولا ولد وترك الميت أختاً فلها النصف فرضاً مسمى بهذه الآية، فإن ترك الميت بنتاً وأُختاً فللبنت النصف، وللأخت النصف بالتعصيب لا بالفرض المسمى. ولعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس في هذه المسألة خلاف للناس، وذكر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال

= ﴿يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، فمن لم يترك ولداً ولا والداً فورثته كلالة»، وأخرجه الحاكم موصولاً عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. (الدر المنثور).

(١) أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر في (الدلائل) عن البراء قال: آخر سورة نزلت كاملة: براءة، وآخر آية نزلت: خاتمة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

(٢) أخرج ابن سعد، والنسائي، وابن جرير، والبيهقي في سننه ـ عن جابر قال: اشتكيت فدخل النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحسن، قلت: بالشطر؟ قال: أحسن، ثم خرج، ثم دخل عليَّ فقال: لا أراك تموت في وجعك هذا، إن الله أنزل وبيَّن ما لأخواتك وهو الثلثان، فكان جابر يقول: نزلت هذه الآية فيَّ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. وأخرج ابن سعد، والبخاري ومسلم، وأحمد، وأبو داود وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صبَّ عليَّ فعقلت، فقلت: إنه لا يرثني إلا الكلالة، فكيف الميراث، فنزلت آية الفرائض، (الدر المنثور).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن المنذر ـ عن ابن عباس قال: الكلالة: الميت نفسه.



في خطبته: «ألا إن آية أول سورة النساء أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها الله في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله في أولي الأرحام»[١].

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿فَإِن﴾، ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ معناه: كراهة أن تضلوا، وحَذَر أن تضلوا، فالتقدير: لِئَلا تضلوا، ومنه قول القطامي في صفة ناقة:

رَأَيْنَـا مَـا يَـرَى البُصَـرَاءُ مِنْهَـا ... فَـآلَيْنَـا عَلَيْهَـا أَنْ تُبَـاعَـا[٢]

وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ قال: اللهم من بينت له الكلالة فلم تَتَبَيَّنْ لي[٣].

تم بحمد الله تفسير سورة النساء

---

(١) أخرج ابن جرير، وعبد بن حميد، والبيهقي في سننه عن قتادة قال: ذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: «ألا إن الآية... إلخ» (الدرالمنثور).

(٢) مفعول الفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ محذوف تقديره: يبيِّن لكم الحقَّ ـ أمّا ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ فمفعول لأجله، وقدره البصري والمبرد: كراهة أن تضلوا ـ أما الفراء والكسائي والزجاج فقدروه: لئلا تضلوا مثل البيت المذكور، والتقدير فيه: ألاَّ تُباعَا ـ ومعروف أن البصريين لا يجيزون إضمار (لا).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر ـ عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المائدة

هذه السورة مدنية بإجماع[١] ، وروي أنها نزلت عند منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية ، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية قال: «يا علي ، أشعرت أنه نزلت علي سورة المائدة ، ونعمت الفائدة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ[٢] .

ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع ، ومنها ما نزل عام الفتح ، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ الآية ، وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني ، سواء ما نزل بالمدينة ، أو في سفر من الأسفار ، أو بمكة ، وإنما يرسم بالمكيّ ما نزل قبل الهجرة[٣] ، وروي أن النبي ﷺ قال: «سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة ، تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب».

---

(١) أخرج أحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن جبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ على عائشة ، فقالت لي: يا جبير ، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم ، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرّموه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) قال القرطبي: «قال ابن العربي: هذا حديث موضوع ، لا يحل لمسلم اعتقاده».

(٣) هذا هو التقسيم الصحيح السليم ، لأنه ضابط حاصر ومطرد ، وهناك تقسيم ثان لوحظ فيه المكان ، وفيه أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، وهو تقسيم غير حاصر لا يدخل فيه مثلا ما نزل بتبوك كقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ . وهناك أيضاً تقسيم ثالث لوحظ فيه المخاطبون ، وفيه أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، عليه يحمل قول من قال إن ما صدر في القرآن بلفظ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي ، وما صُدِّر فيه بلفظ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهو مدني. . إلخ ما قيل ـ وهذا التقسيم أيضاً غير مطرد فإن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كقوله تعالىٰ في أول سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ ، وهناك آيات مكية صدرت بصيغة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ .



قوله تعالىٰ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ ﴾ .

قال علقمة: كل ما في القرآن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فهو مدني ، وقد تقدم القول في مثل هذا ، ويقال: وَفَى وأَوفى بمعنى واحد[١] ، وأَمر الله تعالىٰ المؤمنين عامة بالوفاءِ بالعقود ، وهي: الرُّبوط في القول ، كان ذلك في تعاهد على بر ، أَو في عقدة نكاح أَو بيع أَو غيره ، ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أَهل الكتاب ، إِذ بينهم وبين الله عقد في أَداء الأَمانة فيما في كتابهم من أَمر محمد ﷺ، ولفظ ﴿ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ يعم عقود الجاهلية المبنية على بِرٍّ، مثل دفع الظلم ونحوه، وأَما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإِسلام ، فإِنما معنى الآية: أَمر جمع المؤمنين بالوفاءِ على عقْد جارٍ على رسم الشريعة ، وفسر الناس لفظ العقود بالعهود[٢] ، وذكر بعضهم من العقود أَشياء على جهة المثال ، فمن ذلك قول قتادة: ﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ معناه: بعهد الجاهلية ، روي لنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَوفوا بعقد الجاهلية ، ولا تحدثوا عقداً في الإِسلام»[٣] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفقه هذا الحديث أَن عقد الجاهلية كان يخص المتعاقدين ، إِذ كان الجمهور على ظلم وضلال ، والإِسلام قد ربط الجميع ، وجعل المؤمنين إِخوةً ، فالذي يريد أَن يختص به المتعاقدان قد ربطهما إِليه الشرع مع غيرهم من المسلمين ، اللهم إِلا أَن يكون التعاقد على دفع نازلة من نوازل الظلامات فيلزم في الإِسلام التعاهد على دفع ذلك والوفاءُ بذلك العهد ، وإِما عهد خاص لما عسى أَن يقع ، يختص المتعاهدون بالنظر فيه والمنفعة ، كما كان في الجاهلية ، فلا يكون ذلك في الإِسلام.

---

(١) وقد جمعها طُفَيلٌ الغَنَويُّ في بيت واحد في قوله:

أَمَّا ابْنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ ... كما وَفَى بِقِلاصِ النَّجْمِ حادِيهَا

(٢) قال الزجاج: العقود أَوكد من العهود ، وأَصله في الأَجرام ثم توسع فأُطلق في المعاني ، وتبعه الزمخشري فقال: هو العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه.

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ .

قال الطبري: وذكر[١] أن فُراتَ بنَ حَيَّان العِجْلي[٢] سأل رسول الله ﷺ عن حلف الجاهلية، فقال: «لعلَّك تسأل عن حلف لَخْمٍ وَتَيْمِ اللهِ؟ قال: نعم يا نبي الله، قال: لا يزيده الإسلام إلا شِدَّةً». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ معناه: «بما أَحلَّ الله وبما حرَّم، وبما فرض وبما حَدَّ في جميع الأَشياء». قاله مجاهد وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي، وابن زيد، وغيرهما: العقود في الآية: هي كل ما ربطه المرءُ على نفسه من بيع أَو نكاح أَو غيره.

وقال ابن زيد، وعبد الله بن عبيدة: العقود خمس: عقدة الإيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تنحصر إِلى أَقل من خمس. وقال ابن جريج: قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ قال: هي العقود التي أَخذها الله على أَهل الكتاب أَن يعملوا بما جاءَهم. وقال ابن شهاب: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمرو بن حزم حين بعثه إِلى نجران، وفي صدره: «هذا بيان من الله ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ فكتب الآيات منها إِلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾»[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصوب ما يقال في تفسير هذه الآية أَنْ تُعَمَّم أَلفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين جملةً، في مُظْهِر الإيمان ـ إِن لم يُبطنه ـ وفي المؤمنين حقيقة. ويُعَمم لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحق والشرع. ومن لفظ العقد قول الحطيئة:

قَــوْمٌ إِذَا عَقَــدُوا عَقْــداً لِجَــارِهِــمُ ... شَدُّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الكَرَبَا[٤]

---

(١) عبارة الطبري توحي بأن الذي ذكر له ذلك هو «بشر بن معاذ».

(٢) فُرات بن حيان بن ثعلبة اليشكري العجلي، حليف بني سهم. روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن منكم رجالاً نَكِلُهم إِلى إيمانهم؛ منهم فراتُ بن حيان»، حين أَسلم أَقطعه النبي ﷺ أَرضاً باليمامة تغل أربعة آلاف ومائتين. (الإصابة).

(٣) أَخرج البيهقي في الدلائل عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إِلى اليمن يفقه أهلها، ويعلمهم السُّنَّة، ويأخذ صدقاتهم. فكتب ـ ثم أورد الكتاب.

(٤) قال الحطيئة هذا البيت في قصيدة يمدح بها بني أنف الناقة ـ والعِنَاجُ: خيط أو سير يُشد في أسفل=



وقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ خطاب لكل من التزم الإيمان على وجهه وكماله، وكانت للعرب سنن في الأنعام من السائبة والبحيرة والحام وغير ذلك، فنزلت هذه الآية رافعة لجميع ذلك.

واختلف في معنى ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ـ فقال السدي، والربيع، وقتادة، والضحاك: هي الأنعام كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه قال: أُحلت لكم الأنعام، فأَضاف الجنس إلى أخص منه. وقال الحسن: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل والبقر والغنم. وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الأجِنَّةُ التي تخرج عند الذبح للأُمهات، فهي تُؤكل دون زكاة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الأَجنة من بهيمة الأنعام، قال الطبري: وقال قوم: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وحْشها، كالظباءِ وبقر الوحش والحُمُر وغير ذلك، وذكره غير الطبري عن الضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن، وذلك أَن الأَنعام هي الثمانية الأَزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أَنعام بمجموعه معها، وكأَن المفترس من الحيوان كالأَسد وكل ذي ناب قد خرج عن حَدِّ الأنعام فصار له نظرٌ ما، فبهيمة الأَنعام هي الراعي من ذوات الأَربع[1]، وهذه ـ على ما قيل ـ إضافة الشيءِ إلى نفسه، كدار الآخرة، ومسجد الجامع، وما هي عندي إلا إضافة الشيء إلى جنسه، وصرَّح القرآن الكريم بتحليلها، واتفقت الآية وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «كل ذي ناب من السباع

= الدلْو، ثم يُشد في عُروتها. والكرَب: الحبل الذي يشد على الدلو بعد المتين ـ فالمتين هو الحبل الأول، والكرَب هو الحبل الثاني، فإذا انقطع المتين بقي الكرب. وقيل غير ذلك. وهذه أمثال ضربها الحطيئة لمبالغتهم في الحفاظ على العهد.

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ثم قال: «فعلى هذا يدخل فيها ذات الحوافر لأنها راعية مفترسة، وليس كذلك، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾، ثم عطف عليها قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ فلما استأنف ذكرها وعطفها على الأنعام دلَّ ذلك على أنها ليست منها. والله أعلم» اهـ.



حرام»[١] ، ويؤيد هذا المنزع الاستثناءان بعْدُ ، إذ أَحدهما استثني فيه أَشخاص نالتها صفات ما ، وتلك الصفات واقعات كثيراً في الراعي من الحيوان ، والثاني استثني فيه حال للمخاطبين وهي الإحرام والحرم ، والصيد لا يكون إلا من غير الثمانية الأَزواج ، فترتب الاستثناءَان في الراعي من ذوات الأَربع. والبهيمة في كلام العرب: ما أَبهم من جهة نقص النطق والفهم ، ومنه: بابٌ مبهم ، وحائط مبهم ، وليلٌ بَهِيمٌ ، وبُهْمَة للشجاع الذي لا يُدْرى من أَين يُؤْتَى له.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ استثناءٌ مما تلي في قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ الآية. و﴿مَا﴾ في موضع نصب على أَصل الاسثناء ، وأَجاز بعض الكوفيين أَن تكون في موضع رفع على البدل ، وعلى أَن تكون ﴿إِلَّا﴾ عاطفة ، وذلك لا يجوز عند البصريين إِلا من نكرة أَو ما قاربها من أَسماءِ الأَجناس ، نحو قولك: جاءَ الرجال إِلا زيدٌ ، كأَنك قلت: غير زيد بالرفع[٢].

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ نصب ﴿غَيْرَ﴾ على الحال من الكاف والميم في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ ، وقرأَ ابن أَبي عبلة [غيرُ] بالرفع ، ووجهها الصفة للضمير في: ﴿يُتْلَىٰ﴾ لأَن [غيرُ مُحِلِّي الصَّيْد] هو في المعنى بمنزلة: «غير مستحل إِذا كان صيداً» ، أَو يتخرج على الصفة لـ ﴿بَهِيمَةُ﴾ على مراعاة معنى الكلام كما ذكرت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد خلط الناس في هذا الموضع في نصب (غَيْرَ) وقدروا فيها تقديمات وتأْخيرات ، وذلك كله غير مرضي ، لأَن الكلام على اطراده متمكن اسثناء بعد استثناء.

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام ، وهو المُحْرِم ، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا فِيئِي إِلَيْكِ فَإِنَّنِي ... حَرامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبُ[٣]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال في «الجامع الصغير»: وهو حديث صحيح. ولكن اللفظ فيهما: «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام».

(٢) قال في (البحر المحيط) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا الذي حكاه عن بعض الكوفيين لا يصح البتة ، لأن الذي قبله موجب ، فكما لا يجوز: «قام القوم إلا زيدٌ» على البدل ، كذلك لا يجوز في: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾» ، ثم وافقه فيما حكاه من كون ﴿إِلَّا﴾ عاطفة عند بعض الكوفيين ، ولكنه ناقشه فيما حكاه عن البصريين مناقشة طويلة.

(٣) قائل البيت هو المُضَرَّب بن كعب بن زهير ، وحرامٌ ـ كما قال ابن عطية ـ: هو المُحْرِم ، ولَبيبٌ =



أي: مُلَبٍّ. وقرأ الحسن، وإبراهيم، ويحيى بن وثَّاب: [حُرْم] بسكون الراءِ، قال أَبو الحسن: هذه لغة تميمية، يقولون في رُسُل: رُسْلٌ، وفي كُتُب: كُتْبٌ، ونحوه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ تقويةٌ لهذه الأَحكام الشرعية المخالفة لمعهود أَحكام العرب، أَي: فأَنت أَيُّها السامع لنسخ تلك العهود التي عهدت تَنَبَّه، فإِن الله الذي هو مالك الكل يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بَصَر بالكلام، ولمن عنده أدنى إِبصار، فإِنها تضمنت خمسة أَحكام: الأَمر الوفاءِ بالعقود، وتحليل بهيمة الأَنعام، واستثناءُ ما تُلي بعد، واستثناءُ حال الإِحرام فيما يصاد، وما يقتضيه معنى الآية من إِباحة الصيْد لمن ليس بمُحرمٍ. وحكى النقَّاش أَن أَصحاب الكندي قالوا للكندي: أَيها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أَعمل مثل بعضه، فاحتجب أَياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أَقدر عليه، ولا يُطيق هذا أَحد، إِني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإِذا هو قد أَمر بالوفاءِ، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناءٍ، ثم أَخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أَن يأْتي أَحد بهذا إِلا في أَجلاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خطابٌ للمؤمنين حقاً أَلا يتعدوا حدود الله في أَمر من الأُمور، والشعائر: جمع شعيرة، أَي: قد أَشعر الله أَنها حدُّه وطاعتُه، فهي بمعنى: معالم الله[1]، واختلفت عبارة المفسرين في المقصود من الشعائر الذي بسببه نزل هذا العموم في الشعائر ـ فقال السدي ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: حرم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: مناسك الحج، وكان المشركون يَحجون ويعتمرون ويُهدون وينحرون ويُعظمون مشاعر الحج، فأَراد المسلمون أَن يغيروا عليهم فقال الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وقال ابن عباس أَيضاً: [شَعَائِرُ اللهِ]: ما حدَّ تحريمه في الإِحرام، وقال عطاءُ بن أَبي رباح:

= معناها: مُلَبٍّ بالحج ـ قال في اللِّسان: وقوله: بعد ذاكَ، أي: مع ذاك.

(١) والإِشعار هو الإِعلام، لأن إِشعار البدنة أن يُجزَّ سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها هديٌ، ومنه: المشاعر بمعنى: المعالم، واحدها: مشعر، وهي المواضع التي قد أُشعرت بالعلامات، وقال ابن فارس: ويقال للواحدة: شعارة، وهو أحسن.



[شَعائِرُ اللهِ]: جميع ما أَمر به أَو نهى عنه ، وهذا هو القول الراجح الذي تقدم ، وقال ابن الكلبي: كان عامة العرب لا يعدُّون الصفا والمروة من الشعائر ، وكانت قريش لا تقف بعرفات ، فنهوا بهذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ اسم مفرد يَدُل على الجنس في جميع الأَشهر الحرم ، وهي كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، وإِنَّما أُضيف إِلى مضر لأَنها كانت تختص بتحريمه ، وتزيل فيه السلاح ، وتنزع الأَسنة من الرماح ، وتسميه: مُنْصِلُ الأَسنَّة ، وتسميه: الأَصَمّ ، من حيث كان لا يُسمع فيه صوت سلاح ، وكانت العرب مجمعة على: ذي القعدة ، وذي الحجة ، والمحرم ، وكانت تطول عليها الحرمة ، وتمتنع من الغارات ثلاثة أَشهر ، فلذلك اتخذت النسيءَ ، وهو أَن يُحل لها ذلك المتكلم نعيم بن ثعلبة وغيره المحرَّم ويُحَرِّم بدله صفراً ، فنهى الله عن ذلك بهذه الآية ، وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾(١) ، وجُعل المحرم أَول شهور السنة من حيث كان الحجُّ والموسم غاية العام وثمرته ، فبذلك يكمل ، ثم يُستأْنف عام آخر ، ولذلك ـ والله أَعلم ـ دوَّن به عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين ، فمعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ، أَي: لا تحلوه بقتال ولا غارة ولا تبديل ، فإِن تبديله استحلال لحرمته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَظهر عندي أَن الشهر الحرام أُريد به رجب ليشتهر أَمره ، لأَنه إِنما كان مختصاً بقريش ، ثم فشا في مضر ، ومما يدل على هذا قول عوف بن الأَحوص:

وشهــر بنـــي أُميــة والهــدايــا ... إذا حبســت مضرَّجها الــدمــاءُ(٢)

قال أَبو عبيدة: أَراد رجبا ، لأَنه شهر كانت مشايخ قريش تعظمه ، فنسبه إِلى بني

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) كان بنو ربيعة بن نزار يحرمون شهر رمضان ، ويسمونه رجباً ، وكانت مضر تحرِّم رجباً نفسه ، ولذلك قال النبي ﷺ في الحديث الذي أشار إليه ابن عطية: «الذي بين جمادى وشعبان» ليحدِّدَه بدون لبس ، وبيت عوف بن الأحوص يدل على ذلك ، ومضرَّج من: ضرَّج الثوب بمعنى صبغه بالحمرة ، وتضرَّج بالدم: تلطخ به ، وقبل هذا البيت:

وإِنِّـــي والَّـــذي حجَّـــتْ قـــريـــشٌ ... مَحَـــارِمَـــهُ ومَـــا جَمَعَـــتْ حِـــراءُ



أمية ، ذكر هذا الأخفش في «المفضليات» ، وقد قال الطبري: المراد في هذه الآية رجب مضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فوجه هذا التخصيص هو كما قد ذكرت أن الله تعالىٰ شدَّد أمر هذا الشهر إذ كانت العرب غير مجمعة عليه. وقال عكرمة: المراد في هذه الآية ذو القعدة من حيث كان أولها ، وقولنا فيها (أول) تقريب وتجوز ، إن الشهور دائرة ، فالأول إنما يترتب بحسب نازلة أو قرينة ما مختصة بقوم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ ـ أما الهَدْيُ فلا خلاف أنَّهُ مَا أُهْدي من النعم إلى بيت الله وقصدت به القربة ، فأمر الله ألا يستحل ويغار عليه[1]. واختلف الناس في القلائد ـ فحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القلائد هي الهدي المقلد ، وأن الهَدْي يسمّىٰ هَدْياً ما لم يقلد ، فكأنه قال: ولا الهدي الذي لم يقلد والمقلد منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قال الطبري تحامل على ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما ، وليس يلزم من كلام ابن عباس رضي الله عنهما أن الهدي إنما يقال لِمَا لَمْ يقلد ، وإنما يقتضي أن الله نهى عن استحلال الهدي جملة ، ثم ذكر المقلد منه تأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد. وقال جمهور الناس: الهدي عام في أنواع ما أُهدي قُربة ، والقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمنة لهم ، قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السَّمُر قلادة فلم يعرض له أحد بسوءٍ ، إذ كانت تلك علامة إحرامه وحجه ، وقال عطاء وغيره: بل كان الناس إذا خرجوا من الحرم في حوائج لهم تقلدوا من شجرالحرم ومن لحائه ، فيدل ذلك على أنهم من أهل الحرم أو من حجاجه ، فيأمنون بذلك ، فنهى الله تعالىٰ عن استحلال من تحرم بشيءٍ من هذه المعاني. وقال مجاهد وعطاء: بل الآية نَهي للمؤمنين عن أن يستحلوا أخذ القلائد من شجر الحرم كما

---

(١) الحق أن الخلاف موجود في المراد بالهدْي ، فقد قيل: هو اسم لما يُهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقر أو شاة ، وقيل: هو ما قصد به وجه الله ، وفي الحديث: «ثم كالمُهْدي دجاجة» وقيل: الشعائر هي البدن من الأنعام ، وأمّا الهَدْي فهو البقر والغنم والثياب ـ وقيل: الشعائر كل ما كان مُشْعراً أي معلماً بإسالة الدم من سنامه ، والهدي ما لم يشعر.



كان أَهل الجاهلية يفعلون ، وقاله الربيع بن أَنس عن مُطَرِّف بن الشِّخِّير وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ معناه: ولا تحلوهم فتغيروا عليهم ، ونهى الله تعالىٰ المؤمنين بهذه الآية عن أَن يعمدوا للكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقربة. وكل ما في هذه الآية من نهي عن مشرك ، أَومراعاة حرمة له بقلادة ، أَو أَمِّ البيت ونحوه ، فهو كله منسوخ بآية السيف في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1].

وروي أَن هذه الآية نزلت بسبب الحُطَم بن هند البكري أَخي بني ضُبيعة بن ثعلبة[2] ، وذلك أَن رسول الله ﷺ قال يوماً لأَصحابه: «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان» ، فجاءَ الحُطَم فخلَّف خيله خارجة من المدينة ، ودخل على رسول الله ﷺ ، فلما عرض رسول الله ﷺ عليه الإِسلام ودعاه إِلى الله قال: انظروا لَعَلِّي أُسْلِم ، وأَرى في أَمرك غلظة ، ولي مَنْ أُشاوره ، فخرج ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بعقب غادر»[3]. فمرَّ بسرح[4] من سرح المدينة فساقه وانطلق به وهو يقول:

قَـدْ لَفَّهَـا اللَّيْـلُ بِسَـوَّاقٍ حُطَـمْ ... لَيْـسَ بِـرَاعِـي إِبِـلٍ وَلا غَنَـمْ
وَلا بِجَـزَّارٍ عَلَـى ظَهْـرِ وَضَـمْ ... بَـاتُـوا نِيَـامـاً وابْنُ هِنْـد لـمْ يَنَـمْ
بَـاتَ يُقَـاسِيهَـا غُـلامٌ كـالـزُّلَـمْ ... خَـدَلَّـج السَّـاقَيْـن خَفَّـاق الْقَـدَمْ[5]

(١) التوبة: ٤.

(٢) اسمه: شُريح بن ضُبَيْعة البكري ، وأَما الحُطَم فلقب له ، وقال السدي: اسمه الحطيم بن هند البلدي ، أحد بني ضُبَيْعة ، وفي أسباب النزول للواحدي: نزلت في الحُطيم ، واسمه: شريح بن ضُبَيْع الكندي.

(٣) أخرج ابن جرير عن السدي ، وفيه بقية الكلام حتى قوله: فنزلت هذه الآية إلا الأبيات الشعرية. (الدر المنثور).

(٤) السَّرْح: الماشية (تسمية بالمصدر) ، ولا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويُراح ، يقال: سرح الماشية: أسامها.

(٥) يقال: رجلٌ حُطَمٌ وحُطَمة: إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض. والوَضَم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشبة ونحوها وقاية له من الأرض. والزَّلَم: (بفتح الزاي وبضمها) القَدَح ، والجمع: الأزْلام ، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وخدَلَّج الساقين: عظيمها ، ومعنى خفاق القدم: عريض صدر القدمين.



ثم أَقبل الحُطَم من عام قابل حاجّاً ، وساق هدياً ، فأَراد رسول الله ﷺ أَن يبعث إليه ، وخفَّ إِليه ناس من أَصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فنزلت هذه الآية. قال ابن جُرَيج: هذه الآية نهيٌ عن الحُجَّاج أَن تُقطع سُبُلهم ، ونزلت الآية بسبب الحُطَم ، فذكر نحوه ، وقال ابن زيد: نزلت الآية عام الفتح ورسول الله ﷺ بمكة ، جاء أُناس من المشركين يحُجُّون ويعتمرون ، فقال المسلمون: يا رسول الله ، إنما هؤلاء مشركون ، فلن ندعهم إلا أَن نغير عليهم ، فنزل القرآن: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكل ما في هذه الآية مما يتصور في مسلم حاج فَهو مُحْكم ، وكلما كان منها في الكفار فهو منسوخ ، وقرأَ ابن مسعود وأَصحابه: [وَلا آمِّي الْبَيْتِ] بالإِضافة إِلى البيت.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ قال فيه جمهور المفسرين: معناه: يبتغون الفضل في الأَرباح في التجارة ، ويبتغون ـ مع ذلك ـ رضوانه في ظنهم وطمعهم. وقال قوم: إِنما الفضل والرضوان في الآية في معنى واحد ، وهو رضا الله وفضله بالرجاءِ والجزاءِ ، فمن العرب من كان يعتقد جزاءً بعد الموت ، وأَكثرهم إِنما كانوا يرجون الجزاءَ والرضوان في الدنيا والكسب وكثرة الأَولاد ، ويتقربون رجاءَ الزيادة في هذه المعاني ، وقرأَ الأَعمش: [وَرُضْوانا] بضم الراءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية استئلاف من الله تعالىٰ للعرب ، ولطف بهم ، لتنبسط النفوس ، ويتداخل الناس ، ويردون[2] الموسم فيسمعون القرآن ، ويَدخل الإِيمان في قلوبهم ، وتقوم عندهم الحجة كالذي كان ، وهذه الآية نزلت عام الفتح ، ونسخ الله تعالىٰ ذلك كله بعد عام سنة تسع إِذ حجَّ أَبو بكر ونودي الناس بسورة براءَة.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن زيد (الدر المنثور) ، و(تفسير الطبري).
(٢) لعله أراد هنا الاستئناف فجاء الفعل مرفوعاً بثبوت النون ، وبعده (فيسمعون) و(يدخلُ) ـ وإلا فالظاهر النصب عطفاً على ما قبله.



قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾.

جاءَت إباحة الصيد عقب التشدد في حَرم البشرِ حسنةً في فصاحة القول[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَاصْطَادُوا۟ ﴾ صيغة أمر، ومعناه الإباحة بإجماع من الناس.

واختلف العلماءُ في صيغة (افعَل) إذا وردت ولم يقترن بها بيان واضح في أحد المحتملات ـ فقال الفقهاءُ: هي على الوجوب حتى يدل الدليل على غير ذلك، وقال المتكلمون: هي على الوقف حتى تطلب القرينة، ولن يُعرَّىٰ أمر من قرينة. وقال قوم: هي على الإباحة حتى يدل الدليل، وقال قوم: هي على الندب حتى يدل الدليل. وقول الفقهاءِ أَحوطُها، وقولُ المتكلمين أَقيسها، وغير ذلك ضعيف. ولفظة (افعَل) قد تجيءُ للوجوب كقوله: ﴿ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقد تجيءُ للندب كقوله: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ وقد تجيءُ للإباحة كقوله: ﴿ فَاصْطَادُوا۟ ﴾ و﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ و﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، ويحتمل الابتغاءُ من فضل الله أن يكون ندباً، وقد تجيءُ للوعيد كقوله: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾، وقد تجيءُ للتعجيز كقوله: ﴿ كُونُوا۟ حِجَارَةً ﴾[2].

---

(١) أراد ابن عطية بهذه العبارة أن يؤكد فصاحة التعبير القرآني دون حاجة إلى القول بأن قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا۟ ﴾ جملة اعتراضية بين قوله: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾، بل هي مُؤَسِّسة حكماً إذ أفادت عدم حِلِّ الاصطياد في حال الإحرام. وقد شرح ذلك أبو حيان في (البحر) فقال: «تضمن آخر قوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم ﴾ تحريم الصيد حالة الإحرام، وآخر قوله: ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ـ النهي عن إحلال آمّي البيت، فجاءَت هذه الجملة ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا۟ ﴾ راجعاً حكمها إلى الجملة الأولى، وجاء ما بعدها من قوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ راجعاً إلى الجملة الثانية، وهذا من بليغ الفصاحة» ا هـ.

(٢) استشهد المؤلف رحمه الله هنا بجمل من آيات قرآنية كريمة، وهي على ترتيب ذكرها ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢] ـ ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٢] وهي الآية موضع التفسير هنا ـ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] ـ وقد ورد في الأصول [فَابْتَغوا] بالفاء وهو خطأ=



وقرأ أَبو واقد، والجرَّاح، ونُبَيْح، والحسن بن عمران: [فِاصْطَادُوا] بكسر الفاءِ، وهي قراءَة مشكلة، ومن توجيهها أَن يكون راعىٰ كسر أَلف الوصل إِذا بدأْت فقلت: اصطادوا ـ فكسر الفاء مراعاةً وتذكُّراً لكسر أَلف الوصل(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: ولا يكسبنكم. وجَرَم الرجل معناه: كسب، ويتعدى إِلى مفعولَيْن، كما يتعدى كسب، وفي الحديث: (وتكسب المعدوم). قال أَبو علي: وأَجْرم بالأَلف عرفه الكسب في الخطايا والذنوب، وقال الكسائي: جَرَم وأَجْرم لغتان بمعنى واحد، أَي: كسب. وقال قوم: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: يحق لكُم، كما أَنَّ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾(٢) معناه: حق لهم أَن لهم النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: يَحْمِلنكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها أَقوال تتقارب بالمعنى، فالتفسير الذي يخص اللفظة هو معنى الكسب، ومنه قول الشاعر:

جَـريمـةُ نـاهـضٍ فـي رَأْس نِيـقٍ ... تـرى لِعِظَـام مـا جمَعـتْ صَليبَـا(٣)

معناه: كاسبُ قوت ناهض. ويقال: فلان جريمة قومه، إِذا كان الكاسب لهم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: [يُجْرِمنَّكُمْ] بضم الياءِ، والمعنى أَيضاً: لا يكسبنكم، وأَما قول الشاعر:

ولَقَـدْ طعنْـتُ أَبـا عُيَيْنَـةَ طَعْنَـةً ... جَرَمتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا(٤)

= من النساخ فآثرنا إثبات الصاب، ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. ﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠].

(١) قال الزمخشري عن هذه القراءة: «هو بدلٌ من كسر الهمزة عند الابتداء». وقال أبو حيان: «وليس عندي كسراً محضاً، بل هو من باب الإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في (فإذا) لوجود كسرة (إذا).

(٢) النحل: ٦٢.

(٣) البيت لأبي خُراش الهذلي يصف عقاباً تطعم فرخها الناهض ما بقي من لحم طير أكلته وبقي العظم يسيل منه الدسم والدهن. فالنهض هو الفرخ ـ وهي جريمته أي: كاسبة قوته كما يقال: فلان جريمة قومه، أي: كاسبهم. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل، ويقال: هو الأنوق في النِّيق ممتنع لا يبلغ إليه، وجمعه أنياق ونيوق ونياق. والصليب: الودك، وهو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٤) هذا البيت لأبي أسماء بن الضريبة. وجرمت أي: «حق لها الغضب» كما قاله في «اللسان» نقلاً عن=



فمعناه: كسبت فزارة بعدها الغضب، وقد فسر بغير هذا مما هو قريب منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ متحركة النون، وقرأ ابن عامر: [شَنْئان] ساكنة النون، واختلف عن عاصم ونافع، يقال: شَنأتُ الرجل شَنْئاً (بفتح الشِّين)، وشنَآناً (بفتح النون)، وشنْآناً (بسكون النون)، والفتح أكثر، كل ذلك إذا أبغضته، قال سيبويه: كل ما كان من المصادر على (فَعلان) بفتح العيْن لم يتعد فعله إلا أن يشذ شيءٌ كالشَّنآن، وإنما عدي (شنأتُ) من حيث كان بمعنى أَبغضت[1]، كما عدي (الرَّفَثُ) بإلى من حيث كان بمعنى (الإفضاءِ).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأما من قرأ: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بفتح النون فالأَظهر فيه أنه مصدر، كأنه قال: لا يكسبنكم بغض قوم من أَجل أَنْ صدُّوكم عدواناً عليهم وظلماً لهم، والمصادر على هذا الوزن كثيرة: كالنَزَوان، والغَليَان، والطوَفان، والجَرَيَان، وغيره، ويحتمل الشنَآن بفتح النون أَن يكون وصفاً فيجيءُ المعنى: ولا يكسبنكم بَغِيضُ قَوم أَو بُغَضاءُ قوم عدواناً.

ومما جاءَ على هذا الوزن صفة قولهم: «حمار قطَوان»، إذا لم يكن سهل السير، وقولهم: «عدوٌ وصَمان» أَي: ثقيل كعدو الشيخ ونحوه، إلى غير هذا مما ليس في الكثرة كالمصادر، ومنه ما أَنشده أَبو زيد:

وقَبْلك ما هابَ الرِّجالُ ظُلامَتي ... وَفَقَأْتُ عيْنَ الأَشْوَس الأَبَيَان[2]

بفتح الباءِ، وأَما من قرأَ: [شَنْآن] بسكون النون فيحتمل أَن يكون مصدراً، وقد جاءَ المصدر على هذا الوزن في قولهم: لويته دينه لوْيانا، وقول الأَحوص:

= الأخفش، وقال آخرون: بل المعنى: كسبت فزارة بعدها الغضب، وهو الذي اختاره ابن عطية. وللفراء رأي في البيت يقول فيه: إن (فزارة) منصوبة وليست مرفوعة كما توهموا، وفاعل الفعل (جرم) إنما هو الضمير العائد على الطعنة، والمعنى: جرمتهم الطعنة الغضب، أي: كسبتهم.

(١) في بعض النسخ: «من حيث كان أَبغضت».

(٢) هذا البيت لأبي المجشّر الجاهلي كما قال في اللسان، والشَّوَس: النظر بإحدى شقي العين، وقيل: هو الذي يُصغّر عينه ويضم أجفانه لينظر، وقال ابن سيدة: أن ينظر بإحدى عينيه ويُميل وجهه في شق العين التي ينظر بها، يكون ذلك خلقة، ويكون من الكبر والغضب، والأبَيان: من الإباء، يقال: أَبي يأبى فهو آبٍ وأَبيٌّ وأَبيانٌ بالتحريك.



. . . . وَإِنْ لاَمَ فيــه ذُو الشَّنــانِ وفَنَّــدا[١]

إنما هو تخفيف من (شَنْآن) الذي هو مصدر بسكون النون ، لأَنه حذف الهمزة وأَلقى حركتها على الساكن ، هذا هو التخفيف القياسي ، قال أَبو علي: من زعم أَن (فعَلان) إِذا سُكنت عينه لم يكن مصدراً فقد أَخطأَ ، وتحتمل القراءَة بسكون النون أَن تكون وصفاً ، فقد حُكي: رجل شنْآن وامرأَة شنآنة ، وقياس هذا أَنه من فعل غير متعد ، وقد يشتق من لفظ واحد فعل متعد وفعل واقف ، فيكون المعنى: ولا يكسبنكم بغيض قوم أو بغضاءُ قوم عُدواناً ، وإِذا قدرت اللفظة مصدراً فهو مصدر مضاف إِلى المفعول ، ومما جاءَ وصفاً على فعْلان ما حكاه سيبويه من قولهم: خمصان ، ومن ذلك قولهم: ندمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومنه رحمان.

وهذه الآية نزلت عام الفتح حين أَراد المؤمنون أَن يستطيلوا على قريش وأَلفافها من القبائل المتظاهرين على صدر رسول الله ﷺ وأَصحابه عام الحديبية ، وذلك سنة ست من الهجرة ، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة[٢] للكفار ، فقيل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان: لا يحملنكم ذلك البغض أَو أُولئك البُغَضاءُ من أَجل أَن صدوكم على أَن تعتدوا عليهم ، إِذ لله فيهم إِرادة خير ، وفي علمه أَن منهم من يؤمن كالذي كان. وحكى المهدوي عن قوم أَنها نزلت عام الحديبية لأَنه لما صُدَّ المسلمون عن البيت مرَّ بهم قوم من أَهل نجد يريدون البيت فقالوا: نصُدُّ هؤُلاءِ كما صُددنا ، فنزلت الآية.

وقرأَ أَبو عمرو ، وابن كثير: [إِن صدُّوكُمْ] بكسر الهمزة ، وقرأَ الباقون: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة إِشارة إِلى الصد الذي وقع ، وهذه قراءَة الجمهور ، وهي

---

(١) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه كما رواه في اللسان:

وَمَـا الْعَيْـشُ إلا مَـا تَلَـذُّ وَتَشْتَهِـي   وَإِنْ لامَ فيـه ذُو الشَّنـان وَفَنَّـدَا

(٢) الحَسَك والحَسَكَة والحسيكة: الحقد ـ على التشبيه ـ قال الأزهري: وحَسَكَ الصدر: العداوة ، وفي الحديث الشريف: «تياسروا في الصداق ، إنَّ الرجل ليعطي المرأَة حتى يبقي ذلك في نفسه عليها حسكة» أي: عداوة وحقداً.



أَمكن في المعنى، وكسْر الهمزة معناه: إِن وقع مثل ذلك في المستقبل.

وقرأَ ابن مسعود: [إِنْ يَصُدُّوكُمْ]، وهذه تؤيد قراءَة أَبي عمرو وابن كثير.

ثم أَمرَ الله تعالىٰ الجميع بالتعاون على البِرِّ والتَّقوى، قال قوم: هما لفظان بمعنى، وكرر باختلاف اللفظ تأْكيداً ومبالغة، إِذ كل برٍّ تقوى، وكل تقوى برٌّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تسامحٌ مّا، والعرف في دلالة هذين اللفظين أَن البر يتناول الواجب والمندوب إِليه، والتقوى رعاية الواجب، فإِن جعل أَحدهما بدل الآخر فَبِتَجَوُّزٍ، ثم نهى تعالىٰ عن التعاون على الإِثم، وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان، وهو ظلم الناس، ثم أَمر بالتقوى، وتوعد توعداً مجملاً بشدة العقاب. وروي أَن هذه الآية نزلت نهياً عن الطلب بدخول الجاهلية، إِذ أَراد قوم من المؤمنين ذلك، قاله مجاهد، وقد قتل بذلك حليف لأَبي سفيان من هذيل.

قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية تعديد لما يتلى على الأُمة مما استثني من بهيمة الأَنعام، والميتة: كل حيوان له نفس سائلة خرجت نفسه من جسده على غير طريق الذكاة المشروع، سوى الحوت والجراد، على أَن الجراد قد رأَى كثير من العلماءِ أَنه لا بد من فعل فيها يجري مجرى الذكاة، وقرأَ جمهور الناس ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ بسكون الياءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [المَيِّتَةُ] بالتشديد في الياءِ، قال الزجاج: هما بمعنى واحد، وقال قوم من أَهل اللسان: الميْت بسكون الياءِ: ما قد مات، والميِّت: يقال لما قد مات ولما لم يمت وهو حيٌّ بعْدُ، ولا يقال له: ميْت بالتخفيف، وردَّ الزجاج هذا القول، واستشهد على ردِّه بقول الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ(١)

(١) نسبه في «لسان العرب» إلى عدي بن الرَّعْلاءِ، وبعده:

إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يعيشُ كَئِيباً ... كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ
فَأُنَاسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَاداً ... وأُنَاسٌ حُلُوقهم في المَاءِ

وكما اختلفوا في معنى كل من ميْت وميِّت، اختلفوا كذلك في دلالة كل من ميِّت ومائت فقالوا: حكى الجوهري عن الفراء: يقال لمن لم يمت: إنه مائت عن قليل وميّت، ولا يقولون لمن مات: هذا مائت. قيل: وهذا خطأ، وإنما ميّت يصلح لما قد مات ولما سيموت، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والبيت يحتمل أَن يتأَول شاهداً عليه لا له، وقد تأَول قوم «استراح» في هذا البيت بمعنى: اكتسب رائحة، إِذ قائله جاهلي لا يرى في الموت راحة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ معناه: المسفوح، لأَنه بهذا تقيد الدم في غير هذه الآية، فيرد المطلق إِلى المقيد، وأَجمعت الأُمة على تحليل الدم المخالط للحم، وعلى تحليل الطحال ونحوه، وكانت الجاهلية تستبيح الدم، ومنه قولهم: «لَمْ يُحْرَم مَن فُصِدَ له»[1]، و«العِلْهِزُ»: دمٌ ووبر يأْكلونه في الأَزمات[2].

﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ مقتض لشحمه بإِجماع[3]، واختلف في استعمال شَعره وجلده بعد الدباغ فأُجيز ومُنع، وكل شيءٍ من الخنزير حرام بإِجماع، جلداً كان أَو عظماً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني ما ذبح لغير الله تعالىٰ، وقصد به صنم أَو بشر من الناس، كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أَن يُسمي مقصوده ويصيح به، فذلك إِهلاله، ومنه استهلال المولود إِذا صاح عند الولادة، ومنه إِهلال الهلال، أَي: الصياح بأَمره عند رؤْيته، ومن الإِهلال قول ابن أَحمر:

يُهِلُّ بالفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا ... كما يُهِلُّ الرَّاكِبُ المُعْتَمِرْ[4]

= ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وقد جمع بين اللغتين عديّ بن الرعلاء في أبياته حين جعل الميْت كالميِّت.

(١) هذا مثل يضرب لمن يحصل على بعض حاجته، ويروي «من فُزْدَ له». وفُصد من الفصد. كانوا إذا أعياهم قرى الضيف فَصَدُوا بعيراً وعالجوا دمَه بشيءٍ فأكلوه، وأَصل المثل أن رجلين باتا عند أَعرابي فالتقيا صباحاً، فسأَل أَحدهما صاحبه عن القرى فقال: ما قريت، وإنما فصد لي، فقال: «لم يحرم من فصد له».

(٢) كانت العرب في الجاهلية تأكل العِلْهِز في الجدب، وفي حديث عكرمة: «كان طعام أهل الجاهلية العِلْهِز»، أنشد ابن شُميل:

وَإِنَّ قِرى قَحْطَانَ قِرْفٌ وعِلْهِز ... أَقْبِحْ بهذَا وَيْحَ نَفْسِكَ مِنْ فِعْل

وفي الحديث في دعائه عليه الصلاة والسلام على مُضر: «اللَّهمَّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فابتلوا بالجوع حتى أكلوا العِلْهِز». (راجع اللسان).

(٣) قال في (البحر المحيط): «وليس كذلك، فقد خالف فيه داود وغيره».

(٤) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً، ولذا يهتدى به، وهو المسمى: «النجم القطبي»، ويقربه نجم آخر مماثلٌ له وأَصغر منه، وهما فرقدان. والمعتمر: الزائر (في رأي الأصمعي)، وقال أبو عبيدة: المعتمر: المُتَعَمِّم بالعمامة. ومعنى البيت كما قال الأصمعي: «إذا انجلى لهم السحاب عن الفرقد أَهلُّوا، أَي: رفعوا أَصواتهم بالتكبير» ـ وقد فسَّر غير (الفرقد) بأنه ولد=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ معناه: التي تموت خنقاً ، وهو حبْس النَّفَس سواءٌ فعل بها ذلك آدمي أَو اتفق لها ذلك في حجر أَو شجرة أَو بحبل أَو نحوه ، وهذا بإِجماع ، وقد ذكر قتادة أَن الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها ، فإِذا ماتت أَكلوها ، وذكر نحوه ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تُرمى أَو تضرب بعصا أَو بحجر أَو نحوه ، وكأَنها التي تحذف به ، وقال الفرزدق:

شَغَّارَةٌ تَقِذُ الفَصيلَ بِرِجْلِهَا ... فطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التي تضرب بالخشب حتى يوقذها فتموت ، وقال قتادة: كان أَهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأْكلونها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن اللفظة قول معاوية: «وَأَمَّا ابن عمر فرجل قد وقذه الورع ، وكفى أَمره ونزوته». وقال الضحاك: «كانوا يضربون الأَنعام بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأْكلونها» ، وقال أَبو عبد الله الصنابحي: «ليس الموقوذة إِلا في مالك ، وليس في الصيد وقيذ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعند مالك وغيره من الفقهاءِ في الصيد ما حكمه حكم الوقيذ ، وهو نص في قول النبي ﷺ في المعراض[2]: «وإِذَا أَصَابَ بِعَرْضِه فَلا تَأْكُل فَإِنَّهُ وَقِيذٌ»[3].

= البقرة ، ولهذا قالوا: «إن معنى البيت أنهم في مفازة بعيدة من المياه فإذا رأَوا ولد البقرة رفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل». ـ وأصل الإهلال هو رفع الصوت ، وفي الحديث: «الصبي إذا ولد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخاً».

(١) البيت في وصف ناقة ، والشغَّارة هي التي ترفع قوائمها لتضرب. وتقذ: تضرب الفصيل حتى تصرعه أو تتركه مريضاً ، والفصيل: ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أُمه ـ وهذا هو سبب ضربها له ـ والفطر: الحلب بالسبابة والوسطى ويستعان بطرف الإبهام ، وخلفا الضرع المقدمان: هما القادمان ، وجمعه: القوادم ، والأبكار تحلب فُطْرا ، لأنه لا يمكن حلبها كما يقال ضبا لقصر الخلف ، لأنها صغار. ـ والفُطْر: القليل من اللبن ـ والحلب ضبا هو الحلب بقوة وشدة.

(٢) المِعْراض: سهم يرمى به بلا ريش ، وأكثر ما يصيب بعرض عوده دون حده.

(٣) في الصحيحين وغيرهما عن عديٍّ قال: قلت يا رسول الله ، إني أَرمي بالمعراض الصيد فأُصيب ، فقال=



﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تتردى من العلو إلى السفل فتموت ، كان ذلك من جبل أو في بئر ونحوه ، وهي متفعِّلة من الرَّدى وهو الهلاك ، وكانت الجاهلية تأكل المتردي ، ولم تكن العرب تعتقد ميتةً إلاَّ ما مات بالوجع ونحو ذلك دون سبب يعرف ، فأَما هذه الأَسباب فكانت عندها كالذكاة ، فحصر الشرع الذكاة في صفة مخصوصة ، وبقيت هذه كلها ميتة.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ فعيلة بمعنى مفعولة: وهي الشاة تنطحها أُخرى أَو غير ذلك فتموت ، وتأَول قومٌ النطيحة بمعنى الناطحة ، لأَن الشاتين قد تتناطحان فتموتان ، وقال قوم: لو ذكّر الشاة لقيل: والشاة النطيح ، كما يقال: كف خضيب ، ولحية دهين. فلما لم تُذَكَّرْ أُلحقت الهاءُ لئلا يشكل الأمر ، أَمذكراً يريد أم مُؤَنَّثاً؟ قال ابن عباس ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك: النطيحة: الشاة تناطح الشاة فتموتان ، أَو الشاة تنطحها البقر والغنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل ما مات ضغطاً فهو نطيح ، وقرأَ أَبو ميسرة: [وَالْمَنْطَوحَةُ].

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ يريد كل ما افترسه ذو ناب وأَظفار من الحيوان كالأَسد والنمر والثعلب والذئب والضبع ونحوه ، هذه كلها سباع ، ومن العرب من يوقف اسم السبع على الأَسد ، وكان العرب إِذا أَخذ السبع شاة فقتلها ثم خلصت منه أَكلوها ، وكذلك إِن أَكل بعضها ، قاله قتادة وغيره. وقرأَ الحسن ، والفياض ، وطلحة بن سليطان ، وأَبو حيوة: [وَما أَكَلَ السَّبْعُ] بسكون الباءِ ، وهي لغة أَهل نجد[1] ، وقرأَ بذلك عاصم في رواية أَبي بكر عنه ، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [وَأَكِيلَةُ السَّبع] ، وقرأَ عبد الله بن عباس: [وَأَكِيلُ السَّبع].

اختلف العلماءُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ـ فقال ابن عباس: والحسن بن أَبي الحسن ، وعلي بن أَبي طالب ، وقتادة ، وإِبراهيم النَّخَعي ، وطاووس ،

= عليه الصلاة والسلام: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكلْه ، وإن أَصاب بعَرْضه فإنما هو وقيذٌ فلا تأكلْه».

(١) قال حسَّان في عتبة بن أبي لهب:

مَـــنْ يـــرْجِـــع العـــامَ إِلـــى أَهْلِـــهِ   فَمَـــا أَكِيـــلُ السَّبْـــع بـــالـــراجـــع



وعبيد بن عمير، والضحاك، وابن زيد، وجمهور العلماء: الاستثناءُ هو من هذه المذكورات، فما أُدرك منها يطرف بعين، أو يمصع[1] برجل، أَو يحرك ذنباً، وبالجملة ما يتحقق أَنه لم تَفِض نفسه بل له حياة، فإِنه يذكى على سنة الذكاة ويؤكل، وما فَاضَت نفْسُه فهو في حكم الميتة بالوجع ونحوه على ما كانت الجاهلية تعتقده. وقال مالك رحمه الله مرة بهذا القول، وقال أَيضاً ـ وهو المشهور عنه وعن أَصحابه من أَهل المدينة ـ: إن قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ معناه: من هذه المذكورات في وقت تصح فيه ذكاتها، وهو ما لم تنفذ مقاتلها ويتحقق أَنها لا تعيش، ومتى صارت في هذا الحد فهي في حكم الميتة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقال بعض المفسرين: إن الاستثناءَ في قول الجمهور متصل، وفي قول مالك منقطع، لأَن المعنى عنده: لكم ما ذكيتم مما تجوز تذكيته فكلوه، حتى قال بعضهم: إن المعنى: إلا ما ذكيتم من غير هذه فكلوه، وفي هذا عندي نظر، بل الاستثناءُ على قول مالك متصل، لكنه يخالف في الحال التي تصح فيها ذكاة هذه المذكورات، وقال الطبري: إن الاستثناءَ عند مالك من التحريم لا من المحرمات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه العبارة تجوُّز كثير، وحينئذ يلتئم المعنى.

والذكاة في كلام العرب: الذَّبح، قاله ثعلب، قال ابن سيدة: والعرب تقول: «ذكاة الجنين ذكاة أُمِّه».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إِنما هو حديث[2]. وذكَّى الحيوان ذَبَحَهُ. منه قول الشاعر:

ـ يُذَكِّيها الأَسَلْ[3] ـ

---

(١) يقال: مَصَعَتْ الدابة بذنبها: حرّكته من غير عدد.

(٢) قال القرطبي: «الحديث الذي أشار إليه أخرجه الدارقطني من حديث أبي سعيد، وأَبي هريرة، وعلي، وعبد الله».

(٣) نقله في القرطبي هكذا، وذكره بنفس الصورة في اللسان، ولم ينسبه أحد منهما ولا من المحققين، والأسل: الرماح.



ومما احتج به المالكيون لقول مالك: «إن ما تيقن أنه يموت من هذه الحوادث فهو في حكم الميتة» ـ أنه[١] لو لم تحرم هذه التي قد تُيقن موتُها إلا بأن تموت لكان ذكرُ الميتة أَولا يُغني عنها، فمن حجة المخالف أن قال: إنما ذكرت بسبب أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحوادث كالذكاة فلو لم يذكر لها غير الميتة لظنت أنها ميتة الوجع حسب ما كانت هي عليه.

قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ﴾ عطف على المحرمات المذكورات، و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ جمعٌ، واحده: نصاب، وقيل: هو اسم مفرد، وجمعه: أَنْصاب، وهي حجارة تُنْصب، كان منها حول الكعبة ثلاثمائة وستون، وكان أَهل الجاهلية يُعظمونها ويذبحون عليها لآلهتهم ولها أَيضاً، وتلطخ بالدماءِ، وتوضع عليها اللحوم قطعاً قطعاً ليأْكل الناس، وقال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: النُّصب حجارة كان أَهل الجاهلية يذبحون عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ويُهلون عليها، قال ابن جُرَيج: النُّصُب ليست بأَصنام، الصَّنَم يصور وينقش، وهذه الحجارة تنصب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد كانت للعرب في بلادها أَنصاب حجارة يعبدونها، ويحكون[٢] فيها أَنصاب مكة، ومنها الحجر المسمى بسَعْد وغيره، قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة، وينضحون بالدم ما أَقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلماجاءَ الإِسلام قال المسلمون لرسول الله ﷺ: نحن أَحق أَن نعظم هذا البيت بهذه

(١) قوله: «أَنه لو لم تحرم» مبتدأٌ مؤخر، والخبر قوله في بداية الكلام: «ومما احتج به المالكيون». وجملة: «إن ما تيقن... إلخ» هي قول مالك، وقد وضعناها بين علامتي التنصيص.
(٢) أي: يحاكون فيها أَنصاب مكة.



الأفعال ، فكأن رسول الله ﷺ لم يكره ذلك ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾(١) ، ونزلت: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

المعنى والنية فيها تعظيم النصب ، قال مجاهد: وكان أَهل مكة يبدلون ما شاؤوا من تلك الحجارة إذا وجدوا أَعجب إِليهم منها ، قال ابن زيد: ما ذبح على النصب وما أُهِلَّ به لغير الله شيءٌ واحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ما ذبح على النصب جزءٌ مما أُهِلَّ به لغيرِ الله ، لكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأَمر ، وشرف الموضع ، وتعظيم النفوس له ، وقد يقال للصنم أَيضاً نُصُب لأَنه يُنصب ، وروي أَن الحسن بن أَبي الحسن قرأَ: [وَمَا ذُبِحَ عَلىٰ النَّصْب] بفتح النون وسكون الصاد ، وقال: على الصنم. وقرأَ طلحة بن مُصرف: [عَلَى النُّصْب] بضم النون وسكون الصاد ، وقرأَ عيسى بن عمر: [على النَّصَب] ، بفتح النون والصاد ، وروي عنه أَنه قرأَ بضم النون والصاد كقراءَة الجمهور.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ حرَّم به تعالىٰ طلب القِسْم وهو النصيب ، أَو القَسْم ـ بفتح القاف ـ وهو المصدر بالأَزلام. وهي سهام واحدها: زُلَم ـ بضم الزاي وبفتحها ـ وأَزلام العرب ثلاثة أَنواع:

منها الثلاثة التي كانت يتخذها كل إِنسان لنفسه ، على أَحدها افْعل ، والآخر لا تفعل ، والثالث مهمل لا شيءَ عليه فيجعلها في خريطة معه ، فإِذا أَراد فعل شيءٍ أَدخل يده ـ وهي متشابهة ـ فأَخرج أَحدها وائتمر وانتهى بحسب ما يخرج له ، وإِن خرج القدح الذي لا شيءَ فيه أَعاد الضرب ، وهذه هي التي ضرب بها سراقة بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ وقت الهجرة.

والنوع الثاني سبعة قداح كانت عند هبل في جوف الكعبة ، فيها أَحكام العرب وما يدور بين الناس من النوازل ، في أَحدها: العقل في أُمور الديات ، وفي آخر:

---

(١) الحج: ٣٧.



منكم، وفي آخر: من غيركم، وفي آخر: ملصق[١]، وفي سائرها: أحكام المياه وغير ذلك، وهي التي ضرب بها على بني عبد المطلب، إذ كان نَذَر هو نحر أحدهم إذا كملوا عشرة، وهو الحديث الطويل الذي في سير ابن إسحاق، وهذه السبعة أيضاً متخذة عند كل كاهن من كهان العرب وحكامهم على نحو ما كانت في الكعبة عند هبل.

والنوع الثالث هو قداح الميسر، وهي عشرة، سبعة منها فيها خطوط لها بعددها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة، ففيها لهو للطالبين ولعب، وكان عقلاؤُهم يقصدون بها إطعام المساكين والمُعْدم في زمن الشتاءِ وكَلَب البرد وتَعذُّر التَّحَرُّف، وكان من العرب من يستقسم بها لنفسه طلب الكسب والمغامرة، وقد شرحت أَمرها بأَوعب من هذا في سورة البقرة في تفسير الميسر.

فالاستقسام بهذا كله هو طلب القَسْم والنصيب، وهو من أَكل المال بالباطل، وهو حرام، وكل مقامرة بحمام أَو بنرد أَو بشطرنج أَو بغير ذلك من هذه الأَلعاب فهو استقسام بما هو في معنى الأَزلام حرام كلُّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إِلى الاستقسام بالأَزلام، والفسق: الخروج من مكان مُحْتَوٍ جامع، يقال: فسقت الرطبة: خرجت من قشرها، والفأْرة من جحرها، واستعملت اللفظة في الشرع فيمن يخرج من احتواءِ الأَمر الشرعي وإِحاطته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ معناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: من أَن ترجعوا إِلى دينهم، وقاله السدي وعطاء، وظاهر أَمر النبي ﷺ وأَصحابه ظهور دينه يقتضي أَن يأْس الكفار عن الرجوع إِلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإِنماهذا اليأْس عندي من اضمحلال أَمر الإِسلام وفساد جمعه، لأَن هذا أَمر كان يترجاه من بقي من الكفار، أَلا ترى إِلى قول أَخي صفوان بن أُمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة: أَلاَ بطل السحر اليوم، إِلى غير هذا من الأَمثلة، وهذه الآية نزلت في أَثر حجة الوداع، وقيل: في يوم عرفة ولم يكن

---

(١) كان العرب إذا شَكُّوا في نسب أَحدهم ذهبوا إِلى هبل وبمائة درهم وجزور فأَعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إِلهنا، هذا فلان بن فلان قد أَردنا به كذاو كذا، فأَخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإِن خرج عليه «منكم» كان منهم وسيطاً، وإِن خرج «من غيركم» كان حليفاً، وإِن خرج «ملصق» كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف ـ (عن سيرة ابن هشام). ويمكنك الرجوع إِليها ففيها توضيح أكثر.



المشركون يومئذ إلا في حيّز القلة ، ولم يحضر الموسم منهم بشر ، وفي ذلك اليوم انمحى أمر الشرك من مشاعر الحج ، ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أن يكون إشارة إلى اليوم بعينه ، لا سيما في قول الجمهور ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره ـ أنها نزلت في عشية عرفة يوم الجمعة ورسول الله ﷺ في الموقف على ناقته ، وليس في الموسم مشرك. ويحتمل أن يكون إشارة إلى الزمن والوقت ، أي: في الأوان يئس الذين كفروا من دينكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك ، وهذا يقوّي أن اليأس من انحلال أمر الإسلام وذهاب شوكته ، ويقوّي أن الإشارة باليوم إنما هي إلى الأوان الذي فاتحته يوم عرفة ، ولا مشرك بالموسم ، ويعضد هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار ، وأمر بخشيته تعالىٰ التي هي رأس كل عبادة كما قال ﷺ ، ومفتاح كل خير ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ [يَيِسَ] بغير همزة ، وهي قراءَة أبي جعفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تحتمل الإشارة باليوم ما قد ذكرناه ، وهذا الإكمال عند الجمهور هو الإظهار واستيعاب عظم الفرائض والتحليل والتحريم. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير ، ونزلت آية الربا ، ونزلت آية الكلالة ، إلى غير ذلك. وإنما كمل عظم الدين وأمر الحج أنْ حجوا وليس معهم مشرك ، وقال ابن عباس ، والسدي: هو إكمال تام ، ولم ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك اليوم تحليل ولا تحريم ولا فرض ، وحكى الطبري عن بعض من قال هذا القول أن رسول الله ﷺ لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أنه عاش عليه الصلاة والسلام أكثر بأيام يسيرة ، وروي أن هذه الآية لما نزلت في يوم الحج الأكبر ، وقرأها رسول الله ﷺ بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك»؟ فقال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذْ كمل فإنه لم يكمل شيءٌ إلا نقص ، فقال له النبي ﷺ: «صدقت»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، عن عنترة. ـ ولم يفهم الصحابة كلهم ما فهمه عمر بن الخطاب=



ورُوي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له يهودي: آية في كتابكم تقرؤُونها لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له عمر رضي الله عنه: أية آية هي؟ فقال له: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فقال له عمر رضي الله عنه: قد علمنا ذلك اليوم، نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة يوم جمعة(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ففي ذلك اليوم عيدان لأَهل الإِسلام إِلى يوم القيامة.

وقال داود بن أَبي هند للشعبي: إِن اليهود تقول: كيف لم تحفظ العرب هذا اليوم الذي كمل الله لها دينها فيه؟ فقال الشعبي: أَو ما حفظته؟ قال داود: فقلت: أَي يوم هو؟ قال: يوم عرفة.

وقال عيسى بن جارية الأَنصاري: كنا جلوساً في الديوان، فقال لنا نصراني مثل ما قال اليهودي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما أَجابه منا أَحد، فلقيت محمد بن كعب القرظي فأَخبرته، فقال: هلاَّ أَجبتموه، قال عمر بن الخطاب: أُنزلت على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذكر عكرمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: نزلت سورة المائدة بالمدينة يوم الإِثنين، وقال الربيع بن أَنس: نزلت سورة المائدة في مسير رسول الله ﷺ إِلى حجة الوداع، وهذا كله يقتضي أَن السورة مدنية بعد الهجرة، وإِتمام النعمة هو في: ظهور الإِسلام، ونور العقائد، وإِكمال الدين، وسعة الأَحوال وغير ذلك مما

= رضي الله عنه، فقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا تحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً». فقد نظر إلى الآية نظرة شاملة تناولت ما فيها من إكمال وإتمام ورضا. والله أعلم.

(١) أخرجه الحميدي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حيان، والبيهقي في سننه ـ عن طارق بن شهاب.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عيسى بن حارثة الأنصاري، وفي (الدر المنثور) زيادة في آخره: (فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد).



انتظمته هذه الملة الحنيفية ، إلى دخول الجنة والخلود في رحمة الله ، هذه كلها نعم الله المتممة قِبَلنا .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ، يحتمل الرضا في هذا الموضع أن يكون بمعنى الإرادة ، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه ، لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال ، والله تعالىٰ قد أراد لنا الإسلام ورضيه لنا ، وثَمَّ أشياء يريد الله تعالىٰ وقوعها ولا يرضاها ، والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(١)] ، وهو الذي تفسر في سؤال جبريل النبي ﷺ ، وهو الإيمان والأعمال والشُّعَب .

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ يعني: مَن دعته ضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات ، وسئل رسول الله ﷺ: متى تحل الميتة؟ فقال: «إذا لم تَصطبحوا ، ولم تَغْتبقوا ، ولم تحتفئوا بها بقلا»[(٢)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا مثال في حال عدم المأكول حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب القوة والحياة .

وقرأ ابن محيصن: [فَمَن اطُّرَّ] بإدغام الضاد في الطاء ، وليس بالقياس ، ولكن العرب استعملته في ألفاظ قليلة استعمالاً كثيراً . وقد تقدم القول في أحكام الاضطرار في نظير هذه الآية في سورة البقرة .

والمخمصة: المجاعة التي تخمص فيها البطون ، أي: تضمر ، والخَمْص: ضمور البطن ، فالخلقة منه حسنة في النساءِ ، ومنه يقال: خَمْصانةٌ ، وبطن خَميص ، ومنه أَخمص القدم ، ويستعمل ذلك كثيراً في الجوع والغرث ، ومنه قول الأعشى:

تَبيتـون فـي المَشْتَـى مِـلاءً بُطُـونُكُـم   وجَاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائصَا[(٣)]

---

(١) آل عمران: ٦٩ .

(٢) تصطبحوا: تشربون الصبوح ، وهوما يشرب في الصباح ، وتغتبقوا: تشربون الغبوق ، وهو ما يشرب في المساء ، والاحتفاء قال فيه أبو سعيد الضرير صوابه: ما لم تَخْتَفُّوا بها ـ من أَحفى الشعر أَزاله ، وقيل هو من الجفا وبالهمزة وهو أصل البردي ، وقد يؤكل النوع الأبيض منه ، يقول: ما لم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. وأورد اللسان الحديث هكذا «وفي الحديث أنه سئل: متى تحل لنا الميتة؟ فقال: ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تَختَفُّوا بقْلا ، فشأنكم بها» مادة (صبح) ولعل الخطأ في الأصل هنا من النساخ .

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو علقمة بن علاثة ، وغرثى: جوعى ـ ورواية الديوان: =



أي: منطويات على الجوع قد أضمَر بطونهن.

وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[1]، وقد تقدم تفسيره وفقهه في سورة البقرة، والجنف: الميْل، وقرأ أبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي، [غَيْرَ مُتَجَنِّف] دون ألف، وهي أبلغ في المعنى من متجانف، لأن شدّ العين يقتضي مبالغة وتوغُّلاً في المعنى وثبوتاً لحكمه، وتفاعل إنما هي محاكاة الشيءِ والتقرب منه، ألا ترى إذا قلت: تمايل الغصن، فإن ذلك يقتضي تأوّداً ومقاربة ميْل، وإذا قلت: تميَّل فقد ثبت حكم الميل، كذلك: تصاوَنَ وتصوَّن، وتغافل وتَغفَّل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نائب مناب «فلا حرج عليه»، إلى ما يتضمن من زيادة الوعد وترجية النفوس، وفي الكلام محذوف يدل عليه المذكور، تقديره: فأكل من تلك المحرمات المذكورات.

وسبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أن جبريل عليه السلام جاءَ إلى رسول الله ﷺ، فوجد في البيت كلباً فلم يدخل، فقال له النبي ﷺ: «ادخل»، فقال: «أنا لا أدخل بيتاً فيه كلب، فأمر رسول الله ﷺ: بقتل الكلاب فقتلت حتى بلغت العوالي، فجاءَ عاصم بن عديّ، وسعد بن خيثمة، وعويمر بن ساعدة فقالوا: يا رسول الله: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروى هذا السبب أبو رافع مولى النبي ﷺ، وهو كان المتولي لقتل الكلاب، وحكاه أيضاً عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي موقوفاً عليهما، وظاهر الآية أن سائلاً سأل عما أُحلَّ للناس من المطاعم، لأن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ليس

= (جوعى)، وبعده:

يُـراقِبْـنَ مِـنْ جـوعٍ خِـلالَ مخـافَـةٍ ... نُجُـومَ السَّمـاءِ العـاتِمَـاتِ الغَـوَامِصَـا

(١) من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(٢) أخرجه مع اختلاف مع الألفاظ الفريابي، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي رافع. ـ وأخرج ابن جرير عن عكرمة دخول عاصم بن عدي ورفيقيه على النبي ﷺ وسؤالهم.



الجواب عما يحل لنا من اتخاذ الكلاب، اللَّهم إلا أَن يكون هذا من إِجابة السائل بأَكثر مما سأَل عنه، وهذا موجود كثيراً من النبي ﷺ، كجوابه في لباس المُحْرم وغير ذلك، وهو ﷺ مُبيِّن الشرع، فإِنما يجاوب ماذّاً إِطناب التعليم لأُمته.

والطيبات: الحلال، هذا هو المعنى عند مالك وغيره، ولا يراعى مستلذاً كان أَم لا، وقال الشافعي: الطيبات: الحلال المستَلَذ، وكل مستقذر كالوزغ والخنافس وغيرها فهي من الخبائث حرام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ تقديره: وصيْد ما علمتم، أَو فاتخاذ ما علمتم، وأَعلى مراتب التعليم أَن يشلى الحيوان فَيَنْشَلي[١]، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد ظفره بالصيد فينزجر، وأَن يكون لا يأْكل من صيده، فإِذا كان كلب بهذه الصفات ولم يكن أَسود بهيماً فأَجمعت الأُمة على صحة الصيد به بشرط أَن يكون تعليمَ مسلم، ويصيدَ به مسلم، هنا انعقد الإِجماع، فإِذا انخرم شيءُ مما ذكرنا دخل الخلاف، فإِن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أَشبهه، وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأُمة على أَن كل ما صاد بعد تعليم فهو جارح، أَي: كاسب، يقال: جرح فلان واجترح إذا كسب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[٢]، أَي: كسبتم من حسنة وسيئة، وكان ابن عمر يقول: إِنما يصاد بالكلاب، فأَما ما صِيدَ به من البزاة وغيرها من الطير فما أَدركت ذكاته فذكِّه فهو حلالٌ لك، وإِلا فلا تَطْعمه، هكذا حكى ابن المنذر، قال: وسئل أَبو جعفر عن البازي والصقر، أَيحل صيده؟ قال: لا، إِلاَّ أَن تدرك ذكاته، قال: واستثنى قوم البزاة فجوَّزوا صيدها لحديث عدي بن حاتم، قال: سأَلت رسول الله ﷺ: عن صيد البازي فقال: «إذا أَمسك عليك فكُلْ»[٣]. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة، فإِن كان الكلب أَسود بهيماً فَكَرِهَ صَيْدَه الحسن بن

---

(١) أشلى الكلب على الصيد أَغراه. واستشلى الكلب بمعنى أَشلاه. (المعجم الوسيط).

(٢) الأنعام: ٦٠.

(٣) أخرجه ابن جرير عن عدي بن حاتم. وهذا الحديث في البزاة، ولكن أَخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أُرسل الكلاب المُعَلَّمة وأَذكر اسم الله، فقال: إذا أَرسلت كلبك المُعَلَّم، وذكرت اسم الله فكل مما أَمسكن عليك، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره. (الدر المنثور).

أَبي الحسن ، وقتادة ، وإبراهيم النَّخَعي ، وقال أَحمد بن حنبل: ما أَعرف أَحداً يرخص فيه إِذا كان بهيماً ، وبه قال ابن راهويه ، فأَما عوام أَهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب مُعَلَّم.

وأَما أَكل الكلب من الصيد ، فقال ابن عباس: وأَبو هريرة ، والشعبي ، وإبراهيم النَّخَعي ، وسعيد بن جبير ، وعطاءُ بن أَبي رباح ، وقتادة ، وعكرمة ، والشافعي ، وأَحمد ، وإسحاق ، وأَبو ثور ، والنعمان وأَصحابه: لا يؤكل ما بقي ، لأَنه إنما أَمسك على نفسه ، ولم يمسك على ربّه ، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ لعديّ بن حاتم في الكلب المعلم: (وإذا أَكل فلا تأْكل فإِنما أَمسك على نفسه) ، وتأَول هؤلاءِ قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أَي: الإِمساك التام ، ومتى أَكل فلم يمسك على الصائد ، وقال سعد بن أَبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأَبو هريرة أَيضاً ، وسلمان الفارسي ، رضي الله عنهم: إذا أَكل الجارح أُكل ما بقي وإن لم تبق إلا بضعة ، وهذا قول مالك وجميع أَصحابه فيما علمت ، وتأَولوا قول الله تعالىٰ: ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على عموم الإِمساك ، فمتى حصل إِمساك ولو في بضعة حَلَّ أَكلها ، وروي عن النَّخَعي ، وأَصحاب الرأْي ، والثوري ، وحماد بن أَبي سليمان: أَنهم رخصوا فيما أَكل البازيُّ منه ، خاصة في البازي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه لا يمكن فيه أَكثر من ذلك ، لأَن حدَّ تعليمه أَن يدعى فيجيب ، وأَن يُشْلى فينشلي ، وإذا كان الجارح يشرب من دم الصيد فجمهور الناس على أَن ذلك الصيد يؤكل ، وقال عطاء: ليس شرب الدم بأَكل ، وكرّه أَكل ذلك الصيد الشعبيُّ ، وسفيان الثوري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس في الحيوان شيءٌ يقبل التعليم التام إلا الكلب شاذًا.

وأَكثرها يأْكل من الصيد ، ولذلك لم ير مالك ذلك من شروط التعليم ، وأَما الطير فقال ربيعة: ما أَجاب منها إذا دُعي فهو المعلم الضَّاري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأن أَكثر الحيوان بطبيعته ينشلي ، وقال أَصحاب أَبي حنيفة: إذا صاد الكلب



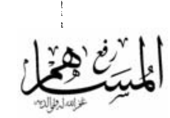
وأَمسك ثلاث مرات ولاءً فقد حصل منه التعليم ، قاله ابن المنذر: وكان النعمان لا يحدد في ذلك عدداً ، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد حصل معلماً ، وإذا كان الكلب تعليم يهودي أَو نصراني فَكَرِهَ الصَّيْدَ به الحسن البصري ، فأَما كلب المجوسي وبازُه وصقرُه فَكَرِهَ الصيد بها جابرُ بن عبد الله ، والحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعي ، والثوري ، وإسحاق بن راهويه ـ ومالك رحمه الله ، والشافعي ، وأَبو حنيفة ، وأَصحابهم على إباحة الصيد بكلابهم إذا كان الصائد مسلماً ، قالوا: وذلك مثل شفرته ، وأَما إذا كان الصائد من أَهل الكتاب فجمهور الأُمة على جواز صيده غير مالك رحمه الله ، فإنه لم يجوز صيد اليهودي والنصراني ، وفرَّق بين ذلك وبين ذبيحته ، وتلا قول الله تعالىٰ: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ قال: فلم يذكر الله بهذا اليهود ولا النصارى ، وقال ابن وهب ، وأَشهب: صيد اليهودي والنصراني حلال كذبيحته ، وفي كتاب محمد: لا يجوز صيد الصابئ ولا ذبيحته ، وهم قوم بين اليهود والنصارى لا دين لهم ، وأَما إذا كان الصائد مجوسياً فمنع من أَكل صيده مالك ، والشافعي ، وأَبو حنيفة ، وأَصحابهم ، وعطاء ، وابن جبير ، والنَّخَعي ، والليث بن سعد ، وجمهور الناس ، وقال أَبو ثور فيها قولين: أَحدهما كقول هؤلاءِ ، والآخر أَن المجوس أَهل كتاب ، وأَن صيدهم جائز.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم﴾ بفتح العين واللام ، وقرأَ ابن عباس ، ومحمد بن الحنيفة: [عُلِّمتُم] بضم العين وكسر اللام ، أَي: أَمر الجوارح والصيد بها.

والجوارح: الكواسب على ما تقدم ، وحكى ابن المنذر عن قوم أَنهم قالوا: الجوارح مأْخوذ من الجِراح ، أَي: الحيوان الذي له ناب وظفر أَو مخلب يجرح به صيده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف ، أَهل اللغة على خلافه. وقرأَ جمهور الناس ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بفتح الكاف وشد اللام ، والمكلِّب: معلم الكلاب ومُضْريها ، ويقال لمن يعلم غير كلب ، مَكلِّب ، لأَنه يرد ذلك الحيوان كالكلب. وقرأَ الحسن ، وأَبو زيد: [مُكْلِبين] بسكون الكاف وتخفيف اللام ومعناه: أَصحاب كلاب ، يقال: أَمْشى الرجل: كثرت ماشيته ، وأَكلب: كثرت كلابه. وقال بعض المفسِّرين: المكَلِّب بفتح الكاف وشد اللام: صاحب الكلاب.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بمحرر.

وقوله تعالىٰ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تعلمونهن من الحيلة في الاصطياد والتأني لتحصيل الحيوان، وهذا جزءٌ ممَّا علمه الله الإنسان فـ[من] للتبعيض، ويحتمل أن تكون لابتداءِ الغاية، وأُنث الضمير في ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ مراعاة للفظ الجوارح، إذ هو جمع جارحة.

قوله عز وجل:

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: مما أمسكن فلم يأكلن منه شيئاً، ويحتمل أن يريد: مما أمسكن وإن أكلن بعض الصيد، وبحسب هذا الاحتمال اختلف العلماءُ في جواز أكل الصيد إذا أكل منه الجارح، وقد تقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أمر بالتسمية عند الإرسال على الصيد، وفقه الصيد والذبح في معنى التسمية واحد، فقال بعض العلماءِ: هذا الأمر على الوجوب، ومتى ترك المرسِل أو الذابح التسمية عمداً أو نسياناً لم تؤكل، وممن رويت عنه كراهية ما لم يسم عليه الله نسياناً الشعبيُّ، وابن سيرين، ونافع، وأبو ثور. ورأى بعض العلماءِ هذا الأمر بالتسمية على الندب، وإلى ذلك ينحو أشهب في قوله: إن ترك التسمية مستخفاً لم تؤكل، وإن تركها عامداً لا يدري قدر ذلك ولكنه غير متهاون بأمر الشريعة فإنها تؤكل، ومذهب مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكْر، ساقطة مع النسيان، فمن تركها عامداً فقد أفسد الذبيحة والصيد، ومن تركها ناسياً سمَّى عند الأكل وكانت الذبيحة جائزة. واستحب أكثر أهل العلم ألا يذكر في التسمية غير الله تعالىٰ، وأن لفظها: بسم الله والله أكبر، وقال قوم: إنْ صلى مع ذلك على النبي ﷺ فجائز.



ثم أمر تعالىٰ بالتقوى على الجملة ، والإشارة القريبة هي إلى ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر ، وسرعةُ الحساب هي من حيث إنه تبارك وتعالىٰ قد أحاط بكل شيءٍ علماً ، فلا يحتاج إلى محاولة عدٍّ ، ويحاسب جميع الخلائق دفعة واحدة ، وتحتمل الآية أن تكون وعيداً بيوم القيامة كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه إذ يوم القيامة قريب ، ويحتمل أن يريد بالحساب المجازاة فكأنه توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ إشارة إلى الزمن والأوان ، والخطاب للمؤمنين ، وتقدم القول في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ابتداءٌ وخبر ، و﴿حِلٌّ﴾ معناه: حلالُ ، والطعام في هذه الآية: الذبائح ، كذا قال أهل التفسير ، وذلك أن الطعام الذي لا محاولة فيه كالبُرّ والفاكهة ونحوه لا يضُرُّ فيه ويُحرِّم عينَه تملُّكُ أحد. والطعام الذي تقع فيه محاولة على ضربين ، فمنه ما محاولته صنعة لا تعلُّق للدِّين بها كخبز الدقيق وتعصير الزيت ونحوه ، فهذا إن تُجنِّب من الذمي فعلى جهة التقزز ، والضرب الثاني التي هي محتاجة إلى الدِّين والنِّية ، فإذا كان القياس ألا تجوز ذبائحهم ـ كما تقول: إنهم لا صلاة لهم ولا صوم ولا عبادة مقبولة ـ رخَّص الله تبارك وتعالىٰ في ذبائحهم على هذه الأُمة ، وأخرجها بالنص عن القياس.

ثم إن العلماءَ اختلفوا في لفظ ﴿ وَطَعَامُ ﴾ ـ فقال الجمهور: وهي الذبيحة كلها ، وتذكية الذمي عاملةٌ[1] لنا في كل الذبيحة ما حلَّ له منها وما حرم عليه ، لأنه مُذَكٍّ. وقالت جماعة من أهل العلم: إنما أُحل لنا طعامهم من الذبيحة ـ أي الحلال لهم ـ لأن ما لا يحلُّ لهم لا تعمل فيه تذكيتهم ، فمنعت هذه الطائفة الطَّريف[2] والشحوم المحضة من ذبائح أهل الكتاب ، وهذا الخلاف موجود في مذهب مالك رحمه الله.

واختلف العلماءُ في لفظة ﴿ أُوتُوا۟ ﴾ ـ فقالت فرقة: إنما أُحلت لنا ذبائح بني إسرائيل

---

(١) أي: مُؤَثِّرَة في كل الذبيحة ، ما حلَّ منها للذمي وما حرم عليه.

(٢) هذه كلمة عبرية ، في الخرشي على «مختصر خليل»: «الطريفة: هي أن توجد الذبيحة فاسدة الرئة ، أي: ملتصقة بظهر الحيوان ، وإنما كانت الطريفة عندهم محرمة لأن ذلك علامة على أنها لا تعيش من ذلك ، فلا تعمل فيها الذكاة عندهم ، فهي بمنزلة منفوذة المقاتل عندنا». (عن محقق القرطبي).



والنصارى الصرحاءُ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، فمنعت هذه الفرقة ذبائح نصارى بني تغلب من العرب ، وذبائح كل دخيل في هذين الدِّينين ، وكان علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب ويقول: لأنهم لم يتمسكوا بشيءٍ من النصرانية إلا بشرب الخمر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا ليس بنهي عن ذبائح النصارى المحققين منهم. وقال جمهور الأُمة: ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وابن المسيب ، والشعبي ، وعطاء ، وابن شهاب ، والحكَم ، وحماد ، وقتادة ، ومالك رحمه الله ، وغيرهم: إن ذبيحة كل نصراني حلال سواءٌ كان من بني تغلب أَو غيرهم ، وكذلك اليهود ، وتأَولوا قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ذبائحكم ، فهذه رخصة للمسلمين لا لأَهل الكتاب ، لمَّا كان الأَمر يقتضي أَن شيئاً قد تشرعنا فيه بالتذكية ينبغي لنا أَن نحميه منهم ، ورخَّص الله تعالىٰ في ذلك رفعاً للمشقة بحسب التجاوز.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ عطف على الطعام المحلَّل. والإحصان في كلام العرب وفي تصريف الشرع مأخوذ من المنعة ، ومنه الحصن ، وهو مترتب بأَربعة أَشياءٍ: الإسلام والعفة والنكاح والحرية ، فيمتنع في هذا الموضع أَن يكون الإسلام لأنه قد نص أَنهن من أَهل الكتاب ، ويمتنع أَن يكون النكاح لأَن ذات الزوج لا تحل ، ولم يبق إلا الحرية والعفة فاللفظة تحتملهما. واختلف أَهل العلم بحسب هذا الاحتمال ـ فقال مالك رحمه الله ، ومجاهد ، وعمر بن الخطاب ، وجماعة من أَهل العلم: المحصنات في هذه الآية: الحرائر ، فمنعوا نكاح الأَمَة الكتابية. وقالت جماعة من أَهل العلم: المحصنات في هذه الآية: العفائف ، منهم مجاهد أَيضاً ، والشعبي ، وغيرهم ، فجوزوا نكاح الأَمة الكتابية ، وبه قال سفيان ، والسدي ، وقال الشعبي: إحصان الذمية أَلا تزني وأَن تغتسل من الجنابة ، وقال أَبو ميسرة: مملوكات أَهل الكتاب بمنزلة حرائرهن العفائف منهن حلالٌ نكاحهن.

---

(١) المائدة: ٥١.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومنع بعض العلماءِ زواج غير العفيفة بهذه الآية ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا اطلع الرجل من امرأَته على فاحشة فليفارقها ، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين نساءِ أَهل الحرب ونساءِ أَهل الذمة فقال: من أَهل الكتاب من يحل لنا وهم كل من أَعطى الجزية ، ومنهم من لا يحل لنا وهم أَهل الحرب. وكَرِهَ مالك رحمه الله نكاح نساءِ أَهل الحرب مخافة ضياع الولد أَو تغير دينه.

والأُجور في هذه الآية: المهور ، وانتزع أَهل العلم من لفظة ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أَنه لا ينبغي أَن يدخل زوج بزوجته إِلا بعد أَن يبذل من المهر ما يستحلها به ، ومَنْ جوَّز أَن يدخل دون أَن يبذل ذلك فرأَى أَنه بحكم الارتباط والالتزام في حكم المؤتي.

و﴿مُحۡصِنِينَ﴾ معناه: متزوجين على السُّنَّة ، والإِحصان ـ في هذا الموضع ـ هو بالنكاح ، والمسافح: المزاني ، والسفاح: الزنى ، والمسافِحة هي المرأَة التي لا تردُّ يد لامس ، وتزني مع كل أَحد ، وهن أَصحاب الرايات في الجاهلية. والمخادَنَة: أَن يكون الزانيان قد وقف كل واحد نفسه على صاحبه ، وقد تقدم نظير هذه الآية ، وفُسِّر بأَوعب من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يحتمل أَن يكون المعنى على أَن الكفر هو بنفس الإِيمان ، وفي هذا مجاز واستعارة ، لأَن الإِيمان لا يُتصور كفر به ، إِنما الكفر بالأُمور التي حقها أَن يقع الإِيمان بها ، وباقي الآية بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

لا يختلف أَن هذه الآية هي التي قالت عائشة رضي الله عنها فيها: «نزلت آية التيمم» ، وهي آية الوضوء ، لكن من حيث كان الوضوء متقرراً عندهم مستعملاً فكأَن



الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته ، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التيمم ، واستدل على حصول الوضوء بقول عائشة رضي الله عنها: «فأقام رسول الله ﷺ بالناس وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماءٌ». وآية النساء إما نزلت معها أو بعدها بيسير ، وكانت قصة التيمم في سفر رسول الله ﷺ في غزوة ٱلْمُرَيْسيع ، وهي غزوة بني المصطلق ، وفيها كان هبوب الريح فيما روي ، وفيها كان قول عبد الله بن أبي بن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة» القصة بطولها ، وفيها وقع حديث الإفك»[١].

ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنما هي بقيام جاءت العبارة: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ ﴾.
واختلف الناس في القرينة التي أريدت مع قوله: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ ﴾ ـ فقالت طائفة: هذا لفظ عام في كل قيام ، سواءٌ كان المرءُ على طهور أو محدثاً ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ، وروي أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يفعل ذلك ويقرأ الآية ، وروي نحوه عن عكرمة ، وقال ابن سيرين: كان الخلفاءُ يتوضؤون لكل صلاة ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ وضوءًا فيه تجوز ، ثم قال: هذا وضوءُ من لم يحدث[٢]. وقال عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الغَسيل: إن النبي ﷺ أُمر بالوضوءِ عند كل صلاة فشق ذلك عليه فأُمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث[٣].

---

(١) روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر الصديق ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يَطْعَنُنِي بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماءٍ فأنزل الله آية التَّيَمُّم فتيمَّموا ، فقال أُسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته». وهذا الحديث هو الذي أشار إليه ابن عطية في أكثر من موقع في الفقرة السابقة. وفيه قالت عائشة رضي الله عنها: «نزلة آية التيمم».

(٢) أخرجه أبو داوود ، وابن ماجه ، والترمذي ، وقال الترمذي إسناده ضعيف ـ (عن ابن كثير).

(٣) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي. (عن الدر المنثور).
والغسيل هو حنظلة رضي الله عنه ، نفر حين سمع الهائعة وهو جنب فاستشهد فغسلته الملائكة فلقب بالغسيل.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكان كثير من الصحابة منهم ابن عمر وغيره يتوضؤون لكل صلاة انتداباً إِلى فضيلة، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل، ثم جمع بين صلاتين بوضوءٍ واحد في حديث سويد بن النعمان، وفي غير موطن، إِلى أَن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوءٍ واحد[١]، إِرادة البيان لأُمته، وروى ابن عمر أَن النبي ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات»[٢] وقال: إِنما رغبت في هذا. وقالت فرقة: نزلت هذه الآية رخصةً لرسول الله ﷺ، لأَنه كان لا يعمل عملاً إِلا وهو على وضوءٍ، ولا يكلم أَحداً، ولا يرد سلاماً، إِلى غير ذلك، فأَعلمه الله بهذه الآية أَن الوضوءَ إِنما هو عند القيام إِلى الصلاة فقط دون سائر الأَعمال، قال ذلك علقمة بن الفغواءِ، وهو من الصحابة[٣]، وكان دليل رسول الله ﷺ إِلى تبوك، وقال زيد بن أَسلم، والسدي: معنى الآية: إِذا قمتم إِلى الصلاة من المضاجع، يعني النوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقَصْد بهذا التأْويل أَنْ يعم الأَحداث بالذكر، ولا سيما النوم الذي هو مختلف فيه، هل هو في نفسه حدث، وفي الآية على هذا التأْويل تقديم وتأْخير، وتقديره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من النوم، ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يعني الملامسة الصغرى، ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ ـ فتمت أَحكام المُحْدِث حدثاً

---

(١) قال القرطبي: «حديث سويد بن النعمان أن النبي ﷺ صلى وهو بالصهباء العصر والمغرب بوضوء واحد، وذلك في غزوة خيبر» ـ ثم قال: «وهو حديث صحيح رواه مالك في موطئه، وأخرجه البخاري ومسلم». وهذا الحديث في جمعه ﷺ بين صلاتين بوضوء واحد، وأما جمعه بين الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقد أخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن بريدة قال: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يومُ الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال: إني عمداً فعلت يا عمر». وبريدة هو ابن الخُصَيب بضم الحاء المهملة وفتح الصاد. (عن القرطبي والدر المنثور).

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه ـ (الجامع الصغير للسيوطي).

(٣) علْقمة بن الفغواء (بفاء مفتوحة والغين المعجمة ساكنة) ـ قال ابن حبان وابن الكلبي: له صحبة، بعثه رسول الله ﷺ بمال إلى أبي سفيان بن حرب في فقراء قريش وهم مشركون ـ يتألفهم ـ وقال له: التمس صاحباً.



أصغر ، ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ فهذا حكم نوع آخر ، ثم قال للنوعين جميعاً: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ ، وقال بهذا التأويل محمد بن مسلمة من أصحاب مالك رحمه الله وغيره.

وقال جمهور أَهل العلم: معنى الآية: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ «مُحْدِثين»[1] ، وليس في الآية على هذا تقديم ولا تأْخير ، بل يترتب في الآية حكم واجد الماءِ إِلى قوله: ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ ، ودخلت الملامسة الصغرى في قوله: «مُحْدثين» ، ثم ذكر بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ إِلى آخر الآية حكم عادم الماءِ من النوعين جميعاً ، وكانت الملامسة هي الجماع ولا بد ، ليذكر الجُنُب العادم للماءِ كما ذكر الواجد ، وهذا هو تأْويل الشافعي وغيره ، وعليه تجيءُ أَقوال الصحابة كسعد بن أَبي وقاص ، وابن عباس ، وأَبي موسى ، وغيرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ ، الغسل في اللغة: إِيجاد الماءِ في المغسول مع إِمرار شيءٍ عليه كاليد ، أَو ما قام مقامها ، وهو يتفاضل بحسب الانغمار في الماءِ أَو التقليل منه ، وغسل الوجه في الوضوءِ هو بنقل الماءِ إِليه وإِمرار اليد عليه ، والوجه: ما واجه الناظر وقابله ، وحدُّه في الطول منابت الشعر فوق الجبهة إِلى آخر الذقن ، وعبَّر بعض الناس: إِلى ما قابل آخر الذقن ، وقيل: بل حدُّه فيها آخر الشعر. واختلف العلماءُ في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها عن النبي ﷺ من حديث أَنس ، ذكره الطبري[2] ، واختلف في حدِّه عرضاً ـ فهو في المرأَة والأَمرد من الأُذن

(١) ففي الآية محذوف تقديره: «محدثين» ـ والأقوال في الآية أربعة ـ (أ) أن الآية عامة في كل قيام سواء كان المرء على طهور أم محدثاً. (ب) أن الآية نزلت رخصة لرسول الله ﷺ. (جـ) أن الآية فيها تقديم وتأخير ، وأن المعنى: إذا قمتم للصلاة من المضاجع والقصد أن تشمل أنواع الحدث الأصغر ، ثم أسباب الحدث الأكبر. (د) أن في الآية محذوفاً تقديره: «محدثين» وليس فيها تقديم ولا تأخير.

(٢) أخرج الطبري عن أنس بن مالك قال: «رأيت النبي ﷺ توضأ فخلل لحيته ، فقلت: لِمَ تفعل هذا يا نبي الله؟ قال: أمرني بذلك ربي». (تفسير الطبري ٦ ـ ١٢٠) ـ ونلاحظ أن ابن عطية قال: «واختلف العلماء في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها. . إلخ ما ذكره من حديث أنس». وهذا هو القول الأول ، ومعنى ذلك أنه روي أيضاً عدم التخليل وهو القول الثاني ، ولكن النسخ التي بين أيدينا ليس فيها كلام عن القول الثاني ، ولعلَّه سقط عند النَّسْخ ـ هذا وقد روى الطبري كثيراً من الأخبار التي تفيد أن غسل اللحية يكفي فيه ما مرَّ عليها ، وأن التخليل غير واجب. راجع تفسيره (٦ ـ ١١٥) ، وما بعدها.



إِلى الأُذن ، وفي ذي اللحية ثلاثة أَقوال ـ فقيل: من الشعر إِلى الشعر ـ يعني شعر العارضيْن ، وقيل: من الأُذن إِلى الأُذن ، ويدخل البياض الذي بين العارض والأُذن في الوجه ، وقيل: يغسل ذلك البياض استحباباً ، واختلف في الأُذنيْن ـ فقيل: هما من الرأس ، وقال الزهري: من الوجه ، وقيل: هما عضو قائم بنفسه ليس من الوجه ولا من الرأس ، وقيل: ما أَقبل منهما من الوجه ، وما أَدبر فهو من الرأس ، واختلف في المضمضة والاستنشاق ـ فجمهور الأُمة يرونها سنة ، ولا يدخل هذان الباطنان عندهم في الوجه ، وقال مجاهد: الاستنشاق شطر الوضوءِ ، وقال حماد بن أَبي سليمان ، وقتادة ، وعطاء ، والزهري ، وابن أَبي ليلى ، وابن راهويه: من ترك المضمضة والاستنشاق في الوضوءِ أَعاد الصلاة ، وقال أَحمد: يعيد من ترك الاستنشاق ، ولا يعيد من ترك المضمضة. والناس كلهم على أَن داخل العينين لا يلزم غسله إِلا ما روي عن عبد الله بن عمر أَنه كان ينضح الماءَ في عينيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ . اليد في اللغة تقع على العضو الذي هو من المنكب إِلى أَطراف الأَصابع ، ولذلك كان أَبو هريرة يغسل جميعه في الوضوءِ أَحياناً ليطيل الغرة ، وحدَّ الله موضع الغسل منه بقوله: ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ ، يقال في واحدها: مِرْفَق ومَرْفِق ، وكسر الميم وفتح الفاءِ أَشهر ، واختلف العلماءُ هل تدخل المرافق في الغسل أَم لا؟ فقالت طائفة: لا تدخل ، لأَن (إِلَى) غاية تحول بين ما قبلها وما بعدها. وقالت طائفة: تدخل المرافق في الغسل ، لأَن ما بعد (إِلى) إِذا كان من نوع ما قبلها فهو داخل ، ومثَّل أَبو العباس المبرد في ذلك بأَن تقول: اشتريت الفدان إِلى حاشيته ، أو بأَن تقول: اشتريت الفدان إِلى الدار ، وبقوله: ﴿ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾[1] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير العبارة في هذا المعنى أَن يقال: إِذا كان ما بعد (إِلى) ليس مما قبلها ، فالحدُّ أَول المذكور بعدها ، وإِذا كان ما بعدها من جملة ما قبلها فالاحتياط يعطي أَن الحدَّ آخر المذكور بعدها ، ولذلك يترجح دخول المرفقين في الغسل ، والروايتان محفوظتان عن مالك بن أَنس رضي الله عنه ، روى عنه أَشهب أَن المرفقين غير داخلين في الحد ، وروى عنه أَنهما داخلان.

---

(١) البقرة: ١٨٧.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المسح أن يمر على الشيء بشيءٍ مبلول بالماءِ. وسُنَّة مسح الرأس أَن يؤخذ ماءٌ باليدين ثم يرسل، ثم يمسح الرأس بما تعلق باليدين. واختلف في مسح الرأس في مواضع منها هيئة المسح ـ فقالت طائفة منها مالك، والشافعي، وجماعة من الصحابة والتابعين: يبدأُ بمقدم رأسه، ثم يذهب بهما إلى قفاه، ثم يردهما إلى مقدمه، وقالت فرقة: يبدأُ من مؤخر الرأس حتى يجيءَ إلى المقدم ثم يرد إلى المؤخر. وقالت فرقة: يبدأُ من وسط الرأس فَيجيءُ بيديه نحو الوجه، ثم يرد فيصيب باطن الشعر، فإذا انتهى إلى وسط الرأس أَمَرَّ يديه كذلك على ظاهر شعر مؤَخر الرأس، ثم يرد فيصيب باطنه ويقف عند وسط الرأس. وقالت فرقة: يمسح رأسه من هنا وهنا على غير نظام ولا مبدأ محدود حتى يعمه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله قول بالعموم. واختلف في ردّ اليدين على شعر الرأس، هل هو فرض أَم سُنَّة بعد الإجماع على أَن المسحة الأُولى فرض بالقرآن ـ فالجمهور على أَنه سُنَّة، وقيل: هو فرض. ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس قَدْرُ ما يمسح ـ فقالت جماعة: الواجب من مسح الرأس عمومه، ثم اختلفوا في الهيآت على ما ذكرناه. وقال محمد بن مسلمة: إنْ مَسَحَ ثلثي الرأس وتَرَكَ الثُلُث أَجْزَأَ لأَنه كثير في أُمور من الشرع، وقال أَشهب: إنْ مسحَ الناصية أَجزأَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكلُّ مَن أَحفظ عنه إجْزاءُ بعض الرأس فإنه يرى ذلك البعض من مقدم الرأس، وذلك أَنه قد روي في ذلك أَحاديث في بعضها ذكر الناصية، وفي بعضها ذكر مقدم الرأس، إلا ما روي عن إبراهيم، والشعبي، قالا: أَي نواحي رأسك مسحت أَجزأَك وكان سلمة بن الأَكوع يمسح مقدم رأسه، وروي عن ابن عمر أَنه مسح اليافوخ فقط. وقال أَصحاب الرأْي: إن مسح بثلاث أَصابع أَجزأَه، وإن كان الممسوح أَقل مما يمر عليه ثلاث أَصابع لم يجزئ. وقال قوم: يجزئ من مسح الرأس أَن يمسح بإِصبع واحدة، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إن لم تصب المرأَة إلا شعرةً واحدة أَجزأَها، وحكى الطبري وغيره عن سفيان الثوري أَن الرجل إذا مسح شعرة واحدة أَجزأَه.



ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس ، ما العضو الذي يمسح به؟ ـ فالإجماع على استحسان المسح باليدين جميعاً ، وعلى الإجزاءِ إن مسح بواحدة. واختلف في من مسح بإصبع واحدة حتى عمَّ ما يرى أنه يجزئه من الرأس ، فالمشهور أن ذلك يجزئ ، وقيل: لا يجزئ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترجح أنه لا يجزئ لأنه خروج عن سنة المسح وكأنه لعب ، إلا أن يكون ذلك عن ضرورة مرض فينبغي ألا يختلف في الإجزاءِ.

ومن مواضع الخلاف عدد المسحات ـ فالجمهور على مرة واحدة ، ويجزئ ذلك عند الشافعي وثلاث أحب إليه. وروي عن ابن سيرين أنه مسح رأسه مرتين ، وروي عن أنس أنه قال: يمسح الرأس ثلاثاً ، وقاله سعيد بن جبير ، وعطاء ، وميسرة.

والباءُ في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ مؤكدة زائدة عند من يرى عموم الرأس ، والمعنى عنده: وامسحوا رؤوسكم ، وهي للإلزاق المحض عند من يرى إجزاءَ بعض الرأس كأن المعنى: أوْجِدوا مسحاً برؤوسكم ، فمن مسح شعرة فقد فعل ذلك ، ثم اتبعوا في المقادير التي حدوها آثاراً وأقيِسَة بحسب اجتهاد العلماءِ رحمهم الله.

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة: [وَأَرْجُلِكُمْ] خفضاً ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ نصباً ، وروى أبو بكر عن عاصم الخفض ، وروى عنه حفصٌ النصب. وقرأ الحسن ، والأعمش: [وأَرْجُلُكُمْ] بالرفع ، المعنى: فاغسلوها ، ورُويت عن نافع. وبِحسَب هذا اختلاف الصحابة والتابعين ، فكل من قرأ بالنصب جعل العامل [اغْسِلُوا] ، وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل بالماء دون المسح ، وهذا هو مذهب الجمهور ، وعليه فعل النبي ﷺ ، وهو اللازم من قوله ﷺ وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح ، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي. (الجامع الصغير).



ومن قرأ بالخفض جعل العامل أقرب العاملين، واختلفوا ـ فقالت فرقة منهم: الفرض في الرجلين المسح لا الغسل، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الوضوءُ غسلتان ومسحتان»، وروي أن الحجاج خطب بالأهواز فذكر الوضوءَ فقال: «اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيءٌ من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما»، فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: «صدق الله وكذب الحجاج» قال الله تعالىٰ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[1]، قال: وكان أنس إذا مسح رجليه بلَّهُما، وروي أيضاً عن أنس أنه قال: «نزل القرآن بالمسح، والسُّنَّة بالغسل»، وكان عكرمة يمسح على رجليه وليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح. وقال الشعبي: «نزل جبريل بالمسح»، ثم قال: «ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غَسْلا، ويلغي ما كان مسحاً؟»، وروي عن أبي جعفر أنه قال: «امسح على رأسك وقدميك»، وقال قتادة: «افترض الله غَسْلَتين ومَسْحَتين». وكلٌّ من ذكرنا فقراءَته: [وَأَرْجُلِكُمْ] بكسر اللام، وبذلك قرأ علقمة، والأعمش، والضحاك، وغيرهم، وذكرهم الطبري تحت ترجمة القول بالمسح.

وذهب قومٌ ممن يقرأُ بكسر اللام إلى أن المسح في الرجلين هو الغَسْل، وروي عن أبي زيد أن العرب تسمي الغَسْل الخفيف مسحاً، ويقولون: «تمسَّحْت للصلاة» بمعنى: غَسَلْت أعضائي، وقال أبو عبيدة، وغيره في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾[2]: إنه الضرب، ويقال: مسح علاوته[3] إذا ضربه، قال أبو علي: فهذا يقوي أن المراد بمسح الرجلين الغسْل، ومن الدليل على أن مسح الرجلين يراد به الغَسْل أن الحدَّ قد وقع فيهما بإلى كما وقع في الأيدي وهو مغسولة، لم يقع في الممسوح حدٌّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا التأويل بترك الحد في الوجه، فكان الوضوءُ مغْسُولين حُدَّ أحدهما، وممسوحين حُدَّ أحدهما. وقال الطبري رحمه الله: إن مسح الرجلين هو بإيصال الماءِ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير ـ عن أنس. (الدر المنثور).
(٢) من قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ الآية (٣٣).
(٣) العِلاوة من كل شيءٍ: ما زاد عليه.

إليهما ، ثم يمسح بيديه بعد ذلك فيكون المرءُ غاسلاً ماسحاً. قال: ولذلك كره أكثر العلماءِ للمتوضئ أَن يدخل رجليه في الماءِ دون أَن يمر يديه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد جوَّز قوم منهم الحسن البصري وبعض فقهاءِ الأمصار ، وجمهور الأُمة من الصحابة والتابعين على أَن الفرض في الرجلين الغَسْل وأَن المسح لا يُجزئ ، وروي ذلك عن الضحاك وهو يقرأُ بكسر اللام[1].

والكلام في قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، واختلف اللغويون في (الكعبين) ـ فالجمهور على أَنهما العظمان الناتئان في جنبي الرِّجل ، وهذان هما حدُّ الوضوءِ بالإجماع فيما علمت. واختلف ، هل يدخلان في الغَسْل أَم لا كما تقدم في المرفق وقال قوم: الكعب: هو العظم الناتئُ في وجه القدم حيث يجتمع شراك النعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعلم أَحداً جعل حدَّ الوضوءِ إلى هذا ، ولكن عبد الوهاب في التلقين جاءَ في ذلك بلفظ فيه تخليط وإِبهام. قال الشافعي رحمه الله: لم أَعلم مخالفاً في أَن الكعبين هما العظمان في مجمع مفصل الساق. وروى الطبري عن يونس عن أَشهب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوءُ إِليهما هما العظمان الملتصقان بالساق المحاذيان للعقب ، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر ذلك من الآية ، من قوله في الأَيدي: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، أَي: في كل يد مرفق ، ولو كان كذلك في الأَرجل لقيل: «إِلَى الكعوب» فلما كان في كل رجل كعبان خصا بالذكر.

وأَلفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأَعضاءِ ، واختلف العلماءُ في ذلك ـ فقال ابن

---

(١) جاء في بعض النسخ: «وهو يقرأُ بضم اللام» ، ولكنا آثرنا اختيار النص الذي سجلناه فوق من بعض النسخ لأنه هو الذي يتفق مع ما نصَّ عليه قبل ذلك من أن قراءة الضحاك بكسر اللام.



أَبي سلمة ، وابن وهب: ذلك من فروض الوضوءِ في الذكر والنسيان. وقال ابن عبد الحكيم: ليس بفرض مع الذكر ، وقال مالك: هو فرض مع الذكر ساقط مع النسيان.

وكذلك تتضمن أَلفاظ الآية الترتيب ، واختلف فيه ـ فقال الأَبهري: الترتيب سُنَّة ، وظاهر المذهب أَنّ التنكيس[1] للناسي مُجْزِئٌ واختلف في العامد فقيل: يجزئ ويرتب في المستقبل ، وقال أَبو بكر القاضي وغيره: لا يجزئ لأَنه عابث.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا ﴾. الجُنُب مأْخوذ من الجَنْب ، لأَنه يمس جنبه جنب امرأَة في الأَغلب ، ومن المجاورة والقُرب قيل: «والجار الجُنُب». ويحتمل الجُنُب أَن يكون من البعد ، إِذ البعد يسمى جنابة ، ومنه تجنبت الشيءَ إِذا بعدت عنه ، فكأَنه جانب الطهارة. وعلى هذا يحتمل أَن يكون «الجار الجُنُب» هو البعيد الجوار ، ويكون مقابلا للصاحب بالجنب.

و﴿ فَاطَّهَّرُواْ ﴾ أَمرٌ بالاغتسال بالماءِ ، ولذلك رأَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وغيرهما أَن الجُنُب لا يتيمم البَتَّةَ ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماءَ ، وقال جمهور الناس: بل هذه العبارة هي لواجد الماءِ ، وقد ذكر الجنُب أَيضاً بعْدُ في أَحكام عادم الماءِ بقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ، إِذ الملامسة هنا الجماع. والطهور بالماء صفته أَن يعم الجسد بالماءِ وتمر اليد مع ذلك عليه ، هذا هو مشهور المذهب ، وروى محمد بن مروان الظاهري ، وغيره ، عن مالك أَنه يجزئ في غَسل الجنابة أَن ينغمس الرجل في الماءِ دون تدلُّك ، وقد تقدم في سورة النساءِ تفسير قوله عز وجل: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ إِلى قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ ، وقراءة من قرأَ: [مِنَ ٱلْغَيْطِ].

وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ الإِرادة: صفة ذات ، وجاءَ الفعل مستقبلا مراعاة للحوادث التي تظهر عن الإِرادة ، فإِنها تجيء مؤتنفة ، من تطهير المؤمنين وإِتمام النعم عليهم ، وتعدية (أَراد) وما تصرف منه بهذه اللام عرف في كلام العرب ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) التنكيس هو: عكس الترتيب المعروف.

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لِي لَيْلَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ[(١)]

قال سيبويه: وسألته رحمه الله عن هذا فقال: المعنى: إرادتي لأنسى، ومن ذلك قول قيس بن سعد:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا ... سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ[(٢)]

ويحتمل أن يكون في الكلام مفعول محذوف تتعلق به اللام، وما قال الخليل لسيبويه أخصر وأحسن. ويعترض هذا الاحتمال في المفعول المحذوف بأن ﴿ مِّنْ ﴾ تصير زائدة في الواجب، وينفصل بأن قوة النفي الذي في صدر الكلام يشفع لزيادة ﴿ مِّنْ ﴾ وإن لم يكن النفي واقعاً على الفعل الواقع على الحرج، ولهذا نظائر.

والحرج: الضيق، والحرجة: الشجر الملتف المتضايق، ومنه قيل يوم بدر في أبي جهل: إنه كان في مثل الحَرَج من الرماح، ويجري مع معنى هذه الآية قول النبي ﷺ: «دينُ الله يُسْر»[(٣)]، وقوله ﷺ: «بُعثت بالحنيفية السمحة»[(٤)]، وجاءَ لفظ الآية على العموم والشيءُ المذكور بقرب هو أَمْرُ التيمم والرخصة فيه وزوال الحرج في تحمل الماءِ أبداً، ولذلك قال أُسيد: «وما هي بأَول بركتكم يا آل أَبي بكر».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ الآية إعلام بما لا يُوازى بشكر من عظيم تفضله تبارك وتعالىٰ: و﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تَرَجٍّ في حق البشر، وقرأ سعيد بن المسيب: [يُطْهِركم] بسكون الطاء وتخفيف الهاءِ.

---

(١) البيت لكثير عزَّة، راجع صفحة (٥٢٥) من المجلد الثاني، وقد روي: تمثل لي ليلى بكل طريق.

(٢) وبعده ـ كما جاء في اللسان:

وَأَلا يَقُولُوا غَابَ قَيْسٌ وَهَـٰذِهِ ... سَرَاوِيلُ عَادِيٌّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

قال ابن سيدة: بلغنا أن قيساً طاول رومياً بين يدي معاوية، أو غيره من الأمراء، فتجرد قيس من سراويله وألقاها إلى الرومي ففضلت عنه، فلما لِيمَ في فعله قال هذين البيتين يعتذر عن تبذله في هذا المشهد المجموع.

(٣) رواه البيهقي، والبخاري، وفي البخاري زيادة: «فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة». ـ بضم الدال المشددة وفتحها ـ كما قال في النهاية.

(٤) رواه في الجامع الصغير هكذا: «بعثت بالحنيفية السمحة، ومن خالف سنّتي فليس مني»، وهو للخطيب عن جابر، ثم قال ضعيف.



قوله عز وجل:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾.

الخطاب بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ إلى آخر الآية هو للمؤمنين بمحمد ﷺ، و﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ اسم جنس يجمع الإسلام، وجمع الكلمة، وعزة الحياة، وغنى المال، وحسن المآل، هذه كلها نِعَم هذه المِلَّة، والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي ﷺ في بَيْعَةَ العقبة وبيعة الرضوان، وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا، هذا هو قول ابن عباس، والسدي، وجماعة من المفسرين. وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على النَّسَم حين استخرجوا من ظهر آدم، والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام.

ثم أَمر تعالىٰ المؤمنين بالقيام دأباً متكرراً بالقسط وهو العدل، وقد تقدم نظير هذا في سورة النساءِ، وتقدم في صدر هذه السورة نظير قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، وباقي الآية بيِّن متكرر، والله المعين.

قوله عز وجل:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾.

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم وبالجنة، فهي الأجر العظيم، و(وَعَد) يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما، وكذلك هو في هذه الآية، فالمفعول الثاني مقدر، يفسره ويدل عليه قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، ثم عقَّب تعالىٰ بذكر حال الكفار ليبين الفرق.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للنبي ﷺ وأُمته، والنعمة هي



العاملة في ﴿إِذْ﴾ ، وهي نعمة مخصوصة ، وهمَّ الرجل بالشيءِ إذا أراد فعله ، ومنه قول الشاعر:

هَـلْ يَنْفَعَنْـكَ الْيَـومَ إِنْ هَمَّـتْ بِهَـمْ ... كثرةُ ما تُوصِي وتَعْقَادُ الرَّتَمْ؟[1]

ومنه قول الآخر:

هَمَمْـت ولَـمْ أَفْعَـلْ وكـدْتُ وَلَيْتَنـي ... تَرَكْتُ على عُثمانَ تَبْكي حَلائِلُه[2]

واختلف الناس في سبب هذه الآية ، وما النازلة التي وقع فيها الهَمُّ ببسط اليد والكفُّ من الله تعالىٰ؟ ـ فقال الجمهور: إن سبب هذه الآية أنه لما قتل أهل بئر معونة نجا من القوم عمرو بن أُمية الضمري ورجل آخر معه. فلقيا بقرب المدينة رجلين من سليم قد كانا أخذا عهداً من النبيﷺ وانصرفا ، فسألهما عمرو: مِمَّن أنتما؟ فانتَسَبا إلى بني عامر رهط عامر بن الطفيل ، وهو كان الجاني على المسلمين في بئر معونة ، فقتلهما عمرو وصاحبه ، وأتيا بسلبهما النبي ﷺ ، فقال: «لقد قتلتما قتيلين ، لأَدِيَنَّهُمَا» ، ثم شرع رسول الله ﷺ في جمع الدية ، فذهب يوماً إلى بني النضير يستعينهم في الدية ، ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فكلمهم فقالوا: نعم يا أبا القاسم ، انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك ، فنزل رسول الله ﷺ في ظل جدار ، فتآمروا بينهم في قتله ، وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه

---

(١) ذكرالبيت في (اللسان) ولم ينسبه ، والرَّتَم: جمع رَتَمَة ، وهي الرَّتيمة ، والرتيمة: الخيط الذي يشد في الإصبع لتُسْتَذْكَر به الحاجة ، وتجمع الرتيمة على رتَام ورتائم ، قال الشاعر:

إذَا لَـمْ تكُـنْ حـاجَـاتُنَـا فـي نُفُـوسِكُـمْ ... فَلَيْـسَ بِمُغْـنٍ عنْـكَ عَقْـدُ الـرَّتَـائِـم

(٢) هذا البيت ضمن أبيات قالها عمير بن ضابئ البرجمي ، وحكى المبرد قصتها في (الكامل) ، وخلاصتها أنه استعار من قوم كلباً ، فلما طلبوا منه إرجاعه رفض وهجاهم فرمى أمهم بالكلب في بعض شعره حيث قال:

وأُمكُـمُ لا تتـرُكُـوهـا وَكَلْبَكُـم ... فَـإِنَّ عُقُـوقَ الْـوَالِـدَاتِ كَبِيـرُ

فأوجب عليه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الحبس ، فحقد على الخليفة ، وشدَّ على ساقه سكيناً ليقتله به عندما دعي للتأديب ، ولكن عثر على السكين ، فأحسن أدبه ، وهذه بعض الأبيات التي قالها:

فـلا تُتبعينـي إنْ هَلَكْـتُ مَـلامَـةً ... فَلَيْـسَ بعَـار قَتْـلُ مَـنْ لا أُقَـاتِلُـهْ

هَمَمْتُ ولـمْ أَفعَـلْ وَكِـدْتُ وَلَيْتَنِـي ... تَـرَكْـتُ على عُثْمـانَ تَبْكِي حَـلائِلُـهْ

ومَـا الفتـك مـا أُمـرتَ فيـه وَلا الَّـذي ... تُخَبِّـرُ مَـنْ لاقَيْـتَ أَنَّـكَ فَـاعِلُـهْ



اليوم ، فقال بعضهم لبعض: مَنْ رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فيما روي ، وجاءَ جبريل عليه السلام فأَخبر النبي ﷺ ، فقام رسول الله ﷺ من المكان وتوجه إِلى المدينة ، ونزلت الآية في ذلك. وفي الخبر زوائد لا تخص الآية ، وقد ذكره ابن إِسحاق وغيره ، وهذا القول يترجح بما يأْتي بعد من الآيات في وصف غدر بني إِسرائيل ونقضهم المواثيق(١).

وقالت جماعةٌ من العلماءِ: سبب الآية فعل الأَعرابي في غزوة «ذات الرقاع» ، وهي غزوة النبي ﷺ بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وذلك أنه نزل بوادٍ كثير العِضاه ، فتفرق الناس في الظلال ، وتركت للنبي ﷺ شجرة ظليلة ، فعلق سيفه بها ونام ، فجاءَ رجل من محارب فاخترط السيف فانتبه النبي ﷺ والسيف صلت في يده ، فقال للنبي ﷺ: أَتخافني؟ فقال: لا. فقال له: ومن يمنعك مني؟ فقال: الله ، فشام السيف في غمده وجلس. وفي البخاري أَن النبي ﷺ دعا الناس فاجتمعوا وهو جالس عند النبي ﷺ ولم يعاقبه ، وذكر الواقدي ، وابن حاتم عن أَبيه أَنه أَسلم ، وذكر قومٌ أَنه ضرب برأْسه في ساق الشجرة حتى مات ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وفي البخاري في غزوة «ذات الرقاع» أَن اسم الرجل غَوْرَث بن الحارث ـ بِالْغَيْن منقوطة ـ ، وحكى بعض الناس أَن اسمه دُعْثُور بن الحارث(٢).

وحكى الطبري أَن الآية نزلت بسبب قوم من اليهود أَرادوا قتل النبي ﷺ في طعام ، فأَشعره الله بذلك(٣) ، ثم أَدخل الطبري تحت هذه الترجمة عن ابن عباس خلاف ما ترجم به من أَن قوماً من اليهود صنعوا للنبي ﷺ وأَصحابه طعاماً ليقتلوه إِذا أَتى الطعام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيشبه أَن ابن عباس رضي الله عنهما إِنما وصف قصة بني النضير المتقدمة.

---

(١) أَخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس ، وأخرج مثله ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ـ عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، وأخرج مثله ابن جرير عن يزيد بن زياد.

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل ـ عن جابر.

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ـ من طريق العوفي ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما.



وقال قتادة: سبب الآية ما همت به محارب وبنو ثعلبة يوم ذات الرقاع من الحمل على المسلمين في صلاة العصر، فأشعره الله تبارك وتعالىٰ بذلك، ونزلت صلاة الخوف، فذلك كف أيديهم عن المسلمين[1].

وحكى ابن فُورك عن الحسن بن أبي الحسن أن الآية نزلت بسبب أن قريشاً بعثت إلى النبي ﷺ رجلاً ليغتاله ويقتله، فأطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك وكفاه شرَّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمحفوظ في هذا هو نهوض عمير بن وهب لهذا المعنى بعد اتفاقه على ذلك مع صفوان بن أمية، والحديث بكماله في سير ابن هشام.

وذكر قوم من المفسرين ـ وأشار إليه الزجاج ـ أن الآية: نزلت في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ فكأنه تبارك وتعالىٰ عدَّد على المؤمنين نِعَمَه في أن أظهرهم، وكفَّ بذلك أيدي الكفار عنهم التي كانوا همُّوا ببسطها إلى المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحسن ـ على هذا القول ـ أن تكون الآية نزلت عقب غزوة الخندق وحين هزم الله الأحزاب، وكفى الله المؤمنين القتال، وباقي الآية أمر بالتقوى والتوكل.

قوله عز وجل:

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم مواثيق الله تعالىٰ تقوي أن الآية المتقدمة في كف الأيدي إنما كانت في أمر بني النضير، واختلف المفسرون في كيفية بعثة هؤلاءِ النقباءِ، بعد الإجماع على أن النقيب كبير القوم القائم بأمورهم التي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنَّقَّاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس كلهم على هذه الطريقة،

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن قتادة.



ومنه قيل في عمر رضي الله عنه: إنه كان لنَقّاباً، فَالنُّقَبَاءُ: الضُّمَّان، واحدهم: نقيب، وهوشاهد القوم وضمينهم، وقال قوم: النُّقَبَاءُ: الأُمناءُ على قومهم، وهذا كله قريب بعضه من بعض، والنقيب أكبر مكانة من العريف، قال قتادة رحمه الله، وغيره: هؤلاءِ النُّقباءِ قومٌ كبارٌ من كلِّ سبط تكفَّل كل واحد بسبطه بأَن يؤمنوا ويتقوا الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا كان النقباءُ ليلة بيعة العقبة مع محمد ﷺ، وهي العقبة الثالثة، بايع فيها سبعون رجلاً وامرأَتان، فاختار رسول الله ﷺ من السبعين اثني عشرَ رجلاً وسماهم النقباءَ، وقال الربيع، والسدي، وغيرهما: إنما بعث النقباءُ من بني إسرائيل أُمناءَ على الاطلاع على الجبارين والسَّبْر لقوتهم ومَنَعَتهم، فساروا حتى لقيهم رجل من الجبارين فأَخذهم جميعاً فجعلهم في حجزته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

في قصص طويل ضعيف مقتضاه أَنهم اطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة، وظنوا أَنهم لا قِبَل لهم بهم، فتعاقدوا بينهم على أَن يُخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأَن يُعلموا به موسى عليه السلام ليرى فيه أَمر ربِّه، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم، ومن وثقوه على سرِّهم، ففشا الخبر حتى اعوج أَمر بني إسرائيل، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

وأَسند الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النقباءُ من بني إسرائيل بعثهم موسى عليه السلام لينظروا إلى مدينة الجبارين، فذهبوا ونظروا فجاؤُوا بحبة من فاكهتهم وِقْر رجل(١)، فقالوا: اقدروا قدر قوة قوم هذه فاكهتهم، فكان ذلك سبب فتنة بني إسرائيل ونكولهم.

وذكر النقاش أَن معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أَي مَلِكاً، وأَن الآية تعديد نعمة الله عليهم في أَن بعث لإصلاحهم هذا العدد من الملوك، قال:

---

(١) الوِقْر ـ بكسر الواو ـ: الحمل الثقيل، والمراد هنا: مقدار ما يستطيع الرجل حمله. هذا وعبارة الطبري بعد ذلك: «قَدِّرُوا قوة قوم وبأسهم. هذه فاكهتهم».



فما وفى منهم إلاَّ خمسة: داود عليه السلام، وابنه سليمان عليه السلام، وطالوت، وحزقيا، وابنه، وكفر السبعة وبدلوا وقتلوا الأنبياء، وخرج خلال الاثني عشر اثنان وثلاثون جباراً كلهم يأخذ الملك بالسيف ويعيث فيهم، والضمير في: ﴿مَعَكُمْ﴾ لبني إسرائيل جميعاً، ولهم كانت هذه المقالة، وقال الربيع: بل الضمير للاثني عشر، ولهم كانت هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أرجح، و﴿مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصري وحياطتي وتأييدي، واللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ هي المؤذنة بمجيءِ لام القسم، ولام القَسَم هي قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، والدليل على أن هذه اللام إنما هي مؤذنة أنها قد يستغنى عنها أحياناً، ويتم الكلام دونها، ولو كانت لام القسم لن يترتب ذلك.

وإقامة الصلاة: توفية شروطها، والزكاة هنا: شيءٌ من المال كان مفروضاً فيما قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يكون المعنى: وأعطيتم من أنفسكم كلَّ ما فيه زكاة لكم حسبما ندبتم إليه، وقدم هذه على الإيمان تشريفاً للصلاة والزكاة، وإذ قد علم وتقرر أنه لا ينفع عملٌ إلا بإيمان، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بِرُسْلِي] ساكنة السين في كل القرآن.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ معناه: وقَّرتُموهم وعظّمتموهم ونصرتمُوهم، ومنه قول الشاعر:

وَكَمْ مِنْ مَاجِدٍ لَهُمُ كَرِيمٌ ... ومِنْ لَيْثٍ يُعَزَّرُ فِي النَّدِيِّ[١]

وقرأ عاصم الجحدري: [وعَزَرْتموهم] خفيفة الزاي حيث وقع، وقرأ في سورة الفتح: [وتَعْزروهُ][٢] بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي. وقد تقدم في سورة البقرة تفسير الإقراض. وتكفيرُ السَّيِّئات: تَغْطِيتها بالمحو والإذهاب، فهي استعارة. و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسطه، ومنه: ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٣]، ومنه قول الأعرابي: «قد

(١) قال القرطبي: «أنشده أبو عبيدة»، ـ ومعنى يُعَزَّر: يعظم ويوقَّر. والنَّدِيّ: مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة الفتح: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية (٩).

(٣) من قوله في سورة الدخان: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية (٤٧).

انقطع سوائي» ، وأَوساط الطرق: هي المعظم اللاحب منها ، وسائر ما في الآية بيِّن ، والله المستعان.

قوله تعالىٰ:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

يحتمل أَن تكون [ما] زائدة ، والتقدير: فبنقضهم[١] ، ويحتمل أَن تكون اسماً نكرة أُبدل منه النقض على بدل المعرفة من النكرة ، التقدير: فبفعل هو نقضهم للميثاق ، وهذا هو المعنى في هذا التأويل ، وقد تقدم في (النساءِ) نظير هذا ، و﴿ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ معناه: أَبعدناهم من الخير أَجمعه.

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر: ﴿ قَٰسِيَةً ﴾ بالأَلف ، وقرأَ حمزة ، والكسائي: [قسِيَّةً] دون أَلف ، وزنها: فعيلة ، فحجة الأُولى قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾[٢] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[٣] ، والقسوة: غِلَظ القلب ، ونبوه عن الرقَّة والموعظة ، وصلابته حتى لا ينفعل لخير. ومن قرأَ [قَسِيَّةً] فهو مِن هذا المعنى: فعيلة بمعنى فاعلة ، كشاهد وشهيد ، وغير ذلك من الأَمثلة ، حكى الطبري عن قوم أَنهم قالوا: [قَسِيَّةٌ] ليست من معنى القسوة ، وإِنما هي كالقسيّ من الدراهم ، وهي التي خالطها غش وتدليس ، فكذا القلوب ، لم تصف للإيمان ، بل خالطها الكفر والفساد ، ومن ذلك قول أَبي زبيد:

لَهَا صواهِلُ في صُمِّ السِّلام كَمَا ... صَاحَ القَسِيَّاتُ في أَيْدي الصَّياريفِ[٤]

---

(١) قال بذلك قتادة وسائر أهل العلم كما ذكره القرطبي ، وذلك أنها تؤكد الكلام بمعنى: تمكنه في النفس من جهة حسن النظم ، ومن جهة تكثيره للتوكيد ، كما قال:

لِشَـــيءٍ مَـــا يُسَـــوَّدُ مَـــنْ يَسُـــودُ

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) البقرة: ٧٤.

(٤) نسبه في (اللسان) لأبي زبيد أيضاً ، وكذلك في (التاج) ـ لكن محقق القرطبي قال: هو لأبي زبيد الطائي ، ولعله خطأ مطبعي ، والصواهل: جمع الصاهلة ، مصدر على فاعلة ، من الصهيل وهو=

ومنه قول الآخر:

فَمَا زَوَّدانِي غَيْرَ سَحْقِ عِمَامَةٍ ... وَخَمْسِمِىءٍ مِنْها قَسِيٌّ وَزَائِفُ[١]

قال أَبو علي: هذه اللفظة معربة، وليست بأَصل في كلام العرب.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ ـ فقال قومٌ منهم ابن عباس: تحريفهم هو بالتأْويل، ولا قدرة لهم على تبديل الأَلفاظ في التوراة، ولا يتمكن لهم ذلك، ويدل على ذلك بقاءُ آية الرجم واحتياجهم إِلى أَن يضع القارئُ يده عليها. وقالت فرقة: بل حرفوا الكلام وبدَّلوه أَيضاً، وفعلوا الأَمرين جميعاً بحسب ما أَمكنهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَلفاظ القرآن تحتمل المعنيين، فقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٢] الآية تقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأَمرين.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأَ أَبو عبد الرحمن، وإِبراهيم النَّخعي: [الكَلاَمَ] بالأَلف، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [الكِلْم] بكسر الكاف وسكون اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ نص على سوءِ فعلهم بأَنفسهم، أَي: قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به فنسوه وتركوه. ثم أَخبر تبارك وتعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام أَنه لا يزال في مؤتنف الزمان يطلع على خائنة منهم وغائلة وأُمور فاسدة، واختلف الناس في معنى: ﴿خَآئِنَةٍ﴾ في هذا الموضع ـ فقالت فرقة: خائنة: مصدر كالعاقبة، وكقوله تعالىٰ: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[٣] فالمعنى: على خيانة. وقال

= الصوت، والشاعر يصف وقع المساحي في الحجارة، وما تحدثه من صوت، والسِّلام ـ بكسر السين ـ: الحَجَر، والقَسِيَّات ـ بفتح القاف ـ: الدراهم الزائفة، والصياريف: الذين يبدلون الدراهم.

(١) البيت لمزرِّد، كما في (اللسان) ـ والرواية فيه: «فما زوَّدُوني» وسحق عمامة: يريد عمامة خلقة بالية ـ من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهذا كقولهم: سحق ثوب، وجرد ثوب، وسمل ثوب: أي: ثوب خَلق.

(٢) البقرة: ٧٩.

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

آخرون: معناه: على فرقة خائنة، فهي اسم فاعل صفة المؤنث. وقال آخرون: المعنى: على خائن، فزيدت الهاءُ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، ومنه قول الشاعر:

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تَكُن ... لِلْغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الإِصْبَعِ(١)

وقرأ الأعمش: [عَلَى خِيَانَةٍ مِنْهُمْ]، ثم استثنى تبارك وتعالىٰ منهم القليل، فيحتمل أن يكون الاستثناءُ في الأشخاص، ويحتمل أن يكون في الأفعال.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ منسوخٌ بما في (بَرَاءَةَ) من الأمر بقتالهم حتى يُؤَدوا الجزية(٢)، وباقي الآية وعدٌ على الإحسان.

قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ﴾ متعلقة بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، التقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمِنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ ابتداءُ خبر عنهم، والأول أرجح، وعلق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصر دين الله، وسمُّوا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءَت هذه العبارة موبخة لهم مزحزحة عن طريق نصر دين الله وأنبيائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ معناه: أثبتناها بينهم وألصقناها، والإغراءُ مأخوذ

---

(١) هذا البيت للكلابي، وهو فيه يخاطب «قُرَيْنًا» أخا «عُمَيْر الحَنَفِيّ»، وكان له عنده دمٌ ـ وقَبْلَه:

أَقُـرَيْـنُ إِنَّـكَ لَـوْ رَأَيْـتَ فَـوَارِسِـي ... نَعَمـاً يَبْتَـنَ إِلـى جَـوَانِـبِ صَلْقَـعِ

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وقيل: منسوخٌ بآية السيف، وقيل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ ـ وقال ابن جرير: يجوز أن يعفو عنهم في غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حرباً ولم يمتنعوا من أداء جزية، وقيل: الضمير عائد على من آمن منهم، أي: عائد على المستثنين وهم القليل، والله أعلم.

من الغِراءِ الذي يلصق به ، والضمير في ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يحتمل أَن يعود على اليهود والنصارى ، لأَن العداوة بينهم موجودة ومستمرة ، ويحتمل أَن يعود على النصارى فقط ، لأَنها أُمة متقاتلة بينها الفتن إِلى يوم القيامة ، ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ بعقاب الآخرة ، إِذْ إِنبَاؤُهُم بصنعهم إِنما هو تقدير وتوبيخ مُتَقَدِّمٌ للعذاب ، إِذْ صُنْعهم كفر يوجب الخلود في النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى ، ولكن نوازل الإِخفاءِ كالرجم وغيره إِنما حفظت لليهود ، لأَنهم كانوا مجاوري رسول الله ﷺ في مهاجره. وقال محمد بن كعب القرظي: أَول ما نزل من هذه السورة هاتان الآيتان في شأن اليهود والنصارى ، ثم نزل سائر السورة بعرفة في حجة الوداع.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ، وفي الآية الدلالة على صحة نبوته ، لأَن إِعلامه بِخَفيٍّ ما في كتبهم وهو أُمي لا يقرأُ ولا يصحب القرأَةَ دليل على أَن ذلك إِنما يأْتيه من عند الله تبارك وتعالىٰ.

وأشهر النوازل التي أَخفوها فأَظهرها الله على لسان نبيِّه أَمر الرجم ، وحديثه مشهور(١). ومن ذلك صفات محمد ﷺ إِلى غير ذلك ، و﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني: من التوراة.

وقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ معناه: وترك كثيراً لا يفضحكم فيه إِبقاءً عليكم ، وهذا المتروك هو في معنى افتخارهم ووصفهم أَيام الله قبلهم ، ونحو ذلك مما لا يتعين في ملة الإِسلام فضحهم فيه وتكذيبهم ، والفاعل في ﴿وَيَعْفُوا۟﴾ هو محمد ﷺ ، ويحتمل أَن يستند الفعل إِلى الله تبارك وتعالىٰ ، وإِذا كان العفو من النبي عليه الصلاة والسلام فبأَمر ربِّه ، وإِذا كان من الله تبارك وتعالىٰ فعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، والاحتمالان قريب بعضهما من بعض.

(١) روى البخاري في (كتاب التفسير) ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نُحَمِّمُهُما ونضربهما ، فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً ، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأُ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأَوا ذلك قالوا: هي آية الرجم ، فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد ، قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة.



قوله عز وجل:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ يحتمل أن يريد محمداً ﷺ والقرآن، وهذا هو ظاهر الألفاظ، ويحتمل أن يريد موسى عليه السلام والتوراة، أي: ولو اتَّبعتموها حق الاتباع لآمنتم بمحمد عليه الصلاة والسلام، إِذْ هي آمرةٌ بذلك، مبشرة به. وقرأ عبيد بن عمير، والزهري، وسلام، وحميد، ومسلم بن جندب: [بِهُ اللهُ] بضم الهاءِ حيث وقع مثله.

و﴿ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ معناه: بالتكسب والنية والإقبال عليه، والسبل: الطُرق، والقراءَة في (رُضْوان) بضم الراءِ وبكسرها، وهما لغتان، وقد تقدم ذكر ذلك، وقرأَ ابن شهاب والحسن بن أَبي الحسن: [سُبْل] ساكنة الباءِ و﴿ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ في هذه الآية يحتمل أَن يكون اسماً من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، فالمعنى: طرق الله تعالىٰ التي أَمر بها عباده وشرعها لهم، ويحتمل أَن يكون مصدراً كالسلامة، فالمعنى: طرق النجاة والسلامة من النار. وقوله: ﴿ وَيُخْرِجُهُم ﴾ يعني المتَّبعين الرضوان، فالضمير على معنى [مَنْ] لا على لفظها، والظلمات: الكفر، والنور: الإِيمان. وقوله تعالىٰ: ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَي يمكنهم من أَقوال الإِيمان وأَفعاله، ويعلم فعلهم لذلك والتزامهم إِياه، فهذا هو حدُّ الإِذن: العلم بالشيءِ والتمكين منه، وقد تقدم شرحه في سورة البقرة، والصراط المستقيم: هو دِينُ الله وتوحيده وما تركب عليه من شرعه.

ثم أَخبر تعالىٰ بكفر النصارىٰ القائلين بأَن الله هو المسيح، وهذه فرقة من النصارىٰ، وكل فرقهم على اختلاف أَقوالهم يجعل للمسيح عليه السلام حظّاً من الأُلوهية. وقد تقدم القول في لفظ المسيح في سورة آل عمران.

ثم ردَّ عليهم تعالىٰ قوله لنبيِّه: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي:



ولا راد لإرادة الله تعالىٰ في المسيح ولا في غيره ، فهذا مما تقضي العقول معه أن من تنفذ الإرادة فيه ليس بإله ، ثم قرر تبارك وتعالىٰ ملكه في السموات والأرض وما بينهما فحصل المسيح عليه السلام أقل أجزاءَ ملك الله تعالىٰ ، وقوله تعالىٰ: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ إشارةٌ إلى خلقه المسيح في رحم مريم من غير والد ، بل اختراعاً كآدم عليه السلام ، وقد تقدم في آل عمران بين قوله تعالىٰ في قصة زكريا: ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ وفي قصة مريم: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم معناه الخصوص في ما عدا الذات والصفات والمحالات ، والشيءُ في اللغة: هو الموجود.

قوله عز وجل:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

في الكلام لف وإيجاز يحال المستمع على تفريقه بذهنه ، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع اليهود والنصارى يقولون عن جميعهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ وليس الأمر كذلك بل كل فرقة تقول خاصة: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ ، والبنوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرَّأفة ، وذكروا أن الله تعالىٰ أوحى إلى بني إسرائيل أن أول أولادي بِكري ، فضلُّوا بذلك ، وقالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ ، ولو صحَّ ما روَوْا لكان بِكراً في التشريف أو النبوة ونحوه ، وأَحبَّاءُ: جمع حبيب ، وكانت هذه المقالة منهم عندما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان به ، وخوَّفهم العذاب ، فقالوا: «نحن لا نخاف ما تقول ، لأننا أبناءُ الله وأحباؤُه» ، وذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد كانوا قالوا للنبي ﷺ في غير ما موطن: نحن ندخل النار فنقيم بها أربعين يوماً ، ثم تخلفوننا فيها ، فردَّ الله عليهم بقولهم ، فقال لمحمد ﷺ: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أَي: لو كانت منزلتكم فوق منازل البشر لما عذبكم ، وأنتم قد أقررتم أنه يعذبكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن التعذيب هو بنار الآخرة ، وقد تحتمل الآية أن يكون المراد ما كان الله



تعالىٰ يعذبهم به في الدنيا ، وذلك أن بني إسرائيل كانوا إذا أَصاب الرجل منهم خطيئة أَصبح مكتوباً على بابه ذكر ذنبه وذكر عقوبته ، فينفذ ذلك عليه ، فهذا تعذيب في الدنيا على الذنوب ينافي أنهم أبناء وأَحباء.

ثم ترك الكلام الأَول ، وأَضرب عنه غير مفسد له ، ودخل في غيره من تقرير كونهم بشراً كسائر الناس والخلْق ، أَكرمهم أَتقاهم ، يهدي من يشاءُ للإيمان فيغفر له ، ويورط من يشاءُ في الكفر فيعذبه ، وله ملك السموات والأَرض وما بينهما ، فله بحَقِّ المُلكِ أَن يفعل ما شاءَ ، لا معقب لحكمه ، وإِليه مصير العالم بالحشر والمعاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ خطابٌ لليهود والنصارى ، والرسول في قوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ، وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أَي: على انقطاع من مجيئهم مدَّةً ما ، والفترة: سكون بعد حركة في جرم ، ويستعار ذلك في المعاني ، وقد قال النبي ﷺ: «لكل عمل شِرَّة ، ولكل شِرَّة فترة»[1] ، وقال الشاعر:

وَإِنِّـي لَتَعْـرُونـي لِـذِكْـرَاكِ فَتْـرَةٌ . . . .[2]

معناه سكون بعد اضطراب.

واختلف الناس في قدر الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ ـ فقال قتادة: خمسمائة عام وستون عاماً ، وقال الضحاك: أَربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة ، وفي الصحيح أَن الفترة بينهما ستمائة سنة[3] ، وهذه الآية نزلت بسبب قول اليهود: ما أَنزل الله على بشر بعد موسى من شيءٍ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، ولفظه: «إن لكل عمل شرَّة ، ولكل شرَّة فترة ، فمن كان فترتُه إلى سنتي فقداهتدى ، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك» ـ عن ابن عمرو ـ وقال الجامع الصغير ـ حديث صحيح. والشِّرة بالكسرة: النشاط والحِدَّةُ.

(٢) البيت لكثير عزة ، والرواية مشهورة:

وَإِنـي لَتَعْـرونـي لِـذِكْـراك هِـزَّةٌ كمـا انْتَفَـضَ العصفـور بَلَّلـه القَطْـرُ

(٣) أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ «قال: هو محمد جاء بالحق الذي فتر به بين الحق والباطل ، فيه بيان وموعظة ، ونور وهدى ، وعصمة لمن أخذ به ، قال: وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ، وذكر لنا أنه (كذا) كانت ستمائة سنة ، أو ما شاء الله من ذلك» (الدر المنثور) ، وذكر ابن كثير في تفسيره أن البخاري رواه عن سلمان الفارسي.



تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مفعول من أجله ، المعنى: حذار أن تقولوا محتجين يوم القيامة: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ وقامت الحجة عليكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو الهادي والمضل ، والمنعم والمعذب ، لا رب غيره.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾.

المعنى: واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغير كتبهم ليتحققوا نبوتك ، وينتظم في ذلك نعم الله عليهم ، وتَلَقِّيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة والإنابة.

وقرأ ابن محيصن: [يا قومُ] بالرفع وكذلك حيث وقع في القرآن ، وروي ذلك عن ابن كثير ، و﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ هنا اسم الجنس ، ثم عدَّد عيون تلك النعم. والأنبياءُ الذين جعل فيهم أَمرُهُمُ مشهور من لدن إسرائيل إلى زمان عيسى عليه السلام ، والأنبياءُ حاطة[1] ومنقذون من النار ، وشرفٌ في الدنيا والآخرة ، وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ يحتمل معاني ـ أحدها: أن يُعدِّد عليهم مُلْك مَنْ مَلَك من بني إسرائيل ، لأن الملوك شرف في الدنيا ، وحاطةٌ من نوائبها. والمعنى الآخر: أن يريد: استنقذكم من القبط الذين كانوا يستخدمونكم فصرتم أحراراً تَملكون ولا تُملكون ، فهم ملوكٌ بهذا الوجه ، وبنحو هذا فسَّر السدي وغيره ، وقال قتادة: إنما قال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ لأنا كنا نتحدث أنهم أول من خدمه أحدٌ من بني آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ، لأن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل ، وظاهر أَمر بني آدم أَن بعضهم كان يُسَخر بعضاً مذ تناسلوا وكثروا ، وإنما اختلفت الأُمم في معنى التملك فقط. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، والحسن بن أَبي الحسن ، وجماعة من أَهل

---

(١) يقال: رجلٌ حيِّط: بمعنى يحوط أهله وإخوانه ويرعاهم ، والجمع: حاطة ، مثل: سيد وسادة. (المعجم الوسيط وغيره من المعاجم).



العلم: من كان له مسكن وامرأة وخادم فهو مَلِك ، وقيل: مَن له مسكن لا يدخل عليه فيه إلا بإذن فهو مَلِك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال فيه أَبو مالك ، وسعيد بن جبير: الخطاب لأمة محمد ﷺ ، وهذا ضعيف ، وقال جمهور المفسرين: الخطاب هو من موسى عليه السلام لقومه ، ثم اختلف المفسرون ـ ما الذي أُوتوا ولم يُؤْتَ أَحد مثله؟ فقال مجاهد: المن والسلوى والحَجَر[1] والغمام ، وقال غيره: كثرة الأَنبياءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا في كثرة الأَنبياءِ ـ فالعالَمون على العموم والإِطلاق ، وعلى القول بأَن المؤْتى هو آيات موسى فالعالَمون مقيدون بالزمان الذي كان فيه ، لأَن أُمة محمد قد أُوتيت من آيات محمد عليه الصلاة والسلام أَكثر من ذلك ، فقد ظلل رسول الله ﷺ بغمامة قبل مبعثه ، وكلمته الحجارة والبهائم ، وأَقبلت إِليه الشجرة ، وحنَّ الجذع ، ونبع الماءُ من بين أَصابعه ، وشبع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته ، وانشق له القمر ، وعاد العود سيفا ، ورجع الحجر المعترض في الخندق رملاً مهيلا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى يتعزز ويأخذ الأَمر بدخول أَرض الجبارين بقوة ، وينفذ في ذلك نفوذ من أَعزه الله ورفع شأْنه ، و﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ معناه: المطهّرة ، وقال مجاهد: المباركة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والبركة تطهير من القحوط والجوع ونحوه ، واختلف الناس في تعيينها ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد: هي الطور وما حوله ، وقال قتادة: هي الشام ، وقال ابن زيد: هي أَريحاءُ ، وقاله السدي ، وابن عباس أَيضاً ، وقال قوم: هي الغوطة وفلسطين وبعض الأُردن ، قال الطبري: ولا يختلف أَنها بين الفرات وعريش مصر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتظاهرت الروايات أَن دمشق هي قاعدة الجبارين.

---

(١) الحجر هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: التي كتب الله في قضائه وقدره أنها لكم ترثونها وتسكنونها مالكين لها، ولكن فَتَنْتُكم في دخولها بغرض قتال مَنْ فيها عليكم تمحيصاً وتجربة، ثم حذرهم موسى عليه السلام الارتداد على الأدبار، وذلك الرجوع القهقرى، ويحتمل أن يكون تولية الدبر والرجوع في الطريق الذي جيءَ منه. والخاسر: الذي قد نقص حظه.

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عن بني إسرائيل أَنهم تعنَّتوا ونكصوا، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، والجبار: فعَّال من الجبر، كأنه لقوته وغشمه وبطشه يجبر الناس على إرادته، والنخلة الجبارة: العالية التي لا تُنال بيد، وكان من خبر الجبارين أنهم كانوا أَهل قوة، فلما بعث موسى الاثني عشر نقيباً مطلعين على أَمر الجبارين وأَحوالهم، رأَوا لهم قوة وبطشاً، وتخيلوا أَن لا طاقة لهم بهم، فجاءُوا بني إسرائيل، ونقضوا العهد بأَن أَخبروهم بحال الجبارين حسبما قدمناه في ذكر بعث النقباءِ، ولم يف منهم إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، ثم إن بني إسرائيل كعُّوا وجبنوا وقالوا: كوننا عبيداً للقبط أَسهل من قتال هؤلاءِ، وهمَّ كثير منهم أَن يُقدموا رجلاً على أَنفسهم ويصير بهم إلى أَرض مصر مُرْتَدِّين على الأعقاب، ونسوا أَن الله تعالىٰ إذا أَيَّد الضعيف غلب القويَّ، وأَخبروا موسى عليه السلام أَنهم لن يدخلوا الأَرض ما دام الجبارون فيها، وطلبوا منه أَن يُخرج الله الجبارين بجند من عنده، وحينئذ يدخل بنو إسرائيل.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قرأَ ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد: [يُخافون] بضم الياءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿يَخَافُونَ﴾ بفتح الياءِ، وقال أَكثر المفسرين: الرجلان يوشع بن نون وهو ابن أُخت موسى، وكالب بن يوقنا، ويقال فيه: كلاب. ويقال: كالوث بثاءٍ



مثلثة ، ويقال في اسم أَبيه: قافيا ، وهو صهر موسى على أُخته ، قال الطبري: اسم زوجته مريم بنت عمران ، ومعنى ﴿ يَخَافُونَ ﴾ أي: الله. وأَنعم عليهما بالإِيمان الصحيح وربط الجأش والثبوت في الحق ، وقال قوم: المعنى: يخافون العدو ، لكن أَنعم الله عليهما بالإِيمان والثبوت مع خوفهما ، ويقوي التأْويل الأَول أَن في قراءَة ابن مسعود: «قال رجلان من الذين يخافون اللهَ أَنعم عليهما» ، وأَما من قرأَ بضم الياءِ فلقراءَته ثلاثة معان ـ أَحدها: ما روي من أَن الرجلين كانا من الجبارين آمنا بموسى واتبعاه ، فكانا من القوم الذين يخافون ، لكن أَنعم الله عليهما بالإِيمان بموسى ، فقالا: نحن أَعلم بقومنا. والمعنى الثاني: أَنهما يوشع وكالوت ، لكنهما من الذين يُوقرون ويُسمع كلامهم ويُهابون لتقَوِّيهم وفضلهم ، فهم يُخافون بهذا الوجه ، والمعنى الثالث: أَن يكون الفعل من أَخاف ، والمعنى: من الذين يُخافون بأَوامرالله ونواهيه ووعيده وزجره ، فيكون ذلك مدحاً لهم على نحو المدح في قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[1] ، وقوله تعالىٰ: ﴿ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾ صفة للرجلين.

والباب: هو باب مدينة الجبارين فيما ذكر المفسرون ، والمعنى: اجتهدوا وكافحوا حتى تدخلوا الباب. وقوله: ﴿ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ ﴾ ظن منهما ورجاء وقياس ، أَي: أَنكم بذلك تَفُتُّون في أَعضادهم ، ويقع الرعب في قلوبهم فتغلبونهم ، وفي قراءَة ابن مسعود: [عَلَيْهما ويْلَكُم ادْخُلوا] ، وقولهما: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ يقتضي أَنهما استرابا بإِيمانهم حين رأَياهم يعصون الرسول ، ويجبنون مع وعد الله تعالىٰ لهم بالنصر.

ثم إِن بني إِسرائيل لجُوا في عصيانهم ، وسمعوا من العشرة النقباءِ الجواسيس الذين خوَّفهمْ أَمرُ الجبارين ، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم ، فصمموا على خلاف أَمر الله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وهذه عبارة تقتضي كفراً ، وذهب بعض الناس إِلى أَن المعنى: اذهب أَنت وربك يُعينك ، وأَن الكلام معصية لا كفر.

---

(١) الحجرات: ٣.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقولهم: ﴿فَقَـٰتِلَآ﴾ يقطع بهذا التأويل، وذكر النقاش عن بعض المفسرين أَن المراد بالرب (هنا) هارون، لأَنه كان أَسنَّ من موسى، وكان معظماً في بني إِسرائيل، محبباً لسعة خلقه ورحب صدره، فكأَنهم قالوا: اذهب أَنت وكبيرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل بعيد، وهارون إِنما كان وزيراً لموسى وتابعاً له في معنى الرسالة، ولكنه تأْويل يخلِّص بني إِسرائيل من الكفر. وذكر الطبري عن قتادة أَنه قال: بلغنا أَن رسول الله ﷺ لما عزم على قتال قريش في عام الحديبية جمع العسكر وكلم الناس في ذلك، فقال له المقداد بن الأَسود: لسنا نقول لك كما قالت بنو إِسرائيل: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ لكنا نقول: اذهب أَنت وربك فقاتلا إِنا معكما مقاتلون، وذكر النقاش أَن الأَنصار قالت هذه المقالة للنبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجميع هذا وَهْمٌ، غلط قتادة رحمه الله في وقت النازلة، وغلط النقاش في قائل المقالة، والكلام إِنما وقع في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ: ذَفِران فكلم الناس وقال لهم: أَشيروا عليَّ أَيها الناس، فقال له المقداد هذه المقالة في كلام طويل، ذكر ذلك ابن إِسحاق وغيره، ثم تكلم من الأَنصار سعد بن معاذ بنحو هذا المعنى، ولكن سبقه المقداد إِلى التمثيل بالآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتمثيل المقداد بها وتقرير النبي ﷺ لذلك يقتضي أَن الرب إِنما أُريد به الله تعالىٰ، ويؤنس أَيضاً في إِيمان بني إِسرائيل، لأَن المقداد قد قال: اذهب أَنت وربك فقاتلا، وليس لكلامه معنى إِلا أَن الله تعالىٰ يُعينك، ويقاتل معك ملائكته ونصره، فعسى أَن بني إِسرائيل أَرادت ذلك، أَي: اذهب أَنت، ويخرجهم الله بنصره وقدرته من المدينة، وحينئذ ندخلها، لكن قبحت عبارتهم لاقتران النكول بها، وحسنت عبارة المقداد لاقتران الطاعة والإِقدام بها.

ولما سمع موسى عليه السلام قولهم، ورأَى عصيانهم، تبرأَ إِلى الله تعالىٰ



منهم ، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِىۖ﴾ يعني هارون ، وقوله: ﴿وَأَخِىۖ﴾ يحتمل أَن يكون إِعرابه رفعاً إِما على الابتداءِ والتقدير: وأَخي لا يملك إِلا نفسه ، وإِما على العطف على الضمير الذي في ﴿أَمْلِكُ﴾ ، تقديره: لا أَملك أَنا ، ويحتمل أَن يكون إِعرابه نصباً على العطف على: ﴿نَفْسِى﴾ ، وذلك لأَن هارون كان يطيع موسى ، فلذلك أَخبر أَنه يملكه[1]. وقرأَ الحسن: [إِلاَّ نَفْسِيَ وَأَخيَ] بفتح الياءِ فيهما ، وقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا﴾ دعاءٌ حرج ، قال السدي: هي عَجْلة عجِلها موسى عليه السلام ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وغيرهما: المعنى: افصل بيننا وبينهم بحكم وافتح ، فالمعنى: احكم بحكم يفرق هذا الاختلاف ويَلُمُّ الشعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأْويل فليس في الدعاءِ عجْلة. وقال قوم: المعنى: فافرق بيننا وبينهم في الآخرة حتى تكون منزلة المطيع مفارقة لمنزلة العاصي الفاسق ، ويحتمل الدعاءُ أَن يكون معناه: فرق بيننا وبينهم ، بمعنى أَن يقول: «فَقَدنا وجوههم ، وفُرِّق بيننا وبينهم حتى لا نشقى بفسقهم» ، وبهذا الوجه تجيءُ العجْلة في الدعاءِ ، وقرأَ عُبيد بن عُمير: [فَافْرِق] بكسر الراءِ.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ المعنى: قال الله ، وأَضمر الفاعل في هذه الأَفعال كلها إِيجازاً لدلالة معنى الكلام على المراد. وحرَّم الله تعالىٰ على جميع بني إِسرائيل دخول تلك المدينة أَربعين سنة ، وتركهم خلالها يتيهون في الأَرض ، أَي: في أَرض تلك النازلة ، وهو فحص التيه ، وهو ـ على ما يحكى ـ طول ثمانين ميلاً في عرض ستة فراسخ ، وهو ما بين مصر والشام ، ويروى أَنه اتفق أَنَّه مات كل من كان قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ ولم يدخل المدينة أَحدٌ من ذلك الجيل إِلا يوشع وكالوث ، ويُروى أَن هارون عليه السلام مات في فحص التيه في خلال هذه المدة ، ولم يختلف في هذا ، وروي أَن

---

(١) وجوز بعضهم أن يكون مجروراً معطوفاً على ياء المتكلم في ﴿نَفْسِى﴾ ـ ولكن هذا ضعيف على مذهب البصريين.
والسرُّ في هذاا لحصر ﴿لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِىۖ﴾ أن موسى لم يثق بالرجلين اللذين قالا: ادخلوا عليهم الباب ، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما عاين من أحوال قومه ، ومن تلَوُّنهم مع طول الصحبة ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في ثباته وهو هارون ـ وقيل: أراد بقوله: ﴿وَأَخِىۖ﴾ من يوافقني في الدين لا هارون خاصة. قاله في (البحر المحيط).



موسى عليه السلام مات فيه بعد هارون بثمانية أعوام ، وقيل: بستة أَشهر ونصف ، وأَن يوشع نبئ بعد كمال الأربعين سنة ، وخرج ببني إسرائيل وقاتل الجبارين وفتح المدينة ، وفي تلك الحرب وقفت له الشمس ساعة حتى استمر هزْم الجبارين(١) . وروي أَن موسى عليه السلام عاش حتى كملت الأَربعون ، وخرج بالناس وحارب الجبارين ويوشع وكالب على مقدمته ، وأَنه فتح المدينة وقتل بيده عوج بن عناق ، يقال: كان في طول موسى عشرة أَذرع ، وفي طول عصاه عشرة أَذرع ، وترامى من الأَرض في السماءِ عشرة أَذرع ، وحينئذ لحق كعبَ عوج فضربه بعصاه في كعبه فخر صريعاً ، ويروى أَن عوجا اقتلع صخرة ليطرحها على عسكر بني إسرائيل فبعث الله هدهداً بحجر الماس فأَداره على الصخرة فتقورت ودخلت في عنق عوج ، وضربه موسى فمات ، وحكى الطبري أَن طول عوج ثمانمائة ذراع ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: لمَّا خرَّ كان جسراً على النيل سنةً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والنيل ليس في تلك الأَقطار ، وهذا كله ضعيف ، والله أعلم ، وحكى الزجاج عن قوم أَن موسى وهارون لم يكونا في التيه ، والعامل في ﴿أَرْبَعِينَ﴾ يحتمل أَن يكون ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ ، أَي: حرمت عليهم أَربعين سنة ، ويتيهون في الأَرض هذه المدة ثم تفتح عليهم ، أَدرك ذلك من أَدركه ، ومات قبله من مات. وخَطَّأَ أَبو إسحاق أَن يكون العامل ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ ، وذلك منه تحامل. ويحتمل أَن يكون العامل «يتيهون» مضمراً يدل عليه ﴿يَتِيهُونَ﴾ المتأَخر ، ويكون قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ إخباراً مستمراً تلقوا منه أَن المخاطبين لا يدخلونها أَبداً ، وأَنهم ـ مع ذلك ـ يتيهون في الأَرض أَربعين سنة يموت فيها من مات.

---

(١) أشار إلى قصة وقوف الشمس ليوشع أبو تمام في قوله:

فَـرُدَّت علينـا الشمـس والليـلُ راغـمٌ ... بشمس بدَتْ من جانب الخِدْر تطلع
نضَـا ضـوؤهـا صبـغ الـدُّجُنَّـة وانطـوى ... لبهجتهـا ثـوبُ السمـاءِ المُجـزَّع
فـوالله مـا أَدري أَأَحـلام نـائِـم ... أَلَمَّت بنا أَم كان في الركب يوشع؟

وأَشار شوقي أَيضاً إليها بقوله:

قِفـي يـا أُخـت يـوشَـع خبِّـرينـا ... أَحـاديـث القُـرون الغـابـرينـا



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخطاب على هذا التأويل أَصعب موقفاً وأَحضر يأْساً، وروي أَن من كان قد جاوز عشرين سنة لم يعش إِلى الخروج من التيه، وأَن من كانوا دون العشرين عاشوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه لم يعش المكلفون، أَشار إِلى ذلك الزجاج.

والتِّيه: الذهاب في الأَرض إِلى غير قصد معلوم[1]، ويروى أَن بني إِسرائيل كانوا يرحلون بالليل ويسيرون ليلهم أَجمع في تحليق ونحوه من التردد وقلة استقامة السير، حتى إِذا أَصبحوا وجدوا جُمْلتهم في الموضع الذي كانوا فيه أَول الليل، قال مجاهد وغيره: كانوا يسيرون النهار أَحياناً والليل أَحياناً فيمسون حيث أَصبحوا، ويصبحون حيث أَمسوا، وذلك في مقدار ستة فراسخ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون تيههم بافتراق الكلمة وقلة اجتماع الرأْي، وأَن الله تعالىٰ رماهم بالاختلاف، وعلموا أَنها قد حرمت عليهم أَربعين سنة فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص، وأَقاموا ينتقلون من موضع إِلى موضع على غير نظام واجتماع، حتى كملت هذه المدة وأَذن الله بخروجهم، وهذا تيه ممكن محتمل على عرف البشر، والآخر الذي ذكر مجاهد إِنما هو خرق عادة وعجب من قدرة الله تعالىٰ.

وفي ذلك التِّيه ظلل عليهم الغمام، ورزقوا المن والسلوى إِلى غير ذلك مما روي من ملابسهم، وقد مضى ذلك في سورة البقرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ معناه: فلا تحزن، يقال: أَسي الرجل يأْسى أَسىً إِذا حزن، ومنه قول امرئ القيس:

وُقُوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يقولون لا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

(١) أصل التِّيه في اللغة: الحيْرة، يقال منه: تاهَ يَتِيهُ تَيْهاً وَتَوْهاً إذا تحَيَّر، والأرض التَّيْهاءُ: التي لا يُهتدى فيها، ومنه قول القائل:

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنها ... قَطَا الحزْنِ قدْ كانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُها



ومنه قول مُتَمِّم بن نُوَيرة:

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسى   دَعُونِي فَهَذَا كُلُّه قَبْرُ مالِكِ

والخطاب بهذه الآية لموسى عليه السلام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ندم موسى على دعائه على قومه ، وحزن عليهم ، فقال له الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وقال قوم من المفسرين: الخطاب بهذه الألفاظ لمحمد ﷺ ، ويراد بالفاسقين معاصروه ، أي: هذه أفعال أسلافهم فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة معك ورَدِّهم عليك ، فإنها سجية خبيثة موروثة عندهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿۞ وَٱتْلُ﴾ معناه: اسرد وأَسمعهم إياه ، وهذه من علوم الكتب الأُول التي لا تعلق لمحمد ﷺ بها إلا من طريق الوحي ، فهو من دلائل نبوته ، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر أمره أنه يُرَادُ به بنو إسرائيل لوجهين: أحدهما أن المحاورة فيما تقدم إنما هي في شأنهم ، وإقامة الحجج عليهم بسبب همهم ببسط اليد إلى محمد ﷺ ، والثاني أن عِلْم نبإِ ابْنَيْ آدم إنما هو عندهم ، وفي غامض كتبهم ، وعليهم تقوم الحجة في إيراده. والنبأُ: الخبر ، وابنا آدم: هما في قول جمهور المفسرين لِصُلبه ، وهما قابيل وهابيل ، وقال الحسن بن أَبي الحسن البصري: ابنا آدم ليسا لِصُلبه ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وَهْمٌ ، وكيف يجهل صورة الدفن أَحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح قول الجمهور ، ورُوي أَن تقريبهما للقُرْبان إنما كان تحنثاً وتطوعاً ، وكان قابيل صاحب زرع ، فعمد إلى أَرذل ما عنده وأَدناه فقربه ، وكان هابيل صاحب غنم ، فعمد إلى أَفضل كباشه فقربه ، وكانت العادة حينئذ أَن يقرب المقرب قربانه ويقوم



ويصلي ويسجد ، فإن نزلت نار وأكلت القُربان فذلك دليل للقبول ، وإلا كان تركه دليل عدم القبول ، فلما قرب هذان كما ذكرتُ ، فنزلت النار فأخذت كبش هابيل فرفعته وسترته عن العيون ، وتركت زرع قابيل ، قال سعيد بن جبير: فكان ذلك الكبش يرتع في الجَنَّة حتى أُهبط إلى إبراهيم في فداءِ ابنه ، قال [سائقو] هذا القصص: فحسد قابيل هابيل ، وقال له: أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني؟ وكان قابيل أَسَنَّ ولد آدم ، وروي أن آدم سافر إلى مكة ليرى الكعبة ، وترك قابيل وصياً على بنيه ، فجرت هذه القصة في غيبته ، وروت جماعة من المفسرين ـ منهم ابن مسعود ـ أن سبب هذا التقريب أَن حواءَ كانت تلد في كل بطن ذكراً وأُنثى ، فكان الذكر يزوج أُنثى البطن الآخر ، ولا تحل له أُخته توأَمته ، فوُلدت مع قابيل أُخت جميلة ، ومع هابيل أُخت ليست كذلك ، فلما أَراد آدم تزويجها قال قابيل: أَنا أحق بأُختي ، فأَمره آدم فلم يأتمر ، فاتفقوا على التقريب ، وروي أَن آدم حضر ذلك ، فتقبل قربان هابيل ، ووجب أَن يأخذ أُخت قابيل[1] ، فحينئذ قال له: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ ، وقول هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كلامٌ قبله محذوف تقديره: ولمَ تقتلني وَأَنا لَمْ أَجْن شيئاً ولا ذنب لي في قبول قرباني؟ أَما إني أَتَّقيه وكنتَ عليَّ لأَحب الخلْق و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإجماع أَهل السُّنَّة في معنى هذه الأَلفاظ أَنها اتقاءُ الشرك ، فمن اتقاه وهو موحِّد فأَعماله التي تَصْدُق فيها نيته مقبولة ، وأَما المتقي للشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول والحتم بالرحمة ، علم ذلك بإخبار الله تعالىٰ ، لا أَن ذلك يجب على الله تعالىٰ عقلاً ، وقال عدي بن ثابت وغيره: قُرْبَانُ متقي هذه الأُمة الصلاةُ.

واختلف الناس ، لم قال هابيل: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾؟ فقال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أَلا يسل أَحد سيفاً ، وأَلا يمتنع من أُريد قتله. وقال عبد الله بن عمرو ، وجمهور الناس: كان هابيل أَشد قوة من قابيل ولكنه تحرج.

---

(١) قال القرطبي: «القول ما ذكرناه من أن آدم كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ، وهذا كالنص». هذا وذكر أنَّ أُخت قابيل الجميلة اسمها: إقليمياء ، وأن أُخت هابيل اسمها: ليوذا.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر، ومن هنا يقوى أَن قابيل إنما هو عاصٍ لا كافر، لأَنه لو كان كافراً لم يكن للتحرج وجه، وإنما وجه التَّحرج في هذا أَن المتحرج يأْبى أَن يُقاتل موحِّداً، ويرضى بأَن يُظْلم لِيُجَازى في الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ الآية، ليست هذه بإرادة محبة وشهوة، وإنما هو تَخَيُّرٌ في شرَّيْن، كما تقول العرب: في الشَّرِّ خيارٌ، فالمعنى: إنْ قتلتني وسبق بذلك قدر فاختياري أَن أَكون مظلوماً سينتصر الله لي في الآخرة. و﴿تَبُوٓأَ﴾ معناه: تمضي متحملا، وقوله: ﴿بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ قيل: معناه: بإِثم قتلي وسائر آثامك التي أَوجبت أَلا يتقبل منك، وقيل: المعنى: بإثم قتلي وإِثمك في العداءِ عليَّ، إذ هو في العداءِ وإِرادة القتل آثم ولو لم ينفذ القتل. وقيل: المعنى: بإِثمي إن لو قاتلتك وقتلتك وإِثم نفسك في قتالي وقتلي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الإِثم الذي يقتضيه قول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسَيْفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»(١). فكأَن هابيل أَراد: إني لست بحريص على قتلك، فالإِثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك أُريد أَن تحمله أَنت مع إِثمك في قتلي. وقيل: المعنى: بإِثمي الذي يختص لي فيما فرط لي، أَي: يؤْخذ من سيئاتي فيطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوءُ بإِثمك في قتلي، وهذا تأْويل يعضده قول النبي ﷺ: «يُؤتى بالظالم والمظلوم يوم القيامة، فيؤْخذ من حسنات الظالم فيزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإِن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»(٢).

(١) رواه أحمد في مسنده، وأَخرجه الشيخان، وأَبو داود، والنسائي ـ عن أبي بكرة. وابن ماجه عن أبي موسى، وهو حديث صحيح كما قال في الجامع الصغير.

(٢) رواه مسلم في صحيحه بلفظه.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أَن يكون من قول هابيل لأَخيه، ويحتمل أَن يكون إِخباراً من الله تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قراءَة الجمهور: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ والمعنى أَن القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس، فردته هذه النفس اللجوجة الأَمَّارة بالسوءِ طائعاً منقاداً حتى واقعهُ صاحب هذه النفس(1). وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والجراح، والحسن بن عمران، وأَبو واقد: [فَطَاوَعَتْ] والمعنى: كأَن القتل يدعو إِلى نفسه بسبب الحقد والحسد الذي أَصاب قابيل، وكأَن النفس تأْبى ذلك ويصعب عليها، وكل جهة تريد أَن تطيعها الأُخرى، إِلى أَن تفاقم الأَمر، وطاوعت النفس القتل فواقعته، وروي أَنه التمس الغِرَّة في قتله حتى وجده نائماً في غنمه فشدخ رأسه بحجر، وروي أَنه جهل كيف يقتله، فجاءَ إِبليس بطائر أَو حيوان غيره فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل، وروي أَنه لما انصرف قابيل إِلى آدم قال له: أَين هابيل؟ قال: لا أَدري، كأَنك وكلتني بحفظه، فقال له آدم: أَفعلتها؟ والله إِن دمه ليناديني من الأَرض، اللَّهم العن أَرضاً شربت دم هابيل، فروي أَنه من حينئذ ما شربت أَرض دماً، ثم إِن آدم ﷺ بقي مائة عام لم يبتسم حتى جاءَ ملك فقال له: حياك الله يا آدم وبيَّاك، فقال آدم: ما بيَّاك؟ قال: اضحك، فروي أَن آدم عليه السلام قال حينئذ:

تَغَيَّـرَتِ البِـلادُ وَمَـنْ عَلَيْهَـا ... فَـوَجْـهُ الأَرضِ مُغْبَـرٌّ قَبِيـح
تغيَّـر كـلُّ ذي طعْـم ولَـوْن ... وقـلَّ بشـاشـةَ الـوَجْـهِ المليـح

هكذا هو الشعر بنصب (بشاشة) وكف التنوين.

وروي عن مجاهد أَنه قال: علقت إِحدى رجلي القاتل بساقها إِلى فخذها من يومئذ

---

(1) طوَّعت له نفسه: أي سهَّلت نفسُه عليهالأمر وشجعته، وصورت له أن قتل أخيه طوعٌ له سهلٌ، يقال: طاع الشيْء يطوع: سهُلَ وانقاد، وطوَّعه فلان له: سهَّلَه.



إلى يوم القيامة ، ووجهه إلى الشمس حيث ما دارت ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وعليه في الشتاءِ حظيرة من ثلج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإن صح هذا فهو من خسرانه الذي تضمنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، ومن خسرانه ما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمةً صحيحة العذاب ، عليه شطر عذابهم» ، ومن خسرانه ما ثبت وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا قُتِلَتْ نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها»(١) ، وذلك أنه أول من سن القتل .

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أوقاته ، أُقيم بعض الزمن مقام كله ، وخص الصباح بذلك لأنه بداية النهار والانبعاث إلى الأمور ، ومطية النشاط ، ومنه قول الربيع بن ضبع :

أَصبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ . . . .

ومنه قولُ سعد بن أبي وقَّاص: «ثم أَصبَحتْ بنو أَسد تعزرني على الإسلام» إلى غير ذلك من استعمال العرب كما ذكرناه .

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ ، روي في معناه أن قابيل جعل أخاه في جراب ، ومشى به يحمله في عنقه مائة عام ، وقيل: سنة واحدة ، وقيل: بل أصبح في ثاني يوم قتله يطلب إخفاءَ أخيه ، فلم يدر ما يصنع به ، فبعث الله غراباً حيّاً إلى غراب ميت ، فجعل يبحث في الأرض ويُلقي التراب على الغراب الميت . وروي أن الله تعالىٰ بعث غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر ، ثم جعل القاتل يبحث ويواري الميت ، وروي أن الله تعالىٰ إنما بعث غراباً واحداً فجعل يبحث ويلقي التراب على هابيل .

وظاهر هذه الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم ، ولذلك جهلت سنة المواراة ، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحاق عن بعض أهل العلم بما في الكتب الأُول .

---

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما ـ عن ابن مسعود ، ذكر ذلك الشوكاني ، وقال في (الدر المنثور): أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

و﴿ يَبۡحَثُ ﴾ معناه: يفتش التراب بمنقاره ويثيره، ومن هذا سميت سورة (براءَة) ـ البحوث[1] ـ لأَنها فتشت عن المنافقين، ومن ذلك قول الشاعر:

إِن النَّـاسُ غَطـونـي تَغَطَّيْـتُ عَنهُـمُ وإِنْ بَحَثُوني كانَ فِيهِمْ مباحِثُ[2]

وفي مثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة[3].

والضمير في قوله: ﴿سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ يحتمل أَن يعود على قابيل، ويُراد بالأَخ هابيل، ويحتمل أَن يعود على الغراب الباحث، ويراد بالأَخ الغرابُ الميت، والأَول أَشهر في التأْويل، والسَّوْأَة: العورة، وخصت بالذكر مع أَن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأَن سترها أَوكد، ويحتمل أَن يراد بالسوأَة هذه الحالة التي تسوءُ الناظر بمجموعها، وأُضيفت إِلى المقتول من حيثُ نزلت به النازلة لا على جهة الغَضِّ منه، بل الغَض لاحقٌ للقاتل، وهو الذي أَتى بالسوأَةِ، وقرأَ الجمهور: ﴿ فَأُوَٰرِيَ ﴾ بنصب الياءِ، وقرأَ طلحة بن مصرفَ، والفياض بن غزوان: [فأواريْ] بسكون الياءِ، وهي لغة لتوالي الحركات.

ولما رأَى قابيل فعل الغراب تنبه على ما يجب أَن يصنع بأَخيه، ورأَى قصور نفسه وجهل البشر بالأُمور، فقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ﴾ الآية، واحتقر نفسه، ولذلك ندم، وقرأَ الجمهور: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ والأَصل: يا وَيْلَتِي، لكن من العرب من يبدل من الياءِ أَلفاً ويفتح الياءَ لذلك، فيقولون: يا ويْلَتَى ويا غلامَا. ويَقِفُ بعضهم على هاءِ السكت

---

(١) قال في اللسان: «وفي حديث المقداد: أَبَتْ علينا سورة البُحوث، انفروا خفافاً وثقالاً» يعني سورة (التوبة)، والبُحوث بضم الباء، وقال ابن الأثير: «ورأيتُ في الفائق: سورة البَحُوث بفتح الباء، قال: فإن صحت فهي فَعُول من أبنية المبالغة ويقع على الذكر والأنثى، كامرأة صَبُور، ويكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة».

(٢) في بعض النسخ «إن باحثوني»، وفي بعضها: «كنتُ فيهم» بدلاً من «كان فيهم». ولم نقف على نسبة البيت.

(٣) ويروى: «كالباحثة عن حتفها بظلفها»، وأصله أن رجلاً وجد شاةً فأراد ذبحها فلم يظفر بسكين، وكانت مربوطة، فلم تزل تبحث برجلها حتى أبرزت سكيناً كانت مدفونة تحت التراب فذبحها بها، ومعنى «كالباحث عن الشفرة» أنه طلب معاشاً فسقط على شفرة فعقرته، يضرب في حاجة تؤدي بصاحبها إلى التلف. وقيل: كالعنز تبحث عن سكين جزَّار، وقال الشاعر:

فَكَـانـت كعَنْـز السُّـوء قـامَـتْ بـرِجْلِهـا إلـى مُـدْيَـةٍ مَـدْفُـونَـةٍ تَسْتَثِيـرُهَـا

فيقول: ويلتَاهُ. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [ياوَيْلَتِي][1]. ونداءُ الويلة هو معنى: احضري فهذا أوانك، وهذا هو الباب في قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً﴾[2]، وفي قولهم: يا عجباً وما جرى مجراه من نداءِ هذه الأُمور التي لا تعقل وهي معان: وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ بفتح الجيم، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان: [أَعَجِزتُ] بكسر الجيم، وهي لغة[3].

ثم إن قابيل وارى أخاه، وندم على ما كان منه من معصية الله في قتله حيث لا ينفع الندم، واختلف العلماءُ في قابيل ـ هل هو من الكفار أو من العصاة؟ والظاهر أنه من العصاة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلا، فخذوا من خيرهما ودعوا الشر»[4].

قوله عز وجل:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

جمهور الناس على أن قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾، أي: بسبب هذه النازلة، ومن جرَّاها كتبنا. وقال قومٌ: بل هو متعلق بقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، أي: ندم من أجل ما وقع، والوقف ـ على هذا ـ على ﴿ذَٰلِكَ﴾، والناس على أن الوقف ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

يقال: أَجَلَ الأَمر أَجلا وأَجْلا[5]، إذا جناه وجرَّه، ومنه قول خوات:

---

(١) أي: بالياء على الأصل.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الآية (٣٠).

(٣) قال النحاس: «وهي لغة شاذة، إنما يقال: عجِزت المرأة إذا عظمت عجيزتها، وعَجزْتُ عن الشيء عجْزاً ومعجِزَةً ومعْجَزَةً».

(٤) أخرج مثله عبد الرزاق، وابن جرير عن الحسن، وأخرج عبد بن حميد مثله ـ عن الحسن، وأخرج مثله ابن جرير ـ من طريق المعتمر بن سليمان ـ عن أبيه ـ عن بكر بن عبد الله. (الدر المنثور).

(٥) فرَّق (المعجم الوسيط) بين المصدرين فقال: أَجَلَ الشيءَ ـ أَجْلاً: حبَسه ومَنَعَه، وفلاناً: عالجه من الإِجْل، وأَجَلَ أَجَلاً: تأخر. فهو: أَجِلٌ، وآجِل، وأَجيل، وفلانٌ: اشتكى الإجلَ (والإجْل: وجع في العنق من ميله على الوسادة).

وأَهــلِ خبــاءٍ صــالــح ذات بينهــم   قد احتربوا في عاجل أنا آجِلُه[1]

ويقـال: فعلـت ذلـك مـن أَجلـك بفتـح الهمـزة. ومـن إجلـك بكسـرهـا. وقـرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [مِنِ اجْلِ ذَلِكَ] بوصل الأَلف وكسر النون قبلها، وهذا على أَن أَلقى حركة الهمزة على النون، كما قالوا: «كمِ ابلك»؟ بكسر الميم ووصل الأَلف، و«منِ ابراهيم» بكسر النون.

و﴿ كَتَبْنَا ﴾ معناه: كُتب بأَمرنا في كتب منزلة عليهم تضمنت فرض ذلك، وخص الله تعالىٰ بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أُمم كان قتل النفس فيهم محظوراً لوجهين: أَحدهما فيما روي أَن بني إسرائيل أَول أُمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ الأَمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماءِ، والآخر لتلوح مذَمَّتُهم في أَن كتب عليهم هذا، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون، بل همّوا بقتل النبي ﷺ ظلماً، فخُصوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ معناه: بغير أَن تقتل نفساً فتستحق القتل، وقد حرَّم الله تعالىٰ نفس المؤمن إلا بإِحدى ثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أَو زنى بعد إِحصان، أَو قتل نفس ظلماً وتعدياً. وهنا يندرج المحارب. والفساد في الأَرض يَجْمَعُ الزنى والارتداد والحرابة. وقرأَ الحسن: [أَو فساداً في الأَرْض] بنصب الفساد على فعل محذوف، وتقديره: أَو أَتى فساداً، أَو أَحدث فساداً، وحذف الفعل الناصب لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ اضطرب لفظ المفسرين في ترتيب هذا التشبيه ـ فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: من قتل نبياً أَو إِمامَ عدلٍ فكأَنما قتل الناس جميعاً، ومن أَحياهُ بأَن شد عضُده ونَصَره فكأَنما أَحيا الناس جميعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا تعطيه الأَلفاظ.

---

(١) البيت لخوات بن جبير بن النعمان، أحد فرسان الصحابة، شهد بدراً، وتوفي بالمدينة سنة أربعين (الاستيعاب)، وقد نسب اللسان أيضاً البيت لخوات هذا، ونقل النسبة عن ابن عطية في (البحر)، ونسبه القرطبي، والشيخ مرتضى للخنَّوت، واسمه: توبة بن مضرس بن عبيد ـ والبيت في ديوان زهير ـ و(أَهْلِ الكسر على تقدير (ربَّ) ـ ورواية اللسان والقرطبي: «كنْتُ بينهم» بدلاً من «ذات بينهم».

وروي عن ابن عباس أَيضاً أَنه قال: المعنى: مَن قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مِثْل مَن قَتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة، وصان حرمتها، واستحيا من أَن يقتلها، فهو كمن أَحيا الناس جميعاً.

وقال عبد الله بن عباس أَيضاً: المعنى: فكأَنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أَحياها واستنقذها من هلكة فكأَنما أَحيا الناس جميعاً عند المُسْتَنْقَذ.

وقال ابن عباس أَيضاً وغيره: المعنى: من قتل نفساً فأَوبق نفسه فكأَنه قتل الناس جميعاً، إِذ يَصْلى النار بذلك، ومن سلم من قتلها فكأَنه سلم من قتل الناس جميعاً.

وقال مجاهد: الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءَه جهنم، وغضب عليه، ولعَنَهُ، وأَعَدَّ له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. ومن لم يقتل أَحداً فقد حيِيَ الناس منه.

وقال ابن زيد: المعنى أَن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم مَنْ قتل الناس جميعاً، قال: ومن أَحياها، أَي: من عفا عمَّن وجب له قتله. وقاله الحسن أَيضاً، أَي: هو العفو بعد القدرة، وقال مجاهد: ومن أَحياها: أَنقذها من حرق وغرق.

وقال قومٌ: لما كان المؤمنون كلهم يطلبون القاتل كان كمن قتل الناس جميعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول متداع، ولم يتخلص التشبيه إِلى طرف في شيءٍ من هذه الأَقوال، والذي أَقول: إِن الشَّبه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد تحصل من ثلاث جهات: إِحداها القود فإِنه واحد، والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإِن فرضناه يخرج من النار بعْدُ بسبب التوحيد فكذلك قاتل الجميع إِن لو اتفق ذلك، والثالثة انتهاك الحرمة، فإِن نفْساً واحدة في ذلك وجميع الأَنفس سواءٌ، والمنتهك في واحدة ملحوظ بعين منتهك الجميع، ومثال ذلك: رجلان حلفا على شجرتين أَلا يطعما من ثمرهما شيئاً، فطعم أَحدهما واحدة من ثمر شجرته، وطعم الآخر ثمر شجرته كله، فقد استويا في الحنث.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ فيه تجوز. لأنها عبارة عن الترك والإنقاذ، وإلا فالإحياءُ حقيقة الذي هو الاختراع إنما هو لله تعالىٰ. وإنما هذا الإحياءُ بمنزلة قول نمرود: «أنَا أُحيي»، سمَّى الترك إحياءً، ومحيي نفس كمحيي الجميع في حفظ الحرمة واستحقاق الحمد.

ثم أَخبر الله تعالىٰ عن بني إسرائيل أَنهم جاءَتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه، ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يُسرفون ويتجاوزون الحدود، وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في همهم بقتل النبي ﷺ وغيره، إلى سائر ذلك من أَعمالهم.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

اقتضى المعنى في هذه الآية كون ﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة الحصر التام، واختلف الناس في سبب هذه الآية ـ فروي عن ابن عباس، والضحاك أَنها نزلت بسبب قوم من أَهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأَفسدوا في الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن تكون نازلة بني قريظة حين هموا بقتل النبي ﷺ. وقال عكرمة والحسن: نزلت الآية في المشركين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف، لأَن توبة المشرك نافعة بعد القدرة عليه وعلى كل حال. وقال أَنس بن مالك، وجرير بن عبد الله، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وغيرهم: إن الآية نزلت في قوم من عُكل وعُرَيْنة(١) قدموا على

(١) عُكل ـ بضم العين وسكون الكاف ـ: قبيلة مشهورة، وعُرينة ـ بضم العين ـ أيضاً قبيلة.

رسول الله ﷺ فأَسلموا ، ثم إِنهم مرضوا واستوخموا المدينة ، فأَمرهم النبي ﷺ أَن يكونوا في لقاح الصدقة ، وقال: اشربوا من أَلبانها وأَبوالها ، فخرجوا فيها ، فلما صحُّوا قتلوا الرعاءَ واستاقوا الإِبل ، فجاءَ الصريخ فأَخبر بذلك النبي ﷺ. فأَمر فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي ، فركب رسول الله ﷺ على أَثرهم فأُخذوا ، وقال جرير بن عبد الله: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين ، حتى إِذا أَدركناهم وقد أَشرفوا على ديارهم ، فجئنا بهم النبي ﷺ ، قال جميع الرواة: فقطع رسول الله ﷺ أَيديهم وأَرجلهم من خلاف ، وسمَّر أَعينهم[(١)] ، ويروى: وسَمَلَ ، وتركهم في جانب الحرَّة يستسقون فلا يسقون ، وفي حديث جرير: فكانوا يقولون: الماءَ ، ويقول رسول الله ﷺ: النار[(٢)]. وفي بعض الروايات عن أَنس أَن رسول الله ﷺ أَحرقهم بالنار بعدما قتلهم ، قال أَبو قُلابة: هؤلاء كفروا وأَخذوا الأَموال وحاربوا الله ورسوله: وحكى الطبري عن بعض أَهل العلم أَن هذه الآية نسخت فعل النبي ﷺ بالعُرَنيين ، ووقفت الأَمر على هذه الحدود ، وقال بعضهم: وجعلها الله عتاباً لنبيه ﷺ على سمْل الأَعين ، وحكى عن جماعة من أَهل العلم أَن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل ، لأَن ذلك وقع في المرتدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لا سيما وفي بعض الطرق أَنهم سملوا أَعين الرعاة[(٣)] ، قالوا: وهذه الآية هي في المحارب المؤمن ، وحكى الطبري عن السدي أَن النبي ﷺ لم يسمل أَعين العرنيين ، وإِنما أَراد ذلك فنزلت الآية ناهية عن ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف تخالفه الروايات المتظاهرة.

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: أي: أحمى لهم مسامير الحديد ثم كَحَلهم بها. ا هـ. وهو نفس معنى (سَمَلَ) باللام.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والنحاس في ناسخه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرج مسلم ، والنحاس في ناسخه ، والبيهقي عن أنس قال: إنَّما سَمَل رسول الله ﷺ أعين أُولئك لأنهم سملوا أَعْيُن الرعاة.



ولا خلاف بين أَهل العلم أَن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أَهل الإِسلام ، واختلفوا فيمن هو الذي يستحق اسم الحرابة ـ فقال مالك بن أَنس رحمه الله : المحارب عندنا من حمل على الناس السلاح في مصر أَو برية فكابرهم عن أَنفسهم وأَموالهم دون نائرة ولا دخَل ولا عداوة[1]. وقال هذا القول جماعة من أَهل العلم. وقال أَبو حنيفة وأَصحابه ، وجماعة من أَهل العلم: لا يكون المحارب إِلا القاطع على الناس في خارج الأَمصار ، فأَما في المصر فلا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يريدون أَن القاطع في المصر يلزمه حدُّ ما اجْترح من قتل أَو سرقة أَو غصب ونحو ذلك. والحرابة رُتَبٌ أَدناها إِخافة الطريق فقط ، لكنها توجب صفة الحرابة ، ثم بعد ذلك يأْخذ المال مع الإِخافة. ثم بعد ذلك أَن يقتل مع الإِخافة ، ثم بعد ذلك أَن يجمع ذلك كلَّه. فقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماءِ: في أَي رتبة كان المحارب من هذه الرتب فالإِمام مخير فيه في أَن يعاقبه بما رأَى من هذه العقوبات ، واستحسن أَن يأْخذ في الذي لم يَقْتُل بأَيسر العقوبات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لا سيما إِن كانت زلة ولم يكن صاحب شرور معروفة ، وأَما إِن قتل فلا بد من قتله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والحسن ، وأَبو مجلز ، وقتادة ، وغيرهم من العلماءِ: بل لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب ، فمن أَخاف الطريق فقط فعقوبته النفي ، ومن أَخذ المال ولم يقتُل فعقوبته القطع من خلاف ، ومن قَتَل دون أَن أَخذ مال فعقوبته القتل ، ومن جمع الكل قُتل وصُلب ، وحجة هذا القول أَن الحرابة لا تُخرج عن الإِيمان ، ودم المؤمن حرام إِلا بإِحدى ثلاث: ارتداد أَو زنى بعد إِحصان ، أَو قتل نفس ، فالمحارب إِذا لم يقتل فلا سبيل إِلى قتله ، وقد روي عن ابن عباس ، والحسن أَيضاً ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم مثلُ قول مالك: إِن الإِمام مخير ، ومن حجة هذا القول أَنَّ ما كان في القرآن [أَو ـ أَو] فإِنه للتخيير ، كقوله تعالى: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ

---

(١) النائرة: العداوة إذا هاجت وتحركت ، مشتقة من النار ـ والجمع نوائر ـ ، والدخل ـ بسكون الخاء وبفتحها ـ: الفساد والريبة والخديعة ـ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾.



﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[(١)] ، وكآية كفارة اليمين ، وآية جزاء الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورجح الطبري القول الآخر ، وهو أحوط للمفتي ولِدَم المحارب ، وقولُ مالِك أَسَدُّ للذريعة ، وأحفظ للناس والطرق ، والمخيفُ في حكم القاتل ، ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقوبات استحساناً ، وذكر الطبري عن أنس بن مالك أنه قال: سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن الحكم في المحارب فقال: من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ ، ورِجْلَهُ للإخافة ، ومن قتل فاقتله ، ومن جمع ذلك فاصلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقي النفي للمخيف فقط.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ تغليظ جعل ارتكاب نهيه محاربة ، وقيل: التقدير: يحاربون عباد الله ، ففي الكلام حذف مضاف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ تبيين للحرابة ، أي: ويسعون بحرابتهم ، ويحتمل أن يكون المعنى: ويسعون فساداً منضافاً إلى الحرابة ، والرابط إلى هذه الحدود إنما هو الحرابة.

وقرأ الجمهور: ﴿يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ﴾ بالتثقيل في هذه الأفعال للمبالغة والتكثير ، والتكثير هنا إنما هو من جهة عدد الذي يوقع بهم ، كالتذبيح في بني إسرائيل في قراءة مَنْ ثَقَّل: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[(٢)] ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن محيصن: [يُقْتَلوا ـ يُصْلَبوا ـ تُقْطَع] بالتخفيف في الأفعال الثلاثة.

وأمّا قتل المحارب فبالسيف ضربة العنق ، وأما صلبه فجمهور من العلماءِ على أنه يصلب حياً ويقتل بالطعن على الخشبة ، وروي هذا عن مالك ، وهو الأظهر من الآية ، وهو الأنكى في النكال ، وأما القطع: فاليد اليمنى من الرسغ ، والرجل الشمال

(١) البقرة: ١٩٦.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الآية (٤٩).



من المفصل. وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقطع اليد من الأَصابع ، ويُبقي الكف ، والرِّجل من نصف القدم ، ويُبقي العقب.

واختلف العلماءُ في النفي ـ فقال السدي: هو أَن يطلب أَبداً بالخيل والرجل حتى يؤْخذ فيقام عليه حدُّ الله ، أَو يخرج من دار الإسلام ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: نفيُه أَن يطلب. وقاله أَنس بن مالك ، وروي ذلك عن الليث ومالك بن أَنس ، غير أَن مالكاً قال: لا يضطر مسلم إِلى دخول دار الشرك. وقال سعيد بن جبير: النفي من دار الإسلام إِلى دار الشرك ، وقالت طائفة من العلماءِ منهم عمر بن عبد العزيز: النفي في المحاربين أَن ينفوا من بلد إِلى غيره مما هو قاص بعيد ، وقال الشافعي بنفيه من عَمَله ، وقال أَبو الزناد: كان النفي قديماً إِلى دَهْلَك وبَاضِع ، وهما من أَقصى اليَمَن. وقال أَبو حنيفة ، وأَصحابه ، وجماعة: النفي في المحاربين السجن ، فذلك إِخراجهم من الأَرض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن الأَرض في هذه الآية هي أَرض النازلة ، وقد جُنِّب الناسُ قديماً الأَرض التي أَصابوا فيها الذنوب ، ومنه حديث الذي ناءَ بصدره نحو الأَرض المقدسة[١] ، وينبغي للإمام إِن كان هذا المحارب المنفي مخوف الجانب يُظن أَنه يعود إِلى حرافة وإِفساد أَن يسجنه في البلد الذي يغرب إِليه ، وإِن كان غير مخوف الجانب ترك مسرحاً ، وهذا هو صريح مذهب مالك: أَن يغرب ويسجن حيث يغرب ، وهذا هو الأغلب في أَنه مخوف ، ورجحه الطبري ، وهو الواضح لأَن نفيه من أَرض النازلة أَو الإِسلام هو نص الآية ، وسَجْنه بعْدُ بحسب الخوف منه ، فإِذا تاب وفهم حاله سرح.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ ﴾ إشارة إِلى هذه الحدود التي توقع بهم. وغلظ الله الوعيد في ذنب الحرابة بأَن أَخبر أَن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً مع العقوبة في الدنيا ، وهذا خارج عن المعاصي الذي في حديث عبادة بن الصامت في قول النبي ﷺ: «فمن أَصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفَّارة له».

---

(١) قال في النهاية: «في حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً (فناء بصدره) أي: نهض ، ويَحْتَمل أنه بمعنى نأَى ، أي: بَعُد ، يقال: ناءَ ونأَى بمعنى». (٥ ـ ١٢٣).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون الخزي لمن عُوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا، ويجري هذا الذنب مجرى غيره، وهذا الوعيد مشروط الإنفاذ بالمشيئة[1]، أَما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعد وعظم الذنب، والخزي في هذه الآية: الفضيحة والذل والمقت.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استثنى عز وجل التائب قبل أَن يُقدر عليه، وأَخبر سقوط حقوق الله عنه بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. واختلف الناس في معنى الآية ـ فقال قتادة، والزهري في كتاب «الأَشراف»: ذلك لأَهل الشرك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

من حيث رأَيا الوعيد بعد العقاب، وهذا ضعيف، والعلماءُ على أَن الآية في المؤمنين، وأَن المحارب إِذا تاب قبل القدرة عليه فقد سقط عنه حكم الحرابة، ولا نظر للإِمام فيه إِلا كما ينظر في سائر المسلمين، فإِن طلبه أَحدٌ بدمٍ نظر فيه وأَقاد منه إِذا كان الطالب وليّاً، وكذلك يتبع بما وجد عنده من مال الغير وبقيمة ما استهلك من الأَموال، هذا قول مالك، والشافعي، وأَصحاب الرأْي. ذكره ابن المنذر. وقال قومٌ من الصحابة والتابعين: إِنه لا يطلب من المال إِلا بما وجد عنده بعينه، وأَما ما استهلك فلا يطلب به. وذكر الطبري ذلك عن مالك من رواية الوليد بن مسلم عنه، وهو الظاهر من فعل علي بن أَبي طالب رضي الله عنه بحارثة بن بدر الغداني، فإِنه كان محارباً ثم تاب قبل القدرة عليه، فكتب له بسقوط الأَموال والدم كتاباً منشوراً، وحكى الطبري عن عروة بن الزبير أَنه لا تقبل توبة محارب، ولو قبلت لاجترؤوا وكان فساد كثير، ولكن لو فرَّ إِلى العدوّ ثم جاءَ تائباً لم أَر عليه عقوبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لا أَدري، هل أَراد ارتد أَم لا. وقال الأَوزاعي نحوه إِلا أَنه قال: إِذا لحق بدار الحرب فارتد عن الإِسلام أَو بقي عليه ثم جاءَ تائباً من قبل أَن يقدر عليه، قبلت توبته.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح من هذا كله مذهبُ الفقهاءِ الذي قرَّرْته آنفاً ، أَن حكم الحرابة يسقط ، ويبقى كسائر المسلمين ، واختلف إِذا كان المال أَقل مما يقطع فيه السارق ـ فقال مالك: ذلك كالكثير ، وقال الشافعي وأَصحاب الرأْي: لا يقطع من المحاربين إِلا مَنْ أَخذ ما يقطع فيه السارق.

قوله عز وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

هذه الآية وعظٌ من الله تعالىٰ بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين ، وهذا من أَبلغ الوعظ ، لأَنه يَرِدُ على النفوس وهي خائفة وجلة ، وعادة البشر إِذا رأَى وسمع أَمْرَ مُمْتَحِنٍ ببشيع المكاره ـ أَنْ يرقَّ ويخشع ، فجاءَ الوعظ في هذه الحال.

﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ ﴾ معناه: اطلبوا ، و﴿ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ القربة وسبب النُّجح في المراد ، ومن ذلك قول عنترة لامرأَته:

إِنَّ الـــرِّجَــالَ لَهُــمْ إِلَيْــكِ وَسيلــة ... أَنْ يَــأْخـذوكِ تَكَحَّلـي وَتَخضَّبـي

وأَما الوسيلة المطلوبة لمحمد ﷺ فهي أَيضاً من هذا ، لأَن الدعاءَ له بالوسيلة والفضيلة إِنما هو أَن يؤتاهما في الدنيا ، ويتصف بهما ، ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيع في المقام المحمود ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الواشونَ عُدنا لِوَصْلِنا ... وعــادَ التَّصــافـي بَيْنَنَـا والـوسـائـلُ

أنشده الطبري.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ خصَّ الجهاد بالذكر لوجهين: أَحدهما نباهته في أَعمال البرِّ ، وأَنه قاعدة الإِسلام ، وقد دخل بالمعنى في قوله: ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ ، ولكن خصَّه تشريفاً. والوجه الآخر أَنها العبادة التي تصلح لكل منهي عن



المحاربة، وهو مُعَدٌّ لها من حاله وسِنه وقوته وشِرَّة نفسه، فليس بينه وبين أن ينقلب إلى الجهاد إلا توفيق الله تعالىٰ.

واللام في قوله: ﴿لِيَفْتَدُوا﴾ لام (كي).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُقُبِّلَ﴾ بضم التاءِ والقاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ يزيد بن قطيب: [تَقَبَّل] بفتحها على معنى: ما تَقَبَّل الله.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ إخبار عن أنهم يتمنون هذا في قلوبهم، وفي غير ما آية أنهم ينطقون عن هذه الإرادة. وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا فارقت بهم النار قربوا من حاشيتها فحينئذ يريدون الخروج، ويطمعون به، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تأول قوم هذه الإرادة أنها بمعنى (يَكَادُونَ) على هذا القصص الذي حكى الحسن، وهذا لا ينبغي أن يُتَأول إلا فيما لا تتأتى معه الإرادة الحقيقية، كقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾(١)، وأما في إرادة بني آدم فلاَ، إلاَّ على تجوز كثير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْرُجُوا﴾ بفتح الياء وضم الراءِ، وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم النَّخَعي: [يُخرجوا] بضم الياء وفتح الراء.

وأخبر تعالىٰ عن هؤلاءِ الكفار أنهم ليسوا بخارجين من النار، بل عذابهم فيها مقيم مُتأبد، وحكى الطبري عن نافع بن الأزرق الخارجي أنه قال لابن عباس: يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ فقال له ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه الآية في الكفار.

قوله عز وجل:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

قرأ جمهور القراءِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالرفع. وقرأ عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة: [والسَّارقَ والسَّارقَةَ] بالنصب. قال سيبويه رحمه الله: الوجه في

(١) من قوله تعالىٰ في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ الآية (٧٧).



كلام العرب النصب ، كما تقول: زيداً اضربه ، ولكن أبت العامَّةُ إلا الرفع ـ يعني عامةَ القراءِ وجُلَّهم ـ قال سيبويه: الرفع في هذا وفي قوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾[1] ، وفي قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ ﴾[2] هو على معنى: فيما فُرض عليكم.

والفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ ﴾ ردَّت المستقبل غير مستقبل ، لأَن قوله: «فيما فرض عليكم السارق» جملة حقها وظاهرها الاستقلال ، لكن المعنى المقصود ليس إلا في قوله: ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ ﴾ فهذه الفاءُ هي التي ربطت الكلام الثاني بالأَول ، وأَظهرت الأَول هنا غير مستقل ، وقال أَبو العباس المبرد ، وهو قول جماعة من البصريين: أَختار أَن يكون ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ رفعاً بالابتداءِ ، لأَن القصد ليس إِلى واحد بعينه ، فليس هو مثل قولك: «زيداً فاضربه» ، إِنما هو كقولك: «من سرق فاقطع يده» ، قال الزجاج: هو المختار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَنزل سيبويه النوع السارق منزلة الشخص المعيّن ، وقرأَ عبد الله بن مسعود ، وإِبراهيم النَّخَعي: [والسَّارِقونَ والسَّارِقاتُ فاقْطَعُوا أَيْمَانَهُم] ، وقال الخفاف ، وجدت في مصحف أُبي بن كعب: «والسُّرَّق والسُّرَّقة» هكذا ضبطاً ، بضم السين المشددة وفتح الراءِ المشددة فيهما ، هكذا ضبطهما أَبو عمرو.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن يكون هذا تصحيفاً من الضابط ، لأَن قراءَة الجماعة إِذا كتب [السَّارق] بغير أَلف وافقت في الخط هذه.

وأَخذُ ملك الغير يتنوع بحسب قرائنه ، فمنه الغَصب ، وقرينته عِلْم المغصوب منه وقت الغصْب ، أَو عِلْم مُشاهد غيره. ومنه: الخيانة ، وقرينتها أَن الخائن قد طرق إِلى المال بتصرف مَّا ، ومنه: السَّرقة ، وقرائِنُهَا أَنْ يؤْخذ مال لم يطرق إِليه على غير عِلْم من المسروق ماله ، وفي خفاءٍ من جميع الناس فيما يرى السارق ، وهذا هو الذي

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ الآية (٢).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ الآية (١٦).

يجب عليه القطع وحده من بين أخذة الأموال لخبث هذا المنزع، وقلَّة العذر فيه. وحاط الله تعالىٰ البشر على لسان نبيه بأَن القطع لا يكون إلا بقرائن: منها الإخراج من حرز، ومنها القدر المسروق على اختلاف أَهل العلم فيه، ومنها أَن يعلم السارق بتحريم السرقة، وأَن تكون السرقة فيما يَحِلُّ مِلكه، فلفظ ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ في الآية عموم معناه الخصوص.

فأَما القدْر المسروق ـ فقالت طائفة: لا قطع إلا في ربع دينار فصاعداً، قال به عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي، وعائشة، عمر بن عبد العزيز، والأَوزاعي، والليث، والشافعي، وأَبو ثور، رضي الله عنهم وفيه حديث عن النبي ﷺ أَنه قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً»(١). وقال مالك رحمه الله: تقطع اليد في ربع دينار أَو ثلاثة دراهم، فإن سرق درهمين ـ وهي ربع دينار ـ لانحطاط الصرف لم يقطع، وكذلك العروض لا يقطع فيها إلا أَن تبلغ ثلاثة دراهم قلَّ الصرف أَو كثُر، وقال إِسحاق بن راهويه، وأَحمد بن حنبل: إن كانت قيمة السلعة ربع دينار أَو ثلاثة دراهم قطع فيهما قلَّ الصرف أَو كثُر، وفي القطع قول رابع وهو أَن لا قطع إلا في خمسة دراهم أَو قيمتها، روي هذا عن عمر، وبه قال سليمان بن يسار، وابن أَبي ليلى، وابن شبرمة. ومنه قول أَنس بن مالك: «قَطَع أَبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذا على أَن الخمسة حدٌّ.

وقال أَبو حنيفة وأَصحابه، وعطاء: لا قطع في أَقل من عشرة دراهم، وقال أَبو هريرة، وأَبو سعيد الخدري: لا تقطع اليد في أَقل من أَربعة دراهم، وقال عثمان البتي: تقطع اليد في درهم فما فوقه(٢)، وحكى الطبري أَن عبد الله بن الزبير قطع في درهم، وروي عن الحسن بن أَبي الحسن أنه قال: تقطع اليد في كل ماله قيمة قلَّ أو

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) في بعض النسخ: «في درهمين فما فوقهما»، والصواب ما في النسخة التي اعتمدنا ما فيها لموافقته لما في القرطبي والبحر.



كثُر على ظاهر الآية ، وقد حكى الطبري نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهوقول أَهل الظاهر ، وقول الخوارج ، وروي عن الحسن أَيضاً أَنه قال: تذاكرنا القطع في كم يكون على عهد زياد فاتفق رأْينا على درهمين ، وأَكثر العلماءِ على أَن التوبة لا تُسقط عن السارق القطع ، وروي عن الشافعي أَنه إِذا تاب قبل أَن يقدر عليه وتمتد إِليه يد الأَحكام فإِن القطع يسقط عنه قياساً على المحارب ، وجمهور الناس على أَن القطع لا يكون إِلا على من أَخرج من حرز. وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا جمع الثياب في البيت قطع وإِن لم يخرجها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ جمع الأَيدي من حيث كان لكل سارق يمين واحدة وهي المعروضة للقطع في السرقة أَولا ، فجاءَت للسراق أَيد وللسارقات أَيد ، فكأَنه قال: اقطعوا أَيمان النوعين ، فالتثنية في الضمير إِنما هي للنوعين. قال الزجاج عن بعض النحويين: إِنما جعلت تثنية ما في الإِنسان منه واحد جمعاً كقوله: ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[1] لأَن أَكثر أَعضائه فيه منه اثنان. فَحُمِل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك ، قال أَبو إِسحاق: وحقيقة هذا الباب أَن ما كان في الشيءِ منه واحد لم يُثَنَّ ولُفظ به على لفظ الجمع لأَن الإِضافة تبينه ، فإِذا قلت: أَشبعت بطونهما ـ علم أَن للاثنين بطنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنهم كرهوا تثنيتين في كلمة.

واختلف العلماءُ في ترتيب القطع ، فمذهب مالك رحمه الله ، وجمهور الناس أَن تقطع اليمنى من يدي السارق ، ثم ـ إِنْ عاد ـ قطعت رجله اليسرى ، ثم ـ إِنْ عاد ـ قطعت يده اليسرى ، ثم ـ إِن عاد ـ قطعت رجله اليمنى ، ثم إِن سرق عزِّر وحبس. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والزهري ، وحماد بن أَبي سليمان ، وأَحمد بن حنبل: تقطع يده اليمنى ، ثم ـ إِن سرق ـ قطعت رجله اليسرى ، ثم ـ إِن سرق ـ عزِّر وحبس. وروي عن عطاء بن أَبي رباح: لا تقطع في السرقة إِلا اليد اليمنى فقط ، ثم ـ إِن سرق ـ عُزِّر وحبس.

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الآية (٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسك بظاهر الآية، والقول شاذٌّ، فيلزم ـ على ظاهر الآية ـ أَن تقطع اليد ثم اليد. ومذهب جمهور الفقهاءِ أَن القطع في اليد من الرسغ، وفي الرجل من المفصل، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَن القطع في اليد من الأَصابع، وفي الرجل من نصف القدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ نصبه على المصدر، وقال الزجاج: مفعول لأَجله، وكذلك: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾. والنَّكال: العذاب، والنِّكْلُ: القيد. وسائر معنى الآية بيِّن، وفيه عن بعض الأَعراب حكاية.

قوله عز وجل:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾.

المعنى عند جمهور أَهل العلم أَن من تاب من السرقة فندم على ما مضى، وأَقلع في المستأْنف، وأَصلَح ـ بِرَدِّ الظُّلامة إن أَمكنه ذلك، وإلا فبإِنفاقها في سبيل الله ـ وأَصْلح أَيضاً في سائر أَعماله، وارتفع إِلى فوق، فإِن الله يتوب عليه، ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبين الله تعالىٰ، وهو في المشيئة مرجُوٌّ له الوعد، وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا من القطع إن اعترف أَو شُهد عليه. وقال مجاهد: التوبة والإِصلاح هي أَن يقام عليه الحدُّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تشديد، وقد جعل الله للخروج من الذنوب بابين، أَحدهما الحدُّ، والآخر التوبة، وقال الشافعي: إِذا تاب السارق، وقَبْل أَن يتلبس الحاكم بأَخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياساً على توبة المحارب.

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الآية توقيف وتنبيه على العلَّةِ الموجبة لإِنفاذ هذه الأَوامر في



المحاربين والسرقة ، والإِخبارِ بهذا التعذيب لقوم والتوبة على آخرين ، وهي[1] مِلكُه تعالىٰ لجميع الأَشياءِ ، فهو بحق الملك ، لا معقب لحكمه ، ولا معترض عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ ، وتقوية لنفسه بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين وبني إسرائيل ، والمعنى: قد وعدناك النصر والظهور عليهم ، فلا يحزنك ما يقع منهم خلال بقائهم.

وقرأَ بعض القراءِ: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياءِ وضم الزاي ، تقول العرب: «حزِن الرجل» بكسر الزاي ، و«حزَنْتُه» بفتحها. وقرأَ بعض القراءِ: [يُحْزِنك] بضم الياءِ وكسر الزاي ، لأَن من العرب من يقول: «أَحزنت الرجل» بمعنى: حَزَنْتُه ، وجعلته ذا حُزْن. وقرأَ الناس: ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾ ، وقرأَ الحر النحوي: [يُسْرِعون] دون أَلف ، ومعنى المسارعة في الكفر: البدار إِلى نصره وإِقامة حججه ، والسعي في إِطفاءِ الإِسلام به.

واختلف المفسرون في ترتيب معنى الآية ، وفيمن المراد بقوله: ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ، وفي سبب نزول الآية ـ فأَما سببها فرُوي عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، وابن عباس رضي الله عنهما ، وجماعة أَنهم قالوا: نزلت هذه الآية بسبب الرجم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَن يهودياً زنى بيهودية ، وكان في التوراة رجم الزناة ، وكان بنو إِسرائيل قد غيروا ذلك ، وردُّوه جَلْداً وتحميم[2] وجوه ، لأَنهم لم يقيموا الرجم على أَشرافهم ، وأَقاموه على صغارهم في القذر ، فاستقبحوا ذلك ، وأَحدثوا حكماً سووا فيه بين الشريف والمشروف ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إِلى المدينة زنى رجل من اليهود بامرأَة ، فروي أَن ذلك كان بالمدينة ، وروي أَنه كان في غير المدينة في يهود الحجاز ، وبعثوا إِلى يهود المدينة ، وإِلى حلفائهم من المنافقين أَن يسأَلوا رسول الله ﷺ: عن النازلة ، وطمعوا بذلك أَن يوافقهم على الجلد والتحميم فيشتد أَمرهم بذلك ، فلما سئل رسول الله ﷺ: عن ذلك نهض في جملة من أَصحابه إِلى بيت

---

(١) تحتاج العبارة إِلى دقة ونظر عند القراءة ، فقوله: (والإخبار) عطف على قوله قبلها: (العِلّةِ) ، والضمير «وهي» يعود على (العلّة).

(٢) التحميم: هو طلاء الوجه بالفحم أو بالقار ، يقال: حممه تحميماً.



المِدْراس[١] ، فجمع الأَحبار هنالك ، وسأَلهم عما في التوراة ، فقالوا: إنا لا نجد فيها الرجم ، فقال رسول الله ﷺ: إن فيها الرجم ، فانشروها ، فنشرت ، ووضع أَحدهم يده على آية الرجم ، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك ، فرفع يده فإِذا آية الرجم ، فحكم رسول الله ﷺ فيها بالرجم وأَنفذه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الحديث اختلاف أَلفاظ وروايات كثيرة[٢] ، منها أَنه روي أَن رسول الله ﷺ مرَّ على يهودي ويهودية زنيا وقد جُلدا وحُمِّما ، فقال: هكذا شرعكم يا معشر يهود؟ فقالوا: نعم ، فقال: لا ، ثم مشى إِلى بيت المِدْراس وفضحهم ، وحكم في ذيْنِك بالرجم ، وقال: لأَكونن أَول من أَحيا حكم التوراة حين أَماتوه. وروي أَن الزانِيَيْن لم يكونا بالمدنية ، وأَن يهود فَدَك هم الذين قالوا ليهود المدينة: استفتوا محمداً ، فإِن أَفتاكم بما نحن عليه من الجلد والتَّجْبية[٣] فخذوه ، وإِن أَفتاكم بالرجم فاحذروا الرجم[٤] ، قاله الشعبي وغيره. وقال قتادة بن دعامة وغيره سبب الآية، وذكر اليهود أَن بني النضير كانوا قد غزوا بني قريظة ، فكان النضري إذا قتله قرظي قتل به ، وإِذا قتل نضري قرظياً أَعطى الدية. وقيل: كانت دية القرظي على نصف دية النضري ، فلما جاءَ النبي ﷺ المدينة طلبت قريظة الاستواءَ ، إِذ هم أَبناءُ عم يرجعان إِلى جدٍّ ، وطلبت الحكومة إِلى رسول الله ﷺ ، فقالت النضير بعضها لبعض: إِن حكم بما كنا عليه فخذوه وإِلا فاحذروا[٥].

---

(١) المِدْراس: هو البيت الذي يدرسون فيه ، وفي (اللسان) أن مِفْعال غريب في المكان ، ومِدْراس أيضاً: صاحب دراسة كتبهم.

(٢) قال القرطبي عن القول بأن الآية نزلت في زنى اليهوديين وقصة الرجم: «وهذا أصح الأقوال» ، وذكر أن هذا الحديث رواه الأئمة: مالك ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود. ولكن هناك اختلافاً في الألفاظ لاختلاف الروايات كما قال ابن عطية.

(٣) قال في اللسان: «وفي حديث حد الزنى ، أنه سأل اليهود عنه فقالوا: عليه التَّجْبية. قال: ما التَّجْبية؟ قالوا: أن تُحمم وجوه الزانيين ويُحملا على بعير أو حمار ويخالف بين وجوههما». أي: يجعل قفا أحدهما إلى قفا الآخر.

(٤) أخرجه الحميدي في مسنده ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ـ عن جابر بن عبد الله. (الدر المنثور).

(٥) أخرجه عبد بن حميد ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾. (الدر المنثور).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه النوازل كلها وقعت، ووقع غيرها مما يضارعها ويحسن أن يكون سبباً لفضيحة اليهود في تحريفهم الكلم وتحرشهم بالدين، والروايات في هذا كثيرة ومختلفة.

وقد وقع في بعض الطرق في حديث أبي هريرة أنه قال في قصة الرجم: «فقام رسول الله ﷺ إلى بيت مِدْراسهم وقمنا معه»، وهذا يقتضي أن الأمر كان في آخر مدة النبي ﷺ، لأن أبا هريرة أسلم عام خيبر في آخر سنة ستٍّ من الهجرة، وقد كانت النضير أُجْليت وقريظ وقريش قتلت، واليهود بالمدينة لا شيءَ، فكيف كان لهم بيت مِدْراس في ذلك الوقت؟ أو إن كان لهم بيت على حال ذلَّةٍ فهل كان النبي ﷺ يحتاج ـ مع ظهور دينه ـ إلى محاجتهم تلك المحاجة؟ وظاهر حديث بيت المدراس أنه كان في صدر الهجرة، اللهم إلا أن يكون ذلك من النبي ﷺ مع عزَّةِ كلمته مِنْ حيث أراد أن يخرج حكمهم منْ أيدي أحبارهم بالحجة عليهم من كتابهم، فلذلك مشى إلى بيت مِدْراسهم مع قدرته عليهم، وهذا عندي يبعد، لأنهم لم يكونوا ذلك الوقت يَحْزُنونه، ولا كان لهم حال يُسَلِّي عنها ﷺ.

وأما اختلاف الناس فيمن المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ ـ فقال السدي: نزلت في رجل من الأنصار زعموا أنه أبو لبابة بن عبد المنذر أشارت إليه قريظة يوم حصرهم: ما الأمر؟ وعلام ننْزِلُ من الحكم؟ فأشارَ إلى حلقه بمعنى أنه الذبح[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأبو لبابة من فضلاءِ الصحابة، وهو وإن كان أشار بتلك الإشارة فإنَّه قال: «فوالله ما زالت قدماي حتى علمت أني خُنت الله ورسوله»، ثم جاءَ إلى مسجد النبي ﷺ، فربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه، ويرضى رسول الله ﷺ عنه، فإنما كانت تلك الإشارة منه زلة حمله

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن السدي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ (الدر المنثور).



عليها إِشفاقٌ مَّا على قوم كانت بينه وبينهم مودة ومشاركة قديمة ، رضي الله عنه وعن جميع الصحابة.

وقال الشعبي وغيره: نزلت الآية في قوم من اليهود أَرادوا سؤال النبي ﷺ في أَمر رجل منهم قتل آخر ، فكلفوا السؤال رجلاً من المسلمين وقالوا: إِن أَفتى بالدية قبلنا قوله ، وإِن أَفتى بالقتل لم نقبل[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما تقدم عن قتادة في أَمر قتل النضير وقريظة.

وقال عبد الله بن كثير ، ومجاهد ، وغيرهما: قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ يراد به المنافقون ، وقوله بعد ذلك: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يراد به اليهود.

وأَما ترتيب معنى الآية بحسب هذه الأَقوال:

فيحتمل أَن يكون المعنى: يا أَيها الرسول لا يحزنك المسارعون في الكفر من المنافقين واليهود ، ويكون قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر.

ويحتمل أَن يكون المعنى: لا يحزنك المسارعون في الكفر من اليهود ، ووصفهم بأَنهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ إِلزاماً منه لهم من حيثُ حرفوا توراتهم وبدلوا أَحكامها. فهم يقولون بأَفواهم: نحن مؤمنون بالتوراة وبموسى ، وقلوبهم غير مؤمنة ، من حيث بَدَّلوها ، وجحدوا ما فيها من نبوة محمد ﷺ وغير ذلك مما هو كفر منهم. ويؤيد هذا التأْويل قوله بعد هذا: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ويجيءُ ـ على هذا التأْويل ـ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ كأَنه قال: «ومنهم» ، لكن صرَّح بذكر اليهود من حيث الطائفةُ السَّماعة غيرُ الطائفة التي تبدل التوراة على علم منها.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ ، وقرأَ النحاس: [سَمَّاعين] ، ووجهها عندي نصب على الذم على ترتيب من يقول: لا يحزنك المسارعون من هؤلاءِ سماعين ، وأَما المعنى في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ فيحتمل أَن يكون صفة للمنافقين ولبني إِسرائيل ، لأَن جميعهم يسمع الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه ،

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ـ عن عامر الشعبي. (الدر المنثور).



ولذلك جاءَت عبارة سماعهم في صيغة المبالغة ، إذ المراد أنهم يقبلون ويستزيدون من ذلك المسموع ، وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ يحتمل أَن يريد: سماعون للكذب ، ويحتمل أَن يريد: سماعون منك أقوالك من أَجل أَن يكونوا عليك ، وينقلوا حديثك ، ويزيدوا مع الكلمة أَضعافها كذباً. وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر: [لِلْكِذْب] بكسر الكاف وسكون الذال.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يحتمل أَن يريد: يسمعون منهم ، وذكر الطبري عن جابر أَن المراد بالقوم الآخرين يهود فدك ، وقيل: يهود خيبر ، وقيل: أهل الزانيَيْن ، وقيل: أَهل الخصام في القتل والدية. وهؤلاءِ القوم الآخرون هم الموصوفون بأَنهم لم يأْتوا النبي ﷺ ، ويحتمل أَن يكون بمعنى: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ﴾ بمعنى جواسيس مُسْتَرقين لكلام لينقلوه لقوم آخرين ، وهذا مما يمكن أَن يتصف به المنافقون ويهود المدينة. وقيل لسفيان بن عُيَيْنَة: هل جرى للجاسوس ذكر في كتاب الله عز وجل؟ فقال: نعم ، وتلا هذه الآية: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

قوله عز وجل:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾.

قرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام ، وقرأَ بعض الناس: [الكِلْم] بكسر الكاف وسكون اللام ، وهي لغة ضعيفة في (كَلِمة).

وقوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ صفة لليهود فيما حرفوا من التوراة ، إذ ذاك أَخطر أَمر حرفوا فيه ، ويحتمل أَن يكون صفة لهم وللمنافقين فيما يحرفون من الأَقوال عند كذبهم ، لأَن مبادئ كذبهم لا بُدَّ أَن تكون من أَشياءَ قيلت أَو فعلت ، وهذا هو الكذب المُزَيَّن الذي يَقْرُب قبوله. وأَما الكذب الذي لا يُرْفد[1] بمبدإٍ فقليل الأَثر في النفوس.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أَي: من بعد أَن وضع مواضعه وقصدت به وجوهه

(١) يقال: رَفَدَه رِفْداً ورفادةً: دعمه برفادةٍ ، وهي: الدعامة. والمراد: تقويته بمبدأ.



القويمة، والإشارة بهذا ـ قيل: هي إلى التحميم والجَلْد في الزنى. وقيل: هي إلى قبول الدِّية في أمر القتل، وقيل: إلى إبقاءِ عِزَّة النضير على قريظة، وهذا بحسب الخلاف المتقدم في الآية.

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه على جهة قطع الرجاءِ فيهم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أَي: لا تُتْبع نفسك أمرهم، والفتنة هنا: المحنة بالكفر والتعذيب في الآخرة، ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم الذين سبق لهم في علم الله أَلا يطهر قلوبهم، وأَن يكونوا مُدَنَّسين بالكفر، ثم قرر تعالىٰ لهم الخزي في الدنيا، والمعنى: بالذلة والمسكنة التي انضربت عليهم في أقطار الأَرض، وفي كل أُمة، وقرر لهم العذاب في الآخرة بكفرهم.

وقوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، إن كان الأَول في بني إسرائيل فهذا تكرار تأْكيد ومبالغة، وإن كان الأَول في المنافقين فهذا خبر أَيضاً عن بني إسرائيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ فعَّالون بناءُ مبالغة، أَي: يتكرر أَكلهم له ويكثر. والسُّحْتُ: كل ما لا يحلُّ كسبه من المال. وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ ساكنة الحاءِ خفيفة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: [السُّحُت] مضمومة الحاءِ مثقلة، وروي عن خارجة بن مصعب عن نافع: [السِّحْت] بكسر السين وسكون الحاءِ، واللفظة مأْخوذة من قولهم: سَحَت وأَسْحَت: إذا استأْصل وأَذهب، فمن الثلاثي قوله تعالىٰ: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾(١). ومن الرباعي قول الفرزدق:

. . . . إلاَّ مُسْحَتـــاً أَوْ مُجَلَّـــف(٢)

والسُّحْت والسُّحُت ـ بضم السين وتخفيف الحاءِ وتثقيلها ـ: لغتان في اسم الشيءِ

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ الآية (٦١).

(٢) البيت كاملاً:

وعَــضُّ زمــانٍ يــا بْــنَ مَــرْوانَ لَــمْ يَــدَعْ ... مِــنَ المــالِ إلا مُسْحَتــاً أوْ مُجَلَّــفُ

قال في (اللسان): أسحت رأسه: استأصله حلقاً، وأسحت ماله: استأصله وأفسده»، وروى البيت، ثم قال: ويروى: «إلا مسحتٌ أو مجلفٌ»، ومن رواه كذلك جعل معنى: «لم يدع»: لم يتَقَارّ، ومن رواه: إلا مُسْحتاً» جعل: «لم يدع» بمعنى: لم يَتْرُكْ. ورفع قوله: «أوْ مُجَلَّفٌ» بإضمار، كأنه قال: أو هو مُجَلَّفٌ. قال الزهري: وهذا هو قول الكسائي.



المسحوت. والسُّحْت ـ بفتح السين وسكون الحاءِ ـ: المصدر، سُمِّي به المسحوت، كما سُمي المصيد صيداً في قوله عز وجل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[1]، وكما سمي المرهون رهناً ـ وهذا كثير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فسمي المال الحرام سحتاً لأَنه يذهب وتستأْصله النوب، كما قال عليه السلام: «من جمع مالاً من مهاوش أَذهبه الله في نهابير»[2]، وقال مكي: سمي المال الحرام سحتاً لأَنه يذهب من حيث يسحت الطاعات، أَي: يذهب بها قليلا قليلا، وقال المهدوي: من حيث يسحت أَديانهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود، لأَن السيئات لا تحبط الحسنات، اللهم إِلاَّ أَن يقدر أَنه يشغل عن الطاعات، فهو سحتها من حيث لا تعمل، وأَما طاعةٌ حاصلة فلا يقال هذا فيها، وقال المهدوي: سمي أَجر الحجَّام سحتاً لأَنه يسحت مُرُوَّة آخذه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَشبه.

قال الطبري: أَصل السحت كَلَبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة إِذا كان لا يُلْفَى أَبداً إِلا جائعاً يذهب ما في معدته، فكان الذي يرتشي به من الشره مثل ما بالجائع أَبداً لا يشبع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك بأَن الرشوة تنسحت، فالمعنى هو كما قدمناه، وفي عبارة الطبري بعض اضطراب، لأَن مسحوت المعدة هو مأْخوذ من الاستئصال والذهاب، وليس كَلَب

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) في (اللسان) وفي (النهاية): نهاوش بالنون ـ هي المظالم من قولهم: نهشه إذا جهده فهو منهوش. وفي رواية: مَهَاوِش بالميم ـ وهو: كل مال أُصيب من غير حِلّه ولا يُدْرى ما وجهه. والهُواشُ بالضم: ما جمع من مال حرامٍ وحلالٍ، كأنه جمع مَهْوَش من الهَوْش: الجمع والخلط، والميم زائدة. والنهابر: المهالك والأمور المتبددة، وواحد النهابر: نهبور (النهاية) أما الحديث فقد جاء عنه في تمييز الطيب من الخبيث: مرسل ضعيف وفيه متروك، وقال التقي السبكي: لا يصح.



الغرث أَصلا للسحت ، والسحتُ الذي عني أَن اليهود يأكلونه هو الرشا في الأَحكام ، والأَوقاف التي تؤكل ويُرفد أَكْلُها بقول الأَباطيل وخدع العامة ونحو هذا.

وقال أَبو هريرة ، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: مَهْر البغي سُحت ، وعُسْبُ[1] الفحل سُحْت ، وكسْبُ الحَجَّام[2] سُحْت ، وثمن الكَلْب والخمر سحت. وقال ابن مسعود: السحت أَن يهدي لك من قد أَعنته في حاجته أَو حقه فَتَقْبَل ، قيل لعبد الله: ما كنا نَعُدُّ السحت إِلا الرشوة في الحكم ، قال: ذلك الكفر ، وقد روي عن ابن مسعود ، وجماعة كثيرة أَن السحت هو الرشوة في الحكم ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «كل لحم نَبَتَ من سحت فالنار أَولى به» ، قيل: يا رسول الله ، ما السحت؟ قال: الرشوة في الحكم[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل ما ذكر في معنى السحت فهو أمثلة ، ومن أعظمها الرشوة في الحكم ، والأُجرة على قتل النفس ، وهو لفظ يعم كل كسب لا يحل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير للنبي ﷺ ، ولحكام أُمته بعده في أَن يحكم بينهم إذا تراضوا في نوازلهم ، وقال عكرمة ، والحسن: هذا التخيير منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. وقال ابن عباس ، ومجاهد: نُسخ من (المائدة) آيتان ، قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ ، نسختها آية السيف ، وقوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ، نسختها: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال كثير من العلماءِ: هي محكمة ، وتخيير الحكام باق ، وهذا هو الأَظهر إِن شاءَ الله.

وفِقْه هذه الآية أَن الأُمة فيما علمتُ مجمعة على أَن حاكم المسلمين يحكم بين أَهل

---

(١) عُسَبْ الفحل ـ بضم العين وبفتحها ـ ماؤها ـ والمراد أن أخذ الأجر عليه حرام. (المعجم الوسيط).

(٢) الحجَّام: صاحب حرفة الحجامة ، وهي: امتصاص للدم من الجسم بالمحجم. وقد قال القرطبي: إن كسب الحجام حلال طيب.
وروى حديث أنس: احتجم رسول الله ﷺ ، حجمه أبو طيبة ، فأمر له بصاع من تمر.. إلخ.

(٣) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه ـ عن ابن عمر. (الدر المنثور).

الذمة في التظالم ، ويتسلط عليهم في تغييره ، وينفِّر عن صورته كيفَ وقع فيغير ذلك ، ومن التظالم حبس السلع المبيعة ، وغصْب المال ، وغير ذلك. فأَما نوازل الأَحكام التي لا ظلم فيها من أَحدهم للآخر ، وإِنما هي دعاوي محتملة ، وطلب ما يحل وما لا يحل ، وطلب المخرج من الإِثم في الآخرة ، فهذه هي التي الحاكم فيها مُخَيَّر ، وإِذا رضي به الخصمان فلا بد مع ذلك من رضى الأَساقفة أَو الأَحبار ، قاله ابن القاسم في العتبية. قال: وأَما إِن رضي الأَساقفة دون الخصمين ، أَو الخصمان دون الأَساقفة ، فليس له أَن يحكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وانظر إِن رضي الأَساقفة لأَشكال النوازل عندهم دون أَن يرضى الخصمان ، فإِنها تحتمل الخلاف ، وانظر إِذا رضي الخصمان ولم يقع من الأَحبار نَكيرٌ فحَكَمَ الحاكم ، ثم أَراد الأَحبار ردَّ ذلك الحكم ، وهل تستوي النوازل في هذا ، كالرجم في زانيَيْن ، والقضاءِ في مال يصير من أَحدهما إِلى الآخر؟ وانظر إِذا رضي الخصمان هل على الحاكم أَن يستعلم ما عند الأَحبار ، أَو يقنع بأَن لم تقع منهم معارضة؟ ومالك رحمه الله يستحب لحاكم المسلمين الإِعراض عنهم وتركهم إِلى دينهم. وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يعني أَهل نازلة الزانيَيْن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم الآية بعد تتناول سائر النوازل.

قوله عز وجل:

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أَمَّن الله تعالىٰ نبيه ﷺ من ضررهم إِذا أَعرض عنهم ، وحقَّر في ذلك شأْنهم ،



والمعنى: إنك منصور ظاهر الأمر على كل حال، وهذا نحوٌ من قوله تعالىٰ للمؤمنين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾[1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: اخترت أن تحكم بينهم في نازلةٍ ما، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، يقال: أَقْسَطَ الرجل: إذا عدل وحكم بالحق، وقَسَط: إذا جار، ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. ومحبَّة الله للمقسطين ما يظهر عليهم من نعمة.

ثم ذكر الله تعالىٰ بعد تحكيمهم للنبي ﷺ بالإخلاص منهم، ويبين بالقياس الصحيح أنهم لا يحكمونه إلا رغبةً في ميله في هواهم، وانحطاطه في شهواتهم، وذلك أنه قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ بنيّة صادقة وهم قد خالفوا حكم الكتاب الذي يصدقون به، وبنبوّةِ الآتي به، وتولَّوا عن حكم الله فيهما؟ فأنت الذي لا يؤمنون بك، ولا يصدقونك، أحرى بأن يخالفوا حكمك. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد حكم الله في التوراة في الرجم، وما أشبهه من الأُمور التي خالفوا فيها أمر الله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالتوراة وبموسى، وهذا إلزامٌ لهم، لأن من خالف حُكم كتاب الله فدعواه الإيمان به قلقةٌ. وهذه الآية تُقوِّي أن قوله في صدر الآية: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أنه يراد به اليهود.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الآية ـ قال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول ـ لما نزلت هذه الآية ـ: «نحن اليوم نحكم على اليهود وعلى من سواهم من أهل الأديان»[2] والهدى: الإرشاد في المعتقد والشرائع، والنورُ: ما يستضاءُ به من أوامرها ونواهيها، و﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ هم مَن بُعث من لدن موسى بن عمران إلى مدة محمد ﷺ، هذان طرفا هذه الجماعة المذكورة في هذه الآية، و﴿أَسْلَمُوا۟﴾ معناه: أخلصوا وجوههم ومقاصدهم لله تعالىٰ، وقوله تعالىٰ ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلق

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ الآية (١١١).

(٢) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ...﴾ قال: «أما الربانيون ففقهاء اليهود، وأما الأحبار فعلماؤهم، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: لما أُنزلت هذه الآية»، وساق بقية الحديث كما رواه ابن عطية. (الدر المنثور).



بـ ﴿ يَحْكُمُ ﴾ ، أي: يحكمون بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ عطف على ﴿ ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ ، أي: ويحكم بها الرَّبانيُّونَ ، وهم العلماءُ. وفي البخاري قال: الرَّبَّاني: الذي يُرَبي الناس بصغار العلم قبل كباره. وقيل: الرباني: منسوب إلى الرب ، أي: عنده العلم به وبدينه ، وزيدت النون في (ربَّاني) مبالغة ، كما قالوا: منْظَراني ، ومَخْبَراني ، وفي العظيم الرقبة: رقَباني. والأحبار أيضاً: العلماءُ ، واحدهم حِبْرٌ بكسر الحاءِ ، ويقال: بفتحها ، وكثر استعمال الفتح فيه للفرق بينه وبين الحبر الذي يكتب به. وقال السدي: المراد ـ هنا ـ بالربانيين والأحبار الذين يحكمون بالتوراة: ابنا صوريا ، كان أحدهم ربانياً ، والآخر حبرا ، وكانا قد أعطيا النبي ﷺ عهداً ألا يسألهما عن شيءٍ من أمر التوراة إلا أخبراه به ، فسألهم عن آية الرجم فأخبراه به على وجهه ، فنزلت الآية مشيرةً إليهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر ، والرواية الصحيحة أن ابْنَيْ صوريا وغيرهم[١] جحدوا أمر الرجم ، وفضحهم فيه عبد الله بن سلام ، وإنما اللفظ عام في كل حبر مستقيم فيما مضى من الزمان. وأما في مدة محمد ﷺ فلو وجد لأسلم ، فلم يُسَمَّ حبراً ولا ربانياً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ ﴾ أي: بسبب استحفاظ الله تعالىٰ إياهم أمر التوراة ، وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها ، وعرفهم ما فيها فصاروا شهداءَ عليه. وهؤلاءِ ضيَّعوا لما استُحفظوا حتى تبدلت التوراة ، والقرآن بخلاف هذا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢] ، والحمد لله ، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ حكاية ما قيل لعلماءِ بني إسرائيل ، وقوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم ، والتَّحيُّل للدنيا بالدين ، وهذا المعنى بعينه يتناول علماءَ هذه الأمة وحكامها ، ويحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ ﴾ إلى آخر الآية خطاباً لأُمة محمد ﷺ.

واختلف العلماءُ في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾:

---

(١) هكذا في كل الأصول. وحتى في (البحر المحيط) نقل كلام ابن عطية بهذا النص فتأمل.
(٢) من قوله من سورة الحجرات: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الآية (٩).



فقالت جماعة: المرادُ اليهودُ بـ [الكافرين ـ والظالمين ـ والفاسقين] ورُوي في هذا حديث عن النبي ﷺ من طريق البراءِ بن عازب(١).

وقالت جماعة عظيمة من أَهل العلم: الآية متناولةٌ كل من لم يحكم بما أَنزل الله، ولكنه في أُمراءِ هذه الأُمة كفر معصية لا يُخرجهم عن الإِيمان(٢).

وقيل لحذيفة بن اليمان: أَنزلتْ هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم الإِخوة لكم بنو إِسرائيل، إِن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مُرَّة، لتسلكن طريقهم قدر الشراك(٣).

وقال الشعبي: نزلت: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في المسلمين، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في اليهود، و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في النصارى(٤).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا أَعلم لهذا التخصيص وجهاً، إِلا إِذا صح فيه حديث عن النبي ﷺ، إِلا أَنه راعى من ذُكر مع كل خبر من هذه الثلاثة، فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إِلا على أَنهم خوطبوا بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾. وقال إِبراهيم النَّخعي: نزلت هذه

---

(١) قال القرطبي: «نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء». وقد أخرج حديث البراء أيضاً ابن جرير، وأخرج مثله من عدة طرق ـ عن أبي صالح، وعن الضحاك، وعن أبي مجلز. (راجع تفسير الطبري ٦ ـ ٢٥٢، ٢٥٣).
ـ وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: الثلاث الآيات التي في المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ـ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ـ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ليس في أهل الإسلام منها شيء، هي في الكفار. (الدر المنثور).

(٢) أخرج سعيد بن منصور، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، (الدر المنثور). وقال طاووس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر. (القرطبي).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه ـ عن حذيفة. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٤) قال القرطبي: «وهذا اختيار أبي بكر بن العربي، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهواختيار ابن عباس، وجابر بن زيد، وابن أبي زائد، وابن شُبْرُمة، والشعبي أيضاً».

الآيات في بني إسرائيل، ثم رضي لهذه الأمة بها[١].

قوله عز وجل:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

الكتب في هذه الآية هو حقيقة كتب في الألواح، وهو بالمعنى كتب فَرض وإلزام. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني إسرائيل، وفي ﴿فِيهَآ﴾ للتوراة.. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ بنصب ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ على اسم ﴿أَنَّ﴾، وعطف ما بعد ذلك منصوباً على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾، ويرفعون [والجروحُ قِصَاصٌ] على أنها جملة مقطوعة. وقرأ نافع وحمزة، وعاصم بنصب ذلك كله، و﴿قِصَاصٌ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾، وروى الواقدي عن نافع أَنَّه رفع [والجروحُ]، وقرأ الكسائي ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ نصباً، ورفع ما بعد ذلك، فمن نصب ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ جعل عطف الواو مشركاً في عمل ﴿أَنَّ﴾، ولم يقطع الكلام ممَّا قبله، ومن رفع [والعَينُ] فيتمثل ذلك من الإِعراب أَن يكون قطع مما قبل، وصار عطف الواو عطف جملة كلام، لا عطف تشريك في عامل، ويحتمل أَن تكون الواو عاطفة على المعنى، لأَن معنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ قلنا لهم: النفس بالنفس، ومثله: لَمَّا كان المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾[٢] يُمنحون كأساً من معين، عطف [وَحُوراً عِيناً] على ذلك، ويحتمل أَن يعطف قوله: [والعَيْنُ] على الذكر المستتر[٣] في

(١) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ ـ عن إبراهيم النَّخَعي ـ وقال في الدر المنثور: وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير ـ عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة.

(٢) الصافات: ٤٥. ولكن يلاحظ أن هذه الآية من سورة الصافات ليس بعدها ما ذكره المؤلف هنا من قوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، وإنما هذا موجود في سورة (الواقعة) لكن نص الآية في الواقعة يختلف عما أثبته النساخ هنا ـ ونرجح أن يكون كلام ابن عطية كالآتي: «لما كان المعنى في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ...﴾ يُمْنَحون كأساً مِنْ معين ـ عطف ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على ذلك، وهذا على قراءة، [وحوراً عيناً] بالنصب ـ. وإلا فلا معنى للتنظير بآية الصافات، والله أعلم.

(٣) أي: الضمير المستتر، والسبب أن المستتر في حكم المذكور.



الطرق الذي هو الخبر ، وإن لم يُؤَكَّد المعطوف عليه بالضمير المنفصل كما أُكِّد في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾(١) ، وقد جاءَ مثله غير مُؤكد في قوله: ﴿ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾(٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولسيبويه رحمه الله في هذه الآية أَن العطف ساغ دون توكيد بضمير منفصل ، لأَن الكلام طال بـِ ﴿ وَلَآ ﴾ في قوله ﴿ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، فكانت ﴿ وَلَآ ﴾ عوضاً من التوكيد ، كما طال الكلام في قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ» ، قال أَبو علي: وهذا يستقيم أَن يكون عِوَضاً إِذا وقع قبل حرف العطف ، فهناك يكون عوضاً من الضميرالواقع قبل حرف العطف ، فأَما إِذا وقع بعدحرف العطف فلا يَسُدُّ مَسَدَّ الضمير ، أَلا ترى أَنك لو قلت: «حضر امرأَة القاضي اليوم» لم يُغْنِ طول الكلام في غير الموضع الذي ينبغي أَن يقع فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكلام سيبويه متجه على النظر النحوي ، وإِن كان الطول قبل حرف العطف أَتم ، فإِنه بعد حرف العطف مُؤَثر ، لا سيما في هذه الآية ، لأَن ﴿ وَلَآ ﴾ ربطت المعنى ، إِذ قد تقدمها نفي ، ونفت هي أَيضاً عن الآباءِ ، فتمكن العطف. قال أَبو علي: ومن رفع [والجروحُ قِصَاصٌ] فقطعه مما قبله ، فإِن ذلك يحتمل هذه الوجوه الثلاثة التي احتملها رفع [والْعَيْنُ]. ويجوز أَن يُستأْنف: [والجُروحُ] ليس على أَنه مما كُتب عليهم في التوراة ، ولكن على استئناف إِيجابٍ وابتداءِ شريعةٍ ، ويُقَوِّي أَنه من المكتوب عليهم نَصْبُ من نصبه. ورَوَى أَنس بن مالك عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [أَنِ النَّفْسُ بالنَّفْسِ] بتخفيف [أَنْ] ورفع [النَّفس] ، ثم رفع ما بعدها إِلى آخر الآية ، وقرأَ أُبي بن كعب

---

(١) الأعراف: ٢٧.

(٢) الأنعام: ١٤٨. وخلاصة ما ذكره في إعراب [والعينُ] مرفوعة ثلاثة آراء هي في الأصل لأبي علي ، الأول: أن الواو عاطفة جملة على جملة ، فجملة [والعينُ بالعين] معطوفة على جملة: ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ ، الثاني: أن الواو عاطفة جملة على المعنى ، وهو ما يسمى عطف التوهم. والثالث: أن تكون الواو عاطفة مفرداً على مفرد ، فتكون [والعينُ] معطوفة على الضمير المستكن في الجار والمجرور قبلها ، وإن لم يؤكد الضمير المعطوف عليه والله أعلم. قال أبو حيان في البحر: والوجهان الأخيران ضعيفان.



بنصب [النَّفس] وما بعدها ، ثم قرأ: «وأَن الجروحُ قِصاصٌ» بزيادة (أَن) الخفيفة ، ورفع [الجروح].

ومعنى هذه الآية الخبرُ بأَن الله تعالىٰ كتب فرضاً على بني إِسرائيل أَنه من قتل نفْساً فيجب في ذلك أَخْذ نفسه ، ثم هذه الأَعضاءُ المذكورة كذلك ، ثم استمر هذا الحكم في هذه الأُمة بما عُلم من شَرْع النبي ﷺ وأَحكامه ، ومضى عليه إِجماع الناس.

وذهب قوم من العلماءِ إِلى تعميم قوله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ فقتلوا الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، والجمهور على أَنه عموم يراد به الخصوص في المتماثلَيْن ، وهذا مذهب مالك ، وفيه الحديث عن النبي ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»[(١)] ، وقال ابن عباس رضي الله عنه: رخَّص الله لهذه الأُمة ووسع عليها بالدِّية ، ولم يجعل لبني إِسرائيل دية فيما نزل على موسى وكتب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إِسرائيل في تعزز بعضهم على بعض ، وكون بني النضير على الضِّعف في الدِّية من بني قريظة ، أَو على أَلا يقاد بينهم ، بل يُقنع بالدِّية ، ففضحهم الله بهذه الآية ، وأَعلم أَنهم خالفوا كتابهم ، وحكى الطبري عن ابن عباس: كان بين حَيَّين من الأَنصار قتال فصارت بينهم قتلى، وكان لأَحدهما طول على الآخر ، فجاءَ النبي ﷺ فجَعَلَ الحرَّ بالحرِّ ، والعبدَ بالعبدِ[(٢)] ، قال الثوري: وبلغني عن ابن عباس أَنه قال: ثم نسختها النفس بالنفس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ هو عموم يراد به الخصوص في جِراح

---

(١) روى أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ـ عن علي رضي الله عنه أنه سئل: هل خصك رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: لا ، إلا ما في هذا. وأخرج كتاباً من قراب سيفه وإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤُهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ولا يُقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده». (عن القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ. . .﴾ إلخ) ، من الذين قالوا بعموم هذه الآية ، وقالوا بقتل المسلم بالذمي لأنه نفس بنفس الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن جرير الطبري من طريق أبي مالك. (تفسير الطبري).



القَود، وهي التي لا يخاف منها على النفس. وأمَّا ما خيف منه كالمأمومة[١] وكسر الفخذ ونحو ذلك فلا قصاص فيها، والقصاص مأخوذ من قصِّ الأَثر، وهو اتباعه، فكأَن الجاني يُقتص أَثره، ويُتَّبع فيما سنَّه، فيُقتل كما قتَل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يحتمل ثلاثة معان ـ أحدهما: أَن تكون [مَنْ] للمجروح أَو وليِّ القتيل، ويعود الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ عليه أَيضاً، ويكون المعنى: إن من تصدق بجرحه أَو دَم وليّه فعفا عن حقه في ذلك، فإِن ذلك العفو كفارة له عن ذنوبه، ويعظم الله أَجره بذلك ويكفر عنه، وقال بهذا التأويل عبد الله بن عمر، وجابر بن زيد، وأَبو الدرداءِ، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلم يُصاب بشيءٍ من جسده فيهبه إِلاَّ رفعه الله بذلك درجة، وحط عنه خطيئة»[٢]. وذكر مكي حديثاً من طريق الشعبي أَنه يحط من ذنوبه بقدر ما عفا من الدِّية، والله أعلم، وقال به أَيضاً قتادة، والحسن.

والمعنى الثاني أَن تكون [مَنْ] للمجروح أَو ولي القتل، والضمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على الجارح أَو القاتل إِذا تصدق المجروح على الجارح بجرحه وصفح عنه، فذلك العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أَن القصاص كفارة، فكذلك العفو كفارة، وأَما أَجر العافي فعلى الله تعالىٰ، وعاد الضمير على مَن لم يتقدم له ذكر لأَن المعنى يقتضيه، قال بهذا التأويل ابن عباس، وأَبو إِسحاق السبيعي، ومجاهد، وإِبراهيم، وعامر الشعبي، وزيد بن أَسلم.

والمعنى الثالث أَن تكون [مَنْ] للجارح أَو القاتل، والضمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود عليه أَيضاً، والمعنى: إِذا جنى جان فجهل وخفي أَمرُه، فتصدق هو بأَن عرَّف بذلك ومكَّن الحق من نفسه فذلك الفعل كفارة لذنبه، وذهب القائلون بهذا التأْويل إِلى الاحتجاج بأَن مجاهد قال: إِذا أَصاب رجل رجلاً ولم يعلم المصاب من أَصابه فاعترف له

---

(١) قال الأصمعي: المأمومة ـ ويقال لها: الآمة ـ: هي الشجَّة التي تبلغ أُمَّ الرأس، يعني الدماغ.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير ـ عن أبي الدرداء قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه، فقال معاوية: إنا سنرضيه، فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت الرسول ﷺ يقول: وساق بقية الحديث ـ (من الدر المنثور).



المصيبُ فهو كفارة للمصيب، ورُوي أَن عروة بن الزبير أَصاب عيْن إِنسان عند الركن وهم يستلمون، فلم يدر المصاب من أصابه، فقال له عروة: أَنا أَصبتك، وأَنا عروة بن الزبير، فإِن كان بعينك بأْس فأَنا بها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وانظر أَن ﴿ تَصَدَّقَ ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ يحتمل أَن يكون من الصدقة، ومن الصدق.

وذكر مكي بن أَبي طالب أَن قوماً تأَولوا الآية أَن المعنى: والجروح قصاص، فمن أَعطى دِيَة الجرح وتصدق بذلك فهو كفارة له إِذا رضيت منه وقبلت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل قلق.

وقد تقدم القول على قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وفي مصحف أُبي بن كعب: [ومَنْ يتصدَّق بهِ فإِنَّه كفَّارةٌ له].

قوله عز وجل:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.

﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ تشبيه، كأَن مجيءَ عيسى كان في قفاءِ مجيءِ النبيِّين وذهابهم، والضمير في ﴿ ءَاثَٰرِهِم ﴾ للنبيِّين المذكورين في قوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ و﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال مؤكدة، و﴿ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ بين يدي عيسى لأنها جاءَت قبله كما أَن رسول الله ﷺ بين يدي الساعة. وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع.

و﴿ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ اسم أَعجمي ذهب به مذهب الاشتقاق، من نَجَل إِذا استخرج وأَظهر، والناس على قراءَته بكسر الهمزة إِلا الحسن بن أَبي الحسن فإِنه قرأَ [الأَنجيل] بفتح الهمزة، وقد تقدم القول على ذلك في أَول سورة آل عمران.



والهدى: الإِرشاد والدعاءُ إلى توحيد الله وإحياءِ أحكامه. والنور: ما فيه مما يستضاءُ به، و﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة معطوفة على موضع الجملة التي هي: ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فإنها جملة في موضع الحال، وقال مكي وغيره: ﴿مُصَدِّقًا﴾ معطوفٌ على الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا قلق من جهة اتساق المعاني.

وقرأ الناس: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ بالنَّصْب، وذلك عطف على «مصدق». وقرأ الضحاك: [وَهُدىً ومَوْعظةٌ] بالرفع، وذلك متجه، وخص المتقون بالذكر لأنهم المقصود به في علم الله، وإن كان الجميع يُدعى ويُوعظ، ولكن ذلك على غير المتقين عمى وحيرة.

وقرأ أَبي بن كعب: [وَأَن لِيَحْكُمَ] بزيادة [أن]، وقرأ حمزة وحده: [ولِيحْكُمَ] بكسر اللام وفتح الميم على لام (كي) ونصب الفعل بها، والمعنى: وآتيناه الإِنجيل ليتضمن الهدى والنور والتصديق ليحكم أَهلُه بما أَنزل الله فيه، وقرأ باقي السبعة: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بسكون اللام التي هي لام الأمر، وجزم الفعل، ومعنى أَمره لهم بالحكم أَي: هكذا يجب عليهم، وحسن عقب ذلك التوقيف على وعيد من خالف ما أَنزل الله، ومن القراءِ من يكسر لام الأمر ويجزم الفعل، وقد تقدم نظير هذه الآية، وتقريره هذه الصفات لمن لم يحكم بما أَنزل الله هو على جهة التأكيد، وأَصوب ما يقال فيها أَنها تعم كل مؤمن وكل كافر، فيجيءُ كل ذلك في الكافر على أَتم وجوهه، وفي المؤمن على معنى كفر المعصية وظلمها وفسقها.

وأَخبر تعالىٰ بَعْدُ بنزول هذا القرآن، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أَن يريد: مضمناً الحقائق من الأُمور، فكأَنه نزل بها، ويحتمل أَن يريد أنه أنزله بأَن حق ذلك، لا أَنه وجب على الله، ولكن حق في نفسه، وأَنزله تعالىٰ صلاحاً لعباده، وقوله: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يريد من الكتب المنزلة، فهو اسم جنس، واختلفت عبارة المفسرين في معنى مُهَيْمن ـ فقال ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: شاهداً، وقال أَيضاً: مؤتمناً. وقال ابن زيد: معناه: مصدقاً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: أَميناً، وحكى الزجّاج: قريباً، ولفظه المهيمن أَخص من هذه الأَلفاظ، لأَن المهيمن على الشيءِ هو المعنيُّ بأَمره،

الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والله تبارك وتعالىٰ هو المهيمن على مخلوقاته وعباده، والوصيُّ مُهَيْمن على محجوريه وأَموالهم، والرئيس مهيمن على رعيته وأَحوالهم، والقرآن جعله مهيمناً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إِليها فيصحح الحقائق ويبطل التحريف، وهذا هو شاهد ومصدق ومؤتمن وأَمين، ومهيمن، بناءُ اسم فاعل، قال أَبو عبيدة: ولم يجىءْ في كلام العرب على هذا البناءِ إِلا أَربعة أَحرف، وهي: مُسَيْطر، ومُبَيْطر، ومُهَيْمن، ومُجَيْمر، وذكر أَبو القاسم الزَّجاج ـ في شرحه لصدر أَدب الكتاب ـ ومُبَيْقر، يقال: بَيْقر الرجل إِذا سار من الحجاز إِلى الشام، ومن أُفُق إِلى أُفق، وبَيْقر أَيضاً: لعب البَيْقَرى وهي لعبة يلعب بها الصبيان، وقال مجاهد: قوله تعالىٰ: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ يعني محمداً ﷺ هو مؤتمن على القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وغلط الطبري رحمه الله في هذه اللفظة على مجاهد، فإِنه فسَّر تأْويله على قراءَة الناس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾ بكسر الميم الثانية فبُعد التأْويل، ومجاهد رحمه الله إِنما يقرأُ هو وابن محيصن: [مُهَيْمَناً عليه] بفتح الميم الثانية، فهو بناءُ اسم المفعول، وهو حال من الكتاب معطوفة على قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾، وعلى هذا يتجه أَن المؤتمن عليه هو محمد ﷺ، و[عليه] في موضع رفع على تقدير أَنها مفعولٌ لم يُسم فاعله، هذا على قراءَة مجاهد، وكذلك مشى مكيّ رحمه الله وتوغل في طريق الطبري في هذا الموضع، قال أَبو العباس محمد بن يزيد المبرد رحمه الله: مُهَيْمن أَصله: مؤَيْمن ـ من أَمين ـ، أُبدلت همزته هاءً، كما قالوا: أَرقْتُ الماءَ وهرقته، قال الزَّجاج: وهذا حسنٌ على طريق العربية، وهو موافق لما جاءَ في التفسير من أَن معنى مهيمن: مؤتمن. وحكى ابن قتيبة هذا الذي قاله المبرد في بعض كتبه، فحكى النقاش أَن ذلك بلغ ثعلباً فقال: «إِن ما قال ابن قتيبة رديءٌ، وقال: هذا باطل، والوثوب على القرآن شديد، وهو ما سمع الحديث من قوي ولا ضعيف، وإِنما جمع الكتب». انتهى كلام ثعلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال من مهيمن: هَيْمَن الرجلُ على الشيءِ، إِذا حفظه وحاطه وصار قائماً عليه



أَميناً ، ويحتمل أَن يكون [مُصَدقاً ـ ومُهَيمناً] حاليْن من الكاف في ﴿ إِلَيْكَ ﴾ ، ولا يخص ذلك قراءَة مجاهد وحده كما زعم مكي.

قوله عز وجل:

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قال بعض العلماءِ: هذ ناسخة لقوله: ﴿ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، وقد تقدم ذكر ذلك. وقال الجمهور: إِنه ليس بنسخ ، وإِن المعنى: فإِن اخترت أَن تحكم فاحكم بينهم بما أَنزل الله.

ثم حذر تعالىٰ نبيَّه من اتباع أَهوائهم ، أَي: شهواتهم وإِرادتهم التي هي هوى ورسول للنفس ، والنفس أَمارة بالسوءِ ، فهواها مُرْدٍ لا محالة ، وحسُن هنا دخول (عن) في قوله: ﴿ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ لما كان الكلام بمعنى: لا تنصرف أَو لا تزحزح بحسب أَهوائهم عما جاءَك.

واختلف المتأَولون في معنى قوله عز وجل: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ـ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وقتادة ، وجمهور المتكلمين: المعنى: لكل أُمة منكم جعلنا شرعة ومنهاجاً ، أَي: لليهود شرعةٌ ومنهاج ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين كذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندهم في الأَحكام ، وأَما في المعتقد فالدين واحد لجميع العالم ، توحيد وإِيمان بالبعث وتصديق للرسل ، وقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه عدداً من الأَنبياءِ شرائعهم مختلفة ، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾(١) ، فهذا عند العلماءِ في المعتقدات فقط ، فأَما في الشرائع فهذه الآية هي القاضية فيها: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾.

(١) الأنعام: ٩٠.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأْويل الأَول عليه الناس ـ ويحتمل أَن يكون المراد بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الأُمم كما قدمنا، ويحتمل أَن يكون المراد الأَنبياءُ لا سيَّما وقد تقدم ذكرهم وذكر ما أُنزل عليهم، وتجيءُ الآية مع هذا الاحتمال في الأَنبياءِ تنبيهاً لمحمد ﷺ، أَي: فاحفظ شرعتك ومنهاجك لئلا يستزلَّك اليهود وغيرهم في شيء منه.

والمتأَولون على أَن الشِّرعة والمنهاج في هذه الآية لفظان بمعنى واحد، وذلك أَن الشِّرعة والشَّريعة هي: الطريق إِلى الماءِ وغيره مما يورد كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

وفـي الشَّـرائـعِ مِـن جَـلاَّنَ مُقْتَنِصٌ بالي الثِّياب خَفِيّ الصَّوْتِ مَنْدُوبُ[١]

أراد في الطرق إِلى الماءِ، ومنه: الشارع، وهي سكك المدن، ومنه قول الناس: وفيها يشرع الباب. والمنهاج أَيضاً: الطريق، ومنه قول الشاعر:

مَـــنْ يَـــكُ ذَا شَـــكٍّ فَهَـــذا نَهْـــجُ مَـــاءٌ رَواءٌ وَطَـــرِيـــقٌ نَهْـــجُ[٢]

أراد: واضحاً، والمنهاج بناءُ مبالغة في ذلك. وقال ابن عباس وغيره: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ معناه: سبيلا وسنةً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل لفظ الآية أَن يريد بالشِّرعة: الأَحكام، وبالمنهاج: المعتقد. أَي: وهو واحد في جميعكم، وفي هذا الاحتمال بُعْد. والقراءُ على ﴿شِرْعَةً﴾ بكسر الشين، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي، ويحيى بن وثاب: [شَرعة] بفتح الشين.

ثم أَخبر تعالىٰ بأَنه لو شاءَ لجعل العالم أُمة واحدة، ولكنه لم يشأْ لأَنه أَراد اختبارهم وابتلاءَهم فيما آتاهم من الكتب والشرائع، كذا قال ابن جُريج وغيره، فليس

(١) في (اللسان) في مادة (زرب) نسب إلى ذي الرمة قوله:

وبـالشمـائـل مـن جـلاَّنَ مُقْتَنِـصٌ رذْلُ الثِّيـابِ خفِـيُّ الشَّخـص مُنْـزَرِبُ

وقال: انزرب الصائد في قُترته: دخل ـ وقال: وجَلان: قبيلة، وابن عطية يفسر الشرائع هنا بأنها الطرق، ومندوب: به آثار جراح ونُدوب، فهو يصف صيَّاداً من قبيلة جلان بأن ثيابه بالية، وصوته خفي، وبه آثار ندوب، وهو يختفي في الطرق التي تمر بها فرائسه.

(٢) الماء الرَّواء ـ بفتح الراء المشددة: العذب، وقد رُوي البيت في (اللسان) وفي (القرطبي): «فهذا فَلَجُ» بدلاً من: «فهذا نَهج».



لهم إلا أَن يجِدُّوا في امتثال الأَوامر ، وهو استباق الخيرات ، فلذلك أَمرهم بأَحْسَن الأَشياءِ عاقبة لهم .

ثم حثَّهم تعالىٰ بالموعظة والتذكير بالمعاد في قوله: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، والمعنى فالبدارَ البدارَ. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ معناه: يظهر الثواب والعقاب فتُخْبَرون به إِخبار إِيقاع ، وإِلاَّ فقد نبأَ الله في الدنيا بالحق فيما اختلفت الأُمم فيه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية بارعة الفصاحة ، جمعت المعاني الكثيرة في الأَلفاظ اليسيرة ، وكل كتاب الله كذلك ، إِلاَّ أَنَّا بقصور أَفهامنا يَبين في بعَضٍ لنا أَكثرُ مما يبين في بعض .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم ﴾ معطوف على ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ . وقال مكيٌّ: هو معطوف على ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ . والوجهان حسنان. ويقرأُ بضم النون من [وأنُ احكم] مراعاة للضمة في عيْن الفعل المضارع ، ويقرأُ بكسرها على القانون في التقاءِ الساكنين.

وهذه الآية ناسخة عند قوم للتخيير الذي في قوله: ﴿ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، وقد تقدم ذكر ذلك ، ثم نهاه تعالىٰ عن اتباع أَهواءِ بني إِسرائيل إِذ هي مُضِلة ، والهوى في الأَغْلب إِنما يجيءُ عبارة عما لا خير فيه ، وقد يجيءُ أَحياناً بما فيه خير ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب في قصة رأْيه ورأْي أَبي بكر في أَسرى بدر: «فهوي رسول الله ﷺ رأْي أَبي بكر رضي الله عنه» ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز وقد قيل له: ما أَلذ الأَشياءِ عندك؟ قال: حق وافق هوى ، والهوى مقصور ووزنه فعل ، ويجمع على أَهواءَ ، والهواءُ ممدود ، ويجمع على أَهوية.

ثم حذر تبارك وتعالىٰ من جهتهم أَن يفتنوه ، أَي: يصرفوه بامتحانهم وابتلائهم عن



شيءٍ مما أَنزل الله عليه من الأَحكام ، لأَنهم كانوا يريدون أَن يخدعوا النبي ﷺ ، فقالوا له مراراً: احكم لنا في نازلة كذا وكذا ونتَّبعك على دينك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ قبله محذوف من الكلام يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره: لا تتبع واحذر ، فإِن حكموك مع ذلك واستقاموا فنِعِمَّا ذلك ، وإِن تولوا فاعلم ، ويحسن أَن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله: ﴿ لَفَٰسِقُونَ ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ ﴾ الآية وعدٌ للنبي ﷺ فيهم ، وقد أَنجزه بقصة بني قينقاع ، وقصة قريظة والنضير ، وإِجلاءِ عمر أَهل خيبر وفدك وغيرهم ، وخصص تعالىٰ إِصابتهم ببعض الذنوب دون كلها لأَن هذا الوعيد إِنما هو في الدنيا ، وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصهم كشرب الخمر ورباهم ورِشاهم ونحو ذلك ، ونوع يتعدى إِلى النبي والمؤمنين ، كمعاملاتهم للكفار وأَقوالهم في الدين ، فهذا النوع هو الذي يوجد إِليهم السبيل ، وبه هلكوا ، وبه توعدهم الله في الدنيا ، فلذلك خصص البعض دون الكلِّ ، وإِنما يعذبون بالكل في الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ إِشارة إِليهم ، لكن جاءَت العبارة تعمهم وغيرهم ليتَنَبَّه سواهم ممن كان على فسق ونفاق وتولٍّ عن النبي ﷺ فيرى أَنه تحت الوعيد.

واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ـ فقرأَ الجمهور بنصب الميم على إِعمال فعل مَّا يلي أَلف الاستفهام بيَّنَه هذا الظاهر بَعْدُ. وقرأَ يحيى بن وثاب ، والسلمي ، وأَبو رجاءٍ ، والأَعرج: [أفحكمُ] برفع الميم ، قال ابن مجاهد: وهي خطأٌ ، قال أَبو الفتح: ليس كذلك ، ولكنه وجْهٌ غيْرُهُ أَقوى منه ، وقد جاءَ في الشعر ، قال أَبو النجم:

قـد أَصْبَحَـتْ أُمُّ الخِيـارِ تَـدَّعـي   عَلَـيَّ ذنبـاً كُلُّـه لَـمْ أَصْنَـعِ

برفع كل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهكذا الرواية ، وبها يتم المعنى الصحيح ، لأَنه أَراد التبرؤَ من جميع الذنب ، ولونصب (كل) لكان ظاهر قوله أَنه صنع بعضه ، وهذا هوحذف الضمير من الخبر ،



وهو قبيح ، التقدير: يبغونه ، ولم أَصنعه ، وإنما يحذف الضمير كثيراً من الصلة كقوله تعالىٰ: ﴿ أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[(١)]. وكما تقول: «مررت بالذي أَكرمت». ويحذف أَقل من ذلك من الصفة ، وحذفه من الخبر قبيح كما جاءَ في بيت أَبي النجم ، ويتجه بيتُه بوجهين ـ أَحدهما: أَنه ليس في صدر قوله أَلف استفهام يطلب الفعل كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحُكْمَ ﴾ ، والثاني أَن في البيت عوضاً من الهاءِ المحذوفة ، وذلك حرف الإطلاق ، أَعني الياء في (أَصنعي) ، فتضعف قراءَة من قرأَ: [أَفحكمُ] بالرفع ، لأَن الفعل بَعْدُ لا ضمير فيه ولا عِوَض من الضمير ، وأَلف الاستفهام ـ التي تطلب الفعل ويُختار معها النصب وإنْ لفظ بالضمير ـ حاضرة[(٢)] ، وإنما تتجه القراءَة على أَن يكون التقدير: «أَفحكم الجاهلية حكم يبغون»؟ فلا تجعل [يَبغُون] خبراً ، بل تجعله صفة لخبر محذوف وموصوف. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ ﴾[(٣)] ، تقديره: قومٌ يحرفون ، فحذف الموصوف وأَقام الصفة مقامه ، ومثله قول الشاعر:

ومـا الـدَّهْـرُ إلاَّ تَـارتَـانِ فَمِنْهُمـا ... أَمُوتُ وأُخرى أَبْتَغي العَيْشَ أَكْدَحُ

وقرأَ سليمان بن مهران: [أَفَحَكَمَ] بفتح الحاءِ والكاف والميم ، وهو اسم جنس ، وجاز إِضافة اسم الجنس على نحو قولهم: منعت العراق قفيزها ودِرْهمها ، ومصر إردبَّها ، وله نظائر[(٤)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَنه قال: أفحكّام الجاهلية يبغون؟ إشارة إِلى الكهان الذين كانوا يأْخذون الحلوان ، ويحكمون بحسبه وبحسب الشهوات ، ثم ترجع هذه القراءَة بالمعنى إِلى الأُولى ، لأَن التقدير: أَفحكم حُكّام الجاهلية. وقرأَ ابن عامر: [تَبْغُون] بالتاءِ على

---

(١) الفرقان: ٤١.

(٢) قوله: «حاضرة» هو خبر المبتدأ: «وألف الاستفهام»...

(٣) النساء: ٤٦.

(٤) القفيز: مكيال كان يكال به قديماً ، ويختلف مقداره باختلاف البلاد ، والإردب: مكيال معروف لأهل مصر ، والكلام أصله من حديث شريف: «منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومصر إردبها ، وعدتم من حيث بدأتم» (اللسان).



الخطاب لهم ، أي ، قل لهم. وباقي السبعة: ﴿ يَبْغُونَ ﴾ بالياءِ من تحت ، ويبغون معناه: يطلبون ويريدون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ تقرير: أي: لا أحد أحسن منه حكماً تبارك وتعالىٰ ، وحَسُنَ دخول اللام في قوله: ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ من حيث المعنى يبين ذلك ويظهر لقوم يوقنون.

قوله عز وجل:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

نهى الله تعالىٰ المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ في النُّصرة والخُلْطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة ، وحكم هذه الآية باق ، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظ من المقت الذي تضمنه قوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملامسة فلا تدخل في النهي ، وقد عامل رسول الله ﷺ يهودياً ورهنه درعه.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية ـ فقال عطية بن سعد ، والزهري ، وابن إسحاق ، وغيرهم: سببها أنه لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينُقاع أراد رسول الله ﷺ قتلهم ، فقام دونهم عبد الله بن أُبي بن سلول وكان حليفاً لهم ، وكان لعبادة بن الصامت من حِلْفهم مثل ما لعبد الله ، فلما رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ ، وما سلكته يهود من المشاقَّة لله ورسوله ، جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. إني أبرأُ إلى الله من حلْف يهود وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ورسوله ، وقال عبد الله بن أُبي: أما أنا فلا أَبرأُ من ولاءِ يهود ، فإني لا بد لي منهم ، إني رجل أخاف الدوائر[1].

وحكى ابن إسحاق في السير أنه قام إلى رسول الله ﷺ فأدخل يده في جيب درعه وقال: يا محمد ، أحسن في موالي ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسل الدرع من يدك.

---

(١) الحديث مروي بطرق كثيرة عن عبادة بن الوليد ـ وعن ابن عباس ، وعن عطية ابن سعد ـ ارجع إلى (الدر المنثور).



فقال: لا والله حتى تهبهم لي، لأنهم ثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر، أفأدعك تحصدهم في غداة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: قد وهبتهم لك، ونزلت الآية في ذلك.

وقال السدي: سبب هذه الآية أنه لما نزل بالمسلمين أمر أُحد فزع منهم قوم، وقال بعضهم لبعض: نأخذ من اليهود عصماً ليعاضدونا إن ألَمَّت بنا قاصمة من قريش وسائر العرب، فنزلت الآية في ذلك(١).

وقال عكرمة: سبب الآية أمر أبي لبابة بن عبد المنذر وإشارته إلى قريظة: إنه الذبح حين استفهموه عن رأيه في نزولهم على حكم سعد بن معاذ(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكل هذه الأقوال محتمل، وأوقات هذه النوازل مختلفة. وقرأ أُبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ جملة مقطوعة من النهي تتضمن التفرقة بينهم وبين المؤمنين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إنحاءٌ على عبد الله بن أُبي وكُلُّ من اتصف بهذه الصفة من موالاتهم، ومن تولاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه، وبهذه الآية جوَّز ابن عباس وغيره ذبائح النصارى من العرب، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ فقال: من دخل في دين قوم فهو منهم(٣)، وسئل ابن سيرين رحمه الله عن رجل أراد بيع داره من نصارى يتخذونها كنيسة فتلا هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عموم، فإمَّا أن يراد به الخصوص

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن السدي (الدر المنثور). وقوله «نأخذ من اليهود عصماً» أي: حماة لنا يمنعوننا ويحفظوننا.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر ـ عن عكرمة. (الدر المنثور).

(٣) أخرجه ابن جرير ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور).



فيمن سبق في علم الله ألا يؤمن ولا يهتدي ، وإمَّا أن يراد به تخصيص مدة الظلم والتلبس بفعله ، فإن الظلم لا هدى فيه ، والظالم من حيث هو ظالم فليس بمهدي في ظلمه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية ، مخاطبة لمحمد ﷺ ، والإشارة إلى عبد الله بن أُبي بن سلول ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع ، ويدخل في الآية من كان من مؤمني الخزرج يتابعه جهالةً وعصبية ، فهذا الصنف له حظه من مرض القلب. وقراءَة جمهور الناس: ﴿فَتَرَى﴾ بالتاءِ من فوق ، فإن جعلت رؤية عين فـ ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ حالٌ ، وفيها الفائدة المقصودة ، وإن جعلت رؤية قلب فـ ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في موضع المفعول الثاني ، و﴿يَقُولُونَ﴾ حال. وقرأ إبراهيم النَّخَعي ، ويحيى بن وثاب: [فَيَرَى] بالياءِ من تحت ، والفاعل على هذه القراءَة محذوف ، ولك أن تقدر: فيرى الله ، أو فيرى الرأي ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول ، ويحتمل أن يكون [الذين] فاعلا ، والمعنى: «أن يسارعوا» فحذفت «أنْ» إيجازاً[١].

و﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ معناه: في نصرتهم وتأنيسهم وتجميل ذكرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ لفظ محفوظ عن عبد الله بن أُبي ، ولا محالة أنه قاله بقوله منافقون كثير ، والآية تُعطِي ذلك ، ودائرة: معناه: نازلةٌ من الزمان وحادثة من الحوادث تُحوجنا إلى موالينا من اليهود ، وتسمى هذه الأُمور دوائر على قديم الزمان من حيث الليل والنهار في دوران ، فكأن الحادث يدور بدورانها حتى ينزل فيمن نزل ، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[٢] ، و﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[٣] ، ومنه قول الشاعر:

وَالدَّهْرُ بالإنْسَانِ دَوَّارِيُّ . . . .[٤]

---

(١) نقل أبو حيان في (البحر) هذا الرأي لابن عطية مع زيادة كلمة (ترى) عما في الأصول هنا ، فقال: قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ﴿فَتَرَى﴾ ، والمعنى: أن يسارعوا ، فحذفت «أن» إيجازاً ، انتهى ، ثم قال: وهذا ضعيف ، لأن حذف «أن» من نحو هذا لا ينقاس. (البحر المحيط ٣ ـ ٥٠٨).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآية (٩٨). ووردت في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية (٦).

(٣) التوبة: ٩٨ ـ وقد سبقت في الهامش قبل هذا.

(٤) نسبه للعجاج في (اللسان) ، وروى البيت بتمامه فقال: «قال العجاج في وصف الدهر: =



وقول الآخر:

. . . . ويعلـــم أن النّـــائبـــات تـــدور

وقول الآخر:

يَـــرُدُّ عَنْـــكَ الْقَـــدَرَ ٱلْمَقْـــدورَا وَدَائـــراتِ ٱلـــدَّهـــرِ أَنْ تَـــدُورَا

ويعضده قول النبي ﷺ: «إِنَّ الزمانَ قد استدار».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفعْل عبد الله بن أُبي في هذه النازلة لم يكن ظاهره مغالبة رسول الله ﷺ، ولو فعل ذلك لحاربه رسول الله ﷺ، وإِنما كان يظهر للنبي ﷺ أَن يستبقيهم لنصرة محمد ولأَن ذلك هو الرأْي، وقوله: «إِني امرؤ أَخشى الدوائر» أَي: من العرب وممن يحارب المدينة وأَهلها، وكان يبطن في ذلك كله التحرز من النبي والمؤمنين والفَتَّ في أَعضادهم، وذلك هو الذي أَسَرَّ هو في نفسه ومن معه على نفاقه ممن يفتضح بعضهم إِلى بعض.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ وللمؤمنين ووعد لهم، و(عسى) من الله واجبة، واختلف المتأَولون في معنى ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾ في هذه الآية ـ فقال قتادة: يعني به القضاءَ في هذه النوازل، والفتَّاح: القاضي، فكان هذا الوعد هو مما نزل ببني قينقاع بعد ذلك وبقريظة والنضير، وقال السدي: يعني به فتح مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله ﷺ وعلو كلمته، أَي: فيبدو الاستغناءُ عن اليهود، ويرى المنافق أَن الله لم يوجد سبيلا إِلى ما كان يؤَمّل فيهم من المعونة على أَمر محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محادّة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالىٰ ومن رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بعْدُ.

= والـــدَّهْـــرُ بـــالإِنْسَـــان دَوَّارِيُّ أَفْنَـــى القُـــرُونَ وهـــو قَعْسَـــرِيُّ

شبه الدهر بالجمل الشديد، والقعسريُّ: «الصلب الشديد». مادة (قعسر) ـ ثم ذكره أيضاً في مادة (دور) وقال: «الدوَّاريُّ: الدائر بالإنسان أحوالا، أي: دائر به على إضافة الشيء لنفسه قال الفارسي: هو على لفظ النسب وليس بنسب، ونظيره: بُخْتِيٌّ وكرسيٌّ».



وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السدي: المراد ضرب الجزية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر أن هذا التقسيم إنما هو لأن الفتح الموعود به هو ما يتركب على سعي النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ويسببه جدهم وعملهم، فوعد الله تعالىٰ إما بفتح بمقتضى تلك الأفعال، وإما بأمر من عنده يُهْلِك أعداءَ الشرع، هو أيضاً فتح لا يقع للبشر فيه تسبيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ معناه: يكونون كذلك طول دهرهم، وخصَّ الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مُتَفكر مُتَسَتر، فعند الصباح يُرى بالحالة التي اقتضتها فِكْرُه أو أمراضه ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاح

إلى غير هذا من الأمثلة[١].

والذي أَسَرُّوه هو ما ذكرناه من التمرس بالنبي ﷺ، وإعداد اليهود للثورة عليه يوماً ما، وقرأ ابن الزهري: [فَيُصْبح الفُسَّاق عَلَى ما أَسَرُّوا في أَنْفُسِهِمْ نادمين].

قوله عز وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

اختلف القراءُ في هذه الآية ـ فقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو عطف وبرفع اللام، وكذلك ثبت في مصاحف المدينة ومكة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإثبات الواو، وكذلك ثبت في مصاحف الكوفيين،

---

(١) علّق في (البحر) على هذا الكلام فقال: «إن (أصبح) تأتي بمعنى صار من غير اعتبار كينونة في الصباح»، وقد ورد ذلك في القرآن كثيراً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.



وقال الطبري: كذلك هي في مصاحفنا، مصاحف أَهل الشرق، وقرأ أَبو عمرو وحده: [ويَقُولَ] بإثبات الواو وبنصب اللام، قال أَبو علي: وروى علي بن نصر عن أَبي عمرو النصب والرفع في اللام، فأَما قراءَة ابن كثير ونافع فمتعاضدة مع قراءَة حمزة والكسائي، لأَن الواو ليست عاطفة مفرد على مفرد مُشركة في العامل، وإنما هي عاطفة جملة على جملة وواصلة بينها، والجملتان متصلتان بغير واو، إذ في الجملة الثانية ذكر في الجملة المعطوف عليها، إذ الذين يسارعون وقالوا نخشى ويصبحون نادمين هم الذين قيل فيهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، فلما كانت الجملتان هكذا حسُنَ العطف بالواو وبغير الواو، كما أَن قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾[1] لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكر ما تقدم اكتفى بذلك عن الواو، وعلى هذا قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2] ولو دخلت الواو فقيل: [وهُمْ فيها خَالدُون] كان حسناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن براعة الفصاحة في الإيجاز، ويدل على حُسن دخول الواو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾. فحذف الواو من قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كحذفها من هذه الآية، وإلحاقها في قوله ﴿وَثَامِنُهُمۡ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذهب كثير من المفسرين إلى أَن هذا القول من المؤمنين إنما هو إذا جاءَ الفتح وحصلت ندامة المنافقين، وفضحهم الله تعالىٰ، فحينئذ يقول المؤمن: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ﴾ الآية، وتحتمل الآية أَن تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾، وعند أفعالهم ما فعلوا في حكاية بني قينقاع، فظهر فيها سرُّهم، وفُهم منهم أَن تمسكهم بهم إنما هو إرصاد لله ورسوله، فمقتهم النبي والمؤمنون، وترك النبي ﷺ بني قينقاع لعبد الله بن أُبي رغبة في المصلحة والأُلفة، وبحكم إظهار عبد الله أَن ذلك هو الرأي من نفسه، وأَن الدوائر التي يخاف

---

(١) الكهف: ٢٢.

(٢) تكرر ذلك كثيراً في آيات الكتاب الكريم، ونذكر على سبيل المثال الآيات (٣٩ ـ ٨١ ـ ٢١٧ ـ ٢٥٧ ـ ٢٧٥) من سورة البقرة وحدها، وكما تكرر ذلك بالنسبة لأصحاب النار تكرر لأصحاب الجنة.



إنما هي ما يخرب المدينة ، وعلم المؤمنون وكل فطن أَن عبد الله في ذلك بخلاف ما أَبدى ، فصار ذلك موطناً يحسن أَن يقول فيه المؤمنون: ﴿ أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ ﴾ الآية.

وأَما قراءَة أَبي عمرو: [ويقولَ] بنصب اللام فلا يتجه معها أَن يكون قول المؤمنين إلا عند الفتح وظهور ندامة المنافقين وفضيحتهم ، لأَن الواو عاطفة فعل على فعل مشركة في العامل. وتوجُّه عطف (ويقول) مطرد على ثلاثة أَوجه ـ أَحدها: على المعنى ، وذلك أَن قوله: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ ﴾ إنما المعنى فيه: فعسى أَن يأْتي الله بالفتح بعطف قوله: [ويقولَ] على ﴿ يَأۡتِيَ ﴾ اعتماداً على المعنى ، وإلا فلا يجوز أَن يقال: عسى الله أَن يقول المؤمنون ، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾[١] ، لما كان المعنى: أَخرني إلى أَجل قريب أَصَّدَّق ، وحُمِلَ ﴿ وَأَكُن ﴾ على الجزم الذي يقتضيه المعنى في قوله: ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾. والوجه الثاني: أَن يكون قوله: ﴿ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ ﴾ بدلاً من اسم الله عز وجل ، كما أُبدل من الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾[٢] ، ثم يعطف [ويقولَ] على: ﴿ أَن يَأۡتِيَ ﴾ لأنه حينئذ كأنك قلت: عسى أَن يأتي. والوجه الثالث: أَن يعطف قوله: ﴿ويقولَ﴾ على ﴿ فَيُصۡبِحُواْ ﴾ إذ هو فعل منصوب بالفاءِ في جواب التمني ، إذ قوله: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ ﴾ تَمَنٍّ وتَرَجٍّ في حق البشر ، وفي هذا الوجه نظر[٣] ، وكذلك عندي في منعهم جواز: «عسى الله أَن يقول المؤمنون» نظر ، إذ الله تعالىٰ يصيرهم يقولون بنصره وإظهار دينه ، فينبغي أَن يجوز ذلك اعتماداً على المعنى.

وقوله تعالىٰ: ﴿ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ نصب ﴿ جَهۡدَ ﴾ على المصدر المؤكد ، والمعنى:

---

(١) من قوله تعالىٰ في سورة المنافقون: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الآية (١٠).

(٢) الكهف: ٦٤.

(٣) هذا النظر هو: هل تجري (عسى) في الترجي مجرى (ليت) في التمني أم لا تجري ، وقد قيل: إن (عسى) من الله واجبة فلا ترجي فيها ـ وهذا الوجه من تخريج ابن عطية وتبعه ابن الحاجب كما قال في (البحر) ، وخرج النحاس إعراب (ويقولَ) بالنصب تخريجاً رابعاً هو أن يكون معطوفاً على قوله: (بالفتح) ، أي: بأن يفتح ويقول ـ قال أبو حيان: ولا يصح هذا لأنه قد فصل بينهما بقوله تعالىٰ: ﴿ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾. ولكلامه بقية مفيدة فارجع إليها في البحرج ٣ ص ٥١٠.



أَهؤلاءِ المقسمون باجتهاد منهم في الإِيمان ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ ثم قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود وخذل الشريعة ما يكذب إِيمانهم. ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أَن يكون إِخباراً من الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون من قول المؤمنين على جهة الإِخبار بما حصل في اعتقادهم إِذ رأَوا المنافقين في هذه الأَحوال، ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ على جهة الدعاءِ، إِما من الله تعالىٰ عليهم، وإِما من المؤمنين، وحبط العمل: إِذا بطل بعد أَن كان حاصلا، وقد يقال: حبط في عمل الكفار وإِن كان لم يتحصل على جهة التشبيه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿حَبِطَتْ﴾ بكسر الباءِ، وقرأَ أَبو واقد، والجراح: بفتح الباءِ، وهي لغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدِدْ[١] مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية، قال فيها الحسن بن أَبي الحسن، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، وقتادة: نزلت الآية خطاباً للمؤمنين عامة إِلى يوم القيامة، والإِشارة بالقوم الذين يأْتي بهم إِلى أَبي بكر الصديق وأَصحابه الذين قاتلوا أَهل الردة، وقال هذا القول ابنُ جريج وغيره[٢].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومعنى الآية عندي: إِن الله وعد هذه الأُمة أَن من ارتد منها فإِنه يجيءُ بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين. فكان أَبو بكر وأَصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر، وكذلك هو عندي أَمر علي مع الخوارج، وروى أَبو موسى الأَشعري أَنه لما نزلت هذه الآية قرأَها النبي ﷺ وقال: «هم قوم هذا»، يعني أَبا موسى الأَشعري[٣]، وقال هذا القول عياض، وقال شريح بن عبيد: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنا وقومي هم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنهم قوم هذا»، وأَشار إِلى أَبي موسى[٤]، وقال مجاهد، ومحمد بن كعب أَيضاً: الإِشارة إِلى أَهل اليمن، وقاله شهر بن حوشب.

---

(١) هكذا بدالين الأولى مكسورة والثانية مجزومة، وهي قراءة ابن عامر ونافع وأهل الشام والمدينة.

(٢) أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن الضحاك خبراً في هذا المعنى، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي، وابن عساكر ـ عن قتادة.

(٣) ورواه الحاكم أبو عبد الله في «المستدرك» بسنده ـ قال ذلك القرطبي.

(٤) أخرجه ابن جرير عن شريح بن عبيد.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله عندي قول واحد، لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى، ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي ﷺ على معنى التنبيه لهم والعتاب والتوعد، وقال السدي: الإشارة بالقوم إلى الأنصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاباً للمؤمنين الحاضرين يعم مؤمنهم ومنافقهم، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان، والإشارة بالارتداد إلى المنافقين، والمعنى: إن من نافق وارتد فإن المحققين من الأنصار يحمون الشريعة ويسُدُّ الله بهم كل ثَلْم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿يَرْتَدَّ﴾ بإدغام الدال في الدال، وقرأ نافع، وابن عامر: [يرْتَدِدْ] بترك الإدغام، وهذه لغة أهل الحجاز «مكة وما جاورها»، والإدغام لغة تميم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: متذللين من قِبل أنفسهم غير متكبرين، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] وكقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن هين لين». وفي قراءة ابن مسعود: [أَذِلَّة على المؤمنين غلظاءَ عَلَى الْكَافِرِين]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتذرون بملامة الأخلاق والمعارف من الكفار ويراعون أمرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كون القوم يحبون الله ويُحبهم، وقد تقدم القول غير مرّة في معنى محبة الله للعبد وأنها إظهار النعم المنبئة عن رضاه وإلباسه إياها، و﴿وَاسِعٌ﴾ معناه: ذو سعة فيما يملك ويعطي وينعم.

قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) الفتح: ٢٩.



الخطاب بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية للقوم الذين قيل لهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، يعطي ذلك المعنى: و[وليُّ] اسم جنس[1]، وقرأ ابن مسعود: [إنَّما مولاكم الله]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وَمَن آمن من الناس حقيقة لا نفاقاً، وهم الذين ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بجميع شروطها، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهي هنا لفظ عام للزكاة المفروضة وللتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر، إذ هي تنمية للحسنات مطهرة للمرءِ من دنس الذنوب، فالمؤمنون يؤتون من ذلك كلٌّ بقدر استطاعته، وقرأ ابن مسعود: [آمَنُوا والَّذِينَ يُقيمُونَ] بواوٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ جملة معطوفة على جملة، ومعناها وصفهم بتكثير الصلاة، وخصَّ الركوع بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة، وهو هيئة تواضع فعبَّر به عن جميع الصلاة، كما قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[2] وهي عبارة عن المصلين، وهذا قول جمهور المفسرين، ولكن اتفق أن علي بن أبي طالب أعطى صدقة وهو راكع، قال السدي: هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرَّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وروي في ذلك أن النبي ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له: «هل أعطاك أحد شيئاً»؟ فقال: نعم، أعطاني ذلك الرجل الذي يصلي خاتماً من فضة، وأعطانيه وهو راكع، فنظر النبي ﷺ فإذا الرجل الذي أشار إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر»، وتلا الآية على الناس[3].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال مجاهد: نزلت الاية في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راكع، وفي هذا

---

(١) ولهذا جاءت بالإفراد، ولم يقل الله تعالىٰ: (أَوْلِيَاؤُكُمْ) وإن كان المخبر به متعدداً لأن (ولياً) اسم جنس، أو لأن الولاية حقيقة هي لله تعالىٰ على سبيل التأصل، ثم نظم في سلكه من ذكر على سبيل التبع، ولو ذكر جمعاً لم يتبين هذا المعنى من الأصالة والتبعية. ذكر ذلك أبو حيان في (البحر).

(٢) من قوله تعالى الآية (١٢٥) في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، أو من قوله في سورة الحج: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآية (٢٦).

(٣) الحديث مروي من طرق كثيرة مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، فقد أخرجه الخطيب في المتفق ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه ـ عن عمار بن ياسر، وأخرج مثله أبو الشيخ وابن مردويه ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (الدر المنثور).

القول نظر ، والصحيح ما قدمناه من تأويل الجمهور ، وقد قيل لأبي جعفر: نزلت هذه الآية في علي. فقال: عليٌّ من المؤمنين والواو ـ على هذا القول ـ في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. وقال قوم: نزلت الآية من أولها بسبب عبادة بن الصامت وتبرئه من بني قينقاع[١]. وقال ابن الكلبي: نزلت بسبب قوم أسلموا من أهل الكتاب ، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله ، بيوتنا بعيدة ، ولا متحدث لنا إلا مسجدك ، وقد أقسم قومنا ألا يخالطونا ولا يوالونا ، فنزلت الآية مؤنسة لهم[٢].

ثم أخبر تعالىٰ أن من يتولَّ الله ورسوله ، والمؤمنين فإنه غالب كل من ناوأه ، وجاءَت العبارة عامة ـ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ اختصاراً لأن المتولي هو من حزب الله ، وحزب الله غالب ، فهذا الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين غالب ، و﴿وَمَن﴾ يراد بها الجنس لا مفرد بعينه ، والحزب: الصاغية[٣] ، والمنتمون إلى صاحب الحزب والمعاونون فيما يحزب ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها في حمنة وكانت تحارب في أمر الإفك فهلكت فيمن هلك.

ثم نهى الله تعالىٰ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ ، فوسمهم بوسم يحمل النفوس على تجنبهم ، وذلك اتخاذهم دين المؤمنين هزؤاً ولعباً ، والهزءُ: السخرية والازدراءُ ، ويقرأُ: [هُزُؤاً] بضم الزاي والهمز ، و[هُزْءاً] بسكون الزاي والهمز ، ويوقف عليه [هزّاً] بتشديد الزاي المفتوحة ، و﴿هُزُوًا﴾ بضم الزاي وتنوين الواو ، و[هُزاً] بزاي مفتوحة منونة ، ثم بيَّن تعالىٰ جنس هؤلاءِ أنهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

واختلف القراءُ في إعراب: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ ـ فقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ نصباً ، وقرأَ أبو عمرو ، والكسائي: [والكفَّارِ] خفضاً ، وروى حسين الجعفي عن أبي هريرة عن أبي عمرو النصب ، قال أبو علي:

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عطية بن سعد. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن مردويه ـ من طريق الكلبي ـ عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: قال: «أتى عبد الله بن سلام ورهطٌ معه من أهل الكتاب» ، ثم ساق الحديث بتفصيل. (الدر المنثور).

(٣) صاغِيَةُ الرجل: خاصته الميَّالون لاتباعه. وحزب الله هم: جند الله ، أو أنصار الله ، قال الشاعر:
وكيفَ أَضْوَى وَبِلالٌ حِزْبِي

حجة من قرأ بالخفض حمْل الكلام على أقرب العاملين ، وهي لغة التنزيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدخل الكفارُ على قراءَة الخفض فيمن اتخذ دين المؤمنين هزؤا ، وقد ثبت استهزاءُ الكفار في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[1] ، وثبت استهزاءُ أَهل الكتاب في لفظ هذه الآية ، وثبت استهزاءُ المنافقين في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[2]. ومن قرأَ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ بالنصب حمل على الفعل الذي هو: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ، ويخرج الكفار من أن يَتَضَمن لفظ هذه الآية استهزاءهم ، وقرأَ أُبي بن كعب: «ومن الكفار» بزيادة «من» ، فهذه تؤيد قراءَة الخفض ، وكذلك في قراءَة ابن مسعود: ﴿من قبلكم من الذين أشركوا﴾.

وفرقت الآية بين الكفار وبين الذين أُوتو الكتاب من حيث الغالب في اسم الكفار أَن يقع على المشركين بالله إِشراك عبادة أَوثان ، لأَنهم أَبعد شأْواً في الكفر ، وقد قال تعالىٰ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[3] ففرق بينهم إرادة البيان والجميع كفار ، وكان هذا لأَن عُبَّاد الأَوثان هم كفار من كل جهة ، وهذه الفرق تلحق بهم في حكم الكفر وتخالفهم في رتب ، فأَهل الكتاب يؤمنون بالله وببعض الأَنبياءِ ، والمنافقون يؤمنون بأَلسنتهم.

ثم أَمر تعالىٰ بتقواه ، ونبه النفوس بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَي حق مؤمنين.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) الحجر: ٩٥.
(٢) البقرة: ١٤.
(٣) من قوله تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الآية (٩).



قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ الآية إنحاءٌ على اليهود ، وتبيين لسوءِ فعلهم ، فإنهم كانوا إذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلاة قال بعضهم لبعض: قد قاموا لا قاموا ، إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفون بها في وقت الأذان وغيره ، وكل ما ذكر من ذلك فهو مثال ، وقد ذكر السدي أنه كان رجل من النصارى بالمدينة ، فكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب ، فما زال كذلك حتى سقط مصباح في بيته ليلة فأحرقه واحترق النصراني لعنه الله.

ثم ذكر تعالىٰ أن فعلهم هذا إنما هو لعدم عقولهم ، وإنما عدموها إذ لم تتصرف كما ينبغي لها فكأنها لم توجد.

ثم أمر تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾؟ ومعناه: هل تعدون علينا ذنباً أو نقيصةً؟ يقال: نقَم ـ بفتح القاف ـ ينقِم ـ بكسرها ـ وعلى هذه اللغة قراءَة الجمهور ، ويقال: نقِم ـ بكسر القاف ـ ينقَم ـ بفتحها ـ وعلى هذه اللغة قرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، وأبو البَرَهْسَم[1] النَّخَعي. وهذه الآية من المحاورة البليغة الوجيزة ، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾[2] ، ونظير هذا الغرض في الاستثناء قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[3]

وقرأ الجمهور: ﴿أُنزِلَ﴾ بضم الهمزة ، وكذلك في الثاني ، وقرأ أبو نُهَيك: [أَنزَل] بفتح الهمزة والزاي فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هو عند أكثر المتأولين معطوف على قوله: ﴿أَنْ

---

(١) بَرَهْسَم ـ بفتح الباء والراء والسين وسكون الهاء ـ ، وهو من ذوي القراءات الشاذة ، واسمه: عمران بن عثمان الزبيدي الشامي.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة البروج: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الآية (٨).

(٣) الفلول: جمع فلٍّ وهو الكسر في حدّ السيف ، وقراع الكتائب هو: تضارب أفرادها وتطاعنهم بالسيوف أو بالرماح. والبيت مثال لما اصطلح البلاغيون على تسميته تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إلا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُون إنْ غَضِبُوا

قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة ، ونقَمت الأمر أيضاً ، ونقِمته إذا كرهته ، وانتقم الله منه إذا عاقبه ، والاسم منه: النِّقْمة ، والجمع نَقِمات ونَقِم ـ مثل كَلِمة وكَلِمات وكَلِم.

ءَامَنَّا﴾ فيدخل كونهم فاسقين فيما نقموه ، وهذا لا يتجه معناه ، وروي عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال في ذلك: بِفِسْقهم نقموا علينا الإِيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام صحيح في نفسه لكنه غير مغن في تقويم معنى الأَلفاظ ، وإِنما يتجه على أَن يكون معنى المحاورة ، هل تنقمون منا إِلا عموم هذه الحال من أَننا مؤمنون وأَنتم فاسقون؟ ويكون: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ مما قرره المخاطب لهم ، وهذا كما تقول لمن تخاصمه: هل تنقم علي إِلاَّ أَن صدقت أَنا وكذبت أَنت؟ وهو لا يقر بأَنه كاذب ولا ينقم ذلك ، لكن معنى كلامك: هل تنقم إِلا مجموع هذه الحال؟ وقال بعض المتأَولين: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ معطوف على ﴿وَمَآ﴾ كأَنه قال: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ويكتبه وبأَن أَكثركم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مستقيم المعنى ، لأَن إِيمان المؤمنين بأَن أَهل الكتاب المستمرين على الكفر بمحمد فسقة هو ممَّا ينقمونه ، وذكر تعالى الأَكثر منهم من حيث بينهم من آمن ومن اهتدى.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ ـ قرأَ الجمهور بفتح النون وشد الباءِ ، وقرأَ ابن وثاب ، والنَّخَعي: [أُنْبِئُكُم] بسكون النون وتخفيف الباءِ من (أَنبأَ) ، وقرأَ الناس: ﴿مَثُوبَةً﴾ بضم الثاءِ وسكون الواو ، وقرأَ ابن بريدة ، والأَعرج ، ونبيح ، وابن عمران: [مثْوَبة] بسكون الثاءِ وفتح الواو ، وقال أَبو الفتح: هذا مما خرج عن أَصله شاذ عن نظائره ، ومثله قول العرب: «الفاكهة مقْوَدة إِلى الأَذى» بسكون القاف وفتح الواو ، والقياس: مثابة ومقادة ، وأَما مثُوبة بضم الثاءِ فأَصلها مثْوُبة وزنها مَفْعُلة بضم العيْن ، نقلت حركة الواو إِلى الثاءِ ، وكانت قبل مثْوُبة مثل مقوولة[1] ، والمعنى في

(١) فلما نقلت حركة الواو إلى الثاء في مَثُوبة ، وإلى القاف في مقوولة سكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين ، ومثلهما في ذلك مجوزة ومضوفة على معنى المصدر ، ومضوفة هي الأمر يُشَق منه ويخاف ، قال أبو جندب الهزلي:

وكنْــتُ إِذا جَــاري دعــا لِمَضُــوفَــةٍ ... أُشَمِّـرُ حتَّـى يَنْصُـفَ السَّـاقَ مِئْـزَري

أي: إذا نزل بجاري ما يخافه شمرت مئزري إلى نصف الساق للدفاع عنه والوفاء له.

القراءتين: مرجعاً عند الله ، أي: في الحشر يوم القيامة ، تقول العرب: ثاب يثوب إذا رجع ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾(١) .

ومشى المفسرون في هذه الآية على أن الذين أُمر أن يقول لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ هم اليهود والكفار المتخذون ديننا هزؤاً ولعبا ، قال ذلك الطبري وتوبع عليه ، ولم يسند في ذلك إلى متقدم شيئاً ، والآية تحتمل أن يكون القول للمؤمنين ، أي: قل يا محمد للمؤمنين: هل أُنبئكم بِشَرٍّ من حال هؤلاءِ الفاسقين في وقت الرجوع إلى الله ، أُولئك أَسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، فتكون الإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى حالهم من كون أكثرهم فاسقين ، وتحتمل الآية أن يكون القول للحاضرين من بني إسرائيل ، وتكون الإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى حال الحاضرين من كون أكثرهم فاسقين ، ويكون قوله: [شَرّ ـ وَأَضَلّ] صفة تفضيل بين شيئَين لهما اشتراك في الشر والضلال .

وتحتمل الآية أن يكون القول للحاضرين من بني إسرائيل ، والإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى إيمان المؤمنين وجميع حالهم ، ويُوَجّه التفضيل بـ [شَرّ ـ وأَضلّ] على أن الاشتراك في الشر والضلال هو في معتقد اليهود ، فأما في الحقيقة فلا شر ولا ضلال عند المؤمنين ، ولا شركة لهم في ذلك مع اليهود والكفار ، ويكون على هذا الاحتمال قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية يراد به جميع بني إسرائيل ـ الأَسلاف والأَخلاف . لأن الخلف يُذم ويُعير بمذمات السلف إذا كان الخلف غير مراجع ولا ذامٍّ لما كان عليه سلفه ، فهو في حكمه . وفي قراءَة أُبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود: «مَن غَضِبَ اللهُ علَيْهم وجَعَلهُم قِرَدَة وخنازير» ، واللعنة: الإبعاد عن الخير .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ ﴾ هي بمعنى: صيَّر ، وقال أبو علي في كتاب الحجة: هي بمعنى خَلَقَ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه منه رَحِمَهُ الله نزعةٌ اعتزالية ، لأن قوله: ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت ، والمعتزلة لا ترى أن الله يصير أحداً عابد طاغوت ، وقد تقدم قصص مسخهم قردة في سورة البقرة ، وأَما مسخهم خنازير فروي أن ذلك كان بسبب امرأةٍ

---

(١) البقرة: ١٢٥.



كانت مؤمنة من بني إسرائيل ، وكفر ملك منهم في مدينة من مدنهم وكفر معه أهل مملكته ، فدعت المرأة قوماً إلى نُصرة الدين فأجابوها ، فخرجت بهم فهُزموا ، ثم فعلت ذلك ثانية وثالثة وفي كل مرة يُهزم جمعها ، فيئست وباتت مهمومة ، فلما أصبح رأت أهل تلك المدينة يسعون[١] في نواحيها خنازير ، فقالت: الآن أعلم أن الله أعز دينه وآثر دينه ، قال عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري: ما كان مسخ بني إسرائيل إلاّ على يدي تلك المرأة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت ، وذلك عطف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ، أو معمول لـ ﴿وَجَعَلَ﴾ ، وفي هذا يقول أبو علي: إن جعل بمعنى خلق.

واختلف القراءُ في هذا الحرف ـ فقرأ حمزة وحده: [وَعَبُد الطاغوتِ] بفتح العيْن وضم الباءِ وكسر التاءِ من [الطاغوتِ] ، وذلك أن [عَبُدَ] لفظ مبالغة كيقُظ ونَدُس[٢] ، فهو لفظ مفرد يراد به الجنس وبُني بناءَ الصفات ، لأن عَبُدَ في الأصل صفة وإن كان استعمل استعمال الأسماءِ ، وذلك لا يُخرجه عن حُكم الصفة ، فلذلك لم يمتنع أن يُبنى منه بناءَ الصفات ، وقرأ بهذه القراءَة الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، ومنه قول الشاعر:

أَبَنِـــي لُبَيْنَـــى إِنَّ أُمَّكُـــمُ   أَمَـــةٌ وَإِنَّ أَبَـــاكُـــم عَبُـــدُ[٣]

---

(١) اختلفت النسخ الخطية في كتابة هذه الكلمة ، وفي بعضها كلمات لا يستقيم معها المعنى ، وما اخترناه هنا يتفق مع ما ورد في (الطبري) وفي (الدر المنثور).

(٢) يقال: رجل يَقُظ «بضم القاف» ، أي: ذكيٌّ فطن وجمعه أيقاظ. والنَّدُس «بضم الدال»: الذي يخالط الناس دون أن يثقُل عليهم. جمعه: ندُسُون ، ولا يكسَّر لقلة هذا البناء في الأسماء. (المعجم الوسيط).

(٣) البيت لأوس بن حجر التميمي كما قال في (اللسان). وقد ذكر قبله بيتاً آخر هو:

أبنـــي لُبَيْنَـــىَ لسْـــتُ مُعْتَـــرفـــاً   لِيكُـــونَ أَلأم مِنْكُـــم أَحَـــدُ

والشاهد في قوله: (عَبُدُ) فإنه بتثقيل الباء ، أي: تحريكها بالضم للضرورة ، لأن القصيدة من الكامل ، وهي حذَّاء. وهذا هو رأي الطبريّ ، فإنه قال بعد أن ذكر البيت: «هذا من ضرورة الشعر ، وهذا يجوز في الشعر لضرورة القوافي ، وأما في القراءة فلا». وكذلك قال ابن منظور في اللسان: «فإنه أراد وإن أباكم عبْد فثقل للضرورة. ا هـ. قارن ذلك بما ذكره ابن عطية من أن (عَبُد) في البيت من صيغ المبالغة. والله أعلم.



ذكره الطبري وغيره بضم الباء. وقرأ الباقون: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ بفتح العين والباءِ وإعماله في [الطَّاغوت]، وقد تقدم ذكره، وقرأ أُبي بن كعب: [عَبَدُوا الطاغُوتَ] على إسناد الفعل الماضي إلى ضمير جمع، وقرأ ابن مسعود فيما روىٰ عبد الغفار عن علقمة عنه: [وعَبُد الطَّاغوتُ] بفتح العين وضمِّ الباءِ ورفع التاءِ من [الطَّاغوت]، وذلك على أن يصير له أن [عَبُد] كالخلق والأمر المعتاد المعروف، فهي في معنى: فَقُه وشَرُف وظَرُف. وقرأ ابن عباس، وإبراهيم بن أَبي عبلة: [وعَبَد الطَّاغوتِ] بفتح العين والباءِ وكسر التاءِ من [الطَّاغوتِ] وذلك على أن المراد «عبدة الطاغوت»، وحذفت الهاء تخفيفاً[١]، ومثله قول الراجز:

قَامَ وُلاها فَسَقَوهُ صَرْخَدَا[٢]

أَراد: وُلاتُها فحذف تخفيفاً. وقرأ الحسن بن أَبي الحسن في رواية عباد عنه: [وعَبْد الطَّاغوتِ] بفتح العين وسكون الباءِ وكسر التاءِ من [الطَّاغوتِ]، وهذا على أنه اسم جنس مفرد يراد به جمع، وروي عن الحسن من غير طريق عباد أنه قرأ بفتح العين والدال وسكون الباءِ ونصب التاءِ من [الطاغوت]، وهذه تتجه على وجهين ـ أَحدهما أَنه أَراد: «وَعَبْداً الطاغوت» فحذف التنوين كما حذف في قول الشاعر:

. . . . ولا ذَاكِرَ الله إلا قليلا[٣]

والوجه الآخر أَن يريد: «عَبَدَ» الذي هو فعل ماض، وسكن عين الباءِ على نحو ما هي عين الفعل مسكنة في قول الشاعر:

---

(١) في بعض النسخ: «وحذفت التاء تخفيفاً».

(٢) في (تاج العروس) ـ مادة صَرْخَد ـ: الصَّرْخَد: اسم للخمر ـ عن الفراء، وأنشد البيت: و«وُلاها» يريد: وُلاتها، وصَرْخَد بلا لام: بلدٌ بالشام، وقيل: موضع منه ينسب إليه الخمر في قول الراعي:

وَلَـذٌّ كَطَعْـم الصَّـرْخَـديّ طَـرَحْتُـهُ ... عَشِيَّـةَ خِمْـسِ القَـوْم وَالْعَيْـنُ عَـاشِقُـه

وفي (اللسان): صَرْخَد: موضع نسب إليه الشراب في قول الراعي: «وذكر البيت». ثم قال: واللَّذ: النوم، وذكَّر العيْن على معنى الطرف. وروي البيت: والعيْن عاشقه ولكن الرفع أصح لمناسبة ما قبله من أبيات.

(٣) قال في (البحر) تعقيباً على هذا التنظير: «ولا وجه لهذا التخريج، لأن (عبْداً) لا يمكن أن ينصب (الطاغوت)، إذْ ليس بمصدر ولا اسم فاعل، والتخريج الصحيح أن يكون تخفيفاً من (عَبَد) بفتحها» ـ وهو الوجه الآخر الذي ذكره ابن عطية.



وَمَا كُلُّ مَغْبُونٍ وَلَوْ سَلْفَ صَفْقُهُ . . . .(١)

فإِنَّ اللام من «سلْف» مسكنة ، ونحو هذا قول أَبي السَّمال: [وَلُعْنُوا بما قالوا](٢). فهذه قراءَاتٌ العيْن فيها مفتوحة.

وقرأَ أَبو واقد الأَعرابي في رواية العباس بن الفضل عنه: [وعُبَّادَ الطاغوت] بضم العين وشد الباءِ المفتوحة وأَلف بعدها وفتح الدال وكسر التاءِ من [الطاغوت]. وذلك جمع عابد. وقرأَ عون العُقَيلي فيما روى عنه العباس بن الفضل أَيضاً: [وعابدُ الطاغوت] على وزن فاعل، والدال مرفوعة، قال أَبو عمرو: تقديره: وهم عابد الطاغوت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهو اسم جنس. وروى عكرمة عن ابن عباس: [وَعَابدوا الطَّاغوت] بضمير جمع، وقد قال بعض الرواة في هذه الأَخيرة إِنها تجويز لا قراءَة. وقرأَ ابن بُرَيْدَة: [وعَابِدَ الطَّاغوتِ] بفتح العين والدال وكسر الباءِ والتاءِ. وقرأَ بعض البصريين: [وعِبَادَ الطَّاغوتِ] بكسر العين وفتح الباءِ والدال وأَلف بينهما وكسر التاءِ. قال أَبو الفتح: فيحتمل أَن يكون ذلك جمع (عابد) كقائم وقيام، وصائم وصيام، وقد يجوز أَن يكون جمع (عبْد). وقلما يأْتي (عباد) مضافاً إِلى غير الله، وأَنشد سيبويه:

أَتُوعِدُني بِقَوْمِكَ يا بْنَ حَجْلٍ أُشَابَاتٍ يُخَالُونَ العِبَادَا؟(٣)

---

(١) البيت في (اللسان) (سَلَفَ):

وَمَا كُلُّ مُبْتَاعٍ ولَوْ سلْفَ صَفْقُهُ بِرَاجِعِ مَا قَدْ فَاتَهُ بِرَدَادِ

ولكنه في (ردّ) رواه: «وَمَا كُلُّ مَغْبُونٍ. . . إلخ» ونسبه للأخطل ـ والرَّداد: الرَّدُّ. ويقال: رَدَاد ورِداد ـ بفتح الراء وكسرها ـ.

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ الآية (٦٤)، وانظر قول ابن عطية: «ونحو هذا قول أبي السّمال». ولعله خطأ من النساخ، والصواب: «ونحو هذا قراءة أبي السّمال». والله أعلم.

(٣) البيت ذكره ابن عطية هنا، وأبو حيان في (البحر المحيط)، وابن جني في (المحتسب)، وكلهم يقولون: «وأنشد سيبويه»، ولم ينسبه أحد لقائله ـ وذكر في (تاج العروس) ثلاثة يحملون اسم حجل، أقربهم إلى الظن أن يكون هو المراد هنا هو: حِجْل الشاعر، كان عبداً لبني مازن. نقله الحافظ هكذا. والأشابات: الأخلاط، وفي الكتاب بعده:

بِمَا جَمَّعْتَ مِنْ حَضَنٍ وعمرٍو وَمَا حَضَنٌ وَعَمْرٌو وَالحيادَا؟



قال أَبو الفتح: يريد «عباد آدم» عليه السلام، ولو أَراد «عباد الله» فليس ذلك شيءٌ يسب به أَحد، وجميع الخلق عباد الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التعليق بآدم ﷺ شاذٌّ بعيد، والاعتراض فيه باق، وليس هذا مما يُتَخيل أَن الشاعر قصده، وإِنما أَراد «العبيد» فساقته القافية إِلى «العباد»، إِذ يقال ذلك لمن تُملَّك مَلْكة مًّا. وقد ذكر أَن عرب الحيرة من العراق إِنما سموا العباد لأَنهم دخلوا في طاعة كسرى فدانتهم مملكته.

وذكر الطبري عن بريدة الأَسلمي أَنه كان يقرأُ: [وعَابِدَ الشيطان] بفتح العين والدال وكسر الباءِ وأَلف قبلها. وذكر «الشيطان» بدل «الطاغوت» فهذه قراءَات فيها أَلف.

وقرأَ ابن عباس فيما روى عنه عكرمة، وقرأَها مجاهد، ويحيى بن وثاب: [وعُبُدَ الطَّاغوتِ] بضم العين والباءِ وفتح الدال وكسر التاءِ، وذلك جمع «عَبْد» كرهْن ورُهُن وسَقْف وسُقُف، وقال أَحمد بن يحيى ثعلب: هو جمع «عابد» كشارفٍ وشُرُف، ومنه قول القيْنَة:

أَلاَ يـــا حَمْـــزَ لِلشُّـــرُفِ النِّـــواءِ وهُـــنَّ مُعَقَّـــلاتٌ بـــالفِنَـــاءِ(١)

وقال أَبو الحسن الأَخفش: هو جمع «عبيد»، وأَنشد:

أَنْسُـــبِ العَبْـــدَ إِلَـــى آبـــائِـــهِ أَسْـــودَ الجِلْـدَةِ مِـنْ قَـوْمِ عُبُـدْ(٢)

---

(١) البيت مروي ضمن أبيات أخرى في (تاج العروس). والشَّارفُ من النُّوق: المُسِنَّة الهرمة، والجمع: شوارفُ وشُرُفٌ ككُتُب وشُرَّف مثل رُكَّع. وقيل: شُرْف مثل: بازل وبُزْل. وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: «أَصبْتُ شارفاً من مغنم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ، فأَنَخْتُهما بباب رجل من الأَنصار، وحمزةُ في البيت ومعه قَيْنَةٌ تغنيه:

الا يـــا حَمْـــزَ لِلشُّـــرُف النِّـــواء فَهُـــنَّ مُعَقَّـــلاتٌ بـــالفَنـــاءِ
ضَـــع السكِّيـــنَ فـــي اللَّبـــاتِ منهـــا وَضَـــرِّجْهُـــنَّ حَمَـــزَةُ بـــالـــدِّمـــاءِ
وَعَجِّـــلْ مِـــنْ أطـــايبهـــا لشَـــرْبٍ طعـــامـــاً فـــي قـــديـــدٍ أوْ شِـــواءِ

فخرج إليهما فَجبَّ أَسْنِمَتَهما. وبقر خواصرهما وأخذ أكبادهما، فنظرت إلى منظر أفظعني، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فخرج ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى وقف عليه وتغيظ، فرفع رأسه إليه وقال: هل أنتم إلا عبيد آبائي، فرجع رسول الله ﷺ يقهقر. قال ابن الأثير: هي جمع شارف، وتُضم راؤُها وتُسكن تخفيفاً. ويروى: ذا الشَّرف: أي الرفعة. والنِّواء: السمينة.

(٢) قال في (اللسان): العبد المملوك خلاف الحرّ، قال سيبويه: هو في الأصل صفة، ولكنه استعمل=



وقرأَ الأَعمش وغيره: [وعُبَّد الطاغوتِ] بضم العين وشد الباءِ المفتوحة وفتح الدال وكسر التاءِ، وذلك على جمع «عابد» كضارب وضُرَّب، وقرأَ إِبراهيم النَّخَعي. وأَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش في رواية هارون: [وعُبِدَ الطاغوتُ] بضم العين وكسر الباءِ وفتح الدال وضم التاءِ، كما تقول: ضُرِب زيدٌ، وضعَّف الطبري هذه القراءَة وهي متجهة[١]. وروي عن عبد الله بن مسعود أَنه قرأَ: [وَعُبِدَت الطاغوتُ] كما تقول: «ضُرِبتِ المرأَة»، وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود: [وعُبُدَ الطاغوتِ] بضم العين وفتح الباءِ والدال وكسر التاءِ، وهذه أَيضاً بناءَ مبالغة اسم مفرد يراد به هنا الجمع بُني كَحُطَمَ ولُبَدَ، وروى عكرمة عن ابن عباس: [وعُبَّدَ الطاغوتَ] على وزن فُعَّلَ بضم الفاءِ وشد العين المفتوحة وفتح اللام ونصب التاءِ، وهذه تتخرج على أَنه أَراد: «وعبداً» منوناً ثم حذف التنوين للالتقاءِ، كما قال: ولا ذاكِرَ الله ـ وقد تقدم نظيره[٢].

والطاغوت: كل ما عُبد من دون الله من وثن أَو آدمي يرضى ذلك أَو شيطان، وقد استوعبت تفسيره في سورة البقرة. وكان: يحتمل أَن يريد في الآخرة، فالمكان على وجهه، أَي: المحل، إِذ محلهم جهنم. وأَن يريد في الدنيا فهي استعارة للمكانة والحالة.

و﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وسطه، ومنه قول العرب: «قمت حتى انقطع سوائي»، ومنه

= استعمال الأسماء، والجمع: أَعْبُدٌ وعبيدٌ مثل كَلْب وكَلِيب ـ وهو جمع عزيز ـ وعبادٌ، وعُبُد مثل سقْف وسُقُف، وأنشد الأخفش... وساق البيت، ثم قال: ومنه قرأ بعضهم: [وعُبُد الطاغوتِ]. (مادة عَبَدَ).

(١) ضعَّفَ الطبري هذه القراءة وقال: «لا معنى لها، لأن الله ابتدأ الخبر بذمِّ أقوام، فكان فيما ذمهم به عبادتهم الطاغوت، وأما الخبر على أن الطاغوت قد عُبد فليس من نوع الخبر الذي ابتدأ به الآية، ولا من جنس ما ختمها به فيكون له وجه يوجَّه إليه من الصحة». أما قول ابن عطية تعقيباً على تضعيف الطبري لها: وهي مُتَّجهة فقد وضحه أبو حيان في (البحر) فقال: وهي متجهة على حذف الرابط، أي: وعُبِد الطاغوتُ فيهم أو بينهم، ويحتمل أَن يكون (وعُبِد) ليس داخلاً في الصلة لكنه على تقدير (من) إما عطفاً على «القردة والخنازير» وإما عطفاً على (مَنْ) في قوله تعالىٰ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾.

(٢) المتواتر من كل هذه القراءات اثنتان: قراءة حمزة: [عَبُدَ الطاغوتِ]، وقراءة باقي السبعة: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾، والقراءات الباقية شاذة. وقد عني بها المفسرون إظهاراً للبراعة في الدراسة والتحصيل. أما كتب القراءات فلم تذكرها، راجع مثلاً «النَّشر في القراءات العشر» لابن الجزري، فإنه لم يشر إليها.



قوله تعالىٰ: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1] ، وخط الاستقامة في السُّبل إنما هو متمكن غاية التمكن في الأَوساط ، فلذلك خص السواءَ بالذكر ، ومن لفظ السَّواءِ قيل: خط الاستواءِ.

قوله عز وجل:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ۝٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٢ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝٦٣ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٤﴾ .

الضمير في ﴿جَآءُوكُمۡ﴾ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ، وخاصة للمنافقين منهم ، نص على ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والسدي.

ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم دخلوا وهم كفار ، وخرجوا كذلك ، لم تنفعهم الموعظة ، ولا نفع فيهم التذكير ، وقوله: ﴿وَهُمۡ﴾ تخليص من احتمال العبادة أَن يدخل قوم بالكفر ثم يؤمنوا ، ويخرج قوم وهم كفرة ، فكان ينطبق على الجميع: «وقد دخلوا في الكفر وهم قد خرجوا به» ، فأَزال الاحتمال قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ ، أَي: هم بأَعيانهم ، ثم فضحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ أَي: من الكفر.

وقوله تعالىٰ لنبيه: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يحتمل أَن يكون من رؤْية البصر ، ويحتمل من رؤْية القلب ويكون المفعول الثاني: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ، وعلى الاحتمال الأَول ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ حال ، و﴿فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ معناه: في موجبات الإثم ، إذ الإِثم إنما هو الحكم المعلق بصاحب المعصية والنسبة التي يصير إِليها إِذا وقع الذنب ، وهو من هؤلاءِ كُفْرُهم ، و﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ مصدر من: عَدَا الرجل إذا ظلم وتجاوز الحد ، و﴿ٱلسُّحۡتَ﴾ هو الرِّشا

(١) من قوله تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ الآية (٥٥).

وسائر مكسبهم الخبيث ، واللام في ﴿لَبِئْسَ﴾ لام قَسَم ، وقرأ أبو حيوة: [والعِدْوان] بكسر العيْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ تخصيص في ضمنه توبيخ لهم إذ تركوا اللازم ، قال الطبري: كل العلماءِ يقولون: ما في القرآن آية هي أشد توبيخاً للعلماءِ من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها. وقال الضحاك بن مزاحم: ما في القرآن أخوف عندي منها ، إنا لا ننّهى ، وقال نحو هذا ابن عباس: وقرأ الجراح ، وأبو واقد: [الرِبَّانيُّون] بكسر الراءِ ، واحدهم: رِبّي ، إما منسوب إلى علم الرب ، وإما من تربية الناس بصغار العلم قبل كباره ، وزيدت النون في نسبته مبالغة كشعراني ومنظراني ومخبراني ، وقال الحسن: الرّباني: عالم الإنجيل ، والحبر: عالم التوراة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله في الرباني شاذ بعيد.

﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ واحدهم حَبْر بكسر الحاءِ وفتحها ، وهم العلماءُ الذين لا يعنون لإصلاح الناس ولا يكلفون ذلك ، والرباني هو العالم المدبر المصلح ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ ظاهر أن الإثم هنا يراد به الكفر ، ويحتمل أن يراد به سائر أقوالهم المنكرة في النبي ﷺ والمؤمنين ، وقرأ ابن عباس: [بِئْس مَا كانوا يَصْنَعُونَ] بغير لام قَسَم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذه الآية تعديد كبيرة من أقوالهم وكفرهم ، أي: فمن يقول هذه العظيمة فلا يُستنكر عليه أن ينافق عليك يا محمد ، ويَسعى في ردّ أمر الله الذي أوحاهُ إليك. وقال ابن عباس وجماعة من المتأولين: معنى قولهم التبخيل ، وذلك أنهم لحقتهم سنة وجهد فقالوا هذه العبارة يعنون بها أن الله بخل عليهم بالرزق والتوسعة ، وهذا المعنى يشبه ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[1] ، فإنما المراد لا تبخل ، ومنه قول النبي ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق» الحديث[2] ، وذكر الطبري والنقاش أن هذه الآية نزلت في فنحاص

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، ولفظه: «مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت على جلده حتى تخفي بنانه وتطفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع». والحديث مروي=



اليهودي وأنه قالها، وقال الحسن بن أبي الحسن: قولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾، إنما يريدون عن عذابهم، فهي ـ على هذا ـ في معنى قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾، وقال السدي: أرادوا بذلك أن يده مغلولة حتى يردَّ علينا ملكنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأنهم عنوا أن قوته تعالىٰ نقصت، ولذلك غلبوا على ملكهم، وظاهر مذهب اليهود لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم، وكذلك يعطي كثير من أقوالهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاءٌ عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا، وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى: غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه، وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى: غُلَّت في نار جهنم، أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاءُ، كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه، وقرأ أبو السمال: [وَلُعْنوا] بسكون العين، وذلك قصد للتخفيف لا سيما هنا للهبوط من ضمة إلى كسرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ العقيدة في هذا المعنى نفيُ التشبيه عن الله تعالىٰ، وأنه ليس بجسم ولا جارحة، ولا يُشبَّه ولا يُكيَّف ولا يتحيَّز في جهة كالجواهر ولا تحله الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون.

ثم اختلف العلماءُ فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾، وقوله: ﴿ بِيَدَيَّ ﴾(١)، ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾(٢)، ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(٣)، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(٤)، ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾(٥)، ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٦)، و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٧)، ونحو هذا.

= عن أبي هريرة، ورمز له في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(١) من قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ الآية (٧٥).

(٢) من قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ الآية (٧١).

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الفتح: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية (١٠).

(٤) من قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ الآية (٣٩).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة القمر: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ الآية (١٤).

(٦) من قوله تعالىٰ في سورة الطور: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ الآية (٤٨).

(٧) من قوله تعالىٰ في سورة القصص: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الآية (٨٨).



فقال فريق من العلماء، منهم الشعبي، وابن المسيب، وسفيان: يُؤمن بهذه الأَشياءِ، وتقرأُ كما نصها الله، ولا يعن لتفسيرها، ولا يشقق النظر فيها[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يضطرب، لأَن القائلين به يجمعون على أَنها ليست على ظاهرها في كلام العرب، فإِذا فعلوا هذا فقد نظروا، وصار السكوت على الأَمر بعد هذا ما يوهم العوام ويُتيه الجهلة.

وقال جمهور الأُمة: بل نفسر هذه الأُمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أَفانين كلام العرب، فقالوا في العين والأَعين: إِنها عبارة عن العلم والإِدراك، كما يقال: فلان من فلان بمرأَى ومسمع، إِذا كان يعنى بأُموره وإِن كان غائباً عنه. وقالوا في الوجه: إِنه عبارة عن الذات وصفاتها، وقالوا في اليد واليمين والأَيدي: إِنها تأْتي مرة بمعنى القدرة، كما تقول العرب: لا يَدَ لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة، كما يقال: لفلان عند فلان يدٌ، وتكون بمعنى المِلك، كما تقول: يد فلان على أَرضه. وهذه المعاني إِذا وردت عن الله تبارك وتعالىٰ عبر عنها باليد أَو الأَيدي أَو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب، ولما في ذلك من الإِيجاز، وهذا مذهب أَبي المعالي والحذاق.

وقال قوم من العلماءِ منهم القاضي ابن الطيب: هذه كلها صفات زائدة على الذات، ثابتة لله دون أَن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد، وذكر هذا الطبري وغيره.

وقال ابن عباس في هذه الآية: يداه: نعمتاه.

ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين النعمتين ـ فقيل: نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقيل: النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة، وقيل: نعمة المطر ونعمة النبات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إِنعامه على الجملة، وعبر

---

(١) يقال: أَعننتُ بعُنَّةٍ: إذا تعرضت لشيءٍ لا أعرفه، والرجل المُعِن هو الذي يدخل فيما لا يعنيه. والتشقيق مبالغة في الشَّقِّ، وشَقَّق الكلام: وسَّعه وبيَّنه وَوَلَّد بعضَه من بعض، وفي حديث البيْعة: «تَشْقيق الكلام عليكم شديد».



عنه بيدين جَرْياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتى يَديه ، ومنه قول الشاعر وهو الأعشى:

يَـداكَ يَـدا مَجْـدٍ ، فَكَـفٌّ مُفيـدةٌ وكَفٌّ إذا ما ضُنَّ بـالمـالِ تَنْفِـقُ[١]

ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق. قال أبو عمرو الداني: وقرأ أبو عبد الله: [بَلْ يَداهُ بَسْطَتَانِ] ، يقال: يدٌ بسطة أي: مطلقة ، وروي عنه: «بسطان».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ إعلام لمحمد ﷺ ، فإن هؤلاءِ اليهود من العتو والبعد عن الحق بحيث إذا سمعوا هذه الأسرار التي لهم والأقوال التي لا يعلمها غيرهم تنزل عليك طغوا وكفروا ، وكان نَوْلُهم أن يؤمنوا[٢] ، إذ يعلمون أنك لا تعرفها إلا من قبل الله ، لكنهم من العتو بحيث يزيدهم ذلك طغياناً. وخص تعالىٰ ذكر الكثير إذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغى كل الطغيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ ، فهي قصص يعطف بعضها على بعض ، والعداوة أخص من البغضاءِ لأن كل عدو فهو يبغض ، وقد يبغض من ليس بعدو ، وكأن العداوة شيءٌ مشتهر يكون عنه عملٌ وحرب ، والبغضاءُ قد لا تجاوز النفوس ، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ استعارة بليغة تُنْبئُ عن فض جموعهم وتشتيت آرائهم وتفريق كلمتهم. والآية تحتمل أن تكون إخباراً عن حال أسلافهم ، أي: منذ عصَوْا، وعتوا وهَدَّ الله مُلْكَهم رماهم بهذه الأمور ، فهم لا ترتفع لهم راية إلى يوم القيامة ، ولا يقاتلون جميعاً إلا في قرى محصنة. هذا قول الربيع والسدي وغيرهما. وقال مجاهد: معنى الآية: كلما أوقدوا ناراً لحرب محمد أطفأها الله ، فالآية على هذا تبشير لمحمد ﷺ والمؤمنين ، وإشارة إلى حاضِريه من اليهود.

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي يمدح بها المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة ، ومطلعها:

أرقْـتُ ومـا هَـذا السُّهَـادُ المُـؤَرِّقُ ومـا بـيَ مِـن سُقْـم ومـا بـيَ مَعْشَـقُ

ونص البيت في الديوان هكذا:

يَـداكَ يَـدا صِـدْقٍ فكَـفٌّ مُفيـدةٌ وأُخـرى إذا مـا ضُـنَّ بـالـزَّاد تُنْفِـقُ

(٢) يريد: وكان المفروض أن يؤمنوا ، يقال: ما نَوْلك أن تفعل كذا ، أي: لا ينبغي لك ، وفي الحديث: «ما نَوْلُ امرىءٍ مسلم أن يقول غير الصواب».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ معنى السعي في هذه الآية: العمل والفعل، وقد يجيءُ السعي بمعنى الانتقال على القدم، وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]، وإن كان مالك رحمه الله قد قال في الموطأ: إن السعي في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنه العمل والفعل، ولكن غيره من أهل العلم جعله على الأقدام، وهو الظاهر بقرينة ضيق الوقت وبالتعدية بإلى، ويؤيده قراءة عمر بن الخطاب: [فامْضُوا إلى ذكر الله].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: لا يُظْهر عليهم من أفعاله في الدنيا والآخرة ما يقتضي المحبة.

قوله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

هذه الآية تحتمل أن يراد بها معاصرو محمد ﷺ، والأظهر أنه يُراد بها الأسلاف، والمعاصرون داخلون في هذه الأحوال بالمعنى، والغرض الإخبار عن أُولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلهم بمعاصيهم، لو آمنوا بالله وكتابه، واتقوا في امتثال أوامره ونواهيه لكفِّرت سيِّئاتهم، أي: سُترت وأُذهبت، ولأُدخلوا الجنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: أظهروا أحكامها، فهي كإقامة السوق وإقامة الصلاة، وذلك كلُّه تشبيه بالقائم من الناس، إذ هي أظهر هيئات المرء. وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب في هذه الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه وحي وسُنَن على ألسنة الأنبياء.

واختلف المفسرون في معنى ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي: المعنى: لأعطتهم السماءُ مطرها وبركتها، والأرض

(١) الجمعة: ٩.



نباتها بفضل الله تعالىٰ ، وحكى الطبري والزجاج وغيرهما أَن الكلام استعارة ومبالغة في التوسعة ، كما يقال: فلانٌ قد عمَّه الخير من قَرْنه إِلى قدمه. وذكر النقاشُ أَن المعنى: لأَكلوا من فوقهم ، أَي: من رزق الجنة ، ومن تحت أَرجلهم ، أَي: من رزق الدنيا إِذ هو من نبات الأَرض.

قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معناه: معتدلة ، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأَقوال والأَفعال. قال الطبري: معنى الآية: إِن من بني إِسرائيل مَن هو مقتصد في عيسى عليه السلام ، يقولون: هو عبد الله ورسول وروح منه ، والأَكثر منهم غَلا فيه ، فقال بعضهم: هو إِلٰه ، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بآخرة[1] في مِلَّة عيسى عليه السلام ، وقال بعضهم وهم الأَكثر من بني إِسرائيل: هو آدمي لغير رشدة ، فكفر الطرفان. وقال مجاهد: المقتصدة: مسلمة أَهل الكتاب قديماً وحديثاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا يتخرج قول الطبري ، ولا يقول في عيسى إِنه عبد رسول إِلا مسلمٌ ، وقال ابن زيد: هم أَهل طاعة الله من أَهْل الكتاب ، وهذا هو المترجح ، وقد ذكر الزجاج[2] أَنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأَنبياءَ مناصبة المتهتكين المجاهرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإِنما يتوجه أَن توصف بالاقتصاد بالإِضافة إِلى المتمردة ، كما يقال في أَبي البحتري بن هشام: إِنه مقتصد بالإِضافة إِلى أَبي جهل بن هشام لعنه الله. ثم وصف تعالىٰ الكثير منهم بسوءِ العمل عموماً ، وذهب الطبري إِلى أَن ذلك في تكذيبهم الأَنبياءَ ، وكفر اليهود بعيسى والجميع من أَهل الكتابين بمحمد ﷺ.

و﴿سَآءَ﴾ في هذه الآية هي المتصرفة ، كما تقول: ساءَ الأَمر يسوءُ ، وقد تستعمل (ساءَ) استعمال (نعم وبئس) ، كقوله عز وجل: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾[3] ، فتلك غير هذه ،

---

(١) في بعض النسخ: في آخرة ـ يريد في الزمن المتأَخر.

(٢) في بعض النسخ زيادة: وغيره.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٧) من سورة الأعراف: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ، فابن عطية=



يُحتاج في هذه التي في قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ من الإضمار والتقدير إلى ما يُحتاج في (نعم وبئس)، وفي هذا نظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

هذه الآية أَمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستيفاءِ والكمال، لأَنه قد كان بلَّغ، فإنما أُمر في هذه الآية بأَلا يتوقف عن شيءٍ مخافة أَحد، وذلك أَن رسالته ﷺ تضمنت الطعن على أَنواع الكفرة، وبيان فساد حالهم، فكان يلقى منهم عنتاً، وربما خافهم أَحياناً قبل نزول هذه الآية، فقال الله له ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: كاملا مُتمماً، ثم توعده تعالى بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: إنك إن تركت شيئاً فكأَنما قد تركت الكل، وصار ما بلَّغت غير معتد به، فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ معناه: «وإن لم تستوف» ونحو هذا قول الشاعر:

سُئِلْتَ فلمْ تمْنَعْ ولَمْ تُعْطِ نائلا ... فسِيَّانَ لا ذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ[1]

أي: ولم تعطِ ما يُعد نائلا، وإلا فيتكاذب البيت.

وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ على الإفراد، وقرؤوا في الأَنعام [حيث يجعل رسالته][2] على الجمع، وكذلك في الأَعراف ﴿بِرِسَـٰلَـٰتِى﴾[3]، وقرأَ ابن كثير في المواضع الثلاثة بإفراد الرسالة، وقرأَ نافع [رِسَالاتِهِ] بالجمع، وكذلك في الأَنعام، وأَفرد في الأَعراف، وقرأَ ابن عامر وعاصم في رواية أَبي بكر بجمع الرسالة في المواضع الثلاثة، وروى حفص عن عاصم الإفراد في العقود والأَنعام، والجمع في الأَعراف، فمن أفرد (الرسالة) فلأَن الشرع كله شيءٌ واحد

= اختار أن تكون [سَاءَ] هنا هي المتصرفة وتحتاج إلى تقدير المفعول، أي: ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين، وأجاز أن تكون غير المتصرفة وتحتاج إلى تمييز، أي ساء عملا ما كانوا يعملون ـ أما الزمخشري فاختار أن تكون غير المتصرفة لأن في ذلك التعجب، كأنه قيل: ما أسوأ عملهم. ذكره في (البحر المحيط).

(١) النائل: ما ينال ويُدرك، أو العطية، فكلام ابن عطية يتفق تماماً مع قصد الشاعر، وإلا كذَّب الكلام بعضه بعضاً.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) من قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ الآية (١٤٤).

وجملة بعضها من بعض ، ومن جمع فمن حيث الشرع معان كثيرة وورد دُفَعاً في أزمان مختلفة ، وقالت عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: من زعم أَن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد أَعظم الفرية ، والله تعالىٰ يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية[١]. وقال عبد الله بن شقيق: «كان رسول الله ﷺ يعتقبه أَصحابه يحرسونه ، فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ خرج فقال: يـأَيُّها الناس الحقوا بملاحقكم فإن الله قد عصمني»[٢]. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ بسبب الأَعرابي الذي اخترط سيف النبي ﷺ ليقتله به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هو غورث بن الحارث ، والقصة في غزوة ذات الرقاع[٣] ، وقال ابن جريج: كان رسول الله ﷺ يهاب قريشاً ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ استلقى وقال: من شاءَ فليخذلني، مرتين أَو ثلاثاً[٤].

و﴿ يَعۡصِمُكَ﴾ معناه: يحفظك ويجعل عليك وقاية ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[٥] ، ومنه قول الشاعر:

فقلتُ عليكُمْ مالِكاً إِنَّ مالكاً ... سيعصِمُكُمْ إِنْ كان في الناسِ عاصِمُ[٦]

وهذه القصة التي في الآية هي من المخاوف التي يمكن أَن توقف عن شيءٍ من

---

(١) الحديث في الصحيحين بلفظ: «فقد كذب» ، وفي الطبري عن مسروق الأجدع بلفظ: «لقد أعظم الفرية». (فتح القدير والطبري).

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن شقيق ـ (الدر المنثور) والأحاديث المروية في هذا كثيرة وهي ثابتة في الصحاح.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار نزل بذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه ، قال غورث بن الحارث: لأقتلن محمداً ، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به ، فأتاه فقال: يا محمد ، أعطني سيفك أشمه ، فأعطاه إياه ، فرعدت يده ، فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد ، فأنزل الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ. . . ﴾ الآية.

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن جريج. (الدر المنثور).

(٥) من قوله تعالىٰ في سورة هود: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ الآية (٤٣).

(٦) لم نقف على نسبة البيت ـ والعاصم هو الحامي من الأعداء. أو من أحداث الزمان، وقوله: عليكم مالكاً ـ أي: الزموه وقت الشدائد والمحن يحميكم ويدفع عنكم غائلات الزمان.



التبليغ ، كالقتل والأَسر والأَذى في الجسم ونحوه ، وأَما أَقوال الكفار ونحوها فليست في الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمَّا على الخصوص فيمن سبق في علم الله أَنه لا يؤمن ، وإما على العموم على أَن لا هداية في الكفر ، ولا يهدي الله الكافر في سبل كفره.

ثم أَمر تعالىٰ نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أَن يقول لأَهل الكتاب الحاضرين معه ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أَي: على شيءٍ مستقيم حتى تقيموا التوراة والإِنجيل ، وفي إِقامة هذين الإِيمان بمحمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني به القرآن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، ثم أَخبر تعالىٰ نبيَّه أَنه سيطغى كثير منهم بسبب نبوة محمد ﷺ ، ويزيده نزول القرآن والشرع كفراً وحسداً ، ثم سلاَّه عنهم وحقَّرهم بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَي: لا تحزن إِذا لم يؤمنوا. ولا تُبالِ بهم ، والأَسى: الحزن. يقال: أَسِيَ الرجل يأْسَى أَسىً إِذا حزن ، ومنه قول الراجز:

وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى[1]

وأَسند الطبري إِلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءَ رسول الله ﷺ رافعُ بن جارية ، وسلام بن مِشْكَم ، ومالك بن الصَّيف ، ورافعُ بن حُرَيْملة فقالوا: يا محمد ، أَلست تزعم أَنك على ملة إِبراهيم وأَنك تؤمن بالتوراة وبنبوَّة موسى ، وأَن جميع ذلك حق؟ قال: بلى ، ولكنكم أَحدثتم وغيَّرتم وكتمتم ، فقالوا: إِنا نأْخذ بما في أَيدينا فإِنه الحق ، ولا نصدقك ولا نتَّبعك ، فنزلت الآية بسبب ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية[2].

---

(١) قال في (اللسان): تحلَّب العَرَق وانحلب: سال: وتحلَّب فوه: سال ، وتحلَّبت عيناهوانحَلَبتا قال:
وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ طولِ الأسى
ولم ينسب الرجز إلى أحد.

(٢) أخرجه ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما.



قوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ لفظ عامٌّ لكل مؤمن مِنْ ملَّة محمد ومن غيرها من الملل، فكأَن أَلفاظ الآية حصر بها الناس كلهم، وبينت الطوائف على اختلافها، وهذا تأويل جمهور المفسرين، وقال الزَّجاج: المراد بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المنافقون، فالمعنى: إن الذين آمنوا بأَفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن أَلفاظ الآية عدَّت الطوائف التي يمكن أن تنتقل إِلى الإيمان، ثم نفى عنهم الخوف والحزن بشرط انتقالهم إِلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى التأويل الأَول يكون قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ في حيز المؤمنين، بمعنى: ثبت واستمر، وقد تقدم تفسير: [هَادُوا] وتفسير [الصابئين] وتفسير [النصارى] في سورة البقرة.

واختلف القراءُ في إِعراب «الصابئين» في هذه الآية ـ فقرأَ الجمهور: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأَمصار والقراءِ السبعة، وقرأَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها، وأُبي بن كعب، وسعيد بن جُبير، والجحدري: [الصَّابئين] وهذه قراءَة بيِّنة الإعراب. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والزهري: [والصابِيُون] بكسر الباء وضم الياء دون همز، وقد تقدم في سورة البقرة.

وأَما قراءَة الجمهور: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ فمذهب سيبويه والخليل ونُحاة البصرة أَنه من المقدم الذي معناه التأْخير، وهو المراد به، كأَنه قال: «إِن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك»، وأَنشد الزجاج نظيراً في ذلك:

وإِلا فَـاعْلَمُـوا أَنَّـا وأَنْتُـم ... بُغَـاةٌ مـا بَقِينـا فـي شقـاق[1]

---

(١) هذا البيت لبشر بن أبي حازم، والبغاة: جمع باغ وهو الساعي في الفساد، الشقاق: الخلاف ومثله قول ضابئ البُرْجمي: =



فقوله: «وأَنتُم» مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى، أَي: وأَنتم كذلك.

وحكى الزجاج عن الكسائي والفراءِ أَنهما قالا: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ عطف على ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، إِذ الأَصل في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الرفع، وإِذ نصب (إِنَّ) ضعيف[1]. وخطَّأَ الزجاج هذا القول وقال: (إِنَّ) أَقوى النواصب، وحكى أَيضاً عن الكسائي أَنه قال: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ عطف على الضمير في ﴿هَادُواْ﴾ والتقدير: «هادوا هم والصابئون» وهذا قول يردُّه المعنى: لأَنه يقتضي أَن الصابئين هادوا، وقيل: (إِنَّ) بمعنى (نعم)، وما بعدها مرفوع بالابتداءِ[2]، وروي عن بعضهم أَنه قرأَ: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ بالهمزة.

واتصال هذه الآية بالتي قبلها هو أَن قيل لهم: ليس الحق في نفسه على ما تزعمون من أنكم أَبناءُ الله وأَحباؤُه، بل لستم على شيءٍ مستقيم حتى تؤمنوا وتقيموا الكتب المنزلة، ثم استأْنف الإِخبار عن الحق في نفسه بأَنه من آمن في كل العالم فهو الفائز الذي لا خوف عليه.

وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية استئناف خبر بفعل أَوائلهم، وما نقضوا من العهود واجترحوا من الجرائم، أَي: «إِن العَصَا مِن العُصَيَّة»[3]. وهؤلاءِ يا محمد من أُولئك، فليس قبيح فعلهم ببدع.

و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف والعامل فيه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ و﴿يَقْتُلُونَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا لَا

= فَمَنْ يَكُ أمسى بالمدينة رحْلُهُ ... فإني وقيَّارٌ بها لَغَريبُ

فإنه يقول: من كان بيته بالمدينة، فإني وفرسي (قيار غريب) والشاهد أنه قال: فإني لغريب، وقيَّارٌ كذلك.

(١) ذكر علَّتين للرفع نقْلاً عن الكسائي والفراء: الأولى بقوله: «إذ الأصل في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الرفع»، والثانية بقوله: «وإذْ نصب (إنَّ) ضعيف» ـ فـ (إذ) الثانية معطوفة على (إذ) الأولى. وقد ذكر أبو حيان في البحر أن الكسائي يجيز رفع المعطوف على الموضع سواء كان الاسم مما خفي فيه الإعراب أو مما ظهر، وأما الفراء فإنه يجيز ذلك بشرط خفاء الإعراب، وقد تحقق هنا.

(٢) قال في (البحر): «وهذا ضعيف، لأن ثبوت (إن) بمعنى (نعم) فيه خلاف بين النحويين، وعلى تقدير ثبوت ذلك من لسان العرب فتحتاج إلى شيء يتقدمها تكون تصديقاً له، ولا تجيء ابتدائية أول الكلام من غير أن تكون جواباً لكلام سابق». ا هـ. (٣ ـ ٥٣١).

(٣) العصا: فرس جذيمة، والعصية: أُمُّها، يضرب في مناسبة الشيء سِنْخَه (أَصْلَه)، وكانتا كريمتين، ويروى: «العصا من العصية، والأفعى بنت حية» والمعنى أن العود الكبير ينشأ من الصغير الذي غرس أولاً يضرب للشيء الجليل الذي يكون في أوله حقيراً» (المستقصى في أمثال العرب ـ للزمخشري).

﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ يقتضي أَن هواهم كان غير الحق ، وهو ظاهر هوى النفس متى أُطلق ، فمتى قُيِّد بالخير ساغ ذلك ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أَسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أَبو بكر رضي الله عنه ، ولم يهْو ما قلت أَنا. وقوله تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ معناه: كذبوه فقط ، يريد: الفريق من الرسل ، ولم يقتلوه ، وفريقاً من الرسل كذبوه ، وقتلوه فاكتفى بذكر القتل إِذ هو يستغرق التكذيب.

قوله عز وجل:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

المعنى في هذه الآية: وظن هؤلاءِ الكفرة والعصاة من بني إِسرائيل أَلا يكون من الله ابتلاءٌ لهم وأَخذ في الدنيا وتمحيص فَلَجُّوا في شهواتهم ، وعموا فيها إِذ لم يتبصروا الحق شبهوا بالعمي ، وصموا إِذْ لم يسمعوه شبهوا بالصم ، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «حُبُّك الشيءَ يعمي ويُصم»(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ـ قالت جماعة من المفسرين: هذه التوبة هي ردهم إِلى بيت المقدس بعد الإِخراج الأَول وردّ ملكهم وحالهم ، ثم عموا وصموا بعد ذلك حتى أُخرجوا الإِخراج الثاني ، ولم يُجبروا أَبداً ، وقالت جماعة: ثم تاب الله عليهم ببعث عيسى عليه السلام إِليهم. وقالت جماعة: توبته تعالىٰ عليهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام ، وخص بهذا العمى(٢) كثيراً منهم لأَن منهم قليلا قد آمن. ثم توعدهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بنصب النون ، وقرأ أَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي: [أَن لا تكونُ] برفع النون ، ولم يختلفوا في رفع

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ـ عن أبي الدرداء في اعتلال القلوب عن أبي برزة بن عساكر ، عن عبد الله بن أنيس ـ ورمز له في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

(٢) جاء في بعض النسخ: وخص بهذا المعنى ، وما أثبتناه عن بقية النسخ أقرب إلى الصواب لأنه المناسب لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.



[فتنة] لأن (كان) هنا هي التامة ، فوجه قراءَة النصب أن تكون [أَنْ] هي الخفيفة الناصبة ، ووجه قراءَة الرفع أَن تكون المخففة من الثقيلة ، وحسُن دخولُها لأَن (لا) قد وطَأَت أَنْ يليها الفعْل ، وقامت مقام الضمير المحذوف عِوَضاً منه ، ولا بُدَّ في مثل هذا من عوض[1] ، مثل قولك: علمت أَن قد يقوم زيد ، وقوله عز وجل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾[2] ، وقولك: علمت أَن سوفَ يقومُ زيد ، وأَن لا تكونُ فتنةٌ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] حسن فيه أَلا يكون عِوَضٌ لأَن (لَيس) لَيْس بفعل حقيقي ، والأَفعال ثلاثة ضروب: ضربٌ يجري مجرى تيقَّنت ، نحو علمْتُ ودريت ، فهذا الضرب تليه (أَن) الثقيلة التي تناسبه في الثبوت وحصول الوقوع ، وضرب في الضد من ذلك ، نحو طمعْت ورجوت وخفت ، هو مصرح بأَن لم يقع ، فهذا الضرب تليه (أَن) الخفيفة إِذ هي تناسبه ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾[4] ، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾[5] ، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[6] و﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[7] و﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟﴾[8] ونحو هذا ، وضرب ثالث ينجذب إِلى الأَول مرة وإِلى الثاني أَحياناً نحو ظننت وحسبت وزعمت ، فيجري مجرى أَرجو وأَطمع من حيث الظن والزعم والمحسبة أُمور غير ثابتة ولا مستقرة ، وقد تنزل منزلة العِلْم من حيث يستعمل استعماله كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) زيادة على ما أشار إليه ابن عطية من وجود العوض فإنهم نزّلوا (حسب) منزلة (عَلِم) لأنها استعملت في المتيقن قليلاً ـ كما أشار هو بعد ذلك ـ قال الشاعر:

حَسِبْتُ التُّقَى والجُودَ خَيْرُ تجَارَةٍ ... رباحاً إذا ما المَرْءُ أَصْبَحَ ثاقلا

ومثل (حسب) في ذلك (زعم) قال الشاعر:

ألا زَعَمَتْ بسْباسَةُ اليَوْمَ أنَّني ... كَبِرْتُ وأنْ لا يَشْهَدُ اللَّهْوَ أَمْثالي

(٢) المزمل: ٢٠.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) من قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ الآية (٨٢).

(٥) من قوله تعالىٰ: في سورة الأنفال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الآية (٢٦).

(٦) من قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ الآية (٢٢٩).

(٧) الكهف: ٨٠.

(٨) من قوله تعالىٰ في سورة المجادلة: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ الآية (١٣).

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[(١)] ، وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[(٢)].

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بفتح العين والصاد ، وقرأ ابن وثاب ، والنَّخعي: [عُمُوا وصُمُّوا] بضم العين والميم مخففة ، وبضم الصاد ، وهذا هو على أَن تجري مجرى: زُكم الرجل وأَزكمه الله ، وحُم الرجل وأَحمه الله ، ولا يقال: زكمه الله ولا حَمَّه الله. فكذلك يجيءُ هذا: عُمي الرجل وأَعماه غيره ، وصُم وأَصمه غيره ، ولا يقال: عميته ولا صممته[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: رجع بهم إِلى الطاعة والحق ، ومن فصاحة اللفظ استناد هذا الفعل الشريف إِلى الله تعالىٰ ، واستناد العمى والصمم اللذين هما عبارة عن الضلال إِليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَثِيرٌ﴾ يرتفع من إِحدى ثلاث جهات ـ إِما على البدل من الواو في قوله: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ، وإِمَّا على جمع الفعل وإِن تقدم على لغة من قال: «أَكلوني البراغيث» ، وإِمَّا على أَن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر[(٤)].

ثم أَخبر تعالىٰ إِخباراً مؤكداً بلام القسم عن كفر القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وهذا قول اليعقوبية من النصارى ، ثم أَخبر تعالىٰ عن قول المسيح لهم

---

(١) البقرة: ٤٦.
(٢) الحاقة: ١٠.
(٣) قال في (البحر المحيط) عن «زكم وحمّ» وأمثالهما: وهي أفعال جاءت مبنية للمفعول الذي لم يُسم فاعله ، وهي متعدية ثلاثية ، فإذا بنيت للفاعل صارت قاصرة ، فإذا أردت بناءها للفاعل متعدية أدخلت همزة النقل ، وهي نوع غريب في الأفعال.
أما الزمخشري فيقول: «وعُمُوا وصُمُّوا» بالضم على تقدير: عماهم الله وصمهم ، أي: رماهم بالعمى والصمم ، كما يقال: نَزَكْتُهُ إذا ضربته بالنيزك ، وركَبْتُه إذا ضربته بركبتك» ا هـ.
(٤) ذكر ثلاثة أوجه في إعراب ﴿كَثِيرٌ﴾ الأول: البدل من الواو ـ قال الأخفش سعيد: كما تقول: «رأيت قومك ثلثيهم»، الثاني: أن تكون على لغة من يجمع الفعل ـ أي اللغة المشهورة بلغة أكلوني البراغيث ، قال القرطبي: وعليه قول الشاعر: وهو الفرزدق:

ولكِــنْ ديــافــيٌّ أبــوه وأُمـــه ... بحَـوْرَانَ يَعْصِـرْنَ السليـط أقـاربُـهْ

ودياف: قرية بالشام أو بالجزيرة، والسليط: الزيت ـ والبيت في هجاء عمرو بن عفراء.
وعليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾. الثالث: أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر متبدأ مضمر تقديره: العميُ والصُّم كثير منهم ، ثم قال القرطبي: ويجوز في غير القرآن (كثيراً) بالنصب ، ويكون نعتاً لمصدر محذوف.



وتبليغه كيف كان ، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، وهذه المعاني قول المسيح بألفاظ لغته ، وهي بعينها موجودة في تبليغ محمد ﷺ في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾(١) ، إلى غير ذلك من الآيات ، وأخبرهم عيسى عليه السلام أن الله تعالىٰ هو ربُّه وربُّهم فضلُّوا هم وكفروا بسبب ما رأوا على يديه من الآيات.

والمأوى هو المحلُّ الذي يسكنه المرءُ ويرجع إليه ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ يحتمل أن يكون من قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل ، و يحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً لمحمد ﷺ ، وقد تقدم القول في تفسير لفظة (المسيح) في سورة آل عمران.

قوله عز وجل:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هذه الآية إخبار مؤكد كالذي قبله ، وهو عن هذه الفرقة الناطقة بالتثليث ، وهي ـ فيما يقال ـ الملكية ، وهم فرق من النسطورية وغيرهم ، ولا معنى لذكر أقوالهم في كتاب تفسير ، إنما الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عدداً ، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكماً إلهياً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ لا يجوز فيه إلا الإضافة وخفض ﴿ ثَلَٰثَةٍ ﴾ ، لأن المعنى: أحد ثلاثة ، فإن قلت: زيد ثالث اثنين ، أو رابع ثلاثة جاز لك أن تضيف كما تقدم ، وجاز ألا تضيف وتنصب ثلاثة على معنى: زيد يربع ثلاثةً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ خبر صادق بالحق وهو الخالق المتبدع المتصف بالصفات العلى ، تعالىٰ عما يقول المبطلون.

ثم توعد تبارك وتعالىٰ هؤلاءِ القائلين هذه العظيمة بِمَسّ العذاب ، وذلك وعيد

(١) النساء: ١١٦.



بعذاب الدنيا من القتل والسبي ، وبعذاب الآخرة بعْدُ ، لا يفلتُ منه أحدٌ منهم .

ثم رفق جل وعلا بهم بتحضيضه إياهم على التوبة وطلب المغفرة ، ثم وصف نفسه بالغفران والرحمة استجلاباً للتائبين وتأنيساً لهم ليكونوا على ثقة من الانتفاع بتوبتهم .

ثم أخبر تعالىٰ عن حقيقة أمر المسيح وأنه رسول بشر كالرسل المتقدمة قبله . و﴿ خَلَتْ ﴾ معناه: مضت وتقدمت في الخلاءِ من الأرض ، وقرأ حطان بن عبد الله الرقاشي: [قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ] بتنكير الرسل ، وكذلك قرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[1] وقد مضى القول على وجه هذه القراءَة هناك .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ صفة ببناءِ مبالغة من الصدق ، ويحتمل أن يكون من التصديق ، وبه سُمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه لتصديقه ، وهذه الصفة لمريم تدفع قول من قال: هي نبيّة ، وقد يوجد في صحيح الحديث قصص قوم كلمتهم ملائكة في غير نبوة كقصة الثلاثة: الأقرع والأعمى والأبرص وغيرهم[2] ، ولا تكون هنالك نبوة ، فكذلك أمر مريم .

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ تنبيه على نقص البشرية وعلى حال من الاحتياج إلى الغذاء تنتفي معه الألوهية ، وذكر مكي ، والمهدوي ، وغيرهما أنها عبارة عن الاحتياج إلى الغائط ، وهو قول بشع ولا ضرورة تدفع إليه حتى يقصد هذا المعنى بالذكر ، وإنما هي عبارة عن الاحتياج إلى التغذي ، ولا محالة أن الناظر إذا تأمل بذهنه لواحق التغذي وجد ذلك وغيره .

ثُمَّ أمر تعالىٰ محمداً ﷺ ـ وفي الضمن أُمته ـ بالنظر في ضلال هؤلاءِ القوم وبُعدهم عن سنن الحق ، وأن الآيات تُبَيَّن لهم وتُبْرَز في غاية الوضوح ، ثم بعد ذلك يُصْرفون ، أي: تصرفهم دواعيهم ويزيلهم تكسبهم عن الحق .

---

(١) آل عمران: ١٤٤ .

(٢) روى البخاري عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأعمى وأقرع بدا لله عز وجل أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ، قد قذرني الناس ، قال فمسه فذهب عنه ، فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل ، أو قال البقر . . إلى آخر الحديث ، وهو طويل ، أثبته البخاري في كتاب (بدء الخلق) ـ باب (ما ذكر عن بني إسرائيل) . والثابت فيه أن الملائكة كلمت الثلاثة . وهو مقصد ابن عطية في الإشارة إلى هذا الحديث.



و﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية ليست سؤالاً عن حال، لكنها عبارة عن حال شأنها أن يُسأَل عنها بكيف، وهذا كقولك: كن كيف شئت فأنت صديق.

و﴿أَنَّى﴾ معناها: من أي جهة، قال سيبويه: معناها: كيف؟ ومن أين؟.

و﴿يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يصرفون، ومنه قوله عز وجل: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[(1)]، والأرض المأفوكة: التي صرفت عن أن ينالها المطر، والمطر في الحقيقة هو المصروف، ولكن قيل: أرض مأفوكة لمَّا كانت مأفوكة عنها[(2)].

قوله عز وجل:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أمر الله تعالىٰ نبيه أن يوقفهم على عبادتهم شخصاً من البشر لا يملك أن يضرهم ولا أن ينفعهم.

و﴿مِن دُونِ﴾ و«دُونَ فُلان» وما جاءَ من هذه اللفظة فإنما تُضاف إلى من ليس في النازلة التي فيها القول، وتفسيرها بـ(غير) أمر غير مطرد.

والضَّر ـ بفح الضاد ـ المصدر، والضُّر ـ بضمها ـ الاسم، وهو عدم الخير.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ إشارة إلى تحصيل أقوالهم، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، وقال بعض المفسرين: هاتان الصفتان منبِّهتان على قصور البشر، أي: والله تعالىٰ هو السميع العليم بالإطلاق لا عيسى ولا غيره، وهم مُقِرُّون أن عيسى قد كان مُدَّةً لا يسمع ولا يعلم، وقال نحوه مكي[(3)].

---

(١) الذاريات: ٩.

(٢) قال في (البحر): «كرر الأمر بالنظر لاختلاف المتعلَّق، لأن الأول أمر بالنظر في كونه تعالىٰ أوضح لهم الآيات وبيَّنها بحيث لا يقع معها لبس، والأمر الثاني بالنظر في كونهم يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، أو في كونهم يقلبون ما بين لهم إلى الضد منه، وهذان أمرا تعجيب، ودخلت (ثم) لتراخي ما بين العجبين». (٣ ـ ٥٣٨).

(٣) القول بأن عيسى عليه السلام قد كان مُدَّة لا يسمع ولا يعلم أخذها بعض العلماء وجعلها سبباً للتعبير=



ثم أمر تعالىٰ نبيه محمداً أَن ينهاهم عن الغلوّ في دينهم ، والغلو: تجاوز الحد ، غلا السهم: إذا تجاوز الغرض المقصود واستوفى سومَه من الاطراد[١] ، وتلك المسافة هي غلوته[٢] ، وكما كان قوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾ بمعنى: لا تقولوا ولا تلتزموا نصب (غيْرَ) ، وليس معنى هذه الآية: اجتنبوا من دينكم الذي أَنتم عليه الغلُو ، وإنما معناه: ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ الذي ينبغي أَن يكون دينكم ، لأَن كل إِنسان فهو مطلوب بالدين الحق ، وحريٌّ أَن يتبعه ، ويلتزمه ، وهذه المخاطبة هي للنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام ، والقوم الذين نهي النصارى عن اتباع أَهوائهم بنو إِسرائيل ، ومعنى الآية: لا تتبعوا أَنتم أَهواءَكم كما اتبع أُولئك أَهواءَهم ، فالمعنى: لا تتبعوا طرائقهم ، والذي دعا إِلى هذا التأْويل أَن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إِسرائيل ، هم بالضد في الأَقوال ، وإِنما اجتمعوا في اتباع نوع الهوى ، فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج: هذه طريقة فلان: تمثله بآخر قد اعوج نوعاً آخر من الاعوجاج وإِن اختلفت نوازله.

ووصف تعالىٰ اليهود بأَنهم ضلوا قديماً وأَضلوا كثيراً من أَتباعهم ، ثم أَكد الأَمر بتكرار قوله تعالىٰ: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، وذهب بعض المتأَولين إِلى أَن المعنى: يا أَهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أَهواءَ هؤلاءِ اليهود الذين ضلوا من قبل ، أَي: ضلَّ أَسلافهم وهم قبل مجيءِ محمد عليه الصلاة والسلام ، وأَضلوا كثيراً من المنافقين ، وضلوا عن سواءِ السبيل الآن بعد وضوح الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآية ، قد تقرر في غير

= بـ (ما) في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ﴾ ففي اختيار (ما) تنبيه على أول أحواله ، إذ مرت عليه أزمان حالة الحمل لا يوصف فيها بالعقل ـ وقال سيبويه: (ما) مبهمة تقع على كل شيء ، وقيل: أُريد ما عبد من دون الله ممن يعقل ومما لا يعقل وعبر بما تغليباً لغير العاقل إذ أكثر ما عبد من دون الله هو لغير العاقل كالأوثان والأصنام. والله أعلم.

(١) يقال: سام أي: مَرَّ ، وسوم الرياح مَرُّها ، وقال الأصمعي السَّوْم: سرعة المَرِّ ، فمعنى قول ابن عطية: «واستوفى سَوْمَهُ» أي: سرعة مروره ، وقال غير الأصمعي: السَّوْم: سرعة المرِّ مع قصد الصوب في السير (اللسان).

(٢) الغَلْوَة: قدرُ رمية بسهم ، وقد تستعمل الغَلْوة في سباق الخيل ، والغلوة: الغاية ـ مقدار رمية. (اللسان).



موضع من القرآن ما جرى في مدة موسى عليه السلام من كفر بعضهم وعتوهم، وكذلك أَمْرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام كان مشاهداً في وقت نزول القرآن، فخصت هذه الآية داود وعيسى عليهما السلام إعلاماً بأنهم لعنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لعنوا على لسان غير موسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عهد داود عليه السلام في الزبور، وعلى عهد عيسى عليه السلام في الإنجيل، وعلى عهد محمد ﷺ في القرآن.

وروى ابن جريج أنه اقترن بلعنتهم على لسان داود عليه السلام أن مسخوا خنازير، وذلك أن داود عليه السلام مرَّ على نفر وهم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير، على معنى الانحجَاب، قال: اللّهم اجعلهم خنازير، فكانوا خنازير، ثم دعا عيسى عليه السلام على من افترىٰ عليه على أن يكونوا قردة، فكانوا قردة. وقال مجاهد وقتادة: بل مسخوا في زمن داود عليه السلام قردة، وفي زمن عيسى عليه السلام خنازير، وحكى الزجاج نحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر المسخ ليس مما تعطيه ألفاظ الآية، وإنما تعطي ألفاظ الآية أنهم لعنهم الله وأبعدهم من رحمته، وأعلم بذلك العباد المؤمنين على لسان داود النبي في زمنه، وعلى لسان عيسى في زمنه، وروي عن ابن عباس أنه قال: لعُن على لسان داود أصحاب السبت، وعلى لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى لعنتهم، وباقي الآية بيِّن.

قوله عز وجل:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ذم الله تعالىٰ هذه الفرقة الملعونة بأنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾



أَي أَنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي ، وإِنْ نَهى ناهٍ فعن غير جد ، بل كانوا لا يمتنع الممسك عن مواصلة العاصي ومؤاكلته وخلطته ، وروى ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: إِن الرجل من بني إِسرائيل كان إِذا رأَىٰ أَخاه على ذنب نهاه عنه تعزيراً ، فإِذا كان من الغد لم يمنعه ما رأَىٰ منه أَن يكون خليطه وأَكيله» فلما رأَى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى عليهما السلام ، قال ابن مسعود: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «لا والله حتى تأْخذوا على يدي الظالم فتأْطروه على الحق أَطراً»[1] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والإِجماع على أَن النهي عن المنكر واجب لمن أَطاقه ونهىٰ بمعروف وأَمن الضرر عليه وعلى المسلمين ، فإِن تعذر على أَحد النهي لشيءٍ من هذه الوجوه، ففرضٌ عليه الإِنكار بقلبه وأَلا يخالط ذا المُنكَر.

وقال حذاق أَهل العلم: ليس من شروط الناهي أَن يكون سليماً من المعصية ، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً. وقال بعض الأُصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أَن ينهى بعضهم بعضاً ، واستدل قائل هذه المقالة بهذه الآية ، لأَن قوله: ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾ و﴿فَعَلُوهُ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل ، وذمهم على ترك التناهي.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللام لام قَسَم ، وجعل الزَّجاج ﴿مَا﴾ مصدرية ، وقال: التقدير: لبئس شيئاً فعلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر. وقال غيره: ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة ، التقدير: لبئس الشيءُ[2] الذي كانوا يفعلون فعلا.

وقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا﴾ يحتمل أَن يكون رؤْية قلب ، وعلى هذا فيحتمل أَن يريد: من الأَسلاف المذكورين ، أَي: ترى الآن إِذا خبرناك ، ويحتمل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسَّنه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ـ عن ابن مسعود ـ وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة. وأحاديث في هذا الباب كثيرة. (فتح القدير ، والدر المنثور).

(٢) في بعض النسخ سقطت كلمة (الشيء) والمعنى صحيح.



أَنْ يريد: مِنْ مُعَاصري محمد ﷺ، لأنه كان يرى ذلك من أُمورهم ودلائل حالهم، ويحتمل أَن تكون رؤْية عين، فلا يريد إلا معاصري محمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أَي: قدمته للآخرة واجترحته، ثم فسَّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فإن ﴿سَخِطَ﴾ في موضع بدلٌ مِن ﴿مَا﴾ ويحتمل أَن يكون التقدير: هو أَن سخط الله عليهم، وقال الزجاج: ﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: بأَن سخط الله عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾ إِنْ كان المراد الأَسلاف فالنبي داود وعيسى عليهما السلام، وإِن كان المراد معاصري محمد فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم عبدة الأَوثان، وخصَّ الكثير منهم بالفسق إِذ منهم قليل قد آمن.

وذهب بعض المفسرين إلى قوله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ كلام منقطع من ذكر بني إِسرائيل. وأَنه يُعنى به المنافقون. وقال مجاهد رحمه الله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، يعني المنافقون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

اللاَّم في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ الابتداءِ، وقال الزجَّاج: هي لامُ قَسَم، ودخلتْ هذه النونُ الثَّقيلةُ لتفصل بين الحال والاستقبال(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خبر مطلق منسحبٌ على الزمن كلِّه، وهكذا هو الأَمر حتَّىٰ الآن، وذلك

---

(١) يرى ابن عطية أَن اللام لام الابتداء، ويخالفه أبو حيان في «البحر»، ورأي الزجاج أنها لام قسم، أما قوله: «ودخلت هذه النون...» فهذا هو رأي الخليل وسيبويه، وليس من رأي الزجاج أو قوله كما قد يُفهم من الكلام.

أَن اليهود مَرَنُوا(١) على تكذيب الأَنبياءِ وقَتْلهم، ودَرِبُوا العُتُوّ والمعاصي(٢)، ومَرَدُوا(٣) على استشعار اللعنة وضَرْبِ الذلة والمسكنة، فهم قد لَحجت(٤) عداوتهم، وكثُر حسدهم، فهم أَشد الناس عداوةً للمؤمنين، وكذلك المشركون عَبَدَةُ الأَوثان من العرب، والنِّيران من المجوس، لأَنَّ الإِيمانَ إِيَّاهم كَفَر، وعروشَهم ثَلَّ(٥) وبيَّن أَنهم ليسوا على شيءٍ من أَوَّلِ أَمرهم، فلم يبْق لهم بقيَّة، فعداوتُهم شديدة.

والنصارىٰ أَهل الكتاب يقضي لهم شرعُنا بأَن أَول أَمرهم صحيح لولا أَنهم ضلوا، فهم يعتقدون أَنهم لم يضلوا، وأَن هذه المِلَّة لم تنْسخ شرعهم(٦)، ويُعظمون من أَهل الإِسلام من استشعروا منهم صحَّةَ دِين، ويستهينون مَن فهموا منه الفسق، فهُمْ إِذا حاربوا فإِنَّما حرْبُهم أَنفةٌ وكسب لا أَن شرعهم يأْخذهم بذلك، وإِذا سالموا فسلمهم صافٍ، ويُعين على هذا أَنهم أُمة شريفة الخلق، لهم الوفاءُ والخلال الأَربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم(٧)، وتأَمل أَن النبي ﷺ سُرَّ حين غلبت الروم فارس،

(١) مَرَن على الشيء: تعوَّد تناوله بدون حياءٍ أو خجل. «المعجم الوسيط ـ مرن ـ» والكلمة دقيقة في وصف اليهود.

(٢) (دَرِبَ) على وزن (فرح) لا تتعدى بنفسها، يقال: درب به دَرَباً ودُرْبَةً: اعتاده وأُولع به، ودرب على الشيءِ: مرنَ وحذِق. ولعلَّ الخطأ في الأصول من النسَّاخ، والدليل على ذلك أن أبا حيَّان قد نقل عبارة ابن عطية هكذا: «وذلك أنهم مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، وعلى العُتُو والمعاصي.. الخ» بدون جملة (ودَربوا). والعتُو: الاستكبار ومجاوزة الحد.

(٣) (مَرَد): جاوز حَدَّ أمثاله في الطغيان، أو بلغ غاية يخرج بها من جملتهم، وفي التنزيل العزيز: (مَرَدُوا على النِّفاقِ).

(٤) لحجت العداوة: يريد تمكنت من صدورهم، ومنه: لَحَجَ السيف في غمده بمعنىٰ: نشب فيه ولم يخرج. (المعجم الوسيط).

(٥) أصل التعبير: «لأن الإيمان كفرَ إيَّاهم، وثَلَّ عروشهم» فقدم المفعول في الجملتين، ومعنى (ثَلَّ عرشَه) أذهب سلطانه، يقال: ثلَّ الدار: هَدَمَهَا، وثلَّ الكثيب ثلاًّ: هال تُرْبَه. (اللسان).

(٦) يريد بالملَّة: ملَّة المسلمين، فالنصارىٰ يعتقدون أن الإسلام لم ينسخ شريعتهم ـ وقد جاءَ في بعض النسخ (الآية) بدلاً من (الملَّة).

(٧) روىٰ مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المُسْتَوْردُ القُرَشي عند عمرو بن العاص: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصرِ ما تقول، قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلتَ ذلك إنَّ فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد معصية، وأوشكهم كَرَّةً بعد فَرَّة، وخيرهم لِمسْكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».



وذلك لكونهم أَهلَ كتاب، ولم يُرد عليه الصلاة والسلام أَن يستمر ظهور الروم، وإِنما سُرَّ بغلبة أَهل كتاب لأَهل عبادة النار، وانضاف إِلى ذلك أَن غلب العدو الأَصغر وانحصرت شوكة العدوّ الأَكبر المخوف على الإِسلام.

واليهود ـ لعنهم الله ـ ليسوا على شيءٍ من هذا الخُلُق، بل شأْنُهم الخُبثُ والليُّ بالأَلسنة، وفي خلال إِحسانك إِلى اليهودي يبغيك هو الغوائل[1] إِلا الشاذَّ القليل منهم مِمَّن عسىٰ أَن تخصص بأَدب وأُمور غير ما عُلّم أَولاً.

ولم يصف الله تعالى النصارى بأَنهم أَهل وُدٍّ، وإِنما وصفهم بأَنهم أَقرب من اليهود والمشركين، فهو قرب مودة بالنسبة إِلىٰ متباعدين.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إِلى أَن المعاصرين لمحمد ﷺ من النصارى ليسوا على حقيقة النَّصرانية، بل كونُهم نصارىٰ قولٌ منهم وزعْم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ معناه: ذلك بأَن منهم أَهلَ خشية وانقطاع إِلى الله وعبادةٍ وإِن لم يكونوا على هدىٰ، فهم يميلون إِلى أَهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كان قط أَهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم مُعَظِّمون لها، متطاولون في البنيان وأُمور الدنيا حتى كأَنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يُرى فيهم زاهد.

ويقال: قَِسٌّ بفتح القافِ وبكسرها وقسِّيس، وهو اسم أَعجمي عرّب، والقَسُّ في كلام العرب: النميمة، وليس من هذا[2].

---

(١) أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما خلا يهودي بمسلم إلا همَّ بقتله، وفي لفظ: إلا حدَّث نفسه بقتله. (الدر المنثور ٢ـ ٣٠٢). والحديث لا أصل له.

(٢) القسِّيس: العالم، وأصله من قَسَّ إذا تتبَّع الشيءَ فطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يُمْسين مِنْ قَسِّ الأذىٰ غَوافِلاَ لا جَعْبَرِيَّاتٍ وَلا طَهَامِلا

والجعبريات: القصار، واحدتها: جَعْبَرَة، والطَّهامل: الضخام مع قبح الخِلقة، واحدتها: طَهْملة. والقَسُّ أيضاً: رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم، وجمعه قسوس وقسِّيس، على مثال: شَرٍّ وشرِّير، ويجمع قسيس تكسيراً على قساوسة بإبدال إحدى السينين واواً. (راجع: لسان العرب ـ والقرطبي، وفتح القدير).



وأَما الرهبان فجمع راهب، وهذه تسمية عربية، والرَّهَب: الخوف، ومن الشواهد على أَن الرهبان جمعٌ قول الشاعر:

رُهْبـانُ مـدْيَـنَ لـوْ رَأَوْكِ تَنَـزَّلُـوا ... والعُصْمُ مِن شَعَفِ العُقُولِ الفادِرُ(١)

وقد قيل: الرهبان اسم مفرد، والدليل عليه قول الشاعر:

لـو عـايَنَـتْ رُهْبـانَ دَيْـرٍ فـي القُلَـلْ ... تحـدَّر الـرهْبـانُ يَمْشـي وَنَـزَلْ(٢)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويروىٰ: ويَزِلّ بالياءِ من الزلل، وهذه الرواية أَبلغ في معنى غلبة هذه المرأَة علىٰ ذهن هذا الراهب. ووصف الله تعالىٰ النصارىٰ بأَنهم لا يستكبرون، وهذا بيّن موجود فيهم حتىٰ الآن، واليهودي متى وجد غروراً طغىٰ وتكبر، وإِنما أَذلهم الله وأَضرعتهم الحمىٰ، وداسهم كلكل الشريعة، ودينُ الإِسلام أَعلاه الله.

وذكر سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن عباس أَن هذه الآية نزلت بسبب وفْد بعثهم النجاشيّ إِلىٰ رسول الله ﷺ ليروْه ويعرفوا حاله، فقرأَ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إِلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ.

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة مطلعها:

طَـربَ الحَمَـامُ بِـذي الأَراكِ فَهَـاجَنـي ... لا زلْـتَ فـي غَلَـلٍ وَأَيْـكٍ نَـاضِـر

والخطاب في قوله: «لو رأوك» لمن خاطبها في البيت السابق على البيت الذي استشهد به ابن عطية: «يا أم طلحةَ مالقينا مثلكم»، والعصم: الوعول، وإنما سميت عُصْماً لبياضٍ في أيديها، والفادرُ: المُسنُّ منها، وجمعه: فُدُور، والعُقُول: المتحرزة في شعف الجبال، وشعف كل شيء: أعلاه، يقول: لو أن رهبان مدين المعروفين بالنسك والتصون رأوك لنزلوا من صوامعهم، وكذلك الوعول المسنة التي اعتصمت في أعالي الجبال.

(٢) روى صاحب اللسان البيت هكذا:

لـوْ كَلَّمَـتْ رُهْبَـانَ دَيْـر فـي القُلَـلْ ... لانْحَـدَرَ الـرُّهْبَـانُ يَسْعَـى فَنَـزَلْ

ولم ينسبه، بل قال: أنشد ابن الأعرابي، وكذلك رواه في التاج. ورواه في تفسير القرطبي: «لَوْ أَبْصَرَتْ ... في الجبل»، وكذلك رواه في «فتح القدير»، أما في «البحر» فقد رواه كما رواه ابن عطية، والقلل: جمع قلة وهي قمة الشيء وأعلاه، وإذا كان الرهبان جمعاً كما هو المشهور فالمفرد راهب، والفعل رهبَ، والتَّرَهُّب هو التعبد في صومعة، قال النابغة:

لَـوْ أَنَّهَـا عَـرَضَـتْ لأَشْمَـطَ راهِـبٍ ... عَبَـدَ الإِلَـهَ صَـرُورَةٍ مُتَعَبِّـدِ

لَـرَنَـا لِـرُؤْيَتِهَـا وَحُسْـنِ حَـدِيثِهَـا ... ولَخَـالَـه رَشَـداً وإِنْ لَـمْ يَـرْشُـدِ

والصرورة: الذي لم يأت النساء.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورویٰ أَن نَعْش النَّجاشي كُشفَ للنبي ﷺ فكان يراه من موضعه بالمدينة، وجاءَ الخبر بعد مدة أَن النجاشي دفن في اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ عليه، وذكر السُّدي أَنهم كانوا اثني عشر، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً. وقال أَبو صالح: كانوا سبعة وستين رجلاً، وقال سعيد بن جُبير: كانوا سبعين، عليهم ثيابُ الصوف، وكلهم صاحب صومعه، اختارهم النجاشي الخيِّر فالخيِّر، وذكر السدي أَن النجاشي خرج مهاجراً فمات في الطريق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لم يذكره أَحد من العلماء بالسيرة.

وقال قتادة: نزلت هذه الآيات في قوم كانوا مؤمنين ثم آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفرق الطبري بيْن هذين القولين وهما واحد.

وروى سلمان الفارسي عن النبي ﷺ: «ذلِك بأَنَّ منْهم صِدِّيقين ورُهْباناً»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ﴾ الآية، الضمير في ﴿سَمِعُوا۟﴾ ظاهِرُه العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين مِن أَرض الحبشة، إِذ هم عرفوا الحق وقالوا: آمنا، وليس كل النصارى يفعل ذلك، وصدْر الآية في قُرْب المودة عام فيهم، ولا يتوجه أَن يكون صدر الآية خالصاً فيمن آمن، لأَنَّ من آمن فهو من الذين آمنوا وليس يقال فيه: «قالوا: إِنا نصارىٰ»، ولا يقال في مؤمنين: «ذلك بأَن منهم

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله، وابن أبي شيبة في مسنده، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والحارث بن أُسامة في مسنده، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبزار، وابن الأنباري في المصاحف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه ـ عن سلمان أنه سئل عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ قال: الرهبان الذين في الصوامع، نزلت على رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُم صِدِّيقينَ وَرُهْبَاناً»، ولفظ البزار: دع القسِّيسين: أَقْرَأَني رسول الله ﷺ: [ذَلِك بأَنَّ مِنهُمْ صِدِّيقينَ]، ولفظ الحكيم الترمذي: قرأت على النبي ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ فأَقرَأَني: «ذَلِكَ بأَنَّ مِنهُم صِدِّيقينَ». (الدر المنثور ٢ـ ٣٠٤).



قسِّيسين»، ولا يقال: «إنهم أقرب مودة»، بل مَنْ آمن فهو أهل مودة محضة، فإنما وقع التخصيص من قوله تعالىٰ: ﴿۞وَإِذَا سَمِعُوا۟﴾، وجاءَ الضمير عامًّا إِذْ قد تُحمد الجماعة بفعل واحد منها، وفي هذا استدعاءٌ للنصارى ولطفٌ من الله تعالىٰ بهم، ولقد يوجد فيض الدموع غالباً فيهم وإن لم يؤمنوا[١].

وروي أَن وفداً من نجران قدم على أَبي بكر الصديق في شيءٍ من أُمورهم، فأَمر مَنْ يقرأُ القرآن بحضرتهم، فبكوا بكاءً شديداً، فقال أَبو بكر: هكذا كنا ولكن قست القلوب.

وروي أَن راهباً من رهبان ديارات الشام نظر إِلىٰ أَصحاب النبي ﷺ ورأَى عبادتهم وجِدَّهم في قتال عدوهم فعجب من حالهم وبكىٰ وقال: ما كان الذين نُشروا بالمناشير على دِين عيسىٰ بأَصبر من هؤُلاءِ ولا أَجَدَّ في دينهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالقوم الذين وُصفوا بأَنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي ﷺ ويسمعوا ما عنده، فلما رأَوه قرأَ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فاضت أَعينهم بالدمع من خشية القلوب.

والرؤْية في الآية رؤْية العين، و﴿تَفِيضُ﴾ حالٌ من (الأعين)[٢]، و﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ أَيضاً، و﴿ءَامَنَّا﴾ معناه: صدقنا أَن هذا رسولك، والمسموع كتابك. والشاهدون: محمد وأُمته. قاله ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما.

---

(١) هذا تعليل لطيف مقبول، وقد اتفق القرطبي مع ابن عطية في أن المدح لمن آمن من النصارى بمحمد ﷺ دون من أصَرَّ منهم على كفره، قال: ولهذا قال: ﴿وأَنَّهُم لا يَسْتَكْبِرون﴾ أي عن الانقياد إلى الحق.

(٢) معنى ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أنها تمتلىء فتفيض، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، وقد جعل الأعين تفيض والفائض إنما هو الدمع قصداً للمبالغة، كقولهم: دمعت عينُه، قال امرؤُ القيس:

ففاضَتْ دموعُ العيْنِ مِني صَبَابَةً ... على النَّحْر حتى بَلَّ دَمْعي مِحْمَلي

و(من) في ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ قال فيها أبو البقاء: يمكن أن تكون لابتداء الغاية، أي: فيضها من كثرة الدموع، ويمكن أن تكون حالاً، والتقدير: تفيض مملوءة من الدمع مما عرفوا من الحق. وقال بعضهم (مِنْ) بمعنى الباء، أي: تفيض بالدمع. و(مِن) في ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيانيَّة، والمعنى: كان الفيض ناشئاً من معرفة الحق. قاله أبو حيان في «البحر المحيط» نقلاً عن الزمخشري في «الكشاف» وعن غيره.



وقال الطبري: لو قال قائلٌ: معنى ذلك: مع الشاهدين بتوحيدك من جميع العالَم من تقدم ومن تأخر لكان ذلك صواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا معنى قول الطبري، وهو كلام صحيح، وكأن ابن عباس رضي الله عنهما خصَّصَ أُمة محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية[1].

قوله عزَّ وجل:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قولهم: ﴿وَمَا لَنَا﴾ توقيف لأنفسهم، أو محاجَّة لمن عارضهم من الكفار بأن قال لهم: آمنتم وعجلتم، فقالوا: وأي شيءٍ يصدنا عن الإيمان وقد لاح الصواب وجاءَ الحق المنير؟ ﴿وَمَا لَنَا﴾ ابتداءٌ وخبر و﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ في موضع الحال، ولكنها حال هي المقصد وفيها الفائدة، كما تقول: «جاءَ زيد راكباً» وأنت قد سُئِلت: «هل جاءَ ماشياً أو راكباً»؟.

وفي مصحَف ابن مسعود: [وما لَنَا لا نُؤمن بالله وما أَنزل إلينا رَبُّنَا].

﴿وَنَطْمَعُ﴾ تقديره: ونحن نطمع، فالواو عاطفة جملة على الجملة، لا عاطفة فعل على فعل، والقوم الصالحون: محمد وأصحابه، قاله ابن زيد وغيره من المفسرين.

ثم ذكر الله تعالىٰ ما أثابهم به من النعيم على إيمانهم وإحسانهم.

ثم ذكر حال الكافرين المكذبين وأنهم قرناءُ الجحيم[2]، والمعنى قد علم من غير ما آيةٍ من كتاب الله أنه اقترانٌ لازم دائم أبدي.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ هي الآية (١٤٣) من سورة البقرة، وكأنما هي حجة ابن عباس في تخصيص أُمة محمد ﷺ وأنها هي المرادة بقوله تعالىٰ هنا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ولكن هناك آراء أُخرىٰ، ومعنىٰ ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾ اجعلنا كما قال القرطبي فيكون بمنزلة ما قد كُتب ودُوِّن.

(٢) الجحيم: النار الشديدة الاتقاد، يقال: جَحَم فلان النار إذا شدَّد إيقادها، ويقال لِعَيْن الأسد: جَحْمَة، لِشدَّة اتقادها.



وقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية. قال أبو مالك، وعكرمة، والنخعي، وأبو قلابة، وقتادة، والسدي، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهم: إنها نزلت بسبب جماعة من أصحاب النبي ﷺ بلغت منهم المواعظ وخوف الله إلى أن حرَّم بعضهم النساءَ، وبعضهم النوم بالليل والطيب، وهمَّ بعضهم بالاختصاءِ، وكان منهم علي بن أَبي طالب، وعثمان بن مظعون. قال عكرمة: ومنهم ابن مسعود، والمقداد، وسالم مولى أَبي حذيفة. وقال قتادة: رفضوا النساءَ واللحم وأَرادوا أَن يتخذوا الصوامع، وقال ابن عباس رضي عنهما: أَخذوا الشِّفار[١] ليقطعوا مذاكرهم، وطوّل السدي في قصة الحولاءِ امرأَة عثمان بن مظعون مع أَزواج النبي ﷺ وإِخبارها بأَنه لم يلم بها، فلما أُعلم رسول الله ﷺ بحالهم قال: (أَمَّا أَنا فأَقوم وأَنام، وأَصوم وأُفطر، وآتي النساءَ، وأَنال الطيّب، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

قال الطبري: وكان فيما يُتْلى: [من رغب عن سنتك فليس من أُمتك، وقد ضلَّ سواءَ السبيل].

وقال ابن زيد: سبب هذه الآية أَن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف، فانقلب ابن رواحة وضيفه لم يتعش، فقال لزوجته: ما عشيته؟ قالت: كان الطعام قليلاً فانتظرتك، فقال: حبَسْتِ ضيفي من أَجلي، طعامُك علي حرام إِن ذقته، فقالت هي: وهو عليَّ حرام إِنْ ذقتُه إِن لم تذقه، وقال الضيف: وهو علي حرام إِن ذقتُه إِن لم تذوقوه، فلما رأَىٰ ذلك ابن رواحة قال: قرِّبي طعامك، كلوا باسم الله، فأَكلوا جميعاً، ثم غدا إِلى رسول الله ﷺ فأَخبره فقال له رسول الله ﷺ: أَحسنت، ونزلت هذه الآية[٣].

---

(١) الشِّفار: جمع شَفْرة، وهي ما عُرِّض وحُدِّد من الحديد كحد السيف والسكين، وتجمع أيضاً على شَفْر.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفْظُهُ: قال: (نزلَتْ في رهط من الصحابة قالو: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني». (الدر المنثور ـ وفتح القدير) وزاد في فتح القدير: «وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذكرِ أن ذلك سبب نزول الآية».

(٣) قال الشوكاني عن هذا الأثر: «أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم»، ثم قال: «وهذا أثر منقطع، ولكن في=

وأَسند الطبري إِلى ابن عباس رضي الله عنهما أَن الآية نزلت بسبب رجل أَتى النبي صلىٰ ﷺ فقال: يا رسول الله، إِني إِذا أَصبْتُ من اللحم انتشرت وأَخذتني شهوتي فحرمت اللحم، فأَنزل الله هذه الآية[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والطيبات في هذه الآية: المُسْتَلَذَّات، بدليل إِضافتها إِلى ﴿مَآ أَحَلَّ﴾، وبقرينة ما ذُكر من سبب الآية.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ ـ فقال السدي، وعكرمة، وغيرهما: هو نَهْي عن هذه الأُمور المذكورة من تحريم ما أَحلَّ الله وشرع ما لم يأْذن به، فقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ تأْكيد لقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾. وقال الحسن بن أَبي الحسن: المعنىٰ: ولا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله، فالنهْيانِ على هذا تضمَّنا الطرفين فكأَنه قال: لا تتشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً. وقد تقدم القول في معنىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ غير مرة.

قوله عز وجل:

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾.

﴿وَكُلُواْ﴾ في هذه الآية عبارة عن: تمتعوا بالأَكل والشرب واللباس والركوب ونحو

= صحيح البخاري في قصة الصِّديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا».

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، والطبراني، وابن مردويه ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ـ ٣٠٧).
والأحاديث في ذلك كثيرة، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّرِّ، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بالُ أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أَصوم وأُفطر، وأَنام وأَقوم، وآكل اللحم، وأَتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني.

ذلك، وخصَّ الأكل بالذكر لأنه أَعْظَم المقصود[1] وأَخص الانتفاعات بالإنسان.

والرزق عند أَهل السنة: ما صحَّ الانتفاع به، وقالت المعتزلة: الرزق: كل ما صحَّ تملُّكه، والحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، ويرد عليهم بأَنه يلزمهم أَن آكل الحرام ليس بمرزوق من الله تعالىٰ، وقد خرَّج بعض النبلاءِ أَن الحرام رزق من قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[2] قال: فذكر المغفرة مشيراً إِلىٰ أَن الرزق قد يكون فيه حرام، وردَّ أَبو المعالي في الإِرشاد على المعتزلة بأَنهم إِذا قالوا: الرزق ما تملك فيلزمهم أَن ما ملك فهو الرزق، وملك الله تعالىٰ للأَشياءِ لا يصح أَن يقال فيه: إِنه رزق له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي أَلزم غير لازم فتأَمَّله. وباقي الآية بيِّن.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في نظير قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ معناه: شدَّدْتم.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: ﴿ عَقَّدتُّمُ ﴾ مُشَدَّدة القاف، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ، وحمزة، والكسائي: [عَقَدتم] خفيفة القاف، وقرأَ ابن عامر: [عَاقَدْتُم] بأَلف على وزن فاعلتم. قال أَبو علي: من شدد القاف احتمل أَمرين: أَحدهما أَن يكون لتكثير الفعل لأَنه خاطب جماعة، والآخر أَن يكون (عقَّد) مثل (ضعَّف) لا يراد به التكثير، كما أَن ضاعف لا يراد به فعلٌ من اثنين، ومن قرأَ [عَقَدْتم] فخفف القاف جاز أَن يراد به الكثير من الفعل والقليل. وعقد اليمين كعقد الحبل والعهد، وقال الحطيئة:

قـومٌ إِذَا عَقَـدوا عَقْـداً لِجَـارِهِـمُ ... شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فوْقَهُ الكَرَبا[3]

---

(١) جاء في بعض النسخ: لأنه عظم المقصود، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما نقله القرطبي عن ابن عطية رحمه الله.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) قال الحطيئة هذا البيت يمدح قوماً بأنهم عقدوا لجارهم عهداً فوفوا به ولم يخْفروه، والعِنَاج: خيطٌ أو سيْر في أسفل الدلْو ثم يُشد في عروتها، والكرَب: الحبل الذي يشد على الدلو بعد الحبل الأول (واسمه: المتين) فإذا انقطع المتين بقي الكرب. وقيل في المعاني غير هذا. وهذه أمثال ضربها الحطيئة=

ومن قرأ [عاقَدْتُمْ] فيحتمل ضربين: أَحدهما أَن يكون كطارقت النعل، وعاقبت اللص، والآخر أَن يراد به فاعلت الذي يقتضي فاعلين كأَن المعنىٰ: يؤاخذكم بما عاقدتم عليه الأَيمان، ويُعدى (عاقد) بـ (عَلَىٰ) لما هو في معنى (عاهد)، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾[١]، وهذا كما عُديت ﴿ نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٢] بـ (إِلىٰ)، وبابها أَن تقول: ناديت زيداً، ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾[٣] لكن لما كانت بمعنى: دعوت إِلى كذا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٤] عُدّيت (نادىٰ) بـ (إِلىٰ)، ثم يتسع في قوله تعالىٰ: «عاقدتم عليه الأَيمان» فيحذف الجار ويصل الفعل إِلى المفعول، ثم يحذف من الصلة الضمير الذي يعود على الموصول، وتقديره: «يُؤَاخذكم بما عقدتموه الأَيمان» كما حذف من قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[٥].

والأَيمان: جمع يمين وهي الأَلِيَّة[٦]، سميت يميناً لما كان عرفهم أَن يصفقوا بأَيمان بعضهم على بعض عند الأَلِيَّة. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ معناه: فالشيءُ الساتر على إِثم الحنث في اليمين إِطعامُ، والضمير على الصناعة النحوية عائد على ﴿ مَا ﴾[٧]، وتحتمل ﴿ مَا ﴾ في هذا الموضع أَن تكون بمعنى الذي، وتحتمل أَن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إِثم الحنث، ولم يجر له ذكر صريح ولكن المعنى يقتضيه.

= لإيفائهم بالعهد. على أنه مما يؤيد ما ذهبنا إليه أن العرب تقول: دلوٌ مُكْرَبَة: ذات كَرَب. (اللسان). وقد سبق شرح هذا البيت في أول سورة المائدة عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾.

(١) من الآية (١٠) من سورة (الفتح).

(٢) من الآية (٥٨) من سورة (المائدة).

(٣) من الآية (٥٢) من سورة (مريم).

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (فصلت).

(٥) من الآية (٩٤) من سورة (الحجر).

(٦) الأَلِيَّةُ: اليمين، والأَلِيَّةُ بكسر اللام وتشديد الياء المفتوحة، والجمع: ألايا. أمّا الأَلْيَة بسكون اللام وفتح الياء فهي العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم. (المعجم الوسيط).

(٧) وضّح أبو حيان هذا الكلام لأن عبارة ابن عطية هذه توحي بأن الضمير عائد على ﴿ مَا ﴾ على الاحتمالين مع أن قوله بعد ذلك ـ « وهو عائد مع المعنى. . الخ» يخالف هذا، قال أبو حيان في «البحر»: «والضمير في ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ عائد على ﴿ مَا ﴾ إن كانت موصولة اسمية، وهو على حذف مضاف، وإن كانت مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من المعنىٰ وهو إثم الحنث وإن لم يجر له ذكر صريح لكن يقتضيه المعنىٰ» ـ وهذا هو الذي أراده ابن عطية ولم تؤده عبارته بدقة.



و﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ معناه: إشباعهم مرة، قال الحسن بن أَبي الحسن: إِنْ جَمعَهم أَشبعهم إِشباعة واحدة، وإِن أَعطاهم أَعطاهم مَكُّوكاً مَكُّوكاً[١]، وحكم هؤلاءِ أَلا يتكرر واحد منهم في كفارة يمين واحدة، وسواءٌ أَطعموا أَفراداً أَو جماعة في حين واحد، ولا يُجزِىء في شيءٍ من ذلك ذمّيٌّ وإِن أُطعم صبي فيعطى حظ كبير، ولا يجوز أَن يُطعَم عبد ولا ذو رحم تلزم نفقته، فإن كان ممن لا تلزم المكفر نفقته فقد قال مالك: لا يعجبني أَن يطعمه، ولكن إن فعل وكان فقيراً أَجزأَه، ولا يجوز أَن يُطْعَم منها غني، وإِن أُطعم جهلاً بغناه ففي «المدونة» وغير كتاب أَنه لا يجزىء، وفي «الأَسدية» أَنه يجزىء.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ ﴾ ـ فرأَى مالك رحمه الله وجماعة معه هذا التوسط في القدر، ورأَى ذلك جماعة في الصنف، والوجه أَن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف، فرأَىٰ مالك أَن يطعم المسكين بالمدينة مُدّاً بمد النبي ﷺ، وذلك رطل وثلث من الدقيق وهذا لضيق المعيشة بالمدينة، ورأَى في غيرها أَن يتوسع، ولذلك استحسن الغداءَ والعشاءَ، وأَفتى ابن وهب[٢] بمصر بمدٍّ ونصف، وأَشهب بمُدٍّ وثلث، قال ابن المواز: ومُد وثلث وسَطٌ من عيش أَهل الأَمصار في الغداءِ والعشاءِ، قال ابن حبيب[٣]: ولا يجزىء الخبز قَفَاراً[٤]، ولكن بإدام[٥] زيت أَو لبن أَو لحم أَو نحوه، وفي شرح ابن مزين أَن الخبز القَفَار يجزىء، ورأَى من يقول «إِن التوسط في الصنف» إِنما هو في الصنف أَن يكون الرجل المكفر يتجنب أَدنىٰ ما يأْكل الناس في البلد، وينحط عن الأَعلى، ويكفر بالوسط من ذلك، ومذهب «المدونة» أَن يراعي المكفِّر

(١) المَكُّوكُ: مِكْيالٌ قديم يختلف مقداره اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعاً ونصف صاع.

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري، فقيه من الأئمة، من أصحاب مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، من كتبه: الجامع في الحديث، والموطأ في الحديث أيضاً، وكان حافظاً ثقة، عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم بيته، مولده ووفاته بمصر (ت١٩٧هـ) ـ (الوفيات، والتهذيب).

(٣) عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي، عالم الأندلس وفقيهها، سكن قرطبة، وزار مصر، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بقرطبة، كان عالماً بالتاريخ والأدب، رأساً في فقه المالكية، له تصانيف كثيرة، قيل: تزيد على الألف، منها: «حروب الإسلام، طبقات الفقهاء والتابعين، تفسير موطأ مالك»، قال عنه ابن لبابة: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، (معجم البلدان ـ الديباج ـ تاريخ علماء الأندلس).

(٤) القَفَارُ من الخبز: غير المأدوم.

(٥) الإِدَامُ: ما يُستمرأ به الخبز، والجمع: أُدُم.



عيشَ البلد، وفي كتاب ابن المواز أَن المراعَىٰ عيشةُ في أَهله الخاصُّ به(١).

وكأَن الآية ـ على التأْويل الأَول ـ معناها: من أَوسط ما تُطعمون أَيها الناس أَهليكم في الجملة من مدينة أَو صِقْع، وعلى التأْويل الثاني معناها: من أَوسط ما يطعم شخص أَهله. وقرأَ الجمهور: [أَهْليكمْ] وهو جمع أَهل على السلامة، وقرأ جعفر بن محمد: [من أوسط ما تُطْعِمُونَ أهاليكُمْ] وهذا جمع مكسر، قال أَبو الفتح: أَهال بمنزلة: لَيَالٍ كأَن واحدها: أَهلاتٌ وليلاتٌ، والعرب تقول: أَهلٌ وأَهْلَة، ومنه قول الشاعر:

وأهلــة ود قــد تبــريــتُ وُدَّهــم .... (٢)

ويُقال: ليلةٌ وليْلاه، وأَنشد ابن الأَعرابي:

فــي كُـل مــا يــومٍ وكُـلِّ ليْـلاَه   حتَّــى يَقــولَ مَــنْ رآهُ إذْ رآهُ

يا وَيْحَهُ مِنْ جَمَلٍ ما أَشْقاهُ(٣)

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ بكسر الكاف، يراد به كسوة الثياب. وقرأ سعيد بن المسيّب، وأَبو عبد الرحمن، إِبراهيم النَّخعي: [أَو كُسْوَتهم] بضم الكاف. وقرأَ سعيد ابن جبير، ومحمد بن السَّميفع اليماني [أَو كَإِسْوَتهم] من الأسوة، قال أَبو الفتح: كأَنه قال: أَو بما يكفي مثلهم، فهو على حذف مضاف بتقدير: أَو ككفاية أُسوتهم. قال: وإِن شئت جعلت الأُسوة هي الكفاية فلم تحتج إِلى حذف مضافٍ.

---

(١) الوَسَط هنا بمنزلة بين منزلتين، ونصفا بين طرفين، ومنه الحديث: (خير الأمور أوسطها). روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سَعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ فدل هذا على أن الوسط: ما كان بين شيئين.

(٢) البيت لأبي الطَّمَحان القَيْني، وهو شاعر إسلامي اسمه: حنظلة بن الشرفي، والبيت بتمامه:

وأَهْلَــةِ وُدٍّ قــد تَبَــرَّيْــتُ وُدَّهــم   وَأَبْلَيْتُهُــمْ فــي الحمْـدِ جُهْـدي ونـائِلـي

ومعنى (تبَرَّيْتُ): تعرضت لودهم وبذلتُ في ذلك طاقتي من نائل، وهذه هي رواية اللسان، ورواية التاج «بذلي ونائلي».

(٣) قال في اللسان: وحكىٰ ابن الأعرابي: «لَيْلاة»، وأَنشد:

فــي كُــلِّ يــوْم مــا وكُــلِّ ليْــلاهْ
حتَّــى يقــولَ كُــلُّ راءٍ إذا رآهْ
يــا وَيْحَــهُ مِــنْ جَمَـلٍ مــا أَشْقـاهْ

وتأمل الاختلاف في الرواية، فهي: «في كلِّ يوم ما» بدلاً من «في كلِّ مايوْم» ـ وهي أيضاً: «كلُّ راءٍ إذا رآه» بدلاً من «من رآه إذ رآه»، ورواية ابن جني في المحتسب مثل رواية اللسان.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، والقراءَة مخالفة لخط المصحف، ومعناها على خلاف ما تأَول أَهل العلم من أَن الحانث في اليمين بالله مخير في الإِطعام أَو الكسوة أَو العتق، والعلماءُ علىٰ أَن العتق أَفضل ذلك، ثم الكسوة، ثم الإِطعام، وبدأَ الله تعالى عباده بالأَيسر فالأَيسر، ورُبَّ مُدَّة ومسغبة يكون فيها الإِطعام أَفضل من العتق، لكن ذلك شاذ وغير معهود، والحكم للأَغلب.

واختلف العلماءُ في حدِّ الكسوة ـ فراعىٰ قوم نفس اللفظة، فإِذا كان الحانث المكفر كاسياً والمسكين مكسوّاً حصل الإِجزاءَ، وهذه رتبة تتحصل بثوب واحد، أَي ثوب كان بعد إِجماع الناس على أَن القلنسوة بانفرادها لا تُجزىء في كفارة اليمين. قال مجاهد: يجزىء في كفارة اليمين ثوب واحد فما زاد، وقال الحسن: الكسوة: ثوب لكل مسكين، وقاله طاوس، وقال منصور: الكسوة: ثوب قميص أَو رداءٌ أَو إِزار، وقاله أَبو جعفر، وعطاء، وابن عباس، وقال: وقد تجزىء العباءَة في الكفارة، وكذلك الشملة، وقال الحسن بن أَبي الحسن: تجزىء العمامة في كفارة اليمين، وقال مجاهد: يجزىء كل شيءٍ إِلا التُّبَّان[1]. ورُوي عن سلمان رضي الله عنه أَنه قال: «نعم الثوبُ التُّبان»، أَسنده الطبري، وقال الحكم بن عتيبة: تجزىء عمامة يلف بها رأْسه. وراعى قوم معهود الزيّ والكسوة المتعارفة، فقال بعضهم: لا يجزىء الثوب الواحد إِلا إِذا كان جامعاً مما قد يُتَزَيَّا به كالكساءِ والملحفة، قال إِبراهيم النَّخعي: يجزىء الثوب الجامع، وليس القميص والدرع والخمار ثوباً جامعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قد يكون القميص الكامل جامعاً وزِيّاً، وقال بعضهم: الكسوة في الكفارة: إِزار وقميص ورداءٌ، قاله ابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الحسن، وابن سيرين، وأَبي موسى الأَشعري أَن الكسوة في الكفارة ثوبان لكل مسكين، وعلَّق مالك رحمه الله الحكم بما يجزىء في الصلاة، وهذا أَحسن نظر، فقال: يجزىء في الرجل ثوب

---

(١) التُّبَّان ـ بضم التاء وتشديدها: سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة، قيل: يكون للملاحين، ومنه حديث عمار (أنه صلى في تُبَّان وقال: إنني ممثون)، يعني أنه يشتكي من المثانة. وفي حديث عمر: (صلى رجل في تُبَّان وقميص) (النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير).



واحد، وقال ابن حبيب: يكسى قميصاً أَو إِزاراً يبلغ أَن يلتف به مشتملاً، وكلام ابن حبيب تفسير، قال مالك: تكسى المرأَةُ درعاً وخماراً، وقال ابن القاسم في «العتبية»: وإن كسا صغير الإِناث فدرع وخمار كالكبيرة، والكفارة واحدة لا يُنقص منها لصغير، قال عنه ابن المواز: ولا تعجبني كسوة المراضع بحال، فأَما من أُمر بالصلاة فيكسوه قميصاً ويجزئه، قال ابن المواز من رأيه: بل كسوة رجل كبير وإلا لم يجزىء، قال أَشهب: تعطى الأُنثى إِذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل ويجزىء، وقاله ابن الماجشون.

قوله: ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ التحرير: الإِخراج من الرق، ويستعمل في الأَسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها، فمنه قوله تعالىٰ عن أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾(١) أَي من شغوب (٢)الدنيا، ومن ذلك قول الفرزدق:

أَبَنِـي غُـدانَـةَ إِنَّنِـي حَـرَّرْتكُـمْ   فَـوَهَبْتُكُـمْ لِعَطِيَّـةَ بـن جِعَـالِ(٣)

أَي حررتم من الهجاء، وخصَّ الرقبة من الإِنسان إِذ هو العضو الذي فيه يكون الغل والتوثق غالباً من الحيوان، فهو موضع الملك فأُضيف التحرير إِليها.

واختلف الناس في صفة المعْتَق في الكفارة كيف ينبغي أَن يكون؟ فقالت جماعة من العلماءِ: هذه رقبة مطلقة لم تقيد بإِيمان فيجوز في كفارة اليمين عتق الكافر، وهذا مذهب الطبري وجماعة من العلماء، وقالت فرقة: كل مطلق في القرآن من هذا فهو راجع إِلى المقيد في عتق الرقبة في القتل الخطأ، فلا يجزىءُ في شيءٍ من الكفارات كافر، وهذا قول مالك رحمه الله وجماعة معه(٤)، وقال مالك رحمه الله: لا يجزىء

---

(١) آل عمران: ٣٥.

(٢) الشَّغَب: تهيُّج الشر وإثارةُ الفتن والاضطراب.

(٣) حرَّره: أعتقه، والفرزدق يريد أنه حررهم من الهجاء الذي كان سيضع منهم ويضر بأحسابهم ومكانتهم، وقد فعل هذا عن قدرة.

(٤) الرأي الأول وهو جواز عتق الكافر هو رأي أبي حنيفة رضي الله عنه ـ وأما الرأي الثاني هو وجوب أن تكون الرقبة المعْتَقَة مؤمنة (وهو رأي مالك) فدليله غير ما ذكر ابن عطية أن التحرير هنا قُربة واجبة فلا يكون الكافر محلاً لها كالزكاة. واشتراط المالكية ـ مع الإيمان ـ أن تكون كاملة ليس فيها شرك لغيره لقوله تعالىٰ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ وبعض الرقبة ليس برقبة، واشترطوا كذلك أن تكون سليمة لأن النص يوجب أن تكون كاملة، والمعيبة بمرض أو عجز غير كاملة، وقد قال ﷺ: (ما من مسلم يعتق امرأ مسلماً إلا كان فكاكه من النار كل عضو منه بعضو منه حتى الفرج بالفرج).



أَعمى ولا أَبرص ولا مجنون. وقاله ابن شهاب وجماعة، وفي الأَعور قولان في المذهب، وكذلك في الأَصم وفي الخصي. وفي العلماء من رأَى أَن جميع هذا يجزىء، وفرَّق النَّخعي فجوز عتق من يعمل أَشغاله وخدمته، ومنع عتق من لا يعمل كالأَعمى والمقعد والأَشل اليدين. قال مالك رحمه الله: والأَعجمي عندي يُجزىءُ من قصر النفقة، وغيْرُهُ أَحب إِلي، قال سحنون: يريد بعد أَن يجيب إِلىٰ الإِسلام، فإِن كان الأَعجمي لم يُجب إِلا أَنه يُجبر على الإِسلام كالكبير من المجوس والصغير من الحربيين الكتابيين فقال ابن القاسم: يجزىءُ عتْقه وإِن لم يسلم، وقال أَشهب: لا يُجزىءُ حتى يُسلم، ولا يجزىء عند مالك من فيه شعبة حرية كالمدبر وأُم الولد ونحوه.

وقول تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ معناه: لم يجد في ملكه أَحد هذه الثلاثة من الإِطعام أَو الكسوة أَو عتق الرقبة. واختلف العلماءُ في حدّ هذا العادم الوَجْد حتى يصح له الصيام ـ فقال الشافعي رحمه الله وجماعة من العلماءِ: إِذا كان المكفِّر لا يملك إِلا قوته وقوت عياله يومه وليلته فله أَن يصوم، فإِن كان عنده زائداً على ذلك ما يطعم عشرة مساكين لزمه الإِطعام، وهذا أَيضاً هو مذهب مالك وأَصحابه، قاله مالك في «المدونة»: لا يُجزئه الصيام وهو يقدر على أَحد الوجوه الثلاثة. وروي عن ابن القاسم أَن من تَفضُل له نفقة يوم فإِنه لا يصوم. وقال ابن المواز: ولا يصوم الحانث حتى لا يجد إِلا قوته أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه. وقال ابن القاسم في كتاب ابن مزين: إِن كان لحانث فضْل عن قوت يومه أَطعم إِلاَّ أَن يخاف الجوع، أَو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه. وقال سعيد بن جبير: إِن لم يكن له إِلاَّ ثلاثة دراهم أَطعم. وقال قتادة: إِذا لم يكن له إِلا قدر ما يكفِّر به صام، وقال الحسن بن أَبي الحسن: إِذا كان له درهمان أَطعم. وقال الطبري: وقال آخرون: جائز لمن لم تكن عنده مائتا درهم أَن يصوم وهو ممن لا يجد. وقال آخرون: جائز لمن لم يكن عنده فضل على رأْس ماله الذي يتصرف به في معاشه أَن يصوم.

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب: «فَصِيَامُ ثلاثَةِ أَيَّام مُتَتَابِعَاتٍ»، وكذلك عبد الله بن مسعود، وإِبراهيم النَّخعي، وقال بذلك جماعةٌ من العلماءِ منهم مجاهد وغيره، وقال مالك رحمه الله وغيره: إِن تابَع فحسن وإِنْ فَرَّق أَجزأَ.



وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأَشياءِ الثلاثة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ معناه: ثم أَردتم الحنث أَو وقعتم فيه، وباقي الآية وَصاة وتوقيف على النعمة والإيمان.

قوله عزَّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

الخطاب للمؤمنين جميعاً لأَن هذهِ الأَشياءَ شهوات وعادات قد تُلُبِّس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثيرة من المؤمنين(١).

فأَما الخمر فكانت لم تحرم بعد، وأَما المَيْسر ففيه قمار ولذة للفارغ من النفوس ونفع أَيضاً بوجه ما، وأَما الأَنصاب وهي حجارة يذكون عندها لفضل يعتقدونه فيها، وقيل: هي الأَنصاب المعبودة كانوا يذبحون لها وعندها في الجاهلية، فإِن كانت المرادة في هذه الآية الحجارة التي يذبح عندها فقط فذلك لأَنه كان في نفس ضَعَفَة المؤمنين شيءٌ من تعظيم تلك الحجارة، وهذا كما قالت امرأة الطفيل بن عمرو الدوسي لزوجها: أَتخاف على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ و«ذو الشرىٰ» صنم لدوس. وإِن كانت المرادة في هذه الآية الأَصنام فإِنما قرنت بهذه الأُمور لِيَبين النقصُ في هذه إِذْ تُقرن بالأَصنام، ولا يتأَول أنه بقي في نفس مؤمن شيءٌ من تعظيم الأَصنام والتَلَبُّس بها حتى يقال له: اجتنبه. وأَما الأَزلام فهي الثلاثة التي كان أَكثر الناس يتخذونها، في أَحدها لا، وفي الآخر نعم، والآخر غفل، وهي التي حبسها سراقة بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ في وقت الهجرة، فكانوا يعظمونها، وبقي منها في بعض النفوس شيءٌ، ومِنْ هذا القبيل هُوَ(٢) الزجر بالطير، وأَخذ الفأْل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم، وقد يقال

---

(١) نقل القرطبي هذه العبارة عن ابن عطية أو غيره هكذا: «إذا كانت شهوات وعادات تَلَبَّسوا بها في الجاهلية وغلبت على النفوس، فكان نَفِيٌّ منها في نفوس كثير من المؤمنين». ومعنى نَفِيّ: بقيَّة.

(٢) نقل القرطبي هذه العباراة عن ابن عطيه هكذا: «قال ابن عطية: ومن هذا القبيل هَوَى الزجر بالطير..».



لسهام الميسر أَزلام، والزلم: السهم، وكان من الأزلام أيضاً ما يكون عند الكهان، وكان منها سهام عند الأَصنام وهي التي ضرب بها على عبد الله بن عبد المطلب أَبي النبي ﷺ، وكان عند قريش في الكعبة أَزلام فيها أَحكام ذكرها ابن إِسحق وغيره فأَخبر الله تعالىٰ أَن هذه الأَشياءَ رجس، قال ابن زيد: الرجس: الشَّر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كل مكروه ذميم[1]، وقد يقال للعذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: رجس: سخط، وقد يقال للنَّتن وللعذرة والأَقذار رِجْس، والرجز: العذاب لا غير، والركْس: العذرة لا غير، والرجس يُقال للأَمرين، وأَمر الله تعالىٰ باجتناب هذه الأُمور، واقترنت بصيغة الأَمر في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ نصوصُ الأَحاديث وإِجماع الأُمة، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإِجماع الأُمة، وقد تقدم تفسير لفظة الخمر ومعناها وتفسير الميْسر في سورة البقرة، وتقدم تفسير الأَنصاب والاستقسام بالأَزلام في صدر هذه السورة.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات ـ فقال أَبو ميسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإِنه ذكر للنبي ﷺ عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أَجلها، ودعا إِلى الله في تحريمها، وقال: اللَّهم بيّن لنا فيها بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات، فقال عمر: انتهينا انتهينا[2]. وقال مصعب بن سعد بن أَبي وقاص عن أبيه سعد قال: صنع رجل من الأَنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأَنصار وقريش، فقال كل فريق: نحن خير منكم، فأَخذ رجل من الأَنصار لَحْيَ جمل فضرب به أَنف سعد ففزره، فكان سعد أَفزر الأَنف، قال سعد: ففي نزلت هذه الآية إِلى آخرها[3].

---

(١) هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الرجس.

(٢) رواه ابن جرير عن أَبي ميسرة من عدَّة طرق. (تفسير الطبري).

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، والنحاس في ناسخه ـ عن سعد بي أَبي وقاص. (الدر المنثور).
هذا واللَّحْي بفتح اللام وسكون الحاء: العظم الذي فيه الأسنان من كل ذي لحي ـ وهما لحيان. وفَزَر: شقَّ.



وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل تحريم الخمر في قبيلتيْن من الأنصار، شربوا حتىٰ إذا ثملوا عربدوا، فلما صحوا جعل كل واحد منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته وجسده فيقول: هذا فعل بي فلان، فحدث بينهم في ذلك ضغائن، فنزلت هذه الآيات في ذلك[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَمْر الخمر إنما كان بتدريج ونوازل كثيرة، منها قصة حمزة حين جبَّ الأَسنمة، وقال للنبي ﷺ: وهل أنتم إلا عبيد أَبي؟[٢] ومنها قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في صلاة المغرب: قل يا أَيها الكافرون، أَعبد ما تعبدون، فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ الآية[٣]، ثم لم تزل النوازل تَحزب[٤] الناسَ بسببها حتى نزلت هذه الآية، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل، إنما كانت خمرهم من خمسة أَشياءِ: من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير، واالأُمة مجمعة على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيءٌ، وأَكثر الأُمة على أَن ما أَسكر كثيره فقليله حرام، ولأَبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إِباحة مالا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب، وهو مذهب مردود، وقد خرج قوم تحريم الخمر من وصفها بـ ﴿ رِجْسٌ ﴾، وقد وصف تبارك وتعالىٰ في آية أُخرى الميتة

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي ـ عن ابن عباس. (الدر المنثور ٢ـ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد ـ وخلاصته أن علياً رضي الله عنه ربط ناقتين له أمام دار أحد الأنصار، وكان حمزة في الدار يشرب الخمر، فثار حمزة إلى الناقتين فجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما، وأخبر عليّ النبي ﷺ فانطلق حتى دخل على حمزة فتغيظ عليه فرَجَّع حمزة بصره فقال: هل أنتم إلا عبيد لأبي، فرجع رسول الله ﷺ يقهقر حتى خرج عنهم. وكان ذلك قبل تحريم الخمر. (المسند ١ـ ١٤٢).

(٣) أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «صنعَ لنا عبد الرحمن ابن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: (﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾. «ونحن نعبد ما تعبدون»). فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾. (الدر المنثور ٢ـ١٦٥). والآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ﴾ هي رقم (٤٣) من سورة (النساء).

(٤) حَزَبَهُ الأمْرُ: اشتد عليه ونابَهُ، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبَه أمْر صلىٰ).



والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس، فيجيءُ من ذلك أن كل رجس حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر.

والاجتناب أَن يُجعلَ الشيءُ جانباً أَو ناحية.

ثم أَعلم تبارك وتعالى عباده أن الشيطان إِنما يريد أَن تقع العداوة بسبب الخمر وما يعتري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر إِذ كانوا يتقامرون على الأَموال والأَهل، حتى ربما بقي المقمور حزيناً فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإِنْ لم يصل الأَمر إِلى حدِّ العداوة كانت بغضاءَ، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي ﷺ: (ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إِخواناً)[1]، وباجتماع النفوس والكلمة يُحمى الدين ويُجاهد العدو. والبغضاءُ تنقض عُرى الدين وتهدم عماد الحماية، وكذلك أَيضاً يريد الشيطان أَن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات، فالخمر والميسر والقمار كله من أَعظم آلاته في ذلك. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وعيد في ضمن التوقيف زائد على معنى (انتهوا).

ولما كان في الكلام معنىٰ (انتهوا) حسن أَن يعطف عليه ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأْكيداً، ثم حذر تعالىٰ من مخالفة الأَمر، وتوعد مَنْ تولَّى بعذاب الآخرة، أَي: إِنما على الرسول أَن يبلغ، وعلى المرسل أَن يعاقب أَو يثيب بحسب ما يُعصى أَو يطاع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)﴾.

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، والبراءُ بن عازب، وأَنس بن مالك أَنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا وهو يشربها

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة. (الجامع الصغير).



ويأكل الميسر؟ ونحو هذا من القول، فنزلت هذه الآية[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نظير سؤالهم عمن مات على القبلة الأُولىٰ، ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[٢]، ولما كان أمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيَّل قوم نقص من فاته، وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحدّ العظيم من الذم أشفق قوم وتخيلوا نقص من مات على هذه المذمات، فأعلم تبارك وتعالى عباده أن الذم والجُناح إنما يلحق من جهة المعاصي، وأُولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرَّم بعد، بل كانت هذه الأشياءُ مكروهة لم يُنَص عليها بالتحريم، والشرع هو الذي قبَّحها وحسَّن تجنبها، والجُناح: الإثم والحرج، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية، والنسبة التي تترتب للعاصي.

و﴿طَعِمُوٓاْ﴾ معناه: ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب، وقد يُستعار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسة الذوق.

والتكرار في قوله: ﴿ٱتَّقَواْ﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن يعين المراد بهذا التكرار ـ فقال قوم:

الرتبة الأُولى: هي اتقاءُ الشرك والكبائر، والإيمان على كماله وعمل الصالحات.

والرتبة الثانية: هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة.

والرتبة الثالثة: هي الانتهاءُ في التقوى إلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك. وهو الإحسان.

وقال قوم: الرتبة الأُولى لماضي الزمن، والثانية للحال، والثالثة للاستقبال.

وقال قوم: الاتقاءُ الأول هو في الشرك والتزام الشرع، والثاني في الكبائر، والثالث في الصغائر.

---

(١) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور ٢ـ ٣٢٠).
(٢) من الآية (١٤٣) من سورة (البقرة).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليست هذه الآية وقفاً على من عمل الصالحات كلها واتقىٰ كل التقوىٰ، بل هي لكل مؤمن وإن كان عاصياً أحياناً إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات، مُتَّقٍ في غالب أمره، محسن، فليس على هذا الصنف جُناح فيما طعم مما لم يحرم عليه.

وقد تأول هذه الآية قُدامَةُ بنُ مظْعُون الجُمَحيُّ من الصحابة رضي الله عنه، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وعُمِّرَ، وكان ختن[1] عمر بن الخطاب خال عبد الله وحفصة، ولاَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عَزَلَه لأن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر، فقال له عمر: ومن يشهد معك؟ فقال: أبو هريرة، فجاءَ أبو هريرة فقال له عمر رضي الله عنه: بم تشهد؟ قال: لم أره يشرب، ولكن رأيته سكران يقيءُ، فقال له عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه فقدم، فقال الجارود لعمر: أقم على هذا كتاب الله، فقال له عمر رضي الله عنه: أخصم أنت أم شهيد؟ قال: بل شهيد، قال قدأديت شهادتك، فصمت الجارود، ثم غدا على عمر فقال: أقم على قدامة كتاب الله، فقال له عمر: ما أراك إلا خصماً، وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: إني أنشدك الله، قال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءَنَّك، فقال الجارود: ما هذا والله يا عمر بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءَني، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فسلها، وهي امرأة قدامة، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إني حادُّك فقال: لو شربتُ كما يقولون لم يكن لك أن تحدني. قال عمر: لم؟ قال: لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ﴾ الآية، فقال له عمر رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرَّم عليك، ثم حدَّه عمر، وكان مريضاً، فقال له قوم من الصحابة: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً، فأصبح يوماً وقد عزم على جلده، فقال

(١) الخَتَن: كل من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها ـ وقد ذكر ابن عطية أنه خال عبد الله وحفصة ابني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.



لأَصحابه: ما ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى ذلك ما دام وجعاً، فقال عمر: لأَن يلقىٰ الله وهو تحت السياط أَحبُّ إِليَّ من أَن أَلقاه وهو في عنقي، وأَمر بقدامة فجُلد، فغاضب قدامة عمر وهجره إِلى أَن حجَّ عمر وحجَّ معه قدامة مغاضباً له فلما كان عمر رضي الله عنه بالسقيا[1] نام ثم استيقظ فقال: عجِّلوا عليَّ بقدامة، فقد أَتاني آت في النوم فقال: سالِمْ قدامة فإِنه أَخوك، فبعث في قدامة فأَبى أَن يأْتي، فقال عمر: جُرُّوه إِن أَبىٰ، فلما جاءَ كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا، قال أَيوب بن أَبي تميمة: لم يحد أَحد من أَهل بدر في الخمر غيره[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أَي: ليختبرنكم ليرى طاعتكم من معصيتكم، وصبركم من عجزكم عن الصيد، وكان الصيد أَحد معايش العرب العاربة، وشائعاً عند الجميع منهم مستعملاً جداً، فابتلاهم الله فيه مع الإِحرام أَو الحرم كما ابتلىٰ بني إِسرائيل في أَلا يعتدوا في السبت[3].

و﴿مِّنَ﴾ يحتمل أَن تكون للتبعيض فالمعنى: من صيد البرّ دون البحر، ذهب إِليه الطبري وغيره، ويحتمل أَن يكون التبعيض في حالة الحرمة إِذ قد يزول الإِحرام ويُفارق الحرم، فصيد بعض هذه الأَحوال بعض الصيد على العموم، ويجوز أَن تكون لبيان الجنس، قال الزجاج: وهذا كما تقول: لأَمتحننك بشيءٍ من الرزق، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[4]. وقوله: ﴿بِشَىْءٍ﴾ يقتضي تبعيضاً ما، وقد قال كثير من الفقهاءِ: إِن الباءَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾[5] أَعطت تبعيضاً ما.

وقرأَ ابن وثاب، والنخعي: [يَنالُهُ] بالياءِ منقوطة من تحت، وقال مجاهد: الأَيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أَن يفر، والرماح تنال كبار الصيد.

---

(١) السُّقيا بضم السين: موضع بين المدينة ووادي الصفراء. (عن معلق تفسير القرطبي).

(٢) ساق القرطبي هذا الخبر قائلاً: «وذكر الحميديُّ عن أبي بكر البَرْقانِيِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم الجارُود. . الخ». وفي نهاية الخبر قال القرطبي: «وهو صحيح».

(٣) نزلت هذه الآية عام الحديبية، وأقام ﷺ بالتنعيم فكان الوحش والطير يغشاهم وهم محرمون، وقيل: كان بعضهم أحرم وبعضهم لم يحرم، فإذا عرض صيد اختلفت أحوالهم واشتبهت الأحكام.

(٤) من الآية (٣٠) من سورة (الحج).

(٥) من الآية (٦) من سورة (المائدة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن الله تعالىٰ خص الأيدي بالذكر لأنها عُظْم[(١)] المتصرف في الاصطياد، وهي آلة الآلات، وفيها تدخل الجوارح والحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر لأنها عُظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه، واحتج بعض الناس على أن الصيد[(٢)] للآخِذ لا للمثير بهذه الآية، لأن المثير لم تنل يده ولا رماحه بعد شيئاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ معناه: ليستمر علمه عليه وهو موجود، إذ عَلِمَ تعالىٰ ذلك في الأزل. وقرأ الزهري: [لِيُعْلِم اللهُ] بضم الياءِ كسر اللام، أي: لِيُعْلِم عباده.

و﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال الطبري: معناه: في الدنيا حيث لا يرى العبد ربّه فهو غائب عنه، والظاهر أن المعنىٰ: بالغيب من الناس، أي في الخلوة، فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه، وقد خفي له لو صاد، ثم توعد تعالىٰ من اعتدى بعد هذا النهي الذي يأتي وهو الذي أراد بقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ وأشار إليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾. والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

الخطاب لجميع المؤمنين، وهذا النهي هو الابتلاءُ الذي أَعلم به قولُه قبلُ: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾، والصيد مصدر عومل معاملة الأسماء فأُوقع على الحيوان المصيد، ولفظ

---

(١) يريد أن معظم التصرف يكون بها.

(٢) المراد بالصيد: المصيد، وقال في «البحر المحيط»: «والمراد بالصيد المأكول، لأن الصيد يطلق على المأكول وغير المأكول، قال الشاعر:

صيْدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالبٌ ... وإذا رَكِبْتُ فصَيْدِيَ الأَبْطَالُ

وقال زهير:

ليثٌ بعَثَّر يَصْطادُ الرِّجالَ إذا ما ... كذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أقْرانِهِ صَدَقَا

ولهذا قال أبو حنيفة: إذا قتل المُحْرِم ليثاً أو ذئباً ضارباً أو ما يجري مجراه فعليه الجزاءُ بقتله».



الصيد هنا عام، ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أَباح رسول الله ﷺ قتله في الحرم، ثبت عنه ﷺ أنه قال: خمْسُ فواسق يقتلن في الحرم. الغراب والحدأَة والفأرة والعقرب والكلب العقور)[١]، ووقف مع ظاهر هذا الحديث سفيان الثوري، والشافعي، وأَحمد بن حنبل، وإِسحق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيءٍ سوى ما ذكر، وقاس، مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم، ورآه داخلاً في اللفظ فقال: للمحرم أَن يقتل الأَسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها، فأَما الهِرُّ والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإِن قتلها فَدَا، وقال أَصحاب الرأي: إِن بدأَ السبعُ المحرمُ فله أَن يقتله، وإِن ابتدأَه المحرم فعليه قيمته، وقال مجاهد، والنَّخعي: لا يقتل المُحرم من السباع إِلا ما عدا عليه، وقال ابن عمر: ما حل بك من السباع فحل به، وأَما فراخ السبع الصغار قبل أَن تَفْرس[٢]، فقال مالك في «المدونة»: لا ينبغي للمحرم قتلها، قال أَشهب في كتاب «محمد»: فإِن فعل فعليه الجزاءُ، وقال أَيضاً أَشهب، وابن القاسم: لا جزاءَ عليه، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه أَمر المحرمين بقتل الحيات، وأَجمع الناس على إِباحة قتلها، وثبت عن عمر رضي الله عنه إِباحة قتل الزنبور لأَنه في حكم العقرب، وقال مالك: يطعم قاتله شيئاً، وكذلك قال مالك فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه، وقال أَصحاب الرأْي: لا شيءَ على قاتل هذه كلها. وأَما سباع الطير فقال مالك: لا يقتلها المحرم وإِن فعل فَدَا، وقال ابن القاسم في كتاب «محمد»: وأَحب إِلي ألا يقتل الغراب والحدأَة حتى يؤْذياه، ولكن إِن فعل فلا شيءَ عليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأَفعى والرُّتَيْلا[٣]، وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أَو بالحال، وفرض الجزاءُ على من قتله.

---

(١) روى مسلم، والنسائي، وابن ماجه، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (خمس فواسق تقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا) ـ وروى مثله أبو داود عن أبي هريرة، ورروىٰ مثله أيضاً الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه في «الجامع الصغير».

(٢) يقال: فَرَسَ الأسد فريسته ـ فرساً: صادها وقتلها، وفَرَس الذبيحة: كسر عنقها قبل موتها.

(٣) الرتَيْلاء: ضرب من العناكب ـ ويقال فيها أيضاً: رُتَيْلَى. (المعجم الوسيط).



و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حَرَام، وهو الذي يدخل في الحَرَم أَو في الإحرام. وحَرَام يقال للذكر والأُنثىٰ والاثنين والجمع.

واختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ ـ فقال مجاهد، وابن جريج، والحسن، وابن زيد: معناه: متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه، فهذا هو الذي يُكفر، وكذلك الخطأُ المحض يكفِّر، وأَما إِن قتله متعمداً ذاكراً لإحرامه فهذا أَجَلُّ وأَعظم من أن يُكفِّر، وقال مجاهد: قد حل ولا رخصة له، وقال ابن جُريج، وحكى المهدوي وغيره أَنه بطل حَجُّه، وقال ابن زيد: هذا يوكل إِلى نقمة الله. وقال جماعة من أَهل العلم منهم ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبير، والزهري، وطاووس، وغيرهم: المتعمد هو القاصد للقتل الذاكر لإحرامه، وهو يُكَفِّر، وكذلك الناسي والقاتل خطأً يكفِّران. قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في قتله خطأً أَنهما يكفران، وقال بعض الناس: لا يلزم القاتل خطأً كفارة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [فَجَزَاءُ مِثْلِ ما] بإِضافة الجزاءِ إِلىٰ [مِثْلِ] وخفض [مِثْلِ]. وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم: [فَجَزَاءٌ] بالرفع ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع أَيضاً، فأَما القراءَة الأُولىٰ ومعناها: فَعَلَيْه جزاءُ مثل ما قتل، أَي قضاؤه وغرمه، ودخلت لفظة (مثل) هنا كما تقول: «أَنا أُكرم مثلك» وأَنت تقصد بقولك: «أَنا أُكرمك»، ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(١)، التقدير: كمن هو في الظلمات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله تعالىٰ: [فَجَزَاءُ مِثْلِ] أَن يكون المعنىٰ: فعليه أَن يجزي مثل ما، ثم وقعت الإضافة إِلى المثل الذي يجزي به اتساعاً.

وأَما القراءَة الثانية فمعناها: فالواجب عليه، أَو فاللازم له جزاءٌ مثلُ ما، و﴿مِّثْلُ﴾ على هذه القراءَة صفة لـ ﴿فَجَزَاءٌ﴾، أَي: فجزاءٌ مماثلٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ صفة لـ ﴿فَجَزَاءٌ﴾ على القراءَتين كلتيهما.

وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَجَزاؤُهُ مِثْل ما] بإِظهار هاءٍ يحتمل أَن تعود على الصيد

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام).



أَو على الصائد القاتل، وقرأَ أَبو عبد الرحمن: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالرفع والتنوين [مِثْلَ ما] بالنصب، وقال أَبو الفتح: [مِثْلَ] منصوبة بنفس الجزاءِ، أَي: فعليه أَن يجزي مثْلَ ما قتل.

واختلف العلماءُ في هذه المماثلة، كيف تكون؟

فذهب الجمهور إِلىٰ أَن الحَكَمَيْن ينظران إِلى مثل الحيوان المقتول في الخِلقة وعِظَم المرأَى فيجعلون ذلك من النَّعَم جزاءَه، قال الضحاك بن مُزاحم، والسدي، وجماعة من الفقهاءِ: في النَّعامة وحمار الوحش ونحوه بَدَنَةٌ، وفي الوعل والأَيل ونحوه بقرة، وفي الظبي ونحوه كبش، وفي الأَرنب ونحوه ثنية من الغنم، وفي اليربوع حَمَلٌ صغير، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإِن شاءَ تصدق به، وإِن شاءَ صام لكل صاع يوماً، وإِن أَصاب بيْض نعام فإِنه يحمل الفحل على عدد ما أَصاب من بكارة الإِبل، فما نتج منها أَهداه إِلى البيت، وما فسد منها فلا شيءَ عليه فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

حكم عمر رضي الله عنه على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة، وحكم هو وعبد الرحمن بن عوف، قال قبيصة: فقلت له: يا أَمير المؤمنين، إِن أَمْره أَهون من أَن تدعو من يحكم معك، قال: فضربني بالدرة حتى سابقتُه عدواً ثم قال: أَقتلت الصيد وأَنت محرم ثم تغمض[1] الفتوىٰ؟ وهذه القصة في «الموطأ» بغير هذه الأَلفاظ، وكذلك روي أَنها نزلت بصاحب لقبيصة، وقبيصة هو راويها فيهما، والله أعلم، وأَما الأَرنب واليربوع ونحوهما فالحكم فيهما عند مالك أَن يقوم طعاماً، فإِن شاءَ تصدق به، وإِن شاء صام بدل كل مُدٍّ يوماً، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاءِ إِنما هو كله يومٌ بدل مُدٍّ، وعند قوم: بَدَل صاع، وعند قوم: بَدَل مُدَّيْن. وفي حمام الحرم عند مالك شاةٌ في الحمامة، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم، وأَما بيْض النعام وسائر الطير ففي البيضة عند مالك عُشْر ثمن أُمّه، قال ابن القاسم: وسواءٌ كان فيها فرخ أَم لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارخاً بعد الكسر، فإِن استهل ففيه الجزاءُ كاملاً كجزاءِ كبير ذلك

(١) أغمض السلعة: استحط من ثمنها لرداءتها، وفي التنزيل ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ فعمر رضي الله عنه يريد هنا: إنك تحط من شأن الفتوىٰ وتقلل منها.



الطير، قال ابن المواز: بحكومة عدلَيْن، وقال ابن وهب: إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعُشْر ثمن أُمّه، وإن لم يكن فصيام يوم أَو مُدٌّ لكل مسكين.

وذهبت فرقة من أَهل العلم[١] منهم النَّخعي، وغيره إلىٰ أَن المماثلة إنما هي في القيمة، يُقَوَّم الصيد المقتول ثم يُشترىٰ بقيمته نِدُّهُ[٢] من النعم ثم يُهْدىٰ، وردَّ الطبري وغيره على هذا القول.

والنَّعم: لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم إذا اجتمعت هذه الأَصناف، فإذا انفرد كل صنف لم يُقل نعَم إلا للإبل وحدها، وقرأ الحسن: [مِن النَّعْم] بسكون العين وهي لغة، والجزاءُ إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أَخذه بحكم لفظ الآية، وذلك في «المدونة» ظاهر من مسأَلة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار، قال: لا جزاءَ عليه، وقصر القرآن هذه النازلة على حَكَمَيْن عدلين عالمين بحُكم النازلة وبالتقدير فيها، وحكم عمر وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وأَمر أَبا جرير البجلي أَن يأْتي رجلين من العدول ليحكما عليه في عنز من الظباء أَصابها، قال: فأَتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ تيساً أَعفر، ودعا ابنُ عمر ابنَ صفوان ليحكم معه في جزاءٍ، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاء الأَمصار.

وقال ابن وهب رحمه الله في «العتبية»: من السُّنَّة أَن يخَيِّر الحكَمان من أَصابَ الصيد كما خيَّره الله في أَن يُخرج هدياً بالغ الكعبة، أَو كفارة طعام مساكين، أَو عدل ذلك صياماً، فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه نظيراً لما أَصاب ما بينهما وبين أَن يكون عدل ذلك شاة لأَنها أَدنىٰ الهدي، فما لم يبلغ شاة حكماً فيه بالطعام، ثم خير في أَن يطعمه أَو يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً، وكذلك قال مالك في «المدونة»: إذا أَراد المصيب أَن يطعم أَو يصوم وإن كان لما أَصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً لا دراهم، قال: وإن قوموه دراهم واشتُري بها طعام لرجوت أَن يكون واسعاً. والأَول

---

(١) هذا هو الرأي الثاني في معنىٰ «المماثلة» وأنها في «القيمة»، وأما الرأي الأول وهو المماثلة في الخلقة فقد ذكره من قبل عند قوله: «فذهب الجمهور إلى أن الحَكَمَيْن ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخلقة وعِظَم المرأى».

(٢) النِّدُّ: المثيل والنظير، يقال: هو نِدُّه، وهي نِدُّ فلانة، والجمع: أنداد، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

أَصوب، فإِن شاءَ أَطعمه وإِلا صام مكانه لكل مُدٍّ يوماً وإِن زاد ذلك على شهرين أَو ثلاثة.

وقال يحيىٰ بن عمر من أَصحابنا: إِنما يُقال: كمْ من رجل يشبع من هذا الصيد؟ فيعرف العدد، ثم يُقال: كم من الطعام يشبع هذا العدد؟ فإِن شاءَ أَخرج ذلك الطعام، وإِن شاءَ صام عدد أَمداده.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن احتاط فيه، لأَنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة، فبهذا النظر يكثر الإِطعام، ومن أَهل العلم من يرىٰ أَلا يتجاوز في صيام الجزاءِ شهران، قالوا: لأَنها أَعلى الكفارات بالصيام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَدْيَاۢ بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ يقتضي هذا اللفظ أَن يُشْخص بهذا الهدي حتى يبلغ، وذكرت الكعبة لأَنها أُم الحرم ورأْس الحُرْمَة، والحرم كله مَنحر لهذا الهدي، فما وقف به بعرفةَ من هذا الجزاءِ فينحر بمنىٰ، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أَن يدخل من الحِلِّ، لابد أَن يجمع فيه بين حِلٍّ وحَرَم حتى يكون بالغاً الكعبة.

وقرأَ عبد الرحمن الأَعرج: [هَدِيّاً بالغَ الكَعْبَةِ] بكسر الدال وتشديد الياء. و﴿ هَدْيًا ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾، وقيل: على المصدر، و﴿ بَٰلِغَ ﴾ نكرة في الحقيقة لم تزل الإِضافة عنه الشياع، فتقديره: «بالغاً الكعبة» حذف تنوينه تخفيفاً، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ ﴾ منوناً ﴿ طَعَامُ مَسَٰكِينَ ﴾ برفع ﴿ طَعَامُ ﴾ وإِضافته إِلى جمع المساكين. وقرأَ نافع، وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين، وخفض الإِطعام على الإِضافة، و﴿ مَسَٰكِينَ ﴾ بالجمع، قال أَبو علي: إِعراب ﴿ طَعَامُ ﴾ في قراءَة من رفعه أَنه عطف بيان، لأَن الطعام هو الكفارة، ولم يضف الكفارة لأَنها ليست للطعام، إِنما هي لقتل الصيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام كله مبني على أَن الكفارة هي الطعام، وفي هذا نظر، لأَن الكفارة هي تغطية الذنب بإِعطاءِ الطعام، فالكفارة غير الطعام لكنها به، فيتجه في رفع الطعام البدل



المحض[١]، وتتجه قراءَة من أَضاف الكفارة إِلى الطعام علىٰ أَنها إِضافة تخصيص، إِذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي، أَو كفارة طعام، أَو كفارة صيام. وقرأَ الأَعرج وعيسىٰ بن عمر: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ بالرفع والتنوين، ﴿طَعَامُ﴾ بالرفع دون تنوين [مِسكين] على الإِفراد، وهو اسم جنس.

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: القاتل مُخَيَّر في الرتب الثلاثة وإِن كان غنياً، وهذا عندهم مقتضى ﴿أَوْ﴾. وقال ابن عباس وجماعة: لا ينتقل المكفر من الهدي إِلى الطعام إِلا إِذا لم يجد هدياً، وكذلك لا يصوم إِلا إِذا لم يجد ما يطعم، وقاله إِبراهيم النخعي، وحماد بن أَبي سليمان، قالوا: والمعنى: أَو كفارة طعام إِن لم يجد الهدي.

ومالك رحمه الله ـ وجماعة معه ـ يرى أَن المقوم إِنما هو الصيد المقتول، يقوم بالطعام كما تقدم، وقال العراقيون: إِنما يقوم الجزاءُ طعاماً، فمن قتل ظبياً قوم الظبي عند مالك، وقوم عدله من الكباش أَو غير ذلك عند أَبي حنيفة وغيره. وحكىٰ الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: إِذا أَصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاءُه من النَّعَم، فإِن وجد جزاءَه ذبحه فتصدق به، وإِن لم يجد قُوِّم الجزاءُ دراهم، ثم قُوِّمت الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: وإِنما أُريد بذكر الطعام تَبْيِينُ أَمر الصوم، ومن يجد طعاماً فإِنما يجد جزاءً، وأَسنده أَيضاً عن السدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإِنه ينافره، والهدي لا يكون إِلا في الحرم كما ذكرنا قبل.

واختلف الناس في الطعام ـ فقال جماعة من العلماءِ: الإطعام والصيام حيث شاءَ المكفِّر من البلاد، وقال عطاءُ بن أَبي رباح وغيره: الهدي والإِطعام بمكة، والصوم حيث شئت.

---

(١) أعرب أبو علي ﴿طَعَامُ﴾ في قراءَة الرفع أنها عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، قال في «البحر المحيط»: و«هذا على مذهب البصريين، لأنهم شرطوا في البيان أن يكون في المعارف لا في النكرات، فالأولىٰ أن يعرب بدلاً». لكن ابن عطية رد رأي الفارسي من ناحية أخرى إذ قال: إن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاء الطعام، فالكفارة غير الطعام، لكنها تكون بالطعام، وعلى هذا فالصواب أن يعرب ﴿طَعَامُ﴾ بدلاً لا عطف بيان.



وقوله تعالىٰ: ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، قرأ الجمهور بفتح العيْن، ومعناه: نظير الشيء بالموازنة والمقدار المعنوي. وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، والجحدري: [أَوْ عِدْلُ] بكسر العيْن، قال أبو عمرو الداني: ورواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. وقال بعض الناس: العَدْلُ بالفتح: قدر الشيءِ من غير جنسه، وعِدْلُه بالكسر قدره من جنسه، نسبها مكي إلى الكسائي وهو وهم، والصحيح عن الكسائي أنهما لغتان في المثل، وهذه المنسوبة عبارة معترضة، وإنما مقصد قائلها أن العِدل بالكسر قدر الشيءِ موازنة على الحقيقة كعِدْلي البعير، وعَدله: قدره من شيءٍ آخر موازنة معنوية، كما يقال في ثمن فرس: هذا عَدله من الذهب، ولا يتجه هنا كسر العين فيما حفظت. والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام، وعلى هذا بُني قول من قال من الفقهاءِ: الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصواع أو أنصابها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الصيد المقتول، وعلى هذا بُني قول من قال من العلماء: الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قتل المحرم ظبياً فعليه شاةٌ تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وإن قتل أيلاً[1] فعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش فعليه بَدَنة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم لابن عباس رضي الله عنهما قول غير هذا آنفاً حكاهما عنه الطبري مسندين، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان. وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قال: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، الذوق هنا مستعار كما قال تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[2] وكما قال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾[3]، وكما قال أبو

---

(١) الأَيِّلُ: الوَعِلَ، والجمع: أيايِلْ وأَيائِل ـ والهمزة فيه مثلثة، قال ذلك في القاموس، تكون مضمومة مثل خُلَّب، ومفتوحة مثل سَيِّد، ومكسورة مثل قِنَّب، ويكون للذكر والأنثىٰ كما ذكره صاحب التاج.

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (الدخان).

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (النحل).

سفيان: «ذُقْ عُقَقُ»[١]، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس[٢]، والوبال: سوءُ العاقبة، والمرعىٰ الوبيل هو الذي يُتأذَّىٰ به بعد أكله[٣]، وعبَّر بـ ﴿أَمْرِهِۦ﴾ عن جميع حاله من قتْل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تعبه بالصيام.

واختلف المتأولون في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ـ فقال عطاءُ بن أبي رباح وجماعة معه: معناه: عفا الله عما سلف في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرمة، ومَنْ عاد الآن في الإسلام فإن كان مُسْتَحِلاً فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط، قالوا: وكلما عاد المحرم فهو مكفِّر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويخاف المتورعون أن تبقىٰ النقمة مع التكفير، وهذا هو قول الفقهاءِ مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنه: المحْرِم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه فإنه يكفِّر في كل مرَّة، فأما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه، ويقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، وقال بهذا القول شريح القاضي، وإبراهيم النَّخعي، ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول منه رضي الله عنه وعظ بالآية، وهو ـ مع ذلك ـ يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفِّر، لكنه خشي مع ذلك بقاءُ النقمة.

---

(١) قال في «النهاية في غريب الحديث والأثر»: إنَّ أبا سفيان مرَّ بحمزة قتيلاً فقال له «ذُقْ عُقَقُ» أراد: ذُق القتل يا عاقَّ قومه، قال: وعُقَق: معدول عن عاق للمبالغة كغُدَر من غادر، وفُسَق من فاسق.

(٢) ومن المجاز في الذوق أيضاً الحديث: (إنَّ الله يبغض الذواقين والذواقات) كلما تزوج أو تزوجت مدَّ عينه أو مدَّت عينها إلى أُخرى أو آخر ـ ذكره في «أساس البلاغة»، ومنه الحديث الشريف أيضاً: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً).

(٣) ويقال: طعام وبيلٌ بمعنىٰ ثقيل، ومنه قول طرفة:

فَمَرَّتْ كهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ ... عَقيلةُ شَيْخٍ كالْوَبيلِ يَلَنْدَدِ

الكهاةُ والجُلالة: الناقة السمينة. فهو شيخ وبيل: أي ثقيل. ويلندد: أي شديد الخصومة.



وقال ابن زيد: معنىٰ الآية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل هذا الصيد قبل هذا النهي والتحريم، قال: وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للقتل فهذا لا يحكم عليه، وهو موكول إلى نقمة الله، ومعنىٰ قوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ في صدر الآية أي: متعمداً للقتل ناسياً للحرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد تقدم ذكر هذا الفصل.

قال الطبري: وقال قوم: هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه، وأسند إلىٰ زيد بن المعلىٰ أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فتجوز له عنه، ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي[1] خوف من له بصيرة، ومن خاف ازدجر، ومن هذا المعنىٰ قول النبي ﷺ: (من خاف أَدْلَج، ومن أَدْلَج بلغ المنزل)[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيتانه، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال، والصيد هنا أيضاً يراد به المصيد، وأُضيف إلىٰ البحر لما كان منه بسبب. والبحر: الماءُ الكثير ملحاً كان أو عذباً، وكل نهر كبير بحر.

---

(١) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا، ولعله يريد: تقتضي الواحدة منهما ـ أو لعلَّ الصواب: يقتضي بالياء في أوله ليرجع الضمير إلى كلمة (تنبيه) فيصير المعنىٰ: تنبيه يقتضي.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة، وهو بتمامه: (من خاف أدْلج، ومن أدْلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية: ألا إن سلعة الله هي الجنة) ـ قال عنه في الجامع الصغير (حَسَن).



واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ـ قال أَبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: هو ما قذف به وما طفا عليه، لأَن ذلك طعام لا صيد، وسأَل رجل ابن عمر عن حيتان طرحها البحر فنهاه عنها، ثم قرأَ المصحف فقال لنافع: الحقه فمُره بأَكلها فإِنها طعامُ البحر، وهذا التأْويل ينظر إِلى قول النبي ﷺ: (هو الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتَتُه)[1]. وقال ابن عباس، وسعيد ابن جبير، وإِبراهيم النَّخعي وجماعة: طعامه كل ما ملح منه وبقي، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً، وإِنما الصيد الغريض[2]، وقال قوم: طعامه مِلْحُه الذي ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه. وكره قوم خنزير الماءِ. وقال مالك رحمه الله: أَنتم تقولون خنزير، ومذهبه إِباحته.

وقول أَبي بكر وعمر هو أَرجح الأَقوال، وهو مذهب مالك.

وقرأَ ابن عباس، وعبد الله بن الحارث: [وطُعْمه] بضم الطاءِ وسكون العين دون أَلف، و﴿مَتَٰعًا﴾ نصب على المصدر، والمعنىٰ متعكم به متاعاً تنتفعون به وتأْتدمون. و﴿لَّكُمْ﴾ يريد حاضري البحر ومُدُنه، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين، وقال مجاهد: أَهل القرىٰ هم المخاطبون، والسيارة: أَهل الأَمصار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يريد أَهل قرى البحر، وأَن السيارة من أَهل الأَمصار غير تلك القرى يجلبونه إِلى الأَمصار.

واختلف العلماءُ في مقتضىٰ قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ـ فتلقَّاه بعضهم على العموم من جميع جهاته فقالوا: إِن المحرم لا يحل له أَن يصيد، ولا أَن يأمر بصيد، ولا أَن يأْكل صيداً صِيد من أَجله ولا من غير أَجله[3]، ولحم الصيد بأَي وجه كان حرام على المحرم.

---

(١) رواه الإمام أحمد، والشافعي، وأصحاب السنن الأربع، وصححه البخاري، والترمذي، وابن حبان ـ (تفسير ابن كثير).

(٢) الغريض: الطري من اللحم والتمر، وكل أبيض طري. (المعجم الوسيط).

(٣) التعبير المألوف، والتركيب الصحيح أن يقال: «صيد من أجْله أو من أجْل غيره» فتأمل.

وروي أَن عثمان حجَّ، وحجَّ معه عليٌّ بن أَبي طالب، فأُتي عثمان بلحم صيد صاده حلالٌ فأَكل منه، ولم يأكل علي، فقال عثمان: والله ما صدنا ولا أَمرنا ولا أَشرنا، فقال علي: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[1]. وروي أَن عثمان استعمل على العروض أَبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقيب[2] فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه فطبخهن وقدمهن إليه، وجاءَ علي بن أَبي طالب فنهاهم عن الأَكل، وذكر نحو ما تقدم، قال: ثم لما كانوا بمكة أُتي عثمان فقيل له: هل لك في علي؟ أُهدي له تصفيف حمار فهو يأكل منه، فأَرسل إِليه عثمان يسأَله عن أَكل التصفيف، وقال له: «أَما أَنت فتأْكل، وأَما نحن فتنهانا»، فقال له علي: «إِنه صيد عام أَول وأَنا حلال فليس عليَّ بأَكله بأس، وصيد ذلك ـ يعني اليعاقيب ـ وأَنا محرم وذبحن وأَنا حرام». وروي مثل قول عليٍّ عن ابن عباس، وابن عمر، وطاووس، وسعيد بن جبير.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرىٰ بأْساً لِلْمُحْرِم أَن يأْكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه، وسئل أَبو هريرة عن هذه النازلة فأَفتى بالإِباحة، ثم أَخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: لو أَفتيت بغيرِ هذا لأَوجعتُ رأْسك بهذه الدرة، وسأَل أَبو الشعثاءِ ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه المسأَلة فقال له: كان عمر يأْكله، قال: قلت: فأَنت؟ قال: كان عمر خيراً مني، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: ما صيد أَو ذُبح وأَنت حلالٌ فهو لك حلال، وما صِيد أَو ذُبح وأَنت حرام فهو عليك حرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مثل قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه.

وروى عطاءٌ عن كعب قال: أَقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن الحارث ابن نوفل.

(٢) اليعاقيب: مفردها يَعْقوب، وهو الذكر من الحَجَل والقَطَا، وهو مصروف لأنه عربي لم يُغير، قال الشاعر:

عـــالٍ يُقَصِّـــر دونَـــه اليَعْقـــوبُ

قال ابن بري: «وقد ذكر الجوهري هذا البيت شاهداً على أن اليعقوب ذكر الحَجَل، والظاهر أنه ذكر العُقاب». (اللسان ـ عقب).



فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك فقال: قد أمّرته عليكم حتى ترجعوا، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما، والزبير بن العوام، وهو الصحيح لأن النبي ﷺ أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلالٌ والنبي عليه الصلاة والسلام محرم(١).

قال الطبري: وقال آخرون: إنما حرم على المحرم أن يصيد، فأما أن يشتري الصيد من مالكٍ له فيذبحه فيأكله فذلك غير مُحَرَّم، ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن اشترىٰ قطّاً وهو بالعرج(٢) فأكله فعاب ذلك عليه الناس.

ومالك رحمه الله يُجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان لم يصده من أجل المُحْرم، فإن صيد من أجله فلا يأكله، وكذلك قال الشافعي، ثم اختلفا إن أكل، فقال مالك: عليه الجزاءُ، وقال الشافعي: لا جزاءَ عليه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: [وَحَرَّمَ] بفتح الحاءِ والراءِ مشددة. [صَيْدَ] بنصب الدال. [ما دُمْتُم حَرَما] بفتح الحاءِ، المعني: وحرَّم الله عليكم. و[حَرَماً] يقع للجميع والواحد كرضىً وما أشبهه، والمعنىٰ ما دمتم محرمين، فهي بالمعنىٰ كقراءَة الجماعة بضم الحاء والراءِ.

---

(١) هذا الحديث صحيح، وهو قاطع في هذا الموضوع، ولهذا نورده بطوله. أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم ـ عن أبي قتادة (أن رسول الله ﷺ خرج حاجّاً فخرجوا معه، فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة، فقال: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي، فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُر وحش، فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتاناً، فنزلوا فأكلوا من لحمها، فقالوا: نأكل لحم صيد ونحن محرومون؟ فحملنا ما بقي من لحمها، فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يحرم، فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً، فنزلنا فأكلنا من لحمها، ثم قلنا: إنا نأكل لحم صيد ونحن محرمون، فحملنا ما بقي من لحمها. قال: أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: فكلوا ما بقي من لحمها). (الدر المنثور ـ ٢ـ ٣٣٣).

(٢) العَرْج بفتح العين وسكون الراء: قرية جامعة في وادٍ من نواحي الطائف، إليها ينسب العرجيّ الشاعر، وهي أول تهامة، وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلاً، وهي في بلاد هذيل، ولذلك يقول أبو ذؤيب:

هُمُ رجَعوا بالعَرْجِ والقَوْمُ شُهَّدٌ ... هوازنُ تَحْدوها حماةٌ بَطَارِقُ

(معجم البلدان ـ عرج).



ولا يختلف في أَنَّ ما لا زوال له من الماءِ أَنه صيد بحر، وفيما لا زوال له من البَرّ أَنه صيْد بَرّ، واختلف فيما يكون في أَحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر ـ فقال مالك رحمه الله ، وأَبو مجلز، وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم: كل ما يعيش في البَرّ وله فيه حياة فهو من صيد البَرّ إن قتله المُحْرم وَداهُ، وذكر أَبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن هذه أَنواع لا زوال لها من الماءِ فهي لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في «المدونة» فإنه قال: الضفادع من صيد البحر، وروي عن عطاء بن أَبي رباح خلاف ما ذكرناه، وهو أنه راعىٰ أَكثر عيش الحيوان، سئل عن ابن الماء أَصَيْدُ بَرّ أَم صيد بحر؟ فقال: حيث يكون أَكثر فهو منه، وحيث يفرخ فهو منه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب في ابن ماءٍ أَنه صيْد بَرّ طائر يرعى ويأْكل الحب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم، ثم ذكَّر تعالىٰ بأَمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير.

ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحَرَم والحُرْمة بالإحرام من أَجل الكعبة، وأَنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل ذكر تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية ما سنَّه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه الجاهلية الجهلاء من التزامهم أَن الكعبة قوام، والهدي قوام، والقلائد قوام، أَي أَمْر يقوم للناس بالتأْمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم، فلما كانت تلك الأُمة لا مِلك لها جعل الله هذه الأَشياءَ كالملك لها، وأَعلم تعالىٰ أَن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه، ويدل على مقدار هذه الأُمور في نفوسهم أَن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحُلَيس، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا رجل يعظم الحرمة فالْقَوْه بالبُدْن مشعرة، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه وقال: ما ينبغي أَن يُصد هؤلاءِ ورجع عن رسالتهم(١).

---

(١) الحُلَيْس بضم الحاء وفتح اللام بعدها ياءٌ ساكنة هو ابن علقمة من بني الحارث بن عبد مناف، وقد رجع=



و﴿ ۞ جَعَلَ ﴾ في هذه الآية بمعنى صيَّر، و﴿ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ بيت مكة، وسمي كعبة لتربيعه، قال أَهلُ اللغة: كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، ومنه قول الأَسْوَدِ بنِ يَعْفُر:

أَهْـل الخـورنَـقِ والسَّـديـرِ وبَـارِقٍ والْبَيْـــتِ ذي الْكَعَبَـــاتِ مِـــنْ سِنْـــدادِ[1]

قالوا: كانت فيه بيوت مربعة، وفي كتاب سير ابن إِسحق أَنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية. وقال قوم: سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأَرض، ومنه: كَعَبَ ثدي الجارية، ومنه: كعْب القدم، ومنه: كعوب القناة.

و﴿ قِيَٰمًا ﴾ معناه: أَمر يقوم للناس بالأَمنة والمنافع كما الملِك قوام الرعية وقيامهم، يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه، وذلك لخفَّة الياءِ فتستعمل أَشياء من ذوات الواو بها، وقد يستعمل القوام على الأَصل، قال الراجز:

قِــوَامُ دُنْيــا وَقِــوَامُ دِيــن

وذهب بعض المتأَولين إِلىٰ أَن معنى قوله تعالىٰ: ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي: موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبدات وضبط النفوس في الشهر الحرام، ومع الهدي والقلائد.

وقرأَ ابن عامر وحده: [قِيَما] دون أَلف، وهذا إِما على أَنه مصدر كالشِّبَع ونحوه، وأُعِلَّ فلم يجر مجرىٰ عوض وحول من حيث أُعل فعله، وقد تُعلُّ الجموع لاعتلال الآحاد، فأَحرى أَن تُعل المصادر لاعتلال أَفعالها، ويحتمل [قِيَماً] أَن تحذف الأَلف وهي مُرادة، وحكم هذا أَن يجيءَ في شعر وغير سَعَة. وقرأَ الجحدري: [قَيِّماً] بفتح القاف وشد الياءِ المكسورة.

و﴿ وَٱلشَّهْرَ ﴾ هنا اسم جنس، والمراد الأَشهر الثلاثة بإِجماع من العرب، وشهر

= من غير أن يُبَلِّغ رسالة قريش إِلىٰ النبي ﷺ. راجع سيرة ابن هشام ففيها الخبر كاملاً.

(١) الخورنق: قصر بناه النعمان الأكبر بالعراق، والسدير: قصر ذو ثلاث شعب، وقيل: كانت له قبة في ثلاث قباب متداخلة. وبارق: موضع قريب من الكوفة، والسنداد: نهر ـ قال في اللسان: «كل بيت مربع فهو عند العرب: كعبة، وكان لربيعة بيت يطوفون به، يُسَمُّونه الكَعَبات، وقيل: ذي الكَعَبات، وقد ذكره الأسودُ بن يَعْفُر في شعره». وذكر البيت. ويلتقي مع كلام اللسان قول ابن عطية هنا بعد البيت: «قالوا: كانت فيه بيوت مربعة».



مُضَر[١] وهو رجب الأَصم، سمي بذلك لأنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد، وسموه مُنْصِل الأَسنة لأَنهم كانوا ينزعون فيه أَسنة الرماح، وهو شهر قريش، وله يقول عوف بن الأَحْوَص:

وشَهْــرِ بَنِــي أُمَيَّــةَ والْهَــدايــا   إذا سيقــت مُضَــرِّجهَــا الــدِّمــاءُ[٢]

وسمَّاه النبي عليه الصلاة والسلام شهر الله، أي شهر آل الله، وكان يقال لأَهل الحرم: آل الله، ويحتمل أَن يسمى شهر الله لأَن الله سنَّه[٣] وشدده إذ كان كثير من العرب لا يراه.

وأَما الهدي فكان أَماناً لمن يسوقه لأَنه يعلم أَنه في عبادة لم يأْت لحرب، وأَما القلائد فكذلك كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد من لحاءِ السَّمُرِ أَو غيره شيئاً فكان ذلك أَماناً له، وكان الأَمر في نفوسهم عظيماً مكنه الله حتى كانوا لا يقدر من ليس بمحرم أَن يتقلد شيئاً خوفاً من الله، وكذلك إذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لفظ عام، وقال بعض المفسرين: أَراد العرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه لهذا التخصيص. وقال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأُمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شدد ذلك بالإسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلىٰ أَن جعل هذه الأُمور قياماً، والمعنىٰ: فعل ذلك لتعلموا أَن الله تعالىٰ يعلم تفاصيل أُمور السموات والأَرض، ويعلم مصالحكم أَيها الناس قبل وبعد، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام عموماً تامّاً في الجزئيات ودقائق الموجودات، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[٤]، والقول بغير هذا إلحاد في الدين وكفر.

---

(١) يسمىٰ شهر رجب: شهر مضر، أو: رجب مضر إضافة إليهم لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم، فكأنم اختصوا به. (اللسان).

(٢) يرجع نسب الشاعر إلى قيس بن عيلان بن مضر، وهو هنا يقسم بشهر رجب وبالهدي أن يظل وفيّاً لصاحبته خولة أبد الدهر.

(٣) في بعض النسخ: لأن الله مَتَّنَه، وهذا يتفق مع ما في تفسير القرطبي.

(٤) من الآية (٥٩) من سورة (الأنعام).



ثم خوَّف تعالىٰ عباده ورجّاهم بقوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ﴾ الآية، وهكذا هو الأمر في نفسه حري أن يكون العبد خائفاً عاملاً بحسب الخوف متقياً متأنساً بحسب الرجاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ إخبار للمؤمنين، فلا يتصور أن يقال: هي آية موادعة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق، فإنه إذْ قد عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، والله تعالىٰ ـ بعد ذلك ـ يعلم ما ينطوي عليه صدره، وهو المجازي ـ بحسب ذلك ـ ثواباً أو عقاباً.

والبلاغ مصدر من: بلغ يبلغ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلّغ إليهم.

وقوله: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ﴾ الآية، لفظ عام في جميع الأُمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسُن له عاقبة، والطَّيِّب ولو قل نافع جميل العاقبة. وينظر إلى هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾(١)، والخبث هو الفساد الباطن في الأشياءِ حتى يظن بها الصلاح، والطيب وهو بخلاف ذلك، وهكذا هو الخبث في الإنسان، وقد يراد بلفظة خبيث في الإنسان فساد نسبه، فهذا لفظ يلزم قائله ـ على هذا القصد ـ الحد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتَقد والعمل، وخص أُولي الألباب بالذكر لأنهم المتقدمون في ميز هذه الأُمور، والذين لا

---

(١) من الآية (٨٥) من سورة (الأعراف)، وينظر إلى الآية أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.



ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم، وكأن الإشارة بهذه الألباب إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ الآية، اختلف الرواة في سببها ـ فقالت فرقة منهم أنس بن مالك وغيره: نزلت بسبب سؤال عبد الله بن حذافة السهمي(١)، (وذلك أن رسول الله ﷺ صعد المنبر مغضباً فقال: لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلا أخبرتكم به، فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال رسول الله ﷺ: في النار، فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يُطعن في نسبه فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي الحديث مما لم يذكر الطبري: (فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك سالمٌ مولى أبي شيبة، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجثا على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، نعوذ بالله من الفتن، وبكى الناس من غضب رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية بسبب هذه الأسئلة)(٢).

---

(١) هو عبد الله بن حُذافة بن قيس القرشي ـ يقال: شهد بدراً وكانت فيه دُعابة، في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ في عبد الله بن حذافة، بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سريَّة، وقال ابن يونس: شهد فتح مصر، وتوفي بها ودفن بمقبرتها. ولما قال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك حذافة قالت له أُمه: ماسمعت بابن أعق منك، آمنتَ أن تكون أُمك قارفت ما يقارف نساءُ الجاهلية فتفضحها علىٰ أعين الناس، قال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقتُ به.

(٢) الحديث مروي من طرق كثيرة، منها ما رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق قتادة ـ عن أنس في قول الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أن الناس سألوا نبي الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر، فقال: لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به، فلما سمع القوم ذلك أرموا، وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر، فجعلت ألتفت عن يميني وشمالي فإذا كل رجل لافٌّ ثوبه برأسه يبكي، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، مَنْ أبي؟ قال: أبوك حذافة، وكان إذا لاحىٰ يدعى إلى غير أبيه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ونعوذ بالله من سوء الفتن، قال: فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط، قال قتادة: وإن الله يريه ما لا ترون، ويسمعه مالا تسمعون، قال: وأُنزل عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ الآية. . . الخ (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٤).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وصعود رسول الله ﷺ المنبر مغضباً إِنما كان بسبب سؤالات الأَعراب والجهال والمنافقين، فكان منهم من يقول: أَين ناقتي؟ وآخر يقول: ماالذي أَلْقى في سفري هذا؟ ونحو هذا مما هو جهالة أَو استخفاف وتعنيت.

وقال علي بن أَبي طالب، وأَبو هريرة، وأَبو أُمامة الباهلي، وابن عباس رضي الله عنهم أَجمعين ـ في لفظهم اختلاف والمعنىٰ واحد ـ: (خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: أَيُّها الناس، كتب عليكم الحج، وقرأَ عليهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(١) قال علي رضي الله عنه: فقالوا: يارسول الله أَفي كل عام؟ فسكت، فأَعادوا: قال: لا، ولو قلت نعم لوجبت، وقال أَبو هريرة: فقال عكاشة بن محصن، وقال مُرّة: فقال محصن الأَسدي، وقال غيره: فقام رجل من بني أَسد، وقال بعضهم: فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، أَفي كل عام؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: من السائل؟ فقيل: فلان، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت، ، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم) فنزلت هذه الآية بسبب ذلك(٢).

ويُقوي هذا حديثُ سعد بن أَبي وقاص أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إِن أَعظم المسلمين على المسلمين جرماً من سأَل عن شيءٍ لم يحرم فحُرم من أَجل مسأَلته)(٣).

وروي عن ابن عباس أَنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم سأَلوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة ونحو هذا من أَحكام الجاهلية، وقاله سعيد بن جُبير(٤).

---

(١) من الآية (٩٧) من سورة (آل عمران).

(٢) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أبي هريرة، (والسائل عكاشة) وأخرجه ابن حبان أيضاً ـ (والسائل رجل) وأخرج مثله ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه ـ عن أبي أُمامة الباهلي، (والسائل رجل من الأعراب) (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٥).

(٣) أخرجه الشافعي، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن المنذر ـ عن سعد بن أبي وقاص، وأوّله: (أعظم المسلمين في المسلمين جرماً. . .) فتأمل الفرق بين الروايتين. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٦) ـ وقد قال أبو الفرج الجوزيّ: «هذا محمول على من سأل عن الشيء عنتاً وعبثاً فعُوقب بسوءِ قصده بتحريم ما سأل عنه، والتحريم يَعُم.

(٤) قال القرطبي: رواه مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما. (تفسير القرطبي).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي أَنه لما بيَّن الله تعالىٰ في هذه الآيات أَمر الكعبة والهَدْي والقلائد، وأَعلم أن حُرمتها هو الذي جعلها، إِذ هي أُمور نافعة قديمة من لدن عهد إِبراهيم عليه السلام ـ ذهب ناسٌ من العرب إِلى السؤال عن سائر أَحكام الجاهلية ليروا هل تلحق بتلك أَم لا، إِذ كانوا قد اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بيْن ما هو من عند الله وما هومن تلقاءِ الشيطان والمُغَيِّرين لِدِين إِبراهيم وإِسماعيل عليهما السلام كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره، وفي عمرو بن لُحَيٍّ قال رسول الله ﷺ: (رأَيته يجر قُصْبَه في النار وكان أَول من سَيَّب السَّوائب)[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر من الروايات أَن رسول الله ﷺ أَلحت عليه الأعراب والجهال بأَنواع من السؤالات حسبما ذكرناه، فزجر الله تعالىٰ عن ذلك بهذه الآية.

و﴿أَشۡيَآءَ﴾: اسم جمع لشيءٍ، أَصله عند الخليل وسيبويه شيئاءُ مثل فَعْلاءُ قلبت إِلى لَفْعاء لِثِقَل اجتماع الهمزتين، وقال أَبو حاتم: أَشياءُ وزنها أَفعال وهو جمع شيء وترك الصرف فيه سماعٌ، وقال الكسائي: لم ينصرف أَشْياءُ لشبه آخرها بآخر حمراءَ ولكثرة استعمالها، والعرب تقول: أَشْياوات كما تقول: حمراوات، ويلزم على هذا أَلاَّ ينصرف (أَسماءُ) لأَنهم يقولون: أَسماوات[2]، وقال الأَخفش: أَشياءُ أَصلها أَشْيئاءُ على وزن أَفعلاءَ، استثقل اجتماع الهمزتين فأُبدلت الأُولىٰ ياءً لانكسار ما قبلها ثم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده هكذا: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبَه في النار، وكان أول من سيَّب السوائب وبحر البحيرة). ورواه عن أبي هريرة. كما في الجامع الصغير، وقال عنه: وهو صحيح، لكن ابن الأثير قال في النهاية: وفيه (رأيتُ عَمْرو بن لُحَيٍّ يجر قُصْبَه في النار) ثم قال: «القُصْب بالضم: المِعَى، وجمعه: أَقْصاب، وقيل: القُصْبُ اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء، ومنه الحديث (الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة كالجار قُصْبَه في النار).» أ هـ. وهو ما يتفق مع لسان العرب في شرحه لمعنى قُصْب. وهو ما يتفق أيضاً مع رواية البخاري. والسائبة: المهملة التي كانت تُسَيَّبُ في الجاهلية لنذر أو نحوه.

(٢) قال الزجاج: وقد أَجمع البصريون وأكثر الكوفيين على أن قول الكسائي خطأٌ في هذا، وألزموه ألا يصرف أَبناء وأسماء ـ (عن لسان العرب).



حذفت الياءُ استخفافاً، ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياءِ شيّئاً مثل هَيِّن وأَهْوِناءُ[(١)].

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِن تُبْدَ﴾ بضم التاءِ وفتح الدال وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأ مجاهد: [إِنْ تَبْدُ] بفتح التاءِ وضم الدال على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأ الشَّعْبي: [إِنْ يَبْدُ لكُمْ] بالياء من أسفل مفتوحة والدال مَضمومة [يَسُؤْكُمْ] بالياء من أسفل، أَي: يُبْده الله لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لا تسألوا عن أَشياءَ في ضمن الإخبار عنها مساءَةٌ لكم، إما لتكليف شرعيٍّ يلزمكم، وإما لخبر يسوءُ، كما قيل للذي قال: أَين أنا؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيءٍ وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سأَلتم عن تفصيله وبيانه بُيِّنَ لكم وأُبْدي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائد على نوعها، لا على الأُولى التي نهى عن السؤال عنها.

وقال أَبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهىٰ عن أَشياءَ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا من غير نسيانٍ عن أَشياءَ فلا تبحثوا عنها.

وكان عبيد بن عُمير يقول: إن الله أَحلَّ وحرَّم، فما أَحلَّ فاستحِلوا، وما حرَّم فاجتنبوا، وترك بين ذلك أَشياءَ لم يُحلَّها ولم يُحَرِّمها، فذلك عفو من الله عفاه، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أَن يكون في معنى

---

(١) جاء في لسان العرب تعقيباً على رأي الأخفش هذا: «قال أبو إسحق: وهذا القول أيضاً غلط، لأن (شيئاً) فَعْلٌ، وفَعْلٌ لا يجمع أَفعلاء، فأما هيْنٌ فأَصله هيِّنٌ فجمع على أفعلاء كما يجمع فعليل على أفعلاء، مثل: نَصيبٌ وأنصباء». وهذا هو معنى قول ابن عطية: «ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شَيّئاً مثل هيِّن وأَهْوِناء».



الوعيد، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم لقيتم عبءَ ذلك وصعوبته، لأنكم تتكلَّفون وتستعجلون علم ما يسؤُكم كالذي قيل له: إنه في النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ تركها ولم يعرف بها، وهذه اللفظة التي هي [عفا] تؤيد أن (الأشياءَ التي هي في تكليفات الشرع. ينظر إلى ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل)[١].

﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ صفتان تناسب[٢] العفو وترك المباحثة، والسماحة في الأمور.

وقرأ عامة الناس: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا﴾ بفتح السين، وقرأ إبراهيم النَّخعي: [قَدْ سِالها] بكسر السين، والمراد بهذه القراءَة الإمالة، وذلك على لغة من قال سِلْت تسال، وحَكَى عن العرب: «هما يتساولان» فهذا يعطي أن هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة[٣]، فالإمالة إنما أُريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في (سِلْت) كما جاءَت الإمالة في (خاف) لمجيءِ الكسرة في خاءِ (خِفت).

ومعنى الآية أن هذه السؤَالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحات ومباحثات، قد سألتها قبلكم الأُمم ثم كفروا بها. قال الطبري: كقوم صالح في سؤَالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة، وقال السدي: كسؤَال قريش أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يتجه في قريش مثالاً سؤُالُهم آيةً، فلما شُقَّ لهم القمر كفروا، وهذا المعنى إنما يقال لمن سأل النبي عليه الصلاة والسلام: أين ناقتي؟ وكما قال له الأعرابي: ما في بطن ناقتي هذه؟ فأما من سأله عن الحج: أفي كل عام هو؟ فلا يفسر قوله: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ﴾ الآية بهذا ولا مثله، بل بأن الأُمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أنبيائها، ثم لم تَفِ بما كلفت.

---

(١) رواه الإمام أحمد، ومالك في الموطأ، ورواه ابن ماجه والدارمي.

(٢) هكذا في النسخ التي بين أيدينا، وهي من سهو النساخ.

(٣) عبارة «البحر المحيط» في هذه النقطة هي: «وقرأ إبراهيم النَّخعي بكسر السين من غير همز، يعني بكسر الإمالة، وجعل الفعل من مادة (سين وواو ولام) لا من مادة (سين وهمزة ولام)، وهما لغتان ذكرهما سيبويه، ومن كلام العرب: هما يتساولان بالواو، وإمالة النَّخعي (سال) مثل إمالة حمزة (خاف).» وهي أوضح من عبارة ابن عطية.



قوله عز وجل:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم، أخبر تعالىٰ في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنَّة لعباده، والمعنىٰ: ولكن الكفار فعلوا ذلك، إذ أكابرهم ورؤساؤهم كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره يفترون على الله الكذب، ويقولون: هذه قربة إلى الله وأمر يرضيه، وأكثرهم ـ يعني الأتباع ـ لا يعقلون، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة.

و﴿ **جَعَلَ** ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنىٰ: خلق الله، لأن الله تعالىٰ خلق هذه الأشياء كلها، ولا هي بمعنى: صيَّر، لعدم المفعول الثاني، وإنما هي بمعنىٰ: ما سَنَّ ولا شرع، فتعدَّت تعدِّي هذا الذي هي بمعناه إلى مفعول واحد.

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، وبَحَر: شَقَّ، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أُذنها نصين طولاً، فهي مبحورة، وتركت ترعى وتَرِدُ الماءَ ولا ينتفع منها بشيءٍ، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساءِ ويحل للرجال(١)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون، وقال مسروق: إذا ولدت خمساً أو سبعاً شقُّوا أُذنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده آذان النوق، فلكلٍّ سُنَّة، وهي كلها ضلال، قال ابن سيدة: ويقال: البحيرة هي التي خُلِّيت بلا راع، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة.

---

(١) وقيل أيضاً: لم يركب ظهرها، ولم يُجزَّ وبرها، ولم يَشْرب لبنها إلا ضيف، فهي:

مُحَرَّمَةٌ لا يَطْعَمُ النَّاسُ لَحْمَها ... ولا نَحْنُ في شَيْءٍ كذاكَ البَحائِرُ



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَرىٰ أَن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر، وعلى هذا يجيءُ قول ابن مُقْبل:

فيـه مِـنَ الأَخْـرج الْمُـرْتَـاع قَـرْقَـرَةٌ   هَدْرَ الدَّيامِيِّ وَسْطَ الْهَجْمَةِ البُحُرِ[1]

فإنما يريد النوق العظام وإن لم تكن مُشَقَّقَة الآذان.

وروى الشعبي، عن أَبي الأَحوص، عن أَبيه قال: (دخلت على النبي ﷺ فقال لي: أَرأَيتَ إِبلَكَ؟ أَلست تنتجها مسلمة آذانها، فتأْخذ الموسىٰ فتقطع آذانها، فتقول: هذه بُحُرٌ، وتقطع جلودها فتقول: هذه صرم، فتُحَرِّمها عليك وعلى أَهلك؟ قال: نعم، قال: فإن ما آتاك الله لك حِلٌّ، وساعد الله أَشَدّ، وموسَىٰ الله أَحَدّ)[2].

والسائبة: هي الناقة التي تُسَيَّب للآلهة، والناقة أَيضاً إِذا تابعت ثنتي عشرة إِناثاً ليس فيهن ذكر سُيِّبت. وقال رسول الله ﷺ لأَكْثَم بن الجون الخزاعي: (يا أَكْثَم، رأَيت عَمْرو ابنَ لُحَيٍّ بن قمْعَةَ بن خندق يجُرُّ قُصْبَه في النَّار، فما رأَيت أَشبه به منك، قال أَكثم: أَيضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: لا، إِنك مؤمن وإِنه كافر، هو أَول من غيَّر دين إِسماعيل عليه السلام، ونصب الأَوثان، وسيَّب السوائب)[3]، وكانت السوائب أَيضاً في العرب كالقُرْبة عند المَرض يُبرأُ منه، والقُدوم من السفر، وإِذا نزل بأَحدهم أَمْر

(١) هذا البيت أَنشده شَمر كما قال في «اللسان» لابن مقبل شاهداً على أن بَحيرة تُجْمع على بُحُر، والضمير في (فيه) يعود على مكان معين. والأخرج: من نعت الظليم، قال الليث: هو الذي سواده أكثر من بياضه كلون الرماد، والمرتاع: الخائف الشديد الفزَع. والقَرْقَرَةُ: الهدير. والهَدْرُ: مصدر للفعل هَدَر على وزن ضرب. والدَّياميّ: جماعة الإبل ـ (وفي رواية الزّيامىّ)، والهَجْمَةُ: الجماعة الضخمة من الإبل، والبُحُر بضمتين جمع بحيرة. يقول: في هذا المكان قرقرة عالية تصدر عن هذا الظليم الخائف المرتاع كأنها هدير جماعة ضخمة من الإبل وسط مجموعة كبيرة من البُحُرُ التي شُقَّت آذانها. وتركت بدون راع فمضت ترعى وتهدر حيث تشاءُ.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن أبي الأحوص. وفي آخر الحديث شرح أبو الأحوص المعنى، وفسَّر الكلمات التي في الآية وهي: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه ـ عن أبي هريرة (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٨).



يشكر الله عليه تقرّب بأَن يُسَيِّب ناقة فلا ينتفع منها بلبن ولا ظَهْر ولا غيره. يرون ذلك كعِتْق بني آدم(١)، ذكره السدي وغيره، وكانت العرب تعتقد أَن مَن عَرَض لهذه النوق فأَخذها أَو انتقع منها بشيءٍ فإنه تلحقه عقوبة من النار.

والوصيلة: قال أَكثر الناس: إن الوصيلة في الغنم. قالوا: إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أَو خمسة فإن كان آخرها جَدْيا(٢) ذبحوه لبيت الآلهة، وإن كانت عَنَاقا(٣) استَحْيَوها(٤)، وإن كان جَدْي وعَنَاق استَحْيوهما وقالوا: هذه العَناق وصلت أَخَاها فمنعته من أَن يُذبح، وعلى أَن الوصيلة في الغنم جاءَت الروايات عن أَكثر الناس. وروي عن سعيد بن المسيب أَن الوصيلة من الإبل ـ كانت الناقة إذا ابتكرت بأُنثىٰ ثم ثَنَّت بأُخرىٰ قالوا: وصلتْ أُنْثَيَيْن، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم أَو يذبحونها، شك الطبري في إحدى اللفظتين.

وأَما الحامي فإنه الفحل من الإبل إذا ضرب في الإبل عشر سنين، وقيل: إذا وُلد من صُلْبه عشر، وقيل: إذا وُلد من وَلَد ولده قالوا: حمى ظهره فسيَّبوه لم يركب ولا سخر في شيءٍ(٥)، قال علقمة لمن سأَله في هذه الأَشياءَ: ما تريد إلى شيءٍ كان من عمل أَهل الجاهلية وقد ذهب؟ وقال نحوه ابن زيد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة ما يظهر من هذه الأُمور أَن الله تعالىٰ قد جعل هذه الأَنعام رفقاً لعباده، ونعمة عدَّدها عليهم، ومنفعةً بالغة، فكان أَهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع، ويذهبون

---

(١) قال عكرمة: السائبة: البعير ـ تُسَيَّب بنذر يكون على الرجل إن سلَّمه الله من مرض أو بلَّغه منزلة أن يفعل ذلك، فلا تُحبس عن رعي ولا ماءٍ، ولا يركبها أحد، قال الشاعر:

وسائبةٍ لله تَنْمي تَشَكُّراً ... إنِ اللهُ عافَى عامِراً أَوْ مُجَاشِعا

وقيل: السائبة هي المُخَلاة لا قيد عليها، ولا راعي لها، فاعل بمعنى مفعول، نحو: «عيشة راضية»، أي: مُرضية، من سابت الحَيَّةُ وانسابت، قال الشاعر:

عَقَرْتُمْ نَاقَةً كَانَتْ لِرَبِّي ... وَسَائِبَةً فَقُومُوا لِلْعِقَابِ

(٢) الجَدْيُ: الذكر من أولاد الماعز، جمعه: أَجْدٍ، وجِداءٌ، وجديان.

(٣) العَناق: الأنثىٰ من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول، وجمعه: أَعْنُق، وعُنُقٌ، وعُنوقٌ.

(٤) استحياه: تركه حياً فلم يقتله، وفي التنزيل: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

(٥) يؤيد هذا قول الشاعر:

حمَاهَا أبو قابوسَ في عزِّ مُلْكِهِ ... كما حمى أولادَ أولاده الفَحْلُ



نعمة الله فيها، ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإبل. وبهذا فارقت هذه الأُمور الأَحباس والأَوقاف، فإن المالك الذي له أَن يهب ويتصدق له أَن يصرف المنفعة في أَي طريق من البِرِّ، ولم يَسُدَّ الطريق إِليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة.

وقال أَبو حنيفة وأَصحابه: لا تجوز الأَحباس والأَوقاف، وقاسوا على البحيرة والسائبة، والفرق بيِّن، ولو عَمَد رجل إِلى ضيعة له فقال: هذه تكون حبساً لا يُجْتَنى ثمرها، ولا تُزْرع أَرضها، ولا يُنْتَفَع منها بنفع لجاز أَن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة. وأَما الحبس البيِّن طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا، وحسبك بأَن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مالٍ له: (اجعله حبساً لا يباع أَصله)، وحَبَس أَصحاب النبي عليه الصلاة والسلام[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، وقد تقدم أَن المفترين هم المبتدعون، وأَن الذين لا يعقلون هم الأَتباع، وكذلك نص الشعبي وغيره، وهو الذي تعطيه الآية، وقال محمد بن أَبي موسىٰ: الذين كفروا وافتروا هم أَهل الكتاب، والذين لا يعقلون هم أَهل الأَوثان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير من انتزع أَلفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنىٰ، وعما تأَخر أَيضاً من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والأَول من التأويلين أَرجح.

والضمير في قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المستنين بهذه الأَشياء، و﴿تَعَالَوْاْ﴾ نداءٌ بيِّن، هذا أَصله، ثم استعمل حيث البرُّ وحيث ضده، و﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن الذي فيه التحريم الصحيح، و﴿حَسْبُنَا﴾ معناه: كفانا، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أَلف التوقيف دخلت على واو العطف، كأَنهم عطفوا بهذه الجملة على

---

(١) روي أن أبا يوسف رجع عن قول أبي حنيفة في ذلك لما حدثه ابن عُلَيَّة، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر أنه استأذن رسول الله ﷺ في أن يتصدق بسهمه بخيبر: فقال له رسول الله ﷺ: (احبس الأصل وسبِّل الثَّمرة)، أي اجعلها وقفاً وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه.
وقد قال القرطبي: «إن المسألة إجماع من الصحابة، وذلك أنا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابراً رضي الله عنهم كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة ومشهورة».



الأُولى والتزموا شنيع القول، فإنما التوقيف توبيخٌ لهم كأَنَّهم يقولون بعده: نعم ولو كانوا كذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، اختلف الناس في تأويل هذه الآية فقال أَبو أُمية الشعباني: سأَلت أَبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سأَلت عنها خبيراً، سأَلت عنها رسول الله ﷺ فقال: (ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فإذا رأَيت دنيا مؤثرة، وشُحّاً مُطاعاً، وإعجاب كل ذي رأْي برأْيه، فعليك بخويصة نفسك، وذر عوامهم فإن وراءَكم أَياماً أَجر العامل فيها كأَجر خمسين منكم)(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو التأْويل الذي لا نظر لأَحد معه، لأَنه مستوف للصلاح، صادر عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويظهر من كلام أَبي بكر الصديق رضي الله عنه أَنه بَلَغَه أَن بعض الناس تأَوَّل الآية أَنها لا يلزم معها أَمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد المنبر فقال: أَيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فيقول أَحدكم: عليَّ نفسي، والله لتأْمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أَو ليستعملن عليكم شراركم فَلَيَسُومُنَّكُم سوءَ العذاب(٢).

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قُبل منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أَنفسكم(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، ابن ماجه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب ـ عن أبي أُمية الشبعاني. (الدر المنثور ٢ـ ٣٣٩) (وفتح القدير ٢ـ ٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والعدني، وابن منيع، والحميدي في مسانيدهم، وأبو داوود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابو يَعْلىٰ، وغيرهم كثيرون، ومع اختلاف في الألفاظ. (الدر المنثور. وفتح القدير).

(٣) هذا جزء من خبر طويل أخرجه عبد بن حميد، ونعيم بن حماد في الفتن، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهم كثيرون. (فتح القدير).



وقيل لابن عمر في بعض أَوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأَيام فلم تأْمر ولم تنه، فقال: إِن رسول الله ﷺ قال لنا: (ليبلغ الشاهد الغائب)، ونحن شهدنا فيلزمنا أَن نُبلغكم، وسيأْتي زمان إِذا قيل فيه الحق لم يقبل[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجُملة ما عليه أَهل العلم في هذا أَن الأَمر بالمعروف متعيِّن متى رجي القبول، أَو رجي ردُّ المظالم ولو بعنْف مالم يخف المرءُ ضرراً يلحقه في خاصته، أَو فتنة يدخلها على المسلمين، إِما بِشَقِّ عصا، وإِما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإِذا خيف هذا فعليكم أَنفسكم بحُكْم واجب أَن يوقف عنده.

وقال سعيد بن جبير: معنى هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأَمر بمعروف وغيره، ولا يضركم ضلال أَهل الكتاب إِذا اهتديتم.

وقال ابن زيد: معنىٰ الآية: يا أَيُّها الَّذين آمنوا من أَبناءِ أُولئك الذين بَحَروا البَحيرة وسيَّبوا السوائب عليكم أَنفسكم في الاستقامة على الدين، ولا يضركم ضلال الأَسلاف إِذا اهتديتم، قال: وكان الرجل إِذا أَسلم قال له الكفار: سفَّهت آباءَك وضلَّلتهم وفعلت وفعلت، فنزلت الآية بسبب ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يقل أَحد ـ فيما علمت ـ إِنها آية موادعة للكفار، وكذلك لا ينبغي أَن يعارض بها شيءٌ مما أَمر الله به في غير ما آية، من القيام بالقسط والأَمر بالمعروف، قال المهدوي: وقد قيل: هي منسوخة بالأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ولا يعلم قائله.

وقال بعض الناس: نزلت بسبب ارتداد بعض المؤمنين وافتتانهم، كابن أَبي سرح وغيره، فقيل للمؤمنين: لا يضركم ضلالهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عمر. (الدر المنثور ٢ـ ٣٤٠).



وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ بضم الضاد وشد الراءِ المضمومة، وقرأ الحسن ابن أَبي الحسن: [لا يضُرُكم] بضم الضاد وسكون الراءِ، وقرأ إبراهيم: [لا يضِركم] بكسر الضاد، وهي كلها لغات بمعنىٰ: ضرَّ يضُر، وضار يضور ويضير.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. تذكير الحشر وما بعده، وذلك مُسَل عن أُمور الدنيا ومكروهها ومحبوبها، وروي عن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيءُ الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأَين تسكن؟ فأَقول له: آكل الموت، وأَلبس الكفن، وأَسكن القبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمن فكر في مرجعه إلى الله فهذه حاله.

قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قال مكي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هذه الآيات عند أَهل المعاني من أَشكل ما في القرآن، إِعراباً ومعنى وحكماً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلام من لم يقع له الثَّلَج(١) في تفسيرها، وذلك بيِّن من كتابه رحمه الله، وبه نستعين.

لا نعلم خلافاً أَن سبب هذه الآية أَن تميماً الداري، وعدِيَّ بن بدَّاءٍ كانا نصرانيَّيْن سافرا إِلى المدينة يريدان الشام لتجارتهما، قال الواقدي: وهما أَخوان، وقدم المدينة أَيضاً ابن أَبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً، فخرجوا رفاقة، فمرض

(١) ثَلَجت النفس بالشيء: رضيت به وارتاحت واطمأنت إليه، وقيل: عرفته وسُرَّت به.



ابن أَبي مارية في الطريق، قال الواقدي: فكتب وصية بيده ودسَّها في متاعه، وأَوصى إِلى تميم وعدِي أَن يوديا رَحْلَه، فأتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه، ووجد أَولياؤه من بني سهم وصيته مكتوبة، ففقدوا أَشياءَ قد كتبها فسأَلوهما عنها فقالا: ما ندري، هذا الذي قبضناه له فرفعوهما إِلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية الأُولىٰ، فاسْتَحلفهما رسول الله ﷺ بعد العصر، فبقي الأمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إناءٍ عظيم من فضة مُخَوَّص بالذهب[1]، فقيل لمن وُجد عنده: من أَين صار لكم هذا الإِناءُ؟ فقالوا: ابتعناه من تميم الداري وعدي بن بدَّاءٍ، فارتفع في الأَمر إِلى النبي عليه الصلاة السلام، فنزلت الآية الأُخرىٰ، فأَمر رسول الله ﷺ رجليْن من أَولياءِ الميِّت أَن يحلفا. قال الواقدي: فحلف عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة، واستحقا.

وروى ابن عباس عن تميم الداري أَنه قال: بريءَ النَّاس من هذه الآيات غيري وغير عديّ بن بداءٍ، وذكر القصة، إِلا أَنه قال: وكان معه جام[2] فضة يريد به الملك، فأَخذته أَنا وعدي، فبعناه بأَلف وقسمنا ثمنه، فلما أَسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأَثَّمت من ذلك، فأَتيت أَهله فأَخبرتهم الخبر، وأَدَّيْت إِليهم خمسمائة، فوثبوا إِلى عدي فأَتوا به رسول الله ﷺ، وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه، ونزعت من عديٍّ خمسمائة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

تختلف أَلفاظ هذه القصة في الدواوين، وما ذكرته هو عمود الأَمر، ولم يصح لعديٍّ صُحبة فيما علمت ولا ثبت إِسلامه، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأَخرين، وضعَّف أَمره، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة.

وأَما معنىٰ الآية من أَولها إِلى آخرها فهو أن الله تعالىٰ أَخبر المؤمنين أَن حكمه في الشهادة على الموصِي إِذا حضره الموت أَن تكون شهادة عدليْن، فإِن كان في سفر ـ وهو الضرب في الأَرض ـ ولم يكن معه من المؤمنين أَحد فَلْيُشْهد شاهديْن ممن حضره من أَهل الكفر، فإِذا قدما وأَدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أَنهما ما كذبا ولا

(١) مُخَوَّص بالذهب: أي عليه صفائح من الذهب مجدولة على هيئة خوص النخيل.
(٢) الجام: إناءٌ.



بدّلا، وأَن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحُكم بشهادتهما، فإن عُثر ـ بعد ذلك ـ على أنهما كذبا أَو خانا ونحو هذا مما هو إِثم حلف رجلان من أَولياءِ الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما. هذا معنى الآية على مذهب أَبي موسىٰ الأَشعري، وسعيد بن المسيب، ويحيىٰ بن يَعْمر، وسعيد بن جُبَير، وأَبي مجْلز، وإِبراهيم، وشُرَيْح، وعُبَيدة السلمانيّ، وابن سيرين، ومجاهد، وابن عباس، وغيرهم، يقولون: معنى قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ من المؤمنين، ومعنىٰ ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الكفار، قال بعضهم: وذلك أَن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة، وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أَهل الكتاب وعبدة الأَوثان وأَنواع الكفرة.

واختلف هذه الجماعة المذكورة ـ فمذهب أَبي موسى الأَشعري وشريح وغيرهما أَن الآية مُحْكَمة، وأَسند الطبري إلى الشعبي أَن رجلاً حضرته المنية بدقوقا[1]، ولم يجد أَحداً من المؤمنين يشهده على وصيَّته، فأَشْهَدَ رجلين من أَهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأَتيا أَبا موسىٰ الأشعري فأَخبراه وقدما بتركته، فقال أَبو موسىٰ الأشعري: هذا أَمر لم يكن بعد الذي كان في مدة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أَحلفهما بعد صلاة العصر، وأَمضىٰ شهادتهما.

وأَسند الطبري عن شريح أَنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ولا تجوز أَيضاً في الوصية إِلا إِذا كانوا في سفر.

ومذهب جماعةٍ ممن ذكر أَنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2] وبما استند إِليه إِجماع جمهور الناس على أَن شهادة الكافر لا تجوز.

وتأَول جماعةٌ من أَهل العلم الآية على غير هذا كله، قال الحسن ابن أَبي الحسن: وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنكُمْ﴾ يريد من عشيرتكم وقرابتكم، وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة. وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس، وابن شهاب، قالوا:

---

(١) دَقوقا ودقوقاء (مقصورة وممدودة): مدينة معروفة بين إربل وبغداد ـ هكذا قال ياقوت في «معجم البلدان» ثم قال: لها ذكر في الأخبار والفتوح، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدي بن أبي صَمَام:

شبـابٌ أطـاعـوا اللهَ حتَّـى أَحبهَّـم ... وكُلُّهُـمُ شـارٍ يخـافُ ويَطْمَـعُ
فلمَّـا تَبَـوَّؤا مِـنْ دقُـوقـا بمنـزلٍ ... لميعـادِ إخـوانٍ تـداعـوا فـأجْمعـوا

(٢) من الآية رقم (٢) من سورة (الطلاق).



أَمر الله بإِشهاد عدليْن من القرابة إِذ هم أَلحن[(١)] بحال الوصية وأَدرى بصورة العدل فيها، فإِن كان الأَمر في سفر ولم تحضر قرابة أُشْهد أَجْنَبيَّان، فإِذا شهدا فإِن لم يقع ارتياب مضت الشهادة، وإِن ارتيب أَنهما مالا بالوصية إِلىٰ أَحد أَو زادا أَو نقصا حَلَفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما، فإِن عُثر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إِثْم حَلَفَ وليَّان من القرابة، وبطلت شهادة الأَوليْن[(٢)].

وقال بعض الناس: الآية منسوخة، ولا يحلف شاهد، ويذكر هذا عن مالك بن أَنس، والشافعي، وكافة الفقهاء.

وذكر الطبريُّ رحمه الله أَن هذا التخالف الذي في الآية إِنما هو بحسب التداعي، وذلك أَن الشاهدْين الأَوَّليْن إِنما يحلفان إِذا ارْتيب، وإِذا ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فتلزمهما اليمين، لكن هذا الارتياب إِنما يكون في خيانة منهما. فإِن عُثر بعد ذلك على أَنهما استحقا إِثماً نظر، فإِن كان الأَمر بيِّناً غُرِّما دون يمين وليَّيْن، وإِن كان بشاهد واحد أَو بدلائل تقتضي خيانتهما أَو ما أَشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدَّعيان مع ما قام لهما من شاهد أَو دليل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا هو الاختلاف في معنىٰ الآية وصورة حكمها.

ولنرجع الآن إِلىٰ الإِعراب والكلام على لفظة لفظة من الآية، ولنقصد القول المفيد، لأَن الناس خلَّطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً، وذكْر ذلك والردُّ عليه

---

(١) يُفهم من (أَلحن) أنهم أعرف بالوصية، إذ يقال: لَحِين القولَ عنه: فهمه ـ ويقال: أَلحن فلاناً القولَ: أفهمه إيَّاه، وفي بعض النسخ: «إذ هم أحق بحال الوصية» وهو ما يطابق عبارة أبي حيان في «البحر المحيط».

(٢) يؤيد هذا الرأي النحاس بدليل لغوي، يقول: وهذا ينبني على معنىٰ غامض في العربية، وذلك أن معنىٰ (آخرَ) في العربية يكون من جنس الأول، تقول: مررت بكريم وكريم آخر، ولا تقول: مررت بكريم وخسيس آخر، فوجب من هذا أن يكون قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: عَدْلان، ومعنىٰ هذا أنهما من المسلمين لا من الكفار، لأن الكفار لا يكونون عدولاً، فيصح على هذا قول من قال: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير عشيرتكم من المسلمين. قال القرطبي تعليقاً على ذلك: «وهذا معنى حسن من جهة اللسان، على أنه قد عورض بأن في أول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فخوطب الجماعة من المؤمنين». ومعنى هذا أن قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يقتضي أن يكون المقصود «من غير المؤمنين» ما دام الخطاب للمؤمنين.



يطول، وفي تبيين الحق الذي تتلقاه الأذهان بالقبول مقنع، والله المستعان.

قوله: [شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ]، قال قوم: الشهادة هنا بمعنى الحضور، وقال الطبري: الشهادة بمعنى اليمين، وليست بالتي تُؤَدَّىٰ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لِتُؤَدَّىٰ[1]. ورفْعها بالابتداء والخبر في قوله: ﴿ٱثْنَانِ﴾. قال أبو علي: التقدير: شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه. وقدَّره غيره أولاً، كأنه قال: «مقيم شهادة بينكم اثنان».

وأُضيفت الشهادة إلى (بيْنَ) اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملة الأسماء، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[2].

وقرأ الأعرج، والشعبي، والحسن: [شَهَادَةٌ] بالتنوين [بَيْنَكُمْ] بالنصب، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءَة السبعة. وروي عن الأعرج، وأبي حيْوة: [شهادَةً] بالنصب والتنوين [بينَكُم] نصباً، قال أبو الفتح: التقدير: «ليقم شهادةً بينَكُم اثنان».

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ معناه: إذا قرب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميِّت، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[3]، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾[4]، وهذا كثير، والعامل في ﴿إِذَا﴾ المصدر الذي هو ﴿شَهَٰدَةُ﴾، وهذا على أن تجعل ﴿إِذَا﴾ بمنزلة (حين) لا تحتاج إلى جواب، ولك أن

---

(١) جاءت (شهد) في القرآن بمعان مختلفة ـ بمعنى (قضىٰ) كقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبمعنى (أقرّ) كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾. وبمعنى (حلف) كما في اللِّعان، وبمعنىٰ (وصىٰ) كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ـ وهذا على رأي من يرى أنها هنا بمعنىٰ (وصَّىٰ).

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الأنعام) ـ وقد قيل: الأصل (ما بينكم) فحذفت (ما) وتمت الإضافات على السعة كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ أي: ما بيني وبينك، وكقول الشاعر:

تُصَافِحُ مَن لاقَيْتَ لي ذا عداوةٍ ... صفاحاً، وعنّي بيّن عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي

أي: ما بين عينيك، ومن الإضافة على السعة قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي مكركم في الليل والنهار.

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (النحل).

(٤) من الآية (١) من سورة (الطلاق).



تَجْعل ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية المحتاجَةَ إلى جواب لكن استُغني عن جوابها بما تقدم في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إذ المعنىٰ: إذا حضر أَحدَكم الموتُ فينبغي أَن يشهد.

وقوله: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ ظرف زمان والعامل في ﴿حَضَرَ﴾، وإن شئت جعلته بدلاً من ﴿إِذَا﴾، قال أَبو علي: ولك أَن تعلقه بـ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾، ولا يجوز أَن تعمل فيه [شهادةُ] لأَنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لقوله ﴿ٱثْنَانِ﴾، و﴿مِّنكُمْ﴾ صفة أَيضاً بعد صفة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ صفة لـ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، و﴿ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: سافرتم للتجارة، تقول: ضربتُ في الأَرض أَي: سافرت للتجارة، وضربتُ الأَرض: ذهبت فيها لقضاءِ حاجة الإِنسان، وهذا السفر كان كالذي يمكن أَن يعدم فيه المؤمن مؤمنين، فلذلك خُصَّ بالذكر، لأَن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤمنين.

قال أَبو علي: قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ صفة لـ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، واعترض بين الموصوف والصفة بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ إلى ﴿ٱلْمَوْتُ﴾، وأَفاد الاعتراض أَن العدول إلى آخرَيْن من غير الملَّة أَو القرابة حسب اختلاف العلماءِ في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه، واستغني عن جواب ﴿إِنْ﴾ لما تقدم من قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

وقال جمهور العلماءِ: الصلاة هنا صلاة العصر، لأَنه وقت اجتماع الناس، وقد ذكره النبي ﷺ فيمن حلف على سلعته، وأَمر باللعان فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما هي بعد صلاة الذِّمِّيِّين(١)، وأَما العصر فلا حرمة لها عندهما.

والفاءُ في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ عاطفة جملة على جملة، لأَن المعنىٰ تم في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، قال أَبو علي: وإن شئت لم تقدر الفاءَ عاطفة جملة على جملة، ولكن تجعله جزاءً كقول ذي الرمَّة:

وإِنْسَانُ عَيْني يَحْسِرِ الماءُ تارَةً ... فَيَبْدو وتاراتٍ يَجِمُّ فَيَغْرَقُ(٢)

تقديره عندهم: إذا حَسَر بدا، فكذلك إذا حبستموهما أَقْسما.

---

(١) لأن الشاهدين في هذه الحالة من أهل الذمة، وصلاتهم لها عندهما حُرمة وقداسة.

(٢) إنسان العيْن: ناظرها. وحسَر الشيءُ حُسوراً: انكشف، وحسر الشيءَ: أزاله، وجمَّ: اجتمع وكثُر ـ يقول: إذا حسر الدمع وانكشف ظهر إنسان عينه، وإذا تجمَّع الماء وكثر غرق فيه فلا يظهر.



وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شرط لا يتوجَّه تحليف الشاهدَيْن إلاَّ به، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين، أَما إِنه يظهر من حكم أَبي موسىٰ تحليف الذِّمِّيِّين أَنه باليمين تكْمُل شهادتُهما وتنفذ الوصية لأَهلها وإِن لم يرتب. وهذه الريبة ـ عند من لا يرى الآية منسوخة ـ تترتب في الخيانة وفي الاتهام بالميل إِلى بعض الموصىٰ لهم دون بعض، وتقع مع ذلك اليمين عنده، وأَما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إِلا بأَن يكون الارتياب في خيانة، أَو تَعَدٍّ بوجه من وجوه التعدي، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوىٰ على منكر لا على أَنه تكميل للشهادة.

والضمير في قول الحالفيْن: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ عائد على القسم، ويحتمل أَن يعود على اسم الله تبارك وتعالىٰ، قال أَبو علي: يعود على تحريف الشهادة. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ لأَن القسم ونحوه يتلقىٰ بما يتلقىٰ به الأَيمان، وتقدير ﴿بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أَي: ذا ثمن، لأَن الثَّمن لا يُشترى، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1] معناه: ذا ثَمَن. ولا يجوز أَن يكون ﴿نَشْتَرِى﴾ في هذه الآية بمعنى نبيع، لأَن المعنى يبطله، وإِن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع.

وخص ذا القربىٰ بالذكر لأَن العرف ميل الناس إِلى قراباتهم، واستسهالهم في جنب نفعهم مالا يستسهل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أَضاف ﴿شهادة﴾ إِليه تعالىٰ من حيث هو الآمر بإِقامتها الناهي عن كتمانها. وقرأَ الحسن والشعبي: [ولا نَكْتُمْ] بجزم الميم[2]، وقرأَ علي بن أَبي طالب، ونعيم بن ميسرة، والشعبي ـ بخلاف عنه ـ: [شَهادةً] بالتنوين [اللهَ] نصب بـ[نَكْتُم]، كأَن الكلام: «ولا نكتُم اللهَ شهادةً». قال الزهراوي: ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: «ولا نكتم شهادةً واللهِ» ثم حذفت الواو ونصب الفعل إِيجازاً. وروىٰ يحيىٰ بن آدم عن أَبي بكر بن عيَّاش: [شهادةً] [آللهِ] بقطع الأَلف دون مد وخفض الهاءِ،

---

(١) من الآية (٩) من سورة التوبة.

(٢) القراءة بجزم الميم من [نَكْتُمْ] على معنى أَنهما يَنْهيان نفسيهما عن كتمان الشهادة والعلماءُ يقولون: إِن دخول (لا) الناهية على المتكلم قليل، ومنه قول الشاعر:

إِذا ما خَرَجْنا مِنْ دمشْقَ فلا نَعُدْ ... لها أَبداً ما دامَ فيها الجراضِمُ

ورويت أيضاً عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على الهاء من (الشهادة) بالسكون، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مدٍّ كما تقدم، وروي عنه أنه كان يقرأُ [آلله] بمدِّ أَلف الاستفهام في الوجهيْن، أَعني بسكون الهاءِ من (الشهادة) وتحريكها منونة منصوبة، ورويت هذه التي هي تنوين (الشهادة) ومدّ أَلف الاستفهام بعد عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، قال أَبو الفتح: أَما تسكين هاءِ [شهادة] والوقف عليها واستئناف القسم فوجْه حسن، لأَن استئناف القسم في أَول الكلام أَوقر له وأَشد هيبة أَن يدرج في عرض القول. وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الله بن حبيب، والحسن البصري ـ فيما ذكر أَبو عمرو الداني ـ: [شهادةً] بالنصب والتنوين [آلله] بالمدِّ في همزة الاستفهام التي هي عِوَض من حرف القسم [آنّا] بمد أَلف الاستفهام أَيضاً دخلت لتوقيف أَو تقرير لنفوس المقسمين، أَو لمن خاطبوه. وقرأَ ابن مُحَيْصِن: [لَمِلاَّ ثِمينَ] بالإِدغام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنۡ عُثِرَ ﴾ استعارة لما يُوقعَ على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد أَن لم يُرْج ولم يُقْصد، وهذا كما يقال: على الخبير سقطت، ووقعت على كذا، قال أَبو علي: والإِثم هنا: اسم الشيء المأْخوذ، لأَن آخذه بِأَخْذه آثم فسمي إِثْماً كما سُمِّي ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمَة، قال سيبويه: المظلمة اسم ما أُخذ منك، وكذلك سمي هذا المأْخوذ باسم المصدر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر هنا أَن الإِثم على بابه هو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد مواقعتهما لتحريف الشهادة أَو لأَخذ ما ليس لهما أَو نحْو ذلك.

و﴿ ٱسۡتَحَقَّآ ﴾ معناه: استوجباه من الله وكانا أَهلاً له، فهذا استحقاق على بابه، إِنه استيجاب حقيقة، ولو كان الإِثم الشيءَ المأْخوذ لم يقل فيه استحقا لأَنهما ظلما وخانا فيه، فإِنما استحقا منزلة السوءِ وحكم العصيان، وذلك هو الإِثم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أَي: فإِذا عُثر على فسادهما فالأَوْلَيان باليمين وإِقامة القضية آخران من القوم الذين هم ولاةُ الميت، واستحق عليهم حظهم أَو ظهورهم أَو مالهم أَو ما شئت من هذه التقديرات.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي: [اسْتُحِقَّ] مضمومة التّاءِ،



و﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ على التثنية لـ (أَوْلى)، وروى قُرَّة عن ابن كثير: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التَّاء ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ على التثنية، وكذلك روى حفص عن عاصم، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أَبي بكر [اسْتُحق] بضم التاءِ [الأَوَّلين] على جمع (أَوَّل)، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن [استَحق] بفتح التاءِ [الأَوَّلان] على تثنية (أَوَّل)، وقرأ ابن سيرين [الأَوَّلَيْن] على تثنية (أَوَّل)، ونصبهما على تقدير: الأَولين فالأَوَّلين في الرتبة والقربىٰ[(١)].

قال أَبو علي في قراءَة ابن كثير ومن معه[(٢)]: لا يخلو ارتفاع [الأَوْليان] من أَن يكون على الابتداءِ وقدأُخِّر، فكأَنه في التقدير: «والأَوْليان بأَمر الميت آخران يقومان» فيجيءُ الكلام كقولهم: «تميميٌّ أَنا»، أَو يكون خبر ابتداءِ محذوف كأَنه: «فآخران يقومان مقامهما هما الأَوْلَيان»، أَو يكون بدلا من الضمير الذي في ﴿يَقُومَانِ﴾، أَو يكون مسنداً إِلى [استُحق]، وأَجاز أَبو الحسن فيه شيئاً آخر وهو أَن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ صفة لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ لأَنه لما وصف خصص، فوصف من أَجل الاختصاص الذي صار له[(٣)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم قال أَبو علي بعد كلامه هذا: فأَما ما يُسند إِليه [اسْتُحِقَّ] فلا يخلو من أَن يكون: الأَنصباءَ، أَو الوصية، أَو الإِثم. وسمي المأْخوذ إِثماً كما يقال لما يؤْخذ من المظلوم: مَظْلَمة، ولذلك جاز أَن يستند إِليه [اسْتُحِقَّ]، ثم قال بعد كلام: فإِن قلت: هل يجوز أَن يُسند [اسْتُحِقَّ] إِلى ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾؟ فالقول أَن ذلك لا يجوز، لأَن المستحق إِنما يكون الوصية أَو شيئاً منها، وأَما الأَولَيَان بالميت فلا يجوز أَن يستحقا فيسند [اسْتُحَقَّ] إِليهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام نظر، ويجوز عندي أَن يسند [اسْتُحِقَّ] إِلى ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾، وذلك أَن

---

(١) قال النحاس: والقراءتان لحن، لا يقال في مُثَنّى مُثَنَّان ـ ويريد بالقراءتين قراءة الحسن وقراءة ابن سيرين ـ نقل ذلك القرطبي.

(٢) وهي قراءَة [اسْتُحِقَّ] بضم التَّاءِ، و﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ مثنىٰ (أَوْلَىٰ).

(٣) اختار النحاس أن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ بدلا من قوله: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، وهو أَصلاً إِعراب ابن السَّريّ، وهو بدل المعرفة من النكرة، وهو جائز، قيل: لأَن النكرة إِذا أُعيد ذكرها صارت معرفة كقوله تعالىٰ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ثم قال: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، ثم قال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾.



أَبا علي حمل لفظة الاستحقاق علىٰ أَنه حقيقي فلم يُجَوِّزه إِلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة، وإِنما يُسْتحق حقيقة النَّصيب ونحوه، ولفظة الاستحقاق في الآية إِنما هي استعارة وليست بمعنىٰ «استحقا إِثما» فإِن الاستحقاق هنا حقيقة، وفي قوله [اسْتُحق] مستعار، لأَنه لا وجه لهذا الاستحقاق إِلا الغلبة على الحال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقرابته أَو لأَهل دينه، فـ [اسْتُحِقَّ] هنا كما تقول لظالم يظلمك: هذا قد استحق عليّ مالي أَو منزلي بِظُلْمه، فَتُشَبِّهُه، بالمستحق حقيقة، إِذ قد تسور تسوره وتملك تملكه، وكذلك يقال: فلان قد استحق منه زمنه شغل كذا إِذا كان الأَمر قد غلبه على أَوقاته، وهكذا هي [اسْتُحِقَّ] في الآية على كل حالٍ وإِن أُسندت إِلىٰ الأَنصباءِ ونحوه، لأَن قوله [اسْتُحق] صلة لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ﴾ واقع على الصنف المناقض للشاهدَيْن الجائرَيْن، فالشاهدان ما استحقَّا قط في هذه النازلة شيئاً حقيقة استحقاق، وإِنما تسورا تسور المستحق، فلنا أَن نقدر ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ ابتداءَ وقد أُخِّر، فيسند [اسْتُحِقَّ] ـ على هذاـ إِلى المال أَو النصيب ونحوه على جهة الاستعارة، وكذلك إِذا كان ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ خبر ابتداءِ، وكذلك على البدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾، وعلى الصفة على مذهب أَبي الحسن، ولنا أَن نقدر الكلام بمعنىٰ: من الجماعة التي غابت وكان حقُّها والمبتغى أَن يحضر وليُّها، فلما غابت وانفرد هذا الموصي استحقت هذه الحال ـ وهذان الشاهدان من غير أَهل الدين ـ الولاية وأَمر الأَوْلَيَيْن على هذه الجماعة، ثم بني الفعل للمفعول على هذا المعنى إِيجازاً. ويقوي هذا الغرض أَن تعدّي الفعل بـ ﴿عَلَيْ﴾ لما كان باقتدار وحمل هيئته الحال، ولا يقال: استحق منه أَو فيه إِلا في الاستحقاق الحقيقي على وجهه، وأَما استحق عليه فيقال في الحَمْل والغلبة والاستحقاق المستعار. والضمير في [عَلَيْهم] عائد على كل حال في هذه القراءَة على الجماعة التي تناقض شاهِدَي الزور الآثمَيْن، ويحتمل أَن يعود على الصنف الذين منهم شاهد الزور على ما نُبَيِّنُه الآن إِن شاءَ الله في غير هذه القراءَة.

وأَما رواية قُرَّة عن ابن كثير ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاءِ فيحتمل أَن يكون ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ ابتداءً أَوْ خبر ابتداءِ، ويكون المعنى: من الجمع أَو القبيل الذي استحق القضية على هذا الصنف الشاهد بالزور، والضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ عائد على صنف شاهدي الزور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا التأويل تحويم وتحليق وصنعة في ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وعليه ينبني كلام أبي عليّ في كتاب الحجة، ويحتمل أن يكون المعنىٰ: من الذين استحق عليهم القيام، والصواب من التأويلين أن الضمير في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ عائد على ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ رفع بـ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ وذلك متخرج على ثلاثة معان[1]:

أَحدها أَن يكون المراد من الذين استحق عليهم مالَهم وتركتَهم شاهدا الزور، فسَمَّىٰ شاهدَي الزور أَوْلَيَيْن من حيث جعلتهما الحالُ الأَولى كذلك، أَي صيَّرهم عدَمُ الناس أَوْلى بهذا الميت وتركته فجارا فيها.

والمعنى الثاني أَن يكون المراد من الجماعة الذين حق عليهم أَن يكون منهم الأَوليان، فاستحق بمعنىٰ: حق ووجب، كما تقول: هذا بناءٌ قد استحق بمعنى حق، كعجب واستعجب ونحوه.

والمعنى الثالث أَن يجعل ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ بمعنى سعى واستوجب، فكأَن الكلام: فآخران من القوم الذين حضر أَوليان منهم فاستحقا عليهم حقهم، أي: استحقا لهم وسعيا فيه واستوجباه بأَيمانهما وقرباهما، ونحو هذا المعنىٰ الذي يعطيه التعدي بـ (على) قولُ الشاعر:

أَسْعَـى علـى حـيّ بَنـي مـالـك كـلُّ امـرىءٍ فـي شـأْنـهِ سـاعِـي[2]

وكذلك في الحديث: (كنت أَرعى عليهم الغنم) في بعض طرق حديث الثلاثة الذين ذكر أَحدهم برَّه بأَبويه حين انحطت عليهم الصخرة[3].

---

(١) خرَّج ابن عيطة قراءة فتح التاءِ في ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ و﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بالتثنية هذه التخريجات الثلاثة، أما الزمخشري فقال: «معناه: من الورثة الذين استَحَقَّ عليهم أَوْليان من بينهم بالشهادة أَنْ يُجَردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين». وقال بعضهم: المفعول محذوف، أَي: «من الذين استحق عليهم الأوليان وصيَّهما».

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب ـ والرواية فيه: أَسْعَىٰ عَلَى جُلِّ بَني مالك. وقد شرح معنى التعدية بـ (على) فيه فقال: فلا يسعى على عياله، أي: يتصرف لهم.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه. وهو حديث طويل ومشهور وابن عطية أمين حين يقول: «وفي بعض طرق حديث الثلاثة» لأن الجملة التي نقلها لا توجد في كل الطرق.



وأَما قراءَة حمزة[١] فمعناها: من القوم الذين استُحق عليهم أَمرُهم، أَي: غُلبوا عليه، ثم وصفهم بأَنَّهم أَوَّلون، أَي: في الذكر في هذه الآية، وذلك في قوله: ﴿ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ يعني الآخرين اللَّذين يقومان مقام شاهدي التحريف، وقولهما: ﴿ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ أَي: لَمَا أَخبرنا نحن به وذكرناه من نَصِّ القضية أَحق مما ذكراه أَوَّلا وحرَّفا فيه، ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ نحن في قولنا هذا ولا زدنا على الحدّ. وقولهما: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ تبرٌّ في صيغة الاستعظام والاستقباح للظلم، والظلم وضع الشيءِ في غير موضعه.

قوله عز وجل:

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

الإشارة بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ هي إِلى جميع ما حدَّ الله قبل من حبس الشاهدَين من بعد الصلاة لِليَمين، ثم إِن عُثر على جورهما رُدَّت اليمين وغُرّما، فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أَن ينزل من النوازل، لأَنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة، ثم يخافون الفضيحة وردَّ اليمين. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ويظهر من كلام السدي أَن الإشارة بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إِنما هي إِلى الحبس من بعد الصلاة

---

(١) قراءَة حمزة ومعه عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: [اسْتُحق] بضم التَّاء، و[الأوَّلِين] جمع (أوَّل).
ونلاحظ أن ابن عطية قد أطال في إعراب هذه الآية، وكذلك فعل أبو حيَّان في «البحر المحيط»، وقد قال الزجاج: أصعب ما في القرآن من الإعراب قوله: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾. وحتى في الأحكام فإن الآية تحتاج إلى إعمال فكر
ودقة نظر، وقد قال عمر رضي الله عنه: هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام، يريد قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾.
ومع ذلك فنحن مع صاحب المنار حين لا يوافق علماء اللغة على ما ذهبوا إليه من وجود صعوبات في الإعراب، أو معضلات في فهم الأحكام، و«القرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها، فهو أصل الأصول، فما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود مرذول. وبالله التوفيق.



فقط، ثم يجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾ بإزاءِ ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ الآية.

وجمع الضمير في ﴿يَأۡتُواْ﴾ و﴿يَخَافُوٓاْ﴾ إذ المراد صنف ونوع من الناس، و﴿أَوۡ﴾ في هذه الآية على تأويل السدي بمنزلة قولك: «تجيئُني يا زيد أَو تُسخطني»، كأَنك تريد: وإلا أَسخطتني، فكذلك معنى الآية: ذلك أدنى أَن يأْتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا ردَّ الأَيمان، وأَما على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما فالمعنى: ذلك الحكم كله أَقرب إلىٰ أَن يأْتوا، وأَقرب إلى أَن يخافوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ معناه: على جهتها القويمة التي لم تبدل، ولا حُرِّفت.

ثم أَمر تعالىٰ بالتقوى التي هي الاعتصام بالله، وبالسمع لهذه الأَوامر المُنْجية، وأَخبر أَنه لا يهدي القوم الفاسقين من حيثُ هم فاسقون، وإلا فهو تعالىٰ يهديهم إذا تابوا، ويحتمل أن يكون لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ عاماً والمراد الخصوص فيمن لا يتوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ذهب قوم من المفسرين إلى أَن العامل في ﴿۞يَوۡمَ﴾ ماتقدم من قوله: ﴿لَا يَهۡدِي﴾، وذلك ضعيف. ورصف الآية وبراعتها إنما هو أَن يكون هذا الكلام مستأْنفاً والعامل مقدراً، إما: اذكروا، وإما: تذكروا، وإما: احذروا ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع.

والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة، وخصَّ الرسل بالذكر لأَنهم قادة الخَلْق، وفي ضمن جَمْعهم جمع الخلائق، وهم المكلَّمون أَولاً.

و﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ معناه: ماذا أَجابت به الأُمم من إيمان أَو كفر وطاعة أَو عصيان؟ وهذا السؤَال للأنبياء الرسل إنما هو لتقوم الحجة على الأُمم. ويبتدىء حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور.

واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ ـ فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع. وذكر عن الحسن أَنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي: نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم. وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون: لا علم لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:



وضعّف بعض الناس هذا المنزع بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[(١)]، والأَنبياءُ في أَشد أَهوال يوم القيامة وحالة جواز السراط يقولون: سلِّم، سلِّم، وحالهم أَعظم وفضل الله عليهم أَكثر من أَن تذهب عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الآية: لا علم لنا إِلا علماً أَنت أَعلم به منا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن، كأَن المعنىٰ: لا علم لنا يكفي وينتهي إِلى الغاية.

وقال ابن جريج: معنى ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أَحدثوا؟ فلذلك قالوا: لا علم لنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى حسَنٌ في نفسه، ويؤَيده قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، لكن لفظة ﴿أُجِبۡتُمۡ﴾ لا تساعد قول ابن جريج إِلا على كره، وقول ابن عباس أَصوب هذه المناحي، لأَنه يتخرج على التسليم لله تعالىٰ وردّ الأَمر إِليه، إِذ قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ لا علم عندهم في جوابه إِلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاقٍ ونحوه، وكذلك ينقصهم ما كان يَعْدَهم من أُمتهم، والله تعالىٰ يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال، فرأَوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط.

وقرأَ أَبو حَيْوة: [ماذا أَجَبْتُم] بفتح الهمزة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

يحتمل أَن يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ فعلاً مضمراً تقديره: اذكر يا محمد إِذ جئتهم

(١) من الآية (١٠٣) من سورة (الأنبياء).



بالبينات، و﴿قَالَ﴾ هنا بمعنىٰ: يقول، لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة تقدمةً لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، وذلك كلُّه إحكام لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم ألوهية عيسىٰ.

ويحتمل أن تكون ﴿إِذْ﴾ بدلاً من قوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾.

ونعمةُ الله على عيسى هي بالنبوة وسائر ما ذكر وما علم مما لا تُحصى، وعددت عليه النعمة على أُمّه إذ هي نعمة صائرة إليه وبسببه كانت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ بتشديد الياءِ، وقرأ مجاهد، وابن محيصن: [آيَدْتك] على وزن فاعلتك، ويظهر أن الأصل في القراءَتين [أَيْدْتُك] على وزن أفعلتك ثم اختلف الإعلال، والمعنىٰ فيهما: قَوَّيتك من الأَيْدِ، وقال عبد المطلب:

الحمــــد للهِ الأَعــــزِّ الأكْــــرَم أَيَّــدنــا يــومَ زحــوف الأَشــرم[1]

وروح القُدُس هو جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ حال، كأنه قال: صغيراً، ﴿وَكَهْلًا﴾ حال أيضاً معطوفة علىٰ الأول، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[2] والكهولة من الأربعين إلى الخمسين، وقيل: هي من ثلاثة وثلاثين، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذه الآية: مصدر كتب يكتب، أي: علمتك الخط، ويحتمل أن يريد اسم جنس في صحف إبراهيم وغير ذلك، ثم خص بعد ذلك التوراة والإنجيل بالذكر تشريفاً. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الفهم والإدراك في أُمور الشرع، وقد وهب الله الأنبياءَ منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ﴾ في هذه الآية حيثما تكررت فهي عطف على الأُولى التي عملت فيها ﴿نِعْمَتِى﴾.

و﴿تَخْلُقُ﴾ معناه: تقدر وتُهَيِّىءُ تقديراً مستويا متقناً، ومنه قول الشاعر:

وَلأَنْــتَ تَفْــري مــا خَلَقْــتَ وبَعْــ ضُ القَــوْم يَخْلُــقُ ثُــمَّ لا يفْــري[3]

---

(١) الأشرم هو أَبرهة الحبشي صاحب الفيل، وزحوف: مصدر زحف ـ يقال: زحف: زحفاً وزحوفاً وزحفاناً. فإذا استعملت في الجيش دلت على المشي إلى العدوّ في ثقل بسبب كثرة العدد.

(٢) من الآية (٢١) من سورة (يونس).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمىٰ المزني يمدح هرم بن سنان، والمعنىٰ: إنه إذا قدر شيئاً قطعه وأمضاه لمضاءِ عزمه وقوة إرادته. راجع ص ١٦١ من المجلد الأول.



أي: يُهَيِىءُ ويقدر ليعمل ويكمل ثم لا يفعل، ومنه قول الآخر:

مَـــنْ كـــانَ يخلُـــقُ مـــا يَقـــو   لُ فحيلتـــي فيـــه قليلـــة[1]

وكان عيسىٰ عليه السلام يصور في الطين أَمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أَمام الناس فتحيا وتطير بإِذن الله، وقد تقدم هذا القصص في «آل عمران».

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾ بالهمز، وهو مصدر من قولهم: هاءَ الشيءُ يهاءُ إِذا ثبت واستقر على أَمر حسن. وقال اللحياني: ويقال: يهيءُ. وقرأَ الزهري: [كهيَّة] بتشديد الياءِ من غير همز، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [كهَيْئَة الطائر].

والإِذن في هذه الآية كيف تكرر معناه: التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاءِ الناس إِلى الإِيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ هو النفخ المعروف من البشر، وإِنما جعل الله الأَمر هكذا ليظهر تلبُّس عيسىٰ بالمعجزة وظهورها منه، وهذا كطرح موسى عليه السلام العصا، وكإِيراد محمد ﷺ القرآن، وهذا أَحد شروط المعجزات، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ بضمير مؤَنث مع مجيءِ ذلك في (آل عمران): ﴿فَتَنفُخُ فيه﴾ بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه. قال مكي: هو في (آل عمران) عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة. قال: ويصح عكس هذا. وقال غيره: الضمير المذكر عائد على الطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطيْر ولا على الطين ولا على الهيئة، لأَن الطين أَو الطائر الذي يجيءُ الطين على هيئته لا نفخ فيه البَتَّة، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية، وكذلك الطين المذكور في الآية إِنما هو الطين العام، ولا نفخ في ذلك، وإِنما النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبتها يد عيسىٰ عليه

---

(١) أنشد المبرد هذا البيت في الكامل، ونسبه لبعض المحدثين، وقبله بيت آخر يقول:

لـــيَ حيلَـــةٌ فِيمَـــنْ يَنِـــمْ   مُ وليْـــسَ فـــي الكَـــذَّابِ حِيلَـــةْ

ونسب البيتين في (معجم الأدباء) إلى منصور بن اسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر المصري الضرير. ونمَّ بيْن القوم: حرَّش وأغرىٰ، ونمَّ الحديث: سعى به ليوقع فتنة بين الناس. راجع المجلد الأول صفحة ١٦٢.

السلام، فالوجه أن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة، وذلك أن قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي تقتضيه ﴿تَخْلُقُ﴾. ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل، لأن المعنىٰ: وإذ تخلق من الطين مثل هيئته. ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوِّز أن يكون اسماً في غير الشِّعر، وتكون الكاف في موضع نصف صفة للمصدر المراد، تقديره: وإذ تخلق خلقاً من الطين كهيئة الطير.

وقرأ عبد الله بن عباس: [كهَيْئة الطَّيْر فتنفخها فيكون]، وقرأ الجمهور ﴿فَتَكُونُ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ عيسىٰ بن عمر: [فيها فيكون] بالياءِ من تحت، وقرأ نافع وحده: [فتكونَ طَائِراً]، وقرأ الباقون: ﴿طَيْرًا﴾ بغير ألف، والقراءَتان مستفيضتان في الناس، فالطير: جمع طائر، كتاجر وتجْر، وصاحب وصحْب، وراكب وركْب. والطائر: اسم مفرد، والمعنى على قراءَة نافع: فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات طائراً.

قال أبو علي: ولو قال قائل: إن الطائر قد يكون جمعاً كالحامل والباقر فيكون على هذا معنى القراءَتيْن واحداً لكان قياساً، ويقوي ذلك ما حكاه أبو الحسن من قولهم: طائرة، فيكون من باب: شعيرة وشعير، وتمرة وتمر.

وقد تقدم القول في الأكمه والأبرص، وفي قصص إحيائه الموتىٰ في (آل عمران)، و﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ معناه: من قبورهم، وكفُّ بني إسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه حين أحاطوا به في البيت مع الحواريين، ومن أول ما منعه الله منهم هو الكف إلى تلك النازلة الآخرة، فهنالك ظهر عِظَم الكف، والبيِّنات: هي معجزاته وإنجيله وجميع ما جاءَ به.

وقرأ ابن كثير وعاصم هنا وفي (هود والصَّف): ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ بغير ألف، وقرأ حمزة والكسائي في المواضع الأربعة[1]: [ساحر] بألف، فمن قرأ (سحراً) جعل الإشارة إلى البينات والحديث وما جاءَ به، ومن قرأ (ساحراً) جعل الإشارة إلى الشخص إذ هو ذو سحر عندهم، وهذا مُطَّرد في القرآن كله حيثما ورد هذا الخلاف.

---

(١) نلاحظ أن المواضع التي ذكرها ابن عطية هنا ثلاثة هي كما قال: «هنا، وفي هود والصف». الموضع الرابع هو قوله تعالىٰ في الآية (٢) من سورة (يونس): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾. ولعله سقط من النساخ. وإثبات الألف على إرادة اسم الفاعل، وحذفها على إرادة المصدر.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ هو من جملة تعديد النعمة على عيسىٰ، و﴿ أَوْحَيْتُ ﴾ في هذا الموضع إما أن يكون وحي إلهام أو وحْي أمر، كما قال الشاعر:

. . . . أَوْحَىٰ لها الْقَرار فاسْتَقَرَّتِ(١)

وبالجملة فهو إلقاءُ معنى في خفاءٍ أوصله تعالىٰ إلى نفوسهم كيف شاءَ.

والرسول ـ في هذه الآية ـ عيسىٰ عليه السلام، وقول الحواريين: ﴿ وَٱشْهَدْ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة منهم لله تعالىٰ، ويحتمل أن يكون لعيسىٰ عليه السلام، وقد تقدم تفسير لفظة ﴿ ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ في آل عمران.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الآية، اعتراض أثناءَ وصف حال قول الله لعيسىٰ يوم القيامة، مضمن الاعتراض إخبار محمد عليه الصلاة والسلام وأُمته بنازلة الحواريين في المائدة، إذ هي مثال نافع لكل أُمة مع نبيِّها يقتدى بمحاسنه ويزدجر عما ينقد منه من طلب الآيات ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بالياءِ ورفع الباءِ من ﴿ رَبُّكَ ﴾، وهي قراءَة السبعة حاشا الكسائي، وهذا ليس لأنهم شكوا في قدرة الله على هذا الأمر، لكنه بمعنىٰ: هل يفعل تعالى هذا؟ وهل تقع منه إجابة له؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد:

---

(١) هكذا في الأصول (أوحىٰ). والبيت للعجاج، وتمامه كما رواه القرطبي:

بـإذنـه الأرض ومـا تعنَّـتِ ... وَحَـىٰ لهـا القـرارَ فـاسْتَقَـرَّت

ورواه في اللسان:

وَحَـى لهـا القـرارَ فـاستَقَـرَّتِ ... وشَـدَّهـا بـالـرَّاسيـاتِ الثُّبـتِ

ورواهُ الألوسي هكذا:

الحمْـدُ للهِ الَّـذي اسْتَقَلَّـتِ ... بـإِذْنِـهِ السَّمَـاءُ واطْمَـأَنَّـتِ

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ

هل تستطيع أَن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فالمعنىٰ: هل يخف عليك؟ وهل تفعله؟ أَما إِن في اللفظة بشاعة بسببها قال عيسىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وبسببها مال فريق من الصحابة وغيرهم إِلى غير هذه القراءَة، فقرأَ علي بن أَبي طالب، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم أَجمعين: [هل تَستطيع ربَّك] بالتاءِ ونصب الباءِ من [ربّك]، والمعنى: هل تستطيع أَن تسأَل ربَّك؟ قالت عائشة رضي الله عنها: كان الحواريون أَعرف بالله من أَن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

نزَّهتهم عائشة رضي الله عنها عن بشاعة اللفظ، وإِلا فليس يلزمهم منه جهل بالله تعالىٰ على ما قد تبيَّن آنفاً، وبمثل هذه القراءَة قرأَ الكسائي وزاد أَنه أَدغم اللام في التاءِ، قال أَبو علي: وذلك حسن، و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ على هذه القراءَة متعلقة بالمصدر المحذوف الذي هو: سؤال، و﴿أَن﴾ مفعول به، إِذ هو في حكم المذكور في اللفظ وإِن كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنىٰ إلا به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يمكن أَن يستغنىٰ عن تقدير (سؤال) على أَن يكون المعنىٰ: هل تستطيع أَن ينزل ربك بدعائك أَو بأَثرتك عنده ونحو هذا؟ فيردُّك المعنى ولا بد إِلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ.

والمائدة فاعلة من (مادَ) إِذا تَحرَّك، هذا قول الزجاج، أَو من (مادَ) إِذا مارَ وأَطعم كما قال رؤْبة:

تُهْدَىٰ رُؤُسُ الْمُتْرَفِينَ الأَنْداد ... إِلى أَميرِ الْمُؤْمنينَ الْمُمْتادِ(٢)

أي الذي يُستطعم ويُمتاد منه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عائشة رضي الله عنها. (فتح القدير).

(٢) على أن يكون (الممتاد) مُفْتَعل معناه ـ كما وضح ابن عطية ـ المتفضل على الناس، وهو المستَعْطي المسؤول، أما (مائدة) على فاعلة فهي في المعنى مفعولة، وهي مثل: عيشة راضية، بمعنىٰ مرضية، وقد قال الفارسي: «لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعامٌ وإلا فهي خوان». عن (اللسان).



وقول عيسىٰ عليه السلام: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تقريرٌ لهم، كما تقول: افعل كذا وكذا إِن كنت رجلاً، ولا خلاف أَحفظه في أَن الحواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية.

وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأَمر قبل علمهم بأَنه يُبرىءُ الأَكمه والأَبرص ويُحيي الموتىٰ.

ويظهر من قوله عليه السلام: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ إنكار لقولهم ذلك وذلك على قراءَة من قرأَ: ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ بالياءِ من أَسفل متوجه علىٰ أَمرين: أَحدهما بشاعة اللفظ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إِلىٰ سخط الله بها، والنبوات ليست مبنية علىٰ أَن تتعنت، وأَما على القراءة الأُخرىٰ فلم ينكر عليهم إِلا الاقتراح وقلة طمأْنينتهم إِلىٰ ما قد ظهر من آياته، فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا: نريد أَن نأْكل منها فنشْرُف على العالم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن هذا الأَكل ليس الغرض منه شبع البطن.

﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ معناه: يسكن فكرنا في أَمرك بالمعاينة لأَمر نازل من السماءِ بأَعْيُننا، ﴿ وَنَعْلَمَ ﴾ على علم الضرورة والمشاهدة أَن قد صدقتنا فلا تعترضنا الشُّبَه التي تعرض في علم الاستدلال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبهذا يترجح قول من قال: كان هذا قبل علمهم بآياته. ويدل أَيضاً على ذلك أَن وحي الله إِليهم ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ ﴾ إنما كان في صدر الأَمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأَوا الآيات واستمروا وصدوا، وهلك من كفر. وقرأَ سعيد بن جبير: [ويُعلم] بالياءِ مضمومة على ما لم يُسَمَّ فاعله.

وقوله: ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ معناه: من الشاهدين بهذه الآية، الناقلين لها إِلى غيرنا، الداعين إِلى هذا الشرع بسببها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي أَن الذي نحا بهم هذا المنحىٰ من الاقتراح هو أَن عيسىٰ عليه السلام قال لهم



مرة: هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله، ثم إن سألتموه حاجة قضاها؟ فلما صاموا قالوا: يامعلم الخير، إن حق من عمل عملاً أن يطعم، فهل يستطيع ربك؟ فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ عن عيسىٰ أنه أجابهم إلى دعاءِ الله في أمر المائدة، فروي أنه لبس جبة شعر ورداءَ شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو.

و﴿ٱللَّهُمَّ﴾ عند سيبويه أصلها: يا الله، فجعلت الميمان بدلاً من (يا) و﴿رَبَّنَآ﴾ منادى آخر، ولا يكون صفة لأن (اللّهم) يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على الصفة للمائدة، وقرأ ابن مسعود والأعمش: [تَكُنْ لَنَا] على جواب ﴿أَنزِلْ﴾.

والعيد: المجتمع واليوم المشهود، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه، وهو من: عاد يعود، فأصله الواو، ولكن لزمته الياءُ من أجل كسرة العين[١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وابن محيصن والجحدري: [لِأُولانا وأُخْرَانا][٢]. واختلف المتأولون في معنى ذلك ـ فقال السدي، وقتادة، وابن جريج، وسفيان: ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ معناه: لأوّل الأمة ثم لمن بعدهم حتىٰ لآخرها يتخذون ذلك اليوم عيداً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنىٰ:

---

(١) وهذا كما في الميزان والميقات والميعاد. وقد قيل: إن العيد واحد الأعياد، وقد جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد، وقيل: للفرق بينه وبين أعواد الخشب.
وسمي يوم الفطر ويوم النحر عيداً لأنه يعود كل سنة. وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالْعِيد، وهو فحْل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه فيقال: إبلٌ عِيديَّة، قال رذاذ الكلبيّ:

ظلّت تجوبُ بها البلدانَ ناجيةٌ عِيديَّةٌ أُرْهِنَتْ فيها الدَّنانيرُ

(٢) قال صاحب «البحر المحيط»: أنّثوا على معنى الأمة والجماعة.



يكون مجتمعاً لجميعنا أَوَّلنا وآخرنا، قال: وأَكل من المائدة حين وضعت أَوّل الناس كما أَكل آخرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالعيد ـ على هذا ـ لا يراد به المستدير.

وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أَي: علامة على صدقي وتشريفي، فأَجاب الله دعوة عيسىٰ وقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم شرط عليهم شرطه المتعارف في الأُمم أَنه من كفر بعد آية الاقتراح عُذِّب أَشد عذاب.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بفتح النون وشد الزَّاي، وقرأَ الباقون: [مُنْزِلها] بسكون النون، والقراءَتان متجهتان، نزَّل وأَنْزَل بمعنىً واحد، وقرأَ الأَعمش، وطلحة بن مصرف: [قال اللهُ إني سَأُنْزِلُها عَلَيْكُم].

واختلف الناس في نزول المائدة ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن، ومجاهد: إِنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استعفوها فلم تنزل، قال مجاهد: فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لئلا يسأَلوا هذه الآيات. وقال جمهور المفسرين: نزلت المائدة، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك ـ فروى الشعبي عن أَبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً، وقال عطية: المائدة سمكة فيها طعم كل طعام، قال ابن عباس: نزل خوان عليه خبز وسمك يأْكلون منه أَينما نزلوا إِذا شاءُوا، وقاله وهب بن منبه. قال إِسحق بن عبد الله: نزلت المائدة عليها سبعة أَرغفة وسبعة أَحوات، قال: فسرق منها بعضهم فرفعت. وقال عمار بن ياسر: سأَلوا عيسىٰ عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد، فقيل لهم: فإِنها مقيمة لكم ما لم تخبئوا أَو تخونوا فإِن فعلتم عذبتم، قال: فما مضى يوم حتى خبؤُوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس في المائدة أَيضاً: كان طعام ينزل عليهم حيثما نزلوا، وقال عمار بن ياسر: نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة. وقال ميسرة: كانت المائدة إِذا وضعت لبني إِسرائيل اختلفت عليها الأَيدي بكل طعام إِلا اللحم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكثَّر الناس في قصص هذه المائدة بما رأَيت اختصاره لعدم سنده، وقال قوم: لا يصح أَلا تنزل المائدة لأَن الله تعالىٰ أَخبر أَنه منزلها.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، وسائغ ما قال الحسن[1]، أما إن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعةمنهم فمسخهم الله خنازير، قاله قتادة وغيره، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذاباً يوم القيامة مَن كفر مِن أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون، ويذكر أن شمعون رأس الحواريين قال لعيسىٰ عليه السلام حين رأى طعام المائدة: ياروح الله، أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة؟ قال عيسىٰ عليه السلام: ألم ينهكم الله عن هذه السؤالات؟ هذا طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، بل هو بالقدرة الغالبة، قال الله له: كن فكان، وروي أنه كان على المائدة بقول سوى الثوم والكرات والبصل، وقيل: كان عليها زيتون وتمر وحب ورمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول ـ فقال السدي وغيره: لمَّا رفع الله عيسىٰ عليه السلام إليه قالت النصارىٰ ما قالت، وزعموا أن عيسىٰ أمرهم بذلك، فسأله تعالىٰ حينئذ عن قولهم فقال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ ﴿قَالَ﴾ على هذا متمكنة في المضي، ويجيءُ قوله آخراً: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي بالتوبة من الكفر، لأن هذا قاله عيسىٰ عيه السلام وهم أحياءٌ في الدنيا.

وقال ابن عباس، وقتادة، وجمهور الناس: هذا القول من الله إنما هو في القيامة،

---

(١) قد يقال إن رأي الجمهور أرجح، وما ذكره ابن عطية من أن الخبر مقرون بشرط ليس بلازم، فإنما هو في الحقيقة حكم متفرع عما بعد الإنزال، أو مترتب عليه، والله قد وعَد، والله لا يخلف وعده.

يقوله الله له على رؤُوس الخلائق، فيرى الكفار تَبَرِّيه منهم، ويعلمون أَن ما كانوا فيه باطل(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و﴿ قَالَ ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ بمعنىٰ: يقول. ونزول الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأَمر وثبوته، وقوله آخراً: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ معناه: إِن عذبت العالم كله فبحقك، وإِن غفرت وسبق ذلك في علمك فلأَنك أَهل لذلك، لا معقب لحكمك ولا منازع لك. وليس المعنىٰ أَنه لابد من أَن تفعل أَحد هذَين الأَمرين، بل قال هذا القول مع علمه بأَن الله لا يغفر أَن يشرك به، وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إِنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسىٰ، وهو توقيف لهُ يتبيَّن منه بيان ضلال الضالين.

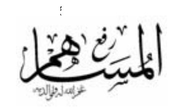
و﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ معناه: تنزيهاً لك على أَن يقال هذا وينطق به.

وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ ﴾ الآية نفيٌ يعضده دليل العقل، فهذا ممتنع عقلاً أَن يكون لبشر محدث أَن يدعي الأُلوهية، وقد تجيءُ هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إِمكانه، ومنه قول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أَبي قحافة أَن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم». ثم قال: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ فوفق الله عيسىٰ عليه السلام لهذه الحجة البالغة. وقوله: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ بإِحاطة الله به، وخص النفس بالذكر لأَنها مظنة الكتم والانطواءِ على المعلومات، والمعنى: إِن الله يعلم ما في نفس عيسىٰ ويعلم كلَّ أَمره مِمَّا عسى أَلا يكون في نفسه، وقوله: ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ معناه: ولا أَعلم ما عندك من المعلومات وما أَحطت به. وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإِيجاز، وهذا ينظر من طرف خفي إِلى قوله:

(١) قال القرطبي: «وهذا القول أصح، ويدل عليه ما قبله من قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ وما بعده ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾»، وعلى هذا تكون (إذ) في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ بمعنى (إذا) كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ ﴾، وكما في في قول أبي النجم:

ثُمَّ جَزَاهُ اللهُ عَنِّي إِذْ جَزَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فِي السَّمواتِ العُلا

يعني: إذا جزى. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وقال صاحب «البحر»: والظاهر أنها على أصل وضعها، وأن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع، ولا يؤول بيقول.



﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾(١)، ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٢)، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية، إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة، ثم أقر عليه السلام لله تعالىٰ بأنه علام الغيوب، والمعنىٰ: ولا علم لي أنا بغيب فكيف تكون لي الألوهية؟ ثم أخبر عما صنع في الدنيا وقال في تبليغه، وهو أنه لم يتَعَدَّ أمر الله في أن أمرهم بعبادته وأقرَّ بربوبيته، و﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب(٣)، ويصح أن تكون بدلا من ﴿ مَا ﴾(٤)، ويصح أن تكون في موضع خفض على تقدير: بأن اعبدوا الله، ويصح أن تكون بدلاً من الضمير في ﴿ بِهِۦٓ ﴾.

ثم أخبر عليه السلام أنه كان شهيداً ما دام فيهم في الدنيا. فـ ﴿ مَّا ﴾ ظرفية.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ أي: قبضتني إليك بالرفع والتصيير في السماء(٥)، والرقيب: الحافظ المراعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

هذه الآية ـ على قول من قال: «إن توقيف عيسىٰ عليه السلام كان إثر رفعه» ـ مستقيمة المعنىٰ، لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياءٌ في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافون.

وهي ـ على قول من قال: «إن التوقيف هو يوم القيامة» ـ بمعنىٰ: إن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق المِلك ما شئت لا اعتراض عليك، ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ بتوبة كما غفرت لغيرهم فإنك أنت العزيز في قدرتك، الحكيم في

---

(١) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٣) وهي في هذا مثلها في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ ﴾.

(٤) في قوله تعالىٰ قبل ذلك: ﴿ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾، أي: ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به وهو أن اعبدوا... الخ.

(٥) قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عزَّ وجلَّ على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يعني وقت انقضاء أجلها. ووفاة النوم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ يعني: الذي ينيمكم، ووفاة الرفع، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾.



أَفعالك، لا تُعارض على حال، فكأَنه قال: إِن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك، وإِنْ يكن مغفور لهم فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله.

وهذا عندي هو القول الأَرجح[١] ويتقوى بما بعده، وذلك أَن عيسىٰ عليه السلام لما قرر أَن الله تعالىٰ له أَن يفعل في عباده ما يشاءُ من تعذيب ومغفرة أَظهر الله لعباده ما كانت الأَنبياءُ تخبرهم به كأَنه يقول: هذا أَمرٌ قد فرغ منه، وقد خلص للرحمة من خلص، وللعذاب من خلص، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله تعالىٰ، وكل ما كان[٢] أَتقى فهو أَدخل في العبارة، ثم جاءَت هذه العبارة مشيرة إِلى عيسىٰ في حاله تلك وصدقه فيما قال فحصل له بذلك في الموقف شرف عظيم وإِن كان اللفظ يعمه وسواه، وذكر تعالىٰ ما أَعد لهم برحمته وطوله إِلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقرأَ نافع وحده: [هذا يَوْمَ] بنصب [يومَ]، وقرأَ الباقون بالرفع على خبر المبتدأ الذي هو ﴿هَٰذَا﴾ و﴿يَوْمُ﴾ مضاف إِلى ﴿يَنفَعُ﴾، والمبتدأ والخبر في موضع نصب بأَنه مفعول القول، إِذ القول يعمل في الجمل، وأَما قراءَة نافع فتحتمل وجهين: أَحدهما أَن يكون ﴿يومَ﴾ ظرفاً للقول، كأَن التقدير: قال الله هذا القصص أَو الخبر يومَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي معنى يزيل رصف الآية وبهاءَ اللفظ.

والمعنىٰ الثاني أَن يكون ما بعد ﴿قَالَ﴾ حكاية عما قبلها من قوله لعيسى إِشارة إِليه، وخبر ﴿هَٰذَا﴾ محذوف إِيجازاً، وكأَن التقدير: قال الله هذا المقتص يقع أَو يحدث يومَ ينفع الصادقين.

---

(١) روى الإمام أحمد عن جسرة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إِنِّي سأَلتُ ربِّي عز وجلَّ الشَّفاعةَ لأُمَّتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً». أ هـ. ورواه النسائي عن أبي ذر أيضاً.

(٢) الظاهر أنه أراد أن يقول: «وكل من كان»، ولكنه استعمل (ما) مكان (من) توسعاً، ويمكن أن تكون ما ظرفاً منصوباً لكن هذا يقتضي أن تكتب هكذا «وكلما كان أتقىٰ» أي المؤمن.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والخطاب ـ على هذا ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته، وهذا أَشبه من الذي قبله، والبارع المتوجه قراءَة الجماعة.

قال أَبو علي: ولا يجوز أَن تكون ﴿يومَ﴾ في موضع رفع على قراءَة نافع لأَن هذا الفعل الذي أُضيف إِليه معرب، وإِنما يكتسي البناءَ من المضاف إِليه إِذا كان المضاف إِليه مبنياً نحو: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذٍ﴾[1]، ولا يشبه قول الشاعر[2]:

عَلَى حينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ عَلَى الصِّبا وقلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع؟[3]

لأَن الماضي الذي في البيت مبني، والمضارع الذي في الآية معرب.

وقرأَ الحسن بن العباس الشامي: [هَذَا يَوْمٌ] بالرفع والتنوين.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية ـ يحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة، ويحتمل أَنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد ﷺ وأُمته. وعلى الوجهين ففيه عضد ما قال عيسىٰ: «إِن تعذب الناس فإِنهم عبادك» على ما تقدم من تأْويل الجمهور.

كمل تفسير سورة المائدة

والله المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (المعارج): ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ والشاهد فيها أن (يوم) أُضيف إلى مبني.

(٢) هو النابغة. وقبله يقول:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عبْرةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْها مُسْتَهِلٌّ ودامِعُ

(٣) أنشد هذا البيت الكسائي والشاهد فيه إضافة (حين) إلى الفعل وبنائها معه على الفتح. ومعنى (وازع) كافٌّ وزاجرٌ عن الوقوع في الأَخطاءِ و(على) بمعنى (في).

والقضية في إعراب ﴿يومَ﴾ في قراءة نافع بالنصب أَن الكوفيينَ يقولون: هو مبني على الفتح في محل رفع خبر لـِ ﴿هَٰذَا﴾ ـ وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة. أما البصريون فيقولون: لا يجوز ذلك إلا إذا كان الفعل المضاف إليه فعلاً ماضياً كما في بيت النابغة، أما إذا كان فعلاً مضارعاً فلا يجوز لأنه معرب. وفي التفاسير المختلفة تخريجات كثيرة لهذه القراءة.

وهذا خلاف نحوي لا يجوز أن نحكم به على القرآن فنقوي قراءة ونضعف أُخرى تبعاً لآراء النحويين، إنما نأخذ القراءة الصحيحة الثابتة على أنها أساسٌ يُعتمد عليه ولا يحتاج إلى تعليل نحوي يقويه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الأنعام

قيل: هي كلها مكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت بمكة ليلاً جملةً إلا ست آيات وهي: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾(١).

وقال الكلبي: الأَنعام كلها مكية إلا آيتينْ نزلتا بالمدينة في فنحاص اليهودي، وهي(٢): ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ مع ما يرتبط بهذه الآية، وذلك أَن فنحاصاً قال: «ما أَنزل الله على بشر من شيءٍ».

وقال ابن عباس: نزلت سورة الأَنعام وحولها سبعون أَلف ملك لهم زَجَل(٣) يَجْأَرون بالتسبيح.

وقال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأَنعام ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إلى ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وقيل خاتمتها ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ ﴾ إلى ﴿ تَكْبِيرًۢا ﴾(٤).

---

(١) أرقام هذه الآيات من هذه السورة هي على الترتيب المذكور كما يأتي: (١٥١) و (٩١) و(٩٣) و(٩٣) و(١١٤) و(٢٠) ـ ونلحظ أن قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ من آية واحدة هي الآية رقم (٩٣) من السورة ومع ذلك فإن الخبر المروي عن ابن عباس يعدُّ كلا منهما آية.

(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا. ولم يذكر الثانية لأنها مرتبطة بها.

(٣) زَجَل: صوتٌ رفيع عال. والخبر أخرجه أبو عبيد، وابن الضريس في فضائلهما، والطبراني، وابن مردويه، (الدر المنثور ٢ ـ ٢١٤).

(٤) وهي خاتمة سورة (الإسراء).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأنعام من نجائب القرآن[(١)].

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: من قرأَ سورة الأَنعام فقد انتهى في رضى ربه[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾.

هذا تصريح بأَن الله تعالىٰ هو الذي يستحق الحمد بأَجمعه، لأَن الأَلف واللام في [الْحَمْد] لاستغراق الجنس، فهو تعالىٰ له الأَوصاف السنية، والعلم والقدرة والإِحاطة والإِنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها، وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأَنه على النعم.

ولما ورد هذا الإِخبار تبعه ذكر أَوصافه الموجبة للحمد وهي الخلق للسموات والأَرض قوام الناس وأَرزاقهم. و[الأَرض] هنا للجنس، فإِفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها.

والبادي من هذا الترتيب أَن السماءَ خلقت من قَبْل الأَرض، وقد حكاه الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأَن الواو لا ترتب المعاني، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أَن الله تعالىٰ خلق الأَرض ولم يَدْحُها، ثم استوى إِلى السماءِ فخلقها، ثم دحا الأَرض بعد ذلك.

و﴿وَجَعَلَ﴾ ها هنا بمعنى خَلَق، لا يجوز غير ذلك، وتأَمل لِمَ خصت السموات والأَرض بـ ﴿خَلَقَ﴾ والظلمات والنور بـ ﴿وَجَعَلَ﴾[(٣)]؟ وقال القرطبي: ﴿وَجَعَلَ﴾ هذه

---

(١) نجائب القرآن ونواجبه: أَفاضل سوره. عن «النهاية» لابن الأثير.

(٢) قال القرطبي: «قال العلماءُ: هذه السورة أَصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة، لأَنها في معنى واحد في الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أُصول الدين لأَن فيها آيات بينات تردّ على القدرية».

(٣) وضح ذلك الزمخشري فقال: «والفرق بين الخَلْق والجَعْل» أن الخَلْق فيه معنى التقدير، وفي الجَعْل معنى التَّصْيير كإِنشاء شيءٍ أو تصيير شيءٍ، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار [وجعلناكم =

هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول: جعَلْتُ أَفعل كذا، فكأَنه قال: وجعل إظلامها وإنارتها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيّد لأَن (جَعَل) إذا كانت على هذا النحو فلا بد أَن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أَفعال المقاربة، كقولك: «كاد زيد يموت» «وجعل زيد يجيءُ ويذهب»، وأَما إذا لم يرتبط معها فعلٌ لا يصح أَن تكون تلك التي ذكر الطبري[1].

وقال السدي، وقتادة، والجمهور من المفسرين: الظلمات: الليل، والنور: النهار. وقالت فرقة: الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيد لأَنه إخراج لفظ بيِّن في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برىء القرآن منه، والنور أيضاً هنا للجنس فإفراده بمثابة جمعه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأَن المعنى أَن خلقه

= أزواجاً] ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾. أ هـ. وقال القرطبي: «الخَلْق يكون بمعنى الاختراع وبمعنى التقدير، وكلاهما مراد هنا، وذلك دليلٌ على حدوثهما»، ثم قال: «وذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض»، وكأنه يوحي بأن التعبير عن خلق الجواهر يكون بالفعل (خَلَق)، وأن التعبير عن خلْق الأعراض يكون بالفعل (جَعَل)، وإن كان لم يصرح بذلك.

(١) معنىٰ ذلك أن (جَعَل) التي ذكرها الطبري من أفعال المقاربة التي تدخل على المبتدأ والخبر، وأَما (جَعَلَ) التي في الآية فإنَّها تعدَّت إلى مفعول واحد، فهما متباينتان في المعنى والاستعمال. وقد قال الزمخشري: «جَعَلَ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأَنشأ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وإلى مفعولَيْن إذا كان بمعنى صيَّر كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾» ـ وقد تعقبه أبو حيَّان صاحب «البحر المحيط» في تمثيله لهذه الأخيرة فقال: «وما ذكره من أَن (جَعَلَ) بمعنىٰ صَيَّر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لا يصح، لأنهم لم يُصَيِّروهم إناثاً، وإنما قال بعض النحويين: إنها بمعنى سَمَّىٰ». أ هـ. وحكى الثعلبي أن بعض أهل المعاني قال: (جَعَلَ) هنا زائدة، والعرب تزيدها في الكلام.

(٢) وهذا كقوله سابقاً: «والأرض هنا للجنس.. الخ» ـ ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وقول الشاعر:

كُلُوا فـي بَعْـضِ بَطْنِكُـمْ تَعِفُّـوا فـإِنَّ زمـانَكُـمْ زَمَـنٌ خميـصُ

أي: ذو مخمصة وجدب.



السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبيَّن، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا ما تقول: يا فلان، أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني؟ أي: بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثُمَّ).

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله، قال قتادة: هم أهل الشرك خاصة، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب، إلا أن السابق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية[1] ويقال: المانَنِيَّة، العابدين للنور، القائلين: إن الخير من فعل النور، وإن الشر من فعل الظلام، وقول ابن أبزي: «إن المراد أهل الكتاب» بعيد.

و﴿يَعۡدِلُونَ﴾ معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثيله، والمانوية مجوس، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو: (القدرية مجوس هذه الأُمة)[2]، ومعناه الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس، وموضع الشبه هو أن المجوس تقول: الأفعال خيْرها خلْق النور، وشرُّها خلْق الظلمة، فجعلوا خالقاً غير الله، والقدرية تقول: الإنسان يخلق أفعاله، فجعلوا خالقاً غير الله تعالىٰ عن قولهم، وذهب أبو المعالي إلى أن التشبيه بالمجوس إنما هو لقول القدرية: إن الخير من الله، وإن الشر ليس منه ولا يريده، وإنما قلنا في الحديث: «إنه تغليظ» لأنه قد صرَّح أنهم من الأُمة، ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يضفهم إلى الأُمة، وهذا كله إن لو صح الحديث، والله الموفق.

---

(١) مذهب ينسب إلى رجل اسمه (ماني) ولد في ولاية مسين ببابل عام ٢١٥ أو ٢١٦ بعد ميلاد المسيح، وقد أخذ عن النصرانية عقيدة التثليث، وعن الزرادشتية فكرة الأصلَيْن: النور والظلمة، وكان يعتقد بتناسخ الأرواح، وللمانوية تنظيم دقيق، وهيكل جماعتهم يقوم على خمس طبقات متسلسلة أهمها: أبناء العلْم، وأبناء العقل، وأبناءُ الفطنة، وآخر الطبقات: «السماعون» وهم سواد الناس، وقد لقي ماني مصرعه على يد بهرام ـ ارجع إلى كتاب «مروج الذهب للمسعودي» ١ـ ٢٥١ وكتاب: «إيران في عهد الساسانيين» لكريستنسن ص ١٧١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن ابن عمر، وهو بتمامه: (القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) ـ قال عنه السيوطي في الجامع الصغير: «حديث صحيح». وإنما هو ضعيف لانقطاعه بين أبي حازم وابن عمر.



وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الآية، قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: المعنىٰ: خلق آدم من طين، والبشر من آدم فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾. وحكى المهدوي عن فرقة أنها قالت: بل المعنى أن النطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها من طين ثم يقلبها الله نطفة، وذكره مكي والزهراوي. والقول الأول أليق بالشريعة، لأن القول الثاني إنما يترتب على قول من يقول بأن الطين يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة، وذلك مردود عند الأُصوليين.

واختلف المفسرون في هذين الأجلين ـ فقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿أَجَلًا﴾ أجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته، و(الأجل المسمى عنده) من وقت موته إلى حشْره، ووصفه بـ (مُسَمًّى) عنده لأنه استأثر بعلم وقت القيامة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَجَلًا﴾ الدنيا و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الآخرة. وقال مجاهد: ﴿أَجَلًا﴾ الآخرة، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الدنيا، بعكس الذي قبله، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿أَجَلًا﴾ وفاة الإنسان بالنوم، و﴿أَجَلٌ مُسَمّى﴾ وفاته بالموت. وقال ابن زيد: الأجل الأول هو في وقت أخذ الميثاق على بني آدم حين استخرجهم من ظهرْ آدم، وبقي أجل واحد مسمىٰ في هذه الحياة الدنيا. وحكى المهدوي عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ ما عرف الناس من آجال الأهلة والسنين والكوائن، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قيام الساعة، وحكى أيضاً عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ مسمىٰ[1]: ما عرفناه من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وينبغي أن تتأمل لفظة ﴿قَضَىٰٓ﴾ في هذه الآية فإنها تحتمل معنَيَيْن، فإن جعلت بمعنىٰ: قدَّر وكتب، ورجعت إلى سابق علمه وقدره فنقول: إن ذلك ولابد قبل خلقه آدم من طين، وتخرج ﴿ثُمَّ﴾ من معهودها في ترتيب زمنَيْ وقوع القَضِيَّتَيْن، ويبقى لها ترتيب زمنَيْ الإخبار عنه، كأنه قال: أخبركم أنه خلقكم من طين ثم أخبركم أنه قضى أجلاً، وإن جعلت ﴿قَضَىٰٓ﴾ بمعنىٰ: أوجد وأظهر، ويرجع ذلك إلى صفة فعل فيصح أن

---

(١) هكذا بالنسخ التي بين أيدينا ـ ولفظة ﴿مُّسَمًّى﴾ ليس لها موضع هنا لعلها من زيادة النساخ، وكلمة ﴿مُّسَمًّى﴾ معناها: معلوم، و﴿عِندَهُۥ﴾ يعني مذكور في اللوح المحفوظ، أو هي مجاز عن علمه ولا يراد المكان.



يكون خلق آدم من طين قبل إظهار هذا الأجل وإبدائه، وتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في ترتيب زمنيْ وقوع القَضِيَّتَيْن.

و﴿تَمْتَرُونَ﴾ معناه: تشكُّون، والمرْيةُ: الشَّك[1].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ على نحو قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ في التوبيخ على سوءِ الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج.

قوله عزَّ وجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

قاعدة الكلام في هذه الآية أَن حلول الله تعالىٰ في الأَماكن مستحيل، وكذلك مماسَّته للأَحرام أَو محاذاته لها أَو تَحيُّزُه في جهة لامتناع جواز ذلك عليه تبارك وتعالىٰ، فإِذا تقرر هذا فبيِّن أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس على حدّ قولنا: «زيد في الدار» بل هو على وجه من التأْويل آخر، قالت فرقة: ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنىٰ، كأَنه قال: وهو الله المعبود في السموات وفي الأَرض، وعبَّر بعضهم بأَن قدَّر: هو الله المدبِّر للأَمر في السموات وفي الأرض، وقال الزجاج: ﴿فِى﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالىٰ من المعاني، كما يقال: «أَمير المؤْمنين الخليفة في المشرق والمغرب».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أَفضل الأَقوال وأَكثرها إِحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنىٰ، وإِيضاحه أَنه أَراد أَن يدل على خلقه وإِيثار قدرته وإِحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أَي: الذي له هذه كلها في السموات وفي الأَرض، كأَنه قال: وهو الخالق الرازق المحيي المحيط في السموات وفي الأَرض، كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالاً، وإِذا كان مقصد

---

(١) من التماري على مذهب الشَّكَ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.



قولك: زيد الآمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت (السلطانَ) مقام هذه كان فصيحاً صحيحاً، فكذلك في الآية أقام لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ مقام تلك الصفات المذكورة.

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده، ثم استأنف، وتعلق قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، كأنه قال: وهو الله يعلم سرَّكم وجهرَكم في السموات وفي الأرض، فلا يجوز ـ مع هذا التعلُّق ـ أن يكون ﴿وَهُوَ﴾ ضمير أمر وشأن لأنه يرفع ﴿ٱللَّهُ﴾ بالابتداءِ، و﴿يَعْلَمُ﴾ في موضع الخبر، وقد فرَّق ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ بين الابتداءِ والخبر، وهو ظرف غريب من الجملة، ويلزم قائلي هذه المقالة أن تكون المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ لجميع المخلوقين الإنس والملائكة، لأن الإنس لا سرَّ ولا جهر لهم في السماءِ، فترتيب الكلام على هذا القول: «وهو الله يعلم يا جميع المخلوقين سركم وجهركم في السموات وفي الأرض».

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ﴾ ضمير الأمر والشأن، و﴿ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ابتداءٌ وخبر تم الكلام عنده، ثم ابتدأ، كأنه قال: «ويعلم في الأرض سركم وجهركم»[1]، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم مخاطبة الملائكة فهو مُخَلِّص من شبهة الكون في السماءِ بتقدير حذف (المعبود) أو (المدبِّر) على ما تقدم، وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ خبر في ضمنه تحذيرٌ وزَجْر، و﴿تَكْسِبُونَ﴾ لفظ عامٌ لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ الآية. ﴿وَمَا﴾ نافية و﴿مِّنْ﴾ الأُولى هي الزائدة التي تدخل على الأجناس بعد النفي، فكأنها تستغرق الجنس[2]، و﴿مِّنْ﴾ الثانية للتبعيض، والآيةُ: العلامة والدلالة والحجة، وقد تقدم القول في وزنها في صدر الكتاب،

(١) هذا رأي أبي علي، وقد علل أبو حيان هذا الاتجاه بقوله: «لأنه إذا لم يكن ضمير الشأن كان عائداً على الله تعالى فيصير التقدير: «الله الله» فينعقد مبتدأ وخبر من اسمين متحدين لفظاً ومعنىٰ ولا نسبة بينهما إسنادية، وذلك لا يجوز». أهـ.

(٢) معنىٰ الزيادة أن ما بعد (من) معمول لما قبلها، فتكون (آية) فاعلا بالفعل (تأتي)، فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام كانت (مِنْ) لتأكيد الاستغراق نحو: «ما في الدار من أحد»، وإن كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق ويجوز أن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت دالة على الاستغراق نحو: «ما قام من رجل».



وتضمنت هذه الآية مذمّة هؤلاءِ الذين يعدلون بالله سواه بأنهم يُعرضون عن كل آية ترد عليهم، ثم اقتضت الفاءُ في قوله ﴿ فَقَدْ ﴾ أن إعراضهم عن الآيات قد أعقب أن كذبوا بالحق وهو محمد عليه الصلاة والسلام وما جاءَ به، ثم توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، و﴿ وَمَا ﴾ بمعنىٰ الذي، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباءِ القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت ﴿ وَمَا ﴾ مصدرية فالتقدير: يأتيهم نبأ كونهم مستهزئين، أي: عِقاب يُخْبَرُونَ أنه على ذلك الاستهزاءِ، وهذه العقوبات التي تُوُعِّدوا بها تعم عقوبات الدنيا كبدر وغيرها وعقوبات الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا حضٌّ على العبرة، والرؤْية هنا رؤْية القلب، و﴿ كَمْ ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾.

والقرن: الأُمة المقترنة في مدة من الزمان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (خير الناس قرني) الحديث[١]. واختلف الناس في مدة القرن ـ كم هي؟ فالأَكثر على أَنها مائة سنة، ويرجح ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (أَرَأَيْتُم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأَرض أَحدٌ) قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أَنها تخرِم[٢] ذلك القرن، وروي أَن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن بِشْر[٣]: (تعيش قرناً) فعاش مائة سنة.

وقيل: القرن ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: ستون، وتمسك هؤُلاء

(١) الحديث رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي عن ابن مسعود، ونصه: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) وفي بعض الروايات (خيركم).

(٢) بمعنىٰ أنها تنهي ذلك القرن وتفنيه. والحديث في البخاري، وفي مسند الإمام أحمد.

(٣) هكذا في الأصول وضبطه محقق القرطبي (بُسْر) بالباء المضمومة والسين، وهو الصحيح، وهو عبد الله ابن بسر المازني السلمي الحمصي (الإصابة ٤/ ٢٣).



بالمعترك[١]، وحكى النقاش أَربعين، وذكر الزهراوي في ذلك أنه عن النبي صلى ﷺ، وحكى النقاشُ أَيضاً ثلاثين، وحكى عشرين، وحكى ثمانية عشر، وهذا كله ضعيف، وهذه طبقات وليست بقرون، إنما القرن أَن يكون وفاة الأَشياخ ثم ولادة الأَطفال، ويظهر ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[٢]، وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بها أَشار ابن الماجشون في «الواضحة» في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً، وقيل: القرن الزمن نفسه، وهو على حذف مضاف تقديره: «من أَهل قرن»، والضمير في ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ عائد على القرن، والمخاطبة في ﴿لَكُمْ﴾ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس، فكأَنه قال: ما لم نمكن يا أهل هذا العصر لكم، فهذا أَبْيَن ما فيه، ويحتمل أَن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاءِ الكفرة، كأَنه قال: يا محمد قل لهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، وإِذَا أَخبرت أَنك قلت لغائب أَو قيل له أَو أَمرت أَن يقال فَلَكَ في فصيح كلام العرب أَن تحكي الأَلفاظ المقولة بعينها فتجيءُ بلفظ المخاطبة، ولك أَن تأتي بالمعنىٰ في الأَلفاظ بذكر غائب دون مخاطبة.

والسماءُ: المطر، ومنه قول الشاعر:

إذا نَــزَلَ السَّمــاءُ بِــأَرْضِ قَــوْمٍ رَعَيْنَــاهُ وإِنْ كــانــوا غِضَــابــاً[٣]

و﴿مِّدْرَارًا﴾ بناءُ تكثير كمذكار ومئناث، ومعناه: يدر عليهم بحسب المنفعة، لأَن الآية إِنما سياقها تعديد النعم، وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإِهلاك، وتحتمل الآية أَن تُراد السماءُ المعروفة على تقدير: وأَرسلنا مطر السماءِ لأَن (مدراراً) لا يوصف به إلا المطر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ معناه: فَعَصَوْا وكفروا فأَهلكناهم.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ اخترعنا وخلقنا، وجميع ﴿ءَاخَرِينَ﴾ حملا على معنى القرن.

---

(١) إشارة إلى الحديث: «مُعترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين»، قال في الجامع الصغير: رواه الحكيم عن أبي هريرة، ورمز له بالضعف.

(٢) الآية (٣١) من سورة (المؤمنون).

(٣) ينسب هذا البيت لمعوّد الحكماء ـ معاوية بن مالك ـ وسمّي بذلك لقوله:

أُعَــوِّد مِثْلهــا الحُكَمــاءَ بعْــدي إذا مــا الحَــقُّ فــي الحــدثــان نــابــا

وقد روي البيت: «إذا سقط السَّماءُ» بدلا من «إذا نزل. . .».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

لما أخبر عنهم عزَّ وجلَّ بأنهم كذبوا بكل ما جاءَهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمّنة أنه لو جاءَهم أشنع مما جاءَ لكذبوا أيضاً، والمعنىٰ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا ﴾ بمرأى منهم ﴿ عَلَيْكَ كِتَٰبًا ﴾ أي كلاماً مكتوباً ﴿ فِى قِرْطَاسٍ ﴾، أي في صحيفة، ويقال: قُرطاس بضم القاف، ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ يريد أنهم بالغوا في مَيْزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا: هذا سحر مبين.

ويشبه أن سبب هذه الآية اقتراح عبد الله بن أبي أُمية وتَعَنتُه إذ قال للنبي ﷺ: «لا أُومن لك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه: من ربِّ العزة إلى عبد الله بن أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا كنت أُصدقك»، ثم أَسلم بعد ذلك عبد الله وقتل شهيداً في الطائف.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الآية حكاية عمن تَشَطَّط من العرب بأَن طلَبَ أَنْ ينزل مَلَك يُصدق محمداً في نبوته، ويعلم عن الله عزَّ وجلَّ أنه حق، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾، وقال مجاهد: معناه: لقامت القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقال قتادة، والسدي، وابن عباس رضي الله عنهما: في الكلام حذف تقديره: ولَوْ أَنزلنا ملكاً فكذبوا به لقضي الأَمر بعذابهم ولم يُنْظروا حسبما سلف في كل أُمة اقترحت بآية وكذبت بعد أَن أُظهرت إليها، وهذا قول حسن.

وقالت فرقة: ﴿ لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَي: لماتوا من هوْل رؤْية المَلَك في صورته، ويُؤَيد هذا التأْويل ما بعده من قوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ فإن أَهل التأْويل مجمعون على أَنَّ ذلك لأَنهم لم يكونوا يطيقون رؤْية الملَك في صورته، فالأَوْلىٰ في قوله: ﴿ لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَي: لماتوامن هول رؤْيته.

و﴿ يُنظَرُونَ ﴾ معناه: يُؤَخَّرون، والنظرة: التأْخير.



وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ الآية ـ. المعنى: إنا لو جعلناه مَلَكاً لجعلناه ولا بُدَّ في خَلْق رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملَك في صورته، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يؤيد هذا المعنى الحديثُ الوارد عن الرجلين اللَّذيْن صعدا على الجبل يوم بدر ليريا ما يكون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين فسمعا حسّ الملائكة وقائلاً يقول في السماءِ: «أَقدم حيزوم»[1]. فمات أحدهما لهول ذلك، فكيف برؤْية ملَك في خلقته؟ ولا يُعارَض هذا برؤْية النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام وغيره في صورهم لأَن النبي عليه الصلاة والسلام أُعطي قوة غير هذه كلها[2]. ﷺ.

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ أَي: لخلطنا عليهم ما يخلطون به على أَنفسهم وعلى ضعفتهم، أَي: لفعلنا لهم في ذلك ملْبساً يُطَرِّق لهم[3] إِلىٰ أَن يلبسوا به، وذلك لا يحسن. ويحتمل الكلام مقصداً آخر، أَي: للبسنا نحن عليهم كما يلبسون على ضعفتهم، فكنا ننهاهم عن التلبيس ونفعله بهم، ويقال: لَبَس الرجل الأَمر يلبِسه لبساً إِذا خلطه. وقرأَ ابن محيصن: [ولَبَّسنا] بفتح اللام وشد الباءِ.

وذكر بعض الناس في هذه الآية أَنها نزلت في أَهل الكتاب، وسياق الكلام ومعانيه يقتضي أَنها في كفار العرب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

قرىء: ﴿ولَقَدُ﴾ بضم الدال للضمة بعد الساكن الذي بعد الدال، وقرى بكسر الدال

---

(١) حَيْزُوم: فرس جبريل عليه السلام، وأَقدم بفتح الهمزة هو أمر بالإقدام، وهو التقدم في الحرب. والإقدام الشجاعة، وقد تكسر همزة إقدام، ويكون أمراً بالتقدم لا غير، والصحيح الفتح من أَقدم. قاله ابن الأثير في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(٢) يريد: غير قوة البشر، وقد وضح ذلك أبو حيان في «البحر» حين نقل عبارة ابن عطية هذه.

(٣) يريد: يُسَهّل لهم السير في هذا الأمر، يقال: طرَّق طريقاً بمعنىٰ: سهَّله حتى طرقه المارة، وطرَّق له: جعَل له طريقاً «المعجم الوسيط».



على عرف الالتقاء. وهذه تسلية للنبي ﷺ بالأُسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين، وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين.

و﴿ فَحَاقَ ﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مخصوصة في الشر، يقال: حاق يحيق حيْقاً، ومنه قول الشاعر:

فَـأَوْطَـأَ جُـرْدَ الخيْـل عُقْـر ديـارِهـم ... وحاقَ بِهِمْ مِن بأس ضَبَّةَ حائِقُ[1]

وقال قوم: أصل حاق: حق فبدلت القاف الواحدة كما بدلت النون في: تظنَّنت[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

و﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَانُوا۟ ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر كأنه قال: استهزاؤُهم. وهذه كناية عن العقوبة كما تهدد إنساناً فتقول: سيلحقك عملك، والمعنىٰ: عاقبته. و﴿ سَخِرُوا۟ ﴾ معناه: استهزؤُوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ ﴾ الآية حضٌّ على الاعتبار بآثار من مضىٰ مِمَّن فعل فعلهم، وقال: ﴿ كَانَ ﴾ ولم يقل: (كانت) لأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنىٰ الآخِرِ والمآل.

ومعنى الآية: سيروا وتلَقَّوا ممن سار، لأن تحصيل العبرة بآثار من مضىٰ إنما يستند إلى حِسِّ العيْن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) لم نعثر على قائل هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، ولم يستشهد به من المفسرين إلا صاحب «البحر المحيط»، والفرس الأجرد: القصير الشعر، وإذا وصف بذلك فالمعنى أنه سبَّاق، وعقر الدار: وسَطُها. والحَيْقُ: ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله فينزل ذلك به، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: «أخرجني ما أجد من حاق الجوع»، وحديث علي كرم الله وجهه: «تخوَّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضُّرّ».

(٢) فقيل فيها: تظنَّيْتُ ـ وقد قال ابن عطية: «وهذا ضعيف» لأنها دعوى لا دليل على صحتها كما قال أبو حيَّان في «البحر».



قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ فإذا تحيَّروا ولم يجيبوا ﴿قُل لِّلَّهِ﴾. وقالت فرقة: المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لمَّا يُجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقيل له: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾. والصحيح أن الله عزَّ وجلَّ أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاءَ ذلك في لفظ استفهام وتقرير في قوله: ﴿لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه بأمر لا يدافعه الخصم فيه أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه: كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنصُّها عليه، فكأن النبي ﷺ قال لهم: يا أيُّها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السموات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي: لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أحد.

ثم ابتدأ يخبر عنه تعالىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معناه: قضاها وأنفذها، وفي هذا المعنىٰ أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة وجميع الناس في الدنيا، منها: (إن الله تعالىٰ خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض، فبها تتعاطف البهائم، وترفع الفرسُ رجلها لئلا تطأ ولدها، وبها تتعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة صيرَّ تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثَّها في عباده)(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فما أشقى من لم تَسَعْهُ هذه الرحمات، تغمدنا الله بفضل منه.

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، والبيهقي في الأسماءِ والصفات ـ عن سلمان مع اختلاف في الألفاظ، وأخرج مثله عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن سلمان أيضاً، ونصه: (إنَّا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تَيْعَر الشاةُ (أي: تصيح)، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع). (الدر المنثور ـ وفتح القدير).



ومنها حديث آخر: (إن الله عزَّ وجلَّ كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي)(١) ويروى (نالت غضبي) ومعناه: سبقت، وأنشد عليه ثابت بن قاسم:

أَبَنِـــي كُلَيْــب إِنَّ عَمَّيَــا اللَّـــذا   نــالا المُلُـوكَ وفَكَّكَـا الأَغْـلالا(٢)

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالىٰ بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا: وأن باب توبتهم مفتوح. قال الزجاج: الرحمة هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، وحكى المهدوي أن جماعةً من النحويين قالت: إن ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ هو تفسير الرحمة، تقديره: «أن يجمعكم» فيكون ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾، وهو مثل قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٣) المعنىٰ: «أن يسجنوه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يلزم على هذا القول أن تدخل النون الثقيلة في الإيجاب وهو مردود، وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القَسم(٤).

وقالت فرقة (وهو الأظهر): إن اللام لام قسم والكلام مستأنف، ويتخرج ذلك في: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾. وقالت فرقة: [إلى] بمعنى (في). وقيل: على بابها غاية، وهو الأرجح.

و﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: هو في نفسه وذاته لا ريب فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية . . . قيل: إن ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ منادى.

---

(١) هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من طريق الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة. (الدر المنثور ـ وفتح القدير وابن كثير).

(٢) فهو يصفهما بأنهما سبقا الملوك في الشجاعة والكرم.

(٣) الآية (٣٥) من سورة (يوسف).

(٤) قال أبو حيان تعليقاً على رأي ابن عطية هذا: «وهذا الذي ذكره لا يحصر مواضع دخول نون التوكيد، ألا ترى دخولها في الشرط وليس واحداً مما ذكر نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾، وكذلك قوله: «وباختصاص من الواجب في القسم» ليس على إطلاقه، بل له شروط ذكرت في علم النحو». أ هـ. (البحر المحيط ٤ـ ٨٢).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهو فاسد لأَن حرف النداءِ لا يسقط مع المبهمات.

وقيل: هو نعت ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدم ذكرهم. وقيل: هو بدلٌ من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، قال المبرد: ذلك لا يجوز كما لا يجوز: «مررت بك زيد».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله في الآية: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مخالف لهذا المثال، لأَن الفائدة في البدل مترقبة من الثاني، وإِذا قلت: «مررت بك زيد» فلا فائدة في الثاني، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الضمير أَنهم همْ المختصون بالخطاب هنا، وخُصوا على جهة الوعيد، ويتضح فيها الوعيد إِذا جعلنا (اللام) للقسم وهو القول الصحيح، ويجيءُ هذا بدلُ البعض من الكل[(١)].

وقال الزجاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قول حسن، والفاءُ في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ جواب على القول بأَن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداءِ لأَن معنى الشرط حاصِلٌ تَقديره: «مَن خَسِرَ نفسه فهو لا يؤمن».

وعلى القول بأَن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من الضمير هي عاطفة جملة على جملة، و[خَسِرُوا] معناه: غبنوا أَنفسهم بأَن وجب عليها عذاب الله وسخطه، ومنه قول الشاعر:

(١) القول بأَن ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟...﴾ بدل من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هو قول الأخفش ـ وقد ردَّه المبرد ودليله على ذلك أن البدل من ضمن الخطاب لا يجوز كما لا يجوز في قولك: «مررت بك زيد»، وجاء ابن عطية فردَّ كلام المبرد بالتفرقة بين الآية وبين المثال الذي ذكره المبرد، وحجته أن الفائدة من البدل عادة تكون مترقبة من الثاني وهذا لا يتحقق في مثال المبرد، لكنه يتحقق في الآية كما شرحه ابن عطية، وجاء أَبو حيان فناقش ابن عطية بقوله ما معناه: كلامه يقتضي أن يكون بدل بعض من كل كما ذكر ويحتاج إذ ذاك إلى ضمير يمكن تقديره: «والذين خسروا أنفسهم منهم»، وقوله: «إن البدل يفيدنا أنهم هم المختصون بالخطاب، وخُصُّوا على جهة الوعيد» يقتضي أن يكون بدل كل من كلٍّ، وفي هذا تناقض. ولنا أن ندافع عن ابن عطية فنقول: إذا كان قوله تعالىٰ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فإنه يصلح أيضاً لمخاطبة الكفار المستهزئين تبعاً لسياق الآيات، فإن جعلناه خطاباً لجميع الناس كان ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ بدل بعض من كل، وإن جعلناه خطاباً للكفار المستهزئين فقط كان بدل كل من كل، ولا تناقض. والله أعلم. وابن عطية قال: «يصلح» ولم يقل: «يجب أن يكون خطاباً لجميع الناس».



لا يـأْخُـذ الـرِّشْـوَةَ فـي حُكْمِـهِ ولا يُبَـالـي غَبَـنَ الخَـاسِـرِ[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ الآية. ﴿وَلَهُۥ﴾ عطف على قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾، واللام للملك، و﴿مَا﴾ بمعنىٰ الذي، و﴿سَكَنَ﴾ هي من السكنى ونحوه، أي: ما ثبت وتقرر، قاله السدي وغيره. وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأَن الساكن من الأَشياءِ أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط، والمقصد في الآية عموم كل شيء، وذلك لا يترتب إلا أن يكون ﴿سَكَنَ﴾ بمعنىٰ استقر وثبت، وإلا فالمتحرك من الأشياء من المخلوقات أَكثر من السواكن، أَلا تري إِلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأَنواع الحيوان، والليلُ والنهارُ حاصران للزمان.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ هاتان صفتان تليقان بنَمَط الآية من قِبَلِ أَن ما ذكر من قَبْلُ من الأَقوال الرَّديَّة عن الكفرة العادلين هو سميع لها، عليم بمواقعها، مجازٍ عليها، ففي الضمير وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾.

قال الطبري وغيره: أُمر أَن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دَعْوه إِلىٰ عبادة أَوثانهم، فتجيءُ الآية ـ على هذا ـ جواباً لكلامهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يحتاج إِلى سند في أن هذا نزل جواباً، وإِلا فظاهر الآية لا يتضمنه، والفصيح هو أَنه لما قرر معهم أَن الله تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ﴿وَلَهُۥ مَا

---

(١) هذا البيت للأعشىٰ من قصيدة قالها يهجو علْقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت في مدح الحكَم الذي كان يحكم بين المتنافرين، ومطلع القصيدة:

شــاقَتْــكَ مِــن قَتْلَــةَ أَطْـلالُهَـا بـالشَّـطِّ فـالـوِتْـرِ إلـى حـاجـرِ

قال صاحب اللسان: «الغَبْن بالتسكين في البيع، والغَبَن بالتحريك في الرأي»، ثم قال: وقد حُكي غير ذلك.

سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وأنه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أُمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف: أَغير هذا الذي هذه صفاته أتخذ وَلِيّاً؟ بمعنى أَن هذا خطأٌ لو فعلتُه بيّن، وتُعطي قوة الكلام أَن من فعله من سائر الناس بيّنُ الخطأ، و﴿أَتَّخِذُ﴾ عاملٌ في قوله: ﴿أَغَيْرَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيًّا﴾ تقدم أَحد المفعولين.

والوليُّ لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأَسباب الواصلة بين العبد وربّه. ثم أَخذ في صفات الله تعالىٰ فقال: ﴿فَاطِرِ﴾ بخفض الراءِ نعت لله تعالىٰ، وفَطَر معناه: ابتدع وخلقَ وأَنشأَ، وفطَر أَيضاً في اللغة: شقَّ، ومنه: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1] أَي: مِنْ شقوق، ومن هذا انفطار السماءِ، وفي هذه الجهة يتمكن قولهم: «فَطَر نابُ البعير» إِذا خرج لأَنه يشق اللِّثة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنتُ أَعرف معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى اختصم إِليَّ أَعرابيان في بئر فقال أَحدهما: أَنا فطرتُها، أَي: اخترعتها وأَنشأْتها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فحمله ابن عباس على هذه الجهة، ويصح حمْلُه على الجهة الأُخرى أَنه شقَّ الأَرض والبئر حين احتفرها. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [فاطِرُ] برفع الراءِ على خبر ابتداءٍ مضمر، أَو على الابتداء.

و﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ المقصود به: يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ، وخصَّ الإِطعام من أَنواع الرزق لِمَسِّ الحاجة إِليه وشهرته واختصاصه بالإِنسان. وقرأَ يمان العماني، وابن أَبي عبلة: ﴿يُطْعِمُ﴾ بضم الياءِ وكسر العَين في الثاني مثل الأَول، يعني الوثن أَنه لا يُطعِم. وقرأَ مجاهد، وسعيد بن جبير، والأَعمش، وأَبو حيوة، وعمرو بن عبيد، وأَبو عمرو بن العلاءِ في رواية عنه في الثاني: ﴿ولا يطعم﴾ بفتح الياء على مستقبل (طعم)، فهي صفة تتضمن التبرية، أَي: لا يأْكل ولا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ. . .﴾ إِلى ﴿عَظِيمٍ﴾ قال المفسرون: المعنى: أَول من أَسلم من هذه الأُمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن الكلام إِلا ذلك، قالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: وقيل لي: ولا تكن من المشركين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

---

(١) من الآية (٣) من سورة (الملك).



وتلخيص الكلام في هذا أَنه عليه الصلاة والسلام أُمر فقيل له: «كن أَول من أَسلم ولا تكونن من المشركين»، فلما أُمِرَ في الآية أَن يقول ما أُمر به جاءَ بعض ذلك على المعنى وبعضه باللفظ بعينه. ولفظة ﴿عَصَيْتُ﴾ عامة في أَنواع المعاصي، ولكنها ها هنا إِنما تُشير إِلى الشرك الذي نُهي عنه. واليوم العظيم هو يوم القيامة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ بضم الياءِ وفتح الراءِ، والمفعول الذي أُسند إِليه الفعل هو الضمير العائد على العذاب، فهو مُقدَّر. وقرأَ حمزة، والكسائي، وعاصم أَيضاً: [مَنْ يَصْرِفْ عنه] فيسند الفعل إِلى الضمير العائد إِلى ﴿رَبِّى﴾ ويعمل في ضمير العذاب المذكور آنفاً لكنه مفعول محذوف، وحكي أَنه ظهر في قراءَة عبدالله وهي: [مَنْ يَصْرِفه عنهُ يَوْمَئِذٍ]، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [مَنْ يَصْرِفه الله عَنْه]، وقيل: إِنها [مَنْ يَصْرِف اللهُ عنهُ]، قال أَبو علي: وحذف هذا الضمير لا يَحْسُن كما يَحْسُن حذف الضمير من الصلة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١)، وكقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(٢) معناه: بعثه. واصطفاهم ـ فَحَسُن هذا للطول كما علَّله سيبويه، ولا يحسُن هذا لعدم الصلة، قال بعض الناس: القراءَة بفتح الياءِ من [يَصْرِفْ] أَحسن لأَنه يناسب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وكأَن الأَولى على القراءَة الأُخرىٰ [فَقَدْ رحِمَ] ليتناسب الفعلان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا توجيه لفظيٌّ تعلقه خفيف، وأَما بالمعنى فالقراءَتان واحد، ورجَّح قوم قراءَة ضمّ الياءِ لأَنها أَقلُّ إِضماراً، وأَشارَ أَبو علي إِلى تحسين القراءَة بفتح الياءِ بما ذكرناه، وأَما مكي بن أَبي طالب رحمه الله فتخبط في كتاب «الهداية» في ترجيح القراءَة بفتح الياءِ، ومثل في احتجاجه بأَمثلة فاسدة، والله ولي التوفيق(٣).

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان).

(٢) من الآية (٥٩) من سورة (النمل).

(٣) كثير من العلماء يرفضون ترجيح قراءة على قراءة، قال أبو حيَّان الأَندلسي تعليقاً على ما نقله ابن عطية هنا: «وقد تقدم لنا غير مرة أنا لا نرجح بين القراءَتين المتواترتين». وحكىٰ أبو عمرو الزاهد في كتاب «اليواقيت» أن أبا العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلباً كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع، ونقل أبو حيان عن ثعلب أنه قال: «إذا اختلف الإِعراب في القرآن عن السبعة لم أُفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إِلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوىٰ»، ثم قال أبو حيان: «ونعم السلف لنا أحمد بن =

و(رَحِمَ) عامل في الضمير المتصل وهو ضمير ﴿مَّن﴾ ومستند إلى الضمير العائد إلى ﴿رَبِّى﴾، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى صرف العذاب وإلى الرحمة والفوز والنجاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَمْسَسْكَ﴾ معناه: يُصبْك ويَنَلْك، وحقيقة المسِّ هي بتلاقي جسميْن، فكأن الإنسان والضُّرّ يتماسَّان.

والضُّرّ بضم الضَّاد: سوءُ الحال في الجسم وغيره. والضَّر بفتح الضاد: ضد النَّفع، وناب الضُّر في هذه الآية مناب الشَّرِّ ـ وإن كان الشَّرُّ أعم منه ـ فقابل الخيْر، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيءُ مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1] فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظمأ، ومنه قول امرىء القيس:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَواداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ[2]

= يحيى كان عالماً بالنحو واللغة متديناً ثقة».

(١) الآيتان (١١٨ـ ١١٩) من سورة (طه) ـ وقد قال بعض العلماء: إنَّ الجامع بين الجوع والعري هو اشتراكهما في الخلو، فالجوع: خلو الباطن، والعري: خلو الظاهر، والجامع بين الظمأ والضحاء اشتراكهما في الاحتراق، فالظمأ، احتراق الباطن، ألا ترى إلى قولهم: برَّد الماءُ حرارة جوفي؟ والضحاءُ: احتراق الظاهر، وانظر كيف بدأت الآية بخلو الباطن ثم ثنت بخلو الظاهر، ثم فعلت نفس الشيء في الاحتراق حيث بدأت باحتراق الباطن ثم ثنت باحتراق الظاهر.

(٢) ركوب الجواد يكون للذة الصيد، وقد يكون للمتعة بالركوب نفسه. والكاعب: الفتاة التي كعَبَ ثديها، أي: برز ونهد فصار كالشيء المكعب المرتفع. والخَلْخال: حلية كالسوار تلبسها النساءُ في أرجلهن، وجمعه: خلاخيل، و«ذات خلخال»: كناية عن المرأة التي تستعمل الحليَّ لأنها من بيت غني، أو لأنها تحب استعمال الزينة. وتبطن الكاعب: باشرها وجامعها، وقيل: تبطن: باشر بطنهُ بطنها. والزق: وعاءٌ من جلد يُجزُّ شعره ولا ينتف للشراب وغيره، والجمع: أزقاقٌ وزقاقٌ، وسبأ الزق: اشترى خمرها ليشربها. والرَّويّ: الكثير الخمر حتى يُشبع. والكَرُّ: معاودة الهجوم على العدو بعد الفرار، =



وهذا كثير.

قال السدي: الضُّر هَا هنا: المرض، والخيرُ: العافية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مثال، ومعنى الآية الإخبارُ عن أن الأشياءَ كلها بيد الله، إن ضرَّ فلا كاشف لِضُرِّه غيرُه، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا رادَّ له ولا مانع منه، هذا تقرير الكلام، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظاً أعم منه يستوعبه وغيره وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ودلَّ ظاهر الكلام على المقدر فيه، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: على كل شيءٍ جائز أن يوصف الله تعالىٰ بالقدرة عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ الآية. أي: وهو عزَّ وجلَّ المستولي المقتدر، و﴿فَوْقَ﴾ نصب على الظرف لافي المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ كما تقول: زيد فوق عمرو في المنزلة. وحقيقة (فوق) في الأماكن، وهي في المعاني مستعارة شبه بها من هو أَرْفَعُ رتبةً في معنىٰ ما لمَّا كانت في الأماكن تنبىء حقيقة عن

= والإجفال: الإسراع، مصدر أجفل بمعنىٰ: مضى مسرعاً.

يتذكر امرؤ القيس في هذين البيتين شبابه وماكان فيه من لذات ونفع، ويتحسر على ذلك بعد أن كبرت سنُّه وتغيرت أحواله فيقول: لقد ذهب كل هذا فكأني لم أكن فارساً أتمتع بركوب الجياد وأسعى بها للصيد، ولم أتمتع بالكاعب المنعمة بالحليّ، ولم أشتر الخمر لأشربها، ولم يكن مني كرٌّ على العدوّ بعد هزيمة أو فِرار.

هذا وقد قال بعض النقاد: كان من المنطقي أن يكون النصف الثاني من البيت الثاني مع النصف الأول من البيت الأول لأن الكلام فيهما عن الجياد وركوبها، ومن المعقول أن يكون الحديث عن الكرّ في المعركة مع الحديث عن ركوب الخيل للصيد، وكذلك من المنطقي أن يجمع بين الخمر والتمتع بالنساء فيجعل النصف الثاني من البيت الأول مع النصف الأول من البيت الثاني، ولكن امرأ القيس عدل عن ذلك إلى شيءٍ آخر دلَّ على براعة وحذق، فالجامع في البيت الأول بين الركوب للذة الفروسية أو لذة الصيد والركوب للذة المباشرة الجنسية هو اشتراكهما معاً في لذة الاستعلاء والاقتناص والظفر والقهر والسيطرة على الفَرَس والصَّيْد، أو على المرأة. والجامع في البيت الثاني بين شراءِ الخمر للشرب والكَرّة بعد الهزيمة اشتراكهما في البذل، فشراءُ الخمر فيه بذل للمال، والكرُّ بعد الهزيمة فيه بذل للروح، ثم قالوا: وما أحسن تعقل امرىء القيس وتدرجه في بيته حيث انتقل من الأدنى إلى الأعلى لأن الظفر بجنس الإنسان (المرأة) أعلى وأشرف وأحب إلى الفرسان من الظفر بجنس الحيوان (الصيد) أو (الفرس) نفسه، ولأن بذل الروح أعظم من بذل المال.

الأَرفع[(١)]. وحكىٰ المهدوي أَنها بتقدير الحال كأَنه قال: وهو القاهر غالباً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يسلم من الاعتراض أَيضاً، والأَول عندي أَصوب.

والعباد بمعنى العبيد، وهما جمعان للعَبْد، أَما إِنا نجد ورود لفظة (العباد) في القرآن وغيره في مواضع تفخيم أَو ترفيع أَو كرامة، وورود لفظة (العبيد) في تحقير أَو استضعاف أَو تصد ذمٍّ، أَلا ترى قول امرىء القيس:

قُولا لِدُودانَ عَبيدِ الْعَصَا . . . .[(٢)]

ولا يستقيم أَن يقال هنا: عباد العصا، وكذلك الذين سموا العباد لا يستقيم أَن يقال لهم: العبيد لأَنها أَفخم من ذلك، وكذلك قول حمزة رضي الله عنه: «وهل أَنتم إِلا عبيد لأَبي»؟ لا يستقيم فيه عباد[(٣)].

---

(١) هذا هو رأي الجمهور فقد ذهبوا إِلى أن الفوقية هنا مجاز ـ ثم قال بعضهم: هو فوقهم بالإِيجاد والإِعدام، وقال بعضهم: هو على حذف مضاف معناه: فوق قهر عباده بوقوع مراده دون مرادهم، وقال الزمخشري: هو تصوير للقهر والغلبة والقدرة كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (١٢٧) ـ الأعراف. وقال أبو حيان: العرب تستعمل (فوق) إِشارة لعلوّ المنزلة وشفوفها على غيرها من الرتب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠) ـ الفتح.

(٢) البيت بتمامه:

قُولا لِدُودَانَ عَبِيدِ الْعَصَا ... مَا غَرَّكُمْ بالأَسَدِ الْبَاسِلِ؟

و(دودان) قبيلة بين أَسد، وكان أَبو امرىء القيس إذا غضب على أحد منهم أمر بضربه بالعصا، فسمُّوا: عبيد العصا، وأراد «بالأَسد الباسل» أباه: وقيل: أراد نفسه.

والبيت من قصيدة مطلعها:

يا دار ماويَّةَ بالحائل ... فالسَّهْب فالْخَبْتَيْنِ من عاقل

وكل من حائل وعاقل جبل ـ والسهب والخبتان موضعان في جبل عاقل الذي كان ينزله حجر والد امرىء القيس.

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني: «أكثر اللغة أن تستعمل (العبيد) للناس، و(العباد) لله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ (٤٢) ـ الحجر. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ (١٦) ـ الزُمَر، وهو كثير، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) ـ فصلت. ومن أبيات الكتاب:

أَتُوعِدُني بِقَوْمِكَ يابْنَ حَجْلٍ ... أُشَابَاتٍ يُخَالُون العِبَادَا؟

بِمَا جَمَّعْتَ مِنْ حَضَنٍ وعَمْرٍو ... ومَا حَضَنٌ وعَمْرٌو والجِيادا؟

أي: «يُخالون عبيداً» أهـ. المحتسب ٢ـ ١٤. وأما قول حمزة رضي الله عنه فقد سبق الكلام عنه».



و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى المحكم، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ دالَّة على مبالغة العلم، وهما وصفان مناسبان لنمط الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَىُّ﴾ استفهام، وهي معربة مع إبهامها، وإنما كان ذلك لأنها تلتزم الإضافة، ولأنها تتضمن عِلْم جزءٍ من المستفهم عنه غير معيّن، لأنك إذا قلت: «أي الرجلين جاءَنا»؟ فقد كنت تَعْلَمُ أن أحدهما جاءَ غير معين، فأخرجها هذان الوجهان عن غمرة الإبهام فأُعربت.

وتتضمن هذه الآية أن الله تعالىٰ يقال عليه: شيءٌ، كما يقال عليه: موجود، ولكن ليس كمثله تبارك وتعالىٰ شيءٌ[1]. و﴿شَهَٰدَةً﴾ نصب على التمييز، ويصح على المفعول بأن يحمل ﴿أَكْبَرُ﴾ على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل.

وهذه الآية مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾[2] في أن استفهم على جهة التوقيف والتقدير ثم بادر إلى الجواب إذ لا تتصور فيه مدافعة، وهذا كما تقول لمن تخاصمه وتتظلم منه: من أقدر من في البلد؟ ثم تبادر وتقول: السلطان فهو يحول بيننا، ونحو هذا من الأمثلة[3]، فتقدير الآية أنه قال لهم: أيّ شيءٍ أكبر

---

(١) قال الزمخشري: «الشيءُ أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه، فيقع على القديم والمحدث، والجوهر والعَرَض، والمحال والمستقيم، ولذلك صحَّ أن يقال في الله عز وجلَّ: شيءٌ لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات». والجمهور متفق على أنه يجوز إطلاق كلمة (شيء) على الله عزَّ وجلَّ إلا الجَهْم فقد قال: «لا يجوز أن يطلق على الله شيءٌ لقوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فيلزم من إطلاق شيءٍ عليه أن يكون خالقاً لنفسه وهو محال»، وقد ذكر أدلة أُخرىٰ تجدها في «البحر المحيط» كما تجد ردَّ الجمهور عليها في صفحة (٩٠) من المجلد الرابع.

(٢) من الآية (١٢) من سورة (الأنعام).

(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال: «وليست هذه الآية نظير قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾ لأن ﴿لِّلَّهِ﴾ يتعين أن يكون جواباً، وهنا لا يتعين إذ ينعقد من قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ مبتدأ وخبر وهو الظاهر وأيضاً: ففي هذه الآية لفظ (شيء) وقد تنوع في إطلاقه على الله تعالى وفي تلك الآية لفظ (من) وهو يطلق على الله تعالى.



شهادة؟ الله أكبر شهادة، فهو شهيد بيني وبينكم، فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره مضمر يدل عليه ظاهر الكلام كما قدرناه، و﴿شَهِيدُۢ﴾ خبر ابتداء مضمر(١).

وقال مجاهد: المعنى أن الله تعالىٰ قال لِنبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، وقل لهم ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ لما عيوا عن الجواب. فـ ﴿شَهِيدُۢ﴾ ـ على هذا التأويل ـ خبر لـ ﴿ٱللَّهُۖ﴾، وليس في هذا التأويل مبادرة من السائل إلى الجواب المراد بقوله: ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي: في تبليغي.

وقرأت فرقة: [وَأَوْحَى إِلَيَّ هذا القرآن] على الفعل الماضي ونصب ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وفي [وَأَوْحَي] ضمير عائد على الله تعالىٰ من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَأُوحِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ رفعاً. ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ معناه: لأُخوّفكم به العقاب والآخرة، و﴿وَمَنۢ﴾ عطف على الكاف والميم في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، و﴿بَلَغَۚ﴾ معناه ـ على قول الجمهور ـ بلاغ القرآن، أَي: لِأُنْذِرَكم وأُنذر من بلغه، ففي ﴿بَلَغَۚ﴾ ضمير محذوف لأنه صلة ﴿وَمَنۢ﴾ فحذف لطول الكلام، وقالت فرقة: ومن بلغ الحلم، ففي ﴿بَلَغَۚ﴾ ـ على هذا التأويل ـ ضمير مقدر راجع إلىٰ ﴿وَمَنۢ﴾.

وروي في معنى التأويل الأول أَحاديث منها أَن النبي ﷺ قال: (يَا أَيها الناس، بلِّغوا عني ولو آية، فإنه من بُلِّغَ آية من كتاب الله تعالى فقد بَلَغَه أَمر الله تعالىٰ أَخذه أو تركه)(٢). ونحو هذا من الأحاديث كقوله: (مَنْ بَلَغَهُ هذا القرآن فَأَنا نذيره)(٣).

---

(١) قال بعض العلماءِ: هذا الإعراب مرجوحٌ لأن فيه إضماراً في الآخر (حيث أُضمر خبر المبتدأ)، وفي الأول (حيث أُضمر المبتدأ). والإعراب الراجح هو أن قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ مبتدأ وخبر، في جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها من جهة الصناعة الإعرابية، لأن قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ هو استفهام على جهة التقرير والتوقيف ـ ثم جاءت الجملة التالية للإخبار بأن الله خالق الأشياء. والواضح أن هذا الخلاف في الإعراب مرتبط بجواز إطلاق كلمة (شيء) على الله تعالىٰ أو بعدم جواز ذلك. والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة، وأخرجه أبو الشيخ أيضاً من طريق قتادة. (تفسير الطبري، والدر المنثور). وأخرج البخاري وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

(٣) أخرجه ابن جرير عن يونس عن ابن زيد. (تفسير الطبري). وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم والخطيب ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن بَلَغَه القرآن فكأنما شافهته) (الدر المنثور).



وقرأت فرقة: [آينَّكُمْ] بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المُسَهَّلة عاملة بعد هذا التسهيل المعاملة قبل التسهيل[١]، وقرأت فرقة: [أَئِنَكُمْ] بهمزتين الثانية مُسَهَّلَة دون ألف بينهما، وقرأت فرقة: [آئِنَّكُمْ] اسْتَثْقَلت اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين[٢]، وقرأت فرقة: [إِنَّكُمْ] بالإيجاب دون تقدير.

وهذه الآية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي.

و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿ءَالِهَةً﴾، وصفة جمع مالا يعقل تجري في الإفراد مجرىٰ الواحدة المؤنثة كقوله: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[٣]، وكذلك مخاطبة جمع مالا يعقل كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[٤] ونحو هذا.

ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أُجريت هذا المجرىٰ.

ثم أمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي من شهادتهم، والإعلان بالتوحيد لله تبارك وتعالىٰ، والتَّبَرِّي من إشراكهم. ﴿وَإِنَّنِي﴾ إيجاب أُلحق فيه النون التي تلحق الفعل لتبقىٰ حركته عند اتصال الضمير به في قولك: «وضربني» ونحوه.

وظاهر الآية أنها في عبدة الأصنام، وذكر الطبري أنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أنها نزلت في قوم من اليهود، وأسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءَ النحام بن زيد، وفردم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلٰهاً غيره؟ فقال لهم: لا إلٰه إلا الله، بذلك أُمرت. فنزلت الآية فيهم.

---

(١) اختلف النسخ الأصلية في هذه العبارة، وقد اخترنا أوضحها دلالة على المعنى المراد وهو أن الألف الزائدة بين الهمزتين تعمل بعد تسهيل الثانية ما كانت تعمله قبل التسهيل من الفصل بين الهمزتين لتسهيل النطق لاحظ كلمة (المعاملة) في تعبير المؤلف.

(٢) زيادة الألف بين الهمزتين كراهة التقائهما لغة معروفة، وعليها قال ذو الرمة:

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بَيْنَ جَلاجِلٍ ... وبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أمْ سالِمِ؟

والوعساء: رملة لينة، وجَلاجل بفتح الجيم: موضع بعينه، وفي كتاب سيبويه: جُلاجل بضم الجيم، والنَّقا: الكثيب من الرمل.

(٣) من الآية (١٨) من سورة (طه).

(٤) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ رفع بالإبتداءِ، وخبره ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾، و﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ معناه: التوراة والإنجيل، وهو لفظ مفرد يدلُّ على الجنس، والضمير في ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ عائد ـ في بعض الأقوال ـ على التوحيد لقرب قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب. و﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ ﴾ ـ على هذا التأويل ـ منقطع مرفوع بالابتداءِ وليس من صفة ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الأولىٰ، لأنه لا يصح أن يُستشهد بأهل الكتاب ويُذَمُّونَ في آية واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذُمّوا فيه، وأَنَّ الذَّمَّ والاستشهاد ليْسَا من جهة واحدة. وقال قتادة، والسدي[1]، وابن جريج: الضمير عائد في ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم ﴾ فكأنه قال: «وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إليَّ». وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله ابن سلام: إن الله أنزل على نبيِّه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءَكم، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطىءُ الأَب فيها.

وقالت فرقة: الضمير من ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ عائد على القرآن المذكور قبْلُ.

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن السدي: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ الآية ـ يعني يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، لأن نعته معهم في التوراة، ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم كفروا به بعد المعرفة. (الدر المنثور).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن نعيد الضمير على هذه كلها دون اختصاص كأنه وصف أشياءَ كثيرة ثم قال: «أهل الكتاب يعرفونه» أي: ما قلنا وما قصصنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ الآية... يصح أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتاً تابعاً لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قبله، والفاءُ من قوله: ﴿فَهُمْ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهذا يحسن على تأويل من رأي في الآية قبلها أن أهل الكتاب مُتَوَعَّدون مذمومون لا مُستشهد بهم. ويصح أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفعاً بالابتداء على استئناف الكلام، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والفاءُ على هذا الجواب، و﴿خَسِرُوٓاْ﴾ معناه: غبنوها، وقد تقدم.

وروي أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمنون ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة، والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة في النار، فها هنا هي الخسارة بيِّنة والربح للآخرين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية... ﴿وَمَنْ﴾ استفهام مضمنة التوقيف والتقرير، أي: لا أحد أظلم ممن افترى. و﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ معناه: اختلق، والمكذب بالآيات مفتر كذاب، ولكنهما منحيان من الكفر فلذلك نُصا مُفسَّرين.

والآيات: العلامات والمعجزات ونحو ذلك، ثم أوجب أنه لا يفلح الظالمون، والفَلاح: بلوغُ الأمل والإرادة والنجاح، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّـ ـعْفِ، وقَدْ يُخَدَّعُ الأَرِيبُ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قالت فرقة: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلام تام معناه: لا يفلحون جملة ثم استأنف فقال: واذكر يوم نحشرهم، وقال الطبري: المعنى: لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ

(١) رواه في اللسان: «فقد يبلغ بالنَّوْك» ثم قال: ويروى: «فقد يُبْلغ بالضَّعف»، ثم قال: «معناه: فُزْ واظفر، التهذيب: يقول: عِشْ بما شئت من عقل وحُمْق، فقد يُرزق الأحمق ويُحرم العاقل» أ هـ.



﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عطفاً على الظرف المقدر، والكلام متصل.

وقرأت طائفة: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياءِ، وقرأ عاصم هنا وفي (يونس) قبل الثلاثين(١) ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ في باقي القرآن بالياءِ. وقرأ أبو هريرة [نَحْشِرهم] بكسر الشين، فيجيءُ الفعل ـ على هذا ـ حَشَر يحْشُر ويَحْشِرُ. وأضاف الشركاءَ إليهم لأنه لا شركة لهم في الحقيقة بين الأصنام وبين شيءٍ، وإنما وقع عليها اسم الشريك بمجرد تسمية الكفرة فأُضيفت إليهم لهذه النسبة.

و﴿تَزْعُمُونَ﴾ معناه: تدَّعون أنهم لله، والزعم: القول الأَميل إلى الباطل والكذب في أَكثر كلامهم، وقد يقال: زعم بمعنى: ذكر دون ميل إلى الكذب، وعلى هذا الحد يقول سيبويه، زعم الخليل، ولكن ذلك إنما يستعمل في الشيءِ الغريب الذي تبقى عهدته على قائله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ الآية ـ قرأ ابن كثير في رواية شبل عنه، وعاصم في رواية حفص، وابن عامر: ﴿تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ برفع شبل عنه، وعاصم في رواية حفص، وابن عامر: ﴿تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ برفع الفتنة، و﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ في موضع نصب على الخبر، التقدير: إلاَّ قولَهُم. وهذا مستقيم لأَنه أَنَّث العلامة في الفعل حين أَسنده إلى مؤنث وهي الفتنة. وقرأ نافع، وأَبوعمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر، وابن كثير أَيضاً: [تَكُنْ فِتْنَتَهُم] بنصب الفتنة، واسم كان: ﴿أَن قَالُواْ﴾ وفي هذه القراءَة تأْنيث ﴿أَنْ قَالُوا﴾، وساغ إلىٰ ذلك من حيث الفتنة مؤنثة في المعنىٰ، قال أَبو علي: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) فأَنَّث الأَمثال لما كانت الحسنات بالمعنىٰ، وقرأ حمزة، والكسائي: [يَكُنْ] بالياءِ [فِتْنَتَهم] بالنصب واسم كان ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ وهذا مستقيم لأَنه ذكر علامة الفعل حين أَسنده إلى مذكر. قال الزهراوي: وقرأت فرقة: [يَكُنْ فِتْنَتُهم] برفع الفتنة، وفي هذه القراءَة إِسناد فعل مذكر إلى مؤنَث، وجاءَ ذلك بالمعنى لأَن الفتنة

---

(١) أي في الآية (٢٨) من سورة (يونس) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

(٢) من الآية (١٦٠) من سورة (الأنعام).

بمعنى الاختبار أَو المودة[١] في الشيء والإعجاب. وقرأَ أُبيُّ بن وكيع[٢]، وابن مسعود، والأَعمش: [وَمَا كانَ فِتْنَتَهُمْ]، وقرأَ طلحة بن مصرف: [ثُمَّ كانَ فِتنَتُهُمْ]. والفتنة في كلام العرب لفظة مشتركة تقال بمعنى حب الشيءِ والإِعجاب به كما تقول فتنت بكذا، وتحتملُ الآية هنا هذا المعنىٰ، أي: لم يكن حبهم للأَصنام وإِعجابهم بها واتباعهم لها لما سُئِلُوا عنها ووقفوا على عجزها إِلا التَّبري منها والإِنكار لها، وهذا توبيخ لهم كما تقول لرجل يدعي مودة آخر ثم انحرف عنه وعاداه: يا فلان، لم تكن مودتك لفلان إِلا أَن شتمته وعاديته[٣]، ويقال: الفتنة في كلام العرب بمعنى الاختبار كما قال عزَّ وجلَّ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾[٤] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا﴾[٥]، وتحتملُ الآية ها هنا هذا المعنىٰ لأَن سُؤَالهم عن الشركاءِ وتوقيفهم اختبار، فالمعنى: ثم لم يكن اختبارنا لهم ـ إِذ لم يفد ولا أَثمر ـ إِلاَّ إِنكارهم الإِشراك. وتجيءُ الفتنة في اللغة على معان غير هذين لا مدخل لها في الآية، ومن قال «إِن أَصل الفتنة الاختبار، من فتنتُ الذهب في النار، ثم يُستعار بعد ذلك في غير ذلك» ـ فقد أَخطأَ لأَن الاسم لا يحكم عليه بمعنىٰ الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له، كقول ذي الرمة:

. . . . ولَفَّ الثرَيَّا في مُلاءَتِهِ الْفَجْرُ[٦]

ونحوه. والفتنة لا يستحيل أَن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه.

---

(١) الصواب أن يقال: «أن الود في الشيء»، ولكن النسخ الأصلية كلها كما أثبتنا، وقطعاً هو من خطأ النساخ.

(٢) الصواب: أبي بن كعب.

(٣) قال الزمخشري: الفتنة هنا: كفرهم، والمعنى: ثم لم تكن عاقبة فتنتهم في كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وافتخروا به، وقاتلوا عليه إلا جحوده والتَّبرؤُ منه، وقال الضحاك: الفتنة هنا: إنكارهم، وقال قتادة: عذرهم. والأَقوال كثيرة.

(٤) من الآية (٤٠) من سورة (طه).

(٥) من الآية (٣٤) من سورة (ص).

(٦) البيت بتمامه:

أقامَتْ بِها حَتَّى ذوَى العُودُ في الثَّرَى ولَفَّ الثُّرَيَّا في مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وهو من قصيدة له معروفة، ومطلعها:

أَلا يا اسْلَمي يا دارَ مَيَّ عَلَىٰ الْبِلَىٰ ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ الْقَطْرُ

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عمر: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ خفض على النعت لاسم الله، وقرأ حمزة والكسائي: [رَبَّنَا] نصب على النداءِ، ويجوز فيه تقدير المدح. وقرأ عكرمة، وسلام بن مسكين: [وَاللهُ رَبُّنَا] برفع الاسمين وهذا على تقدير تقديم وتأخير كأنهم قالوا: «ما كنا مشركين والله ربنا». و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه جحود إشراكهم في الدنيا، فروي أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجوا فيوقفون ويقال لهم: «أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ» فينكرون طماعية منهم أن يفعل بهم ما فعل بأهل الإيمان. وأتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وفي أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن قالوا: تعالوا فلنجحد، وقالوا: «ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعبر بعض المفسرين عن الفتنة هنا بأن قالوا معذرتهم[1]، قاله قتادة، وقال آخرون: كلامهم، قال الضحاك، وقيل غير هذا مما هو كله في ضمن ما ذكرناه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾ الآية. . . الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام، والنظر نظر القلب، وقال: [كَذَبُوا] في أمر لم يقع إذ هي حكاية يوم القيامة فلا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل، ويفيدنا استعمال الماضي تحقيقاً مّا في الفعل وإثباتاً له، وهذا مهيع في اللغة، ومنه قول الربيع بن ضبع الفزاري:

---

(١) في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: (فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألمْ أكرمْك وأُسوِّدْك وأُزوِّجْكَ وأُسخر لك الخيل والإبل وأذرْك ترأس وترْبَعُ؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننتَ أنّكَ ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه، ثم يلقىٰ الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصلّيْتُ وصُمْتُ وتَصدَّقتُ، ويُثني بخير ما استطاع، قال: فيقال: ها هنا إذاً، ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سخط الله عليه).
ومعنى (فُلْ) بضم الفاءِ وسكون اللام يا فُلانُ، وهو ترخيم على غير القياس كما قاله النووي، وقيل: ليس ترخيماً بل هي لغة بمعنى فلان لأنه لا يقال إلا بسكون اللام، ولو كان ترخيماً لفتحوها أو ضموها ـ ومعنىٰ (ترْبع) أي: تأخذ ربع الغنيمة.



أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السلاحَ ولا أَمْلِكُ رأسَ البَعيرِ إِنْ نَفَرا

يريد: إن ينفر.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ معناه: ذهب افتراؤُهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله تبارك وتعالىٰ الشركاءَ[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على الكفار الذين تضمنهم قبلُ قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾، و﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كنان وهو الغطاءُ الجامع، ومنه كنانة السهام والكن، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[2]، ومنه قول الشاعر:

إذا ما انْتَضَوْهَا في الْوَغَىٰ مِنْ أَكِنَّةٍ حَسِبْتَ بُرُوقَ الْغَيْثِ هاجَتْ غُيومُها[3]

وفِعَالٌ وأَفْعِلَةٌ مهيع في كلامهم.

و﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ نصب على المفعول من أَجله، أَي: كراهية أَن يفقهوه، وقيل: المعنىٰ: أَلاَّ يفقهوه، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي. و﴿يَفْقَهُوهُ﴾ معناه: يفهموه، ويقال: فقِه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيءَ، وفقُه بضمها إذا صار فقيهاً له ملكة، وفقَه إذا غلب في الفقه غيره.

---

(١) معنى كلامه هذا أن ﴿مَّا﴾ هنا مصدرية. وقد ذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى الذي، قال المعنىٰ: «وغاب عنهم ما كانوا يفترون أُلوهيته وشفاعته». وهذا هو معنى ما قاله الحسن وأبو علي إذ قالا: المعنىٰ: «لم يغن عنهم ماكانوا يعبدون من الأصنام في الدنيا».

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٤٩) من سورة الصَّافات: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

(٣) انتضى السيف: أخرجه من غمده. والوغى في الأصل: الجَلَبة، وتطلق على الحرب لما فيها من الصوت والجَلَبة. والأَكِنَّة: جمع كنان وهو هنا: غمد السيف وجرابه الجامع له، يُشَبِّه منظر السيوف اللامعة إذا أُخرجت من أغمادها في المعركة بمنظر البروق التي هاجت غيومها عند نزول المطر، ولم نقف على قائل هذا البيت، ولم يذكره من المفسرين مع ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط».



والوَقْر: الثقل في السمع، يقال: وقِرَت أُذنه ووقَرَت بكسر القاف وفتحها، ومنه قول الشاعر:

وَكَـــلامٍ سَيِّـــئٍ قَـــدْ وَقِـــرَتْ   أُذنـي منْـهُ وَمَـا بـي مِـنْ صَمَـمْ[1]

وقد سمع: أُذن موقورة، فالفعل على هذا وُقِرَت. وقرأ طلحة بن مصرف: [وِقْراً] بكسر الواو كأنه ذهب إلى آذانهم وقرت بالصَّمم كما توقر الدابة من الحمل، وهي قراءَة شاذة، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاءِ القوم من الغلط والبعد عن قبول الخير، لا أَنهم لم يكونوا سامعين لأَقواله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ الآية... الرؤْية هنا رؤْية العين، يريد كانشقاق القمر وشبهه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومقصد هذه الآية أَنهم في أَعجز درجة وحاولوا ردّ الحق بالدعوىٰ المجردة، والواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ واو الحال، والباب أَن يصرح معها بقد، وقد تجيءُ أَحياناً مقدرة، وإِيضاح ذلك أَنه تعالىٰ قال: ومن هؤلاءِ الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حدّ قلبه في كنان، وأُذنه صماء، وهو يرىٰ الآيات فلا يؤْمن بها، ولكنه مع بلوغه الغاية من هذا القصور إِذا جاءَ للمجادلة قابل بدعوىٰ مجردة.

والمجادلة: المقابلة في الاحتجاج، مأْخوذ من الجدل، و﴿هَٰذَآ﴾ في قولهم إِشارة إِلى القرآن، والأَساطير: جمع أَسْطَار، كأَقوال وأَقاويل ونحوه، وأَسْطار: جمع سَطْر أَو سَطَر[2]، وقيل: الأَساطير: جمع إِسطارة وهي التُّرَّهات، وقيل: جمع أُسطورة

---

(١) قال في اللسان: «وقِرت أُذنه بالكسر تَوْقَر وَقْراً أي صَمَّت، ووَقَرَت وَقْراً، قال الجوهري: قياس المصدر التحريك إلا أنه جاء بالتسكين». فمعنى وقِرت في البيت: أصابها الصمم، أي من هذا الكلام السيىء وإن كانت في الحقيقة سليمة غير صماء، ولم نقف على نسبة البيت لقائله.

(٢) السَّطْر: الصفُّ من كل شيءٍ، يقال: سطر من الكتابة، وجمعه أَسْطُر وسطور وأسطار، وعلى هذا فأَساطير هي جمع الجمع، قال صاحب اللسان: أساطير جمع سَطْر، وكما حكىٰ ابن عطية فقد قيل: هي جمع أُسطورة، وقيل: جمع إسطارة، والأصل في ذلك كله الشيء المكتوب في سطور، يزعمون أنه خرافات وأباطيل سطرَّها الأولون ويشهد لهذا المعنى قول الشاعر:

تطَـاوَلَ لَيْلِـي واعْتَـرَتْنـي وَسَـاوِسـي   لِآتٍ أَتَـىٰ بـالتُّـرَّهَـاتِ الأَبَـاطيـل



كأُعجوبة وأُضحوكة، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كعبابيد وشماطيط[1]، والمعنىٰ: أَخبار الأَولين وأَقاصيصهم وأَحاديثهم التي تسطر وتحكىٰ ولا تحقق كالتواريخ، وإِنما شبهها الكفار بأَحاديث النضر بن الحارث وأَبي عبد الله بن أَبي أُمية عن رستم والسندباد، ومجادلة الكفار كانت مرادّتهم نور الله بأَفواههم المبطلة، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أنه مَثَّل من ذلك قولهم: إِنكم أَيها المتبعون محمداً تأْكلون ما قتلتم بذبحكم ولا تأْكلون ما قتل الله، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا جدالٌ في حُكْم، والذي في الآية إِنما هو جدال في مدافعة القرآن، فلا تتفسر الآية عندي بأَمر الذبح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ ﴾.

الضمير في قوله: ﴿ وَهُمْ ﴾ عائد على المذكورين قبلُ. والضمير في ﴿ عَنْهُ ﴾ ـ قال قتادة، ومجاهد: يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾، وقال ابن عباس، وابن الحنفية، والضحاك: هو عائد على محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنىٰ أَنهم ينهون غيرهم ويبعدون هم بأَنفسهم، والنأْي: البعد[2].

﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ معناه: ما يهلكون إِلا أَنفسهم بالكفر الذي يدخلهم جهنم، وقال ابن

(١) العبابيد من الخيل والناس: المتفرقون الذاهبون في كل وجه، يقال: تفرقوا عبابيد، والعبابيد أيضاً: الطرق المتفرقة ـ والشماطيط: قالوا فيها: تفرق القوم شماطيط، أي فِرَقاً، وثوب شماطيط: خَلَقٌ مُتَشَقِّقٌ. «المعجم الوسيط» مادتي: «عبد وشمط».

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ ما يعرف عند البلاغيين بأنه تجنيس التصريف، وهو أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف، فقد انفردت ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ بالهاء، وانفردت ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ بالهمزة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ومنه: (الخيل معقود في نواصيها الخير)، وفي كتاب التحبير سَمَّاه: تَجنيس التحريف وقال: هو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين، وأنشد عليه:

إِنْ لَـمْ أَشُـنَّ علـى ابْـنِ هِنْـدٍ غـارَةً ... لِنَهَـابِ مَـالٍ أَوْ ذَهَـابِ نفـوسِ



عباس أيضاً، والقاسم، وحبيب بن أَبي ثابت، وعطاءُ بن دينار: المراد بقوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أبو طالب وَمَنْ كان معه على حماية رسول الله ﷺ، وعلى الدوام في الكفر[١]. والمعنىٰ: وهم ينهون عنه من يريد إذايته، وينأون عنه بإيمانهم واتِّباعهم، فهم يفعلون الشيءَ وخلافه. ويُقلق هذا القولَ ردُّ قوله: ﴿ وَهُمْ ﴾ على جماعة الكفار المتقدم ذكرها، لأَن جميعهم لم يكن ينهى عن إذاية النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتخرج ذلك ويَحْسُن على أَن تقدر القصد ذكر ما ينعى على فريق من الجماعة التي هي كلها مُجْمِعَة على الكفر، فخرجت العبارة عن فريق من الجماعة بلفظ يعم الجماعة؛ لأَن التوبيخ على هذه الصورة أَغلظ عليهم، كما تقول إِذا شنَّعت على جماعة فيها زُناة وسرقة وشربة خمر: هؤلاءِ يزنون ويسرقون ويشربون الخمر، وحقيقة كلامك أَن بعضهم يفعل هذا وبعضهم يفعل هذا، فكأَنه قال: من هؤلاءِ الكفرة من يستمع وهم ينهون عن إذايته ولا يؤمنون به، أَي: منهم من يفعل ذلك.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ معناه: ما يعلمون علم حسّ، وهو مأْخوذ من الشعار الذي يلي بدن الإِنسان، والشعار مأْخوذ من الشعر، ونَفْيُ الشعور مذمة بالغة، إِذ البهائم تشعر وتُحسُّ، فإِذا قلت: «فلان لا يشعر» فقد نفيت عنه العلم، النفي العام الذي يقتضي أَنه لا يعلم ولا المحسوسات.

---

(١) يعني أَن أَبا طالب ومن معه، كانوا ينهون الكفار عن إيذاءِ الرسول ﷺ ويبقون مُصرين على كفرهم وبعدهم عن الإيمان. وقد روي في السيرة أن النبي ﷺ تعرض للأذى وهو يصلي في الكعبة، حيث وضع عبد الله بن الزِّبَعْرى فرثاً ودماً عليه، ولطخ وجهه بهما، فذهب النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى عمه أبي طالب قائلاً: يا عمّ، ألا ترى ما فُعل بي؟ فقال: من فعل بك هذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ، فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه، ومشى حتى أتى القوم في الكعبة، فأَخذ فرثاً ودماً، فلطخ بهما وجوه القوم ولِحاهم وثيابهم، وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ. . . ﴾ فقال النبي ﷺ: يا عمِّ، نزلت فيك آية. . فلما سمعها قال:

والله لَــنْ يَصِلُــوا إِلَيْــكَ بِجَمْعِهِــمْ ... حَتَّــى أُوَسَّــدَ فــي التُّــرَابِ دَفِينَــا
فَــاصْــدَعْ بـأَمْـرِكَ مـا عَلَيْـكَ غَضَـاضَـةٌ ... وابْشِــرْ بِــذاكَ وقَــرَّ مِنْــكَ عُيُــونَـا
ودَعَــوْتَنِــي وزَعَمْــتَ أَنَّــكَ نَــاصِحِــي ... فَلَقَــدْ صَــدَقْـتَ وكُنْـتَ قَبْـلُ أَمِينَـا
وعَــرَضْــتَ دِينَــا قَــدْ عَــرَفْــتُ بِــأَنَّــهُ ... مِــنْ خَيْــرِ أَدْيَــانِ البَــرِيَّــةِ دِينَــا
لَـــولا المَــلامَــةُ أَوْ حِــذارُ مَسَبَّــةٍ ... لَــوَجَــدْتَنِــي سَمْحــاً بِــذاكَ يَقِينَــا



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقرأ الحسن: [وَيَنَوْنَ عَنْهُ]. أَلقيت حركة الهمزة على النون على التسهيل القياسي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية. المخاطبة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره في آخر هذه الآية: لرأَيتَ هَوْلاً أَو مشقات أَو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أَبلغ لأَن المخاطب يُتْرَكُ مع غاية تخيله(١).

ووقعت ﴿إِذْ﴾ في موقع (إِذا) التي هي لما يُستقبل، وجاز ذلك لأَن الأَمر المتيقن وقوعه يُعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع. و﴿وُقِفُواْ﴾ معناه: حبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغيرَ متعدٍّ سواءٌ، تقول: وقفتُ أَنا ووَقَفْتُ غيري. وقال الزهراوي: وقد فُرِّق بينهما بالمصدر، ففي المتعدي: وَقَفْتُه وَقْفاً، وفي غير المتعدي: وقفت وقوفاً، قال أَبو عمرو بن العلاءِ: لم أَسمع في شيءٍ من كلام العرب أَوْقَفْتُ فُلاناً، إِلاَّ أَني لو لقيتُ رجلاً واقفاً فقلتُ له: ما أَوقفك ها هنا؟ لكان عندي حسناً، ويحتمل قوله: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أَن يكون: دخلُوها، فكان وقوفهم عليها أَي فيها، قاله الطبري، ويحتمل أَن يكون: أَشرفوا عليها وعاينوها.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي، وعاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: [وَلاَ نُكذِّبُ] [ونكُونُ] بالرفع في كلها، وذلك على نِيَّة الاستئناف والقطع في قوله: [ولا نكذِّبُ] [ونكُونُ] أَي: ياليتنا نُرد، ونحن على كل حالٍ لا نُكَذِّبُ ونكونُ، فأَخبروا عن أَنفسهم بهذا، ولهذا الإِخبار صح تكذيبهم بعد هذا، ورجَّح هذا سيبويه ومَثَّلَه بقولك: دعني ولا أَعودُ، أَي: وأَنا لا أَعود على كل حال، ويُخَرَّج ذلك على قول آخر وهو أَن يكون: [ولا نكذِّبُ] [ونكونُ] داخلاً في التمني على حدِّ ما دخلَتْ فيه ﴿نُرَدُّ﴾، كأَنهم قالوا: ياليتنا نُرَدُّ، وليتنا لا نكذِّبُ، وليتنا نكونُ، ويعترض هذا التأْويل بأَن من تمنى شيئاً لا يقال: إِنه كاذب، وإِنما يُكَذَّب من أَخبر.

---

(١) وحذف جواب [لو] لدلالة الكلام عليه جائز فصيح، وهو كثير، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ. . .﴾ الآية ـ أي: لكان هذا القرآن ـ ومنه أيضاً قول الشاعر:

وَجَــدِّكَ لــو شــيءٌ أَتــانــا رَسُــولُــهُ   سِوَاكَ، ولكنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفعا

التقدير: لو شيءٌ سواك أَتانا رسوله لدفعناه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وينفصل عن هذا الاعتراض بأَن يكون قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حكاية عن حالهم في الدنيا كلاماً مقطوعاً عما قبله، وبوجه آخر وهو أَن المتمنِّي إِذا كانت سجيته وطريقته مخالفة لما تمنى بعيدةً منه يصح أَن يقال له: كذبتَ على تجوّز، وذلك أَن من تمنَّى شيئاً فتمنِّيه يتضمن إِخباراً أَن تلك الأُمنية تصلح له ويصلح لها، فيقع التكذيب في ذلك الإِخبار الذي يتضمَّنُه التمني، ومثال ذلك أَن يقول رجلٌ شرير: ليتني أَحجُّ وأُجاهد وأَقوم الليل، فجائز أَن يقال لهذا عَلَى تجوز: كذبتَ، أَي أَنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك.

ورُوي عن أَبي عمرو أَنه أَدغم باءَ ﴿نُكَذِّبَ﴾ في الباءِ التي بعدها، وقرأَ ابن عامر، وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ بنصب الفعلين، وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التمني، فَالْوَاوُ في ذلك والفاءُ بمنزلة، وهذا على تقدير ذكر مصدر الفعل الأَول، كأَنهم قالوا: ياليتنا كان لنا ردٌّ وعدمُ تكذيبٍ وكونٌ من المؤمنين. وقرأَ ابن عامر في رواية هشام بن عمار عن أَصحابه عن ابن عامر: [ولا نكذِّبُ] بالرفع ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب. ويتوجه ذلك ـ على ما تقدم[1] ـ في مصحف عبد الله بن مسعود: [يا ليتنا نرد فلا نكذب بآيات ربنا وتكون] بالتاءِ، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [ياليتنا نُردُّ فلا نكذب بآيات ربنا أَبداً ونكُونَ]، وحكى أَبو عمرو أَن قراءَة أُبي: [بآيات ربنا ونحن نكون].

وقوله: ﴿نُرَدُّ﴾ في هذه الأَقوال كلها معناه: إِلى الدنيا، وحكىٰ الطبري تأْويلاً آخر وهو: ياليتنا نرد إِلى الآخرة، أَي: نبعث ونوقف على النار التي وقفنا عليها مكذبين، ليت ذلك ونحن في حالة لا نكذب ونكون، فالمعنىٰ: ياليتنا نوقف هذا الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا كائنين من المؤمنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يضعف من غير وجه، ويبطله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا

(١) ما تقدم: هو قوله قبل قليل في توجيه قراءَة النصب: «وذلك كما تنصب الفاءُ في جواب التَّمني». وقوله: «ويتوجه ذلك» كلام مستأنف لا يتعلق بما قبله.



عَنْهُ﴾، ولا يصح أيضاً التكذيب في هذا التمني لأنه تمني ما مضىٰ، وإنما يصح التكذيب الذي ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمني المستقبلات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ[1] بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الضمير في ﴿لَهُم﴾ عائد على من ذُكر في قوله: ﴿وُقِفُوا﴾ و﴿قَالُوا﴾، وهذا الكلام يتضمن أَنهم كانوا يخفون شيئاً ما في الدنيا فظهر لهم يوم القيامة، أَو ظهر لهم وبالُه وعاقبته، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه. وحكى الزهراوي عن فرقة أَنها قالت: الآية في المنافقين لأَنهم كانوا يخفون الكفر فبدا لهم وباله يوم القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتقلق العبارة على هذا التأْويل لأَنه قال: ﴿وُقِفُوا﴾ يريد جماعة كفار، ثم قال: ﴿بَدَا لَهُم﴾ يريد المنافقين من هؤلاءِ الكفار، والكلام لا يعطي هذا إلا على تحامل. قال الزهراوي: وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأَخفوا ذلك الخوف لئلا يشعر به أتباعهم فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

وقال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصحُّ أَن يكون مقصد الآية الإِخبار عن هول ما لقوه والتعظيم لما شقوابه، فعبر عن ذلك بأَنهم ظهرت لهم مستوراتهم في الدنيا من معاص وغير ذلك. فكيف الظن ـ على هذا ـ بما كانوا يعلنون من كفر ونحوه؟ وينظر إِلى هذا التأْويل قوله تعالىٰ في تعظيم شأْن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[2]. ويصح أَن يقدر الشيءُ الذي كانوا يخفونه في

(١) (بل) هنا للإضراب والانتقال من شيءٍ إلى شيءٍ من غير إبطال لما سبق، وهكذا تأتي في كتاب الله تعالىٰ إذا كان ما بعدها من إخبار الله سبحانه وتعالىٰ، أما إذا كان ما بعدها يقال على سبيل الحكاية عن قوم فإن معنى الإضراب يختلف عما ذكرناه كقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. ذكر ذلك في «البحر المحيط».

(٢) الآية رقم (٩) من سورة (الطارق).



الدنيا نُبُوَّة محمد ﷺ وأَقواله، وذلك أَنهم كانوا يُخفون ذلك في الدنيا بأَن يُحقِّروه عند من يرد عليهم، ويصفوه بغير صفته، ويتلقَّوا الناس على الطرق فيقولون لهم: هو ساحر، هو يُفرّق بين الأَقارب، يريدون بذلك إِخفاءَ أَمره وإِبطاله، فمعنى هذه الآية على هذا: بل بدا لهم يوم القيامة أَمرك وصدقك وتحذيرك وإِخبارك بعقاب من كفر الذي كانوا يخفونه في الدنيا، ويكون الإِخفاءُ على ما وصفناه.

وقال الزجاج: المعنىٰ: ظهر للذين اتَّبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون من البعث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالضميران على هذا ليسا لشيءٍ واحد[1]، وحكى المهدوي عن الحسن نحو هذا.

وقرأَ يحيىٰ بن وثَّاب، والنَّخعي، والأَعمش: [وَلَو رِدُّوا] بكسر الراءِ على نقل حركة الدال من (رُدِدُوا) إِليها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إِخبار عن أَمر لا يكون كيف كان يوجد، وهذا النوع مما استأْثر الله بعلمه، فإِن أَعلم بشيءٍ منه عُلم وإِلا لم يتكلم فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ إِما أَن يكون متصلاً الكلام ويكون التكذيب في إِخبارهم على معنى أَن الأَمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأَنهم قصدوا الكذب، أَو يكون التكذيب في التمني على التجوز الذي ذكرناه. وإِما أَن يكون منقطعاً إِخباراً مُسْتَأْنفاً عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، والأَول أَصوب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية.. هذا ـ على تأْويل الجمهور ـ ابتداءُ كلام وإِخبار عنهم بهذه المقالة، ويحسن مع هذا أَن يكون قوله قبل: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مستأْنفاً مقطوعاً خبراً عن حالهم في الدنيا التي من قولهم فيها: «إِن هي إِلا حياتنا الدنيا» وغير ذلك، و﴿إِنْ﴾ نافية، ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إِلى الله، وقال ابن زيد: قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿لَعَادُوا﴾ أَي: لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر وقالوا: إِن هي إِلا حياتنا الدنيا.

---

(١) الضمير الأول في قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾، فالمراد به الذين اتبعوا الغواة، والضمير الثاني في قوله: ﴿يُخْفُونَ﴾: والمراد به الغواة أنفسهم لأنهم كانوا يخفون الأمر عن أتباعهم، وقد يؤيد هذا قوله سبحانه بعده: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتوقيف الله لهم في الآية بعدها على البعث والإشارة إليه في قوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ يرُدُّ على هذا التأويل[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ الآية.. بمعنىٰ: ولو ترى إذ وقفوا كما تقدم آنفاً من حذف جواب ﴿وَلَوْ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ معناه: على حُكمه وأمره، ففي الكلام ولا بُدَّ حذف مضاف[(٢)].

وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى البعث الذي كذبوا به في الدنيا، و﴿بَلَىٰ﴾ هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفياً ولا تقتضي نفيه وجحده، و(نَعَم) تصلح للإقرار به، كما ورد ذلك في قول الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام حين عاتبهم في الحظيرة عقب غزوة حنين[(٣)]، وتصلح أيضاً (نعَم) لجحده فلذلك لا تستعمل[(٤)]، وأما قول

---

(١) عقَّب أبو حيان في «البحر» على ذلك بقوله: «ولا يردُّه ما ذكره ابن عطية لاختلاف الموطنَيْن، لأن إقرارهم بحقيقة البعث هو في الآخرة، وإنكارهم ذلك هو في الدنيا على تقدير عودهم، وهو إنكار عنادٍ، فإقرارهم به في الآخرة لا ينافي إنكارهم له في الدنيا على تقدير العود، الا ترى إلى قوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقول أبي جهل وقد علم أن ما جاءَ به رسول الله ﷺ حق ما معناه أنه لا يؤمن به أبداً، هذا وذلك في موطن واحد وهي الدنيا. (البحر المحيط ٤ـ ١٠٤)».

(٢) وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى (عند)، أي: عند ملائكته وجزائه، وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل، تقول وقفت على فلان، أي عنده.

(٣) في «السيرة النبوية» لابن هشام عند الحديث على توزيع الغنائم في حنين أن هذا الحيَّ من الأنصار وجَدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، وبناءً على طلب الرسول جمعهم سعد بن عبادة في الحظيرة، ثم أتاهم الرسول ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدْتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالةً فأَغناكم الله، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بَلَىٰ، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأَنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَن والفضل، قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُم وَلَصُدِّقْتُم: أَتَيْنَاكَ مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسَيْنَاكَ»... إلى أن قال: «اللهم ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار، وأَبناءَ أبناءِ الأنصار». قال الراوي «وهو أبو سعيد الخدري»: فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحَظّاً. (٤ـ ١٤٢ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت). فقول الأنصار هنا: «بَلَىٰ، اللهُ ورسوله أَمَنُّ وأَفضل» للإقرار بالمستفهم عنه منفياً لا لِنَفْيه. والمستعمل في الحديث (بلى) وليس (نعم) كما يفهم من كلام ابن عطية.

(٤) يريد ابن عطية بكلامه هذا أن يفرق بين (بَلَى) و(نعم) ـ وخلاصة ما ذكره أنَّ (بَلَى) تأتي بعد المُسْتَفهم عنه منفياً فتقتضي الإقرار بما استفهم عنه بهذه الصورة المنفية، ولا تقتضي نفيه ولا إنكاره وجحده، أما=



الزجاج وغيره: إنها إنما تقتضي جحده، وإنهم لو قالوا: (نَعَم) عند قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لكفروا فقول خطأٌ، والله المستعان. وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إيمان ولكنه حين لا ينفع، وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ استعارةٌ بليغة، والمعنىٰ باشروه مباشرة الذائق إذ هي من أشد المباشَرات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾.

هذا استئناف إخبار عن خسارة المكذبين يتضمن تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم، وتستعمل الخسارة في مثل هذا لأنه من أخذ الكفر واتَّبعه فكأنه قد أعطىٰ الإيمان واطَّرَحه، فأشبهت صفقة أَخذ وإعطاءٍ.

والإشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا: «إنما هي حياتنا الدنيا»، وقوله: ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ معناه: بالرجوع إليه وإلى أَحكامه وقدرته، كما تقول: لَقِيَ فلان أعماله، أَي لَقي عواقبهَا ومآلها. و﴿السَّاعَةُ﴾: يوم القيامة، وأَدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرها لشُهرتها واستقرارها في النفوس وذيوع أَمرها، وأَيضاً فقد تضمنها قوله تعالىٰ: ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾.

و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجْأَةً، تقول: بغتني الأَمر أَي فجأَني، ومنه قول الشاعر:

ولكنَّهم تابوا ولمْ أَخْشَ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شَيْءٍ حينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ[(١)]

ونصبها على المصدر في موضع الحال، كما تقول: «قتلتهُ صبراً»، ولا يجيز سيبويه القياس عليه، لا تقول: «جاءَ فلان سرعةً» ونحوه[(٢)].

= (نَعَمْ) فتصلح للإقرار به منفياً كما ورد في الحديث النبوي الشريف «أَلَم آتكم ضُلالاً فهداكم الله»؟ وتصلح أيضاً لنفيه وإنكاره، ولكن كلامه غير واضح، وعليه كثير من علامات الاستفهام.

(١) هذا البيت ليزيد بن ضَبَّة الثَّقَفِي كما قال صاحب «اللسان»، وقد اختلفت الأُصول في كلمة (تابوا) ـ فهي في بعض النسخ (نابوا) ـ وفي رواية «اللسان»:

ولكنَّهُمْ ماتوا ولَمْ أَدْرِ بَغْتَةً ... وأَفْظَعُ شيءٍ حين يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

وهي التي تتفق مع معنى البغتة وفظاعتها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ وفيه: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأَةً.

(٢) من الشواهد التي أنشدها سيبويه على نصب المصدر في موضع الحال قول زهير بن أبي سلمىٰ: =



ونداءُ «الحسرة» على تعظيم الأمر وتشنيعه، قال سيبويه: وكأن الذي ينادي الحسرة أو العجب أو السرور أو الويل يقول: اقربي أو احضري فهذا وقتك وزمنك، وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثَمَّ سامع، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود بنداءِ الجمادات كقولك: يا دار، ويا رَبْع، وفي نداءِ مالا يعقل كقولهم: يا جَمَل، ونحو هذا[١].

و﴿فَرَّطْنَا﴾ معناه: قصّرنا مع القدرة على ترك التقصير، وهذه حقيقة التفريط، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الساعة، أي: في التقدمة لها، وهذا قول الحسن، وقال الطبري: يعود على الصفقة التي يتضمنها ذكر الخسارة في أول الآية، ويحتمل أن يعود الضمير على الدنيا إذ المعنى يقتضيها وتجيءُ الظرفية أمكن بمنزلة: زيد في الدار، وَعَوْدُه على الساعة إنما معناه في أمورها والاستعداد لها بمنزلة: زيد في العلم مشتغل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية. . الواو واو الحال. والأوزار: جمع وِزر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب، تقول منه: وَزَرَ يزِرُ إذا حمل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، وتقول: وَزَرَ الرجل فهو مَوْزُور، قال أبو عبيدة: والعامة تقول: مأزور، وأما إذا اقترن ذلك بمأجور فإن العرب تقول: مأزور، وقد قال النبي ﷺ لِنساءٍ لقيهن مقبلات من المقابر: (ارجعن مأزورات غير مأجورات)[٣]، قال أبو علي وغيره: فهذا للإتباع اللفظي. والوِزْرُ هنا تجوز وتشبيه بثقل الأحمال، وقَوَّى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هي في العادة موضع حمل الأثقال، ومن قال إنه من الوَزَر

= فَـلأيـاً بِـلأيٍ مـا حَمَلْنَـا وَليـدَنَـا ... على ظهْـر مَحْبـوكٍ ظِمـاءٍ مَفاصِلُـه

التقدير: حملنا وليدنا مُبْطئِين مُلْتئين، والبيت في وصف فرس بالنشاط والسرعة، والمحبوك الشديد الخَلْق، والظماءُ هنا: القليلة اللحم، يقول: إذا حملنا وليدنا على هذا الفرس ليصيد امتنع لنشاطه فلم تحمله إلا بعد إبطاءٍ وجهد.

(١) هذا أبلغ في النفس من قولك: تعجبت، ومن أمثلته قول امرىء القيس في معلقته:

وَيَـوْمَ عقَـرْتُ لِلْعَـذارى مَطِيَّتـي ... فيـا عَجَبـاً مِـنْ رَحْلِهـا المُتَحَمَّـلِ

(٢) تكررت في الآيات: (١٦٤) من سورة (الأنعام)، و(١٥) من سورة (الإسراء)، و(١٨) من سورة (فاطر)، و(٧) من سورة (الزُّمَر) و(٣٨) من سورة (النجم).

(٣) أخرجه ابن ماجة عن عليٍّ كرم الله وجهه، وأخرجه أبو يَعْلَى في مسنده عن أنس، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير.

وهو الجبل الذي يُلْتَجأُ إليه ـ ومنه الوزير وهو المعين ـ فهي مقالةٌ غير بينة. وقال الطبري وغيره: هذا على جهة الحقيقة. ورَوَوْا في ذلك خبراً أن المؤمن يلقاه عمله في أحسن صورة وأفرحها فيسلم عليه ويقول له: طالما ركبتك في الدنيا وأَجْهَدْتُك فاركبني اليوم، قال فيحمله تمثال العمل، وأن الكافر يلقاه عمله في أقبح صورة وأنتنها فيشتمه ويقول: أنا عملك الخبيث، طالما ركبتني في الدنيا بشهواتك فأنا أَرْكبك اليوم، قال: فيحمل تمثال عمله وأوزاره على ظهره(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إخبارٌ عن سوءِ ما يأثمون مُضَمَّن التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا كقول النبي ﷺ: (ألا فلْيُبَلِّغ الشاهد الغائب) وقوله: (ألا هل بلَّغت؟)(٢)، فإنما أراد الإشادة والتشهيد، وهذا كله يتضمنه ﴿أَلَا﴾، وأما ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فهو خبر مجرد كقول الشاعر:

رضيتُ خُطَّةَ خَسْفٍ غيْرَ طائِلَة ... فساءَ هَـذا رضىً يا قَيْسُ عيلانا

و﴿سَآءَ﴾ فعل ماض، و﴿مَا﴾ فاعلةٌ به كما تقول: «ساءَني أمر كَذا»، ويحتمل أن تجري ﴿سَآءَ﴾ هنا مجرى (بئس) ويقدر لها ما قد يقدر لبئس إذ جاءَ في كتاب الله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾(٣).

---

(١) أخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي، وأخرج مثله ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن قيس عن أبي مرزوق. (الدر المنثور ٣ـ٩).

(٢) جاءَ ذلك في خطبته ﷺ في حجة الوداع مع اختلاف الروايات في بعض الألفاظ، ففي السيرة النبوية لابن هشام: «اللّهم هل بلَّغت؟» وأن الناس قالوا اللّهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اشهد».

(٣) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف) ـ ومعنى كلام ابن عطية أن (ساءَ) متعدية، وأن (ما) فاعل كما نقول: «ساءَني هذا الأمر»، وأن الكلام خبر مجرد كقول الشاعر: «فساءَ هذا رضى. . . » ومعنى هذا أن وزنها فَعَل بفتح العين، و(ما) يمكن أن تكون موصولة، ويمكن أن تكون مصدرية فينسبك منها مع ما بعدها مصدر ويصير هو الفاعل أي: ألا ساءَ وِزْرُهم ـ وذكر وجهاً ثانياً هو احتمال أن تكون مثل (بئس) في المعنى والأحكام، ومعنى هذا أنها حُوِّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُريد بها المبالغة في الذم. وهناك وجه ثالث ذكره أبو حيان في «البحر» وهو أنها حوِّلت إلى (فَعُل) بضم العين وأُشربت معنى التعجب، والمعنىٰ: ألا ما أسوأ ما يزرونه ـ على أن (ما) موصولة ـ أو ما أسوأ وزرهم ـ على أنها مصدرية ـ والأوجه الثلاثة يمكن ورودها في معنى البيت الذي ذكره ابن عطية ولا يتعين أن تكون (ساء) فيه خبراً مجرداً. (راجع «البحر المحيط» ٤ـ ١٠٧، ١٠٨).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذا ابتداءُ خبر عن حال الدنيا، والمعنىٰ: إنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها أَشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضىٰ.

وقرأَ السِّتَّةُ من القراءِ: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ بلامين، و﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ نعت للدار، وقرأَ ابن عامر وحده: [وَلَدارُ] بلام واحدة، وكذلك وقع في مصاحف الشام بإِضافة الدار إِلى الآخرة، وهذا نحو: مسجد الجامع، أَي مسجد اليوم الجامع، فكذلك هذا: ولدار الحياة الآخرة. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [يعقلون] على إِرادة الغائب. وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [تَعْقِلُونَ] على إِرادة المخاطبين، وكذلك في الأَعراف وفي آخر يوسف، ووافقهم أَبو بكر في آخر يوسف، فأَما ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ في [يس] فقرأَه نافع وابن ذكوان بتاءٍ والباقون بياءٍ.

وهذه الآية تتضمن الردّ على قولهم: «إِن هي إِلا حياتنا الدنيا» وهو المقصود بها، ويصح أَن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على معنى: فقل لهم يا محمد: إِذ الحال على هذه الصفة أَفلا تعقلون؟.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ الآية... (قد) الملازم للفعل حرف يجيءُ مع التوقع إِما عند المتكلم وإِما عند السامع أَو مقدراً عنده، فإِذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، وإِذا كان الفعل ماضياً أَو فعل حال بمعنى المضي مثل آيتنا هذه فإِن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أَخبر به، وإِنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأَحد المُتَوَقَّعَيْن. و﴿نَعْلَمُ﴾ تتضمن ـ إِذا كانت من الله تعالىٰ ـ استمرار العلم وقِدَمه، فهي تَعُمّ الماضي والحال والاستقبال، ودخلت (أَنَّ) للمبالغة في التأكيد.

وقرأَ نافع وحده: [لَيُحْزِنُكَ] من (أَحْزَن)، وقرأَ الباقون: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ من (حَزِن الرجل)، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [لِيُحْزُنْكَ] بكسر اللام والزاي وجزم النون، وقرأَ الأَعمش:

[أَنَّهُ] بفتح الهمزة [يَحْزُنك] بغير لام، قال أَبو علي الفارسي: تقول العرب: حزِن الرجل بكسر الزاي يحْزَن حَزَناً وحُزْناً، وحَزنْتُهُ أنا. وحكي عن الخليل أَن قولهم: (حَزَنْتُه) ليس هو تغيير (حَزِن) على نحو (دَخَل وأَدْخلْتُه)، ولكنه بمعنىٰ جعلت فيه حُزناً، كما تقول: كحَلْتُه ودَهَنْتُه، قال الخليل: ولو أَردت تغيير (حزِن) لقلت: (أَحْزَنْتُه)، وحكى أَبو زيد الأَنصاري في كتاب «خباة» عن العرب: «أَحْزَنْت الرجلَ»، قال أَبو علي: و(حَزَنْتُ) الرجل أَكثر استعمالاً عندهم من (أَحْزَنْتُه)، فمن قرأَ: ﴿ليُحزِنك﴾ بضم الياءِ فهو على القياس في التغيير، ومن قرأَ: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بفح الياءِ وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال.

و﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾ لفظ يعم جميع أقوالهم التي تتضمن الردَّ على النبي ﷺ والدَّفْع في صدر نبوته، كقول بعضهم: إِنه كذاب، مفتر، ساحر، وقول بعضهم: إِنه مجنون مسحور، وقول بعضهم: له رَئِيٌّ من الجن، ونحو هذا.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال وفتح الكاف، وقرأَها ابن عباس وردَّها على قارىء عليه: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بضم الياءِ وقال: إِنهم كانوا يسمونه الأَمين، وقرأَ نافع، والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال، وقرأَها علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وهما قراءَتان مشهورتان صحيحتان، واختلف المتأَولون في معناهما ـ فقالت فرقة: هما بمعنى واحد كما تقول: سقَيْت وأَسْقَيْت وقلَّلت وكثَّرت وأَكْثَرتُ. وحكى الكسائي أَن العرب تقول: «كذَّبْتُ الرجل» إِذا وجدته كذاباً، كما تقول: «أَحْمَدْتُه» إِذا وجدته محموداً، فالمعنىٰ على قراءَة من قرأَ: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال أَي: لا تحزن فإِنهم لا يُكَذِّبونك تكذيباً يضرك، إِذ لسْتَ بكاذب في حقيقتك، فتكذيبهم كلا تكذيب، ويحتمل أَن يريد: «فإِنهم لا يُكَذِّبونك» على جهة الإِخبار عنهم أَنهم لا يُكَذِّبون وأَنهم يعلمون صدقه ونبوته، ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار بل تخص الطائفة التي حكي عنها أَنها كانت تقول: إِنا لنعلم أَن محمداً صادق ولكن إِذا آمنا به فَضَلَتْنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أَبداً، ورويت هذه المقالة عن أَبي جهل ومن جرى مجراه. وحكى النقاش أَن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فإِنه كان يكذِّب في العلانية ويصدق في السِّر ويقول: نخاف أَن تتخطفنا العرب

ونحن أَكلة رأس[1]، والمعنى على قراءَة من قرأ: [يكْذِبونكَ] بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أَولاً في [يَكْذِبونَك] أَي: لا يجدونك كاذباً في حقيقتك، ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بشد الذال.

وآيات الله: علاماته وشواهد نبيِّه محمد ﷺ، و[يَجْحدونَ] حقيقتُه في كلام العرب: الإِنكار بعد معرفة، وهو ضد الإِقرار، ومعناه ـ على تأْويل من رأى الآية في المعاندين ـ مترتب على حقيقته، وهو قول قتادة والسدي وغيرهما، وعلى قول من رأَى أَن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أَهل العناد يكون في اللفظة تجوّز، وذلك أَنهم لما أَنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عبَّر عن إِنكارهم بأَقبح وجوه الإِنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم، إِذ معجزاته وآياته نيِّرة يلزم كل مفطور أَن يعلمها ويقرَّ بها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجميع ما في هذه التأْويلات من نفي التكذيب إِنما هو عن اعتقاداتهم وأَما أَقوالهم جميعهم فمكذِّبة إمَّا له وإِمَّا للذي جاء به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكفر العنَاد جائز الوقوع بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[2] وغيرها، وذهب بعض المتكلمين إِلى المنع من جوازه، وذهبوا إِلى أَن المعرفة تقتضي الإِيمان والجحد يقتضي الكفر ولا سبيل إِلى اجتماعها، وتأَوَّلوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: إنها في أَحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

---

(١) يريد أن عددهم قليل تشبعهم رأس واحدة، وأَكَلَة: جمع آكل ـ وقيل: إن الآية نزلت في أبي جهل، فقد سأله الأخنس بن شُرَيْق قائلاً: يا أَبا الحكم أَخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواءِ والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية.

(٢) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.



ودفع ما يُتصوَّر ويُعْقل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب، أما إن كفر العناد من العارف بالله وبالنُّبوة بعيد لأنه لا داعية لكفر العناد إلا الحسد، ومن عرف الله والنُّبوة وأن محمداً يجيئُه مَلَك من السماءِ فلا سبيل إلى بقاءِ الحسد مع ذلك، أما إنه جائز فقد رأى أبو جهل على رأس النبي ﷺ فحلاً عظيماً من الإبل قد همَّ بأبي جهل ولكنه كفر مع ذلك، وأسند الطبريُّ أن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه الصلاة والسلام حزيناً فسأله فقال: كذَّبني هؤلاءِ، فقال: إنهم لا يُكذِّبونك، بل يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، والذي عندي في كفر حُيَيّ بن أخطب ومَن جرى مجراه أنهم كانوا يرون صفات النبي ﷺ ويعرفونها أو أكثرها، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة: هو ذاك، ومرة: عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة فيتزيد ويتمكن إعراضهم وكفرهم فهم على هذا، وإن عرفوا أشياءَ وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة وبقوا في ظلمة الجهل، فهم جاهلون بأشياء معاندون في أشياءَ غيرها، وأنا أستبعد العناد مع المعرفة التامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه الآية تضمنت عرض الأُسوة التي ينبغي الاقتداءُ بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إن امتثل ما امتثلوه من الصبر.

قال الضحاك وابن جريج: عزَّىٰ الله بهذه الآية نبيه ﷺ، ورُوي عن ابن عامر أنه قرأ: [وَأُذوا] بغير واو بعد الهمزة. ثم قوي ذلك الرجاءَ بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا رادَّ لأمره وكلماته السابقات بما يكون، ولا مكذِّب لما أخبر به، فكأن المعنىٰ: فاصبر كما صبروا وانتظر ما يأتي وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له، فالقصد هنا هذا

الخبر وجاءَ اللَّفظ عاماً جميع كلمات الله السابقات، وأَما كلام الله عزَّ وجلَّ في التوراة والإِنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا مبدل لها وإِنما حرفها اليهود بالتأْويل لا ببدل حروف وأَلفاظ، وجوَّز كثير من العلماء أَن يكونوا بدلوا الأَلفاظ لأَنهم استُحْفِظوها، وهو الأَظهر، وأَما القرآن فإِن الله تضمن حفظه فلا يجوز فيه التبديل، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] وقال في أُولئك: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أَي فيما أَنزلناه وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أَخبرناك به، وفاعل ﴿جَآءَكَ﴾ مضمر على ما ذهب إِليه الطبري والرمّاني تقديره: ولقد جاءَك نبأٌ أَو أَنباءٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصواب عندي في المعنىٰ أَن يقدر: جلاءٌ أَو بيانٌ[3].

وقال أَبو علي الفارسي: قوله: ﴿مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في موضع رفع بـ (جاءَ) ودخل حرف الجر على الفاعل، وهذا على مذهب الأَخفش في تجويزه دخول (من) في الواجب، ووجْه قول الرمّاني أَن (من) لا تزاد في الواجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية. آيةٌ فيها إِلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأَحوال عليه حتىٰ يَتَبَيَّن أَن لا وجه إِلا الصبر والمضي لأَمر الله تعالىٰ، والمعنىٰ: إِن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإِن كنت تقدر على دخول سرب في أَعماق الأَرض أَو على ارتقاء سلم إِلى السماءِ فدونك وشأْنك به، أَي أَنك لا تقدر على شيءٍ من هذا، ولابدَّ لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تبارك وتعالىٰ للناظرين المتأَملين، إِذ هو ـ

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الحِجْر) وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المائدة).

(٣) قال أَبو حيان بعد أن ذكر كلام ابن عطية: «والذي يظهر لي أن الفاعل مضمر تقديره: هو، ويدل على ما دلَّ عليه المعنى من الجملة السابقة، أي: ولقد جاءَك هذا الخبر من تكذيب أَتباع الرسل للرسل والصبر والإِيذاءِ إِلى أن نُصروا، وأَن هذا الإخبار هو بعض نبأ المرسلين الذين يُتَأَسَّىٰ بهم، و﴿مِن نَّبَإِى۟﴾ في موضع الحال، وذو الحال ذلك المضمر، والعامل فيها وفيه ﴿جَآءَكَ﴾».



لا إِلٰه إِلا هو ـ لم يُرِد أَن يجمعهم على الهدىٰ، وإِنما أَراد أَن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إِذ خلقهم على الفطرة وهدي السبيل وسبقت رحمتُه غضبَه، وله ذلك كلُّه بحق ملكه فلا تكونن من الجاهلين في أَن تأْسف وتحزن على أَمر أَراده اللهُ وأَمضاه وعَلِم المصلحة فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أُسلوب معنى الآية.

واسم ﴿كَانَ﴾ يصح أَن يكون الأَمر والشأْن، و﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خبرها، ويصح أَن يكون ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ هو اسم ﴿كَانَ﴾ ويقدر في ﴿كَبُرَ﴾ ضمير، وتكون ﴿كَبُرَ﴾ في موضع الخبر، والأَول من الوجهين أَقْيَس.

والنفق: السرب في الأَرض، ومنه نافقاءُ اليربوع[١]، والسُّلَّم: الشيءُ الذي يُصعد عليه ويُرتقىٰ، ويمكن أَن يشتق اسمه من السَّلامة لأَنه سببها، وجمعه: سلاليم، ومنه قول الشاعر:

لا يَحْجِزُ المرءَ أَحْجَاءُ الْبِلادِ وَلا ... تُبْنَى لَهُ في السَّمواتِ السَّلالِيمُ[٢]

و﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أَي: بعلامة، ويريد إِما في فعلك ذلك، أَي: تكون الآية نفس دخولك في الأَرض أَو ارتقائك في السماءِ، وإِما أَن تأْتيهم بالآية من إِحدىٰ الجهتين، وحذف جواب الشرط قبل في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ إِيجازاً لفهم السامع به، تقديره: فافعل أَو فدونك كما تقدم.

و﴿لَجَمَعَهُمْ﴾ يحتمل إِما بأَن يخلقهم مؤمنين، وإِما بأَن يكسبهم الإِيمان بعد كفرهم بأَن يشرح صدورهم، و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: الإِرشاد، وهذه الآية تَرُدُّ على القدرية المغرضة

(١) نافقاءُ اليربوع: أحد مخارج جحره يخرج منه إذا أُخذ من جهة أُخرى، والمخرج الثاني يُسمَّى القاصعاءُ. ومنه المنافق لأَنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه.

(٢) البيت لابن مقبل، وقد رواه صاحب اللسان: يُبْنى بالياءِ، وقال: احتاج فزاد الياءَ، يعني في السلاليم. والأَحجاءُ: النواحي وهي جمع حجَا. وقال الزجاج: سُمِّي السُّلَّم سُلَّماً لأنه يُسْلمك إلى حيث تريد، وفي «المحكم»: السُّلَّم: الدرجة والمرقاة، يذكر ويؤنث، وقال أبو عبيدة: السُّلَّم: السبب والمرقاة، تقول العرب: اتَّخذني سُلَّماً لحاجتك، أي: سبباً، ومنه قول كعب بن زهير:

وَلا لَكُمَا مَنْجَى مِنَ الأَرْضِ فَابْغِيَا ... بِهِ نَفَقاً أَوْ فِي السَّمواتِ سُلَّماً.



الذين يقولون: إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه، تعالىٰ الله عن قولهم.

و﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يحتمل في ألا يعلم أن الله لو شاءَ لجمعهم، ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدره الله تعالىٰ.

ويظهر تباين ما بين قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]، وقد تقرر أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياءِ، قال مكي والمهدي: الخطاب بقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أُمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: وُقِّر نوح لِسنِّه وشيبته، وقال قوم: جاءَ الحمل أَشد على محمد ﷺ لقُربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يَحْمِل المُعَاقِب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والوجه القويُّ عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيءْ بحسب النَّبِيِّين، وإنَّما جاءَ بحسب الأمرين اللَّذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبيَّن أن الأَمر الذي نُهي عنه محمد ﷺ أكبر قدراً وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

هذا من النَّمط المتقدم في التسلية، أَي: لا تحفل بمن أَعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله بـ ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية، إذا بلغت الموعظة من أَحد مبلغاً شافياً قالوا: سمع[2].

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (هود).

(٢) قال أكثر العلماءِ: إن يستجيب بمعنىٰ: يجيب، لكن الرماني فرق بينهما بأن (استجاب) فيه قبول لما دعي إليه، قال: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾، وليس كذلك (أجاب) لأنه قد يجيب بالمخالفة.



ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يريد الكفار فعبر عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين، وبالصفة التي تشبه حالهم في العمىٰ عن نور الله تبارك وتعالىٰ والصَّمَمِ عن وعي كلماته، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن.

و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يحتمل معنيين ـ قال الحسن: معناه: يبعثهم الله بأَن يؤمنوا حين يوقفهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتجيءُ الاستعارة في هذا التأْويل في الوجهين: في تسميتهم موتىٰ وفي تسمية إِيمانهم وهدايتهم بعثاً، والواو على هذا مشركة في العامل عطفت ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾. و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في موضع الحال، وكأَن معنىٰ الآية: إِنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون، والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته، فلا تتأَسف أَنت ولا تستعجل ما لم يقدر. وقرأَ الحسن: [ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ][(١)] فتناسبت الآية. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾: يريد الكفار، أَي هم بمثابة الموتىٰ حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيَعون، و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَي: يحشرهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أَي إِلى سطوته وعقابه يرجعون، وقرأَت هذه الطائفة ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بياءٍ، والواو على هذه عاطفة جملة كلام على جملة، و﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ مبتدأً، و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ خبره، فكأَن معنىٰ الآية: إِنما يستجيب الذين يسمعون فيعون، والكفار سيبعثهم الله ويردهم إِلى عقابه، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار، والعائد على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هو الضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

والضمير في ﴿وَقَالُوا۟﴾ عائد على الكفار، و﴿لَوْلَا﴾ تحضيض بمعنىٰ: هلاَّ، قال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَني ضَوْطَرَى لوْلا الكمِيَّ المقَنَّعا[(٢)]

---

(١) أي بفتح الياءِ من (رَجَع) اللازم، ومعنى قوله: «فتناسبت الآية» أن (يَرجعون) بفتح الياءِ تناسب (يَسمعون).

(٢) البيت لجرير يهجو قوم الفرزدق، وكان الفرزدق يفتخر بكرم أبيه غالب، وعقره، مائة ناقة في معاقرة سُحَيْم بن وثيل الرياحي في موضع يقال له: (صوأر) على مسيرة يوم من الكوفة، ولذلك يقول جرير أيضاً:

وقَـدْ سَـرَّنـي ألا تَعُـدّ مُجَـاشِـعٌ مِـنَ المجْـدِ إلا عَقْـرَ نِيـبٍ بِصَـوْأَرِ =

ومعنىٰ الآية: هلاَّ أُنزلَ على محمد عليه الصلاة والسلام بيان واضح لا يقع معه توقف من أَحد كمَلَك يشهد له أَو كنز أَو غير ذلك من تشطُّطهم المحفوظ في هذا، فأُمر عليه الصلاة والسلام بالرَّد عليهم بأَن الله عزَّ وجلَّ له القدرة على إِنزال تلك الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعذاب، ويحتمل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَن الله تعالىٰ إِنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر وللتأَمل ليهتدي قوم ويضل آخرون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية ـ المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أَنواع مخلوقاته، أَي: قل لهم: إِن الله قادر على أن ينزل آية إِلاَّ أَنكم لا تعلمون وجه الحكمة في أَلاَّ يُنَزِّل آية مجهزة وإِنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان، وهي أُمم أَي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر. ويحتمل أَن يريد بالمماثلة أَنها في كونها أُمَماً لا غير، كما تريد بقولك: «مررت برجل مثلك» أَي في أَنه رجل، ويصحُّ في غير ذلك من الأَوصاف إِلا أَن الفائدة في هذه الآية إِنما تقع بأَن تكون المماثلة في أَوصاف غير كونها أُمماً، قال الطبري وغيره: والمماثلة في أَنها يهتبل بأَعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض على ما روي في الأَحاديث، أَي: فإِذا كان يفعل هذا بالبهائم فأَنتم أَحرى إِذْ أَنتم مكلفون عقلاء، وروى أَبو ذرّ أَنه انتطحت عنزان بحضرة النبي ﷺ فقال: (أَتعلمون فيم انتطحتا؟) قلنا: لا، قال: (فإِن الله يعلم وسيقضي بينهما)[(١)]. وقد قال مكي في[(٢)]: المماثلة في أَنها تَعْرِفُ الله تعالىٰ وتَعْبُده، وهذا قول خلف.

= والنِّيب: جمع ناب، والنَّاب: هي المُسِنَّةُ مِن النوق، وفي الحديث: (لهم من الصدقة الثِّلْبُ والنَّاب)، وفي المَثَل: (لا أفعل ذلك ما حنت النِّيبُ). وبنو ضوطرىٰ: تقال للقوم إذا كانوا لا يغنون غناءً، والكمِيُّ: الفارس الشجاع الجرىءُ، وجمعه: أَكماءٌ. يقول منتهى فخركم هو ذكر النوق وعقرها، تعدون ذلك أفضل أمجادكم، هلا عددتم الفرسان والشجعان فإن ذلك أفضل وأكرم.

(١) أخرجه الإمام أحمد، وعبد الرزاق، وابن جرير ـ عن أبي ذر رضي الله عنه. وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِن الجَمَّاءَ لتقتص من القَرْناءِ يوم القيامة) (ابن كثير).

(٢) هكذا في جميع النسخ المخطوطة، والظاهر أن كلمة (في) الأَولى من زيادات النساخ.

و﴿ دَآبَّةٍ ﴾ وزنها: فاعلة، وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا: الأعرج والأبرق، وأُزيل منه معنى الصفة، وليست بالصفة الغالبة في قولنا: العباس والحارث، لأن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة. وقرأت طائفة: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ ﴾ عطفاً على اللفظ، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: [وَلا طَائِرٌ] بالرفع عطفاً على المعنىٰ، وقرأت فرقة: [وَلاَ طَيْرٍ] وهو جمع طائر.

وقوله: ﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في اللفظة، فقد يقال: طائر السعد والنحس. وقال تعالىٰ: ﴿ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[1] أي: عمله، ويقال: «طار لفلان طائر كذا» أي سهمه في المقتسمات، فقوله تعالىٰ: ﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ إخراج للطائر عن هذا كله.

وقرأ علقمةُ، وابن هرمز: [فَرَطْنا في الكِتابِ] بتخفيف الراءِ، والمعنىٰ واحد، وقال النقاش: (فَرَطْنَا) مخففة: أَخَّرنا، كما قالوا: «فَرَط الله عنك المرض» أي أزاله، والأول أَصوب، والتفريط: التقصير في الشيءِ مع القدرة على ترك التقصير. و﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: القرآن، وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات، وقيل: اللوح المحفوظ. و﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ ـ على هذا القول ـ عام في جميع الأشياءِ، وعلى القول بأنه قرآن خاص: في الأَشياءِ التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم. و﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ قالت فرقة: حشر البهائم: موتها. وقالت فرقة: حشرها: بعثها. واحتجوا بالأَحاديث المضمنة أَن الله تعالىٰ يقتص للجمَّاءِ من القَرْناءِ، إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة، فهو قول مردود ينحو إِلى القول بالرموز ونحوها[2].

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (١٣) من سورة (الإسراء): ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾.

(٢) الكلام في حشر البهائم يوم القيامة طويل، وآراء العلماء فيه كثيرة، ولكن أوضح الآراء أن المراد بهِ البعثُ يوم القيامة، وهو قول الجمهور كما قال أبو حيان، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلماءِ من الشاة القرناء)، والجلماءُ: التي لا قرن لها، وهو أيضاً معنى الجماء، وأصل الحشر: الجمع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾، وقول ابن عطية هنا: «إنما هي كناية عن العدل. . . الخ» يحتمل أمرين ـ إما أنه ردٌّ على كلام غيره ممن احتجوا بالأَحاديث المضمنة أن الله تعالىٰ يقتص للجمَّاءِ من القرناء، فرأيه أن هذه الأَحاديث كناية عن العدل، الخ، وإما أنه ينقض هذا القول ويقول: إنه قول مردود، وهذا هو رأيه=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

كأَنه قال: وما من دابة ولا طائر ولا شيءٍ إلا وفيه آية منصوبة على وحدانية الله تبارك وتعالىٰ، ولكن الذين كذبوا صمٌّ وبُكْمٌ لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه. وظاهر الآية أَنها تعُمُّ كل مكذب، وقال النقاش: نزلت في عبد الدار[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم بيَّن أَن ذلك حكم من الله عزَّ وجلَّ بمشيئته في خلقه فقال مبتدئاً لكلام: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ شرط وجوابه[2]، وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ينوب عن (عُمْي)، و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَهول عبارةً وأَفصح وأَوقع في النفس. والصراط: الطريق الواضح.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ابتداء احتجاج على الكفار الجاعلين لله شركاءَ، والمعنى: أَرأَيتم إِذا خفتم عذاب الله أَو خفتم هلاكاً أَو خفتم الساعة أَتدعون أَصنامكم وتلجؤون إِليها في كشف ذلك إِن كنتم صادقين في قولكم: إِنها آلهة؟ بل تدعون الله الخالق الرزاق فيكشف ما خفتموه إِن شاءَ وتنسون أَصنامكم أَي تتركونهم، فعبَّر عن التَّرك بأَعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإِغفال، فكيف يُجْعل إِلهاً مَنْ هذه حاله في الشدائد والأزمات؟

= الحقيقي كما يفهم من عبارته التي نقلها عنه أبو حيان في «البحر المحيط ٤ ـ ١٢١» ونصها: «قال ابن عطية: والقول في الأحاديث المتضمنة أن الله يقتص للجمَّاءِ من القرناءِ إنه كناية عن العدل وليست بحقيقة قولٌ مرذول ينحو إلى القول بالرموز ونحوها انتهىٰ». فقد سقطت من الكلام هنا بعض كلمات أوجدت اللبس.

(١) هو عبد الدار بن قصي بن كلاب، أكبر أولاد أبيه، وكان أحبهم إليه، ولهذا جعل له الحجابة واللواءَ والسقاءَ والرفادة والندوة، وهو أبٌ لبطن منهم عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة، والدار في الأَصل: صنم من أصنامهم كانوا يسمون به.

(٢) قال القرطبي: «دلَّ على أنه شاءَ ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله، الا ترىٰ أنه قال: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله، وفيه إبطالٌ لمذهب القَدَرية».



وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بألف مهموزة على الأصل، لأن الهمزة عين الفعل، وقرأ نافع بتخفيف الهمزة بيْن بيْن على عُرف التخفيف وقياسه، وروي عنه أنه قرأها بألف ساكنة وحذف الهمزة، وهذا تخفيف على غير قياس، والكاف في (أرأيتك زيدا، وأرأيتكم) ليست باسم، وإنما هي مجردة للخطاب كما هي في (ذلك) و(أبصرك زيداً) ونحوه، ويدل على ذلك أن (أريت) بمعنىٰ العلم إنما تدخل على الابتداءِ والخبر، فالأول من مفعوليها هو الثاني بعينه، والكاف في (أرأيتك زيداً) ليست المفعول الثاني كقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[1]، فإذا لم تكن اسماً صح أنها مجردة للخطاب، وإذا تجردت للخطاب صح أن التاءَ ليست للخطاب كما هي في (أنت)، لأن علامتي خطاب لا تجتمع[2] على كلمة، كما لا تجتمع علامتا تأنيث ولا علامتا استفهام، فلما تجردت التاءُ من الخطاب وبقيت علامة الفاعل فقط استغني عن إظهار تغيير الجمع فيها والتأنيث لظهور ذلك في الكلام. وبقيت التاءُ على حدٍّ واحد في الإفراد والتثنية والجمع والتأنيث، وروي عن بعض بني كلاب أنه قال: «أتعلمك كان أحد أشعر من ذي الرمة؟». فهذه الكاف صلة في الخطاب.

و﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ معناه: أتاكم خوفه وأماراته وأوائله مثل الجدب والبأساءِ والأمراض ونحوها التي يخاف منها الهلاك، ويدعو إلى هذا التأويل أنا لو قدرنا إتيان العذاب وحلوله لم يترتب أن يقول ـ بعد ذلك ـ: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ لأن ما قد صح حلوله ومضى على البشر لا يصح كشفه، ويحتمل أن يراد بـ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في هذه الآية ساعة موت الإنسان.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ الآية ـ المعنىٰ: بل لا ملجأ لكم إلا الله، وأصنامكم مطرحة منسية، و﴿مَا﴾ بمعنى الذي تدعون إليه من أجله، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية، ويصح أن تكون مصدرية على حذف في الكلام، قال الزجاج: هو مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[3]، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله تعالىٰ بتقدير:

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء).

(٢) واضح أن صحتها: لا تجتمعان، والخطأ قطعاً من النساخ.

(٣) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

فيكشف ما تدعون فيه إلى الله تعالىٰ(١)، ويحتمل أن يعود على ﴿مَا﴾ بتقدير: فيكشف ما تدعون إليه، و﴿إِن شَآءَ﴾ استثناءٌ، لأن المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو ـ لا إله إلا هو ـ كاشف إن شاءَ ومصيب إن شاءَ، لا يجب عليه شيءٌ. وتقدم معنىٰ: ﴿وَتَنسَوْنَ﴾. و﴿إِيَّاهُ﴾ اسم مضمر أُجري مجرى المظهرات في أنه يضاف أبداً، وقيل: هو مبهم، وليس بالقوي لأن الأسماء المبهمة مُضمَّنة الإشارة إلى حاضر نحو: ذاك وتلك وهؤلاء، و(إيَّا) ليس فيه معنى الإشارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره: فكذبوا فأخذناهم، ومعناه: لازمناهم وتابعناهم الشيءَ بعد الشيءَ. والبأساءُ: المصائب في الأموال، والضَّرَّاءُ: في الأبدان، هذا قول الأكثر، وقيل: قد يوضع كل واحد بدل الآخر، ويؤدب الله عباده بالبأساءِ والضراءِ، ومن هنالك أَدَّب العُبَّادُ نفوسهم بالبأساءِ في تفريق المال والضراء في الحمل على البدن في جوع وعري.

والترجِّي في ﴿لعَلَّ﴾ في هذا الموضع إنما هو علىٰ معتقد البشر، أَي: لو رأى أَحد ذلك لرجا تضرعهم بسببه، والتضرع: التذلل والاستكانة، وفي المثل: «إن الحمى أَضْرَعَتْني لَكَ»(٢) ومعنىٰ الآية توَعُّد الكفار وضرْب المثل لهم. و﴿فَلَوْلَآ﴾ تحضيض وهي التي تلي الفعل بمعنىٰ (هلاَّ)، وهذا على جهة المعاتبة لمذنب غائب، وإظهار

---

(١) قال أبو حيان: «وهذا ليس بجيِّد لأن (دعا) بالنسبة إلى مجيب الدعاء إنما يتعدىٰ لمفعول به دون حرف جر». قال تعالىٰ: وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ومن كلام العرب: دعوت الله سميعاً، ولا تقول بهذا المعنىٰ: دعوت إلى الله بمعنىٰ «دعوت الله».

(٢) ويُرْوى: «لك يَا فراش» ويُروى: «لكِ يا قطيفة» ويُضرب لمن يذل في حاجة تنزل به، قال عمر بن أبي ربيعة:

ولكــنَّ حُمَّــى أَضْــرَعَتْنــي ثــلاثَــةً　　　مجرمــة ثــمَّ استَمَــرَّتْ بنــا غبّــا

سوءِ فعله مع تحسُّر ما عليه، والمعنىٰ: إذا جاءَهم أَوائل البأْس وعلاماته وهو تردد البأْساءِ والضراءِ، و﴿قَسَتْ﴾ معناه: صلبت وهي عبارة عن الكفر، ونسب التزيين إلى الشيطان وقد قال في آية أُخرىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(١) لأن تسبب الشيطان ووسوسته تجلب حسن الكفر في قلوبهم، وذلك المجلوب الله يخلقه، فإن نُسب إلىٰ الله تعالىٰ فبأنه خالقه، وإلىٰ الشيطان فبأنه سببه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية... عبَّر عن الترك بالنسيان إذا بلغ وجوه الترك الذي يكون معه نسيان، وزوال المتروك عن الذهن وقرأ ابن عامر فيما روي عنه: [فَتَّحْنَا] بتشديد التاءِ، و[كُلِّ شَيْءٍ] معناه: مما كان سُدَّ عليهم بالبأساءِ والضراءِ من النعم الدنيوية، فهو عموم معناه خصوص. و﴿فَرِحُوا﴾ معناه: بطروا وأَشروا وأُعجبوا وظنوا أَن ذلك لا يبيد، وأَنه دال على رضى الله عنهم وهو استدراج من الله تبارك وتعالىٰ: وقد روي عن بعض العلماءِ أَنه قال: «رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾.» وقال محمد بن النضر الحارثي: أُمهل هؤلاءِ القوم عشرين سنة، وروى عقبة بن عامر أَن النبي ﷺ قال: (إذا رأَيتم الله يعطي العباد ما يشاؤُون على معاصيهم فذلك استدراج، ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية كلها)(٢).

و﴿أَخَذْنَاهُم﴾ ـ في هذاالموضع ـ معناه: استأْصلناهم وسطونا بهم، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأَة، والعامل فيه ﴿أَخَذْنَاهُم﴾، وهو مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه، والمُبْلِس: الحزين الباهت اليائس من الخير الذي لا يُحير جواباً لشدة ما نزل به من سوءِ الحال(٣).

---

(١) من الآية (١٠٨) من سورة (الأنعام).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان مع بعض التغيير في الأَلفاظ، ورمز له في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن.
وفي نفس المعنىٰ قال الحسن: «والله ما أَحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أَمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه».

(٣) وجاءَ على هذا المعنى قول العجّاج:
يـا صـاح هَـلْ تَعْـرِفُ رسْمـاً مُكْـرَسـاً؟ قـال نعـم أعْـرِفُـهُ وأَبْلَسَـا
أي: تحيَّر لهول ما رأى وسكت غمّاً، ومن ذلك اشتق اسم (إبليس)، والمُكْرس: الذي صار فيه الكِرْس (بالكسر) وهو أَبْوال الإبل وأَبْعارها التي يتلبَّد بعضُها على بعض في الدار والدِّمَن.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية. الدابر: آخر الأمر الذي يَدْبُرُه أي: يأتي من خلفه، ومنه قول الشاعر:

فَـأُهْلِكـوا بِعَـذَابٍ حَـصَّ دابِـرَهُـم فما استطاعوا لَهُ دفْعاً ولا انْتَصَرُوا(١)

وقول الآخر:

وقـد زعمـت عُلْيـا بغيـضٍ وَلِفُّهـا بِـأَنِّـي وَحيـدٌ قَـدْ تَقَطَّـع دَابِـري(٢)

وهذه كناية عن استئصال شأفتهم ومحو آثارهم كأنهم وردوا العذاب حتى ورد آخرهم الذي دبَرهم، وقرأ عكرمة: [فَقَطَع] بفتح القاف والطاءِ [دَابِرَ] بالنصب.

وحَسُنَ الحمد عقب هذه الآية لجمال الأفعال المتقدمة في أن أرسل الرسل، وتلَطَّف في الأَخذ بالبأساءِ والضراءِ ليتضرع إليه فيرحم ويُنعم، وقطع في آخر الأمر دابر ظلمهم، وذلك حَسَنٌ في نفسه ونعمة على المؤمنين فحُسْن الحمد يعقب هذه الأفعال، وبحمد الله ينبغي أن يختم كل فعل وكل مقالة لا ربّ غيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا ابتداءُ احتجاج على الكفار، و﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ معناه: أذهبه وانتزعه بقدرته، ووحَّد السمع لأنه مصدر مفرد يدل على جمع، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على المأخوذ، وقيل: على السمع، وقيل: على الهدىٰ الذي يتضمنه المعنىٰ، وقرأ الأعرج وغيره: [بهُ انظر] بضم الهاءِ، ورواها المسيبي، وأبو وقرة عن نافع، و﴿يَصْدِفُونَ﴾ معناه: يعرضون وينفرون، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، وقد روي في «القرطبي» وفي «البحر المحيط»: «فما استطاعوا له صرفاً» ومعنى حَصَّ: استأصل.

(٢) لم نعثر على هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، ولم يستشهد به أحد من المفسرين المشهورين، ولم يذكره في اللسان.



إِذَا ذَكَـرْنَ حَـدِيثـاً قُلْـنَ أَحْسَنَـهُ   وهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ(١)

قال النقاش: في الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمه هنا، ثم احتج لذلك بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾ وبغير ذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾ معناه التوقيف، أَي: ليس ثَمَّة إِلٰه سواه فما بال تعلقكم بالأَصنام وتمسككم بها وهي لا تدفع ضرراً ولا تأتي بخير؟ وتصريف الآيات هو نَصْب العِبَر ومجيءُ آيات القرآن بالإِنذار والإِعذار والبشارة ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآية، وعيد وتهديد. و﴿بَغْتَةً﴾ معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و﴿جَهْرَةً﴾ معناه: تبدو لكم مخايله ومباديه ثم تتوالى حتى تنزل. قال الحسن بن أَبي الحسن: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأَة، و﴿جَهْرَةً﴾ نهاراً، قال مجاهد: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأَة آمنين، و﴿جَهْرَةً﴾ وهم ينظرون.

وقرأَ ابن مُحَيْصِنْ: [هَلْ يهْلِكُ] على بناءِ الفعل للفاعل، والمعنىٰ هل تهلكون إِلا أَنتم لأَن الظلم قد تبين في حيّزكم. و[هَلْ] ظاهرها الاستفهام ومعناها التسوية المضمنة للنفي، ولا تكون التسوية بها إلا في النفي، وتكون بالألف في نفي وفي إِيجاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية. المعنىٰ: إِنما نرسل الأَنبياءَ المخصوصين بالرسالة ليبشروا بإِنعامنا ورحمتنا لمن آمن، وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ولسنا نرسلهم ليقترح عليهم الآيات ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق. ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن وأَصلح في امتثال الطاعات، وأَوعد الذي سلك طريق النذارة فكذب بآيات الله وفسق أَي: خرج عن الحدِّ في كفرانه وعصيانه، وقال ابن زيد: «كل فسق في القرآن فمعناه الكذب»، ذكره عنه الطبري مسنداً، و﴿يَمَسُّهُمُ﴾ أي: يباشرهم ويلصق بهم. قرأَ الحسن والأَعمش ﴿ٱلْعَذَابُ بِمَا﴾ بإدغام الباءِ في الباءِ، ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَ يحيى بن وثاب والأَعمش: [يَفْسِقون] بكسر السين، وهي لغة.

---

(١) هذا البيت لِعَدِيِّ بن الرقاع. والمعنىٰ: يُعْرِضْنَ عن كل سُوءٍ يتحاشاه الناس، وفي المعنىٰ جاء قوله تعالىٰ: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرضون وينفرون.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

هذا من الردّ على القائلين: «لولا أُنزل عليه آية» والطالبين أَن ينزل ملك أَو تكون له جنة أَو أَكثر أَو نحو هذا، والمعنىٰ: لستُ بهذه الصفات فيلزمني أَن أُجيبكم باقتراحاتكم.

وقوله: ﴿ لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ يحتمل معنيين أَظهرهما: أَنه يريد أَنه بشر لا شيءَ عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئاً مما غيب عنه، والآخر: أَنه ليس بإِلٰه، فكأَنه قال: لا أَقول لكم إِني أَتَّصف بأَوصاف إِلٰه في أَن عندي خزائنه وأَني أَعلم الغيب. وهذا هو قول الطبري.

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أَن الملَك أَفضل من البشر، وليس ذلك بلازم في هذا الموضع، وإِنما الذي يلزم منه أَن الملَك أَعظم موقعاً في نفوسهم وأَقرب إِلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاءً خفياً، وهو ظاهر من آيات أُخر، وهي مسألة خلاف[(1)].

و﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ يريد القرآن وسائر ما سيأْتي به المَلك، أَي وفي ذلك عِبَرٌ وآيةٌ لمن تأَمل ونظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ الآية. أَي: قل لهم: إِنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات مع المُعْرِض الكافر المهمل للنظر، فالأَعمى والبصير مثالان للمؤمن

---

(1) احتج من فضل الملائكة بأنهم: ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ و﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ـ وبآيتنا هذه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ وبما ورد في البخاري: يقول الله عزَّ وجلَّ: «مَنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم» ـ واحتج من فضَّلَ بني آدم بقوله تعالىٰ: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البريئة﴾ بالهمز، مِن: برأَ الله الخلق، وبما جاءَ في أَحاديث من أَن الله تعالىٰ يُباهي بأَهل عرفات الملائكة. وقال بعض العلماء: لا طريق إِلى القطع برأي في ذلك لأَن طريق ذلك خبر الله تعالىٰ وخبر رسوله أَو إِجماع الأمة، وليس ها هنا شيءٌ من ذلك. وهناك من يفرق بين الأَنبياء والأَولياء من البشر ومن الملائكة وبين سائر الناس. والله أَعلم.



والكافر، أي: ففكِّروا أنتم وانظروا، وجاءَ الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتخصيص.

﴿ وَأَنذِرْ ﴾ عطف على ﴿ قُلْ ﴾، والنبي عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع التخصيص هنا بحسب المعنى الذي قصد، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليأس في الأغلب عن هؤلاءِ الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً: ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)]، فكأنه قيل له هنا: قل لهؤلاءِ الكفرة المعرضين كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم، وأنذره بالقرآن هؤلاءِ الآخرين الذين هم مظنَّة الإيمان وأهل للانتفاع، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام ثابت مستقر[(٢)]، والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ عائد على ما ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴾، و﴿ يَخَافُونَ ﴾ على بابها في الخوف، أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، وربَّ متحقق لشيءٍ مخوف وهو ـ لِقِلَّةِ النظر والحزم ـ لا يخافه ولا يستعدُّ له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال الطبري: وقيل: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ هنا بمعنىٰ يعلمون، وهذا غير لازم، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يعُمّ بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني.

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يحتمل معنيين ـ فإن جعلناه داخلاً في الخوف كان في موضع نصب على الحال، أي: يخافون أن يحشروا في حال مَنْ لا وليَّ له ولا شفيع، فهي مختصَّة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارىٰ يزعمون أن لهم شفعاءَ وأنهم أبناءُ الله ونحو هذا من الأباطيل، وإن جعلنا قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ إخباراً من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامةٌ للمسلمين وأهل الكتاب، و[لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] ترجٍّ على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم.

---

(١) من الآية (٦) من سورة (البقرة).

(٢) روىٰ أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الموالي، منهم بلال، وصهيب، وخبَّاب، وعمار، ومهجع، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة. تفسير «البحر المحيط».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أُمور الدنيا: بلال وعمار وابن أُم عبد ومرثد الغنوي وخباب وصهيب وصبيح وذو الشمالين والمقداد ونحوهم.

وسبب الآية أَن الكفار قال بعضهم للنبي ﷺ: نحن لشرفنا وأَقدارنا لا يمكننا أَن نختلط بهؤلاءِ، فلو طردتهم لأَتبعناك وجالسناك، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود[(١)]. وقيل: إنما قال هذه المقالة أَبو طالب على جهة النصح للنبي ﷺ، قال له: لو أَزلت هؤلاءِ لاتَّبعك أَشراف قومك. وروي أَن ملأَ قريش اجتمعوا إِلى أَبي طالب في ذلك، وظاهر الأَمر أَنهم أَرادوا بذلك الخديعة، فصوب هذا الرأْيَ من أَبي طالب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وغيره من المؤمنين فنزلت الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِن بعض الكفار إِنما طلب أَن يُؤَخر هؤلاءِ عن الصف الأَول في الصلاة، ويكونون هم موضعهم ويؤمنون إِذا طرد هؤلاءِ من الصف الأَول فنزلت الآية. أَسند الطبري إِلى خباب بن الأَرت أَن الأَقرع بن حابس ومن شابهه من أَشراف العرب قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا منك مجلساً لا يخالطنا فيه العُبُد والحلفاءُ، واكتب لنا كتاباً فهمَّ النبي ﷺ بذلك فنزلت الآية[(٢)].

---

(١) أَخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، وأَبو نعيم في الحلية ـ عن عبد الله بن مسعود ـ قال: مرَّ الملأُ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاءِ المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أَهؤلاءِ منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأَنزل فيهم القرآن: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ـ (الدر المنثور ٣ـ ١٢ـ ١٣). هذا وقد روي مثل هذا الحديث عن عكرمة، وعن خباب، وعن مجاهد، وعن الربيع بن أنس.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجة، وأبو يعلى، وأَبو نعيم في الحلية، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ـ عن خباب قال: جاءَ الأَقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب في=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل بعيد في نزول الآية، لأن الآية مكية وهؤلاءِ الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة. وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم، ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة اللّهم إلا أن تكون الآية مدنية، قال خباب رضي الله عنه: ثم نزلت ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية، فكنا نأتي فيقول لنا: (سلامٌ عليكم) ونقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾[1] الآية، فكان يقعد معنا، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتىٰ يقوم.

و﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشيا. وقيل بل قوله: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلا، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت، والمراد ـ على هذا التأويل ـ قيل: هو الصلوات الخمس، قاله ابن عباس وإبراهيم، وقيل: الدعاءُ وذكر الله واللفظة على وجهها. وقال بعض القصاص: إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشيا، فأنكر ذلك ابن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا: إنما الآية في الصلوات في الجماعة. وقيل: قراءَة القرآن وتعلمه، قال: أبو جعفر، ذكره الطبري، وقيل: العبادة، قاله الضحاك.

وقرأ أبو عبد الرحمن، ومالك بن دينار، والحسن، ونصر بن عاصم، وابن عامر: [بالغُدْوَةِ والعَشِيِّ]، وروي عن أبي عبد الرحمن [بالغُدُوِّ] بغير هاءٍ، وقرأ ابن أبي عبلة: [بِالغُدُواتِ والعَشِيَّات] بألف فيهما على الجمع. وغدوة: معرفة لأنها جعلت علماً

= أُناس ضعفاءَ من المؤمنين، فلما رأَوهم حوله حَقَّروهم، فأَتوه فخلوا به فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضْلنا، فإن وفود العرب ستأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأَعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً، فدعا بالصحيفة، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناهُ وهو يقول: سلامٌ عَليكم كَتَبَ ربّكمُ على نفسهِ الرَّحْمَةَ، فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ الآية: قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد (ذلك) فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم. (الدر المنثور).

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الكهف).



لوقت من ذلك اليوم بعينه، وجاز إدخال الألف واللام عليها كما حكىٰ أبو زيد: «القيته فينةَ» غير مصروف، و«الفينة بعد الفينة» فألحقوا لام المعرفة مااستعمل معرفة، وحملاً على ما حكاه الخليل أنه يقال: «لقيته اليوم غدوةً» منوناً، ولأن فيها مع تعيين اليوم إمكان تقدير معنى الشياع، ذكره أبو علي الفارسي.

و﴿ وَجْهَهُۥ ﴾ ـ في هذا الموضع ـ معناه: جهة التزلُّف إليه، كما تقول: «خرج فلانٌ في وجه كذا» أي: في مقصد وجِهَة.

و﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾[1] معناه: لم تكلَّف شيئاً غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر أن يكون الضمير في ﴿ حِسَابِهِم ﴾ و﴿ عَلَيْهِم ﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي ما عليك منهم آمنوا أو كفروا فتطرد هؤلاءِ رعياً لذلك، والضمير في [فتطردهم] عائد على الضعفة من المؤمنين. ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاءِ أبداً سبب ما قبلها، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين. وحكىٰ الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا، أي: لا ترزقهم ولا يرزقونك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا تجيءُ الضمائر كلها للمؤمنين، وذكره المهدوي، وذُكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور، و﴿ مِنْ ﴾ الأُولى للتبعيض والثانية زائدة مؤكدة، وقوله: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ ﴾، وقوله: ﴿ فَتَكُونَ ﴾ جواب النهي في قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ﴾. و﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ معناه: الذين يضعون الشيءَ غير مواضعه[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ الآية. ﴿ فَتَنَّا ﴾ ـ في هذه الآية ـ معناه: ابتلينا، فابتلاءُ المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى، وابتلاءُ

---

(١) من اللطائف الدقيقة ما ذكره صاحب «البحر المحيط» هنا حيث قال: «وانظر إلى حسن اعتنائه تعالىٰ بنبيّه بخطابه حيث بدأ به في الجملتين معاً» فقال: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ فقدم خطابه في الجملتين، وكان مقتضى التركيب الأول ـ لو لوحظ ـ أن يكون التركيب الثاني: «وما عليهم من حسابك من شيءٍ» لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم، واعتناءً بمخاطبته، وفي هاتين الجملتين ردّ العجز على الصدر، ومنه قول الشاعر:

لَيْسَ الَّذي حَلَّلْتَهُ بِمُحَلَّلٍ ... ولَيْس الَّذي حَرَّمْتَهُ بِمُحَرَّمِ

(٢) وحاشا أن يقع الرسول ﷺ في ذلك، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل الإسلام، وهذا مثل قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾، وقد علم الله منه أنه لا يُشرك ولا يَحْبَط عمله.



المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيِّه قدراً ومنزلة. والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة، و﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي لام الصيرورة كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] أي: ليصير مآله أن يكون لهم عدوا، وقول المشركين ـ على هذا التأويل ـ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزء، ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ على بابها في لام (كي)، وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها، وتكون سبب إيمان مَنْ سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية ـ على هذا التأويل ـ: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاءِ المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك، ويكون سبب نظر لمن هدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتأويل الأول أسبق، والثاني يتخرَّج، و﴿مَنَّ﴾ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي: هؤلاءِ منَّ الله عليهم بزعمهم أن دينهم مِنَّة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: يا أيها المسْتَخفُّونَ أو المتعجبون ـ على التأويل الآخر ـ ليس الآمر أمر استخاف ولاتعجُّب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته، وبالمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجاءَ إعلامهم بذلك في لفظ التقدير، إذ ذلك بيِّن لا تمكنهم فيه معاندة[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم الذين كانوا عُرض طردهم

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٢) الاستفهام في قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟ معناه التقرير والرد على القائلين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾. ولفظ الشكر هنا في غاية من الحُسْن، إذ قد تقدم في قولهم «مَنَّ» بمعنى أَنْعَمَ فناسب الإنعام لفظ الشكر.



فنهى الله عزَّ وجلَّ عن طردهم، وشفع بأَن أَمر بأَن يسلّم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤنسهم.

وقال عكرمة، وعبد الرحمن بن زيد: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوَّبوا رأْي أَبي طالب في طرد الضعفة فأَمر الله نبيَّه أَن يسلِّم عليهم ويُعْلِمَهم أَن يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوءِ وغيره.

وأَسند الطبري عن ماهان أَنه قال: نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي ـ على هذا ـ تعم جميع المؤمنين دون أَن تُشير إِلى فرقة.

وقال الفُضَيل بن عِيَاض: قال قوم للنبي ﷺ: إِنَّا قد أَصبنا ذُنوباً فاستغفر لنا. فأَعرض عنهم، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يعُمُّ القرآن وأَيضاً علامات النبوة كلها. و﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ابتداءٌ، والتقدير: سلام ثابت أَو واجب عليكم، والمعنىٰ: أَمَنَةٌ لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وقيل: المعنىٰ: إِن الله يسلِّم عليكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاه المهدوي. ولفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاءُ، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالنَّكرة إِذ قد تخصصت، و﴿كَتَبَ﴾ بمعنى أَوجب، والله تعالىٰ لا يجب عليه شيءٌ عقلاً إِلا إِذا أَعلمنا أَنه قد حتم بشيءٍ ما فذلك الشيءُ واجب. وفي: أَين هذا الكتاب؟ اختلاف ـ قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب غيره لقوله عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري: (إِنَّ الله تبارك وتعالىٰ كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إِنَّ رحمتي سبقت غضبي)[1].

---

(١) الحديث في الصحيحين، ورواه الإمام أحمد عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أَبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي). وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم ابن أبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذا فرغ الله من القضاءِ بين الخلق أَخرج كتاباً من تحت العرش: إن رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم=



وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة في الأولى والثانية، فـ ﴿أَنَّهُ﴾ الأُولى بدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ و﴿أَنَّهُ﴾ الثانية خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: فأَمره أنه غفور رحيم، هذا مذهب سيبويه. وقال أَبو حاتم: ﴿فَأَنَّهُ﴾ ابتداء، ولا يجوز هذا عند سيبويه، وقال النحاس: هي عطف على الأُولىٰ وتكرير لها لطول الكلام، قال أَبو علي: ذلك لا يجوز لأَن ﴿مَنْ﴾ لا يخلو أَن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إِلى خبر، أَو تكون شرطية فتحتاج إِلى جواب، وإِذا جعلنا ﴿فَأَنَّهُ﴾ تكريراً للأُولى عطفاً عليها بقي المبتدأ بلا خبر، أَو الشرط بلا جواب، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [إِنَّهُ] بكسر الهمزة في الأُولى والثانية، وهذا على جهة التفسير لِـ ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ في الأُولى والقطع فيها، وفي الثانية ـ إِما في موضع الخبر أَو موضع جواب الشرط، وحكم ما بعد الفاءِ إِنما هو الابتداءُ، وقرأَ نافع بفتح الأُولىٰ وكسر الثانية، وهذا على أَن أَبْدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ واستأْنف بعدالفاءِ، وقرأَت فرقة بكسر الأُولى وفتح الثانية، حكاه الزهراوي عن الأَعرج، وأَظُنُّه وهماً لأَن سيبويه حكاه عن الأَعرج مثل قراءَة نافع، وقال أَبو عمرو الداني: قراءَة ضد قراءَة نافع.

والجهالة ـ في هذا الموضع ـ تعُمُّ التي تُضاد العِلْم والتي تُشَبَّه بها، وذلك أَن المتعمِّد لفعل الشيءِ الذي قد نهي عنه تشمل معصيته تلك جهالة، إِذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم. قال مجاهد: «من الجهالة أَلاَّ يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أَن يركب الأَمر». ومن هذا الذي لا يُضاد العِلْم قول النبي ﷺ في استعاذَته: (أَنْ أَجْهل أَو يُجْهل عَلَيّ)[1]، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَــنْ أَحَــدٌ عَلَيْنَــا ... فَنَجْهَـلَ فَـوْقَ جَهْـلِ الْجَـاهِلِينَـا[2]

= الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله). (ابن كثير).

(١) الحديث: (اللَّهمَّ إِني أَعوذ بك أَن أجهل أو يُجهل عليَّ إلى آخره). رواه ابن ماجه في (دعاء)، وأبو داود في (الأَدب) والنسائي في (الاستعاذة) والترمذي في (دعوات).

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

أَلا هُبِّــي بِصَحْنِــكِ فَــاصْبَحِينَــا ... ولا تُبْقِــي خُمــورَ الأَنْــدَرِينَــا

ومعنى قوله: «فنجهلَ فوقَ جهْلِ الجاهلينا» أننا نهلكهم ونعاقبهم بما هو أعظم من جهلهم، وقد نسب الجهل إلى نفسه وهو يريد المعاقبة الشديدة ليزدوج اللفظان فتكون اللفظة الثانية مثل اللفظة الأولىٰ مع=

والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملة، والجهالة الحقيقية يعذر بها في بعض ما يخف من الذنوب، ولا يعذر بها في كبيرة.

والتوبة: الرجوع، وصِحَّتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيءِ الذي تيب منه.

والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين وبيان فساد منزع العارضين لذلك. وتفصيل الآيات: تَبْيِينُها وشرحها وإظهارها، واللام في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها».

وقرأ نافع: [وَلِيَسْتَبِينَ] بالياءِ أي النبي ﷺ [سَبِيلَ] بالنصب، حكاه مكي في «المشكل» له، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ برفع (السبيل) وتأنيثها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحمزة، والكسائي: [ولِيَسْتبينَ سَبيلُ] برفع (السبيل) وتذكيرها، وعرب الحجاز تؤنث (السبيل)، وتميم وأهل نجد يذكِّرونها. وخص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال، وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات ردّ عليهم، وأيضاً فتبيْين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين، وتأول ابن زيد أن قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني به الآمرين بطرد الضعفة.

قال عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أَمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أَن يجاهرهم بالتَّبري مما هم فيه، و﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ هو بتأْويل المصدر، والتقدير: «عن عبادة»، ثم حذف الجار فتسلط الفعل، ثم وضع ﴿أَنْ

= اختلاف المعنى، لأن ذلك أخف على اللسان، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فسمّى المعاقبة على العدوان عدواناً مع أن هذه المعاقبة عدل وحق، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ والثانية ليست سيئة في الحقيقة.



﴿أَعْبُدَ﴾ موضع المصدر. وعبَّر عن الأصنام بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، ويحتمل أن يريد: تدعون في أُموركم، وذلك من معنى العبادة واعتقادها آلهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، وقرأ يحيىٰ بن وثاب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وطلحة بن مصرف: [ضَلِلْتُ] بكسرها، وهما لغتان، و[إذاً] في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها، فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير: «إن فعلت ذلك». و[أهْواء] جمع هوى وهو الإرادة والمحبة في المرديات من الأُمور، هذا غالب استعمال الهوى، وقد تقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الآية. هذه الآية تمادٍ في إيضاح مباينته لهم، والمعنى: «قل إني على أمر بيِّن»، فحذف الموصوف ثم دخلت هاءُ المبالغة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾(١)، ويصح أن تكون الهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ مجردة للتأنيث، وتكون بمعنى البيان كما قال: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٢)، والمراد بالآية: إني أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلْم علىَ بيِّنة من ربي. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على (بيِّن) في تقدير هاءْ المبالغة، أو على البيان التي هي (بيِّنة) بمعناه في التأويل الآخر، أو على الرَّبّ، وقيل: على القرآن وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه الصلاة والسلام فيصح عود الضمير عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وللنبي عليه الصلاة والسلام أُمور أُخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها، كتكليم الحجارة له، ورؤيته للمَلك قبل الوحي، وغير ذلك.

وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على ﴿مَا﴾ والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين، وقيل: المراد بها العذاب، وهذا يترجح بوجهين: أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ يتضمن أنكم

---

(١) الآية (١٤) من سورة (القيامة).

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (الأنفال).



واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب، لأن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال. وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي القضاءُ والإنفاذُ، [يَقُصُّ الْحَقَّ] أي يخبر به. والمعنى: يقص القصص الحق.

وهذه قراءَة ابن كثير، وعاصم، ونافع، وابن عباس. وقرأَ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، [يَقْضِ الْحَقَّ][1] أَي: ينفذه. وترجح هذه القراءَة بقوله: ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأَن الفصل مناسبٌ للقضاءِ، وقد جاءَ أَيضاً الفصل والتفصيل مع القصص. وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [وَهُوَ أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ]، قال أبو عمرو الداني: وقرأَ عبد الله، وأُبي، ويحيىٰ بن وثاب، وإِبراهيم النخعي، وطلحة، والأَعمش: [يَقْضي بِالْحَقِّ] بزيادة باءِ الجر، وقرأَ مجاهد، وسعيد بن جبير: [يَقْضِي الحق وهو خير الفاصلين].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ الآية. المعنى: لو كان عندي الآيات المقترحة، أَو العذاب ـ على التأْويل الآخر ـ لَقُضِي الأَمر، أَي لَوَقَع الانفصال، وتم النزاع لظهور الآية المقترحة، أَو لنزول العذاب، بحسب التأْويلين. وحكىٰ الزهراوي أَن المعنىٰ: لقامت القيامة، ورواه النقاش عن عكرمة، وقال بعض الناس: معنىٰ ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَي: لَذُبِحَ المَوْتُ[2].

---

(١) [يَقْضِ] بالضاد المعجمة، قال القرطبي: «وكذلك قرأ علي رضي الله عنه، وأَبو عبد الرحمن السُّلَمِيَ، وسعيد بن المسيّب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياءٍ، ولا ينبغي الوقوف عليه، وهو من القضاء».
وقال الفخر الرازي: «[يقض» بغير ياءٍ، لأَنها سقطت لالتقاء الساكنين، كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ و ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.
وفي «البحر المحيط»: [يقضي الحَقّ] هي قراءَة العربيين والأَخوين، أي: يقضي القضاءَ الحق في كل ما يقضي فيه من تأْخير أو تعجيل. وضمَّن بعضهم [يقضي] معنى (ينفذ) فعداه إلى مفعول به، وقيل: يقضي بمعنى يصنع، أي كل ما يصنعه فهو حق. قال الهذلي:

وعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... داودُ أَوْ صَنَعَ السَّوابغَ تُبَّعُ

أي: صنعهما: وقيل: حذف الباء والأصل: [بالْحَقّ] ويؤيده قراءَة عبد الله، وأُبي، وابن وثاب، والنَّخعي، وطلحة، والأَعمش: [يَقْضي بالحَقّ] بياءِ الجر، وسقطت الباءُ خطّاً لسقوطها لفظاً لالتقاء الساكنين».

(٢) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف جداً، لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾(١) وذَبْح الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضع دون شبه، وأسند الطبري هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة، والظن بابن جريج أنه إنما فسَّر الذي في يوم الحسرة، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾.

﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع مِفْتَح(٢)، وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولو كان جمع مِفْتاح لقال: مفاتيح. ويظهر أيضاً أن (مَفَاتح) جمع مَفتح بفتح الميم، أي مواضع تفتح عن المغَيَّبات، ويؤيد هذا قولُ السدي وغيره: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب، فأما مِفْتح بالكسر فهو بمعنى مفتاح، قال الزهراوي: ومِفْتح أفصح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الإشارة

= الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النار يُجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح هو الذي بياضه أكثر من سواده، وقيل: النقي البياض ـ فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ـ وقد خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، والترمذي عن أبي سعيد برفعه، وقال فيه: حديث حسنٌ صحيح.

(١) من الآية (٣٩) من سورة (مريم).

(٢) المِفْتح بكسر الميم، والمِفتاح: مفتاح الباب، وكل ما فُتح به الشيءُ، قال سيبويه: هذا الضرب مما يُعْتَمل مكسور الأول، كانت فيه الهاءُ أو لم تكن، والجمع: مفاتيح ومفاتح أيضاً. قال الأخفش: هو مثل أَماني وأمانيّ، يخفف ويُشدَّد. (اللسان) ـ مادة فتح ـ قارن هذا بما ذكره ابن عطية. وقال أبو حيان في «البحر»: المفاتح: جمع مِفْتح بكسر الميم وهي الآلة التي يفتح بها ما أُغلق، ثم نقل عن الزهراوي قوله: و«مِفْتح أفصح من مفتاح». وهذا يؤيد كلام ابن عطية.



بـ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، لأنها تعم جميع الأشياءِ التي لم توجد بعد[1]، ثم قوّى البيان بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر. وقوله: ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ على حقيقته في ورق النبات، و﴿مِن﴾ زائدة، و﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يريد: على الإطلاق وقبل السقوط ومعه بعده، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: في أشد حالات التَّغيب. وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر، أي: إذا كانت هذه الأمور الدقيقة معلومة فغيرها من الجلائل أحرى. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على اللَّفظ، وقرأ الحسن، وعبد الله بن أبي إسحق: [ولا رطبٌ ولا يابس] بالرفع عطفاً على الموضع في ﴿وَرَقَةٍ﴾ لأن التقدير: «وما تسقط ورقةٌ»، و﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ على الله عزَّ وجلَّ المحيط بكل شيءٍ. وحكىٰ النقاش عن جعفر بن محمد قولاً: إن الورقة يراد بها السقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحيُّ، واليابس يراد به الميت. وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾ الآية، فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور، إن هذا أيضاً إماتة وبعث على نحو مَّا.

والتَّوفي هو استيفاءُ عدد، قال الشاعر:

---

(١) روى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (مفاتحُ الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله). وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: (من زعم أن رسول الله ﷺ يُخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أ هـ. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.



إِنَّ بَنِي الأَدْرَم لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ ... وَلا تَوفَّاهُم قُرَيْشٌ في العَدَدْ[1]

وصارت اللفظة عرفاً في الموت، وهي في النوم على بعض التجوز.

و﴿جَرَحْتُم﴾ معناه: كسبتم، ومنه جوارح الصيد أَي كواسبه، ومنه جوارح البدن لأَنها كواسب للنفس. ويحتمل أَن يكون ﴿جَرَحْتُم﴾ هنا من الْجَرْح، كأَن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول: «جرح اللسان كجرح اليد»، وروي عن ابن مسعود أَو سلمان ـ شكَّ ابن دينار ـ أَنه قال: «إِن هذه الذنوب جراحاتٌ فمنها شَوَىً[2] ومنها مقتلة، أَلا وإِن الشرك مقتلة».

و﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ يريد الإِيقاظ، ففي ﴿فِيهِ﴾ عائد على النهار[3]، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأَغلب وإِن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر. ويحتمل أَن يعود الضمير على التوفي، أَي: يوقظكم في التوفي، أَي: في خلاله وتضاعيفه، قاله عبد الله بن كثير. وقيل: يعود على الليل، وهذا قلق في اللفظ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله.

وقرأَ طلحة بن مصرف، وأَبو رجاءٍ: [ليقضي أَجلاً مسمىً]، والمراد بالأَجل آجال بني آدم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث النشور، و﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أَي: يعلمكم إِعلامَ توقيف ومحاسبة.

---

(١) البيت لمنْظُور الوَبْري كما في (اللسان) ـ أو العنبري كما في (التاج) ـ وقد روي فيهما (الأدرد) بدالين بينهما راءٌ، ومعناه كما قال صاحب (اللسان): «أَي: لا تجعلهم قريش تمامَ عددهم، ولا تستوفي بهم عددهم». وقال: وأنشده أبو عبيد للدلالة على أن معنى قولك: «توفيت عدد القوم» هو أنك عددتهم كلهم، ثم قال: «وأَما تَوَفِّي النائم فهو استيفاءُ وقت عقله وتمييزه إلى أن نام»، وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هو من توفيه العدد، تأويله أن يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم.

(٢) الشَّوَىٰ: الهَيِّن من الأمر، وفي حديث مجاهد: (كل ما أَصاب الصائم شَوًى إلا الغيبة والكذب فهي له كالمقتل). أراد أن كل شيءٍ أصابه الصائم لا يُبطل صومه فيكون كالمقتل له، إلا الغيبة والكذب فإنهما يبطلان الصوم، فهما كالمقتل له. ومعنى خبر ابن مسعود رضي الله عنه أن الذنوب بعضها هيِّن يسير، وبعضها فيه مقتل للمسلم كالشرك.

(٣) يريد أن يقول: فالضمير في (فيه) عائد على (النهار).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلْقَاهِرُ ﴾ إن أخذ صفة فعل، أَي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أن يجعل ﴿ فَوْقَ ﴾ ظرفية للجهة، لأن هذه الأشياءَ إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وإن أخذ ﴿ ٱلْقَاهِرُ ﴾ صفة ذات بمعنىٰ القدرة والاستعلاءِ فـ ﴿ فَوْقَ ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلوّ القدر والشأن، على حدِّ ما تقول: «الياقوت فوق الحديد».

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه: يبثهم فيكم، و﴿ حَفَظَةً ﴾ جمع حافظ، مثل كاتب وكتبة، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي ﷺ: (تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)[1]، وقاله السدي وقتادة. وقال بعض المفسرين: «حفظة يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله». والأَول أظهر. وكلهم غير حمزة قرأ: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث لفظ الجمع، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[2]، وقرأ حمزة: [تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا]، وحجته أن التأنيث غير حقيقي، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾[3]، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ: تتوفاه، فتكون العلامة مؤنثة، وأَمال حمزة من حيث خط المصحف بغير أَلف، فكأَنها إنما كتبت على الإمالة، وقرأَ الأعمش: [يَتَوَفَّاهُ رُسُلُنَا] بزيادة ياءٍ في أَوله، والتذكير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ رُسُلُنَا ﴾ يريد به على ما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وجميع أَهل التأْويل ملائكة مقترنين بملَك الموت يعاونونه ويأْتمرون له.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ بالتشديد، وقرأَ الأعرج: [يُفْرِطونَ] بالتخفيف،

---

(١) روى البخاري هذا الحديث عن أبي هريرة، ولفظه: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، أتيناهم وهم يصلون). (فتح الباري ٢ـ ٣٣) باب فضل صلاة العصر من كتاب «مواقيت الصلاة».

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (الأنعام).

(٣) من الآية (٣٠) من سورة (يوسف).



ومعناه: يجاوزون الحد مما أُمروا به. قال أَبو الفتح: فكما أَن المعنى في قراءَة العامة: لا يُقَصِّرون، فكذلك هو في هذه: لا يزيدون على ما أُمروا به.

ورجع اللفظ في قوله: ﴿رُدُّوٓاْ﴾ من الخطاب إِلى الغيبة، والضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أَن يعود على العباد فهو إِعلام بردِّ الكل، وجاءَت المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين. و﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ لفظ عام لأَنواع الولاية التي تكون بيد الله، وبين عبيده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك، وقوله: [الحق] نعت لـ [مولاهم] ومعناه: الذي ليس بباطل ولا مجازي. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والأَعمش: [الْحَقَّ] بالنصب، وهو على المدح، ويصح على المصدر. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ابتداءُ كلام مضمنه التنبيه وهزُّ نفس السامع، و﴿ٱلْحُكْمُ﴾ تعريفه للجنس، أَي: جميع أَنواع التصرفات في العباد، و﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ متوجه على أن الله عزَّ وجلَّ حسابه لعبيده صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إِلى إِعداد ولا تكلف، سبحانه لا ربَّ غيره، وقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في حالة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأَوثان، وتوقيفهم على سوءِ الفعل في عبادتهم الأَصنام، وتركهم الذي يُنَجِّي من المهلكات، ويُلْجأُ إِليه في الشدائد.

و﴿مَن﴾ استفهام رفع بالابتداءِ، وقرأَ عاصم وحمزة، والكسائي: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بتشديد الجيم وفتح النون، وقرأَ أَبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه، وحميد بن قيس، ويعقوب: [يُنْجيكُمْ] بتخفيف الجيم وسكون النون، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر بالتشديد في الأُولى والتخفيف في الثانية فجمعوا بين التعدية بالأَلف والتعدية بالتضعيف، كما جاءَ ذلك في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾(١).

(١) الآية (١٧) من سورة (الطارق).



و﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يراد به شدائدها، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظُلْمة حقيقية وما كان بغير ظُلْمة، والعرب تقول: عامٌ أَسود، ويوم مُظْلِم، ويوم ذو كواكب(١)، ونحو هذا يريدون به الشدة، قال قتادة: المعنىٰ: من كُرب البر والبحر، وقاله الزَّجاج. و﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ في موضع الحال، و﴿تَضَرُّعًا﴾ نصب على المصدر والعامل فيه ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾، والتضرع صفة بادية على الإنسان، ﴿وَخُفْيَةً﴾ معناه: الاختفاءُ والسرّ، فكأَن نسق القول: تدعونه جهراً وسرّاً، هذه العبارة بمعان زائدة.

وقرأ الجميع غير عاصم: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاءِ، وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: [وخِفْية] بكسر الخاءِ، وقرأ الأعمش: [وَخيفَة] من الخوف، وقرأ الحجازيون وأَهل الشام: [أَنْجَيْتنَا]، وقرأ الكوفيون: [أَنْجَانا] على ذكر الغائب، وأَمال حمزة، والكسائي الجيم. و﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَي: على الحقيقة، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان، وحكى الطبري في قوله: [ظُلُمات] أَنه ضلال الطريق في الظلمات ونحوه، حكى السدي(٢) أَنه ظلام الليل والغيم والبحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو لفظ عام لأَنواع الشدائد في المعنىٰ، وخص لفظ الظلمات بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ سَبْقٌ في المجادلة إلى الجواب، إذ لا محيد عنه، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ لفظ عام أَيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات، ويصح أَن يتأَول من قوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ تخصيص الظلمات قبْلُ، ونص عليها لهولها. وعطف في هذا الموضع بـ (ثُمَّ) للمهلة التي تُبيِّن قبح فعلهم، أَي: ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه به أَنتم تشركون.

---

(١) أنشد سيبويه:

بَني أسـدٍ هـلْ تَعلمـونَ بَـلاءَنـا ... إذا كـانَ يـومٌ ذُو كـواكـبَ أَشْنَعـا

كأنه لغيبة شمسه وشدة ظلامه بدت فيه الكواكب، ويعنون بذلك أنه شديد عليهم.

(٢) في بعض النسخ: وحكى المهدوي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم، وهو مذهب الطبري، وقال أُبي بن كعب، وأبو العالية، وجماعة معهما: هي للمؤمنين وهم المراد، قال أُبي بن كعب: هي أربع خلال وكلهن عذاب وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، لبسوا شيعاً وأُذيق بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة ـ الخسف والرجم، وقال الحسن بن أَبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين، بعث العذاب من فوق وتحت للكفار وسائرها للمؤمنين. وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين.

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال: (أَعوذ بوجهك)، فلما نزلت: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: (أَعوذ بوجهك)، فلما نزلت: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال: (هذه أهون) أَو (هذه أَيسر)[1]، فاحتج بهذا من قال إنها نزلت في المؤمنين. قال الطبري: وغير ممتنع أن

---

(١) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ الآية، ورواه أيضاً في كتاب التوحيد عن قتيبة، ورواه الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة، ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلي الموصلي، ورواه النسائي في التفسير عن قتيبة، ورواه ابن جرير عن سفيان بن عيينة، ورواه أبو بكر بن مردويه عنه أيضاً. (ابن كثير).

ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة، فقد روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: (سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فقال: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد). وأيضاً روى الإمام أحمد، وابن ماجة في الفتن، وابن مردويه ـ عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله ﷺ فقيل لي: خرج قبْلُ، قال: فجعلت لا أمر بأحد إلا قال لي: مرَّ قبْلُ، حتى مررت فوجدته قائماً يصلي، قال: فجئت حتى قمت خلفه، قال: فأطال الصلاة، فلما قضى صلاته قلت: يا رسول الله، قد صليت صلاة طويلة، فقال رسول الله ﷺ: إني صليتُ صلاة رغبة ورهبة، إني سألت الله عزَّ وجلَّ ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يهلك أُمتي غرقاً=



يكون النبي ﷺ تعوذ لأُمته من هذه الأَشياءِ التي توعد بها الكفار، وهَوّن الثالثة لأَنها بالمعنىٰ هي التي دعا بها فمنع حسب حديث الموطأ وغيره، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها أَسوأُ الثلاث، وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة، والحق أَنها أَيسرها كما قال عليه الصلاة والسلام.

و﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ لفظ عام للمنطبقيْن على الإِنسان، وقال السدي عن أَبي مالك: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ الرجم و﴿مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ الخسف، وقاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ ولاة الجور، و﴿مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ سفلة السوءِ وخدمة السوءِ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها أَمثلة لا أَنها هي المقصود، إِذ هي وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ.

و﴿يَلۡبِسَكُمۡ﴾ ـ على قراءَة السَّبْعَة ـ معناه: يخلطكم ﴿شِيَعٗا﴾ فرقاً يتشيع بعضها لبعض، واللبس: الخلط، وقال المفسرون: هو افتراق الأَهواءِ والقتال بين الأُمة. وقرأَ أَبو عبد الله المدني [يُلْبِسَكُمْ] بضم الياءِ مِنْ: أَلْبَسَ، فهو على هذه استعارة من اللباس، فالمعنىٰ: أَو يُلبسكم الفتنة شيعاً، و﴿شِيَعٗا﴾ منصوب على الحال. وقد قال الشاعر:

لَبِسْتُ أُناساً فأَفْنَيْتُهُمْ . . . .[1]

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة وإِلباس القتل وما أَشبهه من المكاره.

﴿وَيُذِيقَ﴾ استعارة إِذ هي من أَجل حواس الاختبار، وهي استعارة مستعملة في كثير

= فأعطاني، وسألته ألا يظهر عليهم عدو ليس منهم فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فردَّها عليَّ).

(١) هذا صدر بيت للنابغة الجعدي: والبيت بتمامه:

لبِسْتُ أُناساً فأَفْنَيْتُهُم ... وأَفْنَيْتُ بعدَ أُناس أُناساً

وبعده: ثلاثة أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ ... وكان الإلهُ هو المُسْتَآسَا

قال في (اللسان): يقال: لبست امرأةً أي: تمتعت بها زمناً، ولبستُ قوماً، أي: تملَّيْتُ بهم دهراً، وتلبَّس حُب فلانة بدمي ولحمي أي: اختلط، وأنشد أبو حنيفة:

تَلَبَّسَ حُبها بِدمي وَلَحْمي ... تَلَبُّس عِطْفَةٍ بِفُروع ضالِ



من كلام العرب وفي القرآن، وقرأ الأعمش: [وَنُذيق] بنون الجماعة، وهي نون العظمة في جهة الله عزَّ وجلَّ، وتقول: أذقتُ فلاناً العلقم، تريد كراهة شيءٍ صنعته به، ونحو هذا.

وفي قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ الآية استرجاع لهم، وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي ﷺ فمُضَمَّنُها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لا ستصرافهم عن طريق غيِّهم، والفقه: الفهم.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على القرآن الذي فيه جاءَ تصريف الآيات، قاله السدي، وهذا هو الظاهر، وقيل: يعود على النبي ﷺ، وهذا بعيد لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله: ﴿قَوْمُكَ﴾، ويحتمل أن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية، ونحا إليه الطبري، وقرأ ابن أبي عبلة: [وَكَذَّبَتْ به قَوْمُكَ] بزيادة تاءٍ، و﴿بِوَكِيلٍ﴾ معناه: بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى، والوكيل بمعنى الحفيظ، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ، وقيل: لا نسخ في هذا إذ هو خبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ ليس الآن، وليس فيه أنه لا يكون في المستأنف، وقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي غاية يعرف عندها صدقه من كذبه، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد محض ووعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

لفظ هذا الخطاب محرر للنبي ﷺ وحده، واختلف في معناه ـ فقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، لأن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه، وقيل: بل المعنىٰ أيضاً أُريد به النبي ﷺ وحده، لأن قيامه عن المشركين كان يشق



عليهم، وفراقه لهم على مغاضبة، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأُمر النبي ﷺ أن ينابذهم بالقيام عنه إِذا استهزءُوا وخاضوا ليتأدبوا بذلك، وَيَدَعوا الخوض والاستهزاءَ، وهذا التأْويل يتركب على كلام ابن جرير يرحمه الله.

والخوض أَصله في الماءِ ثم يستعمل بعد في غمرات الأَشياءِ التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماءِ.

﴿وَإِمَّا﴾ شرط، وتلزمها النون الثقيلة في الأَغلب، وقد لا تلزم كما قال:

إِمَّـا يُصِبْـك عَـدُوٌّ فـي مُنَـاوَأَةٍ . . . . [1]

إلى غير ذلك من الأَمثلة. وقرأَ ابن عامر وحده[2] [يُنَسِّيَنَّك] بتشديد السين وفتح النون، والمعنىٰ واحد إِلا أَن التشديد أَكثر مبالغة[3].

والذكرى والذكر واحد في المعنىٰ وإِنما هو تأْنيث لفظي، ووصْفهم هنا بـ ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ متمكن لأَنهم وضعوا الشيءَ في غير موضعه، و﴿أَعْرِضْ﴾ في هذه الآية بمعنى المفارقة على حقيقة الإِعراض وأَكمل وجوهه، ويدل على ذلك ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ الآية، المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ عائد على ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ومن قال إِن المؤمنين داخلون في قوله: [فأعرض] قال: إن النبي ﷺ داخل في هذا القصد بـ (الذين يتقون) والمعنى عندهم على ما روي أَن المؤمنين قالوا لما نزلت: ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ معهم إِذ كنا لا نقرب المشركين ولا نسمع أَقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاءُ عبادة في الحرم فنزلت لذلك ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) هذا صدر بيت، وقد ذكره القرطبي كاملاً في تفسيره، وذكره الشوكاني أَيضاً في «فتح القدير»، ولفظه في القرطبي:

إِمَّـا يُصِبْـك عَـدوٌّ فـي مُنَـاوأةٍ ... يـومـاً فقـد كنْـتَ تَسْتَعْلـي وتَنْتَصـر

ولفظه في فتح القدير:

إِمَّـا يُصِبْـك عـدوٌّ فـي مُنَـازلـةٍ ... يـومـاً فقـل كيْـفَ يَسْتَعْلـي ويَنْتَصِـر؟

(٢) في القرطبي: «وقرأَ ابن عباس وابن عامر».

(٣) قال القرطبي: يقال: نَسَّىٰ، وأَنسىٰ بمعنى واحد، لغتان، قال الشاعر:

قـالـتْ سُلَيْمـى أَتَسْـري الْيـومَ أَمْ تَقِـل ... وقـد يُنَسِّيـكَ بعـضَ الحـاجَـةِ الكَسَـلُ

وقال امرؤُ القيس:

ومثلِـكِ بيْضـاء العَـوارضِ طَفْلَـةٍ ... لَعـوبٍ تُنَسِّينـي إذا قُمْـتُ سِرْبـالـي

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إِليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقال بعض من يقول «إِن النبي ﷺ داخل في ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإِن المؤمنين داخلون في الخطاب الأَول»: هذه الآية الأَخيرة ليست إِباحة بوجه، وإِنما معناها: لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءَهم وخوضهم، وليس نهيكم عن القعود لأَن عليكم شيئاً من حسابهم وإِنما هو ذكرى «لكم»، ويحتمل المعنىٰ أَن يكون «لهم» لعلهم إِذا جانبتموهم يتقون بالإِمساك عن الاستهزاءِ، وأَما من قال: «إِن الخطاب الأَول هو مجرد للنبي ﷺ لثقل مفارقته مغضباً على الكفار» فإِنه قال في هذه الآية الثانية: إِنها مختصة بالمؤمنين، ومعناها الإِباحة، فكأَنه قال: فلا تقعد معهم يا محمد، وأَما المؤمنون فلا شيءَ عليهم من حسابهم فإِن قعدوا فليذكِّروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَشار إِليه النقاش ولم يوضحه، وفيه عندي نظر، وقال قائل هذه المقالة: إِن هذه الإِباحة للمؤمنين نسخت بآية النساءِ قولِهِ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾[1]، وكذلك أَيضاً من قال أَولاً: «إِن الإِباحة كانت بحسب العبادات» يقول: إِن هذه الآية التي في النساء ناسخة لذلك إِذ هي مدنية، والإِشارة بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ إِليها بنفسها فتأَمله، وإِلا فيجب أَن يكون الناسخ غيرها. و﴿ذِكْرَىٰ﴾ ـ على هذا القول ـ يحتمل أَن يكون: ذكِّروهم ذكرى، ويحتمل: ولكن أَعرضوا متى أَعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، و﴿ذِكْرَىٰ﴾ ـ على كل قول ـ يحتمل أَن تكون في موضع نصب بإِضمار فعل، أَو رفع بإِضمار مبتدأ.

وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأَهل الجدال والخوض فيه، وحكى الطبري عن أَبي جعفر أَنه قال: لا تجالسوا أَهل الخصومات فإِنهم الذين يخوضون في آيات الله.

---

(١) من الآية (١٤٠) من سورة (النساء).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

هذا أمر بالمتاركة(١)، وكان ذلك بحسب قلة أَتباع الإِسلام حينئذ. قال قتادة: ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال. وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالىٰ: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾(٢)، وليس فيه نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد. وقوله: ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يريد: إذ يعتقدون أَن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: خدعتهم، من الغرور هو الإِطماع بما لا يتحصل، فاغتروا بنعم الله ورزقه وإِمهاله، وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتخرج في ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ هنا وجه آخر من الغَرِّ بفتح الغين(٣)، أَي: ملأَت أَفواههم وأَشبعتهم، ومنه قول الشاعر:

وَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا بِالحُلَيْبَةِ غَرَّنِي ... بِمَعْرُوفِهِ حَتَّى خَرجْتُ أَفُوقُ(٤)

ومنه: غرَّ الطائر فرخه، ولا يتَّجه هذا المعنىٰ في تفسير غرَّ في كل موضع.

وأَضاف الدين إِليهم على معنى أَنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً، ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً. والضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد على الدين، وقيل: على القرآن.

---

(١) عبارة «البحر المحيط»: «هذا أمر بتركهم»، وهي المراعية لقواعد اللغة، إلا إذا كانت المفاعلة على غير بابها.

(٢) الآية (١١) من سورة (المدثر).

(٣) في بعض النسخ: «من الغَرور بفتح الغين» وما أَثبتناه يتفق مع ما في «البحر المحيط»، وما في «اللسان» و«القاموس»، قال في (اللسان): «وغَرَّ الطائر فرخه يغرُّه غِراراً أي زقَّه»، وفي حديث معاوية قال: «كان النبي ﷺ يغُرّ علياً العلم، أي يُلقمه إياه. . .» ثم قال: «والغَرُّ: اسم ما زقَّتْهُ به، وجمعه: غُرور». أ هـ.

(٤) لم نعثر على نسبة هذا البيت في المراجع التي بين أيدينا، وقد روي (بالجُنينة) بجيم ونونين، وروي (بالحَنِيَّة) المهملة ونون بعدها ياءٌ مشددة، ورواه الألوسي وحاشية الشهاب (بالعشيَّة).



و﴿أَن تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول، أَي: لئلا تبسل، أَو كراهية أَن تبسل، ومعناه: تُسْلَم، قاله الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تُحْبَس وتُرْتَهَن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُفْضح، وقال الكلبي وابن زيد: تُجْزَى. وهذه كلها متقاربة بالمعنىٰ(١)، ومنه قوله الشَّنْفَري:

هُنـالِـك لا أَرْجـو حيـاةً تسـرُّنـي ... سميرَ اللَّيـالـي مُبْسَلاً بـالجـرائـر(٢)

وقال بعض الناس: هو مأخوذ من البَسل، أَي من الحرام كما قال الشاعر:

بكَرَت تلومُكَ بعْدَ وهْن في النَّدى ... بَسْـلٌ عليْـكِ مَـلامَتي وعِتَـابـي(٣)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

و﴿نَفْسٌ﴾ تدلُّ على الجنس، ومعنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إِليه لئلا تبسل نفس التارك للإِيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإِسلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال، و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغاية، ويجوز أن تكون زائدة، و﴿دُونِ﴾ ظرف مكان، وهل لفظة تقال باشتراك، وهي ـ في هذه الآية ـ الدالة على زوال من أُضيفت إِليه من نازلة القول، كما في المثل: «وأَمِرَّ دُونَ عُبَيْدَةَ الْوَذَمُ»(٤).

---

(١) ذلك لأن الإِبْسال معناه: تسليم المرءِ للهلاك، وقال أَبو منصور: لئلا تسلم نفس إِلى العذاب بعملها، قال النابغة الجعدي:

ونَحْـنُ رهَنَّـا بـالأُفـاقَـةِ عـامـراً ... بمـا كـانَ فـي الـدَّرْداءِ رهْنـاً فـأُبْسِـلا

والأُفاقة: موضع في أرض الحزن قرب الكوفة، ويوم الأُفاقة من أيام العرب، والدرداءُ: كتيبة كانت لهم.

(٢) رواه في (اللسان): «مُبْسَلا لجرائري». ثم شرحها فقال: «أي مُسْلَما».

(٣) أنشده أَبو زيد لضَمْرَة النَّهْشَلي. كما قال في (اللسان)، ومثله في أن البسل بمعنى الحرام قول الأَعشىٰ:

أَجَـارَتُكُـمْ بَسْـلٌ عَلَيْنَـا مُحَـرَّمُ ... وَجَـارَتُنَـا حِـل لَكُـمْ وحَليلُهَـا؟

والبَسْل من الأَضداد، فكما أَنه بمعنى الحرام فهو أيضاً بمعنى الحلال، قال ابن همام:

أَيُثْبَـتُ مـا زدْتُـم وتُلْغَـى زيـادَتـي؟ ... دَمِـي إِنْ أُحِلَّـتْ هـذِهِ لكُـمْ بَسْـلُ

أي حلال، والمعنى لا يسوّغ أن تكون بمعنى الحرام.

(٤) أَمِرَّ: أُحْكِمَ، والوَذَم: السَّيْر بين آذان الدلو وعراقيها تُشَدّ بها ويجمع على أَوْذُم وأَوْذَام وجمع الجمع أَوَاذِم، وهو مثل يضرب لمن أُحْكم أَمْرٌ دونه. (أمثال الميداني ٢ـ ٢٨٥).

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: وإن تعط كل فدية وإن عظمت فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها، وحكى الطبري عن قائل أن المعنىٰ: وإن تَعْدل من العَدْل المضاد للجور، ورَدَّ عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل، والقول نصٌّ لأبي عبيدة. والعِدل في اللغة مماثل الشيءِ من غير جنسه، وقيل: العِدْل بالكسر: المثل، والعَدْل بالفتح: القيمة، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله: ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾، و﴿أُبْسِلُواْ﴾ معناه: أُسْلموا بما اجترحوه من الكفر. والحميم: الماءُ الحار، ومنه الحمَّام والحَمَّة[1]، ومنه قول أبي ذؤيب:

. . . . إلا الحميم فإنَّهُ يَتَبَضَّعُ[2]

و﴿أَلِيمٌۢ﴾ فعيل بمعنى مُفْعِل، أي: مُؤْلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

المعنى: قل في احتجاجك: أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله؟ والدعاءُ يعم العبادة وغيرها، لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإيَّاه يعبد وعليه يتكل. ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني الأصنام، إذ هي جمادات: حجارة وخشب ونحوه. وضرر الأصنام في

---

(١) عن (اللسان): قال ابن سيدة: الحمّام: الديماس مشْتق من الحميم، مذكّر تذكّره العرب، وهو أحد ما جاءَ من الأسماء على فعّال نحو القذّاف والجبّان، والجمع: حمامات ـ والحَمَّةُ: عين ماءٍ حار يُستشفى بالغسل منه، وفي الحديث: (مثَل العالم مثَل الحَمَّة يأتيها البعداءُ ويتركها القرباءُ، فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم، وبقي أقوام يتفكنُّون، أي يتندَّمون). والحديث لا أصل له.

(٢) البيت بتمامه:

تأبى بدِرَّتها إذا ما استُغْضِبَتْ ... إلا الحَميم فإنَّهُ يَتَبَضَّعُ

يصف الفرس عندما تحملها على أكثر مما تطيق من الجري بأن تضربها بالسوط مثلاً، =

الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال: ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ تشبيه، وذلك أَن المردود على العقب وهو أَن يكون الإِنسان يمشي قُدُما ـ هي المشية الجيدة ـ فيرد يمشي القهقرى ـ هي المشية الدنية ـ فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إِلى شر، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدىٰ إِلى عبادة الأَصنام. و﴿هَدَىٰنَا﴾ بمعنى أَرشدنا. قال الطبري وغيره: الردُّ على العقب يستعمل فيمن أَمَّل أَمراً فخاب أَملُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول قلق.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ الآية. الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: ردّاً كرد الذي. و﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ استفعلته بمعنى استدعت هواه وأَمالته، قال أَبو عبيدة: ويحتمل هُوِيَّة وهو جده وركوب رأْسه في النزوع إِليهم، والهويّ من هوى يهوي، يستعمل في السقوط من علو إِلىٰ أَسفل، ومنه قول الشاعر:

هَـوَى ابنـي مـن ذرى شـرفٍ فـزلَّـت رجْلُـه ويَـدُه

وهذا المعنىٰ لا مدخل له في هذه الآية إلا أَن تُتأَول اللفظة بمعنى: أَلقته الشياطين في هُوَّة، وقد ذهب إِليه أَبو علي وقال: هو بمعنىٰ أَهوى كما أَن استزل بمعنى أَزل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتحرير أَن العرب تقول: هوىٰ، وأَهواه غيره، واستهواه بمعنى طلب منه أَن يهوي هو، أَو طلب منه أَن يهوى شيئاً. ويستعمل الهوىٰ أَيضاً في ركوب الرأْس في النزوع إِلى الشيء، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[1]، ومنه قول شاعر الجن:

تَهْـوِىٰ إِلـى مكَّـةَ تَبْغِـي الْهُـدَىٰ مـامُـؤْمِـنُ الجِـنِّ كَـأَنْجَـاسِهَـا[2]

= فإن عزَّة نفسها تدفعها إلى مالا يعرف قدره من الجري، وهي عندئذ تأبى إلا أن تعرق عرقاً حارّاً كالحميم يتبضَّع من جسمها أي يسيل قليلاً قليلاً. عن (التاج).

(١) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم).

(٢) يروى البيت: «ما مؤمنو الجن ككفّارها» كما جاء في «البحر المحيط».

وهذا المعنىٰ هو الذي يليق بالآية.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وقرأ الحسن: [اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطون]، قال بعض الناس: هو لحن. وليس كذلك بل هو شاذٌ قبيح، وإنما هو محمول على قولهم: سنون وأرضون إلا أن هذه في جمع مسلم وشياطون في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ، وقرأ حمزة: [اسْتَهْواهُ الشَّياطينُ] وأَمال [اسْتَهْواه]، وقرأ أَبو عبد الرحمن السلمي، والأَعمش، وطلحة: [اسْتَهْويه الشَّيطانُ] بالياءِ وإِفراد [الشَّيطان]، وذكر الكسائي أَنها كذلك في مصحف ابن مسعود.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحكم بأَن ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ إنما هو بمعنى استدعت هُوِيَّه الذي هو الجدُّ في النزوع، و﴿حَيْرَانَ﴾ في موضع الحال، ومؤنثه (حيْرى) فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة، ومعناه: ضالاً متحيِّراً، وهو حال من الضمير في ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، والعامل فيه ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾، ويجوز أَن يكون من ﴿كَٱلَّذِى﴾ والعامل فيه المقدر بعد الكاف، وقوله: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ يقتضي أَنه كان على طريق فاستدعته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فسياق هذا المثل كأَنه قال: أَيصلح أَن يكون بعد الهدى نعبد الأَصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إِلى دعوتهم فبقي حائراً؟ وقوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ يحتمل أَن يريد: له أَصحاب على الطريق الذي خرج منه، فيشبه بالأَصحاب ـ على هذا ـ المؤْمنون الذين يدعون من ارتد إِلى الرجوع إِلى الهدى، وهذا تأْويل مجاهد، وابن عباس. ويحتمل أَن يريد: له أَصحاب أَي من الشياطين الدعاة أَو لا يدعونه إِلى الهدىٰ بزعمهم وإِنما يوهمونه، فيشبه بالأَصحاب ـ على هذا ـ الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإِسلام على ارتداده، وروي هذا التأْويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً.

و﴿ٱئْتِنَا﴾ من الإِتيان بمعنىٰ المجيءِ، وفي مصحف عبد الله [إِلى الهدى بيِّنا][1]،

---

(١) في بعض النسخ: «إِلى الهُدى ديناً»، والذي أَثبتناه عن نسخ أُخرى يتفق مع ما في الطبري، وما في القرطبي، أما عبارة «البحر» فتختلف عن ذلك كله إذ يقول: «وفي مصحف عبد الله (أَتيْنا) فعلا ماضياً لا أمراً، فـ[إِلى الهُدىٰ] متعلق به، وفي «الدر المنثور» أن ابن جرير، وابن الأنباري أخرجا عن أبي إِسحق=

وهذه تؤيد تأويل من تأول ﴿ٱلْهُدَى﴾ حقيقة إخباراً من الله تبارك وتعالىٰ: وحكى مكي وغيره أن المراد بـ ﴿كَٱلَّذِى﴾ في هذه الآية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وبالأصحاب أبوه وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول القائل: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾[1] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قالت: (كذبوا ما نزل فينا من القرآن شيءٌ إلا براءَتي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه الإمام أبا عبد الله المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول: من نازع أحداً من الملحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث، فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله: «ائتنا»، ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزائغ فهو يخاف عليه أن يضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا انتزاع حسن جداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الآية. من قال: «إن الأصحاب هم من الشياطين المستهزئين، وتأول ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ بزعمهم» قال: إن قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ردٌّ عليهم في زعمهم، فليس ما زعموه صحيحاً، وليس بهدي، بل هو في نفسه كفر وضلال، وإنما الهدى هدى الله، وهو الإيمان. ومن قال: «إن الأصحاب هم على الطريق المدعو إليها، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم، وإن الهدى هو هدى على حقيقته» يجيءُ على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى: إن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس بنفس دعائهم تقع الهداية، وإنما يهتدي بذلك الدعاءِ من هداه الله تعالىٰ بهداه.

= قال: «في قراءَة عبد الله: (إلى الهدى بيِّنا)».

(١) من الآية (١٧) من سورة (الأحقاف).

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ اللام لام كي[(١)]، ومع (أَن) مقدرة، ويقدر مفعول لِـ ﴿وَأُمِرْنَا﴾ مضمر تقديره: وأُمرنا بالإخلاص أَو بالإيمان ونحو هذا، فتقدير الجملة كلها: وأُمرنا بالإخلاص لأَن نُسْلم»، ومذهب سيبويه في هذا أَن ﴿لِنُسْلِمَ﴾ هو موضع المفعول، وأَن قولك: «وأُمرت لأَقوم» و«أُمرت أَن أَقوم» يجريان سواءً، ومثله قول الشاعر:

أَرَدْتُ لأَنسـىٰ ذكـرهـا... . . . .[(٢)]

إلى غير ذلك من الأَمثلة، و﴿لِنُسْلِمَ﴾ يعم الدين والاستسلام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ يتجه أَن يكون بتأْويل. «وإقامة» فهو عطف على المفعول المقدر في ﴿وَأُمِرْنَا﴾، وقيل: بل هو معطوف على قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾ تقديره: «لأَن نسلم وأَن أَقيموا».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول الزجاج، واللفظ يمانعه، وذلك أَن قوله: «لأَنْ نُسْلِمَ» معرب، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ مبني، وعطف المبني على المعرب لا يجوز، لأَن العطف يقتضي التشريك في العامل، اللهم إلا أَن تجعل العطف في (أَن) وحدها، وذلك قلق، وإنما يتخرج على أَن يقدر قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ بمعنىٰ: لنقيم، ثم خرجت بلفظ الأَمر لما في

---

(١) قال النحاس: سمعت أَبا الحسن بن كيسان يقول: هي لام الخفض، واللامات كلها ثلاث: لام خفض، ولام أمر، ولام توكيد، ولا يخرج شيءٌ عنها.

(٢) سبق الكلام عن هذا البيت، وهو بتمامه:

أُريـد لأَنْسـى ذكـرهـا فكـأَنمّـا ... تَمَثَّـلُ لـي لَيْلَـى بكـلِّ سَبيـل

قال أبو حيان: «وما ذكره ابن عطية عن سيبويه ليس كما ذكر، بل ذلك مذهب الكسائي والفراءِ، زعما أَن لام (كي) تقع في موضع (أن) في أردت وأمرت»، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ «أُريد لأنسىٰ» ـ وردَّ عليهما أبو إسحق، ثم ذكر مذهب سيبويه فارجع إليه في «البحر المحيط ٤ـ ١٥٩».



ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن نلغي حكم اللفظ ونُعول على المعنىٰ. ويشبه هذا من جهة ما حكاه يونس عن العرب: «ادخلوا الأَولُ فالأَولُ» برفع لفظ (الأول)، فإنما هو بأَن يقدر: (ادخلوا) بمعنى: ليدخل الأَولُ وإِلاَّ فليس يجوز إِلا: ادخلوا الأَولَ فالأَولَ بالنصب[1]. وقال الزجاج أَيضاً: يحتمل أَن يكون ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ معطوفاً على ﴿ائْتِنَا﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيه بُعْد:

والضمير في قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عائد على ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ابتداءُ وما بعده خبره، وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآية. ﴿خَلَقَ﴾ ابتدع وأَخرج من العدم إِلى الوجود، و﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي: لم يخلقها باطلاً لغير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيِّنة، منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأَرزاق وغير ذلك، وقيل: المعنىٰ: بأَن حق له أَن يفعل ذلك، وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بكلامه في قوله للمخلوقات ﴿كُن﴾ وفي قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتحرير القول أَن المخلوقات إِنما إِيجادها بالقدرة لا بالكلام، واقتران ﴿كُن﴾ بحالة إِيجاد المخلوق فائدته إِظهار العزَّة والعظمة ونفوذ الأَوامر وإِعلان القصد، ومثال ذلك في الشاهد أَن يضرب إِنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه: انكسر،

---

(١) علَّق أَبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وهذا الذي استدركه ابن عطية بقوله: اللهم إلا أن إلى آخره هو الذي أراده الزجاج بعينه، وهو أَنَّ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ معطوف على [أَن نُسلم]، وأَن كلاهما علة للمأمور به المحذوف». ثم قال: «وأما تشبيه ابن عطية بقوله: ادخلوا الأولُ فالأَولُ بالرفع فليس يشبهه، لأَن (ادخلوا) لا يمكن ـ لو أُزيل عنه الضمير ـ أن يتسلط على ما بعده، بخلاف (أَنْ) فإنها توصل بالأَمر، فإذاً لا شبه بينهما». (البحر المحيط ٤ـ ١٦٠).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (فُصِّلت): ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.



فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد، ولله المثل الأعلى، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغير، أمره واحد كلمح بالبصر، فكأن معنىٰ الآية على هذا القول: هو الذي خلق السموات والأرض بقوله كن المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك بالحق.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ نصب على الظرف، وهو متعلق بمعمول فعل مضمر تقديره: «واذكر الخلق والإعادة يومَ». وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها: واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد: كن معادة، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا ثم يبدأ بإخبار أنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ ابتداءٌ وخبر، أو على الاحتمال الذي قبله، فـ ﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل، قال الزجاج: قوله: ﴿يَوْمَ﴾ معطوف على الضمير من قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، فالتقدير هنا على هذا القول: «واتقوا العقاب أو الأهوال والشدائد يوم»، وقيل: إن الكلام معطوف على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾، والتقدير ـ على هذا ـ: «وهو الذي خلق السموات والأرض والمعادات إلى الحشر يوم»، ولا تجوز أن تعمل هذه الأفعال ـ لا تقديرك: اذكر، ولا: اتَّقوا، ولا: خلق ـ في ﴿وَيَوْمَ﴾ لأن أسماءَ الزمان إذا بنيت مع الأفعال فلا يجوز أن تنصب إلا على الظرف، ولا يجوز أن يتعلق ﴿وَيَوْمَ﴾ بقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما نقدمه، وقد أطلق قوم أن العامل: اذكر أو خلق. ويحتمل أن يريد بـ ﴿يَقُولُ﴾ معنى المضي كأنه قال: «وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق يوم يقول ـ بمعنى قال لها: كن». فـ ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف معطوف على موضع قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ إذ هو في موضع نصب، ويجيءُ تمام الكلام في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويجيءُ ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ ابتداءً وخبراً، ويحتمل أن يتم الكلام في ﴿كُن﴾ وَيُبْتدأ ﴿فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وتكون ﴿فَيَكُونُ﴾ تامة بمعنىٰ يظهر، و﴿الْحَقُّ﴾ صفة لِلْقول، و﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل. وقرأ الحسن: [قُولُهُ] بضم القاف، و﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، ﴿وَيَوْمَ﴾ بدل من الأولىٰ على أنَّ ﴿يَقُولُ﴾ مستقبل، لا على تقدير مُضِيِّه. وقيل: بل متعلق بما تضمن ﴿الْمُلْكُ﴾ من معنى الفعل، أو بتقدير: «ثابت أو مستقر يوم» و﴿فِي الصُّورِ﴾ قال أبو عبيدة: هو جمع صورة، فالمعنى: يوم تعاد العوالم، وقال الجمهور: هو الصور، القرن الذي قال

النبي ﷺ: (إنه ينفخ فيه للصعق ثم للبعث)(١)، ورجحه الطبري بقول النبي ﷺ: (إن إسرافيل قد التقم الصور وحنَى جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ)(٢). وقرأ الحسن: [في الصُّوَر] بفتح الواو، وهذه تؤيد التأويل الأول، وحكاه عمرو بن عبيد عن عياض، ﴿عَٰلِمُ﴾ رفع بإضمار مبتدأ، وقيل: نعت لـ ﴿ٱلَّذِى﴾، وقرأ الحسن والأعمش: [عالِمِ] بالخفض على النعت للضمير الذي في ﴿وَلَهُ﴾، أو على البدل منه من قوله ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، وقد رويت عن عاصم، وقيل: ارتفع ﴿عَٰلِمُ﴾ بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره: «ينفخ فيه عالمُ» على ما أنشد سيبويه:

لِيُبْـكَ يـزيـدُ ضـارعٌ لِخُصـومَـةٍ ... وآخـرُ مِمَّـن طـوَّحَتْـهُ الطَّـوائِـحُ(٣)

التقدير: يبكيه ضارع. وحكى هذا التأويل الذي يشبه (لِيُبْكِ يزيدٌ) عن ابن عباس، ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾(٤) بضم الزاي ورفع (الشركاءِ)، وروي عن عبد الوارث عن أَبي عمرو: [يوم نَنْفُخُ في الصُّورِ] بنون العظمة.

و﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ معناه: ما غاب عنا وما حضر، وهذا يعُمُّ جميع الموجودات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

العامل في ﴿۞ وَإِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: واذكر أو قُص. قال الطبري: نبَّه الله

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنَّه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبَّان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث ـ عن عبد الله بن عمرو قال: (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال: هو قرن ينفخ فيه). (الدر المنثور).

(٢) أخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في البعث ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف أَنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغىٰ بسمعه ينظر متى يؤمر) قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: (قولوا: حسْبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا). (الدر المنثور).

(٣) البيت للحارث بن نُهيك، وهو كما في كتاب سيبويه:

لِيُبْـكَ يـزيـدُ ضـارعٌ لِخُصـومـةٍ ... ومُخْتبـطٌ مِمَّـا تُطيـحُ الطـوَّائِـحُ

والمختبط: الطالب المعروف، وتطيح: تذهب وتُهلك. وصفه بأنه كان مقيماً لحجة المظلوم ناصراً له.

(٤) من الآية (١٣٧) من سورة (الأنعام).



تبارك وتعالىٰ محمداً ﷺ على الاقتداءِ بإبراهيم عليه السلام في محاجته قومه إذ كانوا أَهل أَصنام، وكان قوم محمد ﷺ أَهل أَصنام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس يلزم هذا من لفظ الآية، أَما إن جميع ما يجيءُ من مثل هذا عُرضة للاقتداء.
وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿ ءَازَرَ﴾ بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراءِ، قال السدي، وابن إسحق، وسعيد بن عبد العزيز: هو اسم [أبي] إبراهيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد ثبت أَن اسمه تَارَح[1]، فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل، وهو في الإعراب ـ على هذا ـ بدل من الأَب المضاف في موضع خفض، وهو اسم علم. وقال مجاهد: بل هو اسم صنم، وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «أَتتخذ آزر؟ أَتتخذ أَصناماً؟».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ضعف.

وقال بعضهم: بل هو صفة، ومعناه هو المعوج المخطىءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا بأَن ﴿ ءَازَرَ﴾ إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أَن تنبعث المعرفة بالنكرة، ويوجه ذلك على تحامل بأَن يقال: زيدت فيه الأَلف واللام وإن لم يلفظ بها، وإلى هذا أَشار الزجاج لأَنه قدر ذلك فقال: لأَبيه المخطىء، وبأَن يقال: إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره: أَذمُّ المعوجّ أَو المخطىء، ولا تبقى فيه الصفة بهذا الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وقيل: نصبه على الحال كأَنه قال: وإذ قال إبراهيم لأَبيه وهو في

(١) في كتاب «الجمل»: «ضبطه بعضهم بالحاءِ المهملة، وبعضهم بالخاءِ المعجمة»، وهكذا في كثير من التفاسير.



حال عوج وخطأ، وقرأ أُبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم بضم الراءِ على النداءِ، ويصح ـ مع هذا ـ أَن يكون (آزر) اسم أَبي إِبراهيم، ويصح أَن يكون بمعنى المعوج والمخطىء. وقال الضحاك: (آزر) بمعنى: شيء، ولا يصح مع هذه القراءة أن يكون (آزر) صفة، وفي مصحف أُبي رضي الله عنه: «يا آزر» بثبوت حرف النداءِ «اتخذت أَصناماً»؟ بالفعل الماضي. وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أَيضاً: [أَأَزْراً تَتَخِذُ]؟ بأَلف الاستفهام وفتح الهمزة من (أَزْراً) وسكون الزاي ونصب الراءِ، وتنوينها وإِسقاط أَلف الاستفهام من ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، ومعنى هذه القراءَة: أَعَضُداً وقوة ومظاهرة على الله تعالىٰ تتخذ، وهو من نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾[1]، وقرأ أَبو اسماعيل ـ رجلٌ من أَهل الشام ـ بكسر الهمزة من هذا الترتيب، ذكرها أَبو الفتوح، ومعناها أَنها مبدلة من واو كوسادة وإِسادة، فكأَنه قال: أَوِزْراً ومأْثماً تتخذ أَصناماً؟ ونصبه ـ على هذا ـ بفعل مضمر، ورويت أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقرأ الأَعمش: «إِزْراً تَتَخِذُ» بكسر الهمزة وسكون الزاي دون أَلف توقيف. و﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ مفعولان.

وذكر أَن (آزر) أَبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً، وكان نُمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده (آزر) لذلك، وكان على خطة عمل الأَصنام، تُعمل بأَمره وتدبيره، ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عنده، وحينئذٍ يعبد ذلك الصنم، فلما نشأ ابنه إبراهيم على الصفة التي تأْتي بعد كان أَبوه يكلفه بيعها، فكان إِبراهيم ينادي عليها: من يشتري ما يضرُّه ولا ينفعه؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ويقول: اشربي فلما شهر أَمره بذلك وأَخذ في الدعاء إِلى الله تعالىٰ قال لأَبيه هذه المقالة.

و﴿أَرَىٰكَ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يشترك فيها البصر والقلب، لأَنها رؤْية قلب ومعرفته وهي متركبة على رؤْية بصر. و﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضح ظاهر، وهو من أَبان الشيءُ إذا ظهر، ليس بالفعل المتعدي المنقول من: بانَ يَبين[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يكون المنقول، ويكون المفعول مقدراً تقديره: في ضلال مبين كفركم.

---

(١) الآية (٣١) من سورة (طه).

(٢) يقال: أبان الشيءُ فهو مبين بمعنىٰ: اتَّضح، قال الشاعر:

لَــوْ دبَّ ذرٌّ فــوقَ ضــاحــي جِلْــدِهــا ... لأَبــانَ مِــن آثــارِهــنَّ حُــدورُ

وقيل: كان آزر رجلاً من أَهل كوثا من سواد الكوفة، قال النقاش: وبها وُلِدَ إِبراهيم عليه السلام، وقيل: كان من أهل حَرَّان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، الآية المتقدمة تقتضي بهداية إبراهيم عليه السلام، والإشارة هنا بـ [ذَٰلِكَ] هي إلى تلك الهداية، أَي: وكما هديناه إلى الدعاءِ إِلى الله وإنكار الكفر أَريناه ملكوت. و﴿ نُرِيٓ ﴾ لفظها الاستقبال ومعناه المضي، وحكى المهدوي أَن المعنىٰ: وكما هديناك يا محمد فكذلك نُري إِبراهيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه، و﴿ نُرِيٓ ﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير، فهي إِمَّا من رؤْية البصر، وإِما من (أرىٰ) التي بمعنى عرف، ولو كانت من (أرىٰ) بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تتعدى إلى مفعولين لوجب أَن تتعدى (أُري) إلى ثلاثة مفاعيل، وليس كذلك، ولا يصح أَن يقال: إن الثالث محذوف، لأَنه لا يجوز حذفه إِذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع، وإنما هي من علم بمعنى عرف، ثم نقلت الهمزة فتعدت إلى مفعولين، ثم جعلت (أَرىٰ) بمنزلتها في هذه الحال.

وهذه الرؤْية ـ قيل: رؤْية البصر، وروي في ذلك أَن الله عزَّ وجلَّ فَرَجَ لإبراهيم السموات والأَرضين حتى رأَى ببصره الملكوت الأَعلىٰ والملكوت الأَسفل[1]، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدركه غيره قبله ولا بعده، وهذا هو قول مجاهد، قال: تفرجت له السموات والأَرضون فرأَى مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبير، وسلمان الفارسي. وقيل: هي رؤْية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤْية القلب ما لم يقع لأَحد من أَهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره، ففي هذا تخصيص مّا على جهة التقييد بأَهل زمنه، وقيل: هي رؤْية قلب رأَى بها ملكوت السموات والأَرض بفكرته ونظره، وذلك ولا بد متركب على ما تقدم من رؤْيته ببصره وإِدراكه في الجملة بحواسه.

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مجاهد.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان الأخيران يناسبان الآية[(١)]، لأن الغاية التي نصبت له إنما هي أن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثرة، والإشارة لا محالة إلى من قبله من الأنبياء والمؤمنين وبعده، واليقين يَقَع له ولغيره بالرؤية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إله إلاَّ هو.

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بناءُ مبالغة كَجَبَرُوت وَرَهَبُوت وَرَحَمُوت. وقال عكرمة: هو مَلَكُوثي باليونانية أو بالنبطية، وقرأ [مَلَكُوثَ] بالثاءِ مُثَلَّثَة، وقرأ أبو السّمال: [مَلَكُوْتَ] بإسكان اللام، وهي لغة، ومَلَكوت بمعنى: الملك، والعرب تقول: «لفلان ملكوت اليمن» أي: ملكه.

واللام في ﴿وَلِيَكُونَ﴾ متعلقة بفعل مؤَخَّر تقديره: «وليكون من الموقنين أريناه»، والموقن: العالم بالشيءِ علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك، وقال الضحاك، ومجاهد أيضاً: إن الإشارة ها هنا بمكلوت السموات هي إلى الكوكب والشمس والقمر، وهذا راجع وداخل فيما قدمناه من أنها رؤْية بصر في ظاهر الملكوت. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قال: جلَّى له الأُمور سرَّها وعلانيتها فلم يخف عليه شيءٌ من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالىٰ: «إنك لا تستطيع هذا» فردَّه لا يرى أعمالهم[(٢)].

---

(١) قال ابن كثير يوضح المعنى المقصود من الآية: «أي نُبَيِّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه»، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما (الدر المنثور). وفي كتب السنة أحاديث كثيرة في هذا الموضوع. وقد قال ابن كثير: «وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد، وعطاءٍ، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم: قالوا ـ واللفظ لمجاهد ـ: (فرجت له السماء فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع، فنظر إلى ما فيهن، وزاد غيره: فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم، فقال الله له: إني أرحم بعبادي منك، لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا)، وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم». (أ. هـ ـ كلام ابن كثير ٣ـ ٥٤).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

هذه الفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهي ترجح أَن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.

وجنَّ الليل: ستر وغطى بظلامه، ويقال: أَجَنَّ، والأَول أَكثر، ويشبه أَن يكون الجِنُّ والمِجَنّ والجَنَّة والجَنَن وهو القبر مشتقة من جَنَّ إِذا ستر.

ولفظ هذه القصة يحتمل أَن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إِليه ابن عباس، فإِنه قال: رأَى كوكباً فعبده. وقال ناس كثير: إِن النازلة قبل البلوغ والتكليف، ويحتمل أَن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلَّفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إِنه استفهم على جهة التوقيف بغير أَلف، قال: وهذا كقول الشاعر:

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَمْ تُرَعْ ... فقلْتُ وأَنْكَرْتُ الْوُجوهَ هُمُ هُمُ[(١)]

يريد: أَهُمْ هُمْ؟ وكما قال الآخر:

لَعَمْرِكَ ما أَدْري وإِنْ كُنْتُ دارياً ... شُعَيْثُ بنُ سهم أَمْ شُعَيْثُ بنُ مِنْقَرِ؟[(٢)]

يريد: أَشعيث؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والبيت الأَول لا حجة فيه عندي.

وقد حكي أَنَ نُمرود، جَبَّار ذلك الزمن رأَى منجموه أَن مولوداً يولد في سنة كذا في

---

(١) البيت لأَبي خراش الهذلي ـ ورفوني بمعنىٰ: سكنوني من الرعب ـ وقد روي: «لا تُرَعْ» ـ ومثل البيت في حذف همزة الاستفهام قوله تعالىٰ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ أي: أَفَهُمُ الخالدون؟ وقول عمر بن أبي ربيعة:

لَعَمْرُكَ ما أَدْري وَإِنْ كُنْتُ دارياً ... بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بثمانِ؟

يريد: أَبِسَبْعٍ؟

(٢) نسبه في الطبري لأَوس. وشعيث بالثاءِ المثلثة، والأَقرب أن كلمة (ابن) خبر، وأنه لا يعرف أشعيث هذا ابن سهم أم ابن منقر؟ وكان الأَصح أن تكتب بألف كما في التاج، ولكن النسخ التي بيد أيدينا رسمتها بدون ألف.

عمله يكون خراب الملك على يديه، فجعل يتبع الحبالىٰ ويوكل بهن حراساً، فمن وضعت أنثى تركت، ومن وضعت ذكراً حُمِل إلى الملك فذبحه، وأن أُم إبراهيم حملت ـ وكانت شابة قوية ـ فسترت حملها، فلما قربت ولادتها بعثت تارخ أَبا إبراهيم إلى سفر، وتحيلت لمضيِّه إليه، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم، وتركته في الغار وقد هيأت عليه، وكانت تتفقده فتجده يتغذى بأَن يمص أَصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوهما، وحكي: بل كان يغذوه ملَك، وحكي: بل كانت تأْتيه بأَلبان النساء اللائي ذبح أَبناؤُهن، فشبَّ إبراهيم أَضعاف ما يشب غيره، والملِك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه، فمكث في الغار عشرة أَعوام، وقيل: خمس عشرة سنة، وأَنه نظر ـ أَول ما عَقَل ـ من الغار فرأَى الكوكب وجرت قصة الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجلبْتُ هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدتُ استيفاءَ المعاني التي تخص الآية، ويضعف عندي أَن تكون هذه القصة في الغار لقوله في آخرها: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[(١)]، وهي أَلفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا، اللهم إلا أَن يُتَأَول في ذلك أَنه قالها بينه وبين نفسه، أَي قال في نفسه معنى العبارة عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وهذا كما قال الشاعر:

ثُـمَّ انْثَنَـي وقَـالَ فـي التَّفْكِيـرِ ... إِنَّ الحيـاةَ اليَـوْمَ فـي الكُـرورِ

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومع هذا فالمخاطبة تبعده، ولو قال: «يا قوم إني بريءٌ من الإشراك» لصحَّ هذا التأْويل وقوي، فإن قلنا بأَنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين: إما أَن يجعل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تصميماً واعتقاداً، وهذا باطل لأَن التصميم لم يقع في الأَنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإِما أَن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال، كأَنه قال: هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل، ويجيءُ إبراهيم عليه السلام كما قال الله

(١) هذا مذهب التزمه ابن عطية في تفسيره إزاء القصص وغيرها من الإسرائيليات، وقد نبهنا إلى ذلك في المقدمة فارجع إليها لتعرف منهجه.



تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(١)] أي: مهمل المعتقد. وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مُصَمِّماً ولا معرضاً للنظر، لأنها رتبة جهل أو شك، وهو عليه السلام مُنَزَّه معصوم من ذلك كله، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام، كأنه قال لهم: «أهذا المنير ربّي»؟ أو ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وهو يريد: علىٰ زعمكم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾؟[(٢)] فإنما المعنىٰ: على زعمكم. ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأُفوله أَمارة الحدوث. وأنه لا يصح أن يكون رباً، ثم في آخر أَعظم منه، وأحرى كذلك، ثم في الشمس كذلك، فكأنه يقول: فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأَصنامكم التي هي خشب وحجارة أَحرى أن يَبين ذلك فيها، ويُعضد عندي هذا التأويل قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

مثَّل لهم بهذه الأُمور لأَنهم كانوا أَصحاب علم نجوم ونظر في الأَفلاك، وهذا الأَمر كله إنما وقع في ليلة واحدة، أَي الكوكب ـ وهو الزهرة في قول قتادة، وقال السدي: هو المشتري ـ جانحاً للغروب، فلما أَفل بزغ القمر وهو أَول طلوعه، فسرى الليل أَجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوءُ القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أَيضاً من مغربه، فسمى ذلك أُفولاً لقربه من الأُفول التام على تجوز في التسمية، ثم بزغت الشمس على ذلك، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلىٰ عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أَجمع أَهل التفسير إلا في هذه الليالي، وبذلك التجوز في أُفول القمر، و(أَفل) في كلام العرب معناه: غاب، يقال: أَين أَفَلْتَ عنا يا فلان؟ وقيل: معناه ذهب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف في عبارة فقط، وقال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّواتي تَقودُها ... نُجومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوالك[(٣)]

---

(١) الآية (٧) من سورة (الضحىٰ).

(٢) تكررت في الآيات (٢٧) من سورة النحل، و(٥٢) من سورة الكهف، و(٦٢، ٧٤) من سورة (القصص).

(٣) البيت في وصف لإبل، ومصابيح: جمع مِصْباح، والمصباحُ من الإِبل الذي يبرك في مُعَرَّسه فلا ينهض=

وقال: ﴿ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ فجمع بالياءِ والنون لما قصد الأَرباب ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فذكَّر الإِشارة إِليها لما قصد قصد ربّه.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿رَءَا﴾ بفتح الراءِ والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بكسرهما، وقرأ أبو عمرو بن العلاءِ بفتح الراءِ وكسر الهمزة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ الآية. البزوغ في هذه الأَنوار: أَول الطلوع، وقد تقدم القول فيما تدعو إِليه أَلفاظ الآية وكون هذا بالترتيب في ليلة واحدة مع التجوز في أُفول القمر، لأَن أُفوله لو قدرناه مغيبه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار.

و﴿يَهۡدِنِي﴾ يرشدني، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الصغر. والقوم الضالون: عَبَدة المخلوقات كالأَصنام وغيرها، وإِن كان الضلال أَعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾.

لما قصد قصد ربه ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ فذكَّر، أَي: هذا المرئي أَو المنير ونحو هذا، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ لم يبق شيءٌ يمثل لهم به، فظهرت حجته وقوي بذلك على منابذتهم والتَّبرِّي من إِشراكهم.

= حتى يصبح وإِن أُثير، وقيل: المصبح والمصباح من الإِبل: التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النَّهار، وهو يستحب من الإِبل وذلك لقوتها وسمنها، قال مُزَرِّد:

ضربْتُ له بالسَّيف كوْماءَ مِصْبَحاً ... فَشُبَّتْ عليها النَّارُ فهي عَقيرُ

والآفِلاتُ: الغائبات بالغروب، والدَّوالك من قولهم: دَلَكَت الشمس: إِذا غابت أَو دنت من المغيب. (اللسان).



وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الكبر والتكليف، و﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أي: أقبلتُ بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنىٰ المعبر عنه بـ﴿وَجۡهِيَ﴾. و﴿فَطَرَ﴾ معناه: ابتدع في أجرام، و﴿حَنِيفٗاۖ﴾ معناه: مستقيماً، والحنف: الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص، وهو في المعاني مستعار، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي مائل، والمستقيم فيها أحنف على تجوُّز كأنه مال عن كل جهة إلى القَوَام(١).

﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ فاعله من الحجة، قال: أتراجعوني في الحجة في توحيد الله؟ وقرأ قوم: [أَتَحَاجُّونَنَي] بإظهار النونين وهو الأصل، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ بإدغام النون الأُولى في الثانية، وقرأ نافع، وابن عامر: [أَتُحاجُّونِي] بحذف النون الواحدة، فقيل: هي الثانية، وقيل: هي الأُولى ويدل على ذلك أنها بقيت مكسورة، قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن تحذف الأُولى لأنها للإعراب، وإنما حذفت الثانية التي هي توطئة لياء المتكلم. كما حذفت في (لَيْتي)، وفي قول الشاعر:

. . . . يَســوءُ الْغــالِيــاتِ إِذا فَلَيْنــي(٢)

وكسرت ـ بعد ذلك ـ الأُولى الباقية لمجاورتها للياء.

[وَقَدْ هَدَانِ] أي: أرشدني إلى معرفته وتوحيده، وأمال الكسائي: [هَدَانِ]، الإمالة في ذلك حسنه، وإذا جازت الإمالة في «غزا ودعا» وهما من ذوات الواو فهي في (هدان) التي هي من ذوات الياءِ أجوز وأحسن، وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام: خف أن تُصيبك آلهتنا ببَرَص أو داء لإذايتك لها وتنقُّصك، فقال لهم: لستُ

---

(١) أي إلى الاستقامة والاعتدال في الوسط. وهي بالفتح، أما قِوام الأمر بالكسر فمعناها: نظامه وعماده الذي يقوم به، وقد يفتح (اللسان).

(٢) البيت لعمرو بن مَعْد يكرَب، وهو بتمامه كما أنشده سيبويه، وذكره صاحب اللسان:

تَــراهُ كـالثَّغـامِ يُعَـلُّ مِسْكـاً يَســوءُ الغَــالِيــاتِ إذا فَلَيْنــي

الثَّغامُ: نبت أبيض يكون في الجبال، قال عنه في التهذيب: مثل هامة الشيخ، وفي حديث أبي قحافة أنه أتى به يوم الفتح (وكان رأسه ثَغامة) والعلل: الشرب بعد الشُّرب، والمراد هنا: يُطيَّب شيئاً بعد شيء، والغاليات هن النساء، ويقال لهن أيضاً: الغوالي، وأراد فلينني بنونين فحذف إحداهما استثقالاً، يقال: فلَت فلانة رأسه تفليه فلاية إذا بحثت عن القمل.

أَخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة له ولا غناءَ عنده، و﴿ مَا ﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، والضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ يحتمل أَن يعود على الله عزَّ وجلَّ، فيكون ـ على هذا ـ في قوله: ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ ضمير عائد على ﴿ مَا ﴾، وتقدير الكلام: «ولا أَخاف الأَصنام التي تشركونها بالله في الربوبية». ويحتمل أَن يعود الضمير على ﴿ مَا ﴾ فلا يحتاج إِلى غيره، كأَنه التقدير: «ما تشركون بسببه».

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ استثناءٌ ليس من الأَول، و﴿ شَيْـًٔا ﴾ منصوب بـ ﴿ يَشَآءَ ﴾، ولما كانت قوة الكلام أَنه لا يخاف ضراً استثنىٰ مشيئة ربِّه تعالىٰ في أَن يريده بضُرٍّ، و﴿ عِلْمًا ﴾ نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل كما تقول العرب: تَصَبَّبَ زيدٌ عرقاً، والمعنىٰ: تصبب عرق زيد، فكذلك المعنى هنا: وسع علم ربي كل شيءٍ، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ توقيف وتنبيه وإِظهار لموضع التقصير منهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

هذه الآية إِلىٰ ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ هي كلها من قول إِبراهيم عليه السلام لقومه، وهي حجته القاطعة لهم، والمعنىٰ: وكيف أَخاف الأَصنام التي لا خطب لها وهي حجارة وخشب إِذا أَنا نبذتها ولم أُعظمها، ولا تخافون أَنتم الله عزَّ وجلَّ وقد أَشركتم به في الربوبية أَشياءَ لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان: الحُجَّة.

ثم استفهم على جهة التقرير ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾؟ أَي: من لم يشرك بالقادر العالم أَحق أَن يأْمن. وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية. ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿ يَلْبِسُوٓا۟ ﴾ معناه: يخلطوا، والظلم ـ في هذه الآية ـ الشرك، تظاهرت بذلك الأَحاديث عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة أَنه لما نزلت هذه الآية أَشفق أَصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «أَيّنا لم يظلم نفسه»؟ فقال رسول الله ﷺ: (إِنما ذلك كما قال لقمان: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[(1)]. وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ

---

(١) قال القرطبي: وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: ثم ذكر الحديث وفي (الدر المنثور ٣ـ=



في المصحف، فلما أتى عليها عظمت عليه، فلبس رداءه ومرَّ إلى أُبَيّ بن كعب فقال: يا أَبا المنذر، وسأَله عنها، فقال له: إنه الشِّرك يا أَمير المؤمنين، فسُرّي عن عمر[١]، وجرى لزيد بن صوحان[٢] مع سلمان نحو ممَّا جرى لعمر مع أُبي بن كعب رضي الله عنهم. وقرأَ مجاهد: [ولم يلبسوا إيمانهم بشرك]، وقرأَ عكرمة: [يُلْبسوا] بضم الياءِ. و﴿ٱلْأَمْنُ﴾ رفع بالابتداءِ وخبره في المجرور والجملة خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أَي: راشدون.

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: المراد بهذه الآية إبراهيم عليه السلام خاصة، وقال عكرمة: نزلت في مهاجري أَصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، وقالت فرقة: هي من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، فهي من الحجة التي أُوتيها، وقال ابن جريج: هي من قول قوم إبراهيم، ويجيءُ هذا من الحُجَّة أَيضاً أَن أَقَرُّوا بالحق وهم قد ظلموا في الإشراك، وقال ابن إسحق، وابن زيد، وغيرهما: بل ذلك قول من الله عزَّ وجلَّ ابتداءُ حكم فصل عام لوقت محاجة إبراهيم وغيره، ولكل مؤمن تقدم أَو تأَخر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو البيِّن الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسن رصفها، وهو خبر من الله تعالىٰ.

و﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الحجة المتقدمة، وهي رفع بالابتداءِ، و﴿حُجَّتُنَآ﴾ خبره، و﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ في موضع الحال، ويجوز أَن تكون ﴿حُجَّتُنَآ﴾ بدلا من ﴿وَتِلْكَ﴾، و﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ خبر ﴿وَتِلْكَ﴾ و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعول بـ [آتينا]، والضمير

= ٢٦، ٢٧): أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدار قطني في الإفراد، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن مسعود. ولفظه كما رواه: (قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، أَلَمْ تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك).

(١) أخرجه ابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور ـ ٣ـ ٢٧).

(٢) هو زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث، أَبو سليمان. أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. (التاج).



مفعول أيضاً بـ[آتَيْنَا] مقدم، و﴿عَلَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿حُجَّتُنَآ﴾ وفي ذلك فصل كثير، ويجوز أن تتعلق ﴿عَلَىٰ﴾ بـ ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ على المعنى، إذ المعنىٰ: أظهرناها لإبراهيم على قومه، ونحو هذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [نرفع درجاتِ من نشاءُ] بإضافة الدرجات إلى ﴿مَّن﴾، وقرأ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهما مأخذان من الكلام، والمعنىٰ المقصود بهما واحد، و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على قراءة مَن نوَّنَ نصب على الظرفية، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تليق[٢] بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام. والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾، و﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابنه من سارة، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو ابن إسحٰق، و﴿كُلًّا﴾ و﴿وَنُوحًا﴾ منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لقدمه ﷺ، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ المعنىٰ: وهدينا من ذريَّته. والضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ ـ قال الزجاج: جائز أن يعود على إبراهيم، ويعترض هذا بذكر لوط عليه السلام وهو ليس من ذريَّة إبراهيم عليه السلام، بل هو ابن أخيه، وقيل: ابن

---

(١) أي: بالتنوين: وفيها يقع الفعل على [مَنْ] لأنه المرفوع في الحقيقة، والتقدير: ونرفع من نشاءُ إلى درجات، ومن قرأ بغير تنوين، أوقع الفعل على الدرجات، وإذا رفعت فقد رفع صاحبها، ويقويها قوله تعالىٰ: [رَفيعُ الدَّرَجاتِ]. والقراءَتان متقاربتان، وهذا هو ما نبه عليه ابن عطية.

(٢) هكذا في جميع الأصول التي بين أيدينا.



أُخته، ويتخرج عند من يرى الخال أَباً، وقيل: يعود الضمير على نوح، وهذا هو الجيِّد.

و﴿ دَاوُۥدَ ﴾ يقال: هو ابن أَيْشىٰ[1] و﴿ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ ابنه، ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ هو ـ فيما يقال ـ أَيوب بن رازح بن عيصو بن إِسحق بن إبراهيم عليه السلام. ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ هو ابن يعقوب بن إِسحق، ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ ﴾ علهيما السلام هما ابنا عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب. ونصب ﴿ دَاوُۥدَ ﴾ يحتمل أَن يكون بـ ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾، ويحتمل أَن يكون بـ ﴿ هَدَيْنَا ﴾.

وهذه الأَسماءُ كلها فيها العجمة والتعريف، فهي غير منصرفة، وموسىٰ عند سيبويه وزنه مُفعل، فعَلَىٰ هذا ينصرف في النكرة، وقيل: وزنه فُعْلَىٰ، هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وعْدٌ من الله عزَّ وجلَّ لِمَنْ أَحسن في عمله، وترغيب في الإِحسان، ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ عليه السلام ـ فيما يقال ـ هو ابن آذن بن بركنا ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ عليه السلام ابن مريم بنت عمران ابن ياشهم بن أَمون بن حزقياء، ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ عليه السلام هو ابن نسمى بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، ورُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: إِدريس هو إِلياس عليه السلام، وردَّ ذلك الطبري وغيره بأَن إِدريس هو جدُّ نوح عليه السلام، تظاهرت بذلك الروايات، وزكرياءُ قرأته طائفة بالمدِّ، وقرأَته طائفة بالقصر زكريا، وقرأَ ابن عامر باختلاف عنه. والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من إِلياس.

وفي هذه الآية أَن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أَو إِبراهيم عليهما السلام بحسب الاختلاف في عود الضمير من ﴿ ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ وهو ابن ابنته، وبهذا يستدل في الأَحباس على أَن ولد البنت من الذرية. ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ عليه السلام هو أَكبر ولدي إبراهيم عليه السلام، وهو من هاجر. ﴿ وَٱلْيَسَعَ ﴾ قال زيد بن أَسلم: هو يوشع بن نون، وقال: غيره: هو الْيَسَعَ بن أَخطوب بن العجوز، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ وَٱلْيَسَعَ ﴾. وقرأَ حمزة الكسائي: [وَاللَّيْسَع] كأَن الأَلف واللام دخلت على فَيْعَل، قال أَبو علي الفارسي:

---

(١) كتبت في بعض النسخ بالأَلف هكذا (أَيْشا).



فالألف واللام في (الْيَسَعَ) زائدة لا تؤثر معنى تعريف، لأنها ليست للعهد كالرجل والغلام، ولا للجنس كالإنسان والبهائم، ولا صفة غالبة كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون [الْيَسَع] فعلا وحينئذ يجري صفة، وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل، ووجب أن يحكىٰ إذ هي جملة، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له، إذ اللام لا تدخل على الفعل، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: «الخمسة عشر درهماً» وفي قول الشاعر:

يَـــالَيْـــتَ أُمَّ الْعَمْـــرِ كَـــانَـــتْ صَـــاحِبِـــي (١)

بالعين غير منقوطة، وفي قوله:

وَجَـدْنـا الْـوَلِـيـدَ بـنَ الْـيَـزِيـدِ مُـبـاركـاً شَـديـداً بِـأَعْـبَـاءِ الْـخِـلافَـةِ كـاهِـلُـهْ(٢)

وأما (اللَّيْسَعَ) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات، لكنه بمنزلة (الْيَسَع) في أنه خارج عما عليه الأسماءُ الأعجمية، إذ لم يجئْ فيها شيءٌ هو على هذا الوزن، كما لم يجئْ منها شيءٌ فيه لام تعريف، فهما من الأسماءِ الأعجمية إلا أنهما مخالفان للأسماءِ الأعجمية فيما ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما (الْيَزِيد) فإنه لما سمّىٰ به أزيل منه معنى الفعل وأُفردت فيه الاسمية، فحصل فيه العلمية، وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف. وقال الطبري: دخلت الألف واللام إتباعاً للفظ الوليد.

﴿وَيُونُسَ﴾ هو ابن متّىٰ، ويقال: يونُس ويونَس ويونِس، وكذلك يوسُف ويوسَف ويوسِف(٣). وبكسر النُّون من [يُونِس] والسِّين من [يُوسِف] قرأ الحسن، وابن

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشطر ولا على بقية البيت فيما لدينا من المراجع.

(٢) هذا البيت لابن ميّادة، ومثله في زيادة الألف واللام قول ذي الْخَرَق الطّهوي:

فَيُسْتَخْـرَجَ الْيَـرْبُـوعُ مِـنْ نَـافِقَـائِـهِ وَمِـنْ بَيْتِـهِ بِـالشِّيخَـةِ الْيَتَقَصَّـعُ

(٣) أي بالضم والفتح والكسر للنون في (يونس) وللسين في (يوسف).

وقد علّق أبو حيان في «البحر» على ذكر هذه الأسماء فقال: «فهذه مراتب ست: مرتبة الملك والقدرة ذكر فيها داود وسليمان، ومرتبة البلاءِ ذكر فيها أيوب، ومرتبة الجمع بين البلاءِ والوصول إلى الملك ذكر فيها يوسف، ومرتبة قوة البراهين والمعجزات والقتال والصولة ذكر فيها موسى وهارون، ومرتبة الزهد الشديد والانقطاع عن الناس للعبادة ذكر فيها زكريا ويحيى وعيسىٰ وإلياس، ومرتبة عدم الأتباع=

مصرف، وابن وثاب، وعيسى بن عمر، والأعمش في جميع القرآن. و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه: عالمي زمانهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

المعنىٰ: وهدينا من آبائهم وذرِّيَّاتهم وإخوانهم جماعات، فـ [مِنْ] للتَّبعيض، والمراد مَن آمن منهم نبياً كان أو غير نبي، ، يدخل عيسىٰ عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾، ولهذا قال محمد بن كعب: الخال أَب والخالة أُمٌّ.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ معناه: تخيرناهم وأَرشدناهم وضممناهم إلى خاصتنا وأَرشدناهم إلى الإِيمان والفوز برضى الله تعالىٰ، قال مجاهد: معناه: أَخلصناهم.

والذرِّيَّة: الأَبناءُ، ويطلق على جميع البشر ذرِّيَّة لأَنهم أَبناءٌ، وقال قوم: الذُّرِّية تقع على الآباءِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾(١) يراد به نوع البشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ الآية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، وإِضافة الهدى إلى الله إضافة ملك. و﴿حَبِطَ﴾ معناه: تلف وذهب لسوءِ غلب عليه.

و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يراد به الصحف والتوراة والإِنجيل والزبور، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ يراد به اللب والفطنة والفقه في دين الله. و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش المعادين لرسول الله ﷺ وإلى كل كفار في ذلك العصر. قاله قتادة، وابن عباس، والسدي، وغيرهم. و﴿قَوْمًا﴾ يراد به مؤمنو أَهل المدينة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: و[قَوْماً] يراد به مؤمنو أهل المدينة ، قاله ابن عباس ، وقتادة والضحاك ، والسدي ، وغيرهم فالآية ـ على هذا التأويل ـ وإن

= ذكر فيها إسماعيل واليَسع ويونس ولوطاً عليهم السلام».
(١) الآية (٤١) من سورة (يس).



كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعُمُّ الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة. وقال قتادة أَيضاً، والحسن بن أَبي الحسن: المراد بالقوم من تقدم ذكره من الأنبياءِ والمؤمنين. وقال أَبو رجاءٍ: المراد الملائكة، والباءُ في ﴿بِهَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، والباءُ في ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ زائدة للتأكيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لآية. الظاهر في الإشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أنها إلى المذكورين قبلُ من الأنبياءِ ومن معهم من المؤمنين المهديِّين، ومعنى الاقتداءِ: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإِنما يصح اقتداؤه بجميعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأَما أَعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، ويحتمل أَن تكون الإشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمًا﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك يترتب على بعض التأْويلات في المراد بالقوم، ويقلق بعضها.

قال القاضي ابن الباقلاني: واختلف الناس ـ هل كان رسول الله ﷺ قبل مبعثه متعبداً بشرع من كان قبله؟ فقالت طائفة: كان متعبداً، واختلف بشرع من؟ فقالت فرقة: بشرع إبراهيم، وفرقة: بشرع موسىٰ، وفرقة: بشرع عيسىٰ عليهم السلام، وقالت طائفة بالوقف في ذلك، وقالت طائفة، لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله، وهو الذي يترجح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا يحتمل كلام القاضي على أَنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا مُعْتَقَد، لأَنا نجد شرعنا ينبىءُ أَن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام كأَبويه وغيرهما في النار، ولا يدخل الله تعالىٰ أحداً النار إلا بترك ما كلف، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وغير ذلك. وقاعدة المتكلمين أَن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإِنما يوجب الشرع، فالوجه في هذا أَن يقال: إِن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إِلى توحيد الله دعاءً عاماً، واستمر ذلك على العالم، فواجب على

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

(٢) من الآية (١٥) من سورة (الإسراء).



الآدمي البالغ أَن يبحث على الشرع الآمر بتوحيد الله تعالىٰ، وينظر في الأَدلة المنصوبة على ذلك بحسب إِيجاب الشرع النظر فيها، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إِلى العلم بشرع آخر بتوحيد الله، وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً، بل تخلّىٰ، فأُولئِكَ أَهل الفترات الذين أَطلق عليهم أَهل العلم أَنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأَطفال والمجانين، ومن قصَّر في النظر وبالبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار. فالنبي ﷺ قبْل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على أَلْسِنة الأَنبياءِ قبلُ بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إِذ هي مختلفة، وإِذ لم يدعهم إِليها نبي، وأَما بعد مبعث النبي ﷺ فهل هو وأُمته مخاطبون بشرع من تقدم؟ فقالت فرقة: لسنا مخاطبين بشيءٍ من ذلك، وقالت فرقة: نحن مخاطبون بشرع من قبلنا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال من هذه الطائفة إِن محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإِطلاق فقد أَحال، لأَن أَحكام الشرائع تأْتي مختلفة، وإِنما يتخذون قول من قال منها: إِنا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع، وبالآخِر مما اختلفت فيه لأَنه الناسخ المتقدمَ[1]، ويرتكز في صحة نقل ذلك إِلى ما وقع في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ من حكاية أَحكام سالفة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾[2] وكقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[3]، وكحكاية تزويج شعيب ابنته من موسى عليهما السلام، وكحديث النبي ﷺ في قضية سليمان عليه السلام بين المرأتين في الولد ونحو ذلك.

ولا يقتضي قولهم أَكثر من جواز أَن يُتَعَبد بذلك، وأَما وجوب أَن يتعبد فغير لازم، ولا تعلق عندي أَشبه في ذلك من أَن يقال: إِن النبي ﷺ شرع لأُمته أَن يصلي الناس صلاته إِذا ذكرها، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عزَّ وجلَّ لموسىٰ:

---

(١) يريد بالآخِر: المتأَخر ـ فهي بكسر الخاء، وكلمة (المتقدم) مفعول به، والمعنىٰ: ومُتَعَبَّدون بالمتأَخِر الذي اختلف فيه لأَنه هو الذي نسخ المتقدمَ.

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (ص).

(٣) من الآية (١٤) من سورة (طه).



﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٣] فننقل نحن هذا إِلى غير ذلك من النوازل ونقول: إِنه كما شُرع عندنا ذلك المثال في نسيان الصلاة كذلك نشرع هذه الأَمثلة كلها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قياسٌ ضعيف، ولو ذكر النبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٣] على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية، ولا يصح أَن يقال: يصحُّ عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أَسلم منهم كعبد اللهِ بن سلام وغيره صحة نقلها، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إِلى صحة شرع عيسى عليه السلام له[١].

وقرأَ ابن كثير، وأَهل مكة، ونافع، وأَبو عمرو، وأَهل المدينة، وعاصم: ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ بهاءِ السكت ثابتة في الوصل والوقف، وقرأَ حمزة، والكسائي: [اقْتَدِ] قال: بحذف الهاءِ في الوصل وإِثباتها في الوقف، وهذا هو القياس، وهي تشبه أَلف الوصل في أَنها تقطع في الابتداءِ، وتوصل غير مبتدأ بها، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل، وقرأَ ابن عامر: [اقْتَدِهِ] بكسر الهاءِ دون بلوغ الياءِ، قال ابن مجاهد: وهذا غلط لأَنها هاءُ وقف لا تعرب على حال، وقال أَبو علي: ووجه ذلك أَن تكون ضمير المصدر كأَنه قال: «اقتد الاقتداءَ»، وقرأَ ابن ذكوان على هذه: [اقْتَدِهِ] بإِشباع الياءِ بعد

---

(١) الآراء التي ذكرها في قضية: هلْ نحن مُتعَبَّدون بشرع من كان قبلنا؟ ـ آراءٌ جديرة بالنظر وبالبحث، ولكن للعلماء آراءٌ أُخرى جديرة أَن يهتم بها الباحثون، والذي يميل إليه معظم أَصحاب مالك والشافعي أَنه يجب علينا اتباع شرائع الأَنبياء السابقين فيما لم يرد فيه نصٌّ محتجين بأَحاديث كثيرة منها ما جاءَ في صحيح مسلم وغيره أَن أُخت الرُّبَيِّع أُم حارثة جرحت إنساناً فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (القصاصَ القصاصَ)، فقالت أُم الرُّبيع: يا رسول الله، أَيُقْتص من فلانة؟ والله لا يُقتص منها. فقال رسول الله ﷺ: (سبحان الله يا أُمَّ الرُّبيع، القصاصُ كتابُ الله)، قالت: والله لا يُقتص منها أَبداً، قال: فما زالت حتى قبلوا الدية، فقال رسول الله ﷺ: (إِن من عباد الله من لو أَقسم على الله لأَبَرَّه)، فأَحال رسول الله ﷺ على قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ الآية، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى نصٌّ على القصاص في السنّ إلا في هذه الآية، وهي خبر عن شرع التوراة، ومع ذلك حكم بها وأَحال عليها.

لكن بعض أَصحاب مالك، وبعض أَصحاب الشافعي، والمعتزلة خالفوا في ذلك لقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾. قال: الأَولون: وهذا لا حجة فيه لأَنه يحتمل التقييد. وفي صحيح البخاري عن العوّام قال: سأَلت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سأَلت ابن عباس عن سجدة (ص) فقال: أَو تقرأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾، وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم ﷺ بالاقتداء به.



الهاءِ، وقالت فرقة: إِن كسر الهاءِ إِنما هو في هاءِ السكت، كما قد تسكن هاءُ الضمير أَحياناً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ولا يجوز عليه القراءَة بإِشباع الياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ الآية. المعنى: قل يا محمد لهؤلاءِ الكفرة المعاندين: لا أَسأَلكم على دعائي إِياكم بالقرآن إِلى عبادة الله وتوحيده أَجرة أَستكثر بها وأَختص بدنياها، إِن القرآن إِلا موعظة وذكرى ودعاءٌ لجميع العالمين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾.

الضمير في ﴿قَدَرُواْ﴾ و ﴿قَالُواْ﴾ يراد به العرب، قاله مجاهد وغيره. وقيل: يراد به بنو إِسرائيل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: رجل مخصوص منهم يقال له: مالك بن الصيف، قاله سعيد بن جبير، وقيل: في فنحاص، قاله السدي.

و﴿قَدَرُواْ﴾ هو من توفية القدر والمنزلة، فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يُعظم وغير ذلك، غير أَن تعليله بقولهم: «ما أَنْزَلَ الله» يقضي بأَنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته، إِذ أَحالوا عليه بعثة الرسل. و﴿حَقَّ﴾ نصب على المقدر، ومن قال «إِن المراد كفار العرب» فيجيءُ الاحتجاج عليهم بقوله: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ احتجاجاً بأَمر مشهور منقول بكافة قوم لم تكن العرب مكذبة لهم. ومن قال: «إِن المراد بنو إِسرائيل» فيجيءُ الاحتجاج عليهم مستقيماً لأَنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام.

وروي أَن مالك بن الصيف كان سميناً، فجاءَ يخاصم النبي ﷺ بزعمه، فقال له رسول الله ﷺ: (أَنشدك الله، أَلست تقرأُ فيما أُنزل على موسى أَن الله يبغض الحبر السمين؟) فغضب وقال: «واللهِ ما أَنزل اللهُ على بشر من شيءٍ»(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ عن سعيد بن جبير قال: جاءَ رجل من اليهود يقال له: =



والآية على قول من قال: نزلت في قول بني إسرائيل يلزم أن تكون مدنية، وكذلك حكى النقاش أنها مدنية، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفي، وغيرهما: [وَما قَدَّروا] بتشديد الدال ﴿ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ بفتح الدال، وقرأ الجمهور في الأَول بالتخفيف وفي الثانية بإسكانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية. أَمره الله تعالىٰ أَن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة، والمراد بالكتاب التوراة. و﴿نُورٗا وَهُدٗى﴾ اسمان في موضع الحال بمعنى نيِّراً وهادياً، فإِن جعلناه حالاً من ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فالعامل فيه ﴿أَنزَلَ﴾، وإِن جعلناه حالاً من الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ فالعامل فيه ﴿جَآءَ﴾.

وقرأ جمهور الناس ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ﴾ بالتاءِ من فوق في الأَفعال الثلاثة، فمن رأَى أَن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءَة، وتناسقت مع قوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾، ومن رأَى أَن الاحتجاج على كفار العرب فيضطر في هذه القراءَة ـ إِذ لا يمكن رفعها ـ إِلى أَن يقول: إِنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إِلى مخاطبة بني إِسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أَفعالهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مع بُعْده أَسهل من دفع القراءَة، فكأَنه ـ على هذا التأْويل ـ قال لقريش: من أَنزل الكتاب على موسىٰ؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام: تجعلونه أَنتم يا بني إسرائيل قراطيس. وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا] بالياءِ في الأَفعال الثلاثة. فمن رأَى الاحتجاج على قريش رآه إِخباراً من الله عزَّ وجلَّ بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أَن يكون الإخبار بذلك لقريش، أَو للنبي ﷺ وحده، وما أُخبر به النبي ﷺ في القرآن فأُمته متلقية ذلك.

و﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع قرطاس، أَي بطائق وأَوراقاً، والمعنىٰ يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإِبداءِ والإِخفاءِ هو على إِخفائهم آيات محمد عليه الصلاة والسلام والإِخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حُجة.

= مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ.. الخ الحديث. (الدر المنثور ٣ـ ٢٩٩). والحديث لا يصح فهو مرسل سعيد بن جبير.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾. قال مجاهد وغيره: هي مخاطبة للعرب، فالمعنىٰ ـ على هذا ـ قصْد مِنَّة الله عليهم بذلك، أَي: عُلمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد والإِرشاد إِلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤُكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ يصلح ـ على هذا المعنىٰ ـ لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس من شرط من عُلِّم أَن يعلم ولابُدّ، أَما إِن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم.

وقالت فرقة: بل هي مخاطبة لبني إِسرائيل، والمعنى ـ على هذا ـ يترتب على وجهين: أَحدهما أَن يُقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأَن عُلِّموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأَن آباءَ المخاطبين من بني إِسرائيل كانوا عُلِّموا أَيضاً وعَلِمَ بعضهم، وليس ذلك في آباءِ العرب. والوجه الآخر أَن يكون المقصد ذمُّهم، أَي: وعُلِّمتم أَنتم وآباؤُكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإِعراضكم وضلالكم.

ثم أَمره الله تعالىٰ بالمبادرة إِلى موضع الحجة، أَي قل لهم: الله هو الذي أَنزل الكتاب على موسىٰ. ويحتمل أَن يكون المعنىٰ: فإِن جهلوا أَو تحيروا أَو سأَلوا أَو نحو هذا فقل: الله(١). ثم أَمره تبارك وتعالىٰ بترك من كفر وأَعرض.

وهذه آية منسوخة بآية القتال إِن تُؤُوِّلت موادعة، وقد يحتمل أَلاَّ يدخلها النسخ إِذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادعة.

والخوض: الذهاب فيما لا تسبر حقائقه، وأَصله في الماءِ ثم يستعمل في المعاني المُشْكلة المُلْتَبِسة، و﴿يَلْعَبُونَ﴾ في موضع الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا﴾ إِشارة إِلى القرآن، و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة له، و﴿مُّصَدِّقُ﴾

---

(١) قال أَبو حيان: «لا يحتاج إِلى هذا التقدير لأَن الكلام مستغن عنه» (البحر المحيط ٤ـ١٧٨).

كذلك، وحذف التنوين من ﴿ مُّصَدِّقُ﴾ للإضافة، وهي إضافة غير محضة لم تتعرَّف بها ﴿ مُّصَدِّقُ﴾، ولذلك ساغ أَن يكون وصفاً لنكرة. و﴿ ٱلَّذِى﴾ في موضع المفعول، والعامل فيه مصدر، ولا يصلح أَن يكون ﴿ مُّصَدِّقُ﴾ ـ مع حذف التنوين منه ـ يتسلط على ﴿ ٱلَّذِى﴾، ويقدر حذف التنوين للالتقاءِ، وإنما جاءَ ذلك شاذًّا في الشعر في قوله:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ولا ذاكِرِ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً[1]

ولا يقاس عليه. و﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هي حال التوراة والإنجيل لأَن ما تقدم فهو بين يدي ما تأَخر. وقالت فرقة: الذي بين يديه القيامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة.

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أنت يا محمد، وقرأَ أبو بكر عن عاصم: [وَلِيُنْذِرَ] أَي القرآن بمواعظه وأَوامره. واللام في ﴿ وَلِتُنذِرَ﴾ متعلقة بفعل متأَخر تقديره: ولتُنْذر أُم القُرى ومن حولها أَنزلناه.

و﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مكة، سميت بذلك لوجوه أربعة: منها أَنها منشأُ الدين والشرع، ومنها ما روي أَن الأَرض منها دُحيت، ومنها أَنها وسط الأَرض، ومنها ما لحق عن الشرع من أَنها قبلة كل قرية، فهي ـ لهذا كله ـ أُم وسائر القُرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أَهل أُم القرىٰ. ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يريد أَهل سائر الأَرض، و﴿ حَوْلَهَا﴾ ظرف، والفاعل فيه فعل مضمر تقديره: ومن استقر حولها.

ثم ابتدأَ تعالىٰ مدح قوم وصفهم وأَخبر عنهم أَنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور. ويؤْمِنُونَ بالقُرآن ويصدقون بحقيقته، ثم قوَّىٰ تبارك وتعالىٰ مدحهم بأَنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات وأُم الطاعات، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو بكر عن عاصم [صَلَوَاتهم] بالجمع، ومَن قرأَ بالإِفراد فإِنه مفرد يدل على الجمع، وإِذا انضافت الصلاة إِلى ضمير لم تكتب إِلا بالأَلف ولا تكتب في المصحف بواو إِلا إِذا لم تنضف إِلى ضمير.

---

(١) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية (٦٠) من سورة (المائدة).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

هذه ألفاظ عامة، فكلُّ مَن واقَع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: لا أحد أظلم. وقال قتادة وغيره: المراد بهذه الآيات مسيلمة والأسود العنسي، وذكروا رؤْية النبي ﷺ للسوارَيْن[(١)]، وقال السدي: المراد بها عبد الله بن سعد بن أَبي سرح العامري، وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان أَخا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، فلما نزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[(٢)]، فقال عبد الله بن سعد من تلقاءِ نفسه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال له رسول الله ﷺ: (اكتُبها فهكذا أُنزلت). فتوهم عبد الله ولحق بمكة مُرْتَدّاً وقال: أَنا أُنزل مثل ما أَنزل الله. وروي عنه أَيضاً أَن النبي ﷺ ربما أَملىٰ عليه: «والله غفور رحيم» فبدلها هو: «والله سميع عليم» فقال النبي ﷺ: «ذلك سواءٌ»، ونحو هذا[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده إلى قتادة، وهو: (بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فكَبُر ذلك عليَّ، فأُوحي إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأولت ذلك كذاب اليمامة وكذاب صنعاء).

(٢) الآيات (١٢، ١٣، ١٤) من سورة (المؤمنون).

(٣) حديث عبد الله بن أبي سرح مروي من عدة طرق. رواه الكلبي عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن شرحبيل بن سعد، وابن أبي حاتم عن أَبي خلف الأعمىٰ، ومثله عن السدي ـ مع اختلاف في الألفاظ ـ (القرطبي، والدر المنثور)، وفي القرطبي: «أنه لما دخل النبي ﷺ مكة أمر بقتله وقتْل عبد الله بن خَطَل ومِقْيس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أَستار الكعبة، ففر عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه في الرضاعة، فغيَّبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال (نعم)، فلما انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ: (ما صمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه) فقال رجل من الأنصار: فهلا أوْمأت إليَّ يا رسول الله؟، فقال: (إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين). قال أبو عمر رضي الله عنهما: وأسلم عبد الله بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه» أهـ. وكلها مراسيل.



وقال عكرمة: أولها في مسيلمة، والآخر في عبد الله بن سعد بن أبي سرح[(١)]، وذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه عارض القرآن بقوله: «والزارعات زرعاً، والخابزات خبزاً»[(٢)] إلى غير ذلك من السخافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فخصص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كَطُلَيْحَة الأسدي، والمختار بن أبي عبيد، وسواهما. وقرأ الجمهور: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بتخفيف، وقرأ أبو حيوة: [سَأُنَزِّلُ] بفتح النون وتشديد الزاي.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآية. جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: لرأيت عجباً أو هولاً ونحو هذا. وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه، لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله. و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر. والغمرات: جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة، وهي مشبهة بغمرة الماءِ، ومنه قول الشاعر:

ولا يُنْجِي مِنَ الْغَمَراتِ إلاَّ ... بَرَاكاءُ الْقِتَالِ أَوِ الْفِرَارُ[(٣)]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة قبض الروح، و﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن مدّها بالمكروه، كما قال تعالىٰ حكاية عن ابني آدم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾[(٤)]، وهذا المكروه هو لا محالة أوائل عذاب وأماراته، قال ابن عباس: يضربون وجوههم وأدبارهم، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة، وقيل: إن المراد بسط الأيدي في جهنم، والغمرات كذلك، لكنهم لا يُقضى عليهم فيموتوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ حكاية لما تقوله الملائكة، والتقدير: «يقولون أخرجوا أنفسكم»، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا: فأخرجوا أنفسكم

---

(١) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ ـ عن عكرمة. (الدر المنثور ٣ ـ ٣٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد ـ عن عكرمة (المصدر السابق).

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم، والبراكاءُ: الثباتُ في الحرب والجدُّ، وأصله من البروك، والبراكاءُ أيضاً: ساحة القتال. ويقال في الحرب. بَرَاكِ بَرَاكِ، أي: ابركوا. (اللسان ـ برك).

(٤) من الآية (٢٨) من سورة (المائدة).



من هذه المصائب والمحن وخلّصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح، قال الحسن: هذا التوبيخ ـ على هذا الوجه ـ هو في جهنم، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمرٍ مّا: «افعل كذا» لذلك الأمر الذي يتناوله بنفسه منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية. هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم. و﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوانِ، ومنه قول ذي الإصبع:

إِلَيْـكَ عَنّـي فَمَـا أُمّـي بِـرَاعِيَـةٍ ... تَرْعَى المخاضَ وَلاَ أُغْضِي عَلى الْهُونِ[1]

وقرأ عبد الله بن مسعود، وعكرمة: [عَذابَ الْهَوان] بالألف.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإنحاءُ على من قرب ذكره من هؤُلاءِ الذين ادعوا الوحي، وأن يُنزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بيِّنٌ فيها قول غير الحق على الله، وبيِّنٌ فيها الاستكبار.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فإما عند خروجها من الأجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل.

و﴿فُرَٰدَىٰ﴾ معناه: فرداً فرداً، والألف في آخره ألف تأنيث، ومنه قول الشاعر:

تَـرَى النُّعَـراتِ الـزُّرْقَ تَحْـتَ لَبانِـه ... فُرادَى وَمَثْنى أَضْعَفَتْها صَواهِلُهْ[2]

---

(١) الهُونُ: الخِزْيُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، وهو أيضاً: الهوان، والهوْن والهوان: نقيض العزّ. والبيت في (اللسان)، ولفظه:

اذهَبْ إِلَيْكَ فَما أُمّي براعِيَةٍ ... تَرْعَى الْمَخاضَ ولا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ

(٢) البيت لابن مُقْبل، كما قال في اللسان، وقد رواه في مادة (فَرَدَ) كما رواه ابن عطية رحمه الله هنا، وفي مادة (نعَرَ) رواه كما يأتي: =



وقرأ أَبو حَيْوَة: [فُرَاداً] منوناً على وزن فعال وهي لغة تميم، ﴿فُرَدَىٰ﴾ قيل: جمع فرَدٍ بفتح الراءِ، وقيل: جمع فرْدٍ بإِسكان الراءِ[١]، والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير واحتياجهم إِلى الله عزَّ وجلَّ بفقد الخَوَل والشفعاءِ، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشْبيهاً بالانفراد الأَول في وقت الخِلْقَة. ويتوجه معنى آخر وهو: أَن يتضمن قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى وبأَحوال كذا، والإِشارة ـ على هذا ـ بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا﴾ هي إِلى ما قاله النبي ﷺ في صفة من يُحْشَر: (إِنهم يحشرون حُفَاة عُراةً غُرْلاً)[٢].

و﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ معناه: أَعطيناكم، وكان أَبو عمرو بن العلاءِ ينشد بيت زهير:

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتخْولوا المال يُخوِلُوا ... وإِنْ يُسْأَلوا يُعْطُوا وإِن يَيْسِرُوا يُغْلوا[٣]

﴿وراء ظهوركم﴾ إِشارة إِلى الدنيا لأَنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾، الآية توقيف على الخطأ في عبادة الأَصنام وتعظيمها، قال الطبري: وروي أَن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأَنه قال: سوف تشفع لي اللات والعزىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن كان من العرب يعتقد أَنها تشفع وتقرب إِلى الله زُلْفَى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبتهم بالآية متمكن، وهكذا كان الأَكثر، ومن كان منهم لا يقر بإِلٰه غيرها فليس هو في هذه الآية.

= أي: قتلها صهيلُه. والنُّعَرَةُ مثال الهُمَزَة: ذباب ضخم أَزرق العين أَخضر له إِبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار فيركب رأسه ولا يرده شيءٌ. واللَّبان: الصدر، وقيل: وسَطُه، وقيل: الصدر من ذي الحافر خاصة، وفي قصيدة كعب:

تَـرْمـي اللَّبـانَ بكَفَّيْهـا ومِـدْرَعِهـا ... مُشَقَّـقٌ عَـنْ تَـراقيهـا رَعَـابيـلُ

(١) وقيل: جمع فرد بكسر الراءِ، وقيل: جمع فَرْدان مثل سُكارىٰ وسَكْران وكُسَالى وكَسْلان ـ (عن كتب اللغة).

(٢) روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: (إِنكم محشورون حُفاة عُراة غرلاً) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الآية (الخ الحديث، وروىٰ أَيضاً مثله عن القاسم بن محمد بن أَبي بكر عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قال في (اللسان): «الاسْتخْوَال مثل الاسْتخْبال، من أَخْبَلته المال إذا أَعرته ناقة لينتفع بأَلبانها وأَوبارها، أَو فرساً يغزو عليه، ومنه قول زهير». ثم ساق البيت.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة [بَيْنُكُمْ] بالرفع، وقرأ نافع والكسائي: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، أَما الرفع فعلى وجوه: أُولاها أَنه الظرف استعمل اسماً وأُسند إِليه الفعل كما قد استعملوه اسماً في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1]، وكقولهم فيما حكى سيبويه: «أَحمر بين العينين»، ورجَّح هذا القول أَبو علي الفارسي، والوجه الآخر أَن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأَبو الفتح وسواهم حكوا أَن (البيْن) في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل، فكأَنه قال: لقد تقطَّع وصْلُكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يُرْوَ مسموعاً عن العرب[2]، وإنما انتزع من الآية، والآية محتملة، قال الخليل في العين: «والبَيْنُ: الوَصْلُ» لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فعَلَّل سوق اللفظة بالآية، والآية معرضة لغير ذلك. أَما أَن أَبا الفتح قوَّى أَن البيْن: الوصل، وقال: «وقد أَتقن ذلك بعض المحدثين بقوله: قد أَنصف البَيْن من البَيْن». والوجه الثالث من وجوه الرفع أَن يكون البيْن على أَصله في الفُرْقة من: بانَ يبين إذا بعُد، ويكون في قوله تعالىٰ: ﴿تَّقَطَّعَ﴾ تجوُّز على نحو ما يقال في الأَمر البعيد في المسافة: «تقطعت الفجاج بيْن كذا وكذا» عبارة عن بُعد ذلك. ويكون المقصد: لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها، فعبر عن ذلك بالبين الذي هو الفُرقة.

وأَما وجه قراءَة النصب فأَن يكون ظرفاً ويكون الفعل مستنداً إِلى شيءٍ محذوف وتقديره: لقد تقطع الاتصال أَو الارتباط بينكم، أَو نحو هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وجه واضح، وعليه فسَّره الناس: مجاهد، والسدي، وغيرهما[3]. ووجه

---

(١) من الآية (٥) من سورة (فصلت).

(٢) الحقيقة أنه روي مسموعاً عن العرب، ومن ذلك قول قَيْس بن ذَريح:

لَعَمْـرُكَ لـولا البَيْـن لا يُقطَـع الهَـوَىٰ ... ولَـوْلا الهَـوَى مـا حَـنَّ لِلْبَيْـنِ آلِـفُ

وقال آخر:

لقـد فـرَّق الـواشيـن بَيْنـي وبَيْنُهـا ... فقـرَّت بـذاكَ الـوَصْـلِ عَيْنـي وَعَيْنُهـا

وأَنشد أَبو عمرو في رفع (بيْن) قولَ الشاعر:

كَـأَنَّ رِمَـاحَنَـا أَشْطَـانُ بِئْـرٍ ... بعيـدٍ بَيْـنُ جـالَيْهـا جَـرورُ

(٣) عقَّب أَبو حيان على ذلك في «البحر المحيط ٤ ـ ١٨٣» بقوله: «قوله: (إلى شيءٍ محذوف) ليس =

آخر يراه أبو الحسن الأخفش، وهو: أن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقى الظرف على حال نصبه وهو في النيّة مرفوع، ومثل هذا عنده قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(١).

وقرأ ابن مسعود، ومجاهد، والأعمش: [تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ] بزيادة (ما)، ﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تَلِفَ وذهب، و﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

هذا ابتداءُ تنبيه على العِبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله لأن القصد: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لا هذه الأصنام، وقال مجاهد، وأبو مالك: هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البُرّ ونواة التمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والعبرة ـ على هذا القول ـ مخصوصة في بعض الحبِّ وبعض النوى، وليس لذلك وجه. وقال الضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشق جميع الحَبِّ عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الظَّاهر الذي يعطي العبرة التامة، فسبحان الخلاق العليم.

وقال الضحاك: [فالِق] بمعنى خالق، وقال السدي: وأبو مالك: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ إشارة إلى إخراج النبات الأخضر والشجر الأخضر من الحَبِّ اليابس والنوى

= بصحيح، لأن الفاعل لا يحذف»، ثم قال: «والذي يظهر لي أن المسألة من باب الإعمال ـ تسلَّط على ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿تَّقَطَّعَ﴾ و﴿وَضَلَّ﴾. فأعمل الثاني وهو [ضلَّ]، وأضمر في [تقطَّع] ضمير [ما] وهم الأصنام، فالمعنىٰ: «لقد تقطَّع بينكم ما كنتم تزعمون وضلُّوا عنكم». اهـ.

(١) من الآية (١١) من سورة (الجنّ).



اليابس، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة، واليَبَس موتاً. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ إشارة إلى إخراج الحَبّ اليابس من النبات والشجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: بل ذلك كله إشارة إلى إخراج الإنسان الحيّ من النطفة الميتة، وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحيّ، وكذلك سائر الحيوان والطير من البيض والحوت وجميع الحيوان(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أرجح، وإنما تعلّق قائلو القول الأول بتناسب تأويلهم مع قوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وهما على هذا التأويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر.

وقال الحسن: المعنىٰ: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ ابتداءٌ وخبر متضمِّن التنبيه. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون وتصدون.

و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، أي: شاقه ومظهره، والفلق: الصبح، وقرأَ الجمهور: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وعيسىٰ بن عمر، وأَبو رجاءٍ: [فَالِقُ الأَصْبَاحِ] بفتح الهمزة جمع صُبْح، وقرأَت فرقة: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بحذف التنوين من ﴿فَالِقُ﴾ لالتقاءِ الساكنين ونصب ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بـ ﴿فَالِقُ﴾ كأَنه أَراد «فالقٌ الإِصْباحَ» بتنوين القاف، وهذه قراءَة شاذة، وإنما جوَّز سيبويه مثل هذا في الشعر، وأَنشد عليه:

فَــأَلْفَيْتُــه غيْــرَ مُسْتَعْتِــبِ ولا ذاكِــرِ اللهَ إلاَّ قَلِيــلاَ(٢)

وحكى النحاس عن المبرّد جواز ذلك في الكلام. وقرأَ أَبو حيوة، وإبراهيم النَّخعي، ويحيىٰ بن وثّاب: [فَلَقَ الإِصْباحَ] بفعل ماض. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [وَجَاعِلِ اللَّيْلِ]، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَجَعَلَ

---

(١) قال أَبو حيان: «عطف قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ اسم فاعل على اسم فاعل، وليس معطوفاً على قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ﴾ لأن قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ من جنس إخراج الحي من الميت لأن الناس في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ فجملة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ في موقع الجملة المُبيِّنة من قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ولذلك عطف اسم الفاعل على اسم الفاعل لا على الفعل.

(٢) سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت في أكثر من موضع مماثل لهذا.



﴿ٱلَّيۡلَ﴾، وهذا لما كان ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى الماضي فكأن اللفظ «فَلَقَ الإِصْبَاحَ وَجَعَلَ»، ويؤيد ذلك نصب ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿سَكَنًا﴾، وروي عن يعقوب [سَاكِناً]، قال أبو عمرو الداني: ولا يصح ذلك عنه، ونصبه بفعل مضمر إذا قرأنا: [وَجَاعِلُ] لأنه بمعنى المضي، وتقدير الفعل المضمر: «وجاعل الليل يجعله سكناً»، وهذا مثل قولك: «هذا معطي زيد أمس درهماً»، والذي حكاه أبو علي في هذا أن ينتصب بما في الكلام من معنىٰ: (مُعْطي)، وقرأ أبو حيوة: [والشَّمْسِ والْقَمرِ] بالخفض عطفاً على لفظ [اللَّيْلِ].

و﴿حُسۡبَانًاۚ﴾ جمع حساب، كشهبان في جمع شهاب، أي: تجري بحساب. هذا قول ابن عباس، والسدي، وقتادة، ومجاهد، وقال مجاهد في صحيح البخاري: المراد حسبان كحسبان الرحىٰ[1]، وهو الدولاب والعود الذي عليه دورانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ۝٩٨﴾.

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة، و﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنىٰ خلق لدخولها على مفعول واحد. وقد يمكن أن تكون بمعنىٰ صَيَّرَ، ويُقَدَّر المفعول الثاني في ﴿لِتَهۡتَدُواْ﴾ لأنه يُقدر: «وهو الذي جعل لكم النجوم هداية». و﴿فِي ظُلُمَٰتِ﴾ هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ التي لا تكون إلا بالليل. ويصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس.

وذكر الله تبارك وتعالىٰ النجوم في ثلاث منافع، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ

---

(١) في جميع الأصول: كحسبان الرحاق ـ والتصحيح عن البخاري، وعن كتب التفسير مثل: «البحر المحيط».

(٢) من الآية (٥) من سورة (المُلْك).



﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. فالواجب أَن يعتقد أَن ما عدا هذا الوجه من أَهل التأثير باطل واختلاق على الله وكُفْرٌ به.

و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيَّنَّا وقسَّمنا، و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلائل، و﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لهم بالذكر، وتنبيه منهم لتحصيلهم الآيات المفصلة المنصوبة وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الآية. الإِنشاءُ: ابتداءُ فعل الشيء، و﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: [فَمُسْتَقَرٌّ] بفتح القاف على أَنه موضع استقرار، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [فَمُسْتَقِرٌّ] بكسر القاف على أَنه اسم فاعل، وأَجمعوا على فتح الدال من ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ بأَن يقدر موضع استيداع، وأَن يقدر أَيضاً مفعولاً، ولا يصح ذلك في [مُسْتَقَرٌّ] لأَن (استقر) لا يتعدىٰ فيبنى منه مفعول، أَما أَنه روى هارون الأَعور عن أَبي عمرو [مُسْتَوْدِع] بكسر الدال» فمن قرأَ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على أَنها موضع استقر موضع استيداع علَّقها بمجرور تقديره: «فلكم مستقر ومستودع»، ومن قرأَ [فَمُسْتَقِرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ] على اسم الفاعل في [مُسْتَقِرٌّ] واسم المفعول في [مُسْتَوْدَعٌ] علقها بمجرور تقديره: «فمنكم مستقر ومستودع»، واضطرب المتأَولون في معنى الاستقرار والاستيداع، فقال الجمهور: مستقر في الرحم، ومستودع في ظهور الآباءِ حتى يقضي الله بخروجهم، وقال ابن عون: مشيت إِلى منزل إِبراهيم النَّخعي وهو مريض فقالوا: قد توفي، فأَخبرني بعضهم أَن عبد الرحمن بن الأَسود سأَله عن [مُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ] فقال: مستقِر في الرحم ومستودع في الصُّلب، وقال الحسن بن أَبي الحسن: مستقر في القبور ومستودع في الدنيا، وقال ابن عباس: المستقر: الأَرض، والمستودع عند الرحم، وقال ابن جبير: المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة، والذي يقتضيه النظر أَن ابن آدم هو مستودع في ظهر أَبيه، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأَنه ينتقل لا محالة: ينتقل إِلى الرحم، ثم ينتقل إِلى الدنيا، ثم ينتقل إِلى القبر، ثم ينتقل إِلى المحشر، ثم ينتقل إِلى الجنة أَو النار فيستقر في إِحداهما استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودع لأَنه لا نقلة له بعد، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالإِضافة إِلى التي قبلها، ومستودع بالإِضافة إِلى التي بعدها، لأَن لفظ الوديعة يقتضي فيها نقلة ولابد.



و﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ معناه: يفهمون[١]، وقد تقدم تفسير مثل هذا آنفاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ السَّمَاءِ ﴾ ـ في هذا الموضع ـ: السحاب، وكل ما أظلَّك فهو سماءٌ. و﴿ مَاءً ﴾ أَصله (مَوَه) تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاءَ (ماه) فبدلت الهاءُ بالهمزة لِجَلَد الهمزة لأن الألف والهاءَ ضعيفان مهموسان.

وقوله: ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾. قال بعض المفسرين: أَي مما يُنبت، وحسن إطلاق العموم في ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لأن ذكر النبات قبله قد قيَّد المقصد، وقال الطبري: المراد بـ ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماءِ من السماءِ، والضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود على النبات، وفي الثاني يعود على الخَضِر، و﴿ خَضِرًا ﴾ بمعنى أَخضر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (الدنيا خضِرةٌ حُلوةٌ)[٢] بمعنىٰ: خضراءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان (خَضِراً) إنما يأْتي أَبداً لمعنى النضارة، وليس للون فيه مدخل، و(أَخضر) إِنما تمكنه في اللون، وهو في النضارة تجوّز.

---

(١) الاهتداءُ بالنجوم واضح، ولذلك ختمه سبحانه وتعالىٰ بما يناسبه هو قوله سبحانه: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: من له أدنى إدراك فإنه يتفع بالنظر في النجوم وفائدتها، ولكن لما كان الإنشاءُ من نفس واحدة والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر ختمه سبحانه بقوله: ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن الفقه هو استعمال الفطنة ودقة النظر والفكر. وهكذا التقى ختام كل آية بما يلائم صدرها. عن «البحر المحيط».

(٢) روى الدارمي في سُنَنِه أَن حكيم بن حزام قال: سأَلت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سأَلته فأعطاني، ثم سأَلته فأعطاني، ثم سأَلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. (ج٢، ص٣١٠)، ورواه ابن ماجه والإمام أحمد.



وقوله: ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعمُّ جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر والرمان وغيرها من جميع النبات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ تقديره: ونخرجُ من النخل، و﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ابتداءٌ خبره مقدم، والجملة في موضع المفعول بـ ﴿نُخْرِجُ﴾، والطلع: أَول ما يخرج من النخلة في أكمامه، و﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قنو وهو العِذق بكسر العين وهو الكباسة، والعرجون: عوده الذي ينتظم الثمر. وقرأ الأَعرج [قَنْوانٌ] بفتح القاف، وقال أَبو الفتح: ينبغي أَن يكون اسماً للجمع غير مكسر لأَن فَعْلان ليس من أَمثلة الجمع. قال المهدوي: وروي عن الأَعرج ضم القاف، وذلك على أَنه جمع قُنو بضم القاف. قال الفراءُ: وهي لغة قيس وأَهل الحجاز، والكسر أَشهر في العرب. وقنو يُثَنَّى قنوان منصرفة النون. و﴿دَانِيَةٌ﴾ معناه: قريبة من المتناول، قاله ابن عباس، والبراءُ بن عازب، والضحاك. وقيل: قريبة بعضها من بعض.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّـٰتٍ﴾ بنصب ﴿وَجَنَّـٰتٍ﴾ عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿نَبَاتَ﴾، وقرأ الأَعمش، ومحمد بن أَبي ليلىٰ: ورويت عن أَبي بكر عن عاصم: [وَجَنَّاتٌ] بالرفع على تقدير: ولكم جنات، أَو نحو هذا. وقال الطبري: هو عطف على ﴿قِنْوَانٌ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوله ضعيف(١).

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بالنصب إِجماعاً عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿حَبًّا﴾، و﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: تتشابه في اللون وتتباين في الثمر، وقال الطبري: جائز أَن تتشابه في الثمر وتتباين في الطعم، ويحتمل أَن يريد: تتشابه في الطعم وتتباين في المنظر، وهذه الأَحوال موجودة بالاعتبار في أَنواع الثمرات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ هو نظر بصر يترتب عليه فكرة قلب. وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتح الثاءِ والميم، وهو جمع ثَمَرةٍ

(١) فسّر هذا الضعف أبو البقاءِ فقال: «لا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿قِنْوَانٌ﴾ لأَن العنب لا يخرج من النخل».



كبقرة وبقر، وشجرة وشجر، وقرأ يحيىٰ بن وثاب، ومجاهد: [ثُمُرِهِ]، قالا: وهي أَصناف المال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن المعنى: انظروا إِلىٰ الأَموال التي تتحصل منه، وهي قراءَة حمزة والكسائي، قال أَبو علي: والأَحسن فيه أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب وأَكمة وأُكُمْ، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكم فيه سُجَّدا لِلْحَوَافِرِ(١)

ونظيره في المعتل: لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح. ويجوز أَن تكون جمْع جمْع فتقول: ثَمَرَة وثِمَارٌ وثُمُر مثل حِمار وحُمُر. وقرأَت فرقة: [إِلى ثُمْرِهِ] بضم الثاءِ وإِسكان الميم كأَنها ذهبت إِلى طلب الخفة في تسكين الميم. والثَّمَر في اللغة: جنى الشجر وما يطلع، وإِن سمي الشجر ثماراً فتجوز.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ بفتح الياءِ، وهو مصدر يَنَعَ يَيْنَع إِذا نَضِجَ، يقال: يَنَع وأَيْنَع، وبالنضج فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، ومنه قول الحجاج: «إِني لأَرى رؤُوساً قد أَيْنَعَت»، ويستعمل يَنَع بمعنىٰ: استقل واخضرَّ ناضراً، ومنه قول الشاعر:

فـــي قِبَـــابٍ حَـــوْلَ دسْكَـــرَة حَـــوْلَهَـــا الـــزَّيْتُـــون قَـــدْ يَنَعَـــا(٢)

وقيل في ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أَنه جمع يانع مثل: تاجر وتجْر وراكب وركْب، ذكره الطبري. وقرأَ ابن محيصن، وقتادة والضحاك: [وَيُنْعِهِ] بضم الياءِ، أَي نضجه، وقرأَ ابن أَبي عبلة، واليماني: [وَيَانِعِهِ]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ﴾ إِيجاب تنبيه وتذكير، وتقدم تفسير مثله.

---

(١) لم نعثر على نسبة هذا الشعر لقائله فيما لدينا من المراجع.

(٢) قال في (اللسان) مادة (يَنَع): «وفي حديث خبّاب: ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها. أَيْنَعَ يُونِعُ ويَنَعَ يَيْنَع: أدرك ونضج، وأَيْنَع أكثر استعمالاً، وقرىء: وَيَنْعِهِ ويُنْعِهِ ويانِعِه، قال الشاعر»: وذكر البيت، ثم قال: «قال ابنُ بَرِّي: هو للأحوص، أَو يزيد بن معاوية، أو عبد الرحمن بن حسان، والْيَنْع: النُّضج، وفي التنزيل: ﴿ انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ بمعنىٰ: صيَّروا و﴿ الْجِنَّ ﴾ مفعول، و﴿ شُرَكَاءَ ﴾ مفعول ثان مقدم، ويصح أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ مفعولا أولاً، و﴿ لِلَّهِ ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿ الْجِنَّ ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿ شُرَكَاءَ ﴾. وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله عزَّ وجلَّ، والقائلين إن الجنَّ تعلم الغيب، العابدين للجن، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بِجن الأَودية في أَسفارها، ونحو هذا.

وأَما الذين خرقوا البنين فاليهود في ذكر عزير، والنصارى في ذكرالمسيح، وأَما ذاكروا البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله، فكأَن الضمير في ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ و﴿ وَخَرَقُوا ﴾ لجميع الكفار، إذ فعل بعضهم هذا وبعضهم هذا، وبنحو هذا فسَّر السدي وابن زيد، وقرأَ شعيب بن أَبي حمزة: [شُرَكَاءَ الْجِنِّ] بخفض النون، وقرأَ يزيد بن قطيب، وأَبو حيوةَ [الجِنِّ] و[الْجِنُّ] بالخفض والرفع على تقدير: هم الجن.

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ بفتح اللام على معنى: وهو خَلَقهم، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وهُو خَلَقهم»، والضمير في ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يحتمل العودة على الجاعلين، ويحتملها على المجعولين، وقرأَ يحيى بن يعمر: [وخَلْقَهُمْ] بسكون اللام عطفاً على ﴿ الْجِنَّ ﴾ أَي: جعلوا خلقهم الذي ينحتونه أَصناماً شركاءَ الله.

وقرأَ السبعة سوى نافع: ﴿ وَخَرَقُوا ﴾ بتخفيف الراءِ، وهو بمعنى: اختلفوا وافتروا(١)، وقرأَ نافع: [وَخَرَّقُوا] بتشديد الراءِ على المبالغة، وقرأَ ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما: [وَحَرَّفُوا] من التحريف، كذا قال أَبو الفتح، قال أَبو عمرو الداني: قرأَ ابن عباس: [حَرَفوا] خفيفة الراءِ، وابن عمر [حرَّفوا] مشددة الراءِ.

---

(١) قال الفراءُ: «يقال: خرَق الإفك وخَلَقه واختلقه واختَرقه واقتلعه وافتراه وخرصه إذا ذب فيه».

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص على قبح تقحُّمهم المجهلة وافترائهم الباطل على عمىٰ، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزَّه عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالىٰ. و﴿بَدِيعُ﴾ بمعنى: مبدع ومخترع وخالق، فهو بناءُ اسم فاعل كما جاءَ سميع بمعنى مسمع. و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف؟ ومن أين؟ فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتاءِ على تأْنيث علامة الفعل، وقرأَ إِبراهيم النَّخعي بالياءِ على تذكيرها. وتذكير كان وأَخواتها مع تأْنيث اسمها أَسهل من ذلك في سائر الأَفعال، فقولك: «كان في الدار هند» أَسْوَغُ من: «قام في الدار هند»[١]، وحَسَّنَ القراءَةَ الفصل بالظرف الذي هو الخبر، ويتجه في القراءَة المذكورة أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير اسم الله تبارك وتعالىٰ، وتكون الجملة التي هي ﴿لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ خبر كان، ويتجه أَن يكون في [يَكُنْ] ضمير أَمر وشأْن، وتكون الجملة بعد تفسيراً له وخبراً، وهذه الآية ردٌّ على الكفار بقياس الغائب على الشاهد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام لكل ما يجوز أَن يدخل تحته، ولا يجوز أَن يدخل تحته صفات الله تعالىٰ وكلامه، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إِليه قوم، لأَن العموم المخصص هو أَن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه التخصيص، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها، وإِنما هو بمنزلة قول الإِنسان: «قتلت كلَّ فارس وأَفحَمْت كلَّ خصم»، فلم يدخل القائل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه[٢]، وأَما قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا عموم على الإِطلاق لأَن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء لا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

ولما تقررت الحُجَجُ وبانت الوحدانية جاءَ قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، تتضمن تقريراً وحكماً إِخلاصاً وأَمراً بالعبادة، وإِعلاماً بأَنه حفيظ رقيب على كل فعل وقول، وفي هذا الإِعلام تخويف وتحذير.

---

(١) علَّق على ذلك أبو حيان في «البحر ٤ـ ١٩٤» فقال: «ولا أعرفُ هذا عن النحويين، ولم يفرقوا بين كان وغيرها».

(٢) صرح القرطبي بأَنَّهُ عموم معناه الخصوص، وقال: «ومثله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وَلَم تَسَع إِبليس ولا من مات كافراً، ومثله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم تُدمِّر السموات والأرض».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أَجمع أَهل السُّنَّة على أَن الله تبارك وتعالى يُرَى يوم القيامة، يراه المؤمنون، قاله ابن وهب عن مالك بن أَنس رضي الله عنه، والوجه أَن يبين جواز ذلك عقلاً ثم يسند إِلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تَبْيين ذلك أَن يُعتبر بعلمنا بالله عزَّ وجلَّ، فمن حيث جاز أَن نعلمه لا في مكان ولا متميزاً ولا متقابلاً ولم يتعلق علمنا بأَكثر من الوجود، جاز أَن نراه غير مقابل ولا محاذى ولا مكيفاً ولا محدوداً، وكان الإِمام أَبو عبد الله النحوي يقول: مسأَلة العلم حَلَقَت لِحَى المعتزلة، ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وتعدية النظر بإِلى إنما هو في كلام العرب لمعنىٰ الرؤْية لا معنى الانتظار على ما ذهب إليه المعتزلة، وذكر هذا المذهب لمالك فقال: «فأَين هم عن قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾»؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فقال بدليل الخطاب[1]. ذكره النقاش، ومنه قول النبي ﷺ فيما صحَّ عنه وتواتر وكثر نقله: (إِنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر)[2]، ونحوه من الأَحاديث على اختلاف ترتيب أَلفاظها.

---

(١) يرى الإمام مالك رضي الله عنه أَن المؤمنين يرونه سبحانه وتعالىٰ من جهة دليل الخطاب، قال: وإلا فلو حجب الكلَّ لما أغنى هذا التخصيص، وقال الإمام الشافعي: لما حجب سبحانه قوماً بالسخط دلَّ ذلك على أن قوماً يرونه بالرضا. (راجع الألوسي). وفي ابن كثير: «وقال تبارك وتعالىٰ عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، قال الإمام الشافعي: فدلَّ هذا على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالىٰ».

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ثبتت رؤْية المؤمنين لله عز وجلَّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا. قال: إنكم ترون ربكم كذلك». وروى البخاري في صحيحه «إنكم سترون ربكم عياناً». وفي الصحيحين عن جرير قال: (نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة القدر فقال: إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر. فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا).



وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤْية الله تعالىٰ يوم القيامة، واستحالة ذلك بآراءٍ مجردة، وتمسكوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وانفصل أَهل السنة عن تمسكهم بأَن الآية مخصوصة في الدنيا، ورؤْية الآخرة ثابتة بأَخبارها. وانفصال آخر وهو أَن يفرق بين معنى الإِدراك ومعنىٰ الرؤْية. ونقول[١]: إنه عزَّ وجلَّ تراه الأَبصار ولا تدركه وذلك أَن الإِدراك يتضمن الإِحاطة بالشيءِ والوصول إِلى أَعماقه وحوزه من جميع جهاته، وذلك كله محال في أَوصاف الله عزَّ وجلَّ، والرؤْية لا تفتقر إِلى أَن يحيط الرائي بالمرئي ويبلغ غايته، وعلى هذا التأْويل يترتب العكس في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ويحسن معناه. ومثل هذا روي عن ابن عباس، وقتادة، وعطية العوفي، فرقوا بين الرؤْية والإِدراك. وأَما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤْية والإِدراك، واحتج بقول بني إِسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[٢] فقال: إِنهم رأَوهم ولم يدركوهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذا كله خطأٌ لأَن هذا الإِدراك ليس بإِدراك البصر، بل هو مستعار منه أَو باشتراك. قال: وقال بعضهم: إِن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالىٰ بحاسة سادسة تُخلق يوم القيامة، وتبقى هذه الآية في منع الإِدراك بالأَبصار عامة سليمة، قال: وقال بعضهم: إِن هذه الآية مخصوصة في الكافرين، أَي أَنه لا تدركه أَبصارهم لأَنهم محجوبون عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذه الأَقوال كلها ضعيفة ودعاوى لا تستند إِلى قرآن ولا حديث.

و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ المتَلَطِّف في خلقه واختراعه وإِتقانه، وبخلقه وعباده. و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المختبر لباطن أُمورهم وظاهرها.

والبصائر: جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأَشياءِ المنظور فيها بالاعتبار، فكأَنه قال: قد جاءَكم في القرآن والآيات طرائق إِبصار الحق والمعنية عليه.

---

(١) تعبيره بكلمة (نقول) تدل على أنه من أَهل السُّنة وتدحض دعوى من قال: إِنه من المعتزلة أو يميل إِلى آرائهم ـ وقد وضحنا هذه القضية في المقدمة.

(٢) من الآية (٦١) من سورة (الشعراء).



والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين، والبصيرة أيضاً هي المُعْتقد المُحَصَّل في قول الشاعر:

راحوا بَصَائِرَهم على أَكْتَافِهِمْ وبصيرتي يعدو بها عَتَدٌ وَآي[1]

وقال بعض الناس في هذا البيت: البصيرة: طريقة الدم، والشاعر إنما يصف جماعة مَشَوْا به في طلب دم ففتروا فجعلوا الأمر وراءَ ظهورهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عبارة مستعارة فيمن اهتدىٰ ومن ضلَّ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ كان في أول الأمر وقبل ظهور الإسلام، ثم بعد ذلك كان رسول الله ﷺ حفيظاً على العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الآية. الكاف في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿نُصَرِّفُ﴾، أي: ومثل ما بيَّنَّا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات، أي نرددها ونوضحها، وقرأت طائفة: [وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ] بسكون اللام على جهة الأمر، ويتضمن التوبيخ والوعيد. وقرأ الجمهور: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بكسر اللام على أنها لام كي، وهي ـ على هذا ـ لام الصيرورة كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[2]، أي: لمَّا صار أمرهم إلى ذلك. وقرأ نافع، وعاصم وحمزة، والكسائي: ﴿دَرَسْتَ﴾ أي يا محمد درست في الكتب القديمة ما تُجيبنا به، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [دارسْتَ] أي أنت يا محمد دارست غيرك في هذه الأشياءِ، أي: قارأته وناظرته، وهي إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود، وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة: [دَرَسَتْ][3] بإسناد الفعل إلى الآيات كأنهم أشاروا إلى أنها ترددت على أسماعهم حتى بليت في نفوسهم وامّحت، قال أبو علي: واللام في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ ـ على هذه القراءَة بمعنى: لئلا يقولوا، أي: صرفت

---

(١) هذا البيت للأسعر الجعفي، والذي في «القرطبي»: و«جاءوا بصائرهم». والعَتَدُ (بفتح التاءِ وكسرها) الفرس التَّام الخَلْق السريع الوثبة المعد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة، والوَآي (بواو مفتوحة بعدها مدٌّ) هو الفرس السريع المقتدر الخلق. يقول إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، أي: لم يثأروا له وأنا طلبت ثأري.

(٢) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٣) بفتح السين وإسكان التاءِ من غير ألف على وزن خَرَجَتْ وذَهَبَتْ.



الآيات وأُحكمت لئلا يقولوا: هذه أَساطير قديمة قد بليت وتكررت على الأَسماع، واللام في سائر القراءَات لام الصيرورة. وقرأَت فرقة: [دَارَسَتْ] كأَنهم أرادوا: دارسَتْكَ يا محمد، أَي الجماعة المشار إِليها قبلُ من سلمان واليهود وغيرهم، وقرأَت فرقة: [دَرُسَت] بضم الراءِ، وكأَنها في معنىٰ [دَرَسَتْ] أَي بَلِيَتْ[1]، وقرأَ قتادة: [دُرِسَتْ] بضم الدال وكسر الراءِ، وهي قراءَة ابن عباس بخلاف عنه، ورويت عن الحسن، قال أَبو الفتح: في [دُرِست] ضمير ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾، ويحتمل أَن يراد: عفيت وتنوسيت، وقرأَ أُبي بن كعب: [دَرَسَ] وهي في مصحف عبد الله، قال المهدوي: وفي بعض مصاحف عبد الله [دَرَسْنَ][2]، ورويت عن الحسن، وقرأَت فرقة [دَرَّسْنَ] بتشديد الراءِ على المبالغة في (دَرَسْنَ)، وهذه الثلاثة الأَخيرة مخالفة لخط المصحف.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ متعلقان بفعل متأَخر تقديره: صرفناها، وقرأَ أُبي بن كعب، وابن مسعود: [وَلِتُبَيِّنَهُ] بالتاءِ على مخاطبة النبي ﷺ، وقرأَت فرقة: [وَلِيُبَيِّنَهُ] بياءِ أَي الله تعالىٰ: وذهب بعض الكوفيين إِلى أَن (لا) مضمرة بعد (أَن) المقدرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾، فتقدير الكلام عندهم: «وأَن لا يقولوا»، كما أَضمروها في قوله تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، ولا يجيز البصريون إِضمار (لا) في موضع من المواضع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذان أَمران للنبي ﷺ مُضَمَّنهما الاقتصار على اتباع الوحي وموادعة الكفار، وذلك كان في أَول الإِسلام، ثم نسخ الإِعراض عنهم بالقتال والسوق إلى الدين طوعاً أَو كرهاً.

---

(١) حكى هذه القراءَة الأخفش، وهي بمعنى (دَرَسَتْ) ولكنها أبلغ.

(٢) مبنية للفاعل مسندة إلى النون.

(٣) من الآية (١٧٦) من سورة (النساء).



وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ في ظاهرها ردٌّ على المعتزلة القائلين: إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وأن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان في أول الإسلام، وكذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. مخاطبة للمؤمنين وللنبي ﷺ، وقال ابن عباس: وسببها أن كُفَّار قريش قالوا لأَبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والغض منها وإما أن نسُبَّ إِلٰهه ونهجوه فنزلت الآية، وحُكمها على كل حال باق في الأُمة، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإِسلام أَو النبي ﷺ أَو الله عزَّ وجلَّ فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض إِلى ما يؤدي إِلى ذلك أَو نحوه[1]، وعبَّر عن الأَصنام ـ وهي لا تعقل ـ بـ ﴿الَّذِينَ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من الموادعة.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿عَدْوًا﴾ بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، ويعقوب، وسلام، وعبد الله بن زيد: [عُدُوًّا] بضم العين والدال وتشديد الواو، وهذا أَيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداءِ، وقرأَ بعض الكوفيين: [عَدُوًّا] بفتح العين وضم الدال ونصب على الحال، أَي في حال عداوة الله، وهو لفظٌ مفرد يدل على الجمع[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إِلى ما زيَّن الله لهؤلاءِ عَبَدَة الأَصنام من التمسك بها والذَّبّ عنها، وتزيين الله عمل الأمم هوما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أَو الشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوءِ، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

---

(١) قال العلماءُ: لأَن ذلك بمنزلة البعث على المعصية والتوجيه إِلى فعلها.

(٢) ومثله في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم، و﴿ جَهْدَ ﴾ نصب على المصدر، والعامل في ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ على مذهب سيبويه لأنه في معناه، وعلى مذهب أَبي العباس المبرّد فعلٌ من لفظه. واللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَئِن ﴾ لام موطئة للقسم مؤذنة به، وأَما اللام المتلقية للقسم فهي في قوله سبحانه: ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾. و﴿ ءَايَةٌ ﴾ يريد: علامة.

وحكي أَن الكفار لما نزلت: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾(1) أَقسموا حينئذ أَنها إِن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية، وحكي أَنهم اقترحوا أَن يعود الصفا ذهباً، وأَقسموا على ذلك، فقام رسول الله ﷺ يدعو في ذلك، فجاءَه جبريل عليه السلام فقال له: إن شِئْتَ أَصْبَحَ ذَهباً فإِن لم يؤمنوا هلكوا عن آخرهم معاجَلة كما فعل بالأُمم إِذ لم تؤمن بالآيات المقترحة، وإِن شئت أُخروا حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بل حتَّى يتوب تائبهم» ونزلت هذه الآية(2). وقرأَ ابن مصرف: [لَيُؤْمَنَنْ] بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة.

ثم قال تعالىٰ: قل لهم يا محمد على جهة الردّ والتغطية إِنما الآيات بيد الله وعنده، وليست عندي فتقترح علي، ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾، فاختلف المتأَولون فيمن المخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾؟ ومن المستفهم بـ ﴿ وَمَا ﴾ التي يعود عليها

---

(1) الآية (٤) من سورة الشعراء.

(2) أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي، ولفظه كما جاء في (الدر المنثور ٣ـ ٣٩): «كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد تخبرنا أَن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر، وأَن عيسى كان يحيي الموتىٰ، وأَن ثمود كانت لهم ناقة، فأْتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ، أي شيءٍ تحبون أن آتيكم به.؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإِن فعلت ذلك تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لو فعلتَ ذلك لنتبعنَّك أَجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو.. الخ الحديث كما أَثبت بقيته ابن عطية». (وهكذا أَيضاً نقله ابن كثير عن ابن جرير).

الضمير الفاعل في ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾ ـ فقال مجاهد، وابن زيد: المخاطب بذلك الكفار، وقال الفراءُ وغيره: المخاطب بها المؤمنون، ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ معناه: وما يعلمكم؟ وما يدريكم؟ وقرأ قوم: [يُشْعِرْكم] بسكون الراءِ، وهي على التخفيف، وَيُحَسِّنُهَا أن الخروج من كسرة إلى ضمة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية داود الإيادي: [إِنَّهَا] بكسر الألف على القطع واستئناف الإخبار، فمن قرأ: [تُؤْمِنُونَ] بالتاءِ ـ وهي قراءَة ابن عامر وحمزة ـ استقامت له المخاطبة أولاً وآخراً للكفار، ومن قرأ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياءِ ـ وهي قراءَة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، والكسائي ـ فيحتمل أن يخاطب أولاً وآخراً المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ الكفار، ثم يستأنف عنهم للمؤمنين، ومفعول ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾ الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأويل. وقرأ نافع، وعاصم في رواية حفص، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿أَنَّهَآ﴾ بفتح الألف، فمنهم من جعلها (أَنَّ) التي تدخل على الجُمل وتأتي بعد الأفعال ـ كعلمت وظننت ـ وأعمل فيها ﴿يُشۡعِرُكُمۡ﴾، والتزم بعضهم أن ﴿لَا﴾ زائدة في قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وأن معنى الكلام: «وَمَا يُشْعركم أنها إذا جاءَت يؤمنون أو تؤمنون». فزيدت ﴿لَا﴾ كما زيدت في قوله تعالىٰ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[1]، لأن المعنى: وحرام على قرية مُهْلَكَة رجوعهم، وكما جاءَت في قول الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لا الْبُخْلَ واسْتَعْجلتْ بِهِ ... نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلَهْ[2]

قال الزجاج: أَراد: أَبى جودُهُ البُخلَ، وكما جاءَت زائدة في قول الشاعر:

---

(١) الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء).

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب، ولكن قال: أنشده الفارسيُّ، وفيه: «لا يَمْنَع الجوعَ» وقال معلقه: «هكذا في الأصل والصحاح، وفي المحكم: الجوس، والجوس هو الجوع» ـ وجاء في (اللسان): «يُروى بنصب البخل وبجَرِّه، فمن نصبه فعلى ضربين: أحدهما أن يكون بدلاً من (لا) لأن (لا) موضوعها للبخل، فكأنه قال: أبى جوده البخل، والثاني أن تكون (لا) زائدة، والأول أعني البدل أحسن، ومن جرَّه فقال: لا البخلِ فبإضافة (لا) إليه. والبيت أيضاً في مغني اللبيب، وكتب معلّقه (الدسوقي) ما نَصُّه: «قوله: لا يمنع الجودَ قاتله. فاعل يمنع عائد على الممدوح، والجود مفعول ثان، وقاتله مفعول أول، ويحتمل أن الجود فاعل يمنع، أي جوده لا يحرم قاتله، فإذا أراد إنسان قتله فجوده لا يحرم ذلك الشخص بل يصله».



أَفِمنْـــكَ لا بَـــرْقٌ كَـــأَنَّ وَميضَـــهُ غـــابٌ تَسَنَّمَـــهُ ضِـــرامٌ مثقـــب[(١)]

ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى، لأَنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية، وضعَّف الزجاج وغيره زيادة ﴿لَا﴾ وقال: هذا غلط، ومنهم من جعل ﴿أَنَّهَآ﴾ بمعنى (لعلَّها)، وحكاها سيبويه عن الخليل، وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة ﴿لَا﴾، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أُبي بن كعب: «وما أَدراكم لعلَّها إذا جاءَت لا يؤمنون»، ومن هذا المعنىٰ قول الشاعر:

قُلْـــتُ لِشَيْبَـــانَ ادْنُ مِـــنْ لِقَـــائِـــهْ أَنَّ تُغَـــدِّي الْقَـــوْمَ مِـــن شِـــوَائِـــهْ[(٢)]

فهذه كلها بمعنى (لعلَّ)، وضعف أَبو علي هذا بأَن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأَنهم لا يؤمنون، وترجَّح عنده في الآية أَن تكون (أَنَّ) على بابها، وأَن يكون المعنىٰ: «قل إنما الآيات عند الله لأَنها إذا جاءَت لا يؤمنون». فهو لا يأْتي بها لإصرارهم على كفرهم، وتكون الآية نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[(٣)] أي بالآيات المقترحة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويترتب على هذا التأْويل أَن تكون ﴿وَمَا﴾ نافية، ذكر ذلك أَبو علي فتأَمل. وترجَّح عنده أَيضاً أَن تكون ﴿لَا﴾ زائدة، وبسط شواهده في ذلك، وحكى بعض المفسرين أَن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة ﴿لَا﴾، وعن تأْويلها بمعنىٰ (لعَلَّ) وتقديره عندهم: أَنها إِذا جاءَت لا يؤمنون أَو يؤمنون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه.

---

(١) هذا البيت لساعدة الهذلي. قال الأَصحفي: يريد: أَمِنْك برقٌ؟ وتسنَّمه: عَلاه، والضِّرام: ما اشتعل من الحطب، والمثقب: المضيءُ، وتثقيب النار: تذكيتها وتأجيجها.

(٢) نسبه في «القرطبي» لأَبي النجم، ومثله قول حاتم طيء ـ وقيل: دُريد بن الصِّمَّة:

أَرِينـــي جَـــواداً مـــاتَ هُـــزْلاً لأَنَّنِـــي أرى مـــا تَـــرَيْـــنَ أَو بَخيـــلاً مُخَلَّـــدَا

وقول عديٍّ بن زيد:

أَعـــاذِلَ مـــا يُـــدْريـــكَ أَنَّ مَنِيَّتِـــي إلى ساعةٍ في الْيَوْم أَوْ في ضُحى الْغَدَ

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

(٣) من الآية (٥٩) من سورة (الإِسراءِ).

وتحتمل الآية أن يكون المعنى يتضمن الإخبار أنهم لا يؤمنون وقيل لهم: وما يشعركم بهذه الحقيقة؟ أي: لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أن لو جاءت، و﴿وَمَا﴾ استفهام على هذا التأويل، وفي مصحف ابن مسعود: «ومَا يُشعِرُكُم إذا جَاءَت لاَ يُؤمِنُونَ».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾. المعنى على ما قالت فرقة: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأنف على هذا: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1]. وقالت فرقة: إنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة والكفر. ومعنى الآية: إنَّ هؤلاء الذين أقسموا أنهم يؤمنون إنْ جاءَت آيةٌ نحنُ نقلب أفئدتهم وأبصارهم أنْ لو جاءَت فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا أول مرة بما دُعوا إليه من عبادة الله، فأخبر الله تعالىٰ ـ على هذا التأويل ـ بصورة فعله بهم[2].

وقرأ أبو رجاءٍ: [يَذَرُهُم] بالياءِ، ورويت عن عاصم، وقرأ إبراهيم النَّخعي: [وَيُقَلِّبُ] [وَيَذَرُهُمْ] بالياءِ فيها كناية عن الله تبارك وتعالىٰ. وقرأ أيضاً فيما روى عنه مغيرة: [وَتَقَلَّبُ] بفتح التاءِ واللام، بمعنىٰ: «وَتَتَقَلَّب أفئدتُهم وأَبصارُهم» بالرفع فيهما[3]، [وَيَذَرْهم] بالياءِ وجزم الراءِ.

وقالت فرقة: قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا﴾ في هذه الآية إنما بمعنى المجازاة، أي: لمَّا لم يؤمنوا أول مرة نجازيهم بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم، فكأنه سبحانه قال: ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاءً لمَّا لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من الشرع.

---

(١) وعلى هذا التأويل يكون بعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا، ونظيرها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ فهذا في الآخرة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ وهذا في الدنيا.

(٢) فهذا كله إخبارٌ من الله تعالىٰ بفعله بهم في الدنيا، ونظير الآية على هذا المعنى قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، ويؤكد هذا المعنىٰ آخر الآية وهو قوله سبحانه: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. بمعنى: ونتركهم في تخبطهم في الشرّ والإفراط فيه يتحيرون.

(٣) نقل أبو حيان رواية مغيرة عن النَّخعي: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ بالرفع على البناءِ للمفعول لا على معنىٰ وتَتَقَلَّب. فتأمل.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على الله عزَّ وجلَّ، أو على القرآن، أو على النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم. وقرأ الأعمش، والهمذاني: [وَيَذَرْهُم] بالياءِ وجزم الراءِ على وجه التخفيف.

والطغيان: التخبط في الشَّرِّ والإفراط فيما يتناوله المرءُ. والعَمَىٰ: التردد والحيرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أخبر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة، وإحياءِ سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد، أو يجمع عليهم كل شيءٍ يعقل أن يحشر عليهم ـ ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه الله ويخترعه في نفس من شاءَ لا ربَّ غيره، وهذا يتضمن الردّ على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان[1].

وقال ابن جُريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يثبت إلا بسند.

وقرأ نافع، وابن عامر، وغيرهما: [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباءِ، ومعناه: مواجهة ومعاينة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره. ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى: ناحية، كما تقول: لي قِبَلَ فلان ديْن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فنصبه ـ على هذا ـ هو على الظرف، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وغيرهم: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباءِ، وكذلك قرأ ابن كثير، وأبو عمرو هنا، وقرأ: [العذاب

(١) وهكذا يؤكد ابن عطية رحمه الله أنه يخالف المعتزلة في آرائهم خلافاً لما يدَّعيه بعض المحدثين، راجع المقدمة.



قبلاً][1] مكسورة القاف. واختلف في معناه. فقال عبد الله بن زيد، ومجاهد، وابن زيد: قُبُل: جمع قبيل، أَي: صنعا صنعا ونوعا نوعا، كما يجمع قضيب على قضب وغيره. وقال الفراءُ والزجاج: هو جمع قبيل وهو الكفيل، أَي: وحشرنَا عليهم كل شيءٍ كفلاءَ بصدق محمد ﷺ، وذكره الفارسي وضعَّفه. وقال بعضهم: قُبل بالضم بمعنى قِبل بكسر القاف أَي: مواجهة كما تقول: قبل ودبر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾[2]، ومنه قراءَة ابن عمر رضي الله عنهما: [لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ][3] أَي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن. وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو حيوة: [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباءِ وذلك على جهة التخفيف. وقرأَ طلحة بن مصرف: [قَبْلاً] بفتح القاف وإِسكان الباءِ. وقرأَ أُبي، والأَعمش: [قَبيلاً] بفتح القاف وكسر الباءِ وزيادة ياءٍ. والنصب في هذا كله على الحال.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الضمير عائد على الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنىٰ: يجهلون أَن الآية تقتضي إِيمانهم ولابد، فيقتضي اللفظ أَن الأَقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أَن الآية لو جاءَت لم يؤمن إِلا أَن يشاءَ الله له ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ الآية. تتضمن تسلية النبي ﷺ وعرض القدوة عليه، أَي أَن هذا الذي امتُحنْت به يا محمد من الأَعداءِ قد امتحن به غيرك من الأَنبياءِ ليبتلي اللهُ أُولي العزم منهم. و﴿عَدُوًّا﴾ مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأَول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، والمعفول الثاني في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ و﴿شَيَٰطِينَ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿عَدُوًّا﴾، ويصح أَن يكون المفعول الأَول ﴿شَيَٰطِينَ﴾ والثاني ﴿عَدُوًّا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين، الذين[4] هم

---

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الكهف) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٢٦) من سورة (يوسف): ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

(٣) من الآية (١) من سورة (الطلاق). وهي قراءَة شاذة، ونص الآية في القراءَة المتواترة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾. إلى آخر الآية.

(٤) كلمة (الذين) بالجمع صفة لكلمة (المتمردين) قبلها.

من شيم السوءِ كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويؤيده حديث أَبي ذرّ رضي الله عنه أَنه صلىٰ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: (تعوَّذ يا أَبا ذرٍّ من شياطين الجن والإِنس)، قال: وإِنَّ من الإِنس لشياطين؟ قال: (نعم)[1]، وقال السدي، وعكرمة: المراد بالشياطين الموكلون بالإِنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعما أَن للجن شياطين موكلين بغوايتهم، وأَنهم يوحون إِلى شياطين الإِنس بالشَّر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض، قالا: ولا شياطين من الإِنس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يستند إِلى خبر ولا إِلى نظر.

و﴿ يُوحِي ﴾ معناه: يلقيه في إِخفاءٍ كالمناجاة والسّرار و﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾ معناه: مُحَسَّنه ومُزَيَّنه بالأَباطيل، قاله عكرمة ومجاهد. والزخرفة أَكثر ذلك إِنما تستعمل في الشر والباطل. و﴿ غُرُوراً ﴾ نصب على المصدر، ومعناه أَنهم يغرون به المضللين، ويوهمون لهم أَنهم على شيءٍ والأَمر بخلاف، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ عائد على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿ يُوحِي ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ لفظ يتضمن الأَمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال، قال قتادة: كل (ذَرْ) في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال، و﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ معناه: يختلفون ويشتقون وهو من الفُرقة تشبيهاً بفَرْي الأَديم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ معناه: لِتَميل، يقال: صغَى يصْغىَ، وأَصلها يصغي بكسر الغين لكن ردَّه حرف الحلق إِلى الفتح، ويقال: صغا يصغو، وأَصغىٰ يصغي، وصغِيَ يصْغَى.

(١) الحديث في ابن كثير برواية عبد الرزاق عن قتادة، ورواية الإمام أحمد عن عبيد بن الحسيحاس، ورواية ابن جرير عن عوف بن مالك عن أَبي ذرٍّ، وروي أَيضاً من طرق أُخرىٰ ذكرها في (الدر المنثور ٣ ـ ٣٩).



و﴿ أَفْـِٔدَةُ ﴾ جمع فؤاد، ويقترفون معناه: يواقعون ويجترحون وهي مستعملة أَكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه.

والقُرَّاءُ على كسر اللام في الثلاثة الأَفعال على أَنها لام كي، فإِما أَن تكون معطوفة على ﴿ غُرُورًا ﴾ وإِما أَن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره: فعلوا ذلك، أَو جعلنا ذلك، فهي لام صيرورة، قاله الزجاج. ولا يحتمل أَن تكون هذه اللامات ـ على هذه القراءَة ـ لام الأَمر وضمنها الوعيد وتبقىٰ الياءُ في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ على نحو ما جاءَ من ذلك في قول الشاعر:

أَلَــمْ يَــأْتِيــكَ. . . . .؟[1]

إِلى غير ذلك مما قد قرىء به، قال أَبو الفتح: قرأَها الحسن بالتسكين في الثلاثة، وهي لام كي، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿ غُرُورًا ﴾، والتقدير: لأَجل الغرور ولتصغى، وإِسكان هذه اللام شاذٌّ في الاستعمال قويٌّ في القياس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن تُحمل قراءَة الحسن بسكون اللامات الثلاثة على أَنها لام الأَمر المضمن الوعيد والتهديد، والخط على هذه القراءَة [ولْتصْغَ]. ذكر أَبو عمرو الداني أَن تسكينه في اللامات الثلاثة، وكذلك قال أَبو الفتح وذكر أَن الحسن إِنما يسكن اللامين الثانية والثالثة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك يخالف خط المصحف في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾.

وقال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتحصل أَن تسكن اللام في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ على ما ذكرناه في قراءَة الجماعة. قال أَبو

---

(١) البيت بتمامه. وهو:

أَلَــمْ يَــأْتِيــكَ والأَنْبَــاءُ تَنْمِــي ... بمــا لاقَــتْ لَبُــونَ بنــي زيــادِ؟

ومعنى كلامه أن اللام في ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ وفي ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ ﴾ يمكن أن تكون لام الأمر مضمنة الوعيد والتهديد، ولكن ذلك بعيد الاحتمال في ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ وإن كان ذلك قد جاءَ في الكلام كبيت الشعر، وكقراءَة قنبل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِي وَيَصْبِرْ ﴾. وقال بعضهم هي في (لِتَصْغَىٰ) لام (كي) وسكنت شذوذاً في قراءَة الحسن، وفي الفعلين الثاني والثالث هي لام الأَمر مضمناً التهديد والوعيد بدون شذوذ.



عمرو: وقراءَة الحَسَن إنما هي: [لِتَصغِي] بكسر الغين، وقراءَة إبراهيم النَّخَعي [لِتُصْغِي] بضم التاءِ وكسر الغين من: أَصْغَى يُصغي، وكذلك قرأَ الجراح بن عبد الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ نصب بـ ﴿أَبْتَغِي﴾ و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان والتميز[1]. و﴿مُفَصَّلًا﴾ معناه: مُزال الإشكال قد فصلت آياته. وهذه الآية ـ وإن كان معناها يعُمّ في أن الله لا يبتغي سواه حَكَماً في كل شيءٍ وفي كل قضية ـ فإنا نحتاج في وصف الكلام واتِّساق المعاني أن ننظر فيما تقدم إلى قضية تكون سبباً إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟ فهي ـ والله أعلم ـ حُكْمه عليهم بأَنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات، وحكمه بأَن جعل للأَنبياءِ أَعداءَ من الجن والإِنس. و﴿حَكَمًا﴾ أَبلغ من (حاكم) إِذ هي صيغة لِلْعَدْلِ من الحكَّام، و(الحاكم) جارٍ على الفعل، فقد يقال للجائر. و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان أَو الحال.

وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم، لا حُجَّة لها لأَن الله تعالىٰ حكَّم في الصَّيد، وبيْن الزوجيْن، فتحكيم المؤمنين من حُكْمه تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يتضمن الاستشهاد بمؤمنيهم، والطعنَ والتَّنْبيه على مشركيهم وحسدتهم. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بالتشديد، والباقون بالتخفيف، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَولاً هو القرآن، وثانياً اسم جنس التوراة والإِنجيل والزبور والصحف. ووصفُه أَهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص، وإِنما يريد علماءَهم وأَحبارهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

---

(١) وذلك كقولهم: «إنَّ لنا غيرها إبلا»، فالقصد تمييزهم عن غيرهم.

(٢) قيل: إن الخطاب للنبي ﷺ هو خطاب لأمته، وقيل: الخطاب لكل سامع إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي المماراة فيه. وقيل: هو من باب الإلهاب والإثارة كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.



﴿ وَتَمَّتْ ﴾ ـ في هذا الموضع ـ بمعنىٰ: استمرت وصحت في الأزل صدقاً وعدلاً، وليس بتمام من نقْص، ومثله ما وقع في السيرة من قولهم: «وتم حمزة على إسلامه» في الحديث مع أَبي جهل.

والكلمات: ما نزَّل على عباده، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: كلمت بالإفراد هنا وفي يونس في الموضعين، وفي حم المؤمن وقرأ نافع، وابن عامر جميع ذلك [كلمات] بالجمع، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو هنا فقط [كلمات] بالجمع، وذهب الطبري إِلى أَنه القرآن كما يقال: «كلمة فلان» في قصيدة الشعر والخطبة البليغة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي بعيد معترض، وإِنما القصد، العبارة عن نفوذ قوله تعالىٰ: ﴿ صِدْقًا ﴾ فيمـا تضمَّنه مِنْ خبر، و﴿ وَعَدْلًا ﴾ فيما تضمنه من حُكم، وهما مصدران في موضع الحال، وقال الطبري: «نصباً على التمييز»، وهذا غير صـواب. و﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ معناه: في معانيها بأَن يُبيِّن أَحد أن خبره بخلاف ما أَخبر به، أَو يُبيِّن أَن أَمره لا ينفذ، والمثال من هذا أَن الله تعالىٰ قال لنبيه ﷺ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ إِلى ﴿ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾[1]. فقال المنافقون بعد ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين: «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾[2]، أَو في قوله تعالىٰ: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا ﴾[3] لأَن مضمَّنه الخبر بأَن لا يباح لهم خروج، وأَما الأَلفاظ فقد بدلتها بنو إِسرائيل وغيَّرتها، هذا مذهب جماعة من العلماءِ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنهم إِنما بدَّلُوا بالتأْويل، والأَول أَرجح. وفي حرف أُبي بن كعب: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية. المعنىٰ: فامض يا محمد لما أُمرت به وأَنفذ لرسالتك فإِنك إِنْ تطع أَكثر من في الأَرض يضلوك، وذكر سبحانه: ﴿ أَكْثَرَ ﴾ لأَن أَهل الأَرض حينئذ كان أَكثرهم كافرين، ولم يكن المؤمنون إِلا قلة.

---

(١) هي الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة).
(٢) من الآية رقم (١٥) من سورة (الفتح).
(٣) من الآية رقم (٨٣) من سورة (التوبة)

وقال ابن عباس: الأرض هنا: الدنيا. وحكي أن سبب هذه الآية أن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ في أمر الذبائح وقالوا: تأكل ما تقتل وتترك ما قتل الله؟ فنزلت الآية، ووصفهم عزَّ وجلَّ بأنهم إنَّما يقتدون بظنونهم، ويتبعون تخرُّصهم، والخَرْص: الحزْرُ والظن[1]، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياءِ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [يُضل] بضم الياءِ، ورواه أحمد بن أبي شريح عن الكسائي. و﴿مَن﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «يعلم مَنْ». وقيل: في موضع رفع كأنه قال: «أي يضل عن سبيله»، ذكره أبو الفتح وضعفه أبو علي، وقيل: في موضع خفض بإضمار باءِ الجر كأنه قال: «بمن يضل عن سبيله»، وهذا ضعيف. قال أبو الفتح: هذا هو المراد فحذفت باءُ الجر ووصل ﴿أَعْلَمُ﴾ بنفسه، قال: ولا يجوز أن يكون ﴿أَعْلَمُ﴾ مضافاً إلى ﴿مَن﴾ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه. وهذه الآية خبر في ضمنه وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

القصد بهذه الآية النَّهْيُ عما ذُبح للنصب وغيرها وعن الميتة وأنواعها، فجاءَت العبارة أمراً بما يضاد ما قصد النَّهْيُ عنه، ولا قصد في الآية إلى ما نَسِيَ فيه المؤمن التسمية أو تعمدها بالترك. قال عطاءُ:

هذه الآية أمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بهما يتضمن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟﴾ الآية. ﴿وَمَا﴾ استفهام يتضمن التقرير،

---

(١) أَصل الخَرْص: التَّظَنِّي فيما لا تستيقنه، ومنه خرص النخل والكرم إذا حزرت التمر، وجاءَ في الحديث عن النبي ﷺ أنه أمر بالخرص في النخل والكرم خاصة دون الزرع القائم. فالخرص في أصله هو التقدير بغير علم، ثم قيل للكذب: خرصٌ لما يدخله من الظنون الكاذبة، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، قال الزجاج: الكذابون. (عن اللسان).



وتقدير هذا الكلام: وأي شيءٍ لكم في ألاّ تأكلوا؟ فـ ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بتقدير حرف الجرّ، ويصح أن تكون في موضع نصب على ألاّ يقدر حرف الجرّ ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ تقديره: ما يجعلكم وقد فُصِّل لكم ما حرِّم، أي: وقد بُيِّنَ لكم الحلال من الحرام وأزيل عنكم اللبس والشك؟.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَقَدْ فُصِّلَ لَكُم مَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول في الفعلين. وقرأ نافع، وحفصٍ عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل في الفعلين. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ على إسنادالفعل إلى الفاعل [لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ] على إسناد الفعل إلى المفعول. وقرأ عطية العوفي: [وَقَدْ فَصَلَ] على بناءِ الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها [ما حُرِّمَ] على بناءِ الفعل للمفعول. والمعنى: قد فَصَل الحرام من الحلال وانتزعه بالتبيين. و﴿وَمَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ يريد بها: من جميع ما حرَّم كالميتة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناءُ منقطع.

وقوله تعالىٰ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ يريد الكفرة المحادّين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم: «تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله؟» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لَيَضِلُّون] بفتح الياءِ على معنىٰ إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلُّوا﴾ وفي الحج ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ﴾ وفي لقمان: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي الزُّمَر: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾(1). وقرأ نافع، وابن عامر كذلك في هذه وفي يونس. وفي الأربعة التي بعد هذه يضُمّان الياءَ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم، وهذه أبلغ في ذمّهم لأن كل مُضِلّ ضال، وليس كل ضالٍّ مُضلاً. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي في المواضع الستة: ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم. ثم بيَّن عزَّ وجلَّ في ضلالهم أنه على أقبح الوجوه، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معناه: في غير نظر، فإن لِمَنْ يضل بنظر ما بعضُ عذر لا ينفع في أنه اجتهد.

---

(١) أرقام الآيات في المواضع الخمسة ـ غير هذه السورة ـ هي على الترتيب الذي ذكره: رقم (٨٨) من سورة (يونس)، ورقم (٣٠) من سورة (إبراهيم)، ورقم (٩) من سورة (الحج)، ورقم (٦) من سورة (لقمان)، ورقم (٨) من سورة (الزُّمَر).



ثم توعدهم تبارك وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

هذا نهيٌ عام من طرفيه لأن الإثم يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي، وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصص، فقال السدي: ظاهره الزنى الشهير الذي كانت العرب تفعله، وباطنه اتخاذ الأخذان، وقال سعيد بن جبير: الظاهر ما نصَّ الله على تحريمه بقوله تعالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾[1] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم ﴾[2] الآية، والباطن الزنىٰ، وقال ابن زيد: الظاهر التعري، والباطن الزنىٰ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها. وقال قوم: الظاهر الأعمال، والباطن المعتقد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن لأنه عام.

ثم توعَّد تبارك وتعالىٰ كسبة الإثم بالمجازاة على ما اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله، والاقتراف: الاكتساب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة، إذ هي جواب لقول المشركين: «تتركون ما قتل الله»، والنهي أيضاً عما ذبح للأنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه

---

(١) هي الآية رقم (٢٣) من سورة (النساء).
(٢) الآية رقم (٢٢) من سورة (النساء).



من ذبائح الإسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبد الله بن عمر، ونافع، وعبد الله بن زيد الخطمي، والشعبي، وغيرهم، فما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل، وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسياناً، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمداً، وهذا قول الجمهور، وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً، وعن ربيعة أيضاً، قال عبد الوهاب: التسمية سُنَّة فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمداً فقال مالك: لا تؤكل، فحمل بعض أصحابه قوله: «لا تؤكل» على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهية. وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً، وقال نحوه الطبري.

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماءِ في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وشرع. وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة، والحسن ابن أبي الحسن.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ من ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟﴾ ويحتمل أن يعود على «ترك الذكر» الذي يتضمنه قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يُذْكَرِ﴾. والفسق: الخروج عن الطاعة، هذا عرفه في الشرع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الآية، قال عكرمة: عني بالشياطين في هذه الآية مردة الإنس من مجوس فارس، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي ﷺ فخاطبوهم مُنَبِّهِينَ على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم: «تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟» فذلك من مخاطبتهم هو الحي الذي عني. والأولياءُ قرائن. والمجادلة: هي تلك الحجة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن كثير: بل الشياطين: الجنّ، واللفظة على وجهها، وكَفرة الجن أولياءُ لكفرة قريش، ووحْيُهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم تلك الحجة، أو على ألسنة الكهان. وقال أبو زميْل: كنت عند ابن عباس فجاءَه رجل فقال: إن أبا إسحق ـ يعني المختار ـ زعم أنه أُوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فَنَفَرْتُ، فقال ابن عباس: «وإن الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم».



ثم نهى الله تعالىٰ عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قولاً: إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أبو سعيد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن اليهود لا تأكل الميتة، أما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجُّون عن العرب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أُمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك، وذكْر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك، فمثل الله عزَّ وجلَّ في الطائفتين بأَن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأموات أُحيوا، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها، لِيُبيِّن عزَّ وجلَّ الفرق بين الطائفتين والْبَوْنَ بين المنزلتين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوَمَن﴾؟ بفتح الواو، فهي ألف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة، و﴿مَن﴾ بمعنى الذي. وقرأ طلحة بن مصرف [أَفَمَنْ]؟ بالفاءِ، والمعنىٰ قريب من معنى الواو، والفاءُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ عاطفة. و﴿نُورًا﴾ أَمْكَنُ ما يُقي[1] به الإيمان، و﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾، يراد به جميع التصرف في الأفعال والأقوال. قال أبو علي: ويحتمل أن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة، و﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿يَمْشِى﴾[2]، ويصح أن يتعلق بـ﴿كَانَ مَيْتًا﴾. وقوله تعالىٰ:

(١) في بعض النسخ: ما يعني به الإيمان.

(٢) قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس، فذكر أن منفعة المؤمن ليست مقتصرة على نفسه. قاله في «البحر المحيط».



﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ بمنزلة «كمن هو»، والكاف في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه، تقديره: «وكما أَحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زُيِّن للكافرين»، ويحتمل أَن يتعلق بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أَي كهذه الحال هو التزيين.

وقرأ نافع وحده: [مَيِّتا] بكسر الياءِ وشدّها. وقرأ الباقون ﴿مَيْتًا﴾ بسكون الياءِ. قال أَبو علي: التخفيف كاالتشديد، والياءُ المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أُعلت بالحذف كما أُعلت بالقلب.

وقالت طائفة: إن هذه الأَلفاظ التي مثل بها وإن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر فإنما نزلت في مخصوصين. فقال الضحاك: المؤمن الذي كان ميتاً فأُحيي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحكى المهدوي عن بعضهم أَنه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقال عكرمة: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقال الزجاج: جاءَ في التفسير أَنه يعني به النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واتفقوا على أَن الذي في الظلمات أَبو جهل بن هشام، وإلى حاله وحال أَمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية تتضمن إنذاراً بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم لأَنه مقتضى حال من تقدمهم من نظائرهم، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني أَن التمثيل لهم، و﴿جَعَلْنَا﴾ في هذه الآية بمعنى صيرنا، فهي تتعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأَول: ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ والثاني: ﴿أَكَٰبِرَ﴾، وفي الكلام ـ على هذا ـ تقديم وتأْخير تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أَكابر، وقدم الأَهم، إذ لعلة كبرهم أَجرموا. ،يصح أَن يكون المفعول الأَول: ﴿أَكَٰبِرَ﴾ و﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مضاف والمفعول الثاني قوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ و﴿لِيَمْكُرُوا۟﴾ نصب بلام الصيرورة.

والأَكابر جمع أَكبر كما الأَفاضل جمع أَفضل، ويقال: أَكابرة كما يقال: أَحمر وأَحامرة، ومنه قول الشاعر:



إِنَّ الأَحَامِرَةَ الثَّلاثَةَ أَتْلَفَتْ مالي، وكُنْتُ بِهِنَّ قِدماً مُولَعَا[١]

يريد: الخمر واللحم والزعفران. والمكر: التخيُّل بالباطل والخديعة ونحوهما. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يريد: لرجوع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يعلمون، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيءُ الذي يلي البدن، فكان الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حسّ، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إذ البهائم تعلم علوم الحسّ، وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

هذه الآية آية ذم لكفار وتوعد لهم، يقول: وإذا جاءَتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا: إنما يفْلق لنا البحر، إنما يحيي لنا الموتى ونحو ذلك[٢]. فرد الله عزَّ وجلَّ عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يتشطط على الله. قال الزجاج: قال بعضهم: الأبلغ في تصديق الرسل ألا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم، و﴿أَعْلَمُ﴾ معلق العمل والعامل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل تقديره: يعلم حيث[٣].

---

(١) البيت للأعشىٰ: وقد بيَّن الثلاثة التي أحبها حتى أتلفت ماله في البيت التالي وهي الخمر واللحم والزعفران، كما قال ابن عطية.

(٢) أي: طلبوا المستحيل وعلقوا إيمانهم على ممتنع وقصدوا بذلك أنهم لا يؤمنون أبداً، قال أبو حيان: «وقولهم: ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ ليس فيه إقرار بالرسل من الله، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبعوا رسل الله». أي: لو كانوا يؤمنون بهؤلاء الرسل لاتبعوهم.

(٣) ذلك لأنه لا يجوز أن يعمل ﴿أَعْلَمُ﴾ في ﴿حَيْثُ﴾ ويكون ظرفاً، لأن المعنى على ذلك يكون: الله أعلم في هذه المواضع، وذلك لا يجوز أن يوصف به الباري سبحانه وتعالىٰ ولهذا عمل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل مقدر دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾. قاله العلماءُ، قال الحوفي: ﴿حَيْثُ﴾ لا يمكن إقرارها على الظرفية هنا، لأنه تعالىٰ لا يكون في مكان أعلم منه في مكان، وإذا لم تكن ظرفاً كانت مفعولاً على السَّعة، و﴿أَعْلَمُ﴾ لا يعمل في المفعولات فيكون العامل فيه فعل دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾. نقله في «البحر» عن الحوفي.



ثم توعَّد تعالى بأن هؤلاءِ المجرمين الأكابر في الدنيا سيصيبهم عند الله صَغَارٌ وذِلَّة.
و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَيُصِيبُ﴾، ويصح أن تتعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ لأنه مصدر، قال الزجاج: التقدير: صغار ثابت عند الله، قال أبو علي: وهو متعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ دون تقدير (ثابت) ولا شيءَ غيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية. ﴿وَمَن﴾ أداة شرط، و﴿يَشْرَحْ﴾ جواب الشرط، والآية نصٌّ في أن الله عزَّ وجلَّ يريد هُدى المؤمن وضلال الكافر، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالىٰ.

والهدى في هذه الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه، وشرح الصدر هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله، والهدى لفظة مشتركة تأْتي بمعنى الدعاءِ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وتأْتي بمعنىٰ إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المفضية إليها كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[2]، وغير ذلك، إلاَّ أنها في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3]. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[4] ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه، إذ الوجوه الأُخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبلُ وبعدُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ أَلفاظ مستعارة ها هنا، إذ الشرحُ: التوسعة والبسط في الأَجسام، وإذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان مُعداً ليحل فيه، فيشبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع، وشبَّه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجسم المشروح، والصدر عبارة عن القلب، وهو المقصود إذ الإيمان من خصاله، وكذلك الإسلام عبارة عن الإيمان إذ الإسلام أعم منه، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم. وأدنى الهدى حب

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورىٰ).
(٢) من الآية (٤) والآية (٥) من سورة (محمد).
(٣) الآية (١٧٨) من سورة (الأعراف).
(٤) من الآية (٥٦) من سورة القصص.

الأعمال وامتثال العبادات. وفي ﴿يَشْرَحْ﴾ ضمير عائد على الهدىٰ، قال: وعوده على الله عزَّ وجلَّ أَبْيَن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول بأن الضمير عائد على الهدى قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال، وينبغي أن يعتقد ضعفه، وأن الضمير إنما هو عائد على اسم الله عز وجلَّ فإن هذا يعضده اللفظ والمعنىٰ: وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: (إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح)، قالوا: وهل لذلك علامة يارسول الله؟ قال: (نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفَوْت)[١].

والقول في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ كالقول في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و﴿يَجْعَلْ﴾ ـ في هذا الموضع ـ تكون بمعنى: يَحْكم له بهذا الحكم، كما تقول: «هذا يجعل البصرة مصراً»[٢]، أي يحكم لهُ بحكمها.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى يقرب من: صيَّر، وحكاه أبو علي الفارسي، وقال أيضاً: يصح أن يكون (جَعَلَ) بمعنى سمَّى كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾[٣]، أي: سمُّوهم، قال: وهذه الآية تحتمل هذا المعنىٰ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدائني ـ رجل من بني هاشم وليس هو محمد بن علي ـ وفي أوله: قال: سئل النبي ﷺ أي المؤمنين أكْيَس؟ قال: (أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً) ثم تأتي بقية الحديث كما رواه ابن عطية رحمه الله ـ وفي آخره: (والاستعداد للموت قبل الموت) أو (قبل لقاء الموت). وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك أخرجه عنه آخرون. (الدر المنثور ٣ـ ٤٤) و(ابن كثير ٣ـ ٩٧).

(٢) المراد أن يجعل البصرة مثل مصر ويحكم لها بحكمها، ـ و(مصر) كما قال ابن سيده: تصرف ولا تصرف. (راجع اللسان).

(٣) من الآية (١٩) من سورة (الزخرف).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الوجه يضعف في هذه الآية.

وقرأَ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بكسر الياءِ وتشديدها، وقرأَ ابن كثير: [ضَيْقا] بسكون الياءِ، وكذلك قرأَ في الفرقان[١]. قال أَبو علي: وهما بمنزلة الميِّت والميْت، قال الطبري: وبمنزلة الْهَيِّن واللَّيِّن والهَيْن واللَّيْن، قال: ويصح أَن يكون الضَّيْق مصدراً من قولك: ضاق الأَمر يضيق ضِيقاً وضَيْقاً، وحكى عن الكسائي مصدراً من قولك: ضاق الأَمر يضيق ضِيقاً وضَيْقاً، وحكىٰ عن الكسائي أَنه قال: الضِّيق بشد الضاد وكسرها في الأَجرام والمعاش، والضَّيق بفتح الضاد في الأُمور والمعاني.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الراءِ. وقرأَ نافع، وعاصم في رواية أَبي بكر: [حَرِجاً] بكسرها، قال أَبو علي: فمن فتح الراءِ كان وصفاً بالمصدر، كما تقول: رجل قَمَن بكذا، وحرَي بكذا، ودنَف[٢]، ومن كسر الراءَ فهو كذَنِف وقمِنٌ وفرِقٌ[٣]، وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراءِ فقرأَها له بعض الصحابة بكسر الراءِ فقال: ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً وليكن من بني مدلج، فلما جاءَه قال له: يا فتى ما الحَرَجة عندكم؟ قال: الشجرة تكون بين الأَشجار لا تصل إِليها راعية ولا وحشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إِليه شيءُ من الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَي: كأَن هذا الضَّيِّق الصدر يحاول الصعود في السماء متى حاول الإِيمان أَو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماءِ، قال بهذا التأْويل ابن جريج، وعطاءُ الخراساني، والسّدي. وقال ابن جبير: المعنىٰ: لا يجد مسلكاً إِلا صعداً من شدة التضايق.

---

(١) من الآية (١٣) من سورة (الفرقان) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

(٢) قَمِنَ (تكون بفتح الميم كَجَبَل وبكسرها كَكَتِف، وهو الخليق والجدير بالأَمر. و(حَري) هو الخليق والجدير أَيضاً، يقال: إنه لَحريَ بكذا، وحريٌّ كَغَنِيّ، وحَر. والدَّنَفُ: المَرَض. يقال: رجلٌ وامرأَةٌ وقومٌ دَنَفٌ محركة، فإذا كسرت فقلت (دنِفٌ) أَنَّث وثنَّيت وجمعت ـ وقد تثنى وتجمع المحركة. (القاموس المحيط).

(٣) (فَرِق) كفَرح: الفزع الخائف. (القاموس المحيط).

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بإدغام التاءِ من «يَتَصَعَّدُ» في الصاد. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: [يَصَّاعَد] بإدغام التاءِ من «يَتَصَاعَدُ» ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَصْعَد﴾[1]، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن مصرف: [يَتَصَعَّد] بزيادة تاءٍ.

و﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: من سفل إلى علو في الهواءِ، قال أبو علي: ولم يرد السماءَ المُظِلَّة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه: «والقيدود: الطويل في غير سماءٍ». يريد: في غير ارتفاع صعدا، قال: ومن هذا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2] أي في جهات الجو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على غير من تأول «تَقَلُّب الوجه» أنه الدعاءُ إلى اللهٰ عزَّ وجلَّ في الهداية إلى قِبْلة، فإن مع الدعاءِ يستقيم أَن يقلب وجهه في السماء المُظِلة حسب عادة الداعين إذ قد أَلِفوا مجيءَ النعم والآلاءِ من تلك الجهة. وتحتمل الآية أَن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأَنه يصعد بها في الهواءِ. ويصْعَد معناه: يعلو. ويصَّعَّد معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي اللهٰ عنه: ما تصعَّدني شيءٌ كما تصعَّدني خطبة النكاح إلى غير ذلك من الشواهد، ويصَّاعد في المعنى مثل يَصَّعَّد.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أَي: وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عزَّ وجلَّ ومشيئته كذلك يجعل الله الرجس. قال أَهل اللغة: الرِّجس يأْتي بمعنى العذاب ويأْتي بمعنى النجس، وحكىٰ الطبري عن مجاهد أَنه قال: الرجس كل ما لا خير فيه، وقال بعض الكوفيين: الرجس والنجس لغتان بمعنىٰ، و﴿يَجْعَلُ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يحسُن أَن تكون بمعنى يُلْقي، كما تقول: جعلت متاعك بعضه على بعض، وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3].

---

(١) أي: بإسكان الصاد مخفَّفة من الصعود وهو الطلوع. وأما [يَصَّاعد] فأصلها (يتصاعد) بالتاءِ، وكذلك ﴿يَصَّعَّدُ﴾ أصلها (يتَصَعَّد) بالتاءِ، وقد أُدغمت التاءُ في الصاد في القراءَتين، والمعنى فيهما يدل على فعل شيءٍ بعد شيءٍ، وذلك أثقل على فاعله.

(٢) من الآية (١٤٤) من سورة (البقرة).

(٣) من الآية (٣٧) من سورة (الأنفال).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنىٰ في (جَعَلَ) حكاه أبو علي الفارسي، ويحسن أن تكون ﴿يَجْعَلُ﴾ ـ في هذه الآية ـ بمعنىٰ: يُصَيِّر، ويكون المفعول الثاني في ضمن ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قال سبحانه: «قرين الذين»، أو «لَزِيم الَّذين» ونحو ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القرآن والشرع الذي جاءَ به محمد عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس، والصراط: الطريق، وإضافة الصراط إلى الربّ على جهة أنه من عنده وبأمره، و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكدة، وليست كالحال في قولك: جاءَ زيد راكباً، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود.

و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيَّنَّا وأوضحنا، وقوله تعالىٰ: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على القوم المتذكِّرين، و﴿السَّلَامِ﴾ يتّجه فيه معنيان: أحدهما أن (السلام) اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ فأَضاف (الدار) إليه وهي ملْكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول: السلام عليك، وكقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[1]، وقوله تعالىٰ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: في الآخرة بعد الحشر، و﴿وَلِيُّهُم﴾ أي: وليُّ الإنعام عليهم، و﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يقدمون من الخير، ويفعلون من الطاعة والبِرِّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

(١) من الآية (١٠) من سورة (يونس).



﴿وَيَوْمَ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: واذكر يوم، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿وَلِيُّهُم﴾ والعطف على موضع قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾، والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على الطائفتين: الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جِناً وإِنْساً، والذين لهم دار السلام جِنًّا وإِنْساً، ويدلُ على ذلك التأكيد العام بقوله تعالىٰ: ﴿جَمِيعًا﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ، وقرأ الباقون بالنون. وكلٌّ متَّجه[1].

ثم ذكر عزَّ وجلَّ ما يقال للجن الكفرة، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره: نقول يا معشر الجن. وقوله تعالىٰ: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ معناه: فرَّطتم، و﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يريد في إِغوائهم وإِضلالهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقال الكفار من الإِنس وهم أَولياءُ الجن المُوَبَّخين على جهة الإِعتذار عن الجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وذلك في وجوه كثيرة: حكى الطبري وغيره أَن الإِنس كانت تستعيذ بالجن في الأَودية ومواضع الخوف[2]، وكانت الجن تتعظم على الإِنس وتسودها كما يفعل العربي بالكاهن والمجير والمستجير، إِذ كان العربي إِذا نزل وادياً ينادي: يا ربَّ الوادي إِني أَستجير بك هذه الليلة، ثم يرىٰ أَن سلامته إِنما هي بحفظ جِنِّي ذلك الوادي. فهذا استمتاع بعضهم ببعض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذا مثال في الاستمتاع، ولو تُتُبِّعَ لتبينت له وجوه أُخر كلها دنيوية.

وبلوغ الأَجل المؤجل ـ قال السُّدي: هو الموت الذي انتهىٰ الكلُّ منهم إِليه، وقيل: هو الحشر، وقيل: هو الغاية التي انتهى جميعهم إِليها من الاستمتاع، كأَنهم أَشاروا إِلى أَن ذلك بقدرك وقضائك إِذ لكل كتاب أَجل. وقرأ الحسن: [وَبَلِّغْنَا أَجَلَنَا] بكسر اللام مشددة.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، المعشر: الجماعة، ويجمع على معاشر، ومنه الحديث الشريف: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)، وقال الأفوه:

فِينَا مَعَاشِرُ لَنْ يَبْنُوا لِقَوْمِهِمُ ... وإِنْ بَنَى قَوْمُهُمْ مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. الآية (٦) من سورة (الجن).



وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ الآية. إخبار من الله عزَّ وجلَّ عما يقول لهم يوم القيامة إِثر كلامهم المتقدم، وجاءَ الفعل بلفظ الماضي ـ وهو في الحقيقة مستقبل ـ لصحة وقوعه، وهذا كثير في القرآن وفصيح الكلام. و﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ أَي موضع ثوائِكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة. هذا قول الزجاج وغيره، قال أَبو علي في «الأغفال»: المثوى عندي مصدر لا موضع له، وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿خَٰلِدِينَ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوائِكم، والاستثناءُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ـ قالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنىٰ (مَنْ) فالمراد: إلا من شاءَ مِمَّن آمن في الدنيا بعد أَن كان من هؤُلاءِ الكفرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما كان هؤلاءِ صنفاً ساغت في العبارة عنهم ﴿مَا﴾، وقال الفراءُ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنىٰ (سوى)، والمراد: سوى ما يشاءُ من زيادة في العذاب، ونحا إِليه الزَّجاج. وقال الطبري: إِن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إِلى دخولهم النار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وساغ هذا من حيث العبارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ لا تَخُص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره، وقال الطبري عن ابن عباس إِنه كان يتناول في هذا الاستثناءِ أَنه مبلغ حال هؤُلاءِ في علم الله، ثم أَسند إِليه أَنه قال: إِن هذه الآية آية لا ينبغي لأَحد أَن يحكم على الله في خَلْقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والإِجماع على التخليد الأَبدي في الكفار، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتجه عندي في هذا الاستثناءِ أَن يكون مخاطبة للنبي ﷺ وأُمته، وليس مما يقال يوم القيامة، المستثنىٰ هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله، كأَنه لمَّا أَخبرهم

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية عن علي بن أبي طلحة. (ابن كثير ٣ـ ١٠١).

أنه قال للكفار: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ استثنىٰ لهم من يمكن أن يؤمن منهم.

و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية، لأن تخليد هؤلاءِ الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعِلم بمواقع الأشياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي﴾. قال قتادة: ﴿نُوَلِّي﴾ معناه: نجعل بعضهم وليَّ بعض في الكفر والظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يؤيده ما تقدم من ذكر الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض. وقال قتادة أيضاً: معنى ﴿نُوَلِّي﴾: نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، أي نجعل بعضهم يلي بعضاً، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياءَ النقمة منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة، أما إنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي عن عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق صعد المنبر فقال: «إن فم الذبان قتل لطيم الشيطان»[1]، و﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ داخل في القول يوم الحشر، والضمير في

(١) يريد بفم الذبان عبد الملك بن مروان، وقد غلب عليه هذا لفساد كان في فمه. واللطيم في الأصل هو الذي مات أبواه فأصابه الذل والهوان. وهنا أصبحت رعايته للشيطان، وطبعاً المراد به عمرو بن سعيد الأشدق. وابن الزبير يرى أن كلا منهما ظالم، وقد سلط الله واحداً منهما على الآخر، وفي الخبر عن النبي ﷺ: (من أعان ظالماً سلطه الله عليه). والله يسلط الظلمة بعضهم على بعض.



﴿مِّنكُمْ﴾ قال ابن جريج: عمم بظاهره الطائفتين والمراد الواحدة تَجَوُّزاً، وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]، وذلك إنما يخرج من الأُجاج. وقال الضحاك: الضمير عائد على الطائفتين وفي الجِنّ رسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وقال ابن عباس: الضمير عائد على الطائفتين، ولكن رسل الجن هم رسل الإِنس، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسُلُ رسله، وهم النُّذر. و﴿يَقُصُّونَ﴾ من القصص. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: [أَلَمْ تَأْتِكُمْ] بالتاءِ على تأنيث لفظ الرسل.

وقولهم: «شَهِدْنا» إقرار منهم بالكفر واعتراف، أَي: شهدنا على أنفسنا بالتقصير. وقوله تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ التفاتة فصيحة تضمنت أَن كفرهم كان بأَذمّ الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل. ويحتمل ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ أَن يكون بمعنىٰ: أَشبعتهم وأَطعمتهم بحلوائها كما يقال: غرَّ الطائر فرخه. وقوله تعالىٰ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإِشراك ـ مناقضةٌ، والجمع بينهما هو إمَّا طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتَّىٰ، وإما أَن يريد سبحانه بقوله هنا: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ شهادة الأَيدي والأَرجل والجلود بعد إنكارهم بالأَلسنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللفظ ها هنا يبعد من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن﴾ الآية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ يصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ والخبر محذوف تقديره: ذلك الأَمر، ويصح أَن يكون في موضع نصب بتقدير: فعلنا، و﴿أَن﴾ مفعول من أَجله، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: المدن، والمراد أَهل القرى، و﴿بِظُلْمٍ﴾ يتوجه فيه معنيان: أَحدهما أَن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن ليهلك المدن دون نِذَارة[2]، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم والله ليس بظلام للعبيد، والآخر أَن الله عزَّ

---

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن). والأُجَاجُ: المِلح، ويراد به هنا البحر، ومنه يستخرج اللؤلؤ والمرجان لا من الأنهار ذات المياه العذبة.

(٢) النِّذارة كالإنذار ـ قال في القاموس: «والنذير: الإِنْذار كالنِّذارة بالكسر، وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه».



وجلَّ لم يهلك أَهل القرىٰ بظلم إِذ ظلموا دون أَن ينذرهم[١]، وهذا هو البيّن القوي، وذكر الطبريُّ رحمه الله التأويلين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ الآية إِخبار من الله عزَّ وجلَّ أَن المؤمنين في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أَعمالهم وتفضُّل اللهِ عليهم، والمشركين أَيضاً على درجات من العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن كل مؤمن قد رضي بما أُعطي غاية الرضىٰ.

وقرأَت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على لفظ (كُلّ)، وقرأَ ابن عامر وحده [تَعْمَلون] على المخاطبة بالتاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ صفة ذات الله عزَّ وجلَّ لأَنه تبارك وتعالى لا يفتقر إِلى شيءٍ من جهة من الجهات، ثم تُليت هذه الصفة بقوله تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فأَردف الاستغناءَ بالتفضل، وهذا أَجمل تناسق، ثم عقَّب بهذه الأَلفاظ المضمنة الوعيد المحذِّرة من بطش الله عزَّ وجلَّ في التعجيل بذلك، وإِما مع المهلة ومرور الجديديْن فكذلك عادة الله في الخلق، وأَما الاستخلاف فكما أَوجد الله تعالىٰ هذا العالم الآدميَّ بالنشأَة من ذرية قوم متقدمين أَصلهم آدم عليه السلام.

وقرأَت الجماعة: ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ بضم الذال وشد الراءِ المكسورة، وقرأَ زيد بن ثابت

---

(١) الظلم في هذا الوجه الثاني من الكافرين، والمعنىٰ أن الله تعالىٰ لم يكن ليهلك أهل القرى بسبب شرك من أَشرك منهم، فهو مثل قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وقد قال ابن عطية عن الوجه الثاني إنه هو البيِّن القوي لأَن الوجه الأول يوهم أن الله تعالىٰ لو آخذهم قبل بعثة الرسل كان ظالماً وليس الأمر كذلك عند أهل السنة والجماعة، لأَنه سبحانه وتعالى يحكم ما يشاءُ ويفعل ما يريد.



بكسر الذال، وكذلك في سورة (آل عمران)[١]، وحكى أبو حاتم عن أبان بن عثمان أنه قرأ: [ذَرِيَّة] بفتح الذال وتخفيف الراءِ المكسورة، وحكى عنه أبو الزناد أنه قرأ على المنبر: [ذَرْية] بفتح الذال وسكون الراءِ على وزن فَعْلة، قال: فسألته فقال: أقرأنيها زيد بن ثابت.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ﴾ للتبعيض، وذهب الطبري إلى أنها بمعنى قولك: أخذت من ثوبي ديناراً، بمعنى: عنه وعِوَضَه. و﴿تُوعَدُونَ﴾ مأخوذ من الوعيد بقرينة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وأما أن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن تنفيذ الوعيد، والعقائد ترد ذلك، و﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: بناجين هرباً، أي يعجزون طالبهم.

ثم أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يتوعدهم بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾، أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة «افعَل» هاهنا بمعنى الوعيد والتهديد، و﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: [عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ] بجمع المكانة في كلّ القرآن، وقرأ الجميع بالافراد في كل القرآن، و﴿مَن﴾ يتوجه أن يكون بمعنى الذي فتكون في موضع نصب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، ويتوجه أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله تعالىٰ: ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾، و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مآل الآخرة، ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب[٢].

ثم جزم الحكم بأنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا ينجح سعيهم، وقرأ حمزة، والكسائي: [مَنْ يكُونُ] بالياءِ ها هنا وفي القصص[٣] على تذكير معنى العاقبة.

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٤): ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) وقيل: العاقبة هي الحسنىٰ التي خلق الله هذه الدار لها، أما قوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ففيه من التهديد والوعيد مالا يخفى: كقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وعليه قول الشاعر:

إذا ما الْتَقَيْنَا والْتَقى الرُسْلُ بَيْنَنا ... فسَوْفَ تَرَىٰ يا عَمْرو ما اللهُ صانعُ

وقول الآخر:

سَتَعْلَمُ لَيْلي أيَّ دِينٍ تَدايَنَتْ ... وأَيُّ غَريمٍ لِلتَّقاضي غَريمُها

(٣) في قوله تعالىٰ في الآية (٣٧) من سورة القصص: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

الضمير في ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأوثان الذين تقدم الرد عليهم من أول السورة.

و﴿ ذَرَأَ ﴾ معناه: خلق وأنشأ وبث في الأرض. يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا وذروءًا أي خلقهم وقوله تعالىٰ: «وجعلوا من كذا وكذا نصيباً» يتضمن بقاءَ نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأول، فبيَّنه بقوله تعالىٰ: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾، ثم اعترضهم أثناءَ القول بأن ذلك زعْم وتَقوُّل، والزَّعم في كثير كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق، يقال: زَعْم بفتح الزاي وبه قرأت الجماعة، وزُعْم بضمها، وقرأ الكسائي وحده في هذه الآية[1]، وزِعم بكسر الزاي ولا أحفظ أحداً قرأ به.

و﴿ ٱلْحَرْثِ ﴾ في هذه الآية يريد به الزرع والأشجار وما يكون من الأرض، وقوله تعالى: ﴿ لِشُرَكَآئِنَا ﴾ يريد به الأصنام والأوثان، وسموهم شركاءَ على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك.

وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءًا تسميه للهِ وجزءًا تسميه لأصنامها، وكانت عادتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت مِنَ الذي لله إلىٰ الذي لشركائهم أقروه، وإذا حملت مِنَ الذي لشركائهم إلى الله ردُّوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدُّوه، وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لابُدَّ للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالىٰ في ذلك، قال هذا المعنىٰ ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي، وغيرهم. إنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السَّنَةُ أكلوا نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم.

(١) هكذا في جميع الإصول، والذي يظهر لنا أن صحة العبارة: «وبها قرأ الكسائي وحده في هذه الآية».



وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ الآية. قال جمهور المتأولين: إن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَصِلُ﴾ وبقوله سبحانه: ﴿يَصِلُ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب آلهتهم في هبوب الريح وغير ذلك. وقال ابن زيد: إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، فكأنه قال: «فلا يصل إلى ذكر الله»، وقال: «فهو يصل إلى ذكر شركائهم»، و﴿مَا﴾ في موضع رفع كأنه قال: «ساءَ الذي يحكمون»، ولا يتجه عندي أن يجري هنا ﴿سَآءَ﴾ مجرىٰ «نعم وبئس»، لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن تجري مجرى «بئس» في قوله تعالىٰ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾[(١)] لأن المفسر ظاهر في الكلام[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

الكثير في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب، والشركاءُ ها هنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم الناقلين له عصراً بعد عصر، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتبعاتِه في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذمُّ للوَأْدِ والإِنْحاءُ على فعلته.

---

(١) من الآية (١٧٧) من سورة (الأعراف).

(٢) وقيل: يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ تمييزاً على مذهب من يجيز ذلك في (بئسما) فتكون في موضع نصب، والتقدير: «ساءَ حكمهم» ولا يكون (يَحْكُمون) صفة لـ ﴿مَا﴾ لأن الغرض الإبهام، ولكن في الكلام حذف يدل ﴿مَا﴾ عليه، هذه وكعادة أبي حيان في البحر عقَّب على رأي ابن عطية في إعراب ﴿مَا﴾ بقوله: «وهذا قول من شدا يسيراً من العربية ولم يرسخ قدمه فيها، بل إذا جرى ﴿سَآءَ﴾ مجرى (نعم وبئس) كان حكمها حكمهما سواء، لا يختلف في شيء ألبتة من فاعل مضمر أو ظاهر وتمييز، ولا خلاف في جواز حذف المخصوص بالمدح والذم والتمييز فيها لدلالة الكلام عليه، فقوله: «لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق النحاة إلى آخره» كلام ساقط، ودعواه الاتفاق مع أن الاتفاق على خلاف ما ذكر عجب عجاب». انتهىٰ تعقيب أبي حيان على رأي ابن عطية. وإنما نقلناه هنا لنوضح لك ما ذكرناه في المقدمة من تحامل أبي حيان على ابن عطية، وبخاصة في موضوعات النحو والإعراب مع أنه ينقل عنه في تفسيره الكثير من الآراء ويعتمد عليه اعتماداً واضحاً.

واختلفت القراءَة ـ فقرأَت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾ بفتح الزَّاي ﴿قَتْلَ﴾ بالنصب ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، وهذه أَبْيَن قراءَة، وحكى سيبويه أنه قرأَت فرقة: [وكذلِكَ زُيِّنَ] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ بالرفع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن السلمي، والحسن، وأَبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر، كأَنه قال: «زَيَّنَهُ شركاؤُهم»، قال سيبويه: وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا يُطِيع الطَّوَائِحُ[1]

كأَنه قال: يبكيه ضارعٌ لخصومة، وأَجاز قطرب أَن يكون الشركاءُ في هذه القراءَة ارتفعوا بالقتل، كأَن المصدر أُضيف إِلى المفعول، ثم ذكر بعده الفاعل كأَنه قال: أَن قتل أَولادهم شركاؤُهم، كما تقول: حبَّب إِلى ركوبَ الفرسِ زيدٌ، أَي: أَن ركب زيدٌ الفرسَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح إِذا أُضيف مصدرٌ إِلى مفعول أَلا يذكر الفاعل، وأَيضاً فالجمهور ـ في هذه الآية ـ على أَن الشركاءَ مزيِّنون لا قاتلون. والتوجيه الذي ذكره سيبويه هو الصحيح، ومنه قوله عزَّ وجلَّ على قراءَة من قرأَ: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾[2] بفتح الباءِ المشددة، أَي: يسبح رجالٌ.

وقرأَ ابن عامر: [وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ] بضم الزَّاي [قَتْلُ] بالرفع [أَولادَهم] بنصب الدال [شُرَكائِهِم] بخفض الشركاءِ، وهذه قراءَة ضعيفة في استعمال العرب، ورؤَساءُ العربية لا يُجيزون الفصل بالظرف في مثل هذا إِلا في الشعر كقوله:

كما خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهُودِيٍّ يُقارِبُ أَو يَزِيلُ[3]

---

(١) سبق الحديث عن هذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، من الآية (٧٣) من هذه السورة.

(٢) من الآيتين (٣٦ـ ٣٧) من سورة (النور).

(٣) هذا البيت لأَبي حيَّة النميري، والشاهد فيه إِضافة كلمة (كف) إِلى (يهودي) مع الفصل بالظرف، وهذا=



فكيف بالمفعول في أَفصح الكلام؟ ولكن وجَّهَها ـ على ضعفها ـ أَنها وردت شاذة في بيت أَنشده أَبو الحسن الأَخفش وهو:

فَــزَجَجْتُهــا بِمِــزَجَّــةٍ   زجَّ الْقَلُــوصَ أَبــي مَــزادَةْ(١)

وفي بيت الطِّرِمَّاح وهو قوله:

يَطُفْـنَ بِحُـوزِيِّ المـراتِـع لـم تَـرُعْ   بَـواديـهِ مِـن قَـرْعِ القِسِـيِّ الكَنَـائِـن(٢)

والشركاء ـ على هذه القراءَة ـ هم الذين يتأَولون وأْد بنات الغير، فهم القاتِلون، والصحيح من المعنى أَنهم المُزَيِّنونَ لا القاتلون، وذلك مضمن قراءَة الجماعة.

وقرأَ بعض أَهل الشام ـ ورويت عن ابن عامر ـ: [زِين] بكسر الزاي وسكون الياءِ على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول. وحكى الزهراوي أَنه قرأَت فرقة من أَهل الشام: [وَكَذَلِكَ زُيِّن] بضم الزاي [قَتْلُ] بالرفع [أَوْلادِهم] بكسر الدال [شركائِهم] بالخفض. والشركاءُ على هذه القراءَةَ هم الأَولاد المَوْؤُودون لأَنهم شركاءُ في النسب

= كما يقول ابن عطية غير جائز عند رؤساء العربية مع أنه يتوسعون في الظرف عن غيره، فكيف بالمفعول في أَفصح الكلام؟ والبيت يصف رسوم الدار فيشبهها بالكتاب في دقتها وفي الاستدلال بها، وخص اليهود بالذكر لأنهم أهل الكتاب، وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتصاءِ آثار الديار تلك الصفة والحال، وكلمة (يزيل) بفتح الياءِ معناها: يُباعد ويُفرق.

ومثل هذا البيت في جواز الفصْل بين المضاف والمضاف إليه عند من يرى ذلك قول ذي الرُّمَّة:

كَــأَنَّ أَصْــوَاتَ مِــنْ إِيغـالِهِــنَّ بِنَــا   أَواخِــر الْمَيْــسِ أَصْــواتُ الْفَــراريــج

فقد أضاف (أَصْواتَ) إلى (أواخر المَيْس) مع الفصل بالجار والمجرور، والميْس: شجر تعمل منه الرحال، والإِيغال: سرعة السير، فهو يقول: «كأَن أَصوات أَواخر الْمَيْس من شدة سير الإبل بنا واضطراب الرحال، عليها أَصواتُ الفراريج. (عن شرح الشواهد للشمنتمري) وراجع أَيضاً (مجمع البيان لعلوم القرآن جـ ٣ ص٤).

(١) ذكر أبو الحسن الأَخفش هذا البيت دون أن ينسبه لأحد، والزَّج هنا: الطَّعن، والمِزَجَّة بكسر الميم: رمح قصير كالمزاريق، والقَلوص بفتح القاف: الناقة الفتية. يقول: إنه زجَّ امرأَته كما زجَّ أَبو مزادة القلوصَ، وأَبو مزادة كنية رجل. (عن شرح الشواهد الكبرىٰ للعيني ـ باب الإضافة).

(٢) قال في (اللسان): الحُوزيّ: المتوحد وهو الفحل منها ـ يعني الإبل أو البقر. يقول: «إِن البقر تطوف بهذا الفحل المنفرد المُتَوَحِّد في المراتع وهو مع ذلك آمن ساكن لم يُرَع في واديه من قرع الكنائن». وقد نسب صاحب اللسان البيت للطرماح أَيضاً، ونسبه صاحب التاج للعجاج.

هذا والشواهد التي يسوقها النحويون على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه كثيرة، ويمكن الرجوع إلى (النحو الوافي جـ ٣ باب الإضافة) ففيه تفصيل وتحليل ومناقشة للموضوع.



والمواريث، وكأن وصفهم بأنهم شركاءُ يتضمن حرمة لهم، وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتلُ من له حرمة.

و﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ معناه: لِيُهلكوهم. من الردىٰ. ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ ﴾ معناه: لِيَخْلطوا، جماعة على كسر الباءِ، وقرأ إبراهيم النَّخعي: [وَلِيَلْبَسوا] بفتح الباءِ، قال أبو الفتح: هي استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالط. وهذان الفعلان يؤيّدان أول قراءَة في ترتيبنا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ يقتضي أن لا شيءَ إلا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، وفيها ردٌّ على من قال: إن المرءَ يخلق أفعاله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ وعيد محض، و﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ معناه: يختلقون من الكذب في تشرعهم بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه لأنفسهم والتزموه على جهة القُرْبة كذباً منهم على الله وافتراءً عليه، فوصف تعالىٰ أنهم عمدوا إلى بعض أنعامهم وهي: الإبل والبقر والغنم، أو الإبل بانفرادها، وأمّا غيرها إذا انفرد فلا يقال له أنعام، وإلى بعض زروعهم وثمارها، وسُمّي ذلك حرثٌ إذ عن الحرث يكون، وقالوا: هذه حِجْرٌ، أي: حرام، وقرأ جمهور الناس: ﴿ حِجْرٌ ﴾ بكسر الحاءِ وسكون الجيم، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج: [حُجْر] بضم الحاءِ وسكون الجيم، وقرأ ابن عباس، وأُبي، وابن مسعود، وابن الزُّبَير، والأعمش، وعكرمة، وعمرو بن دينار: [حِرْج] بكسر الحاءِ وتقديم الراءِ على الجيم وسكونها. فالأولى والثانية بمعنىٰ: التحجير وهو المنع والتحريم(1)،

---

(1) الحِجْر لفظ مشترك، وهو هنا بمعنى الحرام، وأصله المنع، وسُمّي العقل حجراً لمنعه عن القبائح، ويقال: فلان في حجر القاضي، أي في منعه، وحجرتُ على الصبي حجراً، والحجر: العقل، قال الله تعالىٰ: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾، والحجر: الفرس الأنثى، والحجر: القرابة، قال الشاعر:

يُريدونَ أَنْ يُقْصوهُ عنّي وإنّه ... لَذو حَسَبٍ دَانٍ إليَّ وذو حِجْر



والأخيرة من الْحِرْج وهو التضييق والتحريم[(١)].

وكانت هذه الأنعام ـ على ما قال ابن زيد ـ مُحَلَّلة للرجال مُحَرّمة على النساءِ، وقيل: كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأَصنام وخدمتها، حكاه المهدوي، فذلك المراد بقوله تعالىٰ: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ أي بتقوّلهم الذي هو أَقرب إلى الباطل منه إلى الحق، وزعمهم هنا في قولهم: حِجْرٌ، وتحريمهم بذلك مالم يحرّم الله تعالىٰ: وقرأَ ابن أَبي عبلة: [بِزَعَمهم] بفتح الزاي والعين، وكذلك في الذي تقدم.

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾، كانت للعرب سُنن، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حُرّم ظهرها فلم تركب، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حُرم ظهره، فعدد الله ذلك على جهة الردّ إذ شرعوا ذلك برأيهم وكذبهم.

﴿وَأَنۡعَٰمٌ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾، قيل: كانت لهم سُنة في أَنعام ما أَلاَّ يُحج عليها، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج فذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾، هذا قول جماعة من المفسرين، ويروى ذلك عن أَبي وائل. وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، يريد أَنهم جعلوا لآلهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ مصدر نصب على المفعول من أَجله، أَو على إضمار فعل تقديره: يفترون ذلك. و﴿سَيَجۡزِيهِم﴾ وعيد بمقارضة الآخرة، والضمير في ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ عائد على اسم الله. و﴿يَفۡتَرُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلفون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة، وكانت سنتهم في بعض الأَنعام أن يحرموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكورهم، والهاءُ في [خَالِصَةٌ] قيل: هي

(١) هذا رأي فالحِرْجُ بالكسر فالسكون لغةٌ في الحَرَج بفتح الحاء والراءِ وهو الضيق والإثم، والرأي الثاني أن الحِجْر والحِرْج مثل: جبذ وجذب، فهو من القلب المكاني قاله في «تفسير القرطبي»، وفي «البحر المحيط».



للمبالغة كما هي في (رواية) وغيرها[١]، وهذا كما تقول: فلان خالصتي، وإن كان باب هاءِ المبالغة أَن تلحق بتاءَ مبالغة كعلاَّمة ونسَّابة وبصيرة ونحوه. وقيل: هي لتأْنيث الأَنعام إِذ ما في بطونها أَنعام أَيضاً[٢]. وقيل: هي على تأْنيث لفظ ﴿مَا﴾ لأَن ﴿مَا﴾ واقعة في هذا الموضع موقع قولك: جماعة وجملة[٣].

وقرأَ جمهور القراءُ والناس: ﴿خَالِصَةٌ﴾ بالرفع، وقرأَ عبد الله بن مسعود، وابن جبير، وابن أَبي عبلة، والأَعمش: [خالصٌ] دون هاءٍ. ورفع هاتين القراءَتين على خبر الابتداءِ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ بخلاف[٤] ـ والأَعرج، وقتادة، وسفيان بن حسين: [خالصةً] بالنصب، وقرأَ سعيد بن جبير ـ فيما ذكر أبو الفتح ـ: [خالصاً]، ونصب هاتين القراءَتين على أَن الحال من الضمير الذي في قوله تعالىٰ: ﴿فِي بُطُونِ﴾ وذلك على تقدير الكلام: «وقالوا: ما استقر هو في بطون هذه الأَنعام» فحذف الفعل وحمل المجرورُ الضميرَ، والحالُ من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار، قال أَبو الفتح: ويصح أَن يكون حالاً من ﴿مَا﴾ على مذهب أَبي الحسن في إِجازته تقديم الحال على العامل فيها. وقرأَ ابن عباس أَيضاً، وأَبو حيوة، والزهري: [خالِصَتُهُ] بإِضافة (خالص) إِلى ضمير يعود على ﴿مَا﴾ ومعناه: ما خلص وخرج حيّاً، والخبر ـ على قراءَة من نصب [خالصةً] في قوله سبحانه: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾، والمعنىٰ المراد بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا فِي بُطُونِ﴾ قال السدي: هي الأَجنة، وقال ابن عباس، وقتادة، والشعبي: هو اللبن، قال الطبري: واللفظ يعمهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ يدل على أَن الهاءَ في ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة، ولو كانت

---

(١) وعلى هذا يكون معنى خالص وخالصة واحد ولا فرق إلا أَن الهاءَ للمبالغة. قاله الكسائي.

(٢) هذا جواب عن اعتراض وردَ على قول من قال: تأنيثها ـ أي خالصة ـ لتأنيث الأَنعام، وهو قول الفراءِ، فقال جماعة: هذا خطأ لأَن مافي بطونها ليس منها ولهذا فهو لا يشبه قوله تعالىٰ: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ لأَن بعض السيَّارة سيارة. والجواب عن ذلك: هذا لا يلزم الفراء لأَن ما في بطون الأَنعام أنعام مثلها فأنّث لتأنيثها. وهذا هو سر تعبير ابن عطية بهذه الجملة.

(٣) وقيل: إن (ما) يرجع إِلى الأَلبان أو الأَجنَّة، فجاء التأنيث على المعنىٰ والتذكير على اللفظ، ولهذا قال: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ على اللفظ، ولو راعى المعنى لقال: ومحرّمة، ويعضد هذا قراءَة الأَعمش وغيره: ﴿خالصٌ﴾ بغير هاءٍ.

(٤) أي أن هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما موضع خلاف، وانظر بعد ذلك قراءته المروية عنه بالإضافة.



لتأنيث لقال: ومحرمة. و﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ يريد به جماعة النساءِ التي هي معدة أَن تكون أَزواجا، قاله مجاهد. وحكى الطبري عن ابن زيد أَن المراد بـ ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ البنات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يبعد تحليقه على المعنىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾، كان من سُنَّتِهم أَن ما خرج من الأَجنة ميتاً من تلك الأَنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساءِ جميعاً، وكذلك ما مات من الأَنعام الموقوفة نفسها.

وقرأَ ابن كثير: ﴿وَإِن يَكُن﴾ بالياءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع، فلم يلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان تأْنيث الفاعل المسند إِليه غير حقيقي، والمعنىٰ: وإِن وقع ميتة أَو حدث ميتة، وقرأَ ابن عامر: [وَإِنْ تَكُن] بالتاءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع، فأَلحق الفعل علامة التأْنيث لما كان الفاعل في اللفظة مؤنثاً، وأَسند الفعل إِلى الميتة كما فعل ابن كثير، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر عنه: [تَكُنْ] بالتاءِ ﴿مَّيْتَةً﴾ بالنصب فأَنَّث وإِن كان المتقدم مذكراً لأَنه حمله على المعنىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالتقدير: وإِن تكن النسمة أَو نحوها ميتة. وقرأَ نافع. وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص ﴿يَكُن﴾ بالياءِ ﴿مَّيْتَةً﴾ بالنصب، فذكَّروا الفعل لأَنهم أَسندوه إِلى ضمير ما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهو مذكَّر، وانتصبت الميتة على الخبر. قال أَبو عمرو بن العلاءِ: ويقوي هذه القراءَة قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ فِيهِ﴾ ولم يقل (فيها)(١)، وقرأَ يزيد بن القعقاع: [وَإِنْ تَكُنْ مَيِّتَةً] بالتشديد، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [فَهُمْ فيه سواءُ].

ثم أَعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أَنه من القربات إِلى الله تعالىٰ وشرعوه من الباطل والإِفك(٢)، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أَي في عذابهم على ذلك، ﴿عَلِيمٌ﴾ بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره.

---

(١) قال أَبو حيان: «وهذا ليس بجيد لأَن الميتة لكل ميّت ذكراً كان أَو أَنثىٰ فكأَنه قيل: «وإِن يكن ميّتاً فهم فيه شركاء». (البحر المحيط).

(٢) جاء هذا الوعيد في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أَي: كذبهم وافتراءَهم، وانتصب (وَصْفَهُمْ) بنزع الخافض، إِذ المعنى: سيجزيهم بوصفهم، والله أَعلم.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوءِ حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأَنعام والحرث. قال عكرمة: وكان الوأد في ربيعة ومضر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان جمهور العرب لا يفعله، ثم إِن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإِقتار، وكان منهم من يفعله غيرة مخافة السباءِ. وقرأَ ابن عامر، وابن كثير، [قتّلوا] بتشديد التاءِ على المبالغة، وقرأَ الباقون: ﴿ قَتَلُوٓاْ ﴾ بتخفيفها.

و﴿ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ هي تلك الأَنعام والغلات التي توقف ـ بغير شرع ولا مثوبة في مَعَاد، بل بالافتراءِ على الله والكذب. و﴿ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ إِخبار عنهم بالحيْرة، وهو من التعجب بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾. ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ يريد: في هذه الفعلة، ويحتمل أَن يريد: وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ الآية. هذا تنبيه على مواضع الاعتبار، و﴿ أَنشَأَ ﴾ معناه: خلق واخترع، والجَنَّة مأْخوذة من جنَّ إِذا ستر، و﴿ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ قال ابن عباس: ذلك في ثمر العنب، ومنها ما عُرِشَ وسُمِّك، ومنها ما لم يعرش، وقال السدي: المعروشات، ما عرش كهيئة الكرْم، وغيره: البساتين، وقيل: المعروش: هو ما يعترشه بنو آدم من أَنواع الشجر، وغير المعروش: ما يحدث في الجبال والصحراءِ ونحو ذلك. وقيل: المعروش: ما حلق بحائط، وغير المعروش: مالم يحلق. و﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأَنها حين الإِنشاءِ لا ثمرة فيها، فهي حال مقدرة تجيءُ بعد الإِنشاءِ[1].

---

(١) المعنىٰ أن الله أَنشأَ الزرع والنخل مقدراً فيهما الاختلاف، وقد مثَّل لهذا سيبويه بقوله: «مررت برجل=



و﴿ مُتَشَٰبِهًا ﴾ يريد: في المنظر، و﴿ وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ في المطعم، قاله ابن جريج وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾ نفس الإباحة وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك، ويُقرأُ [مِنْ ثُمُره] بضم الثاءِ، وقد تقدم. ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ قالت طائفة من أَهل العلم: هي في الزكاة المفروضة، منهم ابن عباس، وأَنس بن مالك، والحسن بن أَبي الحسن، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وزيد بن أَسلم، وابنه، وقاله مالك بن أَنس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول معترض بأَن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة، وحكى الزجاج أَن هذه الآية قيل فيها إِنها نزلت بالمدينة، ومعترض أَيضاً بأَنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه.

وقال ابن الحنفية أيضاً، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم من أَهل العلم: بل قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ ﴾ ندب إِلى إِعطاء حقوق من المال غير الزكاة، والسنة أَن يعطي الرجل من زرعه عند الحصاد، وعند الذَّرْو، وعند تكديسه في البيدر، فإِذا صفَّى وكال أَخرج من ذلك الزكاة، وقال الربيع بن أَنس: حقُّه: إِباحة لقط السنبل، وقالت طائفة: كان هذا حكم صدقات المسلمين حتى نزلت الزكاة المفروضة فنسختها، ورُوي هذا عن ابن عباس، وابن الحنفية، وإِبراهيم، والحسن، وقال السدي، الآية في هذه السورة

= معه صقر صائداً به غداً» على الحال، كما تقول: «لَتَدْخُلُنّ الدار آكلين شاربين»، اي مقدرين ذلك.
وقيل: ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ مرفوع بالابتداءِ و﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ نعتُه، لكنه لما تقدم عليه وَوَلِيَ منصوباً نُصب، كما تقول: «عندي طبّاخاً غلام»، وكما قال الشاعر:

الشَّـــرُّ منتَشِـــرٌ يَلْقَـــاكَ عَـــنْ عُـــرُضٍ　　　والصَّـــالحـــاتُ عَلَيْهـــا مُغْلَقـــاً بـــابُ

وقيل: إِن الله لما أَنشأ الزرع والنخل كان مختلفاً أُكُله، على معنى أنه لو كان له أكل لكان مختلفاً أكله.
قال الزجاج: هذه مسألة مشكلة من النحو ـ وقد جاء التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ ولم يقل ﴿أكُلُهما﴾ باعتباره يعود على الزرع والنخل لأَنه اكتفى بإِعادة الذكرْ على أحدهما كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ ولم يقل (إِلَيْهما) وقال الحوفي: «والهاءُ في ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾ عائد على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشئات»، وعلى هذا يكون الحال من جميع ما أَنشأ لا من النخل والزرع فقط، وردَّ عليه أبو حيان بقوله «لو كان كذلك لكان التركيب الصحيح (مختلفاً أكلها)، وأجيب بأن ذلك على تقدير محذوف هو في الأَصل مضاف، أي (ثمر جنات. . .) وروعي هذا المحذوف في هاء ﴿ أُكُلُهُۥ ﴾.



مكية نسختها الزكاة، فقال له سفيان: عمَّن؟ قال: عن العلماء[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسخ غير مترتب في هذه الآية لأن هذه الآية وآية الزكاة[٢] لا تتعارض، بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي: [حِصادَه][٣]، وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: [حَصَادَه] بفتح الحاءِ، وهما لغتان في المصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ الآية. مَنْ قال إن الآية في الزكاة المفروضة جعل هذا النهي عن الإسراف إما للناس عن التَّمَتُّع عن أدائها لأن ذلك إسراف من الفعل، وقاله سعيد بن المسيب، وإما للولاة عن التَّشطط على الناس والإذاية لهم، فذلك إسراف من الفعل، وقاله ابن زيد، ومَنْ جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق لما في ذلك من الإجحاف بالمال وإضاعته[٤].

وروي أن الآية نزلت بسبب أن ثابت بن قيس بن شماس حصل غلة له فقال: «والله لا جاءَني اليوم أَحد إلا أَطعمته»، فأَمسى وليس عنده ثمرة فنزلت هذه الآية، وقال أبو العالية: كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد ثم تباروا فيه وأَسرفوا فنزلت الآية. ومن قال إنها منسوخة ترتب له النهي في وقت حكم الآية.

---

(١) نقل القرطبي هذا الخبر بالنص التالي (وقال سفيان: سألت السدِّي عن هذه الآية فقال: نسخها العشر ونصف العشر، فقلت: عمَّن؟ قال: عن العلماءِ).

(٢) هي قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية (١٠٣) من سورة (التوبة)، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية (٤٣) من سورة (البقرة).

(٣) أي بكسر الحاءِ بدليل قوله تعالىٰ بعد القراءَة الثانية: «بفتح الحاءِ» وهو هنا يقول: «وهما لغتان في المصدر». لكن ابن خالويه يقول في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «بفتح الحاءِ وكسرها فرقا بين الاسم والمصدر على ما قدمنا القول فيه أو على أنهما لغتان». ومثلُ (حَصِاد) في ذلك: الصَّرام والصِّرام والجَذاذُ والجِذاذُ.

(٤) الإسراف في النفقة: التبذير، ويؤكد هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (المُعتدي في الصدقة كمانِعِها)، وقصة ثابت بن قيس التي ذكرت على أنها سبب نزول الآية تؤيد ذلك، وقد قال عليه الصلاة السلام: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿حَمُولَةً﴾ عطف على ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾، والتقدير: وأَنشأنا من الأنعام حَمولة، والحَمولة: ما تَحَمَّل الثقالَ من الإبل والبقر عند مَن عادته أَن يحمِلَ عليها، والهاءُ في ﴿حَمُولَةً﴾ للمبالغة، وقال الطبري: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه. والفَرْش: مالا يحمل ثقلاً كالغنم وصغار البقر والإِبل، هذا هو المروي عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وغيرهم، يقال له: الفَرْش والفَريش، وذهب بعض الناس إِلى أَن تسميته فرشاً إِنما هي لوطاءَته وأنه مما يمتهن ويتوطأُ ويتمكن من التصرف فيه إِذا قرب جسمه من الأَرض.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: الحَمولة: الإِبل والخيل والبغال والحمير. ذكره الطبري.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية، ولا مدخل في الآية لغير الأَنعام، وإِنما خصت بالذكر من جهة ما شرعت فيها العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ نص إِباحة وإِزالة ما سنَّه الكفار من البحيرة والسائبة وغير ذلك ـ ثم تابع النهي عن تلك السنن بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهي جمع خطوة[1]، أَي: لا تمشوا في طرقه المضلة، وقد تقدم في سورة البقرة اختلاف القراءِ في خطوات[2]، ومن شاذّها قراءَة علي رضي الله عنه، والأَعرج، وعمرو

---

(١) جاءَ في (اللسان): «الخُطوة بالضم: ما بيْن القدمَيْن والجمع خُطْوات وخُطُوات وخُطىً ـ والخَطْوة بالفتح: الفعل للمرة الواحدة، والجمع خَطَوات بالتحريك وخِطاءٌ مثل رَكْوة وركاء». وقال ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع»: «الخَطوة بفتح الخاءِ: الاسم، وبضمها، قدرُ ما بَين قدميك».

(٢) وذلك عند تفسير الآية رقم (١٦٨) من سورة (البقرة) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ابن عبيد [خُطُؤَات] بضم الخاء والطاء وبالهمزة، قال أَبو الفتح: وذلك جمع خطأَة من الخطإ، ومن الشاذ قراءَة أَبي السّمال: ﴿خُطْوَٰتِ﴾ بالواو دون همزة، وهو جمع خُطْوة، وهي ذرع ما بين قدمي الماشية، ثم علَّل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾ اختلف في نصبها ـ فقال الأَخفش عليُّ بن سليمان: بفعل مضمر تقديره: كلوا لحم ثمانية أَزواج، فحذف الفعل والمضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه، وقيل: نصب على البدل من [ما] في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيل: نصبت على الحال، وقيل: نصبت على البدل من قوله تعالىٰ: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. وهذا أَصوب الأَقوال وأَجراها مع معنى الآية. وقال الكسائي: نَصَبَهَا ﴿أَنشَأَ﴾. والزوج: الذَّكر، والزوج: الأُنثىٰ، كل واحد منهما زوج صاحبه، وهي أَربعة أَنواع فتجيءُ ثمانية أزواج.

والضأْن: جمع ضائِنَة وضائِن، وقرأَ طلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، والحسن: ﴿مِّنَ ٱلضَّأَنِ﴾ بفتح الهمزة، وقرأَ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ بسكون العين، وهو جمع ماعز وماعزة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ومِنَ الْمَعَز] بفتح العين. فضان ومعْز كراكب وركب وتاجر وتجْر، وضأن ومعَز كخادم وخَدم ونحوه. وقرأَ أَبان بن عثمان: ﴿مِنَ الضَّأْن اثْنَانِ﴾ على الابتداء والخبر المقدم، ويقال في جمع ماعز: مَعْزٌ ومَعَزٌ ومَعيز ومِعْزَى وأُمْعُوز[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾، هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، أَي: لا بُدَّ أن يكون حرَّم الذكَرين فيلزمكم تحريم جميع الذكور، أَو الأُنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإِناث، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيلزمكم تحريم الجميع، وأَنتم لم تلتزموا شيئاً مِمَّا يوجبه هذا التقسم، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ.

ثم أَتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئُونِى﴾ أَخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ أَي من جهة نبوءَة أَو كتاب من كتب الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و﴿إِن﴾ شرط وجوابه في

---

(١) ويجمع كذلك على مَوَاعِز ومِعَازٌ، قال القطامي:

فَصَلَّيْنَـا بِهِـمْ وسَعَـى سِـوَانَـا ... إِلَـى البَقَـر الْمُسَيَّـبِ والمِعَـازِ

ومن الشواهد على مجيء مَعيز قول امرىء القيس:

وَيَمْنَحُهَـا بَنُـو شَمَجَـى بـنِ جَـرْمٍ ... مَعِيـزَهُـمُ حَنَـانَـكَ ذا الْحَنَـانِ



﴿ نَبِّـُٔونِي ﴾، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت ﴿ إِن ﴾ لا يظهر لها عمل في الماضي، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقديم الجواب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله سبحانه: ﴿ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ ﴾، وكأنه قال: أأنتم الذين تدعون أن الله حرَّم خصائص من هذه الأنعام، فلا يخلو تحريمه من أن يكون في الذكرين أو في الأنثيين أو فيما اشتملت عليه أَرحام الأُنثيين، لكنه لم يحرم لا هذا ولا هذا فلم يبق إلا أنه لم يقع تحريم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ ﴾. الآية استفهام على جهة التوبيخ، إِذ لم يبق لهم الادعاءُ المحال والتقول أَنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا.

و﴿ شُهَدَآءَ ﴾ جمع شهيد، ثم تضمن قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ذكرَ حال مفتري الكذب على الله وتقريرَ إِفراط ظلمه. وقال السدي: كان الذين سيَّبوا وبحَّروا يقولون: الله أَمرنا بهذا، ثم بين تعالىٰ سوءَ مقصدهم بالافتراءِ، لأَنه لو افترىٰ أَحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إِذا قصدبها إِضلال أُمة. وقد يحتمل أَن تكون اللام في ﴿ لِّيُضِلَّ ﴾ لام صيرورة.

ثم جزم الحكَمَ لا ربَّ غيره بأَنه لا يهدي القوم الظالمين، أَي: لا يرشدهم، وهذا عموم في الظاهر، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع من أَن يهدي ظَلَمة كثيرة بالتوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.



هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ بأَن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أُوحي إِليه، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيءٌ محرم غير هذه الأَشياءِ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. فإِن هذه وإِن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أَن تلحق بالمذكيات لأَنها بأَسباب وليست حتف الأَنف(١). فلما بيَّن النص إِلحاقها بالميتة كان زيادة في المحرمات، ثم نزل النص على رسول الله ﷺ في تحريم الحمر بوحي غير معجز، وبتحريم كل ذي ناب من السباع، فهذه كلها زيادات في التحريم، ولفظة التحريم إِذا وردت على لسان رسول الله ﷺ فإِنها صالحة أَن تنتهي بالشيءِ المذكور إِلى غاية المنع والحظر، وصالحة بحسب اللغة أَن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأَولين وأَجمع عليه الكل منهم ولم تضطرب فيه أَلفاظ الأَحاديث وأَمضاه الناس على أَذْلاله(٢) وجب بالشرع أَن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق بالخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر. وما اقترنت به قرينة أَلفاظ الحديث واختلفت الأُمة فيه مع علمهم بالأَحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام: (كلُّ ذي ناب من السِّباع حرام)(٣) وقد ورد نهي رسول الله ﷺ عن أَكل كلِّ ذي ناب من السباع(٤)، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز ـ لهذه الوجوه ـ لمن ينظر أَن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها. وما اقترنت به قرينة التأْويل كتحريمه عليه الصلاة والسلام لحوم

---

(١) يقال: مات حتف أَنفه وحتف أنفيْه: مات على فراشه بلا ضرب ولا قتل، وقد يقال: مات حتف فيه، وذلك أَن العرب كانت تتخيل أَن المرءَ إِذا قتل خرج روحه من مقتله، فإِذا مات بلا قتل فقد خرج روحه من أَنفه أَو من فيه. (المعجم الوسيط).

(٢) يقال: أَجْرِ الأَمور على أَذْلالها، وإِن قضاء الله ماض على أَذْلاله، ودَعْه على أذْلاله، أَي: كما هو ـ وفي حديث ابن مسعود: (ما من شيءٍ من كتاب الله إِلا وقد جاءَ على أَذْلاله). والمعنى في ذلك كله أن الأَمور جاءَت سهلة على مجاريها ومسالكها. ومفرد أذْلال: ذِل بكسر الذال يقال: الزم ذِلَّ الطريق، أي السهل المعبد منه، ولذلك قيل: طريق مُذَلَّل، أي مُعَبد. (أساس البلاغة).

(٣) رواه الإمام أحمد ولفظه: (أَكْلُ كُلِّ ذي ناب من السباع حرام).

(٤) أخرجه مسلم، والبخاري، والترمذي، وأَبو داود في سننه، ولفظه كما في مسلم: (عن أَبي ثعلبة الخشني أَن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع)، وفي رواية (وعن كل ذي مخلب من الطير).



الحمر الإِنسيَّة فتأَول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأَنها نجس، وتأَول بعضهم ذلك لئلا تفنىٰ حمولة الناس، وتأَول بعضهم التحريم المحض، وثبت في الأُمة الاختلاف في تحريم لحمها فجائز لمن ينظر من العلماء أَن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهة أَو نحوها.

وروي عن ابن عامر أَنه قرأَ [فيما أَوْحَى إِلَيَّ] بفتح الهمزة والحاءِ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾. وقرأَ أَبو جعفر محمد بن علي: [يَطَّعِمُه] بتشديد الطاء وكسر العين. وقرأَ محمد بن الحنفية، وعائشة، وأَصحاب عبد الله: [طَعِمَه] بفعل ماض. وقرأَ نافع، والكسائي، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ بالياءِ على تقدير: إِلا أَن يكون المطعوم. وقرأَ ابن كثير، وحمزة، وأَبو عمرو أَيضاً: [إِلاَّ أَن تَكُونَ] بالتاءِ من فوق ﴿مَيْتَةً﴾ على تقدير: إِلا أَن تكون المطعومة. وقرأَ ابن عامر وحده ـ وذكرها مكي عن أَبي جعفر ـ: [إِلاَّ أَن تَكُونَ] بالتاءِ [مَيْتَةٌ] بالرفع على أَن تجعل [تكون] بمعنى (تقع)، ويحتاج ـ على هذه القراءَة ـ أَن يعطف ﴿دَمًا﴾ على موضع [أَن تكون] لأَنها في موضع نصب بالاستثناء. والمسفوح: الجاري الذي يسيل، وجعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا فرقاً بين القليل والكثير، والمسفوح: السائل من الدم والدمع ونحوه، ومنه قول الشاعر ـ وهو طرفة ـ:

إِذَا مـــا عـــادَهُ مِنَّـــا نِســـاءٌ سَفَحْـنَ الـدَّمْـعَ مِـن بَعْـدِ الـرَّنِيـن[١]

وقول امرىء القيس:

وإِنَّ شِفــائــي عَبْــرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهــا وهَلْ عندَ رسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ[٢]

فالدم المختلط باللحم والدمُ الخارج من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفو عنه، وقيل لأَبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال: إِنما حرَّم الله المسفوح، وقالت نحوه عائشة وغيرها، وعليه إِجماع العلماءِ، وقيل: الدمُ حرام لأَنه إِذا زايل فقد انسفح.

---

(١) البيت في ديوانه (طبعة ليدن سنة ١٩١٣) وفيه: (منها) بدلا من (مِنَّا) و(صفحن) بدلاً من (سفحن)، ومعنى (سَفَحْن) أَرَقْن، والرنين: البكاءُ بصوت. والحديث عن رجل طعنه بالرمح طعنة قوية وكان يحاول أَن يقوم منها فلا يستطيع، وإِذا ما عاده النساء بكين عليه بصوت مرتفع وسفحن الدمع حزناً عليه.

(٢) العَبْرَةُ: الدَّمْعَة، وسَفَحْتُها: أَرَقْتُها، ودَرَسَ: عَفَا وذهب أَثَرُه. ومِنْ مُعَوَّل: مِنْ مَبْكَىً، مأخوذ من العويل وهو الصياح عند البكاءِ، وقد يكون المعنى: منْ أَمْرٍ يُعَوَّل عليه، أي يُعتمد عليه.



والرجس: النَّتن والحرام، يوصف بذلك الأَجرام والمعاني كما قال عليه الصلاة والسلام: (دعوها فإنها مُنْتنة)[1] الحديث. فكذلك قيل في الأَزلام رجس. والرجس أَيضاً: العذاب لغة بمعنى الرجز، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ يريد ذبائحهم التي يختصون بها أَصنامهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ الآية، أَباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي، واختلف الناس فيم ذا؟ ـ فقالت فرقة: دون أَن يبغي الإِنسان في أكله فيأْكل فوق ما يقيم رمقه وينتهي إِلى حد الشبع وفوقه. وقالت فرقة: بل دون أَن يبغي في أَن يكون سفره في قطع طريق أَو قتل نفس، أَو يكون تصرفه في معصية، فإِن ذلك لا رخصة له، وأَما من لم يكن بهذه الأَحوال فاضطر فله أَن يشبع ويتزود، وهذا مشهور قول مالك بن أَنس رحمه الله، وقال بالأَول الذي هو الاقتصار على سدّ الرمق عبد الملك بن حبيب رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إِباحة تعظيمها قوة اللفظ[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

---

(١) الحديث رواه البخاري في تفسير سورة المنافقين، وكذلك الترمذي، ورواه مسلم في البر، ورواه الإمام أحمد، ولفظه كما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا في غزاة. فَكَسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأَنصار، فقال الأَنصاري: يا للأَنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية، قالوا: يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأَنصار، فقال: دعوها فإِنها منتنة... إلخ الحديث وهو طويل). ـ ومعنىٰ (كَسَعَ) ضربه بيده في دبره، ومعنىٰ (مُنْتِنَة) مذمومة في الشرع مُجْتَنَبةٌ مكروهة كما يُجْتنب الشيءُ النَّتِن. (عن ابن الأَثير في النهاية).

(٢) اختلف العلماء في الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ...﴾ أهي محكمة أم منسوخة؟ فقيل: هي محكمة، وعلى هذا فلا شيءَ محرم من الحيوان إلا فيها، وليس هذا مذهب الجمهور، وقيل: هي منسوخة بآية المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط، وقيل: جميع ما حرَّم داخل في الاستثناء هنا سواء أكان بنص القرآن أو حديث عن الرسول ﷺ بالاشتراك في العلّة وهي الرجسية.



لمَّا ذكر الله تعالىٰ ما حرَّم على أُمة محمد ﷺ أَعقب ذلك بذكر ما حرَّم على اليهود لِمَا في ذلك من تكذيبهم في قولهم: إِن الله لم يحرم علينا شيئاً، وإِنما حرمنا على أَنفسنا ما حرمه إِسرائيل على نفسه.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في ﴿هَادُوا﴾ ومعنىٰ تسميتهم يهودا.

و﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ يراد به الإِبل والنعام والأَوز ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأَصابع وله ظفر. وقال أَبو زيد: «المراد الإِبل خاصة». وضعف هذا التخصيص. وذكر النقاش عن ثعلب أَن كل مالا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مخلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«وهذا غير مطرد لأَن الأَسد ذو ظفر»[1].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ظُفُرٍ﴾ بضم الظاءِ والفاءِ، وقرأَ الحسن والأَعرج [ظُفْر] بسكون الفاءِ، وقرأَ أَبو السمال قعنب [ظِفْر] بكسر الظاءِ وسكون الفاءِ.

وأخبرنا الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إِسرائيل، وهي الثروب[2]، والكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية.

واختلف العلماءُ في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود ـ فحكى ابن المنذر في «الأَشراف» عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود، وهو ظاهر «المدونة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على القول في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[3] بأَنه المطعوم من ذبائحهم، وأَما مالا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدم في ذبائح المسلمين، وعلى هذا القول يجيءُ قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأَرنب: إِنه لا يُؤكل.

---

(١) هذه العبارة كما يفهم من الكلام هنا منسوبة لابن عطية، لكن أبا حيان في البحر المحيط نسبها للنقاش.
(٢) الثُّرُوب: جمع ثَرْب وهو شحم رقيق يُغَشِّي الكَرِشَ والأَمعاءَ.
(٣) من الآية (٥) من سورة (المائدة).



وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون تحريم، وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على أن يجعل قوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[٢] يراد به الذبائح، فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإباحة، وهذا قول ضعيف لأنه جرَّد لفظة ﴿وَطَعَامُ﴾ من معنى أن تكون «مطعوماً» لأهل الكتاب وخلَّصها لمعنى «الذبح»، وذلك حرجٌ لا يتوجه.

وأما الطريق[١] فحرمه قوم، وكرهه قوم، وأباحه قوم، وحلله مالك في «المدونة» ثم رجع إلى منعه. وقال ابن حبيب: ما كان محرماً عليهم وعَلِمْنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب ونحوه، وقال السدي، وأبو صالح: الأَلْيَات[٢] مما حملت ظهورهما. ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ قال: هو جمع حَوِيَّة على وزن فعيلة، فوزن (حَوَايَا) على هذا فعائل كسفينة وسفائن. وقيل: هو جمع حاوية على وزن فاعلة، فـ (حَوَايَا) على هذا فواعل كضاربة وضوارب. وقيل: جمع حاوياءُ فوزنها على هذا أيضاً فواعل كقاصعاءٍ وقواصع، وأما الحوايا على الوزن الأول فأصلها حَوَائِي فقلبت الياءُ الأخيرة ألفاً فانفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياءً، وأما على الوزنين الأخيرين فأصل ﴿حَوَايَا﴾ حواوي، وبدلت الواو الثانية همزة. والحويَّة: ماتَحَوَّى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما. وقال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، والسدي، وابن زيد: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾:

---

(١) الطرِّيق: من قولهم: طرَّقت المرأة والناقة: نَشِب ولدها في بطنها ولم يسهل خروجه، قال أوس بن حجر:

لهَا صَرْخَةٌ ثمَّ إِسْكَاتَةٌ ... كما طَرَّقت بنفاسٍ بكْرُ

وقال الليث: كل حامل تُطَرِّق إذا خرج من الولد نصفه ثم نَشِب فيقال: طَرَّقت ثم خلصت.

(٢) جمع أَلْيَة بفتح الهمزة وهي العجيزة للإنسان وغيره، أَلْيَة الشاة وأَلْيَة الإنسان، وفي الحديث (كانوا يجْتَبُّونَ أَلْيَاتِ الغَنَم أَحْيَاءً). وقيل: الأَلْيَةُ: هي ما ركب العجز من اللحم والشَّحم. (اللسان).



المباعر[١]، وقال بعضهم: هي المرابط التي تكون فيها الأمعاءُ وهي بنات اللبن[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد في سائر الشخص.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾، فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناءِ. وقال الكسائي: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على (الظهور) كأَنه قال: إلا ما حملت ظهورهما أَو حملت الحوايا، وقال بعض الناس: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على (الشحوم).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا تدخل ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ في التحريم، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنىٰ بل يدفعانه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ يقتضي أَن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم واستعصائهم على الأَنبياءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ إِخْبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم: «ما حرَّم الله علينا شيئاً وإِنما اقتدينا بإِسرائيل فيما حرَّم على نفسه» ويتضمن إِدحاض قولهم وَرَدَّه عليهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

يريد: فإِن كذبوك فيما أَخبرت به أَن الله حرمه عليهم وقالوا: لم يحرم الله علينا شيئاً، وإِنما حرمنا ما حرَّم إِسرائيل على نفسه. قال السدي: وهذه كانت مقالتهم، فقل

(١) جمع مَبْعَر، سمي بذلك لاجتماع البعرْ فيه، والبَعْر هو الزِّبل.
(٢) يريد: خزائن اللبن ومصادره التي يتجمع فيها قبل الحلب.
(٣) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم علّق عليه بقوله: «ولم يبين دفع اللفظ والمعنىٰ لهذا القول» مما يوحي بعدم الموافقة على كلام ابن عطية.



يا محمد على جهة التعجب من حالهم والتعظيم لِفِرْيَتِهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، إذْ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جُرمكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كما تقول عند رؤْية معصية أَو أَمر مبغي: ما أَحلم الله، وأَنت تريد: لإمهاله على مثل ذلك. ففي قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان.

ثم أَعقب هذه المقالة بِوَعِيدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فكأَنه قال: ولا تغتروا أَيضاً بسعة رحمته فإن له بأْساً لا يُردُّ عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفعٌ حُكْمُه بالقتال. وأَخبر الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام أَن المشركين سيَحْتَجُّونَ لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأَشياءِ بإِمهال الله تعالىٰ وتقريره حالهم، وأَنه لو شاءَ غير ذلك لما تركهم على تلك الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبيَّنَ أَن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه لأَنا نحن نقول: إن الله عزَّ وجلَّ لو شاءَ ما أَشركوا، ولكنه عزَّ وجلَّ شاءَ إِشراكهم، وأَقدرهم على اكتساب الإِشراك والمعاصي ومحبته[1] والاشتغال به، ثم علق العقاب والثواب على تلك الأَشياءِ والاكتسابات وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2]، ونحو ذلك. ويلزمهم على احتجاجهم أَن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً، إِذْ كلها لو شاءَ الله لم تكن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض المفسرين: إِنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاءِ. وهذا ضعيف.

---

(١) الضمير في (محبته) يعود على (الإشراك).

(٢) تكررت في الآيتين(٨٢) و(٩٥) من سورة (التوبة).



وتعلَّقت المعتزلة بهذه الآية فقالت: إن الله قد ذمّ لهم هذه المقالة، وإنما ذَّمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله تعالىٰ، بل هو خلق لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس الأمر على ما قالوا، وإنما ذم الله تعالىٰ ظن المشركين أن ما شاءَ اللهُ لا يقع عليه عقاب، وأما أنه ذمَّ قولهم: «لولا المشيئة لم نكفر»، فَلاَ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام، كأنه قال: سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيءَ يقتضي تكذيبهم، ولكن كذلك كذب الذين من قبلهم بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ وعيد بيِّن، وليس في الآية ردٌّ منصوص على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، وإنما تُرك الردُّ عليهم مقدراً في الكلام لوضوحه وبيانه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، والعطف على الضمير المرفوع لا يردُّه قياس، بخلاف المنصوب، لكن سيبويه قد قبح العطف على الضمير المرفوع، ووَجْه قبحه أنه لما بني الفعل صار كحرف من الفعل فَقَبُح العطف عليه لشبهه بالحرف، وذلك كقولك: «قمت وزيد»، لأن تأكيده فيه يبين معنى الاسمية ويذهب عنه شبه الحرف، وحسن عند سيبويه العطف في قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لما طال الكلام بِـ ﴿وَلَآ﴾ فكأن معنى الاسمية اتضح واقتضت ﴿وَلَآ﴾ ما يعطف بعدها[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ الآية. المعنىٰ: قل يا محمد للكفرة: هل عندكم من علم من قِبَلِ الله فتبينوه حتى تقوم به الحجة. و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ زائدة مؤكدة، وجاءَت زيادتها لأن الاستفهام داخل في غير الواجب. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: لا شيءَ عندكم إلا الظن، وهو أكذب الحديث.

---

(١) البصريون لا يجيزون العطف على الضمير المرفوع إلا بالفصل، وقد جاء الفصل هنا بـ (لا) ويستثنون من ذلك الشعر فيجيزون فيه ذلك بدون فصل، أما الكوفيون فيجيزون ذلك في كل الأحوال وهو عندهم فصيح، وقد جاء الفصل في سورة النحل في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فقال سبحانه ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وقال ﴿نَّحۡنُ﴾ فأكّد بالضمير. قاله أبو حيان في «البحر المحيط».



وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ على المخاطبة، وقرأ إبراهيم النخعي، وابن وثاب: [إنْ يَتَّبعون] بالياءِ حكاية عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهي قراءَة شاذة يضعفها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ﴾، و﴿تَخْرُصُونَ﴾ معناه: تقدرون وتظنون وترجمون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾.

ثم أَعقب تعالىٰ أَمره نبيَّه ﷺ بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأَمره إياه بأَن يقول مبيِّناً مفصحاً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾، يريد: البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج فيه، ثم أَعلم بأَنه لو شاءَ لهدى العالم بأَسره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إن الهداية والإيمان إنما هي من العبد لا من الله، فإن قالوا: معنىٰ ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ لاضطركم إلىٰ الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أن الإيمان الذي يريده الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده.

و(هَلُمَّ) معناها: هات، وهي حينئذٍ متعدية، وقد تكون بمعنىٰ: أَقْبِل فهي حينئذ لا تتعدىٰ، وبعض العرب يجعلها إسماً للفعل كـ (رويدك) فيخاطب بها الواحد والجميع والمذكر والمؤنث على حدّ واحد، وبعض العرب يجعلها فعلا فيركب عليها الضمائر فيقول: هلُمّ يا زيد، وهلُمُّوا أَيها الناس، وهلُمِّي يا هند، ونحو هذا، وذكر اللغتين أَبو علي في الأغفال، وقال أَبو عبيدة: اللغة الأُولى لأَهل العالية، واللغة الثانية لأَهل نجد، وقال سيبويه والخليل: أَصلها: هالُمّ، وقال بعضهم: أَصلها: هالُمُمْ وحذفت الأَلف لالتقاءِ الساكنين فجاءَ هلُمم، فحذف من قال أَصلها: هالُمّ، أَدغم من قال أَصلها هالُمُمْ على غير قياس.



ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهداءكم على تحريم الله ما زعمتم أنه حرَّمه، ثم قال الله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: فإن افترىٰ لهم أحد وزوّر شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾[1] يريد: لاتنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على أقوالهم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على نعت كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل، هذا مذهب معظم الناس. وقال النقاش: نزلت في الدهرية من الزنادقة ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أنداداً يُسوونهم به، وإن كانت في الزنادقة فعَدْلُهم غير هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

هذا أمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر.

و﴿تَعَالَوْاْ﴾ معناه: أقبلُوا، وأصله من العلّو، فكأن الدعاءَ لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعوّ[2]، وتعالىٰ هو مطاوع عالي، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل.

و﴿أَتْلُ﴾ معناه: أسْرد وأنص من التلاوة التي هي إتباع بعض الحروف بعضاً، و﴿مَا﴾ نصب بقوله تعالىٰ: ﴿أَتْلُ﴾، وهي بمعنىٰ الذي، وقال الزجاج: يجوز أن يكون قوله تعالىٰ ﴿أَتْلُ﴾ معلّقا عن العمل و﴿مَا﴾ نصب بـ ﴿حَرَّمَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قَلِقٌ: و[أنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع

---

(١) العطف في هذه الآية يدل على مغايرة الذوات. ويحتمل أن يكون بسبب تغاير الصفات والموصوف واحد، وهو رأي أكثر الناس.

(٢) قال ابن الشجري: «جعلوا التقدم ضرباً من العلوّ والارتفاع لأن المأمور بالتقدم في أصل وضع الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له: تعال: أي ارفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي»، قارن هذا بالتعليل الذي ذكره ابن عطية.



بالابتداء والتقدير: الأمر أَن، أَو: ذلك أَن. ويصح أَن تكون في موضع نصب على البدل من ﴿ مَا ﴾، قاله مكي وغيره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنىٰ يبطله فتأَمله.

ويصح أَن تكون مفعولاً من أَجله، والتقدير: إِرادة أَن لا تشركوا به شيئاً، إِلا أَنَ هذا التقدير يُخرج ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ ﴾ من المتلوِّ ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات.

و﴿ تُشْرِكُوا۟ ﴾ يصح أَن يكون منصوباً بـ[أَنْ]، ويتوجه أَن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود. و(أَنْ) قد توصل بما نصبته، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأَمر والنهي، و﴿ شَيْـًٔا ﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله.

و﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره: وأَحسنوا بالوالدين إِحساناً.

والمحرمات تنفكُّ من هذه المذكورات بالمعنى وهي: الإِشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس.

وقال كعب الأَحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إِلى آخر الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملَّة، وقد قيل: إِنها العشر الكلمات المنزَّلة على موسىٰ عليه السلام.

وإِن اعترض من قال إِنَّ ﴿ تُشْرِكُوا۟ ﴾ منصوب بـ[أَنْ] بعطف المجزومات عليه فذلك موجود في كلام العرب، وأَنشد الطبري حجة لذلك:

حَـجَّ وأَوْصَـىٰ بِسُلَيْمَـى الأَعْبُـدا   أَنْ لا تَـرى ولاَ تُكَلِّـمْ أَحَـداً
ولا يَـزَلْ شَـرابُهـا مُبَـرَّدَا[1]

(١) هذه الأبيات الثلاثة من مشطور الرجز، ولم نعثر فيما لدينا من المراجع على قائلها، والشاهد فيها أن (لا) في قوله: (أن لا ترى) نافية ومع ذلك فقد عطف الشاعر عليها الفعل مجزوماً بلا الناهية في قوله: (ولا تُكَلِّمْ) وفي قوله: (ولا يَزَلْ).



وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾ الآية، نهيٌ عن عادة العرب في وأْدِ البنات، والولد يعُمّ الذكر والأُنثى من البنين. والإملاق: الفقر وعدم المال. قاله ابن عباس وغيره، يقال: أَمْلق الرجل إذا افتقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويشبه أن يكون معناه: أَمْلَق أي: لم يبق له إلا الْمَلَق، كما قالوا: أَتْرَبَ إذا لم يبق له إلا التُّراب، وأَرْمَلَ إذا لم يبق له إلا الرمل. والْمَلَق: الحجارة السود واحدته: مَلَقَة، وذَكَرَ منذر بن سعيد[١] أن الإملاق: الإنفاق، ويقال: أَمْلَق ماله بمعنى أنفقه، وذُكِرَ أَن عَلِيًّا قال لامرأة: أمْلقي من مالك ما شئتِ، وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق، وحكى أيضاً النقاشُ عن مُؤَرِّجٍ أنه قال: الإملاق: الجوع بلغة لخم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. و﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أَقسام ما جعلت له من الأَشياءِ، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أَشياءَ مخصصات، فقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو زنى الحوانيت الشهير، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو متخذات الأَخدان، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرَّم الله الجميع، وقال مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو نكاح حلائل الآباءِ ونحو ذلك، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنىٰ، إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة، ومعنى الآية: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب قتلها، وقد بيَّنته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنىٰ بعد الإحصان والحرابة وما تشعب من ذلك.

(١) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْري القرطبي ـ أبو الحكم البلوطي ـ قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان بصيراً بالجدل منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام، له كتب في القرآن والسُّنة منها: «أحكام القرآن» و«الإبانة عن حقائق أُصول الديانة» ـ و«الناسخ والمنسوخ». (الكامل لابن الأثير. ونفح الطيب، وبغية الملتمس).



و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصيَّة: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قول الشاعر:

أَجِـدَّكَ لـمْ تَسْمَـعْ وَصـاةَ مُحَمَّـدٍ نَبِيِّ الإلٰـه حِيـنَ أَوْصَـىٰ وأَشْهَـدَا(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترجٍّ بالإضافة إلينا، أي من سمع هذه الوصيَّة ترجَّى وقوع أثر العقل بعدها وتمييز المنافع والمضار في الدين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سدّ الذريعة، ثم استثنىٰ ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه. قال مجاهد: التي هي أحسن: التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأحسن ـ إذا ثمر مال اليتيم ـ ألاَّ يأخذ منه نفقة ولا أُجرة ولا غيرها. ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف. قاله ابن زيد.

والأَشُدّ: جمع شَدٍّ، وجمع شدَّةٍ(٢)، وهو هنا الحزم والنظر في الأُمور وحسن التصرف فيها.

---

(١) البيت لميمون بن قيس الأَعشىٰ، وهو من قصيدته المعروفة التي قالها في مدح الرسول ﷺ، ومطلعها:

أَلَـمْ تَغْتَمِـضْ عَيْنَـاكَ لَيْلَـةَ أَرْمَـدَا وَعَـادَكَ مـا عَـادَ السَّلِيـمَ المُسَهَّـدَا

وقوله: (أَجِدَّك) معناه: أَهذا جِدٌّ منك؟ والوَصَاةُ والوصيَّة: ما يُوصىٰ به ويُطْلب تنفيذه على جهة الفرض والتأكيد.

(٢) الأَشُدُّ: مبلغ الرجل في الحنكة والمعرفة، قال أَبو عبيد: واحدها شدّ في القياس ولم أسمع لها بواحدة، وقال سيبويه: واحدها شدَّةٌ كنِعْمَةٍ وأَنْعُم، وقال ابن جني: إنه جمع لا واحد له من لفظه، وقال السيرافي: القياس: شَدٌّ وأَشُدّ مثل قَدٌّ وأَقُدّ. (عن لسان العرب).

وقد قيل: إن انتهاءَ الكهولة فيها مجتمع الأَشُدّ كما قال سُحَيْم بن وثيل:

أَخُـو خمسيـن مُجْتَمِـعٌ أَشُـدِّي ونجَّـذنـي مُـداورَةُ الشُّـؤون

ولكن هذا المعنى لا يستقيم هنا.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس هذا بالأَشُدّ المقرون ببلوغ الأَربعين، بل هذا يكون مع صغر السنّ في ناس كثير، وتلك الأَشد هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون، وقال ربيعة، والشعبي، ومالك فيما روي عنه، وأَبو حنيفة: بلوغ الأَشد: البلوغ مع أَلاَّ يثبت سفه، وقال السدي: الأَشُدّ: ثلاثون سنة، وقالت فرقة: ثلاثة وثلاثون سنة، وحكىٰ الزجاج عن فرقة: ثماني عشرة سنة وضعَّفه ورجح البلوغ مع الرشد، وحكى النقاش أَن الأَشد هنا من خمس عشرة إِلى ثلاثين. والفقه ما رجَّح الزجاج وهو قول مالك رحمه الله: الرشد وزوال السَّفَه مع البلوغ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَصح الأَقوال وأَليقها بهذا الموضع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الآية أَمر بالاعتدال في الأَخذ والإِعطاء، والقسط: العدل، وقوله سبحانه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقتضي أَن هذه الأَوامر إِنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، لا أَنه مُطالب بغاية العدل في نفس الشيءِ المتصرف فيه. قال الطبري: لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائداً يتكلف أَيضاً مثل ذلك، رفع الله عزَّ وجلَّ الأَمر بالمعادلة حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ يتضمن الشهادات والأَحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أَي: ولو كان ميل الحق على قراباتكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يراد جميع ما عهده الله إِلى عباده، ويحتمل أَن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إِنسانين ويضاف إِلى ذلك العهد إِلى الله من حيث قد أَمر بحفظه والوفاءِ به. وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تَرَجٍّ بحسبنا.

وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [تَذَّكَّرُون] بتشديد الذال والكاف جميعاً، وكذلك ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ و[يَذَّكَّر الإِنْسَانُ][1] وما جرىٰ من ذلك مشدَّدا كله، وقرأ نافع، وعاصم في رواية أَبي بكر، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إِلا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٦٧) من سورة (مريم): ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

فإنهم خففوها، وروى أبان، وحفص عن عاصم [تَذْكُرون] خفيفة الذال في كل القرآن، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاءِ وإذا كان بالياءِ قرأه بالتشديد، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾[1] بسكون الذال وتخفيف الكاف، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ بجملته. وقال الطبري: الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون ﴿صِرَٰطِى﴾ ساكن الياءِ، وقرأ حمزة والكسائي: [وَإِنَّ] بكسر الألف وتشديدالنون، وقرأ عبد الله بن أبي إسحق، وابن عامر من السبعة: [وأَنْ] بفتح الهمزة وسكون النون [صراطيَ] مفتوح الياءِ، فأمَّا مَن فتح الألف فالمعنى عنده كأنه قال: «ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»[2]، أي: «اتبعوه لكونه كذا»، وتكون الواو ـ على هذا ـ إنما عطفت جملة على جملة، ويصح غير هذا أن يعطف على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، وكأن المحرم من هذا اتباع السبل والتنكيب عن الصراط الأقوم. ومَن قرأ بتخفيف النون عطف على قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، ومذهب سيبويه أنها المخففة من الثقيلة، وأن التقدير: «وأنه هذا صراطي». ومَن قرأ بكسر الألف وتشديد النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول، وفي مصحف ابن مسعود: «وهذا صراطي» بحذف «أن».

وقال ابن مسعود: إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتتشعب منه طرق، فمن سلك الجادَّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار[3]، وقال أيضاً: خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه سولم يوماً خطاً،

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية: (٦٢) من سورة (الفرقان): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

(٢) ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: لا تدعوا مع الله أحداً لأن المساجد لله.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري عن أبان. (تفسير القرطبي).



فقال: هذا سبيل الله، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً، فقال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية تَعُمّ أَهل الأَهواءِ والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أَهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوءِ المعتقد.

وتقدم القول في ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم﴾ وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، ومن حيث كانت المحرمات الأُول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءَت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأُخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاءِ من لم يتذكر جاءت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى جاءَت العبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أُمر به محمد ﷺ، كأَنه قال: «ثم مما وصيناه أَنا آتينا موسىٰ الكتاب»، ويدعو إلى ذلك أَن موسى عليه السلام متقدم في الزمان على محمد ﷺ وتلاوته ما حرَّم الله[(٢)]. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، و﴿تَمَامًا﴾ نصب على المصدر.

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، والبزار، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه ـ عن ابن مسعود. ونصه: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وغيرهما مثله عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور).

(٢) هذا تعليل ابن عطية لاستعمال «ثم» التي تفيد الترتيب والتراخي في هذا الموضع، وهناك آراءٌ كثيرة ذكرها أَبو حيان في «البحر المحيط» ثم قال: «وهذه الأقوال كلها مُتكلَّفَة، والذي ينبغي أَن يُذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهملة». وخلاصة تعليل ابن عطية أن «ثُمَّ» هنا لترتيب القول لا لترتيب الزمن والمهلة فيه.



وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ مُخْتَلف في معناه ـ فقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بمعنىٰ: الَّذين، و﴿أَحۡسَنَ﴾ فعل ماض صلة (الذين)، وكأن الكلام: «وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أَهل ملَّته وإتماماً للنعمة عندهم». هذا تأْويل مجاهد، وفي مصحف عبد الله: «تماماً على الَّذين أَحْسَنوا» فهذا يؤيد ذلك التأْويل. وقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ غير موصولة والمعنىٰ: «تماماً على ما أَحْسَن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأُمور نبوته»، يريد موسى عليه السلام، وهذا تأْويل الربيع وقتادة، وقالت فرقة: المعنىٰ: ﴿تَمَامًا﴾ أَي تفضُّلاً وإكمالاً على الذي أَحسن الله فيه إلى عباده من النبوات والنعم وغير ذلك، فـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ أَيضاً في هذا التأْويل غير موصولة، وهذا تأْويل ابن زيد.

وقرأَ يحيى بن يَعْمر، وابن أَبي إسحٰق: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ بضم النون، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: «على الذي هو أَحسن». وضعَّف أَبو الفتح هذه القراءَة لقبح حذف المبتدأِ العائد. وقال بعض نحويي الكوفة: يصح أَن يكون ﴿أَحۡسَنَ﴾ صفة لِـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الأَلف واللام، كما تقول العرب: «مررتُ بالذي خير منك»، ولا يجوز «بالذي عالم»، وخطَّأَ الزجاج هذا القول الكوفي، و﴿وَتَفۡصِيلًا﴾ يريد: بياناً وتقسيماً. و﴿لَعَلَّهُم﴾ ترجٍّ بالإضافة إلى البشَر، و﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ أَي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأَنبياء صلوات الله عليهم، إذ لا تلزمه العقول بذواتها، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ۝١٥٧﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿مُبَارَكٞ﴾[1] وصف بما فيه من التوسعات وإزالة

---

(١) قال أَبو حيان في «البحر»: «﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ و﴿مُبَارَكٞ﴾ صفتان لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وكان الوصف بالإنزال آكد من الوصف بالبركة فقدم، لأَن الكلام مع من ينكر رسالة الرسول ﷺ وينكر إنزال الكتب الإلهية وكونه=



أَحكام الجاهلية وتحريماتها، وجمع كلمة العرب ووَحدَة أَيدي متَّبعيه، وفتح الله على المؤمنين به، ومعناه: مُنَمًّى خيره مُكَثَّر، والبَرَكَة: الزيادة والنمو. و﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ دعاءٌ إلى الدين، ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الأَظهر فيه أَنه أَمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

و﴿ أَن﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضع نصب، والعامل فيه ﴿ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والتقدير: «وهذا كتاب أنزلناه كراهية أَنْ»، وهذا أَصح الأَقوال وأَضبطها للمعنى المقصود، وقيل: العامل في ﴿ أَن﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فكأَنه قال: «واتقوا أَن تقولوا»، وهذا تأْويل يتخرج على معنى: واتقوا أَن تقولوا كذا لأَنه لا حجة لكم فيه، ولكن يعرض فيه قَلَق لقوله تعالىٰ أَثناء ذلك: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وفي التأْويل الأَول يتّسق نظم الآية.

والطائفتان: اليهود والنصارى بإِجماعٍ من المتأَولين، والدراسة: القراءَة والتعلم بها، و﴿ وَإِن﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنَّا﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَغَٰفِلِينَ﴾ لام توكيد. هذا مذهب البصريين، وحكىٰ سيبويه عن بعض العرب أَنهم يخففونها ويُبقونها على عملها، ومنه قراءَة بعض أَهل المدينة: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا﴾[١]، وأَما المشهور فإِنها إذا خففت ترجع حرف ابتداءٍ ولا تعمل. وأَما على مذهب الكوفيين فـ ﴿إِن﴾ في هذه الآية بمعنىٰ (ما) النافية، واللام بمعنىٰ (إِلا)، فكأَنه قال: «وما كنا عن دراستهم إِلاَّ غافلين»[٢].

= مباركاً عليهم هو وصف حاصل لهم منه متراخ عن الإنزال، فلذلك تأخر الوصف بالبركة وتقدم الوصف بالإنزال، وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَولى من الوصف بالاسم ﴿ مُبَارَكٌ﴾ لما يدل عليه الإسناد إلى الله تبارك وتعالىٰ من التعظيم الشريف، وليس ذلك في الاسم لو كان التركيب (مُنَزَّل) أو (مُنَزَّلٌ مِنَّا). (البحر ٤ـ ٢٥٦)».

(١) من الآية (١١١) من سورة (هود) وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٢) قال الزمخشري: ﴿ وَإِن كُنَّا﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والأَصل: «وإن كنا عن دراستهم غافلين» على أن الهاءَ ضمير. واعترض على ذلك أَبو حيان في «البحر المحيط» بما يفند كلامه فارجع إليه إن شئت، وقال قطرب في مثل هذا التركيب: «(إِنْ) بمعنى (قد) واللام زائدة» وكأن الكلام ـ على قوله ـ: «وقد كنا عن دراستهم غافلين».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب أُنزل حجة عليكم لئلا تقولوا: إنما أُنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ﴾ جملة معطوفة على الجملة الأُولىٰ، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أُنزلت على غيرهم، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع، وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم، فقيل لهم: قد جاءكم بيان من الله وهدىً ورحمة.

ولما تقرر أن البيِّنة قد جاءت والحجة قد قامت حَسُن ـ بعد ذلك ـ أن يقع التقرير بقوله تعالىٰ: فَمَنْ أشد ظلماً ممن كذب بهذه الآيات البيِّنات.

﴿ وَصَدَفَ﴾ معناه: حاد وراغ وأعرض. وقرأ يحيىٰ بن وثاب، وابن أبي عبلة: [كَذَبَ] بتخفيف الذال. والجمهور ﴿ كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، و﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ﴾ وعيد، وقرأت فرقة ﴿ يَصْدِفُونَ﴾ بكسر الدال، وقرأت فرقة [يَصْدُفون] بضم الدال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾.

الضمير في ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قَبْلُ: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم، و﴿ يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج. ويحتمل أن يريد الملائكة الذي يتصرفون في قيام الساعة، وقرأ حمزة والكسائي: [إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ] بالياءِ، وقرأ الباقون: ﴿ تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاءِ من فوق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ قال الطبري: لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين. وحكىٰ الزجّاج أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ



رَبُّكَ﴾ أي العذاب الذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاءُ من عباده كالصيحات والرجفات والخسف ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام على كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالىٰ: ألا ترى أن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾(١)، فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراط الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله، لكن لما قال بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وبيَّنَت الآثار الصحاح في البخاري ومسلم أن الآية التي معها هذا الشرط هي طلوع الشمس من المغرب قَوي أن الإشارة بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من مغربها. وقال بهذا التأويل مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم، ويقوىٰ أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة الإنسان عند الموت أو ما يكون في مثابتها لمن لم يغرغر، ففي الحديث أن توبة العبد تقبل مالم يغرغر(٢)، وهذا إجماع لأن من غرغر وعاين فهو في عداد الموتىٰ: وكون المرءِ في هذه الحالة من آيات الله تعالىٰ، وهذا على من يرىٰ الملائكة المتصرفين في قيام الساعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها، كأنه قال: هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب، والأخذات المعهودة لله عزَّ وجلَّ، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة؟

(١) من الآية (٢) من سورة (الحشر).

(٢) الحديث بلفظ (إن الله عزَّ وجلَّ ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر) أخرجه الترمذي في الدعوات، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في أكثر من موضع. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي). ومعنى يغرغر: تبلغ روحه رأس حلقه. قاله القرطبي.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن يريد بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يقطع بوقوعه من أَشراط الساعة، ثم خصص ـ بعد ذلك ـ بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترفع التوبة معها. وقد بيَّنت الأَحاديث أَنها طلوع الشمس من مغربها(١).

وقرأَ زهير الفُرْقبي(٢): ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ بالرفع، وهو على الابتداءِ والخبر في الجملة التي هي: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ إلى آخر الآية، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام، وقرأَ ابن سيرين، وعبد الله بن عمرو، وأَبو العالية: [لاَ تَنْفَعُ] بتاءٍ، وأَنث الإِيمان لما أُضيف إِلى مؤنث، أَو لما نُزِّل منزلة التوبة، وقال جمهور أَهل التأْويل كما تقدم: الآية التي لا تنفع التوبة من الشِّرك أَو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب. وروي عن ابن مسعود أَنها إِحدى ثلاث، إِما طلوع الشمس من مغربها، وإِما خروج الدابة، وإِما خروج يأجوج ومأجوج(٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا فيه نظر لأَن الأَحاديث تردُّه وتُخصِّص الشمس، ورُوي في الحديث (أَن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش وتستأْذنه فيؤذن لها في الطلوع من المشرق، وحتى إِذا أَراد الله عزَّ وجلَّ سدَّ باب التوبة أَمرها بالطلوع من مغربها)(٤). قال

(١) منها ما رواه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وأَبو يعلى، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن أَبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال: (طلوع الشمس من مغربها)، وأخرج مثله الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه، عن أبي هريرة، والأحاديث في ذلك كثيرة.

(٢) زهير الفُرقبي بضم الفاءِ وسكون الراءِ ـ يعرف بالنحوي، وقيل له: الفرقبي لأَنه كان يتاجر إِلى ناحية فُرْقب، له اختيار في القراءَة وكان في زمن عاصم. مات سنة ١٥٦، وقيل: ١٥٥ (راجع طبقات القراء).

(٣) في صحيح مسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: (ثلاثٌ إِذا خرجْن لا ينفع نفساً إِيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إِيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجّال ودابة الأرض).

(٤) أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وعبد بن حميد، وغيرهم ـ عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحىٰ، فأَيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها، ثم قال عبد الله ـ وكان قد قرأ الكتب ـ وأَظن أولها خروجاً طلوع =



ابن مسعود وغيره عن النبي ﷺ: (فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين)[١]، ويقوي النظر أيضاً أن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد جميع أعمال البر وفرضها ونفلها، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين، كما أن قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ هو للكفار. والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين. وقرأ أبو هريرة: «أَوْ كسبَتْ في إيمانِهَا صالحاً».

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الآية يتضمن الوعيد، أي: فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أخبر به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس، والصحابة، وقتادة: المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اليهود والنصارىٰ، أي: فرقوا دين إبراهيم الحنيفية. وأضيف الذين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه. ووصفهم بالشِّيع إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، ففي الآية حض لأمة محمد ﷺ على الائتلاف وقلة الاختلاف. وقال الأحوص[٢] وأم سلمة زوج النبي ﷺ: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرىٰ مجراهم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أي: فرقوا دين الإسلام.

= الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما خرجت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع ـ إلى آخر الحديث وهو طويل. (الدر المنثور).

(١) أخرجه سعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني ـ عن ابن مسعود. (الدر المنثور).

(٢) الأحوص بن مسعود بن كعب بن عامر بن عديّ الأنصاري أخو حوَيّصة ومحيّصة، ذكره العدوي في أنساب الأنصار، وقال: شهد أحد وما بعدها، استدركه ابن فتحون. وهناك الأحوص بن عبد بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف. مختلف في صحبته. والأقرب إلى الصواب أن المراد هو الأول. (الإصابة).

وقرأ علي بن أبي طالب، وحمزة، والكسائي: [فارقُوا] ومعناه: تركوا، ثم بيّن قوله: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أنهم فرقوه أيضاً، والشِّيَع: جمع شيعة وهي الفرقة على مقصد ما يتشايعون عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أَي: لا تشفع لهم، ولا لهم بك تعلق، وهذا على الإِطلاق في الكفار، وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع، لأَنهم لهم حظ في تفريق الدين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض، والقرينة المتقدمة تقتضي أَن ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه وعيد، كما أن القرينة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١) تعطي أَن في ذلك الأَمر رجاءً كأَنه قال: «وأَمره في إِقبال وإِلى خير».

وقرأ النَّخَعي، والأَعمش، وأَبو صالح: [فَرَقوا] بتخفيف الراءِ، وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كلام غير متقن، فإِن الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أَمراً بالموادعة فيشبه أَن يقال: إِن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أُخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية. قال أَبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في الأَعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم، للحسنة سبعمائة(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل يحتاج إِلى سند يقطع العذر.

وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأُمة، أَي أَن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا

---

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٢) أخرج أَبو الشيخ عن ابن عباس ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قال: إِنما هي للأعراب ومضعَّفة للمهاجرين بسبعمائة ضعف، وأخرج ابن أَبي حاتم عن أبي هريرة مثله، وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم عن ابن عمر.

المضمون قد يزيد مايشاءُ[(١)]، وقد يزيد أَيضاً على بعض الأَعمال كنفقة الجهاد، وقال ابن مسعود، ومجاهد والقاسم بن أَبي بزة، وغيرهم: الحسنة ها هنا: لا إِلٰه إِلاَّ الله، والسيئة: الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه هي الغاية من الطرفين.

وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر. وأَنث لفظ الْعَشْر لأَن الأَمثال ها هنا بالمعنى حسنات. ويحتمل أَن الأَمثال أُنث لما أُضيف إِلى مؤنث وهو الضمير، كما قال الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّت رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ أَعَالِيهَا مرُّ الرِّياح النواسِمُ[(٢)]

فأَنث.

وقرأ الحسن، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والأَعمش، ويعقوب: [فَلَهُ عشْرٌ] بالتنوين [أَمْثَالُهَا] بالرفع[(٣)].

وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: (الأَعمال ستَّةٌ مُوجِبَةٌ وموجِبَةٌ، ومُضَعَّفَةٌ ومُضَعَّفَة، ومِثْلٌ ومِثْلٌ. فلا إِلٰه إِلا الله توجب الجنة. والشرك يوجب النار، ونفقة الجهاد تضعف سبعمائة ضعف، والنفقة على الأَهل حسنتها بعشرة، والسيئة جزاؤُها مثلها، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها)[(٤)].

(١) ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه: (من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسَيِّئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك). (الدر المنثور).

(٢) البيت لذي الرمّة، وهو في وصف نساءٍ، يقول: إذا مشين اهتززن في مشيتهن وتثنَّين فكأَنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت ـ قال المهدوي: «كثيراً ما يؤنثون فعلَ المضاف المذكَّر إذا كان إضافته إلى مؤنث وكان المضاف بعض المضاف إليه، أو منه، أو به، وعليه قول ذي الرمَّة: «مَشَيْنَ ـ البيت»، فقد أَنَّث المرَّ لأَنه مضاف إلى الرياح وهي مؤنثة إذ كان المرُّ من الرياح».

(٣) وهذا على أن [أَمْثَالُها] صفة لـ [عَشْرٌ] المنونة.

(٤) الأحاديث التي تؤكد أن الحسنة بعشر أمثالها كثيرة ومروية في الصحاح من كتب السُّنَّة، أما الحديث الذي ذكره ابن عطية رحمه الله هنا، فقد رواه ابن جرير الطبري عن قتادة، ولفظه، (الأَعمال ستَّةٌ: موجبةٌ وموجِبةٌ، ومُضَعَّفَةٌ وَمُضَعَّفَةٌ ومثلٌ ومثلٌ، فأَمَّا الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل=



وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يوضع في جزائهم شيءٌ في غير موضعه، وتقدير الآية: من جاءَ بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها، والمماثلة بين الحسنة والثواب مترتبة إذا تدبرت. وقال الطبري: قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية، يريد: من الذين فرقوا دينهم، أي: من جاءَ مؤمنا فله الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم[1] أليق باللفظ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

هذا أَمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيه عليه الصلاة والسلام بالإعلان بشريعته ونبذ ما سواها من أَضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحُسْن والفضل والاستقامة.

و﴿هَدَىٰنِي﴾ معناه: أَرشدني بخلق الهدى في قلبي. والربُّ: المالك، ولفظه مصدر، من قولك: ربّه يربُّه، وإنما هو مثل عدْل ورضا في أنه مصدر وصف به، وأصله ذو الربّ ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل: الرب. والصراط: الطريق. و﴿دِينًا﴾ منصوب بـ (هَدَاني) المقدر الذي يدل عليه ﴿هَدَىٰنِي﴾ الأول، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أن يحتاج إلى إضمار إلى، إذ (هدىٰ) يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجرّ، فهو فعل متردد، وقيل: نصب ﴿دِينًا﴾ فعلٌ مضمر تقديره: عرفني دينا. وقيل: تقديره فاتبعوا دينا، أو فالزموا ديناً. وقيل: نصب على البدل من ﴿صِرَٰطٍ﴾ على الموضع، لأن تقديره: هداني ربي صراطاً مستقيماً. و﴿قِيَمًا﴾ نعت للدين، ومعناه: مستقيماً معتدلاً.

= الجنة، ومن لقي الله مشركاً به دخل النار، وأما المضَعَّف والمضَعِّف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمائة ضعف، ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها، وأما مِثْلٌ ومِثْلٌ: فإذا هم العبد بحسنه فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة) ـ وأخرج مثله أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن خريم بن فاتك، وفيه: (الناس أربعة والأعمال ستة) . . . الخ. (عن تفسير الطبري، والدر المنثور).

(١) هكذا في الأُصول، ولعل الصواب: في جميع العاملين، أو في العالمين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: [قَيِّماً] بفح القاف وكسر الياء وشدها، وأصله: قَيْوِم عللت كتعليل سيِّد وميِّت. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياءِ على وزن فِعَل، وكان الأصل أن يجيءَ فيه (قِوَما) كعِوَض وحِوَل إلا أنه شذَّ كشذوذ قولهم: جياد في جمع جواد وَثِيرَة في جمع ثَوْر.

و﴿مِّلَّةَ﴾ بدل من الدين، والمِلَّة: الشريعة، و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ والحَنَف في كلام العرب: الميْل، وقد يكون المَيْل إلى فساد كحنف الرجل. وكقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾[1] على قراءَة من قرأ بالحاءِ غير المنقوطة، ونحو ذلك. وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه الصلاة والسلام: (الحنيفية السمحة)[2]، الدين الحنيف، ونحو ذلك، وقال ابن قتيبة: الحنف: الاستقامة[3]، وإنما سمي الأَحنف في الرجل على جهة التفاؤُل له. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي للنقيصة عنه ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية. أَمر من الله عزَّ وجلَّ أَن يعلن بأَن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إما هو لله عزَّ وجلَّ، وإرادة وجْهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتَّى يلتزموا في جميع أَعمالهم قصد وجه الله عزَّ وجلَّ. ويحتمل أَن يريد بهذه المقالة أَن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عزَّ وجلَّ يصرفه في جميع ذلك كيف يشاءُ، وأَنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ على هذا التأْويل راجعاً إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فقط، أَو راجعاً إلى القول الأَول، وعلى التأْويل الأَول، يرجع إلى جميع ما ذكر من صلاة وغيرها، أَي: أُمرتُ بأَن أَقصد وجه الله عزَّ وجلَّ في ذلك وأَن أَلتزم العمل.

---

(١) من الآية (١٨٢) من سورة (البقرة): ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

(٢) من قوله ﷺ: (أَحب الدين إلى الله الحنيفيَّة السَّمْحَة) ـ (البخاري في كتاب الإيمان)، والطبراني في الكبير، والترمذي في المناقب، وكذلك رواه الإمام أحمد في مسنده وأيضاً روى الإمام أحمد: (ولكنِّي بعثت بالحنيفية السمحة).

(٣) والأَحنف: المستقيم، وعليه قول الشاعر:

تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا ... طَرِيقٌ لا يَجُوزُ بِكُمْ حَنِيفُ

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنُسُكِي﴾ بضم السين، وقرأ أبو حيوة، والحسن بإسكان السين، وقالت فرقة: النسك: في هذه الآية الذبائح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويُحَسِّن تخصيصَ الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة، وقالت فرقة: النُّسك في هذه الآية: جميع أعمال الطاعات، من قولك: نَسَك فلان فهو ناسِكٌ إذا تعبَّد(١).

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياءِ من ﴿وَمَحْيَايَ﴾ وسكونها من ﴿وَمَمَاتِي﴾، وقرأ نافع وحده، [وَمَحْيَايْ] بسكون الياءِ، قال أبو علي الفارسي: وهي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال، ووَجْهُها أنه قد سمع من العرب: «الْتَقَتْ حَلْقَتا البطان»(٢)، و«لفلان ثلثا الْمال»(٣)، وروى أبو خليد عن نافع [وَمُحْيَايِ] بكسر الياءِ، وقرأ ابن أبي إسحٰق، وعيسىٰ، والجحدري: [ومَحْيَيَّ]، وهذه لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤَيب:

سَبَقُوا هَـوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَـوَاهُـمُ ... فَتَصَرَّعَـوا ولِكُـلِّ جَنْـبٍ مَصْرَعُ(٤)

وقرأ عيسى بن عمر ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياءِ فيهن، وروي ذلك عن عاصم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأُمَّة، وقال النقاش: من أَهل مكة.

---

(١) في (اللسان): «سئل ثعلب عن الناسك ما هو؟ فقال: مأخوذ من النسيكة وهو سبيكة الفضة المصفَّاة، كأنه خلَّص نفسه وصفَّاها لله عزَّ وجلَّ».

(٢) يقولون: البطان للقَتَب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، فإذا التقتا فقد بلغ الشَّد غايته، يضرب في الحادثة إذا بلغت النهاية. «مجمع الأمثال ـ للميداني».

(٣) قال النحاس: لم يجز أحدٌ من النحويين التقاء الساكنين إلا يونس، وإنما أجازه لأَن قبله ألفاً، والمَدَّة التي فيها تقوم مقام الحركة، وقد أجاز يونس أيضاً: «اضربانْ زيدا» لوجود الألف قبل النون الساكنة. ومن قرا بقراءَة نافع وأراد أن يسلم من اللحن وقف على [مَحْيَايْ] فيكون غير لاحن عند جميع النحويين. «راجع القرطبي».

(٤) هَوَيَّ: يريد هَوَايَ، أي: ماتوا قبلي وكنت أريد أن أموت قبلهم، وأعنقوا لهواهم: جعلهم كأنهم هوَوْا الذهاب إلى الموت لسرعتهم في الذهاب إليها، وهم في الحقيقة لم يَهْوَوْهَا. والرواية (فتَخَرَّموا) بدلاً من (فتصرعوا) ومعنى تخرَّموا أُخذوا واحداً واحداً. والهذليون يقولون: مَحْيَيَّ، وعَصَيَّ، وهَوَيَّ وهُدَيّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى واحد، بل الأول أعم وأحسن. وقرأت فرقة ﴿وَأَنَا﴾ بإشباع الألف، وجمهور القراءِ على القراءَة ﴿وَأَنَا﴾ دون إشباع. وهذا كله في الوصل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

وترك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغني عنها لاسيما إذا وَلِيَتْها همزة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تِبَاعَةٍ تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ.

و﴿أَبْغِى﴾ معناه: أطلب، فكأنه قال: أفيحْسُن عندكم أن أطلب إلهاً غير الله الذي هو رب كل شيءٍ؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم، لأن الأمر ليس كما تظنونه، وإنما كَسْبُ كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها، ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أيْ: لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: حاملةٌ حِمْلَ أُخرى وثقلها. والوِزْرُ أصله الثِّقْل ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة، يقال منه: وزَر الرَّجل يَزِرُ فهو وازِرٌ وَوَزِرَ يَوْزَرُ فهو مَوْزورٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تهديد ووعيد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيُعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع الحق. وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد ـ على ما حكى بعض المتأولين ـ: من أمري في قول بعضكم: هو ساحر، وبعضكم: هو شاعر، وبعضكم: افتراه، وبعضكم: اكتتبه، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يحسُن في هذا الموضع وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك.



و﴿ خَلَٰٓئِفَ ﴾ جمع خليفة، أي: يخلف بعضكم بعضاً[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يتصور في جميع الأمم وسائر أصناف الناس، لأن مَن أتى خليفةٌ لمن مضىٰ، ولكنه يحسُن في أُمة محمد ﷺ أن يُسَمَّىٰ أهلها بجملتهم خلائف للأُمم، وليس لهم من يخلفهم لأنهم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة.

وروى الحسن بن أبي الحسن أن النبي ﷺ قال: توفون سبعين أُمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) ويروى: (أنتم آخرها وأكرمها على الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ لفظ عام في المال والجاه والقوة وجودة النفس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالىٰ الخلق فيرى المحسن من المسيء.

ولما أَخبر عزَّ وجلَّ بهذا ففسح للناس ميدان العمل، وحضَّهم على الاستباق إلى الخير توعَّد وَوَعَدَ تخويفاً منه وترجيةً فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وسرعة عقابه إما بأَخذاتِه في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة، وحسُن أن يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿ سَرِيعُ ﴾ لما كان متحققاً مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به[٢]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ ترجيةٌ لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله تبارك وتعالىٰ كثير، اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله سبحانه وتعالىٰ بعباده.

كمل تفسير سورة الأنعام والله المستعان

وهو حسبي ونعم الوكيل

* * *

(١) قال الشَّمَّاخ:

تُصِيبُهُم وتُخطِئُني المنَايَا وَأَخْلُفُ في رُبُوعٍ عن رُبُوعِ

(٢) وعلى هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ من الآية (٧٧) من سورة (النحل). وقوله تعالىٰ: ﴿ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ الآيتان: (٦ـ ٧) من سورة (المعارج).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورَة الأَعْراف

وهي مكية كلها، قاله الضحاك وغيره. وقال مقاتل: هي مكية إلا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإن هذه الآيات مدنية[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

تقدم القول في تفسير الحروف المقطعة التي في أوائل السور وذكْر اختلاف المتأَولين فيها، ويختص هذا الموضع زائداً على تلك الأقوال بما قاله السدي: إن ﴿الٓمٓصٓ﴾ هجاء اسم الله تبارك وتعالىٰ هو المصور، ويقول زيد بن علي: إن معناه: أنا اللهُ الفاصل.

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. قال الفراءُ وغيره: ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على الخبر للحروف، كأَنه قال: هذه الحروف كتاب أُنزل إِليك، وردَّ الزَّجَّاج على هذا القول بما لا طائل فيه. وقال غيره ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذا كتاب، و﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾.

ثم نُهي النبي ﷺ أَن يُبرم أَو يستصحب من هذا الكتاب أَو بسبب من أَسبابه حرجاً، ولفظ النهي هو للحرج ومعناه للنبي عليه الصلاة والسلام. وأَصل الحرج الضيق، ومنه الْحَرَجَة: الشجر الملتف الذي قد تضايق[2]. والحرج ها هنا يعم الشك والخوف والهمَّ

---

(١) روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأَعراف فرّقها في ركعتين. صححه أَبو محمد عبد الحق.

(٢) مثل الحَرَج الْحَرَاج، ولما تُصُوِّر من اجتماع الشجر الضيق قيل للضيق حَرَج وللإثم حرج، قال تعالىٰ: =

وكل ما يضيق الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسَّر الحَرَج ها هنا، وتفسيره بالشَّكّ قلِق، والضمير في ﴿مِّنۡهُ﴾ عائد على الكتاب، أي: بسبب من أسبابه، و﴿مِّنۡ﴾ ها هنا لابتداءِ الغاية، وقيل: يعود على التبليغ الذي يتضمَّنه معنى الآية، وقيل: على الإنذار[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ اعترض في أثناءِ الكلام[2]، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تقديماً وتأخيراً. وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أُنزِلَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معناه: تذكرة وإرشاد، و﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ في موضع رفع عطفاً على قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فالتقدير: هذه الحروف كتاب وذكرىٰ. وقيل: رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب، فالتقدير: هذه الحروف كتاب مَنَّزل إليك وذكرىٰ، فهي عطف على (مُنزَّل) داخلة في صفة الكتاب. وقيل: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «لِتنذِر بِهِ وتذكر ذكرى للمؤمنين». وقيل نصبها على المصدر. وقيل: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ في موضع خفض عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أي: لإنذارك وذكرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية. قال الطبري وحكاه: التقدير: قل اتبعوا، فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم الذكر عليه. وقالت فرقة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أمر يعُمّ النبي ﷺ وأُمَّته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أَن يكون أَمراً لجميع الناس، أَي: اتبعوا ملَّة الإسلام والقرآن.

= ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾. (عن «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني).

(١) في بعض النسخ: على الابتداءِ. ولا معنى لها هنا، وجاز أن يعود على الإنذار المفهوم من ﴿لِتُنذِرَ﴾ مع تأخرها لأن الإنذار نفسه مرتبط بالكتاب وهو سابق على الضمير.

(٢) وسرُّ الاعتراض ـ كما قالوا ـ أن يكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال للإنذار.



وقرأ الجحدري [ابتغوا ما أنزل] من الابتغاءِ، وقرأ مجاهد: و[وَلاَ تَبْتَغُوا] من الابتغاءِ أَيضاً، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ يريد كل ما عُبد واتُّبع من دون الله كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ راجع إلى ﴿رَّبِّكُمۡ﴾، هذا أظهر وجوهه وأبينُها، وقيل: يعود على ﴿مَآ﴾ من قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ﴾، وقيل: يعود على الكتاب المتقدم الذكر، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر نصب بفعل مضمر، وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده. قال الفارسي: و﴿مَّا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر: [تذَّكَرون] بتشديد الذال والكاف، وقرأ حمزة والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وتشديد الكاف، وقرأ ابن عامر: [يَتَذَكَّرون] بالياءِ كناية عن غيب، وروي عنه أنه قرأ: [تَتَذكَّرُون] بتاءَين على مخاطبة حاضرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

﴿وَكَم﴾ في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، ويصح أن يكون الخبر في قوله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَهَا﴾، و﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ صفة[1]، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره: وكم أَهلكنا من قرية أَهلكناها. وقدر الفعل بعدها ـ وهي خبرية ـ تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل حال صدر الكلام. وقالت فرقة: المراد: وكم من أَهل قرية، وحذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقام المضاف، وقالت فرقة: إِنما عبّر بالقرية لأنها أَعظم في العقوبة إِذ أَهلك البشر وقريتهم، وقد بيّن في آخر الآية بقوله سبحانه: ﴿أَوۡ هُمۡ﴾ أن البشر داخلون في الهلاك، فالآية ـ على هذا التأويل ـ

(١) قيل: إن الفاءَ تمنع من ذلك. ذكره في إعراب القرآن للعكبري، وقال الفراءُ: الفاء بمعنىٰ الواو، وقيل: المعنىٰ: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءَها بأسنا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا أردت قراءَة القرآن، وقيل: التقدير: وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءَها بأسنا فأهلكنا الجميع، وقيل غير ذلك، والله أعلم بالصواب.



تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعاً. وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل.

والمراد بالآية التكثير، وقرأ ابن أبي عبلة: [وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم بأسنا]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَجَآءَهَا ﴾ يقتضي ظاهره أن المجيءَ بعد الإهلاكِ وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يُعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاءُ قد تجيءُ بمنزلة الواو ولا تعطي رتبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف:

وقيل: عبَّر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكي في المشكل: مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يَحتج به من قال: الفاءُ في هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءَها بأسنا بعد ذلك. وقال الفراءُ ـ وحكاه الطبري ـ: إنَّ الإهلاك هو مجيء البأس ومجيءُ البأس هو الإهلاك، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة(٢). وقيل: إن الفاءَ لترتيب القول فقط، فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها ثم قال: فكان من أمرها مجيءُ البأس.

و﴿ بَيَٰتًا ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، و﴿ قَآئِلُونَ ﴾ من القائلة، وإنما خصَّ وقْتَيْ الدَّعَة والسكون لأن مجيءَ العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيهما من البغت والفجأَة، و﴿ أَوْ ﴾ في هذا الموضع كما تقول: الناس في فلان صنفان حامدٌ أو ذام، فكأنه قال: جاءَهم بأسنا فرقتين بائتين أو قائلين، وهذا هو الذي يسمى اللف، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة. والبأس: العذاب. وقيل: المراد: أَوْ وَهُم قائلون، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو، وهذا تكلف لأن معنى اللف باق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ الآية. تبيَّن في هذه الآية غاية البيان أن المراد في

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (النّحل) ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.
(٢) وذلك كما تقول: «شتمني فأساءَ، وأساءَ فشتمني» لأن الإساءَة والشتم شيءٌ واحد.



الآية قبلها أهل القرى. والدعوى في كلام العرب لمعنيين: أحدهما: الدعاءُ، قال الخليل: تقول: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾(١) ومنه قول الشاعر:

وإنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي ... بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بها فَيَهُونُ(٢)

والثاني الادّعاءُ، قال الطبري: هي في هذا الموضع بمعنى الدعاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتوجه أيضاً أن يكون بمعنى الادعاءِ، لأن من ناله مكروه أو حَزَبه حادث فمن شأنه أنْ يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاءِ المذكورين في هذه الآية، ومن شأنه أيضاً أن يدّعي معاذير وأشياءَ تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه، فيتجه أن يكون هؤلاءِ بحال من يدعي معاذير ونحوها، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوىٰ ثم استثنى من غير الأول كأنه قال: لم يكن دعاءً أو ادعاءً إلا الإقرار والاعتراف، أي: هذا كان بدل الدعاءِ والادعاءِ.

وتحتمل الآية أن يكون المعنىٰ: فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف، ونحو من الآية قول الشاعر:

وَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا ... قُتَيْبَةَ إلاَّ عَضُّهَا بِالأَبَاهِمِ(٣)

واعترافهم وقولهم إنا كنا ظالمين هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها، وروى ابن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من

(١) من قوله تعالىٰ في الآية: (١٥) من سورة (الأنبياء): ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

(٢) مَذِلَتْ رجلُه بكسر الذال: خَدِرَتْ، والمصدر مذَلٌ ومذْلٌ، والبيت في (اللسان) غير منسوب. والرواية فيه (بذكْراكِ) بدلاً من (بدعْواكِ)، وفيه أيضاً (فتَهونُ) بالتاءِ بدلاً من (فَيَهُونُ) بالياءِ، والبيت أيضاً في الطبري» بنفس رواية ابن عطية وهو غير منسوب.

(٣) البيت للفرزدق، وقد ذكر في (اللسان) بلفظ: «فقد شهدت»، والأباهم هي الأباهيم، جمع إبهام، والإبْهام من الأصابع: العظمىٰ مؤنثة، وحكى اللحياني أنها تذكر وتؤنّث، وقال: الأباهم بحذف الياءِ لأن القصيدة ليست مردفة، والفرزدق يذم قيساً التي لم تفعل شيئاً في نصرة قتيبة إلا عضها على أباهيمها من الذل والقهر.



أنفسهم»[١] ، وفسَّر عبد الملك بن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية. و﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ خبر ﴿ كَانَ ﴾ واسمها ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ ، وقيل بالعكس.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وعيد من الله عزَّ وجلَّ لجميع العالم ، أَخبر أنه يسأَل الأُمم أَجمع عما بلغ إِليهم عنه وعن جميع أعمالهم ، ويسأَل النبيين عما بَلَّغُوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد نُفِي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي. وقد أُثبت في آياتٍ كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير ، فإِن الله قد أَحاط علماً بكل ذلك قبل السؤال ، فأَما الأَنبياء والمؤمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة ، وأَما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً ، فمن أَنكر منهم قص عليه بعلم ، وقرأَ ابن مسعود: [فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذينَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قبلكَ رُسُلنا وَلَنَسْأَلَنَّ المرْسلين].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ ﴾ أي: فَلَنَسْرُدَنَّ ﴿ عَلَيْهِم ﴾ أَعمالهم قصة قصة ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ أَي: بحقيقة ويقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَن يكون الكلام هنا استعارة إِذ كل شيءٍ فيه مقيد.

﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ أَي: ما كنا مَنْ لا يعلم جميع تصرفاتهم كالغائب عن الشيءِ الذي لا يعرف له حالاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) الحديث في «الجامع الصغير» بلفظ: «لَنْ يهلك الناس حتى يعذروا من أَنفسهم» ـ رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقد رمز له بأنه (حَسَن). وكذلك ذكره ابن الأثير في «النهاية» ثم فسَّر يُعذِروا فقال: «يقال: أَعذَرَ فلان من نفسه إِذا أَمكن منها ، يعني أنهم لا يَهْلِكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبُهم فيستوجبون العقوبة ، ويكون لمن يُعذبهم عذرٌ».



﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾: مصدر وزَنَ يزِنُ، ورفعه بالابتداءِ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبره، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ظرف منتصب بـ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾، ويصح أَن يكون ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ خبر الابتداءِ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ نعت لـ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾، والتقدير: الوزنُ الحقُّ ثابتٌ أَو ظاهر يومئذ. و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ إشارة إِلى يوم القيامة والفصل بين الخلائق.

واختلف الناس في معنى الوزن والموازين ـ فقالت فرقة: إِن الله عزَّ وجلَّ أَراد أَن يعلّم عباده أَن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، فمثّل لهم في ذلك بالوزن والميزان إِذ لا يعرف البشر أَمراً أَكثر تحريراً منه، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان كما استعار ذلك أَبو طالب في قوله:

بِمِيزان قِسْطٍ لا يَخسُّ شعيرة ... لهُ حاكِمٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عائِلِ[١]

ورُوي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما، وكذلك استعير ـ على قولهم ـ الثقل والخفة[٢] لكثرة الحسنات وقلتها.

وقال جمهور الأُمة: إِن الله عزَّ وجلَّ أَراد أَن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأَمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أَفهامهم، فميزان القيامة له عمود وكفّتان على هيئة موازين الدنيا، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام»[٣]، وقالوا: هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يَرُدَّه نظر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول أَصح من الأَول من ثلاث جهات ـ أَولها: أَن ظواهر كتاب الله عزَّ وجلَّ تقتضيه، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينطق به، من ذلك قوله لبعض الصحابة ـ وقد قال له: يا رسول الله، أَين أَجدك في يوم القيامة؟ ـ فقال: (اطلبني عند الحوض، فإِن لم تجدني فعند الميزان)[٤]. ولو لم يكن الميزان مرئياً محسوساً لَمَا

---

(١) لا يَخِسُّ: لا يقلُّ ولا ينقص، والشعيرة: العلامَةُ، ويقال على الميزان: نقص أو زاد، يصفه بالعدالة الكاملة فهو لا يميل عن الحدّ الصحيح علامة واحدة. والشاهد هو أن لفظة ميزان يراد بها العدالة.

(٢) يريد الثقل والخفة في قوله تعالىٰ في بقية الآية: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، واللالكائي. (الدر المنثور). والحديث واهٍ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وحسَّنه، والبيهقي في البعث ـ عن أنس ـ وفيه أن الذي سأَل الرسول ﷺ هو أنس. (الدر المنثور).



أَحاله رسول الله ﷺ على الطلب عنده. وجِهَة أُخرى أَن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيءٌ منه ولا تختل صحته، وإِذا كان الأَمر كذلك فلمَ نخرج من حقيقة الأَمر إِلى مجازه دون علَّة؟ وجِهَةٌ ثالثة وهي أَن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يُعرف إِلاَّ سمعاً، وإِن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أَقوال الملحدة والزنادقة في أَن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إِنما هي أَلفاظ يراد بها غير الظاهر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فينبغي أَن يجري في هذه الأَلفاظ إِلى حملها على حقائقها.

وأَما الثقل والخفة فإِن الآثار تظاهرت بأَن صحائف الحسنات والسيِّئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلاً وخفة على نحو إِحداثه ذلك في جسم رسول الله ﷺ في وقت نزول الوحي عليه، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أَنه قال: «كنت أَكتب حتى نزلت ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1] وفخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى كادت أَن ترض فخذي»[2]، وفي الحديث «أَنه كان إِذا أُوحي إِليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله للثقل الحادث فيه». ولابد لنا أَن نعلم أَن الثقل الحادث مع الحسنات إِنما يتعلق بجسم، إِذ العَرَض لا يقوم بِعَرَض[3]، فجائز أَن يحدث الثقل في الصحائف وهو أَقربها إِلى الظن، وجائز أَن يحدث في ذلك من الأَجسام المجاورة لتلك الحال، وإِلى حدوثه في الصحائف ذهب أَبو المعالي، ورُويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئة طوله وأَحواله لم تصح بالإِسناد، فلم نر للإِطالة بها وجهاً[4]. وقال الحسن فيما روي عنه: بلغني أَن لكل أَحد يوم القيامة ميزاناً على حدة.

---

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٩٥) من سورة (النساء): ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة، وكتاب الجهاد، ورواه الترمذي والنسائي، ولفظه كما في البخاري: «أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن تَرُضَّ فخذي».

(٣) العَرَض في اللغة ما يطرأ ويزول، وفي علم المنطق ـ وهو المراد هنا ـ ما قام بغيره، «ضد الجوهر كالبياض والسواد، والطول والقِصر».

(٤) هذا يؤكد ما ذكرناه كثيراً من رغبة ابن عطية عن الأخبار التي لا يصح سندها عنده مخالفاً بذلك ما ساد التفاسير الأُخرىٰ.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود والناس على خلافه، وإنما لكل أحد وَزْن يختص به والميزان واحد، ورُوي عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أن الموازين الحسناتُ نفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موزونات كثيرة فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان.

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في اللغة: المدركون لبغيتهم، الناجحون في طلبهم، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْـ ... ـفِ وَقَدْ يُخَدَّعُ الأَرِيبُ[1]

فأما قول الشاعر:

. . . . والْمُمْسِي وَالصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[2]

فقد قيل: إنه بمعنى البقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والبقاءُ: بلوغ بغية، فالمعنيان متقاربان، ووزن الله أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياءِ وجلائها نظيرُ كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك، ونظيرُ استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولا بُدَّ[3]. فإن قال قائل: كيف تثقل موازين العصاة

---

(١) رواه صاحب (اللسان): «فقد يُبْلَغ بالنَّوْك». ونقل عن التهذيب معناه: «عش بما شئت من عقل وحُمْق، فقد يُرزق الأحمق ويحرم العاقل»، هذا وقد سبق أن ذكر ابن عطية هذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية (٢١) من سورة الأنعام صفحة ٣٣٣ من هذا المجلد.

(٢) هذا عجز بيت قاله الأَضْبَطُ بنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِيُّ، والبيت بتمامه كما ذكره ابن منظور في (اللسان):

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَهْ ... والمُمْسِي والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

قال: وأصل الفلاح: البقاءُ، والمعنى: ليس مع كرِّ الليل والنهار بقاءٌ.

(٣) روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، واللالكائي، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أُمتي=

من المؤمنين بالتوحيد ويصحُّ لهم حكم الفلاح ثم تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاءٌ لا محالة؟ ـ فقالت طائفة: إنه توزن أَعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار، ثم عند إِخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة، وأَيضاً فمعرفة العاصي أَنه غير مخلَّد فلاح وإِن تقدَّمه شقاءٌ على جهة التأديب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الآية. المعنى: من خَفَّت كفة حسناته فشالت. و﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ أَي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة. وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ أَي جزاءً بذلك، كما تقول: أَكرمتك بما أَكرمتني، و[ما] في هذا الموضع مصدرية، والآيات هنا: البراهين والأَوامر والنواهي، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ أَي يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

الخطاب لجميع الناس، والمراد أَن النوع بجملته مُمَكن في الأَرض، والمعايش: جمع معيشة وهي لفظة تعُمُّ المأْكول الذي يعاش به والتحرّف الذي يؤدي إِليه. وقرأَ الجمهور: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بكسر الياء دون همز، وقرأَ الأَعرج وغيره: [معائِش] بالهمز كمدائن وسفائن، ورواه خارجة عن نافع[1]، وروي عن ورش [مَعَايْش] بسكون

= على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجلٍ منها مدّ البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أَظَلَمَك كتبي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أَلك عذرٌ أَوْ حسنةٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى لك عندنا حسنة، إِنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أَشهد أن لا إِله إلا الله، وأَشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظْلَم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. ولا يثقل مع اسم الله شيء». (الدر المنثور ٣ـ ٧٠).

(١) قال في (اللسان): «وأَكثر القراء على ترك الهمز في معايِش إلا ما روي عن نافع فإنه همزها، وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأٌ، وذكر أن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة مثل صحيفة وصحائف، فأَما معايشُ فمن العيْش فالياء أصلية».

وقال أَبو حيان في (البحر المحيط) بعد أن نقل الرواية عن الأعرج وغيره: «وليس بالقياس لكنهم رَوَوْهُ وهم ثقات فوجب قبوله» ثم نقل كلام الزجاج والمازني وغيرهما في إِثبات خطأ هذه القراءَة وعقب على=

الياءِ ، فمن قرأ ﴿ مَعَٰيِشَۗ ﴾ بتصحيح الياءِ فهو الأَصوب لأَنها جمع معْيشة[١] وزنها مَفْعِلة. ويحتمل أَن تكون مفعُلة بضم العين ، قالهما سيبويه ، وقال الفراءُ: مفعَلة بفتح العيْن ، فالياءُ في معيشة أَصلية ، وأُعلَّت لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياءِ أَي في المتحرك والساكن ، وصُححت معايش في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ ، ولأَن التكسير معنى لا يكون في الفعل وإِنما تختص به الأَسماءُ ، ومن قرأَ [معايْش] فعَلَى التخفيف من ﴿ مَعَٰيِشَۗ ﴾ ، ومن قرأَ [معائش] فأَعلها فذلك غلط ، وأَما توجيهه فعَلَى تشبيه الأَصل بالزائد لأَن (معيشة) تشبه في اللَّفظ (صحيفة) ، فكما يقال: صحائف قيل: معائش ، وإِنما همزت ياءُ (صحائف) ونظائرها مما الياءُ فيه زائدة لأَنها لا أَصل لها في الحركة ، وإِنما وزنها فعيلة ساكنة ، فلما اضطر إِلى تحريكها في الجمع بُدّلت بأَجلد منها.

و﴿ قَلِيلٗا ﴾ نصب بـ ﴿ تَشۡكُرُونَ ﴾ ، ويحتمل أَن تكون ﴿ مَّا ﴾ زائدة ، ويحتمل أَن تكون مع الفعل بتأْويل المصدر ، و﴿ قَلِيلٗا ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً شكرُكم ، أَو: شكراً قليلاً تشكرون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ الآية. هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجب من غريب الصنعة وإِسداءِ النعمة ، فبدأَ بالخلق الذي هو الإِيجاد بعد العدم ، ثم بالتصوير في هذه البينة المخصوصة للبشر ، وإِلا فلم يُعرَّ المخلوق قط من صورة.

واضطراب الناس في ترتيب هذه الآية لأَن ظاهرها يقتضي أَن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أَن يسجدوا ، وقد صححت الشريعة أَن الأَمر لم يكن كذلك ـ فقالت فرقة: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ آدم بنفسه وإن كان

= ذلك بقوله: «ولسنا متعبِّدين بأَقوال نحاة البصرة». (البحر المحيط ٤ـ ٢٧١).

(١) أصل مَعيشَة: مَعْيِشَة بكسر الياءِ أو بعضها كما قال سيبويه ، وقال الفراء: بفتحها ، واللغويون يصوبون كلام سيبويه ويقولون: إن كلام الفراء خطأ ، ويقولون في تعليل ذلك: إن كان أصلها مَعْيِشة بكسر الياء فقد نقلت الكسرة إلى الساكن قبلها وهو العين ، وإن كان أصلها مَعْيُشة بضم الياء فقد استثقلت الضمة على الياء فقلبت كسرة ثم نقلت إلى الساكن قبلها ، لكن إذا كانت في الأصل بالفتح مَعْيَشة فليس هناك ثقل في الفتحة فلا سبيل إلى قلبها كسرة. (انظر حاشية الجمل).



الخطاب لِبَنِيه ، وذلك لما كان سببَ وجود بنيه فما فعل فيه صحَّ مع تجوز أَن يقال: إِنه فعل في بنيه ، وقال مجاهد: المعنىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أَمثال الذرِّ في صورة البشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويترتب في هذين القولين أَن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة.

وقال عكرمة والأعمش: المراد: خلقناكم في ظهور الآباءِ وصورناكم في بطون الأُمهات. وقال ابن عباس والربيع بن أَنس: أَمَّا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ فآدم ، وأَمَّا ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فذريته في بطون الأُمهات ، وقاله قتادة والضحاك. وقال معمر بن راشد عن بعض أَهل العلم: بل ذلك كله في بطون الأُمهات من خلق وتصوير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقالت هذه الفرقة: إِن ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإِخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في نفسها. وقال الأَخفش: ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية بمعنىٰ الواو ، وردّ عليه نحويُّو البصرة(١).

وملائكة: ووزنه إِمَّا مَفَاعِلة وإِما مَعَافِلة بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة. وهناك ذكرنا هيئة السجود والمراد به ، ومعنى إِبليس ، وكيف كان قبل المعصية ، وأَما قوله تعالىٰ: في هذه الآية: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فقال الزجاج: هو استثناءٌ ليس من الأَول ، ولكن إِبليس أُمر بالسجود بدليل قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وقال غير الزجاج: الاستثناء من الأَول ، لأَنا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال: إِن إِبليس لم يكن من الملائكة لوجب أَن إِبليس لم يؤمر بالسجود ، إِلا أَن يقول قائل هذه المقالة: إِن أَمر إِبليس كان بوجه آخر غير قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ وذلك بيّن الضعف.

---

(١) وهناك أقوال أخرىٰ ذكرها المفسرون ، وقد عقب عليها القرطبي بقوله: «كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم ، وقال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، ثم قال: ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أي جعلنا نسله وذُرِّيته ﴿نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ، فآدم خلق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذرّيَّتُه صوِّروا في أرحام الأُمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء».



وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [لِلْمَلاَئِكَةُ اسْجُدُوا] بضم الهاءِ، وهي قراءَة ضعيفة، وَوَجْهُها أَنه حذف همزة [اسْجُدُوا] وأَلقى حركتها على الهاءِ، وذلك لا يَتَّجه لأَنها همزة محذوفة مع الهاءِ بحركة، أَيْ شيءٌ يلغى، والإِلغاءِ يكون في الوصل[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ مَا ﴾ استفهام والمقصود به التوبيخ والتقريع، و(لا) في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا ﴾ قيل: هي زائدة، والمعنىٰ: ما منعك أَن تسجد، وهي كـ (لا) في قول الشاعر:

أَبَى جودُهُ لا الْبُخْلَ فاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الجودَ نائِلُه[٢]

وهذا على أَحد الأَقوال في هذا البيت، فقد قيل: (لا) فيه زائدة، وقال الزجاج: مفعوله، والبخل بدل منها، وحكى الطبري عن يونس عن أَبي عمرو بن العلاءِ أَن الرواية فيه: (لا البُخْلِ) بخفض اللام، لأَن (لا) قد تتضمن جوداً إِذا قالها في أَمر يمنع الحقوق والبخل عن الواجبات.

ومن الأَبيات التي جاءَت (لا) فيها زائدة قول الشاعر:

---

(١) جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم ـ في البقرة، وفي الأَعراف، وفي الإِسراء، وفي الكهف، وفي طه ـ والسبب في قراءَة أَبي جعفر استثقال الانتقال إِلى الضمة وإِجراءً للكسرة اللازمة مجرى العارضة، قاله ابن الجزري في كتابه «النشر في القراءات العشر»، وقال: وذلك لغة أزد شنوءة.

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد قيل: (لا) زائدة كما زيدت في قوله تعالىٰ: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأَن المعنىٰ: وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، وَأَما هذا البيت: (أَبى جوده...الخ) ففيه آراء كثيرة منها أيضاً أن (لا) زائدة كما قال ابن عطية، وفي اللسان والصحاح (الجوع) وفي المحكم (الجوس) وهو الجوع، وفي مغني اللبيب (الجود)، ولكن ذكر لفظ (قاتله) بدلاً من (نائلُه) على أن (قاتِله) مفعول أول للفعْل (يمنع) والجودَ مفعول ثان. قال الفارسي في الحجة: «قال أبو الحسن: فسَّرته العرب أَبَى جودُه البخْلَ، وجعلوا (لا) حشواً».



أَفَمِنْكَ لا بَرْقٌ كأنَّ وَمِيضَهُ غابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرامٌ مثقب[(١)]

وقيل في الآية: ليست (لا) زائدة، وإنما المعنىٰ: ما منعك فأحوجك إلى ألاَّ تسجد؟ وقيل: لما كان ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ بمعنىٰ: مَنْ أَمَرَك؟ ومن قال لك؟ حَسُنَ أن يقول بعدها: ألاَّ تسجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا أن يقدر في الكلام فعل يحسُن حمل النفي عليه كأنه قال: ما أحوجك أو حملك أو اضطرك؟ وجواب إبليس اللعين ليس عما سئل عنه، ولكنه جاءَ بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أسجد أنا خير منه وأكبر سناً وأقوىٰ خلقاً، يقول: إن النار أقوىٰ من الطين، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وليس كذلك، بل هما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلاً عن سكون الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفخ في آدم ليس من طين. قال الطبري: ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبّت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي كلام الطبري نظر، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالقياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال الطبري: يعني القياس الخطأ، ولا دليل من لفظهما عليه، ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهياً عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجادّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ الآية. أمر من الله عزَّ وجلَّ لإبليس بالهبوط في وقت

---

(١) هذا البيت لساعدة الهذلي. قال الأصمعي: يريد: أمنك برق؟ والوميض: اللمعان، قال الليث: وقد يكون الوميض للنار، وتسنّمه: علاه، والضرّام: ماشتعل من الحطب، ويقال: ثَقَبَت النارُ: اتّقدت.



عصيانه في السجود، فيظهر من هذا أنه أُهبط أولاً وأُخرج من الجنة وصار في السماءِ لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوىٰ آدم وحوّاءَ من خارج الجنة، ثم أُمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذاكله بحسب ألفاظ القصة والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ معناه: فما يصح لك ولا يتم، وليس يقتضي هذا أن التكبر له في غيرها على ما ذهب إليه بعض المعترضين، فقد تضمنت الآية أن الله أخبر إبليس أن الكبرياءَ لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياءِ في كل موضع، وأما لو أخذنا ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ على معنى: فما يحسُن وما يجْمُل كما تقول للرجل: ما كان لك ألاّ تصل قرابتك لفتَر معنى الإغلاظ على إبليس.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصَى بها وهي الكبرياءُ، فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأمله، والصَّغار: الذُّل، قاله السُّدي.

ثم سأل إبليس ربّه أن يؤخره إلى يوم البعث، طمع ألاّ يموت إذ علم أن الموت ينقطع بعد البعث. ومعنىٰ ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ أخِّرني. فأعطاه الله النَّظرَةَ إلى يوم الوقت المعلوم، فقال أكثر الناس: الوقت المعلوم: هو النفخة الأُولىٰ في الصور التي يصعق لها من في السموات ومن في الأرض من المخلوقين. وقالت فرقة: بل أحاله على وقت معلوم عنده عزَّ وجلَّ يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعيّن له ذلك، وإنما تركه في عماءِ الجهل به ليغمه ذلك ما عاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال بعض أهل هذه المقالة: إن إبليس قتلته الملائكة يوم بدر، ورَوَوْا في ذلك أثراً ضعيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأول من هذه الأقوال أصحُ وأشهر في الشرع.

ومعنىٰ ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: من الطائفة التي تأخرت أعمارها كثيراً حتى جاءَت آجالها على اختلاف أوقاتها، فقد عمَّ تلك الطائفة إنظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر.



وقوله: ﴿فَبِمَآ﴾ يحتمل أَن يريد به القسم كما تقول: فبالله لأفعلنَّ[(١)] ، ويحتمل أَن يريد به معنىٰ المجازاة كما تقول: فبإكرامك يا زيد لأَكرمنك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَليق المعاني بالقصة.

ويحتمل أَن يريد: فمع إغوائك لي ومع ما أننا عليه من سوءِ الحالِ لأَتجلدنَّ ولأَقعدنَّ ، ولا يعرض لمعنىٰ المجازاة ويحتمل أَن يريد بقوله ﴿فَبِمَآ﴾ الاستفهام عن السبب في إغوائه ، ثم قطع ذلك وابتدأ الإخبار عن قعوده لهم ، وبهذا فسَّر الطبري أَثناءَ لفظه. و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الجمهور: معناه: أَضللتني ، من الغيّ ، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كعب القرظي ـ فيما حكى الطبري ـ: قاتل الله القدرية ، لإِبْليسُ أَعلم بالله منهم ، يريد في أَنه علم أَن الله يهدي ويضل. وقال الحسن: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ لعنتني ، وقيل: معناه: خيَّبتني[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تفسير بأَشياءَ لزمت إغواءَه.

وقالت فرقة: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ معناه: أَهلكتني ، حكى ذلك الطبري ، وقال: هو من قولك ، غَوِي الفصيل يَغْوَى غَوىً إذا انقطع عنه اللبن فمات. وأَنشد:

مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فصيلُها بِرازِئِها دَرًّا ولا ميِّتِ غَوَى[(٣)]

(١) دليل هذا قوله في سورة (ص): ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لأن فيها تسليطاً على العباد فأقسم به إعظاماً لِقَدْره عنده.

(٢) ومنه قول المرقش:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمِدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغيِّ لائما

أي: ومن يَخِب.

وغَوِي من باب فرح ـ ويأتي من باب ضرب.

(٣) هذا البيت في (اللسان ـ غوى) قال: وغَوِيَ الفصيل والسخلة يَغْوى غَوىً فهو غو: بَشِم من اللبن وفسد جوفه ، وقيل: هو أن يمتنع من الرضاع فلا يروى حتى يهزل ويضرُّ به الجوع ويموت هزالاً ، أو يكاد يهلك. وقال: يصف في هذا البيت قوساً بقوله: (معطفة) يعني القوسَ وسهماً رمي به عنها ، وهذا من اللغز ، وقال ابن قتيبة في كتابه (المعاني الكبير ص ١٠٤٧) أنشد ابن الأعرابي لعامر المجنون: معطفة الأذناب. . . يريد القوس ، وفصيلها السهم.



قال: وقد حكي عن بعض طيء: أَصبح فلانٌ غاوياً، أَي مريضاً.

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ يريد: على صراطك، وفي صراطك، وحذف كما يفعل في الظروف، ونحوه قول الشاعر:

لَــدْنٌ بِهَــزِّ الكَــفِّ يَعْسِــلُ مَتْنُــهُ فيـهِ كما عَسَـلَ الطَّـرِيـقَ الثَّعْلَـبُ[1]

وقال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد به الحق. وقال عون بن عبد الله: يريد طريق مكة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تخصيص ضعيف، وإنما المعنى: لأَتعرضنَّ لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلأَصدَّنَّهم عنه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطرقه، نهاه عن الإسلام وقال: تترك دين آبائك؟ فعصاه فأَسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تَدَع أَهلك وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجهاد وقال: تُقتل وتترك ولدك؟ فعصاه فجاهد فله الجنة»[2]. الحديث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

هذا توكيد من إِبليس في أَنه يجِدُّ في إِغواءِ بني آدم، وهذا لم يكن حتى علم إِبليس

(١) البيت لساعِدَة بن جُؤيَة الهُذَلي، وهو من شواهد النحويين (الخزانة للبغدادي ١ـ ٤٧٤) والشاهد فيه قوله: «عَسَل الطريق» إذ يريد: في الطريق، والشاعر يصف في البيت رمحاً فيقول: إنه لَيّن الهزّ ويُشبه في حال هزّه أو اضطرابه في نفسه عَسَلان الثعلب في سيره. وعَسَلان الثعلب (بالتحريك) سيرٌ سريع فيه اضطراب واهتزاز، واللَّدن في اللغة: الناعم اللَّيِّن. (عن شرح الشواهد) ـ والشاعر: مخضرم أسلم وليست له صحبة.

(٢) الحديث في ابن كثير، وذكره الألوسي أَيضاً بكامله وقد أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن سَبرة بن أبي فاكه، وفي آخر الحديث كما رواه الإمام أحمد: فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله عزَّ وجلَّ أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة». (مسند الإمام أحمد ٣ـ٤٨٣). ط دار صادر، بيروت.



أَن اللهٰ يجعل في الأَرض خليفة وعلم أَنه آدم ، وإِلاَّ فلا طريق له إِلى عِلْم أَنسال آدم من أَلفاظ هذه الآيات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومقصد هذه الآية أَن إِبليس أَخبر عن نفسه أَنه يأْتي لإِضلال ابن آدم من كل جهة ، وعلى كل طريق ، يفسد عليه ما أَمكنه من معتقده ، وينسيه صالح أَعمال الآخرة ، ويغريه بقبيح أَعمال الدنيا ، فعبر عن ذلك بأَلفاظ تقتضي الإِحاطة بهم ، وفي اللفظ تَجَوُّز ، وهذا قول جماعة من المفسرين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه : أَراد بقوله : ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخرة ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا ، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحق ، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ الباطل ، وقال ابن عباس أَيضاً فيما روي عنه : ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ هي الدنيا ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ هي الآخرة ، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحسنات ، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ السيئات . وقال مجاهد : ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ معناه : حيث يبصرون ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ حيث لا يبصرون .

وقوله : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ أَخبر أَن سعايته تفعل ذلك ظَنّاً منه وتوهُّماً في خلقة آدم حين رأَى خلقته من أَشياءَ مختلفة ، فعلم أَنه ستكون لهم شِيَمٌ تقتضي طاعته كالغلِّ والحسد والشهوات ونحو ذلك ، قال ابن عباس ، وقتادة : إِلاَّ أَن إِبليس لم يقل إِنه يأْتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إِلى أَن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومنِّه . وما ظنَّه إِبليس صدقه الله عزَّ وجلَّ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١) فجعل أَكثر العالم كفرة ، وَيُبَيِّنُهُ قول النبي ﷺ في الحديث : «يقول الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة : يا آدم ، أَخرج بعث النار ، فيقول : يا ربّ وما بعث النار؟ فيقول : من كل أَلف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وواحد إِلى الجنة» ، ونحوه مما يخص أُمة محمد عليه الصلاة والسلام ، «ما أَنتم في الأُمم إِلاَّ كالشعرة البيضاءِ في الثور الأَسود»(٢) .

---

(١) سبأ : ٢٠ .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والإمام البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي كتاب الإيمان ، ويفهم من كلام ابن عطية أنهما حديثان ، ولكنهما حديث واحد ، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة : =



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: (كالشعرة) يحتم أن يريد شعرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يردُّه. ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أُنبتت في خلال سواده شعرة بيضاءُ، ويحتمل أن يريد اللمعة من الشعر الأبيض وهذا فيه بعد. وقوله ﴿شَٰكِرِينَ﴾ معناه: مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد على الجنة، و﴿مَذْءُومًا﴾ معناه: معيباً، يقال: ذأمه إذا عابه، ومنه الذأم وهو العيب، وفي المثل: «لن تعدم الحسناءُ ذاما»[١] أي عيباً، وسهلت فيه الهمزة، ومنه قول قيْل حمير: أردت أن تذيمه فمدهته، يريد: فمدحته، وحكى الطبريُّ أنه يروى هذا البيت:

صَحبْتُكَ إذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فلَمَّا انجلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسي أَذيمها[٢]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والرواية المشهورة أَلومها. ومن الشاهد في اللفظ قول الكميت:

= يا آدم، فيقول: لَبَّيْك ربنا وسعْدَيْك، فَيُنَادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذُرِّيتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف أُراه قال: تسعمائة وتسعةً وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد وتَرى النَّاس سُكارىٰ وما هُمْ بِسُكارى ولكنَّ عذاب الله شديد»، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعةً وتسعين ومنكم واحدٌ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنَّة»، فكبَّرنا، ثم قال: «ثُلُث أهل الجنَّة» فكبَّرنا، ثم قال: «شَطْر أهل الجنَّة فكبَّرنا».

(١) المثل كما جاء في «مجمع الأمثال للميداني» هو: (لا تعدَمُ الحسناءُ ذاما) ـ قال الذَّام والذَّيْم: العيب. ومثله: العاب والعيْبُ في الوزن، وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حُبَّى بنت مالك بن عمرو العدوانية، وكانت من أجمل النساء، فسمع بجمالها ملك غسّان فخطبها إلى أبيها وحكّمه في مهرها وسأله تعجيلها، فلما عزم الأمر قالت أُمها لتُبَّاعها: إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هَنَة، فإذا أردْتُنَّ إدخالها على زوجها فطيِّبْنَها بما في أصدافها، فلما كان الوقت أعجلهن زوجها فأَغْفَلْنَ تَطْييبَها، فلما أصبح قيل له: كيف وجدت أهلك طروقتك البارحة؟ فقال: ما رأيتُ كالليلة قط لولا رُوَيْحة أنكرتها، فقالت وهي من خلف الستر: لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً» فأرسلتها مثلاً.

(٢) البيت في (اللسان ـ غشا) ـ قال: أنشد ابن بري للحارث بن خالد المخزومي، وذكر: «ألومُها» بدلا من «أذيمُهَا». وهذا ما عقَّب به ابن عطية على رواية الطبري للبيت.



وهُـمُ الأَقْـرَبُـونَ مِـنْ كُـلِّ خَيْـرٍ وهُـمُ الأبْعَـدُونَ مِـنْ كُـلِّ ذام

ومن الشاهد في ﴿مَّدْحُورًا﴾ قول الشاعر:

وَدَحَرْتُ بني الحصيب إلى قُدَيْد وقَـدْ كـانـوا ذَوي أَشَـرٍ وفخـر(١)

وقرأ الزهري، وأبو جعفر، والأعمش في هذه الآية: [مَذوماً] على التسهيل. و﴿مَّدْحُورًا﴾ معناه: مقصياً مُبعداً ـ وقرأت فرقة: [لَمَنْ تَبعَكَ] بفتح اللام وهي على هذه لامُ القسم المخرجةُ الكلامُ من الشك إلى القسم، وقرأ عاصم الجدري، والأعمش: [لِمَن تَبِعَكَ] بكسر اللام، والمعنىٰ: لأجل من تبعك لأملأن جهنم منكم أجمعين، فأدخله في الوعيد معهم بحكم هذه الكاف في [مِنْكُمْ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

إذا أُمر الإنسان بشيءٍ هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيئته. وقوله تعالىٰ لآدم ﴿ٱسْكُنْ﴾ هو من هذا الباب. وأكَّد الضمير الذي في قوله: ﴿ٱسْكُنْ﴾ بقوله: ﴿أَنتَ﴾ وحينئذٍ جاز العطف عليه وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب، والعطف على الضمير الملفوظ به لا يجوز إلا بعد تأكيده كقولك: قمتَ أنت وزيد، لأن الضمير بمنزلة حرف من الفعل، وهذا الضمير الذي في ﴿ٱسْكُنْ﴾ أضعف من الملفوظ به فأحرى ألاَّ يصح العطف عليه إلا بعد التأكيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلَا﴾ هو من (أَكَلَ)، فأصله أُؤْكُلا فحذفت فاءُ الفعل لاجتماع المثلين، واستغني عن الأخرى لما تحرَّك ما بعدها، وحسُن أيضاً حذف فاءُ الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة، وهذا باب كل فِعْل أوله همزة ووزنه فَعَل كأَخذ وأمر ونحوه، وكان القياس ألا تحذف فاءُ الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا(٢).

ويقال: قرب يقرب. و﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها، ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته، وعبَّر باسم الواحدة كما تقول: أصاب الناس الدينار والدرهم، وأنت تريد النوع.

---

(١) دحره: أبعده وطرده، وقُدَيْد: مكان، والأَشرَ: البطر والكبرياءُ.

(٢) قال في (اللسان): «وقد أُخرج على الأصل فقيل: أُوكُلْ، وكذلك القول في خُذْ ومُرْ».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى الاحتمالين فآدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه، قاله جمهور المتأَولين، وبذلك أَغواه إِبليس لعنه الله بقوله: إنك لم تُنْه إلاَّ لئلا تخلد أَو تكون ملكاً، فيبطل بهذا قول من قال: إِن آدم إِنما أَخطأ متأَولاً بأَن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأَكل من النوع فلم يعذر بالخطأ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك أَن القائل إِنما يفرض آدم معتقداً أَن النهي إِنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد: إِنك لم تُنْه إِلاَّ لئلا تخلد، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه؟ ولا فرق بين أَكله ما يعتقد أَنه لم يُنْه عنه وبين أَكله سائر المباحات له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والهاءُ الأَخيرة في ﴿هَٰذِهِ﴾ بدل من الياءِ في (هذي) أُبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاءً حملاً على الوقف، وليس في الكلام هاءُ تأْنيث قبلها كسرة إِلاَّ هذهِ. وقرأَ ابن محيصن: [هَٰذِي الشَّجَرَةَ] على الأَصل. وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَا﴾ نصب في جواب النهي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعلق الناس بهذه الآية في مسأَلة الحظر والإِباحة، وذلك أَن مسأَلة الحظر والإِباحة تكلَّم الناس فيها على ضربين: فأَما الفقهاءُ فدعاهم إِلى الكلام فيها أَنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عزَّ وجلَّ ولا في سنة ولا في إِجماع، ويعتم وجه استقرائها من أَحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أَي جهة يحملها من الإِجازة والمنع، فقال بعضهم: إِذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر، ونأْخذ فيه بالشدة، ونستبرىء لأَنفسنا، إِذ الله عزَّ وجلَّ قد بيّن لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه، وأَحل ما أَراد تحليله، ولم يترك ذكر هذه النازلة إِلا عن قصد فاجترامنا نحن عليه لا تقتضيه الشريعة. وقال بعضهم: بل نحملها على الإِباحة لأَن الله عزَّ وجلَّ قد أَكمل لنا ديننا وحرَّم علينا ما شاءَ تحريمه، ولم يهمل النص على نازلة إِلاَّ وقد تركها في جملة المباح، وبعيد أَن يريد في شيءِ التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في



عمى الجهالة به، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر. وقال بعضهم: بل نحمل ذلك على الوقف أبداً ولا نحكم فيه بحظر ولا إباحة، بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً، وذلك لأنا نجد الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في مواضع، ويقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ في مواضع، فدلَّ ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر، إمَّا مخصوصاً بها، وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها، ولو كانت الأشياءُ على الحظر لما قال في شيءٍ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيءٍ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أبين الأقوال، ولم يتعرض الفقهاءُ في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقبيحه، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة، وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها.

وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم: إن العقل يحسّن ويقبّح ـ نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا: نفرض زمناً لا شرع فيه، أو رجلاً نشأ في برّيةٍ ولم يُحِسَّ قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي، أو نقدر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأرض قد تُرك وعقله قبل أن يُؤمر ويُنهى. كيف كانت الأشياءُ عليه؟ أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين؟ فقال بعضهم: الذي يحْسُن في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يرد الإذن باستباحتها، وذلك أن استباحتها تَعَدٍّ على ملك الغير، وإذا قبُح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناء التنفس والحركة من هذا الحظ وقالوا: إن هذه لا يمكن غيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله.

ويمكن أن يقدر الاضطرار إليها إباحة لها. وقال بعضهم: بل يحسُنُ في العقل أن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستظلال بالجدران ونحوه مباح، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالىٰ ووجوده أجوز، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ويتعلق بحقه شيءٌ من ذلك.



وقال أَهل الحق والسُّنة في هذا النحْو من النظر: بل الأَمر في نفسه على الوقف ، ولا يوجب العقل تحسيناً ولا تقبيحاً بمجرده يدان بِهِ ، ولا يتَّجه حكم الحَسنِ والقبيح إِلا بالشرع. وقال بعضهم: والعقل لم يخْلُ قط من شرْعٍ ، فلا معنى للخوض في هذه المسأَلة ولا لفَرْض مالا يقع ، وذهبوا إِلىٰ الاحتجاج بأَن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأَوامر والنواهي في الجنة بقوله تعالىٰ له حين جرى الرُّوح في جسده فعطس: قل الحمد لله يا آدم ، وبقوله: اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا. وقال القاضي الباقلاني في «التقريب والإِرشاد»: إِن الفقهاءَ الذين قالوا بالحظر والإِباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم ، ولكنهم رأَوا كلاماً مُلَفَّقاً مُمَوَّهاً فاستحسنوه دون أَن يشعروا بمايؤول إِليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقبيحه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام حمل على فقهاءِ الشرع واستقصار لهم ، والصواب أَلاَّ يُظَنَّ بهم هذا الخلل ، وإِنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإِباحة من الشرع ، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أَنَّهم يدفعون الحق في أن العقل لا يُحَسِّن ولا يُقَبِّح دون الشرع.

وقد تقدم في البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

الوسوسة: الحديث في خفاءِ همساً وسراراً من الصوت ، والوَسْواس: صوت الحَلْي[1] فشبه الهمس به ، وسمي إِلقاءُ الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إِذ هي أَبلغ السرار وأَخفاه ، هذا في حال الشيطان معنا الآن ، وأَما مع آدم فممكن أَن تكون وسوسة بمجاورة خفية ، أَو بإِلقاءِ في نفس ، ومن ذلك قول رؤْبة:

وسْوَسَ يدعو جاهداً ربَّ الفلق[2]

---

(١) قال الأَعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواساً إِذا انْصَرَفَتْ كما اسْتَعَانَ بِريحٍ عِشْرِقٍ زَجِلُ

(٢) هذا البيت من أُرجوزة رؤبة المطوَّلة في وصف المفازة. والبيت في وصف صيَّادٍ ، والرواية في (اللسان=

فهذه عبارة عن كلام خفي، والشيطان يراد به إبليس نفسه. واختلف نَقَلَة القصص في صورة وسوسته[١]، فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحيَّة مستَخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة. وروي أن آدم وحواءَ كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما. وروي أن الله تعالىٰ أقدره على الإلقاءِ في نَفْسَيْهما فأغواهما وهو في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف يرده لفظ القرآن.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة[٢]، وهذا بحسب آدم وحواءَ، وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويمكن أن تكون لام كي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتها وإلقائها في العقوبة غير المخصوصة[٣]، و﴿مَاوُرِيَ﴾ معناه: ما سُتر، من قولك: وارَى يوارِي إذا ستر، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد، ويمكن أن تقدر من اثنين لأن الشيءَ الذي يواري هو أيضاً من جهة. وقرأ ابن وثَّاب: [ما وُرِيَ] بواو واحدة. وقال قوم: إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء.

= ـ والتاج ـ والطبري) «يدعو مخلصاً» بدلاً من «جاهداً»، وفي بعضِ النسخ «جاهراً» بالراءِ، والمعنىٰ: لَما أحس بالصيد وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاءِ حذر الخيبة.

(١) هذه العبارة توحي بأن ابن عطية لا يقبل هذه القصص كما حكيت، وتحمل معنى الشك في صحتها، وهو مذهب التزمه في تفسيره نحو الإسرائيليات، فإما أن يتجاهلها، وإما أن يشير إلى بعضها مع إظهار رفضه لها.

(٢) وهي في هذا كاللام في قوله تعالىٰ في الآية (٨) من سورة (القصص): ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

(٣) يمكن أن تفهم هذه العبارة على أن اللام هي لام (كي) وأن إبليس كان يقصد فعلاً كشف السوأة منهما وعلى هذا فكلمة (غير) تكون زائدة من النساخ، فالعقوبة إذن مخصوصة ـ ويمكن أن يكون قصد أن يقعا في الخطأ وأن تحل بهما أي عقوبة فتكون كلمة (غير) سليمة في موقعها لأنه قصد إيقاعهما في عقوبة، أي عقوبة.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول يوهنه التصريف.

والسوأة: الفرج والدُّبر، ويشبه أَن يسمى بذلك لأَن منظره يسوءُ. وقرأَ مجاهد والحسن: [مِنْ سَوَّتِهِمَا] بالإِفراد وتسهيل الهمزة وشدّ الواو. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، والحسن، والزهري: [مِن سَوَّاتِهِمَا] بتسهيل الهمزة وتشديد الواو، وحكاها سيبويه لغة، قال أَبو الفتح: وَوَجْهها حذف الهمزة وإِلقاءُ حركتها على الواو فيقولون: سوَة، ومنهم من يُشدِّدُ الواو، وقالت طائفة: إِن هذه العبارة إِنما قصد بها أَنها كشفت لهما معانيهما وما يسوءُهما ولم يقصد بها العورة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول كان اللفظ يحتمله إِلا أَن ذكر خصف الورق يردُّه، إِلاَّ أَن يقدر الضمير في ﴿عَلَيْهِمَا﴾ عائد على بدنيهما إِذ تمزقت عنهما ثياب الجنة فيصح القول المذكور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾ الآية، هذا القول الذي حكي عن إِبليس يدخله من هذا التأْويل ما دخل الوسوسة، فممكن أَن يقول هذا مخاطبة وحواراً، وممكن أَن يقوله إِلقاءً في النفس ووحياً.

و﴿إِلَّآ أَن﴾ تقديره عند سيبويه والبصريين: إِلاَّ كراهية أَن. وتقديره عند الكوفيين: إِلاَّ أَن لا، على إِضمار (لا).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويُرَجِّحُ قولُ البصريين أَن إِضمار الأَسماءِ أَحسن من إِضمار الحروف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام، وقرأَ ابن عباس، ويحيى بن كثير، والضحاك: [مَلِكَيْن] بكسر اللام، ويؤيد هذه القراءَة قوله تبارك وتعالىٰ في آية أُخرىٰ: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال بعض الناس: يخرج من هذه الأَلفاظ أَن الملائكة أَفضل من البشر، وهي مسأَلة اختلف الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله،

---

(١) من الآية (١٢٠) من سورة طه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

وقال ابن فُورَك: لا حجَّة في هذه الآية لأنه يحتمل أن يريد مَلَكين في ألاَّ تكون لهما شهوة في طعام(١).

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي حلف لهما بالله، وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقَسَم وتقريره، وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد، ومثله قولُ الهُزَلِي:

وَقَـاسَمَهُمَـا بـالله جَهْـداً لأَنتُـم ... أَلَذُّ من السَّلْوى إذا ما تَشُورُهَا(٢)

وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره: ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف حانثاً، فقال بعض العلماءِ: خدع الشيطان آدم بالله عزَّ وجلَّ فانخدع، ونحن من خدعنا بالله عزَّ وجلَّ وانخدعنا له، ورُوي نحوه عن قتادة.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لَكُمَا ﴾ متعلقة بـ ﴿ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾، فقال بعض الناس، مكي وغيره: ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنىٰ (الذي)، لأنها إذا كانت بمعنىٰ (الذي) كان قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ لَكُمَا ﴾ داخلا في الصلة فلا يجوز تقديمه، وأظن أن أبا علي الفارسي خرَّج جواز تقديمه وهي بمعنىٰ (الذي)، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى (الذي) كانت اللام في قوله ﴿ لَكُمَا ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: إني ناصحٌ لكما من الناصحين. وقال أبو العالية في بعض القراءَة: «وقاسَمَهُما باللهِ».

قوله عزَّ وجل:

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

---

(١) قال النحاس: فضَّل الله الملائكة بهذه الآية، وبقوله سبحانه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ وبقوله: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾. وقال الحسن: فضلهم بالصور والأجنحة والكرامة، وقيل: فضلهم بالطاعة وترك المعصية ـ واختار ابن عباس، والزجاج، وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين. وأنكر أبو عمرو بن العلاء قراءَة كسر اللام وقال: لم يكن قبل آدم مَلِك فيصيرا مَلِكَيْن.

(٢) البيت لخالد بن زهير كما قال صاحب (اللسان ـ سلا). والسَّلْوىٰ: العسل، وشارَ العَسَل: اجتناه وأخذه من خَلِيَّته. قال الزجَّاج: أخطأ خالد، إنما السلوى طائر، وقال الفارسي يرد على الزَّجاج: السلوى: كل ما سلاك، وقيل للعسل: سلوى لأنه يسَلِّيك بحلاوته، وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤنة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة.



﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يريد: فغرهما بقوله وخدعهما بمكره.

قال القاضي: أبو محمد رحمه الله:

ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلِّي آخر من هُوَّة بحبل قد أَرَمَّ[١]، أو بسبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلَّىٰ به وتُورك عليه انقطع به فهلك، فيُشَبَّه الذي يُغَرُّ بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يُدَلَّى في هُوَّة بسبب ضعيف.

وعلق حكم العقوبة بالذَّوق[٢] إذ هو أَول الأَكل وبه يرتكب النَّهي، وفي آية أُخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿بَدَتْ﴾، قيل: تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تَبَرِّياً منهما، وقال وهب بن مُنبّه: كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور، قال ابن عباس وقتادة: كان عليهما ظفرٌ كاسٍ[٤] فلما عصيا تقلَّص عنهما فبدت سوآتهما وبقي منها على الأَصابع قدر ما يتذكَّران به المعصية فيجددان الندم.

﴿وَطَفِقَا﴾ معناه: أَخذا وجعلا، وهو فعل لا يختص بوقت كبَاتَ وظَلَّ، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانها ويضمان بعضها إلى بعض، والمِخْصَفُ: الإِشْفَى[٥]، والخصف: ضم الورق بعضه إلى بعض أَشْبه بالْخَرْزِ منه بالخياطة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من خصَفَ، وقرأَ عبد الله بن بريدة: [يَخِصِّفَان][٦] بِشد الصاد،

---

(١) هكذا في الأَصول (أَرَمّ) ـ والذي في المعاجم: رمَّ الحَبْلُ: تقَطَّع، والرِّمَّةُ والرُّمَّة: قطعة من الحبل بالية، وبه سمّى غَيْلان العدوي الشاعر لقوله في وصف رأس الوَتِدِ: (فيه بقايا رُمة التَّقْليد)، ولم نجد في المعاجم (أَرَمّ) بمعنىٰ (رَمَّ) فانظر لعلَّ الهمزة زائدة من النساخ، ولعلَّها تكون عربية في مراجع لم نعثر عليها.

(٢) الذَّوْق: مصدر ذاقَ الشيءَ يذوقُه ذوقاً وذَوَاقاً ومَذَاقاً ـ أمّا قولُنا: تَذَوَّقْتُه فمعناه: ذقْتُه شيئاً بعد شيءٍ، وقال ابن الأَعرابي: الذَّوْقُ يكون بالفم وبغير الفم وعليه قوله تعالىٰ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، ومنه الحديث الشريف: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك». (اللسان والتاج).

(٣) من الآية (١٢١) من سورة (طه).

(٤) قيل: كان يُغطي جسم كلٍّ منهما غطاءً كاملاً ظفر كالذي ترى بقيته الآن على أطراف الأَصابع.

(٥) الإِشْفَىٰ: مِخرزُ الإسكافِ، وجمعه: أشافٍ، ويُسَمَّىٰ أَيضاً: المِثْقَب.

(٦) الأَصل: يَخْتَصفان، فأُلْقيت حركة التاءِ (الفتحة) على الخاءِ.

وقرأ الزُّهري: [يُخْصِفَان] من أخصف، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب: [يَخَصِّفَان] بفتح الياء والخاءِ وكسر الصاد وشدها[١]، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب، وأصلها «يَخْتَصِفان»، كما تقول: سمعت الحديث واستمعته. فأُدغمت التاءُ في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاءِ، وكذلك الأصل في القراءَة بكسر الخاءِ بعد هذه، لكن لما سكنت التاءُ وأُدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاءُ على عرف التقاء الساكنين، وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد [يَخِصِّفَان] بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وكسر الصاد وشدها، وقد تقدم تعليلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الورق الذي خصفت منه ورق التين، (وروى أُبي عن النبي ﷺ أَن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأَنه نخلة سموق، فلما واقع المعصية وبدت له حالُه فرَّ على وجهه فأخذت شجرة بشعر رأسه يقال إنها الزيتونة، فقال لها: أَرسليني، فقالت: ما أَنا بمرسلتك، فناداه رَبه: أَمِني تفر يا آدم؟ قال: لا يا رب ولكني استحييْتُك، قال: أَما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عمَّا حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما ظننت أَن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزتي لأَهبطنك إلى الأَرض ثم لا تنال العيش إلاَّ كدّاً)[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ الآية، قال الجمهور: إن هذا النداءَ نداءُ وحي بواسطة، ويؤيد ذلك أَنا نتلقى من الشرع أَن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام، وأَيضاً ففي حديث الشفاعة أَنَّ بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة: أَنت خصك الله بكلامه واصطفاك برسالته، اذهب فاشفع للناس)[٣]، وهذا ظاهره أَنه مخصص، وقالت فرقة: بل هو نداءُ تكليم.

---

(١) هذه قراءَة الحسن فيما رواه عنه محبوب، والقراءَة المشهورة عنه بكسر الخاءِ وهي موافقة لقراءَة الأعرج ومجاهد.

(٢) رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً، وأَخرجه سعيد بن أَبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أُبي بن كعب، وأخرج مثله عبد الرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما. (ابن كثير).

(٣) حديث الشفاعة ثابت في الصحاح، وقد رواه البخاري كاملاً في تفسير سورة الإسراءِ، وفي كتاب التوحيد، وفي مواضع أخرى كثيرة، ولفظه عن موسىٰ: (فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك...) الخ، كذلك رواه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد، والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة[١] أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «نبي مكلَّم»[٢]، وأيضاً فإن موسىٰ خصص بين البشر الساكنين في الأرض، وأما آدم إذا كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض، فليس في تكليمه ما يُفسدُ تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أنه نداءُ وحي اشتراك حواءَ فيه، ولم يُرْوَ قط أن الله عزَّ وجلَّ كلم حواءَ، ويتأول قوله عليه الصلاة والسلام: «نبي مُكَلَّم» أنه بمعنى موصل إليه كلام الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ سؤال تقرير يتضمن التوبيخ، وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكُمَا﴾ يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه، وقرأ أُبي بن كعب: [أَلَمْ تُنْهَيَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة وقيلَ لَكُمَا]؟ وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ اعتراف من آدم وحواءَ عليهما السلام، وطلب للتوبة والستر والتَّغمُّد بالرحمة، فطَلَبَ آدمُ هذا وطَلَبَ إبليس النظرة، ولم يطلب التوبة فوُكِلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تَلَقَّى آدم من ربّه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) اسمه أحمد بن زهير بن حرب بن شداد النسائي البغدادي، مؤرخ، من حفاظ الحديث، كان ثقة راوية للأدب، بصيراً بأيام الناس، له مذهب، ونُسب إلى القول بالقدر، أَصْلُه من نَسَا، ومولده ووفاته ببغداد، من تصانيفه «التاريخ الكبير» (الأعلام).

(٢) الحديث مروي في مسند الإمام أحمد في ثلاثة مواضع كما جاء في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي».

(٣) من الآية (١١٧) من سورة (طه).



المخاطبة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ قال أبو صالح، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم وحواءَ وإبليس والحيَّة. وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت، فإن قيل: خاطبهم وأمرهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأن الأمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على المأمور بعد وجوده وصحَّ معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك، وأما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم، ولا يتعلق بهم من الأمر به شيءٌ، وأما قوله تعالىٰ: في آية أخرى: ﴿ٱهْبِطَا﴾(١) فهي مخاطبة لآدم وإبليس بدليل بيانه العداوة بينهما.

و﴿عَدُوٌّ﴾ فرد بمعنى الجمع، تقول: قومٌ عدوٌّ وقومٌ صديقٌ، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْري لَئِنْ كنتُمْ عَلَى النَّأْيِ والْغنى ... بكُمْ مِثْلُ ما بي إنَّكُمْ لَصَدِيقُ(٢)

وعداوة الحيات معروفة، وروىٰ قتادة عن النبي ﷺ: «ما سَالَمْنَاهُنَّ منذ حاربناهن»(٣)، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «من تركهن فليس منا»، وقالت عائشة رضي الله عنها: «من ترك حيَّة خشية من ثأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٤).

---

(١) في الآية (١٢٣) من سورة (طه). ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾.

(٢) البيت في (اللسان ـ صدق)، وفيه «على النأي والنَّوَى» بدلاً من «على النأي والغنى»، ولم ينسبه، بل قال: «وقد يكون الصديق جمعاً، وفي التنزيل: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ألا تراه عطفه على الجمع؟»، ثم قال: «وقال آخر في جمع المذكر: «العمري.. البيت». وقد أجاب ابن عطية عن سؤال هو: كيف قال: (عَدُوّ) ولم يقل أعداء، وجوابه أنه يفرد في موضع الجمع كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ بمعنىٰ أعداء. ويمكن أن يجاب بأن بعضاً وكلاً يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ على اللفظ، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ على المعنىٰ. والجوابان في تفسير القرطبي.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ـ عن أبي هريرة ج ٢ ص ٢٤٧ ـ وفي آخره (يعني الحيات).

(٤) الحديث لا أصل له.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق[١]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنَّ جنّاً بالمدينة قد أسلموا، فمن رأى من هذه الحيات شيئاً في بيته فَلْيُحَرِّج عليه ثلاثاً، فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر»[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ لفظ عام لِزَمن الحياة ولِزَمَن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسَّر أَبو العالية وقال: هي كقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[٣] وبالإقامة في القبور فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ يَعُمّهما، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[٤]، وأَما المتاع فهو بحسب شخص شخص في زمن الحياة، اللَّهم إلا أَن تقدر سكنى القبر متاعاً بوجه مّا، والمتاع: التَمَتُّعْ والنَّيْل من الفوائد، و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو بحسب الجملة: قيام الساعة، وبحسب مفرد مفرد: بلوغ الأَجل والموت. والحِينُ في كلام العرب: الوقتُ غير مُعَيَّن[٥].

ورُوِيَ أَن آدم عليه السلام أُهبط بالهند، وحواءَ بجُدَّة، وتمناها بمنىٰ، وعرف حقيقة أَمرها بعرفة، ولقيها بجَمْع[٦]، وأُهبط إِبليس بمَيْسان[٧]، وقيل: بالبصرة،

(١) رواه مسلم، ومالك في الموطأ ـ عن أبي السّائب مولى هشام بن زهرة وقد دخل على أبي سعيد الخدري فوجده يصلي، وبينما هو في انتظار فراغه إذا بحيَّة في ناحية البيت.. الخ وفيه قصة الفتىٰ التي يشير إليها ابن عطية.

(٢) روى مثله الإمام أحمد في مسنده ـ ج ٣ ص ٢٧. ولفظه: عن أبي سعيد الخدري قال: وجد رجل في منزله حية فأخذ رمحه فشكها فيه، فلم تمت الحيَّة حتى مات الرجل، فأُخبر به رسول الله ﷺ فقال: «إن معكم عوامر فإذا رأيتم منهم شيئاً فحرّجوا عليه ثلاثاً، فإن رأيتموه بعد ذلك فاقتلوه». ومعنى فحرِّجوا هو أن يقول للحية: أنت في حَرَج، أي في ضيق إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نُضيّق عليك التتبع والطرد والقتل ـ قاله ابن الأثير ـ في كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (البقرة).

(٤) الآيتان (٢٥ ـ ٢٦) من سورة (المرسلات).

(٥) يكون الحين بمعنىٰ المُدَّة كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، وبمعنى الساعة كقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، قيل: وبمعنىٰ السَّنَة كقوله تعالىٰ: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، وقيل في هذه الآية: إنه بمعنىٰ: كلما حان موعد الإثمار. قال الأزهري: الحين: اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت.

(٦) هو المزدلفة، أو موضع فيها. وأيام منى تسمىٰ: أيام جمْعْ، ويوم عرفة يسمىٰ يومَ جمَعْ.

(٧) مَيْسان بفتح الميم وسكون الياءِ: كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط، ومركزها مَيْسان أيضاً.



وقيل: بمصر ـ فباض فيها وفرخ. قال ابن عمر رضي الله عنهما: وبسط إبليس فيها عبقريه، وذكر صالح مولى التؤمة قال: في بعض الكتب: لما أُهبط إبليس قال: ربّ أين مسكني؟ قال: مسكنك الحمام، ومجلسك الأسواقُ، ولهوك المزامير، وطعامك ما لم يذكر عليه اسمي، وشرابك المسكر، ورسلك الشهوات، وحبائلك النساءُ، وأُهبطت الحيّة بأَصبهان، ورُوي أنها كانت ذات قوائم كالبعير فعوقبت بأن رُدَّت تنساب على بطنها.

ورُوي أَن آدم لما أُهبط إلى شقاءِ الدنيا علم صنعة الحديد، ثم علم الحرث فحرث وسقى وحصد وذرا وطحن وعجن وخبز وطبخ وأكل فلم يبلغ إلى ذلك حتى بلغ من الجهد ماشاءَ الله، ورُوي أَن حواءَ قيل لها: يا حواءُ، كما دميت الشجرة تدمين في كل شهر، وأَنت لا تحملين إلا كرهاً ولا تضعين إلا كرهاً، قال: فَرنَّت عند ذلك، فقيل لها: الرَّنَّة عليك وعلى ولدك[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه القصة من الأَنباء كثير، اختصرتها إذ لا يقتضيها اللفظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية. حكم من الله عزَّ وجلَّ أَمضاه وجعله حتماً في رقاب العبادِ، يحيَوْن في الأَرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أَحياءً، كَما أَنشأَ أَوَّل خلق يُعيده.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأَبو عمرو: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاءِ وفتح الراءِ هنا وفي الروم[2]، وكذلك حيث تكرر[3] إلا في الروم ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[4]، وفي

---

(١) رَنَّ: صوَّت وصاح، والرَّنَّة: الصوت الحزين عند الغناء أو البكاءِ.

(٢) في الآية (١٩) من سورة (الروم) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

(٣) تكرر في الآية (١١) من سورة (الزخرف): ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وفي الآية (٣٥) من سورة (الجاثية): ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وتكرر أيضاً في (الروم) مرة ثانية، وفي (المعارج)، ولكن القراءَة فيهما بفتح التاء والياءِ وضم الراءِ دون اختلاف كما ذكر ابن عطية.

(٤) في الآية رقم (٢٥).

سأل سائلٌ ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ﴾[1] فإن هذين بفتح التاءِ والياءِ وضم الراءِ ولم يختلف الناس فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي في الأعراف: [ومنها تخرجون] بفتح التاءِ وضم الراءِ، وفتح ابن عامر التاءَ في الأعراف وضمَّها في الباقي.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية. هذا خطاب لجميع الأُمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرىٰ في طوافه بالبيت، ذكر النقاش ثقيفاً وخُزاعة وبني عامر بن صَعصَعَة وبني مُدْلج وعامر والحارث ابنيْ عبد مناف فإنها كانت عادتهم رجالاً ونساءً، وذلك غاية العار والعصيان، قال مجاهد: ففيهم نزلت هذه الأربع الآيات.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ يحتمل أن يريد التدرج، أي: لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يُلْبس قال عن اللباس: أنزلنا، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً:

أَقْبَلَ فـي الْمُسْتَنِّ مـن سَحَـابِـه ... أَسْنِمَـةُ الآبَـالِ فـي رَبَـابِـه[2]

أَي: بالمال. ويحتمل أَن يريد: «خلقنا» فجاءَت العبارة بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ﴾[3] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾[4]، وأَيضاً فخلْق الله عزَّ وجلَّ وأَفعاله إنما هي من علوٍّ في القدر والمنزلة، و﴿لِبَاسٗا﴾ عام في جميع ما يُلْبس، و﴿يُوَٰرِي﴾ يستر، وفي حرف أُبي: [سوآتكم وزينة ولبس التقوىٰ]، وفي مصحف ابن مسعود: [ولباسُ التقوى خيرٌ، ذٰلِكُمْ]، ويروى عنه: [ذلك]، وسقطت [ذلك] الأولىٰ. وقرأ سكن النحوي: [ولَبُوسُ التقوىٰ] بالواو

---

(١) في الآية رقم (٤٣). (راجع في هذه القراءَات كتاب: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري. وكتاب: «الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه».

(٢) قال المبرد في «الكامل»: قال الراجز يصف غيماً:

أَقْبَلَ فـي المستَـنّ مـن رَبَـابِـهِ ... أَسْنِمـةُ الآبـال فـي سَحَـابِـهِ

والمستَنُّ: المضطرب، يقال: استَنَّ السراب: اضطرب كأنه يسيل. والرَّباب: السحاب الأَبيض واحدته: ربابة. والآبال: جمع الإبل ـ ومعنى البيت أن ذلك السحاب جاء مضطرباً في السماءِ كأَنه يسيل بالماءِ، وهذا السحاب ينزل بالمطر فينبت ما تأكله الإبل فتكثر الشحوم في أسنمتها. فالمطر سبب النبات والنبات سبب الشحم في الأسنمة فكأن الأسنمة متجمعة في هذا السحاب الذي نزل منه المطر.

(٣) من الآية (٢٥) من سورة (الحديد).

(٤) من الآية (٦) من سورة (الزُّمَر).



مرفوعة السين. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَرِيشًاۚ﴾ ، وقرأ الحسن ، وَزِرٌّ بنُ حُبَيْش[١] ، وعاصم فيما رَوىٰ عنه أَبو عمرو أَيضاً ، وابن عباس ، وأَبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، وأَبو رجاءٍ ، وزيد بن عليّ ، وعلي بن الحسين ، وقتادة: [وَرِيَاشاً] ، قال أَبو الفتح: وهي قراءَة النبي ﷺ ، قال أَبو حاتم: رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهة العيش ووجود الملبس والتمتع ، وفسَّره قومٌ بالأَثاث ، وفسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بالمال ، وكذلك قال السدي والضحاك ، وقال ابن زيد: الريش: الجَمال ، وقيل: الرياش: جمع ريش ، كبيرٍ وبيار وذيب وذياب ولِصْبٍ ولِصَابٍ[٢] وشِعْب وشعاب ، وقيل: الرياش: مصدر من أَراشه الله يَرِيشه إِذا أَنعم عليه ، والريش مصدر أَيضاً من ذلك ، وفي الحديث: «رجل راشه الله مالاً»[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويشبه أَن هذا كله من معنىٰ ريش الطائر وريش السهم ، إِذ هو لباسه وسُتْرَتُه وعونه على النفوذ ، وراشَ الله مأْخوذ من ذلك ، أَلا ترىٰ أَنها تُقرن بِبَرىٰ ، ومن ذلك قول الشاعر:

فرِشْني بخَيْرٍ طالَمَا قَدْ بريْتَنِي ... وخَيْرُ الْمَوَالي مَنْ يَريشُ ولا يَبْري[٤]

---

(١) زرُّ بن حُبَيْش بن حباشة بن أوس الأسدي ، من جلة التابعين ، أدرك الجاهلية والإسلام ولم ير النبي ﷺ ، كان عالماً بالقرآن فاضلاً ، وكان ابن مسعود يسأله عن العربية ، عاش مائة وعشرين سنة ومات بدير الجماجم. (الإصابة ـ وحلية الأولياء).

(٢) اللِّصْب بكسر اللام: كل مضيق في الجبل أو الوادي جمع لُصُوبٌ ولِصَاب.

(٣) قال في «النهاية»: ومنه الحديث: «إن رجلاً راشه الله مالاً» أي: أعطاه. ومنه حديث أبي بكر والنّسّابة:

الـرَّائِشُـونَ وليْـسَ يُعْـرَفُ رائِـشٌ ... والقـائِلُـونَ هَلـمّ لِـلأَضْيـافِ

(٤) نسب صاحب (اللسان) البيت لعُمَيْر بن حبّاب ، لكن معلقه نقل عن شارح القاموس أن البيت لسُوَيْد الأنصاري ، ثم قال صاحبُ (اللسان): «الرِّيشُ والرياش: الخِصب والمعاشُ والمالُ والأثاثُ واللباسُ الحسن الفاخر» ، ولكن الذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش هو ما ستر من ثياب أو معيشة ، وقد أنشد سيبويه:

فَـرِيشِـي مِنْكُـمْ وهَـوَايَ مَعَكُـمْ ... وإِنْ كـانَـتْ زيـارَتُنَـا لِمامَـاً

أمّا بَرَى فهو من قولهم: بَرَى السفر والجوع الإنسان والبعير: هَزَلَه. فالشاعر يطلب من ممدوحه أن يُنْعم عليه بالخصب والخير إذ طالما أصابه بالهزال والضعف.



وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي: [وَلِبَاسَ] بالنصب عطفاً على ما تقدم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرفع ـ فقيل: هو خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: وهو لباس، وقيل: هو مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ آخر و﴿خَيْرٌ﴾ خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ والجملة خبر الأول، وقيل: هو مبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبره و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدلٌ أَو عطف بيان أَو صفة، وهذا أَنبل الأَقوال، ذكره أَبو علي في الحجة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع ما أُنزل من اللباس والريش، وحكىٰ النقاش أَن الإشارة إلى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أَي هو في العبد آيةٌ أَي علامةٌ وأَمارة من الله أَنه قد رضي عنه ورحمه، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ تَرجٍّ بحسبهم ومبلغهم من المعرفة. وقال ابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان ـ وقال معبد الجهني[1]: هو الحياءُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العمل الصالح، وقال أَيضاً: هو السَّمْت الحسن في الوجه، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر، وقال عروة بن الزبير: هو خشية الله، وقال ابن زيد: هو ستر العورة والسمت الحسن في الدنيا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: العفة، وقال زيد بن علي: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ السلاح وآلة الجهاد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذه كلها مثل وهي من لباس التقوىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وتتصور الصفة التي حكاها أَبو علي في قوله ذلك لأَن الأَسماء توصف بمعنى الإشارة كما تقول: جاءَني زيد هذا، كأَنك قلت: جاءَني زيد المشار إليه، فعلى هذا الحدّ توصف الأَسماءُ بالمبهمات، وأَما قوله فيه: عطف بيان أَو بدل، فهما واحد في اللفظ، وإنما الفرق بينهما في المعنىٰ والمقصد، وذلك أَن تريد في البدل كأَنك أَزلت الأَول وأَعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل، وتريد في عطف البيان كأَنك أَبقيت الأَول ثم ثنيته بعينه في ذكر الثاني، وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في

(١) هو معبد بن خالد الجُهَنيّ أَبو زرعة، صحابي من القادة، أَسلم قديماً، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جُهَيْنَةَ يوم فتح مكة، وكان يلزم البادية، عاش بضعاً وثمانين سنة (الإصابة).



مسأَلة النداءِ إذا قلت: يا عبد الله زيد ، فالبدل في هذه المسأَلة هو على هذا الحد برفع (زيد) لأَنك تقدر إِزالة (عبد الله) وإِضافة (يا) إِلى (زيد) ، ولو عطفت عطف البيان لقلت: يا عبد الله زيد ، لأَنك أَردت بيانه ولم تقدر إِزالة الأَول ، وينشد هذا البيت :

إِنِّـي وأَسْطَـارٍ سُطِـرْنَ سطْـراً لَقَـائِـلٌ: يـا نصْـرُ نَصْـراً نَصْـراً[1]

ونصرٌ الأَول على عطف البيان والثاني على البدل.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

هذه المخاطبة لجميع العالم ، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً ، فقيل: كان ذلك من عادة قريش ، وقال قتادة والضحاك: كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن ، وقيل: كانت العرب تطوف عراة إلا الحُمْس وهم قريش ومن والاها[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح ، لأَن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه من ذلك ، فكان العربي إما أَن يعيره أَحد من الحُمْسِ ثوباً فيطوف به ، وإما

---

(١) الرجز لرُؤْبة في نصر بن سيّار أمير خراسان ، وكان للأمير حاجب يدعى نصراً ـ ويروى البيت برفع (نصر) الثانية ـ وفي إعراب كل من نصر الثانية والثالثة وجوه كثيرة يمكنك الرجوع إليها في حاشية الأمير (٢ ـ ٥١) والخزانة (١ ـ ٣٢٠) ، وسيبويه (١ ـ ٣٠٤) ، والسيوطي (٢٧٤). وقد ذكر النحاة فروقاً بين عطف البيان والبدل من أهمها أَنَّ العطف ليس في نيّة إحلاله محل الأول بخلاف البدل فهو في نيّة إحلاله محل الأول. ولكن هناك اتجاهاً واضحاً بمخالفة الرأي القائل لوجود هذه الفروق ، يقول شارح الكافية الأستاذ محمد بن حسن الرضي: «أنا إلى الآن لم يظهر لي فرقٌ جليٌّ بين بدل الكل من الكل وعطف البيان ، بل ما أرى عطف البيان إلا البدل كما هو ظاهر كلام سيبويه» (راجع الصبان في باب عطف البيان). وعلى كل فهذه مسألة نحوية لا تؤثر قليلاً ولا كثيراً في بلاغة الكتاب العزيز ، وغفر الله لشيوخنا الذين أكثروا من أمثالها في التفسير.

(٢) قال القرطبي: «الحُمْس: قريشٌ وما ولدت» ، قارن هذا بما قاله ابن عطية: «ومن والاها».



أَن يطوف في ثيابه ثم يلقيها ، وتمادىٰ الأَمر حتى صار عند العرب قُرْبة ، فكانت العرب تقول: نطوف عراة كما خرجنا من بطون أُمهاتنا ، ولا نطوف في ثياب قد تدنَّسنا فيها بالذنوب ، ومن طاف في ثيابه فكانت سُنَّتهم كما ذكرنا أَن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها ، وتسمى تلك الثياب اللَّقَى ، ومنه قول الشاعر:

كفَـىٰ حَـزَنـاً كَـرِّي عَلَيْـه كـأَنَّـه ... لَقًى بَيْن أَيْدي الطَّائِفينَ حَريمُ[1]

وكانت المرأَة تطوف عريانة حتى كانت إِحداهن تقول:

الْيَـــوْمَ يَبْـــدو بَعْضُـــه أَوْ كُلُّـــه ... فَمـــا بَـــدَا مِنْـــهُ فَـــلاَ أُحِلُّـــهُ[2]

فنهى الله عزَّ وجلَّ عن جميع ذلك ، ونودي بمكة في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان.

والفتنة في هذه الآية: الاستهواءُ والغَلَبة على النفس ، وظاهر قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ نهي الشيطان ، والمعنى نَهْيُهم أَنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأَمره كما لو قالوا: «لا أَرينَّكَ ها هنا» ، فظاهر اللفظ نهي المتكلم نفسه ، ومعناه نهي الآخر عن الإِقامة بحيث يراه. وأَضاف الإِخراج في هذه الآية إِلى إِبليس وذلك تجوّز بسبب أَنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له ، ويقال: أَب[3] ، وللأُم: أَبة. وعلى هذا قيل: أَبَوَان. و﴿يَنزِعُ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿أَخْرَجَ﴾.

وقد تقدم الخلاف في اللباس من قول من قال: الأَظفار ، ومن قال: النور ، ومن قال: ثياب الجنة ، وقال مجاهد: هي استعارة ، وإِنما أَراد لبسة التقى المنزلة.

---

(١) اللَّقَى: ما طُرِح وتُرِك لهوانه ، وجمعه: أَلقاء ، قاله الجوهري واستشهد عليه بقول الشاعر:

فَلَيْتَــكَ حَــالَ الْبَحْــرُ دونَــكَ كُلُّــهُ ... وكنْـتَ لقـىً تجـرْي عليـكَ السَّـوائِـلُ

ذكر ذلك صاحب اللسان. ولم نعثر على نسبة هذا البيت الذي ذكره ابن عطية فيما لدينا من المراجع.

(٢) قائلة هذا البيت هي ضُبَاعَةُ بنْتُ عامر بن قُرْط ، قال ذلك القاضي عياض ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة وتقول: من يُعيرني تِطْوَافاً تجعله على فرجها ، وتقول:

اليَـــومَ يبْـــدو بَعْضُـــهُ أوْ كُلُّـــهُ ... ومَـــا بَـــدَا منْـــهُ فَـــلا أُحِلـــهُ

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والتِّطْوَاف بكسر التاءِ كما قال في القرطبي».

(٣) أبٌ أصله: أبوٌ لأن جمعه آباءٌ مثل قَفاً وأقفاء. ويقال: هما أبواه لأبيه وأُمّه ، وجائز في الشعر هما أباه ، وكذلك: رأَيت أَبَيْه ـ واللغة العالية: رأيتُ أبويه. (عن المعاجم).



قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذا ضعيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ الآية. زيادة في التحذير وإِعلام أَن الله عزَّ وجلَّ قد مكَّن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يجب أَن يكون التحذر بطاعة الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

والشيطان موجود قد قررته الشريعة، وهو جسم، ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ يريد: نوعه وصنفه وذريته. و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبنيها على الفتح، وذلك لأَنها تدل على موضع بعينه، قال الزجاج: ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إِليه، قال أَبو علي: هذا غير مستقيم، وليست ﴿حَيْثُ﴾ بموصولة إِذ ليس ثَمَّ عائد كما في الموصولات، وهي مضافة إِلى ما بعدها.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَنه صير الشياطين أَولياءَ، أَي صحابة ومُداخلين إِلى الكفرة الذين لا إِيمان لهم، وذكر الزهراوي أَن «جَعَلَ» هنا بمعنىٰ وصف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهي نزعة اعتزالية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ﴾ وما بعده داخل في صفة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالاً للمُوَبَّخين إِذ أَشبه فعلهم فعل الممثل بهم. ويصح أَن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءَ إِخبار عن كفار العرب.

والفاحشة في هذه الآية ـ وإِن كان اللفظ عاماً ـ وهي كشف العورة عند الطواف، فقد رُوي عن الزهري أَنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات، وقاله ابن عباس ومجاهد، وكان قول بعض الكفار: إِن الله أَمر بهذه السُّنن التي لنا وشرعها فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، ثم وبخهم على كذبهم، ووقفهم على قولهم مالا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هو دعوى واختلاق.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

تضمن قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَقْسِطوا[1]، ولذلك عطف عليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ﴾ حملاً على المعنىٰ. والقسْط: العدل والحق، واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ـ فقيل: أراد إِلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، والمقصد ـ على هذا ـ شرع القبلة والأَمر بالتزامها. وقيل: أَراد الأَمر بإِحضار النيَّة لله في كل صلاة والقصد نحوه كما تقول: وجهت وجهي لله، قاله الربيع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة، بل هو المقصد والمنزع.

وقيل: المراد بهذا اللفظ إِباحة الصلاة في كل موضع من الأَرض، أَي: حيثما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إِقامة وجوهكم فيه لله عزَّ وجلَّ. قال قوم: سببُها أَن قوماً كانوا لا يصلون إِلا في مساجدهم في قبلتهم، فإِذا حضرت الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلوا فيها. وقوله تعالىٰ: ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾.

وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، وابن عباس، ومجاهد: المراد بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الإِعلام بالبعث، أَي: كما أَوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت، فالوقف على هذا التأْويل ـ على ﴿ تَعُودُونَ ﴾. و﴿ فَرِيقًا ﴾ نصب على ﴿ هَدَىٰ ﴾، والثاني منصوب بفعل تقديره: وعذب فريقاً أَو أَضل فريقاً حق عليهم.

---

(١) من الفوائد ما ذكره أبو حيان في «البحر» من أن المصدر قد ينحل لأن والفعل الماضي نحو: عجبت من قيام زيد وخرج، أي: من أن قام وخرج، وقد ينحل لأن والفعل المضارع نحو: «لَلُبْس عبَاءَة وتَقرَّ عيني» أي: لأن ألبسَ وتقرَّ عيني، كذلك ينحل لأن والفعل الأمر مثل هذه الآية: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ ﴾ أي: بأن أقسطوا وأقيموا، ومن الجائز أن توصل (أن) بفعل الأمر فيقال: كتبت إليه بأن قم. ولم يقبل الزمخشري هذا الكلام فقال إن الآية على تقدير قل، يعني وقل أقيموا.



وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً، وأَبو العالية، ومحمد بن كعب، ومجاهد أَيضاً، وسعيد بن جبير، والسدي، وجابر بن عبد الله، وروي معناه عن النبي ﷺ: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بأَن أَهل الشقاءِ والكفر في الدنيا الذين كتب عليهم هم أَهل الشقاءِ في الآخرة، وأَهل السعادة والإيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أَهلها في الآخرة. لا يتبدل من الأُمور التي أَحكمها ودبَّرها وأنفذها شيءٌ، فالوقف ـ في هذا التأْويل ـ على قوله: ﴿تَعُودُونَ﴾ غير حسن، و﴿فَرِيقًا﴾ ـ على هذا التأْويل ـ نصب على الحال، والثاني عطف على الأَول. وفي قراءَة أُبي بن كعب: [تعودون فَريقَيْن فَريقاً هَدىٰ وفَريقاً حقَّ عَلَيْهِم الضَّلالةُ].

والضمير في ﴿إِنَّهُمُ﴾ عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: أَنصاراً وأَصحاباً وإِخواناً، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ معناه: يظنون، يقال: حَسِبْتُ أَحْسَبَ حِسْبَاناً ومَحْسِبَةً[١].

قال الطبري: وهذه الآية دليل على خطأ قول من زعم أَن الله تعالىٰ لا يُعذِّب أَحداً على معصية ارتكبها أَو ضلالة اعتقدها إِلا أَن يأْتيها على علم منه بموضع الصواب.

وقرأَ العباس بن الفضل، وسهل بن شعيب، وعيسىٰ بن عمر: [أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا] بفتح الأَلف[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾.

هذا خطاب عام لجميع العالم، وأُمروا بهذه الأَشياءِ بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها.

---

(١) اللغويون يقولون: حَسَب المالَ ونحوه: عدَّه، والمصدرُ: حِسَاباً وحُسْباناً، وحسب الشيءَ كائناً يحسِبُهُ ويحسَبُه بمعنى: ظنَّه، والكسر في المضارع أجود اللغتين، والمصدر: حِسْبَاناً ومَحْسِبَةً (بالفتح والكسر). (عن: التهذيب ـ واللسان ـ والمعجم الوسيط).

(٢) أي بمعنى: لأنهم اتخذوا.



والزينة ها هنا الثياب الساترة، قاله مجاهد والسدي، وقال طاووس: الشملة[(١)] من الزينة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يَقْصد به مستعمله الخيلاءَ.

و﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند كل موضع سجود، فهي إِشارة إِلى الصلوات وستر العورة فيها، هذا هو مهم الأَمر، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك، وذكر مكي حديثاً أَن معنىٰ ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ صلوا في النعال، وما أَحسبه يصح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك[(٢)] في أَيام الموسم، قال السدي وابن زيد، وتدخل مع ذلك أَيضاً البَحيرةُ والسائبة ونحو ذلك، وقد نصَّ على ذلك قتادة وقال: إِن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ معناه: ولا تُفرطوا، قال أَهل التأْويل: يريد: ولا تُسرفوا بأَن تحرموا على أَنفسكم ما لم يحرِّم الله عزَّ وجلَّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الحلال سرف، إِنما السرف في ارتكاب المعاصي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: في الحلال القصد، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً، فمن تلَّبس بفعل حرام فتأَول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجَّه النهي عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإِن مشىٰ فيه على القصد وأَوساط الأُمور فحسن، وإِن أَفْرطَ حتَّى دخل الضرر حصل أَيضاً من المسرفين وتوجَّه النهي عليه، مثل ذلك أَن يُفرط إِنسان في شراءِ ثياب ونحوها ويستنفد في ذلك جُلَّ مالِهِ، أَو يُعطي ماله أَجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك

---

(١) الشملة: شُقة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع.

(٢) الوَدَك: الدَّسم، أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه، وشحم الألية والجنبين في الخروف والعجل.



ونحوه ، فالله عزَّ وجلَّ لا يحب شيئاً من هذا ، وقد نهت الشريعة عنه ، ولذلك وقف النبي ﷺ بالموصي عند الثلث ، وقال بعض العلماءِ: لو حط الناس إلى الربع لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «والثلث كثير»[(١)] ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: أَحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفاً أَو مَخيلة.

وأَمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أَن يسأَلهم عمَّن حرَّم ما أَحل الله على جهة التوبيخ والتقرير: وليس يقتضي هذا السؤال جواباً ، وإنما المراد منه التوقيف على سوءِ الفعل. وذكر بعض الناس أَن السؤال والجواب جاءَا في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جواباً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا نظر فاسد ، فليس ذلك بجواب السؤال ، ولا يقتضي هذا النوع من الأَسئلة جواباً ، و﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلوّ في الأَرض كالمال والبنين ، وهي الزينة التي فضل الشرع عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ قال الجمهور: يريد المحَلَّلات. وقال الشافعي وغيره: يريد: المسْتَلَذَّات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إلاَّ أَن ذلك ولا بد يشترط فيه أَن يكون من الحلال ، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول: هي من الخبائث محرمة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. قرأ نافع وحده [خَالِصَةٌ] بالرفع ، والباقون ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب ، والآية تتأول على معنيين.

أحدهما: أَن يخبر أَن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا ، وخلوصها أَنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير فإنه قال: قل

(١) عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ عاده في مرضه فسأله سعد عما يوصي به. . إلى أن قال: (والثلث كثير). والحديث رواه البخاري في الجنائز والوصايا وغيرهما ، ورواه مسلم في الوصية وغيرها ، والنسائي في الجنائز ، وابن ماجة في الوصايا.



هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها، وقوله: [خَالِصَةٌ] بالرفع خبر ﴿هِيَ﴾ و﴿لِلَّذِينَ﴾ تبيين للخلوص، ويصح أن يكون [خَالِصَةٌ] خبراً بعد خبر، و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يريد به وقت الحساب، وقرأ قتادة والكسائي: [قُلْ هِيَ لِمَنْ آمَنَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا].

والمعنىٰ الثاني: هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة، وهذا قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد. فقوله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ـ على هذا التأويل ـ متعلق بالمحذوف المقدر في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كأنه قال: هي خالصة أو مشتركة أو ثابتة في الحياة الدنيا للذين آمنوا، و[خَالِصَةٌ] بالرفع خبر بعد خبر، أو خبر ابتداءٍ مقدر تقديره: وهي خالصة يوم القيامة، و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يراد به استمرار الكون في الجنة. وأما من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ فعلى الحال من الذكر الذي في قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والتقدير: هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ﴾. وقال أبو علي في «الحجّة»: ويصح أن يتعلق قوله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقوله: ﴿حَرَّمَ﴾ ولا يصح أن يتعلق بـ ﴿زِينَةَ﴾ لأنها مصدرٌ قد وصف، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جداً كما جازَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[1]، فقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿كَسَبُوا۟﴾ داخلٌ في الصِّلة، والتعلُّق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾ هو قول الأخفش، ويصحُّ أن يتعلق بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الأخير هو أصح الأقوال على التأويل الأول فيما رتبناه هنا، وأما على التأويل

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (يونس).



الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقات التي ذكر أبو علي[(١)] ، وإنَّما يظهر أن يتعلق بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقدير الكلام ، أي: كما فصلنا هذه الأشياءَ المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات ، أي نُبيِّن الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به ، و﴿نُفَصِّلُ﴾ معناه: نُقسم ونُبين لأن بيان الأُمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

لما تقدم إنكار ما حرَّمه الكفار بآرائهم اتبعه ذكر ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ وتقديره:

و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش وشنع ، وأصلُه من القبح في المنظر ، ومنه قول امرىءِ القيس:

وجيدٍ كَجيدِ الريم ليْسَ بِفَاحِشٍ إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ[(٢)]

ثم استعمل فيما ساءَ من الخُلُق وألفاظ الحرج والرفث ، ومنه الحديث: «ليس

---

(١) يظهر من كلام ابن عطية هنا أنه لا يوافق تماماً على آراء أبي علي ، والحقيقة أن هذه الآراء لا يصح أن تذكر في مقام تفسير القرآن ، وقد اعترض عليها أبو حيان في «البحر» فقال: «وتقادير أبي علي والأخفش فيها تفكيك للكلام ، وسلوك به غير ما تقتضيه الفصاحة ، وهي تقارير أعجمية بعيدة عن البلاغة لا تناسب في كتاب الله ، بل لو قدرت في شعر الشنفري ما ناسبت ، والنحاةُ الصِّرْفُ غير الأدباءِ بمعزل عن إدراك الفصاحة ، وأما تشبيه ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟﴾ فليس ما قاله بمتعين فيه ، بل ولا ظاهر ، بل قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ هو خبر عن النهي ، أي: جزاءُ سيئة منهم بمثلها ، وحذف (منهم) لدلالة المعنىٰ عليه ، كما حذف من قولهم: السمن مَنَوان بدرهم ، أي منوان منه ، وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ وسيأتي».

(٢) الريم: الظبي الخالص البياض ، ونصَّته: أظهرته ومدَّته ، معطَّل: خال من الحُليِّ ووسائل الجمال ـ يصف جيدها بالجمال فهو طويل طولاً معتدلاً ليس بالفاحش الزائد على الحد ، وليس بالخالي من مظاهر الحسن وعلاماته.



بفاحش» في صفة النبي ﷺ[(١)] ، ومنه قوله لسَلَمَة بن سلامة بن وقش: «أَفحشت على الرجل» في حديث السير ، ومنه قول الحَزين[(٢)]. في كُثَيِّر عزَّة:

قَصيــرُ القميــص فــاحِــشٌ عنْــدَ بَيْتِــه

وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس ، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع ، والفاحش كذلك ، فقوله تعالىٰ: هنا: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أُخر ، فكل ما حرَّمه الشرع فهو فاحشٌ وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يَجْمع النوعَ كلَّه ، لأَنه تقسيم لا يخرج عنه شيءٌ ، وهو لفظ عام في جميع الفواحش. وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأَن قال: ما ظَهَرَ: الطواف عرياناً ، والبواطن: الزنىٰ ، وقيل غير هذا مما يأْتي على طريق المثال ، و﴿وَمَا﴾ بدل من ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهو بدل بعض من كلٍّ ، ومجموع القسمين يأْتي بدل الشيءِ من الشيءِ وهو هو.

والإثم أَيضاً لفظ عام لجميع الأَفعال والأَقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض الناس: هي الخمر ، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

شَـرِبْـتُ الإِثْـمَ حَتَّـىٰ طَـارَ عَقْلـي . . . .[(٣)]

---

(١) روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (لم يكن النبي ﷺ فاحِشاً ولا مُتَفحِّشاً ، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً). (كتاب بدء الخلْق ـ باب: صفة النبي ﷺ) ورواه الإمام أحمد ج ٢ صفحات ١٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، وكذلك في ج٦ ، ورواه مسلم في الفضائل ، والترمذي في البرِّ.

(٢) الحَزين الكناني هو عمرو بن عبيد بن وهيب بن أبي الشعثاء ـ من بني كنانة ، من أهل المدينة ، لم يخدم الخلفاء ولم يكن يريم الحجاز إلا نادراً ، عاش إلى أواخر الدولة الأموية ، ومات حوالي سنة ١١٠ هـ ، قال عنه الأصفهاني: «مطبوع ، ليس في فحول طبقته ، وكان هجاءً ، خبيث اللسان ، ساقطاً ، وكان يوري في معاني أعظم فحشاً ولو ظلم المهجوَّ ظلماً كبيراً» ، ويظهر ذلك في وصفه لقميص كثير الذي استشهدبه ابن عطية على معنى كلمة (فاحش)

(٣) هذا صدر بيت ـ وعجزه:

. . . . كَـذَاكَ الإِثْـمُ تَـذْهَـبُ بِـالْعُقُـولِ

وقد روي: (حتى ضَلَّ ، وحتى زلَّ) بدلاً من: (حتى ضَلَّ) ، ومثله في إطلاق الإثم على الخمر قول الآخر:

=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحد لأَن جماعة من الصحابة اصطبحوها يومَ أُحد وماتوا شهداءَ وهي في أَجوافهم ، وأَيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق ، وإِن صحَّ فهو على حذف مضاف[١] ، وكان ظاهر القرآن ـ على هذا القول ـ أَن تحريم الخمر من قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[٢] وهو في هذه الآية قد حُرِّم فيأتي من هذا أَن الخمر إِثمٌ والإِثم مُحَرَّمٌ فالخمر محرَّمةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولكن لا يصح هذا لأَن قوله: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ محتمل أَنْ يُراد به أَنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراءِ وقتل النفس وغير ذلك آثام فكأَنه قال: في الخمر هذه الآثام ، أَي: هي بسببها ومعها ، وهذه الأَشياءُ مُحرَّمة لا محالة ، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياسُ الذي ذهب إِليه قائل ما ذكرناه ، ويعضد هذا أَنَّا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ ، وفي بعض الأَحاديث: فتركها قوم للإِثم الذي فيها وشربها قوم للمنافع ، وإِنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونُصوص الأَحاديث والإِجماع.

والبغي: التعدي وتجاوز الحدِّ ، كان الإِنسان مبتدئاً بذلك أَو منتصراً ، فإِذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ ، وقوله تعالىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان ، وليس يتصور بغي بحق ، لأَن ما كان بِحَقٍّ فلا يُسمى بغياً.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ المراد بها الأَصنام والأَوثان وكل ما عُبد من دون الله ، والسلطان: البرهان والحجة. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرَّم البَحيرة والسائبة ونحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية ، يتضمن الوعيد والتهديد ، والمعنىٰ: ولكل

= نشْـرَبُ الإِثْـمَ بـالصُّـوَاع جِهَـاراً ... وتَـرَىٰ المَسْـكَ بَيْنَنَـا مُسْتَعَـاراً

(١) تقديره: موجب الإثم.

(٢) الآية (٢١٩) من سورة (البقرة).



أُمَّةٍ ، أَي: فِرْقة وجماعة ، (وَهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس) أَجلٌ مؤقت لمجيء العذاب إِذا كفروا وخالفوا أَمر ربهم ، فأَنتم أَيتها الأُمة كذلك ، قال الطبري وغيره. وقرأَ الحسن: [فإِذا جاء آجالهم] بالجمع ، وهي قراءَة ابن سيرين ، قال أَبو الفتح: هذا هو الأَظهر لأَن لكل إِنسان أَجلاً ، فأَما الإِفراد فلأَنه جنس. وإِضافته إِلىٰ الجماعة حسنت الإِفراد ، ومثله قول الشاعر:

. . . . في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقدْ شَجِينا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَاعَةً ﴾ لفظ عُيِّن به الجزءُ القليل من الزمن[٢] ، والمراد جميع أَجزائه ، أَي: لا يستأْخرون ساعة ولا أَقل منها ولا أَكثر ، وهذا نحو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[٣] فإِنما هي عبارة يقام الجزءُ فيها مقام الكل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[٤] تعارض ، لأَن تلك تقتضي الوعد بتأْخيرٍ إِن آمنوا والوعيد بمعاجلةٍ إِن كفروا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والحق مذهب أَهل السنة أَن كل أَحد إِنما هو بأَجل واحد لا يتأَخر عنه ولا يتقدم ، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالىٰ أَنه يكفر فيعاجل ، وذلك هو أَجله المحتوم ، ومنهم من يؤمن فيتأَخر إِلى أَجله المحتوم ، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إِلى طريق النجاة وهو يعلم أَن الطائفة إِنما تعاجل أَو تؤخر بأَجلها ، فكأَنه يقول: فإِن آمنتم علمنا أَنكم ممن قضى الله له بالإِيمان والأَجل المؤخر ، وإِن كفرتم علمنا أَنكم ممن قُضى له بالأَجل المعجل والكفر.

---

(١) البيت بتمامه:

لا تُنْكِروا الْقَتْلَ وقَدْ سُبِينَا ... في حَلْقِكُمْ عظْمٌ وقَدْ شَجِينَا

أراد: في حلوقكم بدليل قوله: وقد شجينا ـ لأَن الشجا هو ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه ـ فضمير الجماعة في (شَجينا) يدل على أن المراد الحلوق بالجمع.

(٢) نقل أَبو حيان هذه العبارة عن ابن عطية بلفظ: «لفظٌ عُنِيَ به الجزءُ القليل من الزمن» ـ فتأمل.

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (النساء).

(٤) تكررت في الآية (١٠) من سورة (إبراهيم): ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، وفي الآية (٤) من سورة (نوح): ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا الحد هو دعاءُ محمد عليه الصلاة والسلام إلى طريق الجنة وقد علم أَن منهم من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير يقال له: إما أن تؤمن فتترك وإلا قتلت.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية. الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و(إن) الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة، ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل، وإذا لم تكن (ما) لم يجز دخول النون الثقيلة. وقرأ أبي بن كعب، والأعرج: [تأتِيَنَّكُمْ] على لفظ الرسل، وجاءَ ﴿يَقُصُّونَ﴾ على المعنىٰ، وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه الصلاة والسلام أَن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه، و﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أَن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوي الإشارة بصحة النُّبُوَّة إلى محمد ﷺ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية. وأسند الطبري إلى أبي سيَّار السلمي قال: إن الله تعالىٰ جعل آدم وذريته في كفة فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ الآية، قال: ثم نظر إلى الرسل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[1]، ثم بثهم[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أَن هذه المخاطبة في الأزل، وقيل: المراد بالرسل محمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

من حيث لا نبي بعده، فكأَن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير، إذ غيرهم لم ينله الخطاب، ذكره النقاش. و﴿يَقُصُّونَ﴾ معناه: يسردون ويوردون، والآيات لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترن بالأنبياء. وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ يصح أَن تكون [من] شرطية وجوابه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهذه الجملة هي في

---

(١) الآيتان (٥١ ـ ٥٢) من سورة (المؤمنون).
(٢) يفهم من (الدر المنثور) أَنَّ أحداً غير ابن جرير الطبري لم يخرج هذا الخبر.



جواب الشرط الأول الذي هو: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ، ويصح أن تكون [من] في قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ موصولة ، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ ، والقسم الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ، وجاءَ هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فكأنه قال: إن أتتكم الرسل فالمتقون لا خوف عليهم ، والمكذبون أصحاب النار ، أي: هذا هو الثمرة وفائدة الرسالة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ليس ثمَّ نفع للمفتري ولا غرض دنيوي ، فالآية تبرية للنبي ﷺ من الافتراءِ ، وتوبيخ للمفترين من الكفار ، و (لا) في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس. وقرأ ابن محيصن: [فلا خوف] دون تنوين ، ووجهه إمَّا أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وإمَّا حملاً على حذفه مع [لا] ، وهي تبرية ناصبة ، فشبه حالة الرفع في البناء بحالة النصب. وقيل: إن المراد: فلا الخوف ، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاءُ على حالها لتدل على المحذوف ، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكارها ، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور ، والحزن لما مضىٰ.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ هذه حالتان تعم[1] جميع من يصدُّ عن رسالة الرسول ﷺ ، إمَّا أن يكذب بحسب اعتقاده ، وإمَّا أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الكفر عناداً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾ .

---

(١) هكذا في الأصول التي بين أيدينا ، ونظن أن فيها خطأ من النساخ ، وقد نقل أبو حيان في «البحر» العبارة باللفظ الآتي: «هاتان حالتان تعم جميع... الخ» ـ ويمكن فهمها على أنه يقرر أن في الآية حالتين... ثم يشير إلى الآية بقوله: «تعم».



هذه آية وعيد واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، و﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ معناه: اختلق، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها، أي: كيف يجعلون الرسل مفترين ولا أحد أظلم ممن افترى ولا حظ للرسل إلا أن يُرْحَم من اهتدىٰ ويُعَذَّبَ من كفر ـ فهي أيضاً مشيرة بالمعنىٰ إلى كل مفتَر، إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال الحسن، والسدي، وأبو صالح: معناه: من المقرر في اللوح المحفوظ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم في العذاب والسخط. وقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد: قوله: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد: من الشقاءِ والسعادة التي كتبت له عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن الملَك يأتي إذا خُلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقيّ أو سعيد(١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومجاهد، قتادة، والضحاك: الكتاب يُرادُ به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر، فينال هؤلاءِ نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يراد به: من القرآن، وحظهم فيه أن وجوههم تسود يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس، ومحمد بن كعب، وابن زيد: المعني بالنصيب ما سبق لهم في أُم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا. ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله تعالىٰ بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاءِ ذلك، فكأنه معنى الآية على هذا التأويل: أُولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما

(١) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد. وكتاب بدء الخلق، ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، ورواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، ولفظه كما جاء في البخاري: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يُجْمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكاً فيؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعملُ حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابُه فيعمل بعلم أهل النار، ويعملُ حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة).



كُتب لهم حتَّىٰ إذا جاءَتهم رسلنا لموتهم. وهذا في تأويل جماعة في مجيءِ الرسل للتوفي، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم. وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، و﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه: يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله تعالىٰ: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن النصيب على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة وقد قضي مجيء رسل الموت. وقوله تعالىٰ حكاية عن الرسل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي، وهو إشارة إلى الأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الله، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون وتؤملون، وقولهم: ﴿ضَلُّوا﴾ معناه: هلكوا وتلفوا وفُقدوا، ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ﴾، وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]، واجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة، أو في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا، وفي حال كذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب، وعبَّر عن (يقول) بـ ﴿قَالَ﴾ لتحقق وقوع ذلك وصدق القصة. وهذا كثير.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ متعلق بـ ﴿ٱدْخُلُوا﴾، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره: كائنين أو ثابتين في أمم فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ٱدْخُلُوا﴾،

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقيل: ﴿فِيٓ﴾ بمعنىٰ (مع)، وقيل: هي على بابها وهو أصوب[١]. وقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ صفة لِـ ﴿أُمَمٖ﴾، وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يصح تعلقه بـ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿أُمَمٖ﴾ أي: في أمم ثابتة أو مستقرة، ويصح تعلقه بالذكر الذي في ﴿خَلَتۡ﴾، ومعنىٰ ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ على هذا التعلُّق، أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن وعرفها فيما تطاول من الآباد، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها: فيمن مات من الناس، أي صاروا إلى خلاءٍ من الأرض، وعلى التعليقين الأولين لقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ فإنما ﴿خَلَتۡ﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: ادخلوا في النار في جملة الأُمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة. وقدم ذكر ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء، وهذه الآية نص في أن كفرة الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنيهم في الجنة لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا، وقد بوب البخاري رحمه الله (باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم)، ذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثا مجهولاً، وما أراه يصح، والله أعلم.

والأخوة في هذه الآية أخوة الملة والشريعة، قال السدي: يتلاعن آخرها وأولها.

﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ معناه: تلاحقوا: ووزنه تفاعلوا، أصله: تداركوا أُدْغم فجلبت أَلف الوصل، وقرأَ أبو عمرو [إدَّاركوا] بقطع أَلف الوصل، قال أَبو الفتح: هذا مشكل ولا يسوغ أَن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيءُ شاذّاً في ضرورة الشعر[٢]، وقرأَ مجاهد بقطع الأَلف وسكون الدال [إدْرَكُوا] بفتح الراءِ وبحذف الأَلف بعد الدال بمعنىٰ: أدرك بعضهم بعضاً. وقرأَ حميد: [أُدْرِكُوا] بضم الهمزة وكسر الراءِ أَي: أُدخلوا في أَدراكها، قال مكي في قراءَة مجاهد: إنها [ادرَكُوا] بشد الدال المفتوحة وفتح الراءِ، قال: وأَصله (إذْ تَركوا) وزنها افتعلوا، وقرأَ ابن مسعود والأَعمش: [تَدَارَكُوا] ورويت عن أَبي عمرو، وقرأَ الجمهور: [حَتَّى إِذ ادَّارَكُوا] بحذف أَلف (إذا) لالتقاء الساكنين[٣].

---

(١) ويكون المعنىٰ: ادخلوا في جملتهم.

(٢) ومثال ذلك قول الشاعر:

يا نَفْسُ صَبْراً كلُّ حَيٍّ لاقي ... وكُلُّ إثْنَيْنِ إلى افْتِرَاقِ

(٣) في القرطبي أن هذه قراءة مجاهد وحميد بن قيس لكنه أضاف إلى حذف ألف (إذا) حذف الألف التي بعد الدال.



وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ معناه: قالت الأُمة الأَخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسُنَناً كاذبة مستعملة للأُولى التي شرَّعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلالات ابتداءً: ربنا هؤلاءِ طرقوا الضلال وسبَّبوا ضلالنا فآتهم عذاباً مضاعفاً، أَي ثانياً زائداً على عذابنا إِذ هم كافرون ومُسَبِّبون لكفرنا، وتقول: ضاعفت كذا إِذا جعلته مثل الأَول. واللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ كأَنها لام سبب، إِذ القول إِنما هو للربِّ. ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أَي: العذاب مشدد على الأَول والآخر ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: المقادير وصور التضعيف، وهذا ردٌّ لكلام هؤلاءِ إِذ ليس لهم كرامة فيظهر إِسعافهم.

وأَما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي ﷺ أَنه حاصل، وأَنَّ كل مَنْ سنَّ كفراً أَو معصية فعليه كفل من جهة كل من عمل بذلك بعده، ومنه حديث أَنس بن مالك أَن رسول الله ﷺ قال: «ما من داعٍ دعا إِلى ضلالة إِلا كان عليه وِزْرُهُ وَوِزْرُ من اتبعه لا ينقص ذلك من أَوزارهم شيئاً...»[1] الحديث. ذكره الليث بن سعد في آخر الجزءِ الرابع من حديثه، وذكره مالك في الموطأ غير مسند موصل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تُقتل نَسَمَةٌ ظلماً إِلا كان على ابن آدم الأَول كِفل منها»[2]، أَما إِن هؤلاءِ عينوا في دعائهم الضِّعف، وقد يكون الكفل أَقل أَو أَكثر. وعن ابن مسعود أَن الضعف ها هنا: الأَفاعي والحيات.

وقرأَ جميع السبعة غير عاصم في رواية أَبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاءِ، ويحتمل ذلك أَن يكون مخاطبة لهذه الأُمة الأَخيرة متصلة بقوله تبارك وتعالىٰ لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، ويحتمل أَن يكون مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأُمته، وقرأَ عاصم وحده في رواية أَبي بكر: [ولكن لا يعلمون]، وروى حفص عن عاصم

(١) الحديث رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ورواه الإمام أحمد ـ عن المنذر بن جرير، ولفظه كما في الإمام أحمد: (من سنَّ في الإِسلام سنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإِسلام سنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم من شيء).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وكذلك رواه الإمام أحمد ولفظه فيه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأَنه كان أول من سنَّ القتل».



مثل قراءَة الجماعة، وهذه مخاطبة لأُمة محمد عليه الصلاة والسلام وإِخبارٌ عن الأُمة الأَخيرة التي طلبت أَن يشدد العذاب على أُولاها، ويحتمل أَن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة (كُل) أَي: لا يعلم أَحد منهم قدر ما أُعد لهم من عذاب الله.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الآية، المعنىٰ: وقالت الأُمة الأُولى المبتدعة للأُمة الأَخيرة المتَّبِعة: أَنتم لا فضل لكم علينا، ولم تزدجروا حين جاءَتكم النُّذر والرسل، بل دمتم في كفركم، وتركتم النظر، واستوت حالنا وحالكم، فذوقوا العذاب باجترامكم. هذا قول السدي وأَبو مجلز وغيرهما، فقوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ ـ على هذا ـ من كلام الأُمة المتقدمة للأُمة المتأَخرة، وقيل: قوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ هو من كلام الله عزَّ وجلَّ لجميعهم. وقال مجاهد: ومعنىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿مِن فَضْلٍ﴾ أَي من التخفيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

معناه أَنه لما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قال الأَولون للآخرين: لم تبلغوا أَملاً في أَن يكون عذابكم أَخف من عذابنا، ولا فضلتم بالإِسعاف والنص عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

هذه الآية عامّة في جميع الكفرة قديمِهم وحديثِهم. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ بضم التاءِ الأُولى وتشديد الثانية، وقرأَ أَبو عمرو [تُفْتَح] بضم التاءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الثانية، وقرأَ حمزة والكسائي [يُفْتَح] بالياءِ من أَسفل وتخفيف التاءِ، وقرأَ أَبو حيوة، وأَبو إِبراهيم [يُفتَّح] بالياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ التاءِ. ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاءٌ فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالىٰ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إِذ ليست بلازمة في الآية، ولِلِينِ أَسانيدها أَيضاً.



ثم نفى الله عزَّ وجلَّ عنهم دخول الجنة وعلَّق كونَه بكَوْنِ محالٍ لا يكونُ، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، والجمل كما عُهِدَ والسم كما عُهد. وقرأ جمهور المسلمين: ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ واحد الجمال، وقال الحسن: هو الجمل الذي يقوم بالمِرْبَد[1]، ومرة لما أكثروا عليه قال: هو الأَشتر وهو الجمل بالفارسية، ومرة قال: هو الجمل ولد الناقة، وقاله ابن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتياب السائلين لا شك باللفظة من أجل القراءَت المختلفة. وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأُ: [حتى يلِجَ الجَمَلُ الأَصفر]. وقرأَ أبو السمَّال: [الجمْل] بسكون الميم. وقرأَ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وابن جبير، والشعبي، ومالك بن الشخير، وأَبو رجاء: [الجُمَّل] بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة. وقرأَ سالم الأَفطس، وابن خير، وابن عامر أَيضاً: [الجُمَل] بتخفيف الميم من (الجُمل) وقالوا: هو حبل السفن، وروى الكسائي أَن الذي روى تثقيل الميم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أَعجمياً فشدد الميم لعجمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لكثرة أَصحاب ابن عباس رضي الله عنهما على القراءَة المذكورة، وقرأَ سعيد بن جبير فيما روي عنه: [الجُمْل] بضم الجيم وسكون الميم، وقرأَ ابن عباس أَيضاً: [الجُمُل] بضم الجيم والميم.

والسَّم: الثقب من الإِبرة وغيرها، ويقال: سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وكسرها وضمها. وقرأَ الجمهور بفتح السين، وقرأَ ابن سيرين بضمها، وقرأَ أَبو حيوة بضمها وبكسرها، وروي عنه الوجهان[2]، والخِياط والمِخْيطُ: الإِبرة، وقرأَ ابن مسعود:

(١) المِرْبَد: موقف الإبل ومحبسها، وبه سُميَّ مِرْبَد البصرة، كان سوقاً للإبل، وكان الشعراء يجتمعون به. وجمعه: مرابد. عن (المعجم الوسيط).

(٢) من السَّم بمعنى الثقب قول الفرزدق:

فَتَنَفَّسْتُ عَنْ سَمَّيْهِ حتَّىٰ تَنَفَّسَا ... وقلْتُ لَهُ لا تَخْشَ شَيْئاً ورائيا

يعني بِسَمَّيْه ثقبيْ أنفه.



[في سم المخيط] بكسر الميم وسكون الخاءِ وفتح الياءِ، وقرأ طلحة: [في سم المخيط] بفتح الميم، وكذلك أُبي على هذه الصفة، وبمثل هذا الحتم وغيره يجزي الكفرة وأَهل الجرائم على الله تبارك وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ المعنى أَن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش: جمع غاشية، وهي ما يغشى الإِنسان أَي يغطِّيه ويستره من جهة فوق، قال الضحاك: المهاد: الفراش، والغواشي: اللحف. ودخل التنوين في (غواشٍ) عند سيبويه لنقصانه عن بناءِ مفاعل، فلما زال البناءُ المانع من الصرف بأَن حذف الياءُ حذفاً لا للالتقاءِ، بل كما حذفت من قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾[1]، ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ ﴾[2] ومن قول الشاعر:

. . . . ثُـــمَّ لا يفْـــرِ[3]

زال الامتناع[4]، وهو كقولهم: ذُلْذلٌ بالتنوين وهم يريدون الذلاذل[5] لما زال البناءُ. قال الزجاج: والتنوين في (غواش) عند سيبويه عِوَضٌ من الياءِ المنقوصة، وردَّ أَبو علي أَن يكون هذا هو مذهب سيبويه، ويجوز الوقف بياءٍ وبغير ياءٍ والاختيار بغير ياءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الآية. هذه آية وعْد مُخبِرَةٌ أَن جميع المؤمنين هم أَصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أَثناءَ القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراضٍ يخفف الشرط ويرجِّي في رحمة الله ويُعلم أَن دينه يُسر.

وهذه الآية نصٌّ في أَن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيءٌ لا يطاق. وقد تقدم القول

---

(١) الآية (٤) من سورة (الفجر).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٦٤) من سورة (الكهف): ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾.

(٣) هذا آخر جزء من بيت لزهير، والبيت بتمامه:

ولأَنْـــتَ تَفْـــري مـــا خَلَقْـــتَ وبَعْـ ... ـضُ القَـــوْم يَخْلُـــق ثُـــمَّ لا يَفْـــر

أي: تُنَفِّذ ما تعزم عليه وتقدّره. قال في (اللسان): وهو مثل، ويقال للشجاع: ما يفري فريَّه أَحد، لكن البيت في اللسان (يفري) بالياء.

(٤) جواب (لمّا) في قول المؤلف: (فلما زال).

(٥) في (اللسان): ذلاذل القميص: ما يلي الأَرض من أسافله، الواحد ذُلْذُلٌ مثلُ قُمْقُم وقَمَاقم.



في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمُغْن عن الإعادة.

والوُسْع معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ أنه يُنَقِّي قلوب ساكني الجنة من الغلِّ والحقد، وذلك أن صاحب الغلِّ متعذب به ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث: (الغِلُّ على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله تبارك وتعالىٰ من قلوب المؤمنين)[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا الحديث إذا حُمل على حقيقته أن الله عزَّ وجلَّ يخلق جوهراً يجعله حيث يرى كمبارك الإبل لأن الغِلَّ عرض لا يقوم بنفسه، وإن قيل: إن هذه استعارة وعبَّر عن سقوطه عن نفوسهم فهذه الألفاظ على جهة التمثيل، كما تقول: فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة، فله وجه، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياءَ كثيرة مثل قول عليه الصلاة والسلام: «يُؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيذبح»[٢] وغير ذلك، وروى الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[٣]»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «فينا والله نزلت: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾»[٤]، وذكر قتادة أن علياً قال:

---

(١) الحديث لا أصل له.

(٢) حديث ذبح الموت سبق تخريجه، ونصه كما رواه الدارمي في سننه: (عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاءَ الفرج، فيذبح ويقال: خلود ولا موت». (٢/٢٩ ط. دار الفكر).

(٣) الآية (٤٧) من سورة (الحجر).

(٤) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ عن علي بن أبي طالب. (الدر المنثور).



«إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو المعنى الصحيح، فإن الآية عامة في أهل الجنة، والغِلُّ: الحقد والإحنة الخفية في النفس، وجمعه: غِلال، ومنه الغلول أَخْذ في خفاءٍ، ومنه الانغلال في الشيءِ، ومنه المغلُّ بالأمانة، ومنه قول علقمة بن عبدة:

سُـلاَّءَةٌ كعَصَـا النَّهْـدِيِّ غُـلَّ لَهَـا ذُو فَيْئَةٍ، مِنْ نَوَىٰ قُرَّانَ مَعْجُومُ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ بيّن لأن ما كان لاطئاً بالأرض فهو تحت ما كان منتصباً آخذاً في سماءٍ، و﴿هَدَانَا﴾ بمعنى أرشدنا، والإشارة بـ[هَذَا] تتّجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها، أي: أرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلةٌ في القرآن. وقرأ ابن عامر وحده: [ما كنا لنهتدي] بسقوط الواو من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا﴾، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، قال أبو علي: وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله.

ولما رأوا ما جاءَت به الأنبياءُ عن الله تبارك وتعالىٰ: وعاينوا إنجاز المواعيد قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، فقضوا بأن ذلك حقٌّ قضاءَ من يُحِسُّ، وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حقٌّ قضاءَ من يستدلُّ. ﴿وَنُودُوا﴾ أي: قيل لهم بصياحٍ، وهذا النداءُ من قِبَلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، و﴿أَن﴾ يحتمل أن تكون مفسَّرة لمعنى النداءِ بمعنىٰ (أي)،

---

(١) البيت لعلقمة في وصف فرس ـ والسُّلاءُ بالضم ممدود: شوكُ النخل ـ على وزن قُرّاء ـ واحدته: سُلاءة وسَلأ النخلة والعسيب سلأ: نزع سُلاَّءهما يريد أن الفرس ملساءُ كالعسيب الذي نزع شوكه. والنَّهديُّ: الشيخ المُسِنُّ، وغُل لها هو من قولهم: غَلَلْتُ للناقة إذا خلطت لها العَلَف، والغليل هو النَّوى تخلطه بالقَت وتعلفه الناقة، وذو فيئة: ذو عَوْدَة ورجْعَة. وقُرّان: قرية باليمامة كثيرة النخل ومن ثَمَّ يكثر بها النوى الذي ينتفع به في علف الإبل والخيل، ومعجوم: يريد أنه قد عضه ليعلم مقدار صلابته، أو اختبره بيده ليعرف ذلك، فهو يشبه الفرس في ضمورها ونعومة جسمها بعصا الشيخ التي نزع شوكها فصارت ناعمة ملساء، وهي تأكل من نوى قُرّان المعروف فيعطيها قوة وصلابة في جِسْمها. والشاهد في قوله: (غُلَّ لها)، أي خلط لها ودس في الطعام فاختلط به وانغَلَّ فيه.



ويحتمل أَن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره: أَنه تلكم الجنة، ونحو هذا قول الأعشىٰ:

فـي فتيـة كَسُيُـوفِ الْهِنْـد قَـدْ عَلِمـوا أَنْ هالِكٌ كلُّ مَن يَحْفَى ويَنْتَعِلُ[(١)]

تقديره: أَنه هالك. ومنه قول الآخر:

أُكَـاشِــرُهُ وأَعْلَــمُ أَنْ كِــلانَــا علـى مـا سـاءَ صـاحِبَـهُ حـريـص[(٢)]

و﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ﴾ ابتداءٌ وصفة، و﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ الخبر، و﴿ تِلْكُمُ ﴾ إشارة فيها غيبة، فإِمَّا لأَنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إِلى تلك، أَي: تلكم هذه الجنة وحذفت (هذه)، وإِما قبل الدخول، وإِما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها، فكل غائب عن منزله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله، لكن بقرينة رحمته وتغمده، والأعمال أَمارة من الله وطريق إِلى قوة الرجاءِ، ودخول الجنة إِنما هو بمجرد رحمة الله تعالىٰ، والقسم فيها على قدر العمل، و(أُورثتم) مشيرة إِلى الأَقسام. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وكذلك في الزخرف، وقرأَ أَبو عمرو، والكسائي وحمزة: [أُورِتُّموها] بإِدغام الثاءِ في التاءِ، وكذلك في الزخرف[(٣)].

---

(١) قائل البيت أَبو بصير الأَعشى ميمون بن قيس، وهو في القصيدة السادسة من ديوانه المطبوع بالقاهرة بشرح د. محمد حسين، والشاعر يصف في البيت ندامائه على الشراب. وقوله: (من يحفىٰ) يريد به عامة العرب، ويريد بقوله: (وينتعل) من يلبس النعال ـ يعني السادة والشرفاء. يقول: إِن الموت لا يفرق بين الفقراء والأَغنياء، والشاهد فيه أَنَّ (أَنْ) في أول الشطر الثاني مخففة من الثقيلة لأَنه سبقها فعل من أفعال اليقين هو (علم)، وليست هي أَنْ المصدرية لأَنه لا يسبقها يقين ولا شبهه، وقد استشهد سيبويه بالبيت في الكتاب (١ ـ ٢٨٢، ٤٤٠ ـ ٤٨٠) وعلق عليه بقوله «كأنه قال: إِنَّه هالك، ثم قال: ومثل ذلك: أول ما أقول أنْ باسم الله، كأَنه قال: أول ما أقوله أَنَّه باسم الله».

(٢) هذا البيت أَيضاً من شواهد سيبويه على أَنَّ (أَنَّ) المثقلة قد تخفف ويكون اسمها ضميراً. وقال الأعلم في التعليق على البيت: «الشاهد في حذف الضمير من (أَنْ) وابتداء ما بعدها على نية إثبات الضمير، ومعنى أكاشره: أضاحكه، ويقال: كشرَّ عن نابه: إذا كشف عنه».

(٣) في قوله تعالىٰ في الآية (٧٢): ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وقد قال الإمام ابن خالويه في كتابه: «الحجة في القراءات السبع»: «فالحجة لمن أدغَم: مقاربة الثاء للتاء في المخرج، والحجة لمن أظهر: أن الحرفين مهموسان فإِذا أدغما خفيا فضعُفا، فلذلك حَسُن الإظهارُ فيهما».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذا إِخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عما يكون منهم، وعبَّر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية، وهذا حسن فيما تحقق وقوعه، وهذا النداءُ من أَهل الجنة لأَهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب، وهو بأَن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأَسماع والأَبصار. وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَعَمۡ﴾ بفتح العيْن، وقرأَ الكسائي: [نَعِم] بكسر العين، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وقرأَها ابن وثاب، والأَعمش، قال الأَخفش: هما لغتان، ولم يَحْك سيبويه الكسر وقال: نعم: عِدَةٌ وتصديق أَي: مرة هذا ومرة هذا. وفي كتاب أَبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كنت أَسمع أَشياخ قريش يقولون إِلا (نعِم) بكسر العين، ثم فقدتها بعده. وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال: قلت للنبي ﷺ: أَنت تزعمُ أَنك نبي؟ قال: نَعِم. «بكسر العين»، وفيه عن أَبي عثمان النهدي قال: سأَل عمر رضي الله عنه عن شيءٍ فقالوا: نَعَم، فقال عمر: النَّعَم: الإبل والشاءُ، قالوا: نَعِم بكسر العيْن، قال أَبو حاتم: وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحَرَمَيْن[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية. قال أَبو علي الفارسي، والطبري، وغيرهما: [أَذَّنَ مُؤَذِّن] بمعنى: أَعلم مُعْلم، قال سيبويه: أذنت: إِعلام بتصويت، وقرأَ ابن كثير في رواية قُنبل، ونافع وأَبو عمرو، وعاصم، ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف (أَنْ) من الثقيلة ورفع (اللعنة)، وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن كثير في رواية البزي وشبل: [أَنَّ لَعْنَةَ] بتثقيل (أَنَّ) ونصب (اللعنة)، وكلُّهم قرأَ التي في النور:

---

(١) جميع الشواهد التي ذكرها ابن عطية نقلاً عن كتاب «أبي حاتم» مذكورة في (اللسان) ـ وفيه: «ونَعَمْ ونَعِمْ: كقولك: بَلى إلا أن نَعِم في جواب الواجب، وهي موقوفة الآخر لأنها حرف جاء لمعنىٰ»، ونقل عن الأزهري قوله: «وقد يكون نَعِم تصديقاً ويكون عِدَةً، وربَّما ناقض بَلَى إذا قال: ليس لك عندي وديعة، فتقول: نَعَم تصديقاً لَهُ وبَلَىٰ تكذيباً» ـ ثم قال: «واشتق ابن جني (نعم) من النعمة، وذلك أن (نعم) أشرف الجوابين، وأسرهما للنفس وأجلبهما للحمد، و(لا) بضدها».



[أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ]، و[أَنَّ غَضَبَ اللهِ] بتشديد النون، غير نافع فإنه قرأهما: ﴿أَن لَّعْنَةُ﴾ و[أَنْ غضب الله] مخففتين، وروى عصمة عن الأعمش: [مؤذِنٌ بَيْنَهُمْ إِنَّ] بكسر الألف على إضمار قال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لما كان الأذان قولاً. والظالمون في هذه الآية: الكافرون.

ثم ابتدأ صفتهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿يَصُدُّونَ﴾ معناه: يعرضون، والسبيل: الطريق والمنهج، ويذكر ويؤنث، وتأنيثها أكثر، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ معناه: يطلبونها أو يطلبون لها، فإن قدرت يطلبونها فـ ﴿عِوَجًا﴾ نصب على الحال، ويصحُّ أن يكون من الضمير العائد على (السبيل)، أي: معوجة، ويصح أن يكون من ضمير الجماعة في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: مُعْوَجِّين وإن قدرت ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: يطلبون لها وهو ظاهر تأويل الطبري رحمه الله، فـ ﴿عِوَجًا﴾ مفعول (يبغون)، والعِوَج بكسر العيْن في الأُمور والمعاني، والعَوَج بفتح العين في الأجرام والمتنصبات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ عائد على الجنة والنار، ويحتمل على الجمعين إذْ يتضمنهما قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، والحجاب: هو السور الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[1] قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو تلٌّ بين الجنة والنار، وذكر الزهراوي حديثاً أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أُحُداً جبل يُحبنا ونُحبه، وإنه يقوم يوم القيامة يمثل[2] بين الجنة والنار يحتبس عليه أقوامٌ

(١) من الآية (١٣) من سورة (الحديد).

(٢) نقل البحر هذه الكلمة في الخير (ممثّل) بميمين. يقال: مثل الرجل بين يدي فلان: قام بين يديه منتصباً.



يعرفون كُلاً بسيماهم، هم إِن شاء الله من أَهل الجنة»[١]. وذَكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أَن النبي ﷺ قال: (إِنَّ أُحُداً على ركن من أَركان الجنة). والأَعراف: جمع عُرْف وهو المرتفع من الأَرض، ومنه قول الشاعر:

كُـــلُّ كِنَـــازٍ لَحْمُـــهُ نِيَـــاف الجَبَلِ الْمُـوفـي على الأَعـراف[٢]

ومنه قول الشماخ:

وَظلَّـتْ بـأَعـرافٍ تَعـالـى كَـأنهـا رِماحٌ نحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيح راكزُ[٣]

ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك لِعُلُوِّهما، وقال السدي: سمّي الأَعراف أَعرافاً لأَن أَصحابه يعرفون الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وهذه عجمة، وإِنما المراد بأَعراف ذلك الحجاب أَعاليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾. قال أَبو مجلز لاحق بن حميد: هم الملائكة، ولفظة (رجال) مستعارة لهم لما كانوا في تماثيل رجال، وهم ذكور ليسوا بإِناث[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وقد سمّى الله رجالاً في الجن.

---

(١) الجزء الأَول من الحديث وهو: (إِن أُحداً جبل يحبنا ونحبه) ثابت في الصحيحين. عن أنس رضي الله عنه، وقد رمز له في «الجامع الصغير» بأَنه صحيح. ثم ذكر رواية أخرىٰ فيها زيادة غير الزيادة المذكورة هنا ورمز لها بالضعف بعد أن نسبها لابن ماجه، أما الزيادة التي ذكرها ابن عطية هنا فلم نعثر على تخريج لها. فليس لها أصل.

(٢) ذكر صاحب (اللسان) هذا البيت في (نَيَفَ) شاهداً على أن النّياف: الطويل في ارتفاع، ولم ينسبه، لكنه ذكر لفظ (كالعَلَم (بدلا من (كالجبل). يقال: قصرٌ نياف، وناقةٌ نياف، قال ابن بري: وحقُّ النياف أن يذكر في (نَوَف) لأنه واويّ وقلبت الواو ياءً على جهة التخفيف مثل: صوان وصيان وطوال وطيال. والكِنَازُ: الناقة الصلبة اللحم، والجمع كُنُزٌ مثل كتاب وكُتب، وكل مكتنز مجتمع، والمُوفي: المُشْرف، والأَعراف: جمع عُرف بضم العيْن وهو كل عالٍ مرتفع، وهو أيضاً أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار.

(٣) البيت في ديوان الشماخ بن ضرار مع اختلاف في بعض الأَلفاظ (طبع القاهرة ـ السعادة ١٣٢٧ هـ). ونَحاها: وجَّهَها ـ وَوِجْهة ـ وَوِجْهة الريح: جهَتُها، وراكز: اسم فاعل من ركز رمحه في الأرض إذا غرزه ـ يصف الحُمُر بأَنها ظَلَّت واقفة بأعالي التِلال كأَنها رماح مركوزة في الأرض في جهة الريح.

(٤) قال الطبري: «واضح أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى له، والصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره». (تفسير الطبري ٨ـ ١٩٤).



وقال الجمهور: هم رجال من البشر، ثم اختلفوا ـ فقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاءٌ علماءٌ، وحكى الزهراوي أَنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أُمة، وقاله الزجاج، وقال قوم: هم أَنبياء، وقال المهدوي: هم الشهداء، وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم، وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأَنه تعادل عقوقهم واستشهادهم[١]، وقال ابن مسعود، والشعبي، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وابن جبير، والضحاك، هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقع في مسند خيثمة بن سيمان في آخر الجزءِ الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رَجَحَت حسناته على سيئاته مثقال ذرة صؤابة[٢] دخل الجنة، ومن رَجَحَت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار، قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أُولئك أَصحاب الأَعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[٣]، وقال حذيفة بن اليمان: هم قوم أَبطأَت بهم صغارهم إِلى آخر الناس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللازم من الآية أَن على أَعراف ذلك السور ـ أَو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالىٰ ـ رجالاً من أَهل الجنة يتأَخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين.

و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أَي بعلامتهم، وهي بياض الوجوه وحسنها في أَهل الجنة، وسوادها وقُبحها في أَهل النار إلى غير ذلك في حيّز هؤلاءِ وحيّز هؤلاءِ. والسِّيما:

---

(١) روى الطبري هذا الحديث عن طريقين ـ عن رجل من بني هلال أن أَباه أخبره ـ وعن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه ـ ولفظه في الرواية الثانية قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة).

(٢) الصُّؤَابة: بَيْضَة القَمل، جمعه صُؤَابٌ وصِئْبان. (المعجم الوسيط).

(٣) وأخرجه أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر ـ عن جابر بن عبد الله (الدر المنثور).



العلامة، وهو من وَسَمَ، وفيه قلب، يقال: سيما مقصور، وسيماء ممدود، وسِيمِيَاء بكسر الميم وزيادة ياءٍ(١)، فوزنها عفلا مع كونها من وسم. وقيل: هي من سَوَم إذا علم فوزنها ـ على هذا ـ فعلا. ونداؤُهم أَصحابَ الجنة يحتمل أَن يكون وأَصحابُ الجنة لم يدخلوها بعد، فيكون أَيضاً قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ محتملاً أَن يعني به أَهل الجنة، وهو تأويل أَبي مجلز إِذ جعل أَصحاب الأَعراف ملائكة، ومحتملاً أَن يعني به أَهل الأَعراف. ويحتمل أَن يكون نداؤُهم أَهلَ الجنة بالسلام وهم قد دخلوها فلا يحتمل حينئذٍ قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إلا أَهل الأَعراف فقط، وهو تأويل السدي، وقتادة، وابن مسعود، والحسن. وقال: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إِلا لخير أَراده لهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَظهر الأَليق، ولا نظر لأَحد مع قول النبي ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ هي جملة مقطوعة، أَخبر أَنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها، فكأَن الجملة حال من الضمير في ﴿وَنَادَوْاْ﴾. وقرأَ أَبو رقيش النحوي: [لم يدخلوها وهم طامعون]، وقرأَ إِيادُ بن لقيط: [وهم ساخطون]، وذكر بعض الناس قولاً وهو أَن يقدر قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، ويكون المعنىٰ: لم يدخلوها في حال طمع بها، بل كانوا في حال يأْس وخوف، لكنهم عمَّهم عفو الله عزَّ وجلَّ. وقال ابن مسعود: إِنما طمع أَصحاب الأَعراف لأَن النور الذي كان في أَيديهم لم يُطفأْ حين يُطفأُ كل ما بأَيدي المنافقين.

والضمير في ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ عائد على أَصحاب الأَعراف، فهم يسَلِّمون على أَصحاب الجنة، وإِذا نظروا إِلى النار وأَهلها دعوا الله في التخليص منها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من العلماء. وقال أَبو مجلز: الضمير لأَهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد. وقوله تعالىٰ: [صُرِفَتْ] معطية ما هنالك من هول المطلع. وقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾ يريد من أَهل النار، ويحتمل أَن يكون هذا النداءُ وأَهل النار في

---

(١) وتكون على وزن كبرياء، وعليها جاء قول الشاعر:

غُلامٌ رماهُ اللهُ بالحُسْنِ إِذْ رَمَىٰ ... لهُ سِيمياء لا تشُقُّ عَلَى البَصَرْ



النار ، فتكون معرفتهم بعلامات مُعَرِّفة بأَنهم أُولئك الذين عرفوا في الدنيا. ويحتمل أَن يكون النداءُ وهو يُحملون إِلى النار ، فتكون السيما التي عرفوا بها أَنهم أَهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق. وقال أَبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار ، وقال غيره: بل الآدميون ينادون أَهل النار ، وقيل: إن ﴿مَآ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ استفهام بمعنىٰ التقرير والتوبيخ ، وقيل: ﴿وَمَا﴾ نافية ، والأَول أَصوب. و﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ لفظ يعم جميع الأَجناد والخول وجمع المال ، لأَن المراد بالرجال أَنهم جبارون ملوك يُقَرَّرون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي ، و﴿مَآ﴾ الثانية مصدرية. وقرأَت فرقة: [تَسۡتَكۡثِرُونَ] بالثاءِ مثلثة من الكثرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال أَبو مجلز: أَهل الأَعراف هم الملائكة وهم القائلون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ إِشارة إِلى أَهل الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك يجيءُ قول من قال: أَهل الأَعراف أَنبياءٌ وشهداءُ.

وقال غيره: أَهل الأَعراف بشر مذنبون ، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ من كلام ملَك بأَمر الله عزَّ وجلَّ إِشارة إِلى أَهل الأَعراف ومخاطبة لأَهل النار ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال النقاش: لمَّا وبَّخهم بقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أَقسم أَهل النار أَن أَهل الأَعراف داخلون النار معهم ، فنادتهم الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ ، ثم نادت أَصحاب الأَعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾. وقال بعض المتأَولين: الإِشارة بـ (هؤلاءِ) إِلى أَهل الجنة ، والمخاطبون هم أَهل الأَعراف ، والذين خوطبوا هم أَهل النار ، والمعنىٰ: أَهؤلاءِ الضعفاءُ في الدنيا الذين حلفتم أَن الله لا يعبأ بهم قيل لهم: ادخلوا



الجنة؟ وقد تقدم ما قال النقاش من أَن القَسَم هو في الآخرة على أَهل الأَعراف.

وقرأَ الحسن، وابن هرمز: [أَدخِلُوا الجَنَّة] بفتح الأَلف وكسر الخاءِ بمعنىٰ: أَدخِلوا أَنفسكم، أَو على أَن تكون مخاطبة للملائكة، ثم ترجع المخاطبة بعْدُ إِلى البشر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وقرأَ عكرمة مولىٰ ابن عباس: [دخلوا الجنة] على الإِخبار بفعل ماض. وقرأَ طلحة بن مصرف، وابن وثاب، والنَّخَعي: ﴿أُدْخِلُواْ الْجَنَّةَ﴾ خبر مبني للمفعول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وترتيب كل قراءَة من هذه على الأَقوال في المخاطِب والمخاطَب بقوله تعالىٰ: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ ممكن بِأَيْسَر تناول فاختصرته إِيجازاً، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إِلى مخاطبة غيره.

وقول تعالىٰ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ معناه: لا تخافون ما يأْتي ولا تحزنون على ما فات. وذكر الطبري من طرق حذيفة أَن أَهل الأَعراف يرغبون في الشفاعة فيأْتون آدم فيدفعهم إِلى نوح، ثم يتدافعهم الأَنبياءُ عليهم السلام حتى يأْتوا محمداً ﷺ لِيَشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمَّون مساكين الجنة(١). قال سالم مولى أَبي حذيفة: ليت أَني من أَهل الأَعراف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية. لفظة النداءِ تتضمن أَن أَهل النار وقع لهم علم بأَن أَهل الجنة يسمعون نداءَهم، وجائز أَن يكون ذلك وهم يرونهم بإِدراك يجعله الله لهم على بُعد السفل من العلوّ، وجائز أَن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر، ورُوي أَن ذلك النداءُ هو عند اطلاع أَهل الجنة عليهم، و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ﴾ مفسِّرة بمعنىٰ أَي: وفاض الماءُ إِذا سال وانماع، وأَفاضه غيره. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إِشارة إِلى الطعام، قاله السدي، فيقول لهم أَهل الجنة: إِن الله حرَّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَشنع على الكافرين في هذه المقالة أَن يكون بعضهم يرى بعضاً فإِنه أَخزى

---

(١) حديث حذيفة طويل ورواه الطبري كاملاً فارجع إِليه إِن شئت في تفسير الطبري. (٨ ـ ١٩٩، ٢٠٠).

وأنكىٰ للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تبارك وتعالىٰ. وذكر الزهراوي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة بالماءِ»(١) يعني عند الحاجة إليه إذ هو ألذ مشروب وأنعشها للنفس، واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له: أيَّ الأشربة تحب؟ فقال: أهونها موجوداً وأعزها مفقوداً. فقال مصعب: يا غلام، هات الماءَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ الآية، أُضيف الذين إليهم من حيث قبولهم أن يلتزموه، إذ هو دين الله من حيث أَمَرَ بِهِ، ودين جميع الناس من حيث أُمِرُوا به. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة، ويكون ابتداءُ كلام الله تعالىٰ من قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عزَّ وجلَّ، ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى، ويحتمل أن يكون اللفظ من الغرِّ وهو ملْءُ الفم(٢). أي: أشبعتهم وأبطرتهم.

وأما قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ فهو من إخبار الله عزَّ وجلَّ عما يفعل بهم، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاءِ هذا اليوم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من المفسرين. قال قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ عطف على ﴿ما﴾ من قوله: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾، ويحتمل أن تقدر [مَا] الثانية زائدة، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿كَانُواْ﴾ عطفاً على قوله: ﴿نَسُواْ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الآية، ذكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم، واللام في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ﴾ لام قَسَم، والضمير في ﴿جِئْنَاهُمْ﴾ لمن تقدم ذكره، وقال يحيىٰ بن سلام: تمَّ الكلام في ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وهذا الضمير لمكذبي

---

(١) لفظه في «الجامع الصغير»: «أفضل الصدقة سقي الماء»، رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه ـ ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) يقال: غرَّ الطائرُ فرخَه غرّاً وغِراراً: أطعمه بمنقاره. (المعجم الوسيط).



محمد ﷺ ابتداءُ كلام آخر ، والمراد بالكتاب القرآن العزيز .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله[1]:

ويحتمل أن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزَّلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿ جِئْنَٰهُم ﴾ لمن تقدم ذكره. وقرأ جمهور الناس: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ ﴾ من تفصيل الآيات وتبيينها ، وقرأ ابن محيصن: [فَضَّلْنَاهُ] بضادٍ منقوطة. و﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ معناه: عن بصيرة واستحقاق لذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ مصدران في موضع الحال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ يَنظُرُونَ ﴾ معناه: ينتظرون ، والتأويل ـ في هذا الموضع ـ بمعنى المآل والعاقبة ، قاله قتادة ، ومجاهد ، وغيرهما. وقال ابن عباس: ﴿ تَأْوِيلَهُۥ ﴾ : مآله يوم القيامة. وقال السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضاً ، والمراد: هل ينتظر هؤلاءِ الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه ، وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم ، فأخبر الله أن مآله يوم يأتي يقع منه ندمهم ، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان: لقد صدقت الرسل وجاؤُوا بالحق ، فالتأْويل ـ على هذا ـ مأخوذ من آل يؤول. وقال الخطابي: أَوَّلت الشيءَ: رددتُه إلى أوله ، فاللفظة مأخوذة من الأَول ، حكاه النقاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله[1]:

وقد قيل: أَوَّلت معناه: طلبت أَوّل الوجوه والمعاني.

و﴿ نَسُوهُ ﴾ في الآية ، يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ، ويُقِرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لامستعتب لهم فيه. وقرأت فرقة: [أَوْنَردُّ] برفع الفعل على تقدير: أو هل نرد ، وبنصب ﴿ فَنَعْمَلَ ﴾ في جواب هذا

الاستفهام الأخير، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ] بالرفع فيهما على عطف [نَعْمَلُ]، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو حيوة: [أَو نُرَدَّ فنعملَ]، ونصب [نردّ] في هذه القراءَة إما على العطف على قوله ﴿ فَيَشْفَعُواْ ﴾، وإما بما حكاه الفراءُ من أَنَّ ﴿أَوْ﴾ تكون بمعنىٰ (حتَّىٰ) كنحو قول امرىء القيس:

. . . . أَوْ نمـوتَ فَنُعْـذَرَا[1]

ويجيءُ المعنىٰ: إن الشفاعة تكون في أَن يُردُّوا. ثم أَخبر تعالىٰ عن خسارتهم أَنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأَصنام آلهة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الآية. خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرَّب أَصله في اللغة: المصلح من ربَّ يرُبُّ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تبارك وتعالىٰ المالك والسَّيد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال: الرَّبّ مُعَرَّفاً إلا لله، وإنما يقال في البشر بإضافة. وروىٰ بكار بن الشقير: [إِنَّ رَبَّكُمُ اللهَ] بنصب الهاءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أَنَّ اليوم كأَلف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواءٌ في قدرة الله تعالىٰ، وأَما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمه كسائر أَحوال الشرائع، وما ذهب إليه مَنْ أراد أَن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تَخَرُّصٌ. وجاءَ في التفسير وفي الأَحاديث أَن اللهَ ابتدأَ الخلق يوم الأَحد، وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تبارك وتعالىٰ في هذا كلام سوءٍ تعالىٰ الله عما يصفون[2].

---

(١) قصة الرحلة التي قام بها امرؤ القيس لاسترداد الملك والأَخذ بالثأر من قتلة أبيه معروفة، وقد رحل إلى قيصر ملك الروم للاستعانة به، وفي تصويره لهذا يقول:

بكَىٰ صاحبي لمَّا رأَى الدَّرْبَ دونَهُ ... وأَيْقَنَ أَنَّا لاحقَانِ بقَيْصَرا
فقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا ... نحاول مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

والفراءُ يرى أن (أَوْ) في قوله: «أو نموت فنعذرا» بمعنىٰ: «حَتَّىٰ». وصاحبه هو عمرو بن قُمَيْئة اليَشْكُري.

(٢) كلام ابن عطية هذا يوحي بأنه يحمل اليهود مسؤولية هذه الأَقاصيص والأخبار التي تنتشر في التفاسير عن موضوع راحة الله يوم السبت مثلاً، وأَنَّه لا يطمئن إلى هذه الأخبار.



ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج[١]، وفي كتاب «الدلائل» لثابت السرقسطي[٢] أن الله تعالىٰ خلق التربة يوم السبت، وذكره مكي في الهداية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ معناه عند أَبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين: الملك والسلطان، وخصَّ العرش بالذكر تشريفاً له إِذ هو أَعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فَعَل فعلاً في العرش سماه استواءً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعرش مخلوق معيَّن، جسم مّا، هذا الذي قررته الشريعة، وبلغني عن أَبي الفضل بن النحوي أَنه قال: العرش: مصدر عَرَش يعرش عرشاً، والمراد بقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا خروجٌ كبيرٌ عما فُهم من العرش في غير ما حديث عن النبي ﷺ. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُغۡشِي﴾ من أَغشىٰ، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر، وحمزة، والكسائي: [يُغَشِّي] بالتشديد من غشَّىٰ وهما طريقتان في تعدية غشىٰ إِلى مفعول ثان، وقرأَ حميد: [يَغْشَى] بفتح الياءِ والشين ونصب ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ورفع ﴿ٱلنَّهَارَ﴾، كذا قال أَبو الفتح، وقال أَبو عمرو الداني برفع [اللَّيْل] ونصب ﴿ٱلنَّهَارَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَبو الفتح أَثبت[٣].

---

(١) هو الإمام الأَشهر مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، الحافظ، المحدث، أشهر كتبه «صحيح مسلم» وهو أحد الصحيحيْن اللذيْن أجمعت الأمة عليها، وقد شرحه كثيرون، وله غيره «المسند الكبير»، و«الجامع» و«الطبقات» و«أوهام المحدثين» وغيرها، ولد في نيسابور وتوفي ودفن بها بعد أن طاف في البلاد العربية، والحديث الذي يشير إليه القرطبي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، والنسائي من غير وجه عن حجاج عن أبي جريج، وهو بطوله في «تفسير ابن كثير» ولكن فيه استيعاب الأَيام السبعة، والله تعالىٰ قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أَبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً، والله أعلم.

(٢) هو ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرّف السرقسطي، من حفاظ الحديث، أكمل كتاب «الدلائل» الذي كان ابنه القاسم قد بدأه، وهو في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث، توفي في سرقسطة وله من العمر نحو ٩٥ عاماً. (تذكرة الحفاظ ـ الأعلام).

(٣) علّق أبو حيان في «البحر المحيط» على رأي ابن عطية هذا بقوله: «وهذا الذي قاله من أن أبا الفتح أثبت=



و﴿حَثِيثًا﴾ معناه: سريعاً، و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ حال من ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بحسب اللفظ على قراءَة الجماعة، ومن ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بحسب المعنىٰ، وأَما على قراءَة حميد فمن ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ في الوجهين، ويحتمل أَن يكون حالاً منهما[١]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[٢]، فيصح أَن يكون [تَحْمِلُهُ] حالاً منها، وأَن يكون حالاً منه، وأَن يكون حالاً منهما، و﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ في موضع الحال، وقرأَ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ بالرفع في جميعها، ونصب الباقون هذه الحروف كلها، وقرأَ أَبان بن تغلب: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب، ﴿والنجومُ مسخرات﴾ بالرفع.

و﴿أَلَا﴾ استفتاح كلام فاستفتح بها في هذا الموضع. هذا الخبر الصادق المرشد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

وأَخذ المفسرون ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ بمعنى المخلوقات، أَي: هي له كلها وملكه واختراعه، وأَخذوا ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ مصدراً من أَمَرَ يأْمُر، وعلى هذا قال النقاش وغيره: إِنَّ الآية تردُّ على القائلين بخلق القرآن لأَنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الأَمر، إِذ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كلامه عزَّ وجلَّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه اللهُ:

ويحتمل أَن تؤخذ لفظة ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ على المصدر من خَلق يخلُق خلقاً، أَي: له هذه الصفة إِذ هو الموجد للأَشياءِ بعد العدم، ويؤخذ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ على أَنه واحد الأُمور إِلاَّ أَنه يدل على الجنسين فيكون بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٣]، وبمنزلة

= كلاماً لا يصح، إِذ رتبة أَبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياته واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءات فضلاً عن النحاة. هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظ من العربية، والذي نقله أَبو عمرو عن حميد أمكن من حيث المعنىٰ» ثم دلل على ذلك.

(١) يعني من (الليل) ومن (النهار) معاً.

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (مريم).

(٣) من الآية (١٢٣) من سورة (هود).



قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1] ، فإذا أُخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولما تقدم في الآية ﴿خَلَقَ﴾ و﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تأكد في آخرها أن له الخلق والأمر المصدرين حسب تقدمهما، وكيفما تأولت الآية فالجميع لله، وأسند الطبري إلى النبي ﷺ أنه قال: «من زعم أن الله تبارك وتعالىٰ جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر فقد كفر بما أنزل الله لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»[2]. قال النقاش: ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً في جميعها أنه مخلوق، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق. وقال الشعبي: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ عبارة عن الدنيا، و﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ عبارة عن الآخرة. و﴿تَبَارَكَ﴾ لا يتصرف في كلام العرب، لا يقال منه (يتبارك)، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلة ذلك أن (تبارك) لمّا يوصف بها غير الله تعالىٰ لم تقتض مستقبلاً، إذ الله قد تبارك في الأزل، وقد غلط بها أبو علي القالي فقيل له: كيف المستقبل من (تبارك)؟ فقال: (يتبارك)، فوقف على أن العرب لم تقله. والربُّ: السَّيِّد المصلح، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا أَمر بالدعاءِ وتعبُّد به، ثم قرن عزَّ وجلَّ بالأَمْر به صفات تَحْسُن معه[3].

---

(١) تكررت في الآيات (٢١٠) من سورة البقرة. والآية (١٠٩) من سورة (آل عمران)، والآية (٤٤) من سورة (الأنفال)، والآية (٧٦) من سورة (الحج)، الآية (٤) من سورة (فاطر)، والآية (٥) من سورة (الحديد).

(٢) أخرجه ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ وفي صدره زيادة ذكرها في (الدر المنثور) وهي أيضاً في تفسير ابن جرير، وهي: (من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه قلَّ شكره وحبط عمله. ومن زعم. . .) الخ. والحديث واهٍ.

(٣) وهي الخشوع والاستكانة والتَّضرُّع.



وقوله تعالىٰ: ﴿تَضَرُّعًا﴾ معناه: بخشوع واستكانة، والتَّضرُّع لفظة تقتضي الجهر لأَن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أَعضاء تقترن بالطلب. ﴿وَخُفْيَةً﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أَثنىٰ الله عزَّ وجلَّ على ذلك في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾(١) ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خَيْر الذِّكْر الخَفيُّ»(٢)، والشريعة مقررة أَن السرّ فيما لم يعترض من أَعمال البر أَعظم أَجراً من الجهر، وتأْول بعض العلماء التضرع والخفية في معنى السرّ جميعاً، فكأَن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنىٰ الحسن بن أَبي الحسن وقال: «لقد أَدركنا أَقواماً ما كان على الأَرض عملٌ يقدرون أَن يكون سرًّا فيكون جهراً أَبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاءِ فلا يُسمع لهم صوت، إنْ هو إِلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أَن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذكر عبداً صالحاً رضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾» وقال الزجاج: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ معناه: اعبدوا ربكم، ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أَي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب.

وقرأَ جميع السبعة: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاء، وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر ـ هنا وفي الأَنعام ـ: [وَخِفْيَةً] بكسرها، وهما لغتان، وقد قيل: إِن خِفية بكسر الخاءِ بمعنى الخوف والرهبة، ويظهر ذلك من كلام أَبي علي. وقرأَت فرقة: [وخيفَةً] من الخوف، أَي: ادعوه باستكانة وخوف، ذكرها ابن سيده في المحكم ولم ينسبها، وقال أَبو حاتم: قرأَها الأَعمش فيما زعموا.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يريد: في الدعاءِ إِن كان اللفظ عاماً، فإِلى هذا هي الإِشارة، والاعتداءُ في الدعاءِ على وجوه، منها الجهر الكثير والصياح كما قال رسول الله ﷺ لقوم ـ وقد رفعوا أَصواتهم بالتكبير ـ «أَيها الناس، اربعوا على أَنفسكم، إِنكم لا تدعون أَصمَّ ولا غائباً»(٣)، ومنها أَن يدعو الإنسان في أَن تكون له

---

(١) من الآية (٣) من سورة (مريم).

(٢) رواه في الجامع الصغير: (خَيْرُ الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي)، وقال: «رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعب الإيمان». ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٣) الحديث في الصحيحين ـ عن أبي موسىٰ الأشعري. وفي آخره (إن الذي تدعون سميع قريب) ـ (ذكره ابن كثير).



منزلة نبي، أَو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط، ومنها أَن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك، وفي هذه الأَمثلة كفاية. وقرأ ابن أَبي عبلة: [إن الله لا يحب المعتدين]، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «سيكون أَقوام يعتدون في الدعاءِ، وحسب المرءِ أَن يقول: اللَّهم إِني أَسأَلك الجنة وما قرَّب إِليها من قول وعمل، وأَعوذ بك من النار وما قرَّب إِليها من قول وعمل»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. أَلفاظ عامة تتضمن كل إِفساد قلَّ أَو كثر بعد إِصلاح قلَّ أَو كثر. والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيءٍ دون شيءٍ في هذا تحَكم إِلا أَن يقال على وجهة المثال. قال الضحاك: معناه: لا تُعَوِّرُوا[٢] الماءَ المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأَرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأَرض، وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في الأَرض بعد أَن أَصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملَّة محمد ﷺ، وقائل هذه المقالة قصد إِلى أَكبر فساد بعد أَعظم صلاح فخصه بالذكر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ﴾ أَمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزنٍ[٣] وتأميل لله عزَّ وجلَّ حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، وإِن انفرد أَحدهما هلك الإنسان، وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أَن يغلب الخوف الرجاءَ طول الحياة فإِذا جاءَ الموت غلب الرجاء، وقد رأَى كثير من

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه أبو داود ـ عن سعد، ورواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مغفل ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ، وفي رواية أحمد عن سعد أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون...) الخ الحديث. ذكر ذلك ابن كثير، ورمز له في الجامع الصغير بالصحة.

(٢) هو من قولهم: عورت عيونَ الماء إذا دفَنْتها وسَدَدتْها ـ قاله شمّر كما في (اللسان). وقال أيضاً: «وفي حديث علي: أمره أن يُعَوِّرَ آبار بدر، أي يدفنها ويَطُمَّها». ويمكن أن يكون بالغين المعجمة من (أَغْوَرَ) بهمزة التعدية. (اللسان).

(٣) يقال: تحزَّن عليه وله بمعنى تَوجَّع. (المعجم الوسيط). وفي نسخة: «ترقب وتخوف وتأميل» ـ وهي عبارة القرطبي.



العلماءِ أَن يكون الخوف أَغلب على المرء بكثير، وهذا كله احتياط، ومنه تمني الحسن البصري أَن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة، وتمني سالم مولى أَبي حذيفة أَن يكون من أَصحاب الأَعراف لأَن مذهبه أَنهم مذنبون.

ثم آنس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فإِنها آية وعْد فيها تقييد بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. واختلف الناس في وجه حذف التاءِ من ﴿قَرِيبٌ﴾ في صفة الرحمة على أَقوال ـ منها أَنه على جهة النسب، أَي: ذات قرب. ومنها أَنه لما كان تأْنيثها غير حقيقي جرت مجرىٰ: كفٌ خضيب، ولِحْيةٌ دهين. ومنها أَنها بمعنى مذكَّر فذُكرَ الوصفُ لذلك. واختلف أَهل هذا القول في تقدير المذكَّر الذي هو بدل منه ـ فقالت فرقة: الغفران والعفو. وقالت فرقة: المطر، وقيل غير ذلك. وقال الفراءُ: «لفظة القريب إِذا استعملت في النَّسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاءٍ ولا بُدّ، وإِذا استعملت في قرب المسافة»[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: أَو الزمن[٢] ـ فقد تجيءُ مع المؤنث بتاءٍ، وقد تجيءُ بغير تاءٍ، وهذا منه، ومن هذا قول الشاعر:

عَشِيَّـةَ لا عَفْـرَاءَ مِنْـكَ قَـرِيبَـةٌ فَتـدنـو ولا عَفْـراءَ منْـكَ بعيـدُ[٣]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فجمع في هذا البيت بين الوجهين».

هذا قول الفراءِ في كتابه، وقد مرَّ في بعض كتب المفسِّرين مقَيَّداً[٤]، وردَّ الزجاج

---

(١) العبارة كما هي في المتن مبتورة، والصواب أن يقال «.... وإذا استعملت في قرب المسافة تذكر وتؤنث» انظر لسان العرب، مادة: ق.ر.ب.

(٢) يعني أن ابن عطية يضيف إِلى كلام الفراء عن ﴿قَرِيبٌ﴾ إذا استعملت في قرب المسافة ـ يضيف أيضاً: قرب الزمن.

(٣) رواية اللسان (ولم ينسبه):

لَيَـالِـيَ لا عَفْـراءُ منْـكَ بعيـدةٌ فَتَسْلَـى، ولا عَفْـرَاءُ منْـكَ قَـرَيـبُ

ورأيُ الفراءِ هذا نقله الجوهري، وذكر غيره أنه استشهد أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

وقيل أيضاً: هذا هو كلام العرب، قال امرؤ القيس:

لَـهُ الـوَيْـلُ أَمْسَـى ولا أُمَّ هـاشـم قـريـبٌ ولا البَسْبـاسَـةُ ابنَـةُ يَشْكُـرَا

(٤) كلمة (مقيَّداً) هنا قلقة، والصواب ما جاء في عبارة «البحر المحيط» (مُغَيَّرًا) بمعنى أنه مرَّ في بعض التفاسير مُغَيَّراً.

على هذا القول[١]. وقال أبو عبيدة: ﴿قَرِيبٌ﴾ في الآية ليس بصفة للرَّحمة، وإنما هو ظرف لها وموضع، فيجيءُ هكذا في المؤنث والاثنين والجمع، وكذلك (بعيد)، فإذا جعلوها صفة بمعنى (مُقَرَّبة) قالوا: قريبة وقريبتان وقريبات[٢]. وذكر الطبري أن قوله تعالىٰ: ﴿قَرِيبٌ﴾ إنما يراد به مقاربة الأرواح للأجساد، أي: عند ذلك تنالهم الرحمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه آية اعتبار واستدلال، وقرأ نافع، وأبو عمرو ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع [نُشُراً] بضم النون والشين، قال أبو حاتم: وهي قراءَة الحسن، وأبي عبد الرحمن، وأبي رجاءٍ. واختلف عنهم الأعرج، وأبو جعفر، وعيسى بن عمر، وأبو يحيىٰ، وأبو نوفل الأعرابيين. وقرأ ابن كثير: [الرّيحَ] واحدة [نُشُرا] بضمهما أيضاً. وقرأ ابن عامر: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جمعاً [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: ورويت عن الحسن، وأبي عبد الرحمن، وأبي رجاءٍ، وقتادة، وأبي عمرو. وقرأ حمزة، والكسائي: [الريحَ] واحدة [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: وهي قراءَة ابن مسعود، وابن عباس، وزرُّ بن حبيش، وابن وثاب، وإبراهيم، وطلحة، والأعمش، ومسروق بن الأجدع. وقرأ ابن جني قراءَة مسروق: [نَشَراً] بفتح النون والشين. وقرأ عاصم: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جماعة ﴿بُشْرًا﴾ بالباءِ المضمومة والشين الساكنة، وروي عنه: [بُشُراً] بضم الباءِ والشين، وقرأ بها ابن عباس، والسلمي، وابن أبي

---

(١) قال الزجاج ردّاً على الفراءِ: هذا خطأ، لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما. «عن القرطبي والبحر»، ونلاحظ أن الزجاج لم يذكر حجة وإنَّما يريد إجراءَ القاعدة على أصولها. وقال الأخفش: يجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث، وأنشد:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... ولا أرض أبْقَلَ إبْقَالَهَا

(٢) قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان ﴿قَرِيبٌ﴾ منصوباً. ورد عليه أبو حيان في «البحر» بأنه يكمن الاتساع في الظرف.

عبلة. وقرأ محمد بن السميفع، وأبو قُطَيب: [بُشْرَىٰ] على وزن فُعْلَىٰ بضم الباءِ، ورويت عن أبي يحيىٰ: وابن نوفل. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين. قال الزهراوي: ورويت هذه عن عاصم.

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أن (الرياح) حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾(١)، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾(٣)، وأكثر ذكر (الريح) مفرده إنما هو بقرينة عذاب كقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾(٤) وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٥)، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾(٦) نحا هذا المنحىٰ يحيى بن يَعْمر، وأبو عمرو بن العلاءِ، وعاصم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الرِّيح يقول: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»(٧).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى في هذا كله بيِّن، وذلك أن ريح السُّقْيا والمطر إنما هي منتشرة ليِّنة تجيءُ من ها هنا ومن ها هنا وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها: رياح، وتوصف بالكثرة، وأمَّا ريح الصرِّ والعذاب فهي عاصفة صَرْصَر جسد واحد، شديدة المَرّ، مُهْلِكَة بقوتها وبما تحمله أَحياناً من الصرّ المحرق، فيَحْسُنُ من حيث هي شديدة الاتصال أن تُسمى ريحاً مفردة، وكذلك

(١) من الآية (٤٦) من سورة (الروم).
(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر).
(٣) من الآية (٤٨) من سورة (الروم).
(٤) الآية (٤١) من سورة (الذَّاريات).
(٥) الآية (٦) من سورة (الحاقة).
(٦) من الآية (٢٤ ـ ٢٥) من سورة (الأَحقاف).
(٧) قارن هذا بما رواه الإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تبارك وتعالىٰ: وسَلُوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»، لتعلم أن الفكرة ليست قاعدة، وإنما لكل حديث أسبابه وظروفه. والحديث الذي ذكره ابن عطية ضعيف.

أُفردت الريح في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[(١)] من حيث جري السفن إنما تجري بريح متصلة كأنها شيءٌ واحد فأُفردت لذلك، ووصفت بالطيب لإزالة الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ريحُ سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأَمره أَو تعصف في قفوله وهي متصلة[(٢)]. وبعد، فمن قرأَ هذه الآية: [الرِّيحَ] بالإفراد فإنما يريد به اسم الجنس، وأَيضاً فتقييدها بـ ﴿بُشْرًا﴾ يزيل الاشتراك.

والإرسال في الريح هو بمعنىٰ الإجراءِ والإطلاق والإسالة، ومنه الحديث: (فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)[(٣)]. والريح تجمع في القليل: أَرواح، وفي الكثير: رياح، لأَن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياءً للكسر الذي قبلها، وكذلك في الجمع الكثير، وصحت في القليل لأَنه لا شيءَ فيه يوجب الإعلال.

وأَما [نُشُراً] بضم النون والشين فيحتمل أَن يكون جمع ناشر على النسب، أَي ذات نشر من الطي، أَو نشور من الحياة، ويحتمل [نُشُراً] أن يكون جمع نشور بفتح النون وضم الشين كرسول ورُسل، وصبور وصُبر، وشكور وشُكر، ويحتمل [نُشُراً] أَن يكون كالمفعول بمعنى منشور، كركوب بمعنى مركوب، ويحتمل أَن يكون من أَبنية اسم الفاعل لأَنها تنشر السحاب، وأَما مثال الأَول في قولنا: ناشر ونُشُر فشاهد وشُهُد ونازل ونُزُل، كما قال الشاعر:

. . . . أَوْ تَنْـزِلـونَ فَـإِنَّـا مَعْشَـرٌ نُـزُلُ[(٤)]

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (يونس).

(٢) ريح سليمان عليه السلام هي التي قال الله تعالىٰ فيها في الآية (٣٦) من سورة (ص): ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وإذاً فلكل تعبير دواعيه.

(٣) الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ورواه الإمام أحمد في أماكن كثيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما جاء في مسند الإمام أحمد (١ـ٢٨٨): (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، قال: فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة).

(٤) البيت للأعشىٰ من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرتَحِـلُ وَهَـلْ تُطِيـقُ وَداعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟

وهو بتمامه:

=



وَقَاتِلٌ وقُتْلٌ، ومنه قول الأعشى:

. . . . إِنَّـا لِأَمثَـالِكُـمْ يـاقَـوْمَنَـا قُتُـل[١]

وأَمَّا من قرأَ: [نُشْراً] بضم النون وسكون الشين فإنما خفف الشين من قوله: نُشُراً، ومن قرَأَ: [نَشْراً] بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر في موضع الحال من الريح، ويحتمل في المعنى أن يراد به النشر الذي هو خلاف الطيّ، وكل بقاءِ الريح بدون هبوب طيّ، ويحتمل أَن يكون من النَّشْر الذي هو الإِحياءُ كما قال الأعشي:

. . . . يَـا عَجَبَـا لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ[٢]

وأَما من قرأَ: [نَشَراً] بفتح النون والشين ـ وهي قراءَة شاذة ـ فهو اسمٌ وهو على النسب، قال أَبو الفتح: أَي ذوات نَشَر، والنَّشَر: أَن تنتشر الغنم بالليل فترعىٰ، فشبه السحاب في انتشاره وعمومه بذلك.

وأَمَّا: [بُشُراً] بضم الباءِ والشين فجمع بشير، كَنَذِير ونُذُر، و﴿ بُشْرًا ﴾ بسكون الشين مخفف منه، و[بَشْراً] بفتح الباءِ وسكون الشين مصدر، و[بُشْري] مصدرٌ أَيضاً في موضع الحال. والرحمة في هذه الآية: المطر، و﴿ بَيْنَ يَدَىْ ﴾ أَي أَمام رحمته وقُدّامها، وهي هنا استعارة، وهي حقيقة فيما بين يدي الإِنسان من الأَجرام.

و﴿ أَقَلَّتْ ﴾ معناه: رفعت من الأَرض واسْتَقَلَّت بها، ومنه القِلَّة، وكأَن المُقِلَّ يرى ما يرفع قليلاً إِذا قدر عليه، و﴿ ثِقَالًا ﴾ معناه: من الماءِ، والعرب تصف السحاب بالثِّقل والدَّلْح، ومنه قوله قيس بن الخطيم:

بِـأَحْسَـنَ مِنهَـا وَلا مُـزْنَـة دَلُـوح تكَشَّـفُ أَدْجَـانُهَـا[٣]

= قـالـوا الـركُـوبَ فَقُلْنَـا تِلْـكَ عَـادتُنَـا أَوْ تَنْـزلُـونَ فَـإِنَّـا مَعْشَـرٌ نُـزُلُ

(١) البيت من نفس القصيدة التي منها الشاهد السابق، وهو بتمامه:

كَـلا، زَعَمْتُـمْ بِـأَنَّـا لا نُقَـاتِلُكُـمْ إِنَّـا لأَمْثَـالِكُـمْ يَـا قَـوْمَنـا قُتُـلُ

(٢) هذا عجز بيت وصدره:

حَتَّـى يَقُـولُ النَّـاسُ مِمَّـا رَأوا . . . .

وهو من قصيدة للأعشى يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما.

(٣) يقال: دَلَح دلْحاً إِذا مشى بِحِمْله غير منبسط الخطو لِثِقَله، وَدَلَحَت السحابة إذا أبطأت في مسيرها من كثرة الماء، وفي الحديث: (كان النساءُ يدْلَحْنَ بالقِرَب على ظهورهن في الغزو)، فمعنى قوله: مُزْنة دَلُوح أي: مثقلة بالماءِ لكثرته فيها، والأَدْجَان: جمع دجْن، وهو أن يلبس الغيمُ الأَرض وأَقطارَ=

والرِّيح تسوق السحاب من ورائها فهو سوق حقيقة، والضمير في ﴿سُقْنَٰهُ﴾ عائد على السحاب، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله تعالىٰ من حيث هو إنعام. وصفة البلد بالموت استعارة بسبب شعثه وجدوبته وتصويح نباته. وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، والأَعمش: [لِبَلَدٍ مَيْتٍ] بسكون الياءِ، وشدها الباقون. والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ يحتمل أَن يعود على السحاب أَي منه، ويحتمل أَن يعود على البلد، ويحتمل أَن يعود على الماءِ وهو أَظهرها.

وقال السدي: في تفسير هذه الآية: إن الله تعالىٰ يرسل الرياح فتأْتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماءِ والأَرض حيث يلتقيان فتخْرجه من ثَمَّ، ثُمَّ تنشره فتبسطه في السماءِ، ثم تفتح أَبواب السماءِ فيسيل الماءُ على السحاب، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يحتمل مقصدين: أَحدهما أَن يراد: كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماءِ وإِخراج الثمرات به من الأَرض المجدبة هي القدرة على إِحياءِ الموتى من الأَجداث، وهذا مثالٌ لها. ويحتمل أَن يراد أَن هكذا يصنع بالأَموات من نزول المطر عليهم حتى يَحْيَوْا به، فيكون الكلام خبراً لا مثلاً، وهذا التأْويل إنما يستند إِلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه (أَن الناس إِذا ماتوا في النفخة الأَولى مُطِر عليهم مَطَرٌ من ماءٍ تحت العرش يقال له: ماءُ الحيوان ـ أَربعين سنة، فينبتون كما ينبت الزرع، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم تلقىٰ عليهم نومة فينامون، فإذا نفخ في الصور ثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

= السماءِ. وقَيْسُ بنُ الخطيم شاعر مُكثر مُجيد حسن الديباجة، وهو أشعر أهل المدينة في الجاهلية، عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فلم يسلم وأسلمت امرأته حواءُ بنت يزيد، وأغراض شعره الفخر والحماسة والغزل وشيءٌ من الوصف فيه صور بدوية وصور حضرية. وقد قتل قيس بن الخطيم كما حكىٰ ذلك صاحب الأغاني: (٣ ـ ١٠). وكان مقتله قبل الهجرة.

(١) هذا الحديث رواه ابن جرير عن أَبي هريرة، ولكن أكثر المفسرين نقلوا قول ابن عباس رضي الله عنهما=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ آية مُتَمِّمَة للمعنى الأول في الآية قبلها، مُعرِّفة بعادة الله تبارك وتعالىٰ في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثالاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد به ذلك، والتمثيل بذلك حكاه الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقال النحاس: هو مثال للفهيم وللبليد. والطيِّب هو الجيِّد التراب الكريم الأرض، وخص بإذن ربِّه مدحاً وتشريفاً، وهذا كما تقول لمن تغض عنه: «أنت كما شاءَ الله»، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم، ومن هذا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] على بعض التأويلات. والخبيث هو السباخ ونحوها من رديءِ الأرض. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر: [يُخْرِجُ نَبَاتَهُ] بضم الياءِ وكسر الراءِ ونصب التاءِ. والنَّكِدُ: العسير القليل، ومنه قول الشاعر:

لا تُنْجِزُ الـوَعْـدَ إنْ وعَـدْتَ وإنْ أَعْطَيْـتَ أَعْطَيْـتَ تَـافِهـاً نَكِـداً[2]

ونكد الرجل إذا سأل إلحافاً وأخجل، ومنه قول الشاعر:

وأَعْـطِ مـا أَعْطَيْتَـهُ طَيِّبـا لا خَيْـرَ فـي المنْكُـودِ والنَّـاكِـد[3]

وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة: ﴿نَكِدًا﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف: [نَكْدا] بتخفيف الكاف وفتح النون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:

= في الآية وهو: «هذا مثل ضَرَبَه الله للمؤمن والكافر» وَرَوَوْا في ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسىٰ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل ما بعثني الله به من العلم والهُدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشْب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به). والآية رقم (٥٢) من سورة (يس).

(١) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة).

(٢) النَّكِد: العطاءُ القليل، ونكِد عيشهم بكسر الكاف ينكد نكداً: اشتد، نكد الرجل: قلَّل العطاءَ أو لم يعط البتة. (اللسان).

(٣) البيت في اللسان غير منسوب ـ قال: والنُّكد والنَّكْد (بضم النون وفتحها): قلَّة العطاءِ وأن لا يهنأه من يُعطاهُ، ونَكَدَه مما سأله يَنْكُده نكدا: لم يُعْطه منه إلا أقَلَّهُ، أنشد ابن الأعرابي:

مِـنَ البيـض تُـرغينا سُقَـاط حَـديثِهَـا وَتَنْكُـدُنَـا لَهْـوَ الْحَـديـثِ المُمَنَّـع

تُرْغينا: تُعطينا منه ما ليس بصريح.

[نَكَداً] بفتح النون والكاف، وقال الزجاج: وهي قراءَة أَهل المدينة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أَي: هكذا نبين الأمور. و﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون بآلاء الله ويُثْنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

اللام لام القسم، قال الطبري: أَقسم الله تبارك وتعالىٰ أنه أَرسل نوحاً. وقالت فرقة مِنَ المفسرين: سمِّي نوحاً لأَنه كان ينوح على نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

قال سيبويه: نوح ولوط وهود أَسماءٌ أَعجمية إِلا أَنها حقيقة فلذلك صرفت. وهذهِ نِذَارة من نوح لقومه، دعاهم إِلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة: وَدّاً وسواعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر. وقرأَ الكسائي وحده [غيْرِه] بالكسر من الراءِ على النعت لِـ[إِلَٰهٍ]، وهي قراءَة يحيى بن وثاب، والأَعمش، وأَبي جعفر، وقرأَ الباقون: [غيْرُهُ] بالرفع، وقرأَ حمزة والكسائي: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾(١) خفضاً، وقرأَ الباقون: [غَيْرُ اللهِ] رفعاً، والرفع في قراءَة الجماعة هنا على البدل من قوله من [إِلَٰهٍ]، لأَن موضع قوله: مِنْ ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ رفع، وهو الذي رجح الفارسيُّ. ويجوز أَن يكون نعتاً على الموضع لأَن التقدير: مالكم إِله غيره، أَو يقدر (غيْر) بـ (إِلاَّ) فيعرب بإِعراب ما يقع بعد (إِلاَّ)، وقرأَ عيسى بن عمر: [غيرَه] بنصب الراءِ على الاستثناءِ قال أَبو حاتم: وذلك ضعيف من أَجل النفي المتقدم. وقوله تعالىٰ: ﴿عَذَابَ﴾ يحتمل أَن يريد به عذاب الدنيا، ويحتمل أَن يريد به عذاب الآخرة.

---

(١) من الآية (٣) من سورة (فاطر).



و﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾ الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم، وحكاه النقاش عن ثعلب في: الملأ، والرَّهْط، والنَّفَر، والقوم. وقيل: هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أَمْر تَمَّ، وقال سلَمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند قفول رسول الله ﷺ من غزوة بدر: «إنما قتلنا عجائز صُلْعاً»، فقال له النبي ﷺ: «أُولئك المَلأُ من قريش لو حَضرتَ أَفعالهم لاحتقرت فِعْلَك»[1]. والمَلأُ، صفة غالبة وجمعه أَملاءٌ، وليس من باب (رهْط) وإن كانا اسمين للجمع، لأَن (رهْط) لا واحد له من لفظه، و(ملأ) يوجد من لفظه (مالىء). قال أَحمد بن يحيىٰ: المالىء: الرجل الجليل الذي يملأُ العيْن بِجُهْرَتِه[2]، فيجيءُ كعازب وخادم ورائح فإِن أَسماءَ جموعها: عَزَبٌ وخَدَمٌ ورَوَحٌ، وإِن كانت اللفظة من «تَمَالأَ القوم على كذا» فهي مفارقة باب (رهْط)، ومنه قول علي رضي الله عنه: «ما قتلت عثمان ولا مالأْتُ في دمه»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (المَلؤُ) بواو، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقولهم: ﴿ لَنَرَىٰكَ ﴾ يحتمل أَن يُجعل من رؤْية البصر، ويحتمل من رؤْية القلب وهو الأَظهر، و﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي في إِتلاف وجهالة بما تسلك. وقوله لهم جواباً عن هذا: ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ مبالغة في حُسْن الأَدب والإِعراض عن الجفاءِ منهم، وتَناوُلٌ رفيق وسَعَة صدر حسبما يقتضيه خلق النُّبُوَّة، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ ﴾ تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونُقَدِّر ـ ولابدَّ ـ أَن نوحاً عليه السلام وكل نبي مبعوث إِلى الخلق كانت له معجزة تخرج العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يُعرف.

وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بشد اللام وفتح الباءِ، وقرأَ أَبو عمرو بسكون الباءِ وتخفيف اللام. وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وإِن كان لفظاً عامّاً في كل مَا عَلِمَه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمعوا قَطُّ بأُمة عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد.

---

(١) الحديث لا إسناد له.

(٢) من قولهم: جَهَرَ الشيءُ فلاناً: عظم في عينه وراعَه جمالُه وهيئتُه، وفي حديث علي رضي الله عنه في صفته ﷺ: (لم يكن قصيراً ولا طويلاً، وهو إلى الطول أقرب، من رآه جَهَرَهُ). «المعجم الوسيط».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنىٰ التقرير والتوبيخ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، وهذا هو الظاهر من قصتهم، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ﴾ قيل: هي بمعنىٰ (مع)، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المجيءُ بنفسه في هذا الموضع يصل بـ (عَلَى) إذ كل ما يأتي من الله تبارك وتعالىٰ فله حكم النزول، فكأَن ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناه: نزل، فحسُن معه أَن يقال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾، واللام في ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لام كي، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ترجٍّ بحسب حال نوح ومعتقده، لأَن هذا الخبر إِنما هو من تلقاءِ نوح عليه السلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. أَخبر الله عنهم أَنهم بعد تَلَطُّفه بهم كذبوه فأَنجاه الله والمؤمنين به في السفينة، وهي الفُلْك، والفُلْكُ للجمع والمفرد، وليس على حد جُنُب ونحوه، لكن[1] فُلْك للواحد كُسِّر علىٰ فُلْك للجميع، فضمةُ الفاءِ في الواحد ليست هي في الجمع، وفُعْل بناءُ تكسير مثل: أَسَد وأُسد، ويدل على ذلك قولهم في التثنية: فُلْكَان[2].

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أَربعون رجلاً، وقيل: ثمانون، وقيل: عشرة، فهم أَولاده: يافث وسام وحام، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي

(١) لعلَّ الصواب (لأَن) بدلاً من (لكِن) فتأمل المعنىٰ.

(٢) جاء في (اللسان): «الفُلْك بالضم: السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فإن شئت جعلته من باب جُنُب، وإن شئت من باب دِلاصٍ وهِجانٍ، وهذا الوجه الأَخير هو مذهب سيبويه أَعني أَن تكون ضمة الفاءِ من الواحد بمنزلة ضمة باءِ بُرْد وخاءِ خُرْج، وضمة الفاءِ في الجمع بمنزلة ضمة حاءِ حُمْر وصاد صُفْر جمع أحمر وأَصفر»، ثم نقل عن الجوهري قوله: و«إنَّ فُعْلاً وفَعَلاً يشتركان في الشيء الواحد مثل العُرْب والعَرَب والعُجْم والعَجَم، ثم جاز أَن يجمع فَعَل على فُعْل أَسَد وأُسْد، ولم يمتنع أَن يُجْمع فُعْل على فُعْل».



وغيره: «إن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام»، وقال الزهري في كتاب النقاش: وفي القرآن: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾(1).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين ـ حسب الخلاف ـ حَفَدة لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل ـ وقد روي ذلك ـ وإلاّ لكان بين الحديث والآية تعارض.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات، وقوله: ﴿عَمِينَ﴾ وزنه فعين وهو جمع عَم وزنه فَعٍ، ويريد عمى البصائر، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نوحاً عليه السلام بعث ابن أربعين سنة، قال ابن الكلبي: بعد آدم بثمانمائة سنة، وجاءَ بتحريم البنات والأخوات والأُمهات والخالات والعمات وقال وهب بن مُنَبِّه: بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة، وقيل: بعث ابن ثلاثمائة سنة، وقيل: ابن خمسين سنة، ورُوي أنه عمّر بعد الغرق ستّين سنة، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة سنة من عمره ﷺ، أتى في حديث الشفاعة وغيره أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه، وذلك يجتمع أن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿عَادٍ﴾ اسم الحيّ، و﴿أَخَاهُمْ﴾ نصب بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فهو معطوف على (نوح). وهذه أيضاً نِذَارةٌ من هود عليه السلام لقومه، وتقدم الخلاف في قراءَة ﴿غَيْرُهُ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان.

(1) من الآية (٣) من سورة (الإسراء).



وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الآية تقدم القول في مثل هذه المقالة آنفاً، والسفاهة: مصدر عبّر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسَّفَهُ في الثوب خِفَّة نسجه، ومنه قول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّتْ رِماحٌ تَسَفَّهَتْ أَعاليها مرُّ الرِّياح النَّواسِم[1]

وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظن على بابه لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص، وتقدم الخلاف في قراءَة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد: على الوحي والذكر النازل من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يريد أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: «فلانٌ لِفُلانٍ ناصح الجيب[2] أمين الغيب»، ويحتمل أن يريد به: أمين من الأَمن، أي: جهتي ذات أَمْن من الكذب والغِش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قد تقدم القول في مثل ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾. والذكر: لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ الآية، تعديد للنعم عليهم. و﴿خُلَفَآءَ﴾ جمع خليف، كظريف وظرفاءَ، وخليفة جمعه خلائف، والعرب تقول: خليفة وخليف، وأنشد أَبو علي:

فَـإِنْ يَـزُلْ زائِـلٌ يُـوجَـدْ خليفَتُـهُ وَمَا خَليفُ أَبي وَهْبٍ بمَوْجود[3]

---

(١) سبق لابن عطية رحمه الله أن استشهد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، وعند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾. والبيت لذي الرمة، وأصل السفه: الخفة، وتسفَّهت الريح الغصون: حركتها واستخفتها.

(٢) يقال: ناصِحُ الجيْبِ بمعنى: نقي القَلْبِ لا غِشَّ فيه (المعجم الوسيط).

(٣) البيت لأوس بن حجر، وقد أنشده أبو حاتم في مقام ما ذكره من أن خلائف تأتي على لفظ خليفة، وقالوا: إن فَعيلة (خَليفة) لا تجمع على فُعَلاء (خُلَفاء) فجمعها فَعَائل (خَلائف)، ولفظ البيت في اللسان:

إنَّ مِـنَ الحَـيِّ مَـوْجُـوداً خَلِيفَتُـهُ وما خَلِيـفُ أَبـي وَهْـبٍ بِمَـوْجُـودِ

قال السُّدي وابن إسحق: والمعنىٰ: جعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي في الْخِلْقة، والْبَصْطة: الكمال في الطول والعرض، وقيل: زادكم على أهل عصركم، قال الطبري: المعنى: زادكم على قوم نوح، وقاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم، وروىٰ أن طول الرجل منهم كان مائة ذراع، وطول أقصرهم ستين، ونحو هذا.

والآلاءُ: جمع إلى على مثال مِعًى، وأنشد الزجاج:

أَبْيَضُ لا يَرْهَبُ الْهُزالَ ولا ... يَقْطَعُ رِحْماً ولا يَخُون إلَىٰ[1]

وقيل: واحد الآلاءِ أَلىً على مثال: قَفىً، وقيل: واحدها: أَلَىٰ على مثال: حَسَا وهي النعمة والمِنَّةُ. و﴿تُفْلِحُونَ﴾ معناه: تدركون البُغية والآمال.

قال الطبري: وعادٌ هؤلاءِ فيما حدّث ابن إسحق من ولد عاد ابن إرم بن عَوص بن سام بن نوح، وكانت مساكنهم الشِّحْر[2] من أرض اليمن وما إلى حضرموت إلى عُمان. وقال السُّدّي: وكانوا بالأحقاف وهي الرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردَّها الله صحارىٰ، وقال علي بن أبي طالب: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كثيب أحمر يخالطه مَدَرة ذاتُ أَراك وسِدْر[3]، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أصحاب أَوثان منها ما يسمىٰ صداءُ، ومنها صمودا، ومنها الهبا[4]، فبعث الله إليهم هوداً من

---

(١) البيت للأعشى كما قال في (اللسان). ، فيه: «الآلاءُ: النِّعَم واحدها الىً بالفَتح، وإِلْيٌ وإِلىً، قال الجوهري: قد تكسر وتكتب بالياءِ مِعىً وأمعاء». «وقال ابن سيده في هذا البيت: يجوز أن يكون (إِلَى) هنا واحد آلاءِ». أ هـ ـ عن اللسان ـ.

(٢) بكسر الشين المشددة وسكون الحاءِ: ساحل اليمن ممتداً إلى حضرموت.

(٣) المَدَرَة بفتحات: واحدة الْمَدر وهو الطيِّن اللَّزج المتماسك ـ والأَراك واحدتُه أَراكة: نبات شجيريٌّ من الفصيلة الأَراكية كثير الفروع، خوّار العود، متقابل الأوراق، له ثمار حمر دكناء تؤكل، ينبت في البلاد الحارة، والسِّدر: شجر النبق واحدته سِدْرة. عن (المعجم الوسيط).

(٤) هكذا في الأصول، ولكن في القرطبي والبحر: الهياءُ بالياءِ وهمزة بعد الألف.

أَفضلهم وأَوسطهم نسباً فدعاهم إِلى توحيد الله وإِلى ترك الظلم. قال ابن إِسحق: لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعَتَوا، واستمر ذلك منهم إِلى أَن أَراد الله إِنفاذ أَمره، فأَمسك عنهم المطر ثلاث سنين فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إِذا هَمَّهم أَمْرٌ فزعوا إِلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له، مؤمنهم وكافرهم، وأَهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمىٰ معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إِلى مكة يستسقون الله لهم، فبعثوا قَيْل بن عَيْر، ولقيم بن هزال، وعقيل بن أُدّ بن عاد الأَكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان هذا مؤمناً يكتم إِيمانه، وجُلْهمة بن الخيبري؛ في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأَنزلهم، وأَقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية ـ فلما رأَى معاوية طول إِقامتهم، وقد بعثهم عادٌ للغوث؛ أَشفق على عادٍ، وكان ابن أُختهم كلهدة بنت الخيبري جُلْهمة، وقال هلك أَخوالي، وشقَّ عليه أَن يأمر أَضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إِلى القيْنَتيْن، فقالتا له: اصنع شعراً نغني به عسىٰ أن نُنَبِّههم، فقال:

أَلاَ يـا قَيْـلُ وَيْحَـكَ قُـمْ فَهَيْنِـمْ ... لَعَـلَّ اللهَ يُسْقِينَـا غمـامَـا
فَيَسْقِـي أَرْضَ عـاد إِنَّ عَـاداً ... قَـدَ أمْسُـوا لا يُبِينـونَ الكـلامَـا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْس نَرْجُو ... بِـهِ الشَّيْـخَ الكَبِيـرَ ولا الغُـلامَـا
وقَـدْ كَـانَـتْ نِسَـاؤُهُـمُ بِخَيْـرٍ ... فَقَـدْ أَمْسَـتْ نِسَـاؤُهُـم عيـامَـىٰ
وَإِنَّ الْـوَحْـشَ يَـأْتِيهِـمْ جِهَـاراً ... ولا يَخْشَـىٰ لِعَـادِيٍّ سهَـامَـا
وَأَنْتُـمْ هـا هُنَـا فيمـا اشْتَهَيْتُـمْ ... نَهَـارُكُـمُ ولَيْلُكُـم التَّمَـامَـا
فَقُبِّـحَ وفْـدُكُـمْ مَـن وفْـدِ قَـوْم ... ولا لُقُّـوا التَّحِيَّـةَ والسَّـلامَـا(١)

فغنَّت به الجرادتان، فلما سمعه القوم قال بعضهم: يا قوم إِنما بعثكم قومكم لما حلَّ بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعلَّ الله يغيثهم، فخرجوا لذلك، فقال لهم

---

(١) هذه الأَبيات مذكورة في كتاب «عرائس المجالس» المشهور بقصص الأَنبياء، للمفسر أبي إِسحق أحمد ابن محمد بن إِبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ـ وكذلك مذكورة في تفسير الطبري كما ذكر ابن عطية، وعلى غير عادته ذكرها لكنه أوجز فيها هي والقصة مع ما ذكره في آخرها؛ مما يوحي بأَنه يشك فيها.



مرثد بن سعد: إنكم والله ما تُسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمنتم به سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذ فخالفه الوفد، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسا عنَّا مرثدا، ولا يدخل معنا الحرم، فإنه قد اتَّبع هوداً. ومضوا إلى مكة فاستسقى قَيْل بن عير وقال: يا إلٰهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم ناداه منادٍ من السحاب: يا قَيْلُ اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب، فقال قَيْل: قد اخترت السوداءَ فإنها أكثرها ماءً، فنودي: اخترت رماداً رِمْدَدًا[1]، لا تبقي من عادٍ أحداً، لا والداً ولا ولداً، إلاَّ جعلتهم هُمَّدَا. وساق الله تعالىٰ السحابة السوداءَ التي اختارها قَيْل إلىٰ عادٍ حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلما رأَوْها قالوا: هذا عارضٌ مُمْطرنا، حتى عرفَت أَنها ريحٌ امرأَةٌ من عادٍ يقال لها: مَهْدَد، فصاحت وصعقت، فلما أفاقت قيل لها: ما رأَيت؟ قالت: رأَيت ريحاً كشهب النار أَمامها رجال يقودونها، فسَّخرها الله عليهم ثمانية أَيام حسوماً وسبع ليال، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عادٍ أحداً إلا هلك، فاعتزل هود ومن معه في حظيرة، ما يصيبه من الريح إلاَّ ما يلتذ به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قصص وقع في تفسير الطبري مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز. وفي خبرهم أَن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الظعينة[2] عليها المرأَة حتى تلقيها في البحر، وفي خبرهم أَن أَقوياءَهم كان أَحدهم يسُدّ بنفسه مهبّ الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر، فيقوم آخر مكانه، حتى هلك الجميع. وقال زيد بن أَسلم: بلغني أَن ضبعاً ربت أَولادها في حِجَاج[3] عين رجل منهم. وفي خبرهم أَن الله بعث ـ لما هلكت عاد ـ طيراً، وقيل: أُسْداً، فنقلت جيفهم حتى طرحتهم في البحر، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[4]. وفي بعض ما روي من شأنهم أَن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال، إلا يومئذ، فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم، فذلك قوله

---

(١) الرماد الرِّمْدَدُ: المتناهي في الاحتراق والدقة. (النهاية) ـ لابن الأثير.

(٢) الظَّعينةُ: الراحلة يرتحل عليها، والهودج ـ (المعجم الوسيط).

(٣) الحِجَاج (بفتح الحاءِ وكسرها) عظم الحاجب، وجمعه: أحجَّة (المعجم الوسيط).

(٤) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف): ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[١]، ورُوي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا، فاللهُ أعلم أيّ ذلك كان.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ الآية، ظاهر قولهم وحده أنَّهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإِله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أي على قولك يا هود. والتأْويل الأَول أظهر فيهم وفي عبّاد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإربد بن ربيعة، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود، وقولهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ تصميم على التكذيب، واحتقار لأمر النبوة، واستعجال للعقوبة، وتمكن قولهم: ﴿تَعِدُنَا﴾ لما كان هذا الوعد مصرَّحاً به في الشر، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لما يَجيءُ إلاَّ في خير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

أَعلمهم بأَن القضاءَ قد نفذ، وحلَّ عليهم الرجز وهو السخط والعذاب، يقال: رجسٌ ورجزٌ بمعنى واحد، قاله أَبو عمرو بن العلاءِ، وقال الشاعر:

إِذَا سَنَةٌ كَانَتْ بِنَجْدٍ مُحِيطَةً ... فكَانَ عَلَيْهِمْ رِجْسُهَا وعَذابُهَا[٢]

وقد يأْتي الرجس أَيضاً بمعنى النَّتْن والقَذر، ويقال في الرجيع: رجْسٌ وركْزٌ، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات، أَي ينبغي أَن يجتنب كما يجتنب النتن،

(١) من الآية (٦) من سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.
(٢) السَّنَة: الجدب والقحط، وتكون أَيضاً الأرض المجدبة، وأَصلها: سنهَةٌ كَجبْهَة حذفت لامها بعد نقل فتحتها إلى العين، والجمع: سنوات وسنون، ولم نعثر على نسبة هذا البيت فيما لدينا من المراجع.

ونحوه في المعنى قول النبي ﷺ في خبر جَهْجاه الغِفَاري وسنان بن وبرة الأَنصاريّ[١] حين دعَوَا بدعوى الجاهلية: «دَعُوهَا فَإِنها مُنْتنة»[٢].

وقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنما يريد أنهم يخاصمونه في أَن تُسَمى آلهة، فالجدل إِنما وقع في التسميات لا في المُسَمَّيَات، لكنه ورد في القرآن: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾[٣] فهنا لا يريد إِلا ذوات الأَصنام، فالاسم يراد به المسمَّى نفسه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن رأَى أَن الجدل في هذه الآية إِنما وقع في أَنفس الأَصنام وعبادتها تأَول هذا التأْويل. والاسم يَرِدُ في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا بابه الذي استعمله به النحويّون، وقد يُرادُ به المسمَّى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[٤] على أَن هذا يُتأَول، ومنه قول لبيد:

إِلىٰ الْحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا . . . .[٥]

على تأْويلات في البيت، وقد مضت المسأَلة في صدر الكتاب. والسلطان:

---

(١) جَهْجَاه بن سعيد ـ وقيل ابن قيس ـ الغفاري، شهد بيعة الرضوان بالحديبية. وسِنَانُ بن وَبْر الأنصاري قال عنه الواقدي: «شهد غزوة المريسيع» ـ روى الشيخان من حديث جابر: كنَّا في غزاة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار... الحديث في نزول قوله تعالىٰ: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾. ذكر ابن عبد البر أن المهاجري هو جَهْجَاه، وأَن الأَنصاري هو سنان. وأن جهجاه هذا مات بعد عثمان بسنة ـ ذكره ابن السَّكَن.

(٢) هذا جزء من حديث رواه الشيخان، وسببه هو ما ذكرناه في الهامش السابق.

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (يوسف).

(٤) الآية (١) من سورة (الأعلىٰ).

(٥) البيت هو آخر أبيات قالها لبيد يخاطب ابنتيه حين حضرته الوفاة، وأَول هذه الأبيات:

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرْ

إلى أَن يقول:

فَقُومَا فَقُولا بالَّذي قَدْ عَلِمْتُمَا ... ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تحلقَا شَعَرْ

وقُولا هُوَ الْمَرْءُ الَّذي لا خَلِيلَهُ ... أَضَاعَ، ولا خَانَ الصَّدِيقَ ولا غَدَرْ

إلى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا ... ومن يَبْكِ حَوْلا كاملا فَقَدَ اعْتَذَرْ

وقد قيل: لفظة اسم تعد مُقحمة هنا، وقيل: السلام هو الله. وقيل: اسم هنا يراد به المسَمَّىٰ، والتعليقات على البيت كثيرة أوردها صاحب الخزانة.

البرهان، وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ عائد على هود، أي أَخرجه الله تعالىٰ سالماً ناجياً مع من اتَّبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا. ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يُستأصل بالهلاك، والدابر: الذي يدبر القوم ويأتي خلفهم، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك لم يبق أَحد، وقوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالٌّ على المعجزة وإن لم تتعين لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ الآية، هو ثمود بن غائن بن إرم بن سام بن نوح أخو جديس بن غائن[1]. وقرأ يحيى بن وثاب: [وَإِلَى ثَمُودٍ] بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن، وصرْفه علىٰ اسم الحيّ، وترك صرفه على اسم القبيلة. قاله الزجاج، وقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾[2]. فالمعنىٰ: وأَرسَلْنَا إلى ثمود أَخاهم فهو عطف على نوح، والأخوة هنا أُخوة القرابة. وقال الزجاج: يحتمل أن تكون أُخوة الآدمية وسمّي أَخاهم لما بعث إليهم وهم قوم عرب، وهود وصالح عربيان، وكذلك إسماعيل وشعيب، كذا قال النقاش، وفي أَمر إسماعيل عليه السلام نظر. وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، كذا ذكر مكي، وقال وهب: بعثه الله حين راهق الحلم، ولما هلك قومه ارتحل بمن آمن معه إلى مكة فأَقاموا بها حتى ماتوا، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله: ﴿بَيِّنَةٞ﴾ صفة حذف الموصوف وأُقيمت مقامه، قال سيبويه: وذلك قبيح في النكرة أَن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأَخبار والأُمم زال القبح، كما تقول: «جاءَني عبد لبني فلان» وأَنت تريد: «جاءَني رجل عبد»، لأَن عبداً صفة، فكذلك قوله هنا ﴿بَيِّنَةٞ﴾، المعنىٰ: آية أَو حجة أَو موعظة بيِّنة. وقال بعض الناس: إن صالحاً جاءَ بالناقة من تلقاءِ نفسه، وقالت فرقة وهي الجمهور: بل كانت مقترحة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَليق بما ورد في الآثار من أَمرهم، ورُوي أَن بعضهم قال: يا صالح إن كنت

(١) في الطبري «عابر» بدلاً من «غائن».
(٢) من الآية (٦٨) من سورة (هود).



صادقاً فادْعُ ربَّك يخرج لنا من هذه الهضبة ـ وفي بعض الروايات: من هذه الصخرة، لصخرة بالحجر يقال لها الكاثبة ـ ناقةً عُشَرَاءَ(١) قال: فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة. وروي أنها كانت حاملاً فولدت سَقْبها المشهور(٢)، ورُوي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة، ورُوي أن جملاً من جمال ثمود ضربها فولدت فصيلها المشهور، وقيل «ناقة الله» تشريفاً لها وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق. وقال الزجاج: وقيل: إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم. وكانت الآية في شربها وحلبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحكىٰ النقاش عن الحسن أنه قال: هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب، والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا. قال المفسرون وكان حلفاً عظيماً، تأْتي إلى الماءِ بين جبلين فيزحمانها من العَظمِ، وقاسمت ثمود في الماءِ يوماً بيوم. فكانت ترِدُ يومها فتستوفي ماءَ بئر همشرياً ويحلبونها ما شاؤُوا من لبن، ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غبّاً، فاستمر ذلك ما شاءَ الله حتى ملَّتها ثمود وقالوا: ما نصنع باللبن؟ الماءُ أَحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما رُوي أنها كانت تصيف في بطن الوادي، وادي الحجْر، وتشتو في ظاهره، فكانت مواشيهم تفر منها فَتَصِيفُ في ظهر الوادي للقيظ وتشْتو في باطنه للزمهرير، وفسدت لذلك، فتمالؤوا على قتل الناقة، فقال لهم صالح مرّة: إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاكُكُم على يديه فولد لعشرة نفر أولاد فذبح تسعة أَولادهم وبقي العاشر وهو سالف أَبو قدار، فنشأ قدار أَحمر أَزرق، فكان التسعة إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثل هذا، فأَحفظهم أَن قتلوا أَولادهم بكلام صالح، فأَجمعوا على قتله، فخرجوا وكمنوا في غار لِيُبيِّتُوه منه، وتقاسموا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾(٣) فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله في كتابه(٤)، وهم: قدار بن سالف، ومصدّع بن مهرّج ضمّا إلى

(١) عشَراء: بضم العين وفتح الشين، وجمعها: عشارٌ ـ ومثلها نُفَساء. قال في المصباح: ولا ثالث لهما.

(٢) السَّقْب (بفتح وسكون) ولد الناقة الذكر ساعة يولد.

(٣) من الآية (٤٩) من سورة (النمل).

(٤) أي في الآية الكريمة رقم (٤٨) من سورة (النّمل): ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

نفسيهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة. وروي أَن السبب في ذلك أَن امرأَتين من ثمود من أَعداءِ صالح جعلتا لقدار ومصدّع أَنفسهما وأَموالهما على أَن يعقرا الناقة، وكانتا من أَهل الجمال، وقيل: إِن قدار شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماءً يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا على عقرها حينئذ، فخرجوا وجلسوا على طريقها، وكمن لها قدار خلف الصخرة، فلما دنت رماها بالحربة فسقطت فنحرها، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه. وفي بعض الروايات أَنهم وجدوا الفصيل على رابية من الأَرض فأَرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماءِ فلم يقدروا عليه، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تبارك وتعالىٰ، فأَوحى الله إلى صالح أَن مُرْهم ﴿فَلْيَتَمَتَّعُوا في دارهم ثلاثة أيام﴾. وحكى النقاش عن الحسن أَنه قال: إِن الله تعالىٰ أَنطق الفصيل فنادى: أَين أُمي؟ فقال لهم صالح: إِن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر هذه الناقة، وروي أَنها عقرت يوم الأَربعاءِ، وقال لهم صالح: تَحْمَرّ وجوهكم غداً وتَصفَر في الثاني وتَسْود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأَحد، فلما ظهرت العلامة التي قيلت لهم أَيقنوا واستعدوا ولطخوا أَبدانهم بالمن، وحفروا القبور وتحنطوا فأَخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القصص اقتضبته من كثير أَورده الطبري رحمه الله رغبة الإِيجاز.

وقال أَبو موسى الأَشعري: أَتيت بلاد ثمود فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبلاد ثمود هي بين الشام والمدينة، وهي التي مرَّ بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في غزوة تبوك فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أَنفسهم إِلا أَن تكونوا باكين أَن يصيبكم مثل ما أَصابهم، ثم اعتجر بعمامته وأَسرع السير ﷺ»[(١)]، وروي أَن المسافة

---

(١) الحديث رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظة كما في البخاري ـ في غزوة تبوك ـ: «قال: لمَّا مر النبي ﷺ بالحجْر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أَصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي».



التي أَهلكت الصيحة أَهْلَها هي ثمانية عشر ميلاً ، وهي: بلاد الحجْر ومراتعها الجناب وحسمى إِلى وادي القرىٰ وما حوله. وقيل في قدار: إنه ولد زنى من رجل يقال له: ظبيان ، وولد على فراش سالف فنسب إِليه ، ذكره قتادة وغيره. وذكر الطبري أَن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر فقال: «أَتعرفون ما هذا؟ قالوا: لا ، قال: هذا قبر أَبي رُغال الذي هو أَبو ثقيف ، كان من ثمود فأَصاب قومه البلاءُ وهو بالحرم فَسَلِمَ ، فلما خرج من الحرم أَصابه ما أَصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب» قال: فابتدر القوم بأَسيافهم فحفروا حتى أَخرجوا الغصن[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الخبر يؤيد ما في السير من أَن أَبا رُغال هو دليل الفيل وحبيسه إِلى مكة ، والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ معناه: مَكَّنكم ، وهي مستعملة في المكان وظروفه ، تقول: تبوأَ فلان منزلا حسناً ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[2] ، وقال الأَعشىٰ:

فَمـا بَـوَّأَ الـرَّحْمٰـنُ بيْتَـكَ منْـزِلاً بشَـرْقـي أَجْيَـادِ الصَّفـا والمُحَـرَّمِ[3]

---

(١) رواه ابن جرير عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه عبد الرزاق عن اسماعيل بن أمية ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) من الآية (١٢١) من سورة (آل عمران).

(٣) البيت من قصيدة يهجو بها الأعشىٰ عمير بن عبد الله بن المنذر حين جمع بينه وبين جهنام ليهاجيه ، ورواية الديوان:

وَمَـا جَعَـلَ الـرَّحمـنُ بَيْتَـكَ فـي العُـلا بـأَجْيَـاد غـربـي الصَّفَـا والمُحَـرَّم =



والقُصور: جمع قصْر، وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأَرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود، وقصرت عن الناس قصراً تاماً.

والنَّحْت: النَّجْر والقشر في الشيءِ الصلب كالحجر والعود ونحوه. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [وَتَنْحَتُونَ] بفتح الحاءِ، وقرأَ جمهور الناس بكسرها وبالتاءِ من فوق، وقرأَ ابن مصرف بالياءِ من أَسفل وكسر الحاءِ، وقرأَ أَبو مالك بالياءِ من أَسفل وفتح الحاءِ، وكانوا ينحتون الجبال لطول أَعمارهم.

و﴿ تَعْثَوْا ﴾ معناه: تفسدوا، يقال: عثا يعثي، وعثَا يَعْثُو، وعَثِيَ يَعْثى كَنِسيَ يَنْسَى وعليها لفظ الآية، وقرأَ الأَعمش: [تِعْثَوْا] بكسر التاءِ، و[مُفْسِدِينَ] حال.

وتقدم القول في [الْمَلأَ]، وقرأَ ابن عامر وحده في هذا الموضع: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ بواو عطف، وهي محذوفة عند الجميع. و﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ هم الأَشراف والعظماءُ الكفرة، و﴿ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ يحتمل أَن يكون معناه: طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر، أَو يكون بمعنىٰ كبِروا، كبّرهم المال والجاه وأَعظمهم، فيكون ـ على هذا ـ كبِر واستكبر بمعنى كعجب واستعجب. والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد. والذين استضعفوا هم العامة والأَغفال في الدنيا، وهم أَتباع الرسل.

وقولهم: ﴿ أَتَعْلَمُونَ ﴾ استفهام على معنى الاستهزاءِ والاستخفاف، فأَجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأَنَفَةُ الأَشرافَ على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ﴾ يقتضي ـ بتشريكهم جميعاً في الضمير ـ أَن عقر الناقة كان

= وفي اللسان والتاج:

ولا جَعَلَ الرحْمَنُ بيْتَكَ في الذُّرىٰ ... بـأَجْيَـاد غـربـي الصَّفَـا والمحَطَّـم

قال القرطبي: ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيه محذوف تقديره: وبوأكم في الأَرض منازل.

عل تمالؤ منهم وإِصفاق[١] ، وكذلك روي أَن قداراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساءَ والصبيان ، فلما أَجمعوا تعاطى فَعَقَر[٢].

﴿ وَعَتَوْا ﴾ معناه: خشنوا وصلبوا ولم يذعنوا للأَمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم: ﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ، وحسُن الوعد في هذا الموضع لما تقيّد بأَنه عذاب.

قال أَبو حاتم: قرأَ عيسى وعاصم: [إِيتنا] بهمز وإِشباع ضم ، وقرأَ بتخفيف الهمزة كأَنها ياءٌ في اللفظ أَبو عمرو والأَعمش.

و﴿ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ما تُؤثره الصيحة أَو الطامة التي يرجف بها الإِنسان وهو أَن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد ، ومنه قول خديجة رضي الله عنها: «فرجع بها رسول الله ﷺ» يرجف فؤاده[٣]. ومنه قول الأَخطل:

إِمَّا تَرَيْني حَنَاني الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ ... كالنَّسْرِ أَرْجُفُ والإِنْسَانُ ممدود[٤]

ومنه إِرجاف النفوس لكريه الأَخبار أَي تحريكها ، وروي أَن صيحة ثمود كان فيها من كل شيءٍ هائل الصوت ، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجثموا على صدورهم ، والجاثم اللاطىء بالأَرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأَرنب والطير ، فإِن جثومها على وجهها ، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ المُنْتَأَى وَعَرَفْتُ مِنْهَا ... مَطَايَاَ الْقِدْرِ كَالْحِدَأ الْجُثُوم[٥]

---

(١) الإِصفاق مصدر من أَصفق ، ومعناه: أَجمع القوم على أَمر واحد.

(٢) العَقْر: الجرح ، وعَقَرْتُ الفرس: إِذا ضربْتَ قوائمه بالسيف ، ومنه قول امرىء القيس:

تقولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بنَا معاً ... عَقَرْتَ بَعيري يا امْرأَ الْقَيْسِ فانْزِلِ

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل في الصِّحاح من كتب السُّنة ـ ورواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها لا تنسب هذه العبارة إِلى خديجة رضي الله عنها كما قال ابن عطية رحمه الله ، بل تنسبها إِلى من روى الحديث إِذ يقول النَّصُّ في البخاري: (ثم أَرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإِنسان من علق ، اقرأ وربك الأَكرم ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زمِّلوني زمِّلوني فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع). (البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي).

(٤) البيت من قصيدة له يمدح بها يزيد بن معاوية ، ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَفي العَيْنَيْن تَسْهِيدُ ... وَاسْتَحْقَبَتْ لُبَّهُ فَالْقَلْبُ مَعْمُودُ

والرواية: (مهدود) بالهاءِ لا (ممدود) كما هي هنا ، ولعل ذلك من خطأ النساخ.

(٥) قال جرير هذا البيت في قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والمنتَأَى: محفر النؤي ، ومطايا=



وقال بعض المفسرين: معناه: حَمَماً محترقين كالرماد الجاثم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحيث وجد الرماد الجاثم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل همود وتفرقه، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محترقة.

وأخبر الله عزَّ وجلَّ بفعل صالح في توليه عنهم وقت عقرهم الناقة وقولهم: ﴿ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾، وذلك قبل نزول العذاب، وكذلك رُوي أنه عليه الصلاة والسلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، وأما لفظ الآية فيحتمل أنه خاطبهم وهم موتىٰ على جهة التفجُّع عليهم وذكر حالهم أو غير ذلك كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، قال الطبري: وقيل: لم تهلِك أُمة ونبيُّها معها، ورُوي أنه ارتحل بمن معه حتى جاءَ مكة فأقام بها حتى مات، ولفظة (التَّوَلِّي) تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم.

وقوله: ﴿ لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي يُنصح، ولذلك تقول العرب: «أَمْرَ مُبكياتك لا أَمْرَ مضحكاتِك»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

= القِدْر: الأثافي التي توضع القدر فوقها فتكون هي للقِدْر كالمطايا، والحِدَأ: جمع حِدَأة وهي طائر معروف بالخبث، وهو هنا يُشبِّه الأثافيَّ بالحداءِ السواقط على الأرض.

(١) أي: أطع أَمْرَ من يأمرك بالصلاح وإن أبكاك لثقله عليك، ولا تطع أمْر من يأمرك بالفساد وإن أضحكك لإعجابك به ـ يضرب في النهي عن اتباع الهوىٰ، وقيل: هو أنصح مثل قالته العرب، وأصله أن غلاماً قال: أتيتُ خالاتي فأضحكنني وأمرَحْنني، وأتيتُ عمَّاتي فأبكَيْنني وأحزنَّني فقيل له ذلك، أي إن العمات أنصح.

(عن المستقصى في أمثال العرب ـ للزمخشري).

لوط عليه السلام بعثه الله إلى أُمة تسمَّى سذوم[١] وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ونصبه إما: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المتقدم في الأنبياءِ[٢]، وإما بفعل مضمر تقديره: «واذكر لوطاً»، واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع.

و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هنا: إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أُمم قبلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتمل أن يراد بها: ما سبقكم إلى لزومها وتشهيرها، ورُوي أنهم كانوا يأتي بعضهم بعضاً، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباءَ، قاله الحسن البصري، قال عمرو بن دينار[٣]: ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وحكى النقاش: إن إبليس كان أصل عملهم إذ دعاهم إلى نفسه، وقال بعض العلماء: عامل اللواط كالزاني، وقال مالك رحمه الله وغيره: يُرْجَم ـ أُحصن أو لم يُحصن. وحرق أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجأَة حين عمِلَ عَمَلَ قوم لوط.

وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر كأنه فسَّر الفاحشة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أبي بكر، وحمزة: [أَأَنَكُمْ] باستفهام آخر، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مُجمْل والثاني عن مفسَّر. إلا أن حمزة وعاصماً قرأا بهمزتين ولم يهمز أبو عمرو وابن كثير إلا واحدة[٤].

و﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر من قولك: شهيتُ الشيءَ شهاة، والمعنىٰ: تدعون

---

(١) بفتح السين وإعجام الذال، أما المثل وهو «قاضي سدوم» فبالإعجام والإهمال، وإن كان المشهور الإهمال.

(٢) يقصد الأنبياء الثلاثة الذين سبق الحديث عنهم، وهم نوح وهود وصالح عليهم السلام، وقد بدأ الكلام عنهم بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، فبقية أسمائهم معطوفة على (نوح).

(٣) هو عمرو بن دينار الجُمَحي بالولاءِ، أبو محمد الأثرم، فقيه، كان مفتي أهل مكة، فارسي الأصل، قال شُعبة: ما رأيت أثبت منه في الحديث، وقال النسائي: ثقة ثبْتٌ، واتهمه أهل المدينة بالتشيع والتحامل على الزبير، ونفَى الذهبي ذلك، قال ابن المديني: له خمسمائة حديث. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).

(٤) يعني الأولى مع تسهيل الثانية.



الغرض المقصود بالوطءِ وهو ابتغاءُ ما كتب الله من الولد وتنفردون بالشهوة فقط.

وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أَو تقريرهم على المعصية وترْكٌ لذلك، إِلى الحُكْم عليهم بأَنهم قد تجاوزوا الحدّ وارتكبوا الحظر، والإِسراف: الزيادة المفسدة.

وقرأَ الجمهور [جوابَ] بالنصب، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن [جوابُ] بالرفع، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة عقلية، وإِنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحث في قولهم: ﴿ أَخْرِجُوهُم ﴾ وتعليلهم الإِخراج بتطهير المخْرجين. والضمير عائد على لوط وقومه وإِن كان لم يجر لهم ذكر فإِن المعنى يقتضيهم. ورُوي أَنه لم يكن معه غير ابنتيه، وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه، و﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ معناه: يَتَنَزَّهون عن حالنا وعادتنا. قال مجاهد: معناه: يتطهرون عن أَدبار الرجال والنساءِ، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمُّوهم بغير ذم، والخلاف في أَهله حسبما تقدم.

واستثنىٰ الله امرأَة لوط من الناجين، وأَخبر أَنها هلكت. والغابر: الباقي، هذا المشهور في اللغة، ومنه غُبَّرُ الحيض(١) كما قال أَبو كبير الهذلي:

وَمُبَـرَّأً مِـنْ كُـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ ... وفَسَـادِ مُـرْضِعَـةٍ وداءِ مُغْيِـلِ(٢)

وغُبَّر اللبن في الضرع: بقيَّته، فقال بعض المفسرين: كانت من الغابرين في العذاب والعقاب، أَي: مع الباقين ممن لم ينج، وقال أَبو عبيدة معمر: ذكرها الله بأَنها كانت ممَّن أَسنَّ وبقي من عصره إِلى عصر غيره فكانت غابرة إِلى أَن هلكت مع قومها.

---

(١) غُبَّر الحيض (بضم الغيْن وتشديد الباءِ المفتوحة): بقية دم الحيض، وضُبط بضم الغيْن وسكون الباءِ أَيضاً.

(٢) أبو كبير الهذلي هو عامر بن الحُلَيْس، وقوله: «ومُبَرَّأ» معطوف على «مَغْشَم» في البيت السابق حيث يقول:

وَلَقَـدْ سَـرَيْـتُ عَلَـى الظَّـلام بِمَغْشَـم ... .

ومُغْيِل من قولهم: أَغْيَلَتْ المرأَةُ ولدها بمعنىٰ (غَالَتْه) فهي: مُغْيِلٌ وهو مُغْيَلٌ، والغيلة أن ترضع المرأة ولدها وهي حامل، أو أَن يأتيها زوجها وهي مرضع. (راجع اللسان والمعجم الوسيط).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن قوله ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ اكتفي به في أنها لم تنج ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة، والأول أظهر. وقد يجيءُ (الغابر) بمعنى الماضي، وكذلك حكى أهل اللغة: غبَرَ بمعن مضىٰ وبمعنى بقي وأما قول الأعشىٰ:

عَـضَّ بمـا أَبْقَـى الْمَـوَاسـي لَـهُ ... مِـنْ أُمِّـهِ فـي الـزَّمَـنِ الْغَـابِـرِ (١)

فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاءِ. ويحتمل أن يريد: في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين الذي هو غابر بعد الإبقاءِ. ويحتمل أن يُعَلَّق «في الزمن» بـ (عَضَّ) فيكون الغابر: الباقي على الإطلاق، والأول أظهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ الآية نص على إمطار، وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة، ورُوي أن الله عزَّ وجلَّ بعث جبريل فاقتلعها بجناحيه وهي ست مدن، ـ وقيل: خمس، وقيل: أربع ـ فرفعها حتى سمع أهل السماءِ نهاق الحمير وصراخ الديكة، ثم عكسها وردّ أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرَّجَة: واقوماه، والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قيل في ﴿مَدْيَنَ﴾ إنه اسم بلَد وقُطْر، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد

---

(١) البيت من قصيدته التي يهجو بها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل والتي مطلعها:

شَـاقَتْـكَ مِـن قَتْلَـةَ أَطْـلالُهَـا ... بِـالشَّـطِّ فـالـوتـر إلـى حـاجـر

والمواسي: جمع موسىٰ (وهو المصنوع من الحديد وله شفرة حادة) والغابر: الماضي، يقول له: إنه سيهجوه هجاءً مرّاً حين يبلغه سيجعله يعَضُّ بَظْر أمه الذي أبقته المواسي عند عملية ختانها ـ ومعنى ذلك أن المهجو سيكون عاجزاً عن أن يفعل شيئاً بالهاجي له، ولا يملك إلا الندم والحسرة فيعض بظر أمه.

مَدْيَن بن إبراهيم الخليل، وروي أن لوطاً عليه السلام هو جد شعيب لأمه، وقال مكي: كان زوج بنت لوط. ومن رأى (مدين) اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرف.

وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بقوله تعالىٰ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول القصص، وهذا يؤيد أن ﴿وَلُوطًا﴾ به انتصب، وأن اللفظ مستمر، وهذه الأخوة في القرابة، وقد تقدم القول في [غَيْرُهُ] و[غَيْرِه]، والبَيِّنَةُ إشارة إلىٰ معجزته وإن كنا نحن لم يُنَص لنا عليها. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [قد جاءَتكم آيةُ مِن ربكم] مكان (بينة).

وقوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أمر لهم بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنىٰ: في الأخذ والإعطاءِ، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه، و﴿تَبْخَسُوا۟﴾ معناه: تظلموا، ومنه قولهم: «تحسبها حمقاءَ وهي باخس[1]» أي ظالمة خادعة. و﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكالُ أو يوزن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ لفظ عام لدقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي نافع عند الله مُكْسِبٌ فوزَه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ الآية. قال السدي. هذا نهي عن العشَّارين[2] والمتقبلين [3]ونحوه من أخذ أمول الناس بالباطل. والصراط: الطريق،

---

(١) المعنىٰ: تظن أنك تخدعها لحمقها فإذا هي تخدعك وتهضمك ـ يُضرب لِمَن يُظَنُّ به الغباوة هو فِطْنٌ واعٍ.

(٢) نصُّ العبارة في البحر: «قال السدي: هذا نهي العَشّارين والمُتَقَبِّلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل» ـ ومعنى ذلك أن كلمة (عن) زائدة من النُّسَّاخ. وأما العشَّارون فهو من قولهم: عَشَرْتُ مالَه أَعشُره فأنا عاشر، وعشَّرته فأنا مُعَشِّر وعشَّار ـ إذا أخذت عُشْرَة» فالعاشر أو المعشّر من يأخذ العُشر على ما كان يأخُذُه أهل الجاهلية مقيماً على دينه فاقتلوه، لكفره، أو لاستحلاله ذلك إن كان مسلماً وأخذه مستحيلاً وتاركاً فرض الله وهو ربع العشر. (راجع النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير).

(٣) المتَقَبّلون: جمع متَقَبّل وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطي، فذلك الفضل ربا، وفي حديث=



وذلك أَنهم كانوا يكثرون من هذا لأَنه من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن. وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: هو نهي عن السلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم، وروىٰ في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما تقدم قبل من النهي في شأْن المال في الموازين والأَكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما، وفي هذا كله تَوَعُّد للناس إِن لم يتركوا أَموالهم(٢).

وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي أَيضاً: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نهي لهم عما كانوا يفعلونه من ردّ الناس عن شعيب، فيتوعدون من أَراد المجيءَ إِليه ويصُدُّونه ويقولون: إِنه كذاب فلا تذهب إِليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما بعد هذا من أَلفاظ الآية يشبه هذا القول.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ الآية. المعنىٰ: وتَفْتِنُون من آمن وتَصُدونه عن طريق الهدى وسبيل الله المفضية إِلى رحمته. والضمير في [بهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله تبارك وتعالىٰ، وأَن يعود على شعيب في قول من رأَى أَن القعود على الطرق للردّ عن شعيب، وأَن يعود على السبيل في لغة من يُذَكِّر السبيل.

وتقدم القول في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في صدر السورة. قال أَبو عبيدة، والزجاج: كسر العيْن في المعاني وفتحها في الأَجرام.

ثم عدد عليهم نعم الله تبارك وتعالىٰ وأَنه كثَّرهم بعد قِلَّة، وقيل: أَغناهم بعد فقر، فالمعنىٰ ـ على هذا ـ إِذ كنتم قليلاً قدركم، ثم حذَّرهم ومثَّل بمن امتحن من الأُمم السابقة.

= ابن عباس رضي الله عنهما: (إِياكم والقَبَالات فإِنها صغارٌ وفَضْلُها رباً) (النهاية ـ لابن الأَثير).

(١) الحديث في تفسير الطبري ونصُّه: (أَتى النبي ﷺ ليلة أُسري به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إِلا شَقَّتْه ولا شيء إِلا خرقته، قال: ماهذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾. والحديث ضعيف فيه أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ.

(٢) المراد: وفي هذا توعد للباخسين إِن لم يتركوا للناس أموالهم. أو نحو هذا. والله أعلم.



قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

المعنىٰ: وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم عليَّ، وشعَّبتُم بِكفركم أَمْري فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ قوة التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار.

وحكى منذر بن سعيد[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الخطاب بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم، وقاله مقاتل بن حيّان. قال النقاش: وقال مقاتل بن سليمان[2]: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول الجماعة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

تقدم القول في معنى ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وفي معنى الاستكبار. وقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ

---

(١) منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النَّفْزي القُرطبي أبو الحكم البلُّوطي: قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيهاً خطيباً شاعراً، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر، كان بصيراً بالجدل، منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام، له كتب في القرآن والسنُّة منها: «الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» و«الناسخ والمنسوخ» و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» (الأعلام).

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، أبو الحسن ـ من أعلام المفسرين، أصله من بلخ ثم انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدَّث بها، كان متروك الحديث، من كتبه: «التفسير الكبير» و«نوادر التفسير» و«الردّ على القدرية» و«متشابه القرآن» ـ و«القراءات» ـ (الأعلام).



يَٰشُعَيْبُ﴾ تهديد بالنفي. والقرية: المدينة الجامعة للناس لأنها تَقَرَّت أي اجتمعت، وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ معناه: أَو لَتَصيرُنَّ. و(عاد) تجيءُ في كلام العرب على وجْهَيْن، أَحدهما: عاد الشيءُ إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك، وهي ـ على هذه الجهة ـ لا تَتَعدى، فإن عُدِّيَتْ فبحرف، ومنه قول الشاعر:

إنْ عــادَتِ العَقْــرَبُ عُــدْنَــا لهَــا وكــانــتِ النَّعْــلُ لهَــا حــاضِــرَهْ(١)

ومنه قول الآخر:

ألا ليْــتَ أَيَّــامَ الشَّبــابِ جَــديــدُ وعَصْراً تَــولَّــى يــا بُثَيْــنُ يَعُــودُ(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾(٣). ومنه قول الشاعر:

فــإنْ تَكُــن الأَيَّــامُ أَحْسَــنَّ مَــرَّةً إلــيَّ فَقَــدْ عَــادَت لهــنَّ ذُنُــوبُ(٤)

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى (صار)، وعاملةً عملها، ولا تتضمن أن الحال كانت متقدمة، ومن هذه قول الشاعر:

تِلْـكَ الْمَكَـارِمُ لا قَعْبَـانِ مِـنْ لَبَـن شِيبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالا(٥)

---

(١) العَقْرَب: واحدة العقارب، من الهوام، للذكر والأنثى بلفظ واحد، والغالب عليها التأنيث، وهذا البيت قاله الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب ضمن أبيات يذم بها رجلا اسمه «عَقْرَب بن أبي عَقْرب»، وكان من تجار المدينة، عرف بالمَطْل، وقيل في المثل: «أَمْطَلُ من عَقْرب، وأَتْجَر من عقرب»، وقد حكى الزُّبَيْرُ بن بَكّار قصة التاجر هذا مع الفضل بن عباس، وذكر أن (عَقْرب) هذا حدث بينه وبين الفضل تعامل تجاري، وكان الفضل من أشد الناس اقتضاءً، ولا يسكت عن حقه، فلزم بيت (عَقْرب) زماناً، فلما لم يحصل على حقه قال:

قَــدْ تَجِــرَتْ فــي سُــوقِنَــا عَقْــرَبٌ لا مَــرْحَبــاً بــالْعَقْــرَبِ التَّــاجِــرَهْ
كُــــلُّ عَــــدُوٍّ يُتَّقَــــى مُقْبِــــلا وَعَقْــرَبٌ يُخْشَــى مِــنَ الــدَّابِــرَهْ
إنْ عَــــادَتِ العَقْــــرَبُ عُــــدْنَــــا لَهَــــا وَكَــانَــتِ النَّعْــلُ لَهَــا حَــاضِــرَهْ
كُــــلُّ عَــــدُوٍّ كَيْــــدُهُ فــــي اسْتِــــهِ فَغَيْــرُ مَخْشِــيٍّ وَلا ضَــائِــره

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة لجميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث، المعروف بجميل بثينة، وهي بنت عمه بثينة بنت حبأ بن ثعلبة، ويروي البيت: «وعهداً تولى» بدلا من «وعصراً تولى».

(٣) الأنعام: ٢٨.

(٤) هذا البيت للأحوص، وقبله يقول مخاطباً أُم جعفر:

هَبينــي امــرأً إمَّــا بَــريئــاً ظَلَمْتِــهِ وإمَّــا مُسيئــاً مُــذْنِبــاً فيَتــوب
فَــلا تَتْــرُكــي نَفْسـي شَعــاعــاً فــإنَّهَــا مِنَ الحزْنِ قدْ كادتْ عَلَيْكِ تَذوبُ

(٥) قائل هذا البيت أمية بن أبي الصلت، وقد أعاد ابن عطية الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى في=



ومنه قول الآخر:

وَعَادَ رَأْسي كَالثَّغَامَهْ(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾(٢)، على أن هذه محتملة، فقوله في الآية: [أَوْ لَتَعُودُنَّ] ـ وشعيب عليه السلام لم يكن قطُّ كافراً ـ يقتضي أنها بمعنى صار، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ توقيف منه لهم على شنعة المعصية، وطلب أن يقروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً.

والظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ أنه خبر منه، أي: لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر. ويحتمل أن يكون على جهة القَسَم الذي هو في صيغة الدعاء، مثل قول الشاعر:

بَقِيتُ وَفْرِي . . . .(٤)

= هذه السورة: ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ وذكر أنه لأمية، ونقل كلامه واستشهاده القرطبي في تفسيره.

والقَعب بفتح القاف: القدح الضخم الغليظ الجافي، وقيل: قدح من خشب مقعَّر، والجمع القليل: أَقْعُب، والكثير: قِعَابٌ وقعبَةٌ. والأبوال: جمع بول، وهو معروف.

(١) في التهذيب: «الثَّغامة نبات ذو ساق جُمّاحته مثل هامة الشيخ، وفي حديث النبي ﷺ أنه أُتي بأبي قُحافَة يوم الفتح وكأن رأسه ثَغامة فأمرهم أن يغيروه».

وقال ابن الأعرابي: الثغامة شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثلج، وأنشد:

إذا رأيت صَلَعاً في الهامَهْ ... وحَدَباً بعد اعتدالِ القَامَهْ

وصار رأسُ الشَّيخ كالثَّغامَهْ ... فَايْأَس مِن الصِّحَّةِ والسَّلامَهْ

(٢) يس: ٣٩.

(٣) وقد ناقش بعضهم هذه الإجابة فقال: إن عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث لا تجعله في ملتهم، ولهذا أجيب بوجهين آخرين ـ الأول: أن يكون هذا من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ سحبوا عليه حكمهم في العود وإن كان شعيب بريئاً مما كان عليه أتباعُه قبل الإيمان. والثاني: أن رؤساءَهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة والإيهام بأنه كان منهم.

(٤) هذا جزء من بيت للأشتر النخعي وهو مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سبق لابن عطية أن استشهد به عند تفسير الآية (١٦٥) من سورة البقرة المجلد الأول ص٤٠٤ من هذا =



وكما تقول: «افتريتُ على الله إن كلمت فلاناً». و[افْتَرَيْنَا] معناه: شققنا بالقول واختلفنا، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِرية».

ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أَول أمره، ونجاة من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: إلاَّ أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوءٍ وينفذ منه قضاءٌ لا يرد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمؤمنون هم المجوّزون لذلك، وشعيب قد عصمته النبوَّة، وهذا أظهر ما يحتمل القول. ويحتمل أَن يريد استثناءَ ما يمكن أن يتعبد الله تعالى به المؤمنين مما تفعله الكفار من القُرُبات، فلما قال لهم: إنا لا نعود في ملتكم، ثم خشِيَ أن يتعبد الله بشيءٍ من أَفعال الكفرة فيعارض مُلْحد بذلك ويقول: هذه عودة إلى ملتنا ـ استثنى مشيئة الله تبارك وتعالى فيما يمكن أَن يتعبّد به. ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سمّ الخياط ـ وقد علم امتناع ذلك ـ فهو إحالة على مستحيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأْويل إلا عندهم، وهذا تأْويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه، وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو تستُّر وتأَدب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

= التفسير ـ ولكن برواية أخرى هي: (بقَّيْتُ نفسي) والبيت بتمامه على الرواية الواردة هنا:

بَقيَّيتُ وَفْري وانْحَرَفْتُ عَن العُلا ... ولَقيتُ أضيافي بوجْهِ عَبوس

قال أبو حيان في «البحر المحيط»: ولم ينشد ابن عطية البيت الذي يُقيِّد قوله: (بَقيّتُ) وما بعده بالشرط وهو قوله:

إنْ لمْ أشُنَّ على ابنِ هِنْدٍ غارَةً ... لَمْ تَخْلُ يوماً مِنْ نِهابِ نُفُوسِ



ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناءِ، ولو كان في الكلام «إنْ شاء الله» قوِيَ هذا التأويل[(١)].

وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ معناه: وسِعَ علم ربنا كل شيءٍ، كما تقول: تصبَّب زيد عرقاً، أي: تصبَّب عرق زيد، [وسِعَ] بمعنى أحاط.

وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ معناه: احكم، والفاتح والفتاح: القاضي بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد، وقال بعضهم:

ألاَ أَبْلِـغْ بنـي عُصْـم رَسـولاً فَـإِنِّـي عَـنْ فُتَـاحَتِكـمْ غَنِـيُّ[(٢)]

وقال الحسن بن أبي الحسن: إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاءِ عليهم ثم استجاب له فأَهلكهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أُفاتحك، أي: أُحاكمك.

وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ استسلام لله وتمسّك بلفظه، وذلك يؤيد التأويل الأَول في قوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذه المقالة قالها المَلأُ لأتباعهم وسائر الناس الذين يقلدونهم.

و﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد واضطراب.

---

(١) عقَّبَ أبو حيان في «البحر» على كلام ابن عطية هذا بقوله: «وليس بقوي هذا التأويل، لا فرق بين «إلا أن يشاء» وبين «إلا أن شاء» لأن (أنْ) تخلص الماضي للاستقبال.

(٢) هذا البيت للأسْعَر الجُعفي، ولفظه كما في (اللسان والتاج): «ألا من مبلغ عمراً رسولاً». والبيت دليل على أن الفتاحة (بضم الفاء وبكسرها) معناها: الحكم بين خصمين. قال الأزهري: «الفتح: أن تحكم بين قوم يختصمون إليك، كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قال: وأهل اليمن يقولون للقاضي: الفتَّاح، ويقول أحدهم لصاحبه: تعال حتى أفاتحك إلى الفتّاح (عن اللسان).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أُهلكت بالرجفة، وفرقة بالظُّلَّة، ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد. وروي أن الله تبارك وتعالى بعث شعيباً إلى أَهل مدين وإلى أَصحاب الأَيكة، وقيل: هما طائفتان، وقيل: واحدة، وكانوا ـ مع كفرهم ـ يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة، فلما عتَوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأَهلكهم الحرُّ منه فلم ينفعهم ظل ولا ماءٌ، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برْد الريح وطيبها فتنادوا: عليكم الظُّلَّة، فلما اجتمعوا تحت الظُّلَّة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأَهلكتهم.

قال الطبري: فبلغني أَن رجلاً من أَهل مَدْيَن يقال له عمرو بن جلهاءَ قال لمَّا رآها:

يا قَوم إِنَّ شُعَيْباً مُرْسَلٌ فَذروا ... عَنْكُمْ سَمِيراً وعِمْرَان بْنَ شَدَّادِ
إِنِّي أَرَى غَيْمَةً يا قَوْم قَدْ طَلَعَت ... تَدْعو بِصَوْتٍ على صمَّانَةِ الوادِي
وإِنَّكُمْ إِنْ تَرَوْا فيها ضَحَاةَ غَدٍ ... إِلاَّ الرَّقيم يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادِ[(١)]

وسمير وعمران: كاهناهم، والرقيم: كلبهم. ورُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذلك خطيبُ الأَنْبياء»[(٢)] لقوله لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يريد: لِحُسْن مراجعته وجميل تلطفه.

وحكى الطبري عن أبي عبد الله البجلي أَنه قال: أبو جاد، وهَوز، وحُطي،

---

(١) أورد الثعلبي هذه الأبيات في كتابه «عرائس المجالس» المعروف باسم «قصص الأنبياء»، وبدلا من (سمير) جاءَ (شُمَيْر) بالشين المعجمة والتصغير، وجاءَ (حنَّانة) بدلا من (صَمَّانة)، ورواية البيت الأخير: (فإنَّه لن يرى...) إلخ يعني شعيباً. يريد أن الزلزال سيصيبهم بالدمار، وستصبح ديارهم خراباً لا يرى فيها شعيب إلا الرقيم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم ـ عن ابن إسحق، عن يعقوب بن أبي سلمة، وكذلك أخرجه عنهما ابن جرير (الدر المنثور وتفسير الطبري).

(٣) هود: ٨٨.



وكَلَمُن ، وسَعْفَصْ ، وقرشت: أَسماءُ ملوك مَدْيَن ، وكان الملك يوم الظُّلَّة (كَلَمُن) فقالت أُخته ترثيه:

كَلَمُــنْ قَــدْ هُــدَّ رُكْنــي ... هُلْكُـــهُ وَسْـــطَ الْمَحِلَّـــهْ
سَيِّــدُ الْقَــوْمِ أَتَــاهُ الْـ ... ـحَتْـفُ نَــارٌ وَسْــطَ ظُلَّـــهْ
جُعِلَــتْ نَــاراً عَلَيْهِــم ... دارُهُــمْ... كَــالمُضْمَحِلَّــهْ[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه حكاية مظنون بها ، والله أعلم.

وقد تقدم معنى ﴿جَٰثِمِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ لفظ فيه الإخبارُ عن قُوَّةِ هلاكهم ، ونزول النقمة بهم ، والتنبيهُ على العِبْرَة بهم ، ونحو هذا قول الشاعر:

كَأَنْ لمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ... .[2]

و [يَغْنَوْا] معناه: يقيموا ويسكنوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و «غَنيت في المكان» إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بِتَنَعُّم وعيش رخيّ[3] ، هذا الذي استَقْريْتُ من الأَشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة ، فمن ذلك قول الشاعر:

وقَــدْ نَغْنَــى بِهَــا وَنَــرَى عُصُــوراً ... بِهَــا يَقْتَــدْنَنَــا الْخُــرُدَ الْخِــذَالاَ[4]

---

(١) أيضاً أورد الثعلبي هذه الأبيات في «قصص الأنبياء» ، ونلحظ أن ابن عطية يرفض القصة كلها ، وتأمل قوله تعقيباً عليها: «وهذه حكاية مظنون بها ، والله أعلم». ولا شك أن الصنعة بادية فيها.

(٢) هذا البيت المشهور قاله الحارث الجرهمي ، ونسبه في اللسان إلى عمرو بن الحارث بن مُضاض ، قال:

كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ بيْـنَ الْحَجُـون إلـى الصَّفَـا ... أنيــسٌ ولَــمْ يَسْمُــرْ بمَكَّــةَ سَـامِـرُ
بَلَــى ، نَحْــنُ كُنَّــا أَهْلَهَــا فــأَبَــادَنَــا ... صُـرُوفُ اللَّيَــالـي والجُـدودُ الْعَـواثـرُ

والحَجُون بفتح الحاء: جبل بمكة ، والجدود: الحظوظ.

(٣) جاء في إحدى النسخ: «وعيش مرضي» ، واخترنا التي تتفق مع النص الذي ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» نقلا عن ابن عطية.

(٤) معنى (نغني) على ما وضحه ابن عطية: نقيم في تَنَعُّم وعيش رغيد ، و(يَقْتَدْنَ) من: اقتاد ، ومعناها: أن يقودَ من أمام ، أما السَّوْق فهو أن يقود مِنْ خَلْف ، والخُرُدُ: جمع خريدة ، وهي من النساء: البكر=

ومنه قول الآخر:

وَلَقَـدْ يَغْنَـى بِهَـا جيـرانُـكِ ٱلْـ ـمُمْسِكـو منْـكِ بِعَهْـدٍ وَوِصَـالِ(١)

أنشدهُ الطبري، ومنه قول الآخر:

أَلاَ حَيِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ المَغَانِيا . . . .(٢)

ومنه قول مُهَلْهِل:

غَنِيَـتْ دارُنَـا تِهَـامَـةَ فـي الـدَّهْـ ـرِ، وفيهـا بَنُـو مَعَـدٍّ حُلُـولاَ(٣)

ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناءِ. وأَما قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾(٤) ففيه هذا المعنى، لأَن المراد: كأَن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة، ولا توجد ـ فيما علمتُ ـ إلا مقترنة بهذا المعنى، وأَما قول الشاعر:

غَنِينَـا زَمـانـاً بـالتَّصَعْلُـك والْغِنَـى وَكُـلاًّ سَقَـانَـاهُ بِكـاسِهِمَـا الـدَّهْـرُ(٥)

= التي لم تُمَس قط، وقيل: هي الحَيِيَّةُ، الطويلة السكوت، الخافضة الصوت، المتستِّرَة، والخاذل والخذول من الظباءِ: التي تخذل صاحباتها وتتركهن في المرعى وتنفرد بنفسها، وهذا الجمع على (خِذالٍ) غير مقيس. وقيل: هو على القلب، فهي المخذولة التي تركها القطيع وحدها وليست هي الخاذلة. ومنه قول طرفة:

خـذولٌ تـراعـي ربْـرَبـاً بخميلـةٍ تَنـاوَلُ أطْـرَافَ البَـريـر وتَـرتـدي

(١) البيت لَعبيد بن الأبرص، والرواية في ديوانه: (أَصْحَابُك) بدلاً من (جيرانُك)، و(بأسباب الوصال) بدلا من (بعَهْدٍ ووصال)، وفي الخزانة أنه من شواهد النحويين، إذ استدل به الخليل على أن حرف التعريف هو (أَلْ) لا (اللام) وحدها، لأنه فصلها عن المعرف، ولو كانت اللام وحدها هي حرف التعريف لما جاز فصلها لا سيما واللام ساكنة، و(المُمْسِكو) أصلها (المُمْسكون)، قال ابن جني: «أراد المُمْسِكون ولكنه حذف النون لطول الاسم لا للإضافة».

(٢) هذا صدر البيت، وهو بتمامه:

ألا حَـيِّ مِـنْ أجْـلِ الْحَبيـبِ الْمَغَـانِيَـا لَبِسْـنَ الْبِلَـى مِمَّـا لَبِسْـنَ اللَّيَـالِيَـا

(٣) مُهَلْهِل: امرؤُ القيس بن ربيعة، أبو ليلى، وهو خال امرىءِ القيس، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر أي رققه وزينه. ويفهم من كلام ابن عطية أن (غنيت) هنا بمعنى الإقامة في تنعم، أو بمعنى الاستغناء عن غيرها، لكن في (تاج العروس) وفي (اللسان) أن (غنِي) هنا بمعنى (كان) وأن (دار) اسمها و(تِهَامَةَ) خبرها، وهي بالنصب لذلك.

(٤) يونس: ٢٤.

(٥) هذا البيت لحاتم الطائي، لكن الرواية في الديوان تجعله ضمن أبيات كالآتي:

غَنِينَـا زمـانـاً بـالتَّصَعْلُـكِ والغِنـى كما الـدَّهْـرُ في أَيَّـامِـهِ الْعُسْـرُ واليُسْـرُ
كَسِبْنَـا صُـروفَ الـدَّهْـر لِينـاً وغِلْظَـةً كُـلاًّ سَقـانَـا بِكَـأْسَيْهِمَـا الـدَّهْـرُ =

فمعناه: استغنينا بذلك ورضيناه، مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة بمكان.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ إلى آخر الآية كلام يقتضي أن شُعيباً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أَمله فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التَّسَلِّي عنهم والقسوة عليهم، فجعل يُعَدِّدُ عليهم معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به ألاَّ يتأَسف عليهم، فذكر أنه بلَّغ الرسالة ونصَحَ. والمعنى: فأَعرضوا وكذَّبوا، ثمَّ قال لنفسه لما نظَرَتْ في هذا وفكرت فيه: فكيف آسَى على هؤُلاءِ الكفرة؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ لأهل قليب بدر[1]، وقال مكي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أَن ماتوا بها.

و [آسَى]: أحزن. وقرأ ابن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأَعمش: [إيسى] بكسر الهمزة وهي لغة، كما يقال: إخال وإيمن قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لا إخاله، وقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن عمر في كتاب الحج: لا إيمن، وجميع ذلك في البخاري، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث: همزة التكلم ونون الجماعة وتاءِ المخاطبة. ولا يجوز ذلك في ياءِ الغائب، كذا قال سيبويه، وأما قولهم مِنْ (وَجِل): يِيجَل فَلَعلَّه من غير هذا الباب.

= فَمَــا زَادَنَــا بَغْيــاً علَــى ذي قَــرَابَــةٍ ... غِنَــانَــا ولا أزرَى بِــأحْسَــابِنَــا الفَقْــرُ

ومن هذه القصيدة البيت المشهور:

أمَــــاويَّ إنَّ المـــالَ غـــادٍ ورائـــحٌ ... ويبقى منَ المـالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

ويروي البيت موضع الاستشهاد: (عنينا) بالعيْن المهملة بدلا من (غَنِينا). وفي (اللسان): و«غني القومُ بالدار غِنىً: أقاموا وتقول: غَنِيَ بالمكان يغْنى، والمغْنى: المنزل الذي غَنِي به أهْلُهُ».

(١) حديث النبي لأهل قليب بدر رواه البخاري عن أبي طلحة ـ وهو حديث طويل ـ وفيه أن النبي ﷺ قام على شفة الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.



فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ من الآية ١٠٢ ... ٥

ـ قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ... ﴾ إلى آخر الآية ١٠٢ . ١٣

ـ قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ... ﴾ إلى آخر الآية ١٠٤ .. ١٤

ـ قوله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ... ﴾ إلى آخر الآية ١٠٧ ..... ١٥

ـ قوله عز وجل: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١١٠ .... ١٩

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ... ﴾ إلى آخر الآية ١١٣ .... ٢١

ـ قوله عز وجل: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ... ﴾ إلى آخر الآية ١١٦ ... ٢٢

ـ قوله عز وجل: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا... ﴾ إلى آخر الآية ١١٨ .... ٢٣

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٢ ... ٢٥

ـ قوله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٥ .... ٢٨

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٧ .... ٣٢

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا... ﴾ إلى آخر الآية ١٢٩ ..... ٣٤

ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٣ ٤٠

ـ قوله عز وجل: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٥ ...... ٤١

ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٣٧ ...... ٤٤

ـ قوله عز وجل: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٠ ..... ٤٦

ـ قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ... ﴾ إلى آخر الآية ١٤٣ .... ٤٨



ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٤٧ . . . . ٥١
ـ قوله عز وجل: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٥١ . ٥٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٥٣ . . ٥٦
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٥٦ . . . . . . ٥٨
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٥٩ . . . . ٦٠
ـ قوله عز وجل: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٦٢ . . . ٦٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٦٤ . . . . ٦٧
ـ قوله عز وجل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٦٩ . . . . ٧٠
ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ . . . ﴾ من الآية ١٧١ . . . . ٧٢
ـ قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ من الآية ١٧٣ . . . . ٧٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٧٥ . ٧٥
ـ قوله عز وجل: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ١٧٦ ٧٦

تفسير سورة المائدة

ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ من الآية ٢ . . . . ٨١
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ من الآية ٣ . . . . ٩٠
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الآية ٤ . . . . ٩٩
ـ قوله عز وجل: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ٥ . ١٠٩
ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ . . . ﴾ إلى آخر الآية ٦ ١١٢

ـ قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١١ .... ١٢٣
ـ قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر الآية ١٢ .... ١٢٦
ـ قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ...﴾ إلى آخر الآية ١٣ .... ١٢٩
ـ قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ من الآية ١٥ .... ١٣١
ـ قوله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ...﴾ إلى آخر الآية ١٧ .... ١٣٣
ـ قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ إلى آخر الآية ١٩ .... ١٣٤
ـ قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ...﴾ إلى آخر الآية ٢٢ .... ١٣٦
ـ قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ...﴾ إلى آخر الآية ٢٦ .... ١٣٨
ـ قوله عز وجل: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ إلى آخر الآية ٢٩ .... ١٤٤
ـ قوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ...﴾ إلى آخر الآية ٣١ .... ١٤٧
ـ قوله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر الآية ٣٢ .... ١٥٠
ـ قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى آخر الآية ٣٤ .... ١٥٣
ـ قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ إلى آخر الآية ٣٧ .... ١٥٩
ـ قوله عز وجل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ إلى آخر الآية ٣٨ .... ١٦٠
ـ قوله عز وجل: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ إلى قوله ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ من الآية ٤١ .... ١٦٤
ـ قوله عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٤٢ .... ١٦٩
ـ قوله عز وجل: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا...﴾ إلى آخر الآية ٤٤ .... ١٧٣
ـ قوله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ إلى آخر الآية ٤٥ .... ١٧٧
ـ قوله عز وجل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ من الآية ٤٨ .... ١٨١



ـ قوله عز وجل: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... ﴾ إلى آخر الآية ٤٨ .... ١٨٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... ﴾ إلى آخر الآية ٥٠ ..... ١٨٦
ـ قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ... ﴾ إلى آخر الآية ٥٢ .... ١٨٩
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ... ﴾ إلى آخر الآية ٥٤ .... ١٩٣
ـ قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... ﴾ إلى آخر الآية ٥٧ ...... ١٩٧
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا... ﴾ إلى آخر الآية ٦٠ .. ٢٠٠
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا... ﴾ إلى آخر الآية ٦٤ .... ٢٠٩
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟... ﴾ إلى آخر الآية ٦٨ . ٢١٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟... ﴾ إلى آخر الآية ٧٠ ..... ٢١٩
ـ قوله عز وجل: ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ... ﴾ إلى آخر الآية ٧٢ .... ٢٢١
ـ قوله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ... ﴾ إلى آخر الآية ٧٥ .... ٢٢٤
ـ قوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا... ﴾ إلى آخر الآية ٧٨ .... ٢٢٦
ـ قوله عز وجل: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ... ﴾ إلى آخر الآية ٨١ .... ٢٢٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟... ﴾ إلى آخر الآية ٨٣ .... ٢٣٠
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ إلى آخر الآية ٨٧ ..... ٢٣٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ إلى آخر الآية ٨٩ .... ٢٣٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ إلى آخر الآية ٩٢ ...... ٢٤٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ﴾ إلى آخر الآية ٩٤ . ٢٤٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ إلى آخر الآية ٩٥ .... ٢٥٣
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ إلى آخر الآية ٩٨ ٢٦٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٢ .... ٢٦٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٥ .... ٢٧٥
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٧ .... ٢٨١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٩ .... ٢٩٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ إلى آخر الآية ١١٠ .... ٢٩٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ إلى آخر الآية ١١٣ .... ٢٩٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى آخر الآية ١١٥ .... ٣٠١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ إلى آخر الآية ١١٧ .... ٣٠٣
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إلى آخر الآية ١٢٠ .... ٣٠٥

تفسير سورة الأنعام

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ﴾ إلى آخر الآية ٢ .... ٣٠٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٥ .... ٣١٣
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى آخر الآية ٦ .... ٣١٥
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ إلى آخر الآية ٩ ... ٣١٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ إلى آخر الآية ١١ .... ٣١٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ إلى آخر الآية١٣ .... ٣١٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى آخر الآية ١٦ ... ٣٢٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى آخر الآية ١٨ ٣٢٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ١٩ . . . ٣٢٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ إلى آخر الآية ٢١ ٣٣٢

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ إلى آخر الآية ٢٤ . . . . ٣٣٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ إلى آخر الآية ٢٥ . . ٣٣٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٢٧ . . . . ٣٣٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ إلى آخر الآية ٣٠ . . . . ٣٤٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ٣١ . . . . ٣٤٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٣٣ . . . . ٣٤٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ ﴾ إلى آخر الآية ٣٥ ٣٥٢

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٣٨ . . . . ٣٥٥

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ إلى آخر الآية ٤١ . . ٣٥٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٤٥ . . . . ٣٦١

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ إلى آخر الآية ٤٩ . . . . ٣٦٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ٥١ . . . . . . ٣٦٥

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ إلى آخر الآية ٥٣ . . . . ٣٦٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ٥٥ . . . . ٣٧٠

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ٥٨ . ٣٧٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى آخر الآية ٦٠ . . . ٣٧٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ٦٢ .... ٣٧٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ إلى آخر الآية ٦٤ .... ٣٨٠
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾
إلى آخر الآية ٦٧ .... ٣٨٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ
غَيْرِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ٦٩ .... ٣٨٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ﴾
﴿ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية ٧٠ .... ٣٨٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ٧١ .... ٣٨٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ إلى آخر
الآية ٧٣ .... ٣٩٣
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ إلى آخر الآية ٧٥ .... ٣٩٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ إلى آخر الآية ٧٧ .... ٤٠١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ إلى آخر الآية ٨٠ .... ٤٠٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ إلى آخر الآية ٨٣ .... ٤٠٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن
قَبْلُ ﴾ إلى آخر الآية ٨٦ .... ٤٠٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى آخر الآية ٩٠ .... ٤١١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ إلى آخر
الآية ٩١ .... ٤١٥
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية ٩٢ .... ٤١٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾
إلى آخر الآية ٩٣ .... ٤١٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إلى آخر الآية ٩٤ .... ٤٢١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ إلى آخر الآية ٩٦ .... ٤٢٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إلى آخر الآية ٩٨ .... ٤٢٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ إلى آخر الآية ٩٩ .... ٤٢٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٢ .... ٤٣١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٥ .... ٤٣٣
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى آخر الآية ١٠٨ .... ٤٣٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ إلى آخر الآية ١١٠ .... ٤٣٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ﴾ إلى آخر الآية ١١٢ ٤٤٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ إلى آخر الآية ١١٤ .... ٤٤٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إلى آخر الآية ١١٧ .... ٤٤٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى آخر الآية ١١٩ .... ٤٤٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ إلى آخر الآية ١٢١ .... ٤٥٠
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية ١٢٣ .... ٤٥٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ١٢٥ .... ٤٥٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ إلى آخر الآية ١٢٩ .... ٤٥٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ إلى آخر الآية ١٣٢ .... ٤٦٢

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ إلى آخر الآية ١٣٥ .... ٤٦٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآية ١٣٦ .... ٤٦٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ إلى آخر الآية ١٣٧ .... ٤٦٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية١٣٨ .... ٤٧٠

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ إلى آخر الآية ١٣٩ .... ٤٧١

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى آخر الآية ١٤١ .... ٤٧٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ١٤٣ .... ٤٧٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ إلى آخر الآية ١٤٥ .... ٤٧٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ إلى آخر الآية ١٤٦ ٤٨٢

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ إلى آخر الآية ١٤٨ .... ٤٨٥

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى آخر الآية ١٥٠ .... ٤٨٨

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ إلى آخر الآية ١٥١ .... ٤٨٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ إلى آخر الآية ١٥٢ .... ٤٩٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ إلى آخر الآية ١٥٣ .... ٤٩٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى آخر الآية ١٥٤ .... ٤٩٥
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى آخر الآية ١٥٧ .... ٤٩٦
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية ١٥٨ .... ٤٩٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية ١٦٠ .... ٥٠١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى آخر الآية ١٦٣ .... ٥٠٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ إلى آخر الآية ١٦٥ .... ٥٠٧

تفسير سورة الأعراف

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾ إلى آخر الآية ٣ .... ٥٠٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ إلى آخر الآية ٧ .... ٥١١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى آخر الآية ٩ .... ٥١٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إلى آخر الآية ١١ .... ٥١٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ إلى آخر الآية ١٦ .... ٥٢١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إلى آخر الآية ١٨ .... ٥٢٥

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ إلى آخر الآية ١٩ .... ٥٢٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ إلى آخر الآية ٢١ .... ٥٣١
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ إلى آخر الآية ٢٣ .... ٥٣٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ إلى آخر الآية ٢٦ .... ٥٣٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ إلى آخر الآية ٢٨ .... ٥٤٤
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ إلى آخر الآية ٣٠ .... ٥٤٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ إلى آخر الآية ٣٢ .... ٥٤٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ إلى آخر الآية ٣٦ .... ٥٥٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ ﴾ إلى آخر الآية ٣٧ .... ٥٥٧
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ ﴾ إلى آخر الآية ٣٩ .... ٥٥٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ إلى آخر الآية ٤٢ .... ٥٦٢
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ إلى آخر الآية ٤٣ .... ٥٦٥
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا ﴾ إلى آخر الآية ٤٥ .... ٥٦٨
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ ﴾ إلى آخر الآية ٤٨ ٥٦٩
قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٥٢ .... ٥٧٣



قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ إلى آخر الآية ٥٤ .... ٥٧٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ إلى آخر الآية ٥٦ .... ٥٨٠

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ٥٨ .... ٥٨٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ إلى آخر الآية ٦٢ .... ٥٩٠

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٦٤ .... ٥٩٢

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى آخر الآية ٦٨ .... ٥٩٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ إلى آخر الآية ٧٠ .... ٥٩٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ إلى آخر الآية ٧٣ ... ٥٩٨

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآية ٧٦ .... ٦٠٣

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ إلى آخر الآية ٧٩ ..... ٦٠٤

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى آخر الآية ٨٤ .... ٦٠٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ إلى آخر الآية ٨٦ .... ٦٠٩

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ٨٩ .... ٦١٢

قوله عزَّ وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾ إلى آخر الآية ٩٣ . ٦١٦

فهرس الموضوعات ٦٢١

* * *

المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدراية وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.

* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.

* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.

* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.

* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

